الخريطة الإيمانية

قواعد السلوك ومنازل السير إلى ملك الملوك

إعداد فريق من الباحثين

بإشراف ومشاركة
الأستاذ الدكتور مصطفى مخدوم



دار طيبة

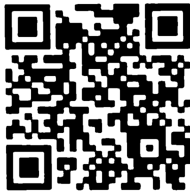
الخريطة الإيمانية

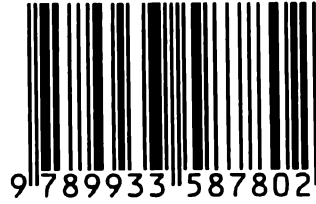
قواعد السلوك ومنازل السير إلى ملك الملوك

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
2024م/ 1445هـ

يمكنكم طلب الكتب
من متجرنا الإلكتروني









مركز البصيرة
للبحوث والتدريب والترجمة
BASEERA CENTER
FOR RESEARCH, TRAINING AND TRANSLATION

دار طيبة
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق
00963 11 225 76 60
00963 944 977 222

بيروت
00961 7883 54 86

استانبول
0090 539 607 75 14

@taibadamas
info@taibadamas com
taibadamascus
taibadamas@gmail.com
www.taibadamas.com

مركز البصيرة للبحوث والتدريب والترجمة
الموقع
www.albaseeracenter.com
البريد الإلكتروني
info@albaseeracenter.com
رقم الجوال: 80 65 286 507 90+
albaseeracenter

الخريطة الإيمانية

قواعد السلوك ومنازل السير إلى ملك الملوك

إعداد فريق من الباحثين

بإشراف ومشاركة

الأستاذ الدكتور مصطفى مخدوم

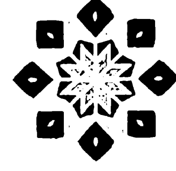




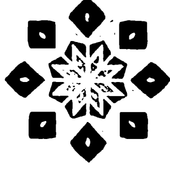
الخريطة الإيمانية



مركز البصيرة
للبحوث والتدريب والترجمة
BASEERA CENTER
FOR RESEARCH, TRAINING AND TRANSLATION



مقدمة الكتاب



لَكَ الحمدُ يا مَن تَنَزَّهَتْ ذاتُك عن الأشباه، وجَلَّتْ صفاتُك عنِ الاشتِباه، فكُلُّ ما في الكون ناطقٌ بتَسبيحِك، ومُقِرٌّ بتَمْجيدك، وخاضعٌ لِمُلْكِك وتقديرِك، لا يخرج شيءٌ عن حُكْمك، ولا يَقع حادثٌ إلَّا بأمرك، فأنت الفَعَّال لما تريد.

سبحانك أرسلتَ إلينا خيرَ رسول، وأنزلت علينا خيرَ كتاب، وهدَيْتَنا لِأكمل الأديان، فصَلِّ اللهم علىٰ أكمَل إنسان، صادقِ اللسانِ وطاهر الجَنان، وعلىٰ آله وصحبه أهل الفضل والإيمان، وبعد:

فإن أعظم هدفٍ في حياة المسلم هو الوصول إلى الله ونيل رضاه، والتشرُّف بمعرفته، والأُنْس بذِكْره، والفرح بولايته، فإنه سبحانه أعظَمُ مطلوب، وأشرف مرغوب، مَن عَرَفه استغنىٰ عن كل شيء، ومن انتسب إليه اسْتَعَزّ علىٰ كل شيء.

كل الناس يَسعَون لأهدافٍ تليق بمعادنهم، وتتناسب بهمتهم؛ ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، لكنّ أهلَ السعادة يَسْعَون لهدفِ الوصول إليه، ويَفِرُّون مِن كل شيء إليه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، حيث يجدون عنده الأمْن والإيمان، والأُنْس والرضوان، فيَهُون عليهم كلُّ فائت، ويَسْهُل عليهم كل بلاء.

مِن كلِّ شيءٍ إذا ضَيَّعْتَه عِوَضٌ ... وما مِن الله إن ضَيَّعْتَه عِوَضُ(١)

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (٢/ ١١٦٩).

وفي الكتب السابقة: «ابن آدم، اطلُبني تَجِدْني، فإنْ وَجَدتَّني وجَدتَّ كلَّ شيء، وإنْ فُتُّكَ فاتَك كلُّ شيء، وأنا أَحَبُّ إليك مِن كلِّ شيء»[1]، وكما قال أبو الفتح البستي:

وكُلُّ كسْرٍ فإنَّ الله يَجْبُرُهُ ... وما لِكَسْرِ قناةِ الدينِ جُبرانُ[2]

قال ابن القيم ﷺ: «فالله سبحانه يُعَوِّض عن كلِّ شيءٍ سواه، ولا يُعَوِّض منه شيء، ويُغْني عن كلِّ شيءٍ، ولا يُغْني عنه شيء، ويُجيرُ مِن كلِّ شيء، ولا يُجِير منه شيء، ويَمْنَع مِن كلِّ شيء، ولا يَمْنَع منه شيء، كيف يَستغني العبدُ عن طاعةِ مَن هذا شأنُه طرفةَ عين! وكيف ينسىٰ ذِكْرَه ويُضَيِّع أمْرَه!...»[3].

❁ **مفهوم الوصول إلى الله:**

والوصول إلى الله لا يكون بقطع المسافات بسَير الأقدام، ولكنه يكون بسَير القلوب إلىٰ حضرة علَّام الغيوب، وهو سَيرٌ معنويٌّ وليس سَيرًا حِسِّيًّا، وهو المدلول عليه بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

والوصول إلى الله هو الوصول إلى العلم بالله ومعرفته، والواصلُ إليه يُسمِّيه علماء السلوك عارفًا، قال ابن عطاء ﷺ: «وصولُك إلى الله وصولُك إلى العلم به، وإلا فَجَلَّ ربُّنا أن يَتَّصل به شيء، أو يتَّصِل هو بشيء»[4].

والوصول إلى الله لا يكون إلا بالله، بعونه وتوفيقه، وليس بحَول الإنسان ولا قوته الذاتية:

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية (١/ ١٥٩).

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي (٥/ ٢٩٤).

(٣) الداء والدواء لابن القيم (١/ ١٧٤).

(٤) الحكم العطائية (ص: ٩٦).

إذا لم يكن عَونٌ مِنَ الله لِلفتى فأوَّلُ ما يَجني عليهِ اجتهادُه[1]

إن أعظم أهداف المؤمنين، وغاياتهم الكبرىٰ هي الوصول إلى الله تعالىٰ بمعرفته معرفة كاملة راسخة في القلب، بحيث تُفضي إلىٰ مرضاة الله تعالىٰ، كما قال موسىٰ ﷺ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقال ﷺ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقوافل المؤمنين في عبادتهم وإنفاقهم وجهادهم إنما يفعلون ذلك طلبًا لمرضاة الله تعالىٰ؛ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

فالوصول إلى الله هو الوصول إلىٰ مرضاته ورحمته، بحيث لا يسخط علينا بعده أبدًا، وهو أعظم مطلوب، وأكبر مقصود، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، يعني رضوان الله عنكم أكبر من كل ما ذكر في الجنات، وهي خاتمة الإكرام الإلهي، حيث يقول عند التجَلّي لأهل الجنة: «أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[2].

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي (١/ ١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١٤) برقم: (٦٥٤٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٤) برقم: (٢٨٢٩).

والتنكير في قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ يدل على التعظيم، وأن أقل جزءٍ من رضوانه أعظم من الجنات، مع ما في صيغة «فعلان» من الدلالة على القوة والكثرة؛ كالغفران والشكران.

فرضوان الله هو أصل الخيرات، وإنما كان أكبر لأن السعادة الروحية أعظم من اللذات الجسدية، ولأن الرضا صفة الله تعالىٰ، والجنات خلقه، وصفاته أعظم من مخلوقاته، وهي البشارة التي يبشرهم بها ربهم، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

❁ **تأسيس البناء التربوي علىٰ هٰذا المطلوب:**

ولا بد لكل عاقل يريد بناء شخصيته وتربية نفسه أن يقيم صرح ذٰلك علىٰ هٰذا المعنىٰ، وهو طلب رضوان الله والوصول إلىٰ هٰذا الهدف، وكل منهج تربوي لا يقوم علىٰ هٰذا المقصود والأساس فهو بناء ينهار في أول تجربة دنيوية فضلًا عن الآخرة، ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ولقد تطورت الحياة المادية في عصرنا، وحدثت نقلة نوعية في جوانب الحياة الإنسانية، ولٰكن هٰذا التطور رافقه خواء روحي، وقسوة قلبية نجد آثارها في سلوك كثير من الناس وأفكارهم.

وقد ابتعد كثير من الناس -بسبب هٰذه الصبغة المادية لعصرنا- عن المعاني القلبية والروحية، وأخلد الكثير إلى الأرض، وطافوا حول الشهوات والشبهات، وقست القلوب حتىٰ حجبها غطاء الغفلة وحجاب البُعْد عن الله تعالىٰ، فصار مِن أولويات الإصلاح التركيز علىٰ إحياء القلوب ومعالجة أمراضها.

ولكل عصر لغته التي يمتاز بها عن العصور السابقة، وتفكيره الذي يفارق فيه غيره، فكان لزامًا علينا أن نخاطب أهل العصر بأسلوبهم الذي يفهمونه، مع أن المضمون مستفاد من أنوار الوحي وكلمات السابقين، وهٰذا أَوْجَب علينا إعادة صياغة المعاني بأسلوب سهل، يُقرِّب المعاني الإيمانية.

۞ التدين الحقيقي هو ما نبع من القلب:

والتدين ليس مجرد مظاهر وشكليات، ومجرد لباسٍ وهيئة، وإنما هو ما نبع من القلب وصدَّقه القول والعمل.

وقد ذكره الحديث الشريف: «التقوىٰ ههنا»، وأشار إلىٰ صدره الشريف ثلاث مرات(1).

والتقوىٰ شرط من شروط الولاية، كما قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فالتدين والسلوك والتصوف ليس في الصورة والظاهر باللحية الطويلة والثوب القصير ولبس المرقعات، «فكم من صدِّيقٍ في قَبَاء، وكم من زنديقٍ في عباء!»(2).

۞ مفهوم السلوك إلى الله:

ولقد ورد معنى السلوك إلى الله -وهو الانتقال من ميدان المعصية إلىٰ ميدان الطاعة، ومن ميادين الغفلة إلىٰ ميدان اليقظة- تحت عبارات مختلفة؛ منها:

١. **الفرار إلى الله:** ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فإن الفرار إلى الله ليس بالجسد، ولٰكنه بالقلب والجوارح.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٠) برقم: (٢٥٦٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١١/ ١٩٤).

٢. التنافس: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

٣. التوبة والإنابة: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

٤. السبق إلى الله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠].

٥. وقد يعبر عن السلوك إلى الله بالهجرة: كما فعل العلامة ابن القيم ﵀، فألف كتابه (طريق الهجرتين)، وعقد فصلًا في بعض كتبه بعنوان: «فصل في الهجرة إلى الله ورسوله»، وقال فيه: «الهجرة هجرتان: هجرة بالجسم من بلد إلىٰ بلد، وهٰذه أحكامها معلومة، وليس المرادُ الكلامَ فيها. والهجرة الثانية: هجرةٌ بالقلب إلى الله ورسوله، وهٰذه هي المقصودة هنا، وهٰذه الهجرةُ هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسدِ تابعةٌ لها، وهي هجرة تتضمنُ «من» و«إلىٰ»، فيهاجرُ بقلبه من محبة غير الله إلىٰ محبته، ومن عبوديةِ غيره إلىٰ عبوديته، ومن خوفِ غيرِه ورجائِه والتوكلِ عليه إلىٰ خوفِ الله ورجائِه والتوكلِ عليه... وهٰذا هو بعينه معنى الفرار إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه»[1].

٦. وقد يعبر عنه بالتصوف: ولا مشاحة في الاصطلاح ما دام المعنىٰ صحيحًا ثابتًا.

وقد كتب الشيخ عماد الدين الواسطي ﵀ المعروف بشيخ الحزاميين رسالة في بيان السلوك، وقال: «وبعد، فالإنسان السالك في طريق الله تعالىٰ يتوب إلىٰ ربه ويعكف علىٰ إرادته وطلب مرضاته وطاعته، ويتلبس بوظائف طاعته ويستمع

(١) زاد المهاجر إلىٰ ربه لابن القيم (١/ ١٦).

إلىٰ كتابه وسنة رسوله وسيرته، ويتفكر في مصنوعات ربه وأفعاله في بريته، فلا يزال كذٰلك حتىٰ يبدو شواهد معرفته وآثار صفاته وأسمائه، حتىٰ يستقر المشاهد في مقابلة بصيرة قلبه، وينصبغ بآثارها صبغة ملازمة لذاته وحقيقته.

فمتىٰ وصل إلىٰ ذٰلك فليعلم أنه قطع نصف الطريق، وبقي النصف الآخر، وهو: حصول محبة ربه لعبده، واصطناعه له من بين خلقه»[1].

فهو يبين معنى السلوك إلى الله بانطلاقة قلبية، تبدأ من الندم والتوبة، ثم تقترن بالقربات والطاعات القلبية والجارحية، ويستمر في هٰذا الطريق حتىٰ ينصبغ السالك بهٰذه المعاني، وتكون صفةً ملازمةً له، تنتهي بالاصطفاء الإلهي، والولاية والقرب، وذٰلك مصداقًا للحديث القدسي الذي ذكره بعد ذٰلك، وهو: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته...»[2].

وصرّح بأن القرب الذي يناله السائر إلى الله ليس قرب مسافة ومماسّة، وإنما المراد قرب معنوي شعوري قلبي، وليس بالصورة والرسم، وجعل طلب المحبة من الله هو نهاية السلوك وسرّه.

۞ طريق الإرادة أو طريق المعرفة:

ويسمىٰ طريق السلوك طريق الإرادة؛ لأنها مبنية علىٰ قوة الإرادة والعزيمة، ويسمىٰ طريق المعرفة؛ لأن ثمرة السير في هٰذا الطريق أن ينال معرفة الله معرفةً حقيقية، ولذا سمى الصوفيةُ السائرَ في هٰذا الطريق بالمريد، وسموا الواصل بالعارف.

---

(١) السلوك (٢/ ٦٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

۞ شرف السلوك إلى الله:

وشرف السير والسلوك بشرف المراد والمقصود؛ فمن سافر لملاقاة الملك ليس كمن سافر لملاقاة مملوك، ومن سافر للطواف بالكعبة ليس كمن سافر للطواف بالكَعاب، ومن سافر للجهاد ليس كمن سافر لنزهة، وتشرف الوسائل بشرف المقاصد والغايات.

ويمكن اعتبار علم السلوك نصف الدين باعتبار، وثلث الدين باعتبار آخر، فهو نصف الدين لأن الدين إما معاملة مع الحق، أو معاملة مع الخلق، وعلم السلوك يتعلق بمعاملة الحق سبحانه.

وهو ثلث الدين باعتبار حديث جبريل وما فيه من تقسيم الدين إلىٰ: إيمان، وإسلام، وإحسان، وعلم السلوك متعلق بالإحسان.

ومقام الإحسان حدَّده النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]. فجعله مرتبتين:

الأولىٰ: مرتبة المشاهدة وعين اليقين، «كأنك تراه».

الثانية: مرتبة المراقبة واستحضار مشاهدة الله للعبد.

والثانية وسيلة للأولىٰ، والأولىٰ هي رتبة السابقين والعارفين، وتدور حول شهود البصيرة، حتىٰ يكون الغيب كالشهادة.

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله:

وثالــــثٌ مرتبــــةُ الإحســـــانِ … وتلـك أعلاهـا لـدى الرحمـٰنِ
وهي رسوخ القلب في العرفانِ … حتـىٰ يكـون الغَيـبُ كالعِيـانِ[2]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٢٨) برقم: (٨).
(٢) ينظر: قواعد التصوف لزروق (ص: ١١٠).

الإنسان مسافر في الدنيا:

جاء عن عبد الله بن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ اضطجع على حصير، فأثر الحصير بجلده، فجعلت أمسحه عنه وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ألا آذَنْتنا فنبسط لك شيئًا -وفي رواية: وِطاء- يقيك منه تنام عليه؟ فقال: «ما لي وللدنيا!! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[1]، فشبه نفسه في الدنيا وتعامله مع نعيمها ولذاتها براكب مسافر نزل تحت شجرة للانتفاع من ظلها حتى يذهب عنه العناء والحَرّ، ثم ركب راحلته وأكمل سيره إلى المكان المقصود.

وكان ﷺ مستحضرًا في هذا الموقف لمقام الزهد في الدنيا ومشاهدة الآخرة، فاختار الكفاية بالأدنى، كما هو حال المسافر في طريقه لا يختار التوسع والانبساط في الراحة والنعيم.

وهكذا رسوخ السائرين في مقامات السير يظهر أثره في العمل والسلوك ومنهج التعامل مع الأشياء.

والإنسان في سفره للآخرة وسيره في طريق الله يتردد بين التقدم أو التأخر، والزيادة أو النقصان، ولا توقف في هذا الطريق؛ لأن الواقف متأخر بالنسبة للسائرين، وناقص بالنسبة للمستزيدين، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

قال ابن القيم: «لله على العبد في كل وقت عبودية، والعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق ألبتة»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٨٦) برقم: (٢٣٧٧)، وقال: حسن صحيح؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٢٩) برقم: (٤١٠٩).

(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٨٠).

وقال علي ﷺ: «من استوىٰ يوماه فهو مغبون، ومن لم يكن على الزيادة فهو في النقصان»[1].

ومن سمات السير إلى الله تعالىٰ أنه سفر مأمون العواقب ما دام صاحبه صادقًا فلا يخسر أبدًا، ولا يفشل في سعيه، ولا يخيب في عمله؛ لأن المقصود بصير، والمراد خبير، جواد كريم، لا يخسر من شاركه في تجارته، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، بل ربحك مع الله مضاعف أضعافًا كثيرة؛ «فمن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا...»[2].

مع أن السير والسفر الحسي في الدنيا غير مأمون النتائج والعوارض، فكم من مسافر لم يصل إلىٰ مراده، وانقطعت به السبل، وصرفته الصوارف!

۞ جهود العلماء في تدوين منازل السلوك وقواعده:

لقد تكلم السابقون بكلمات مباركات في السلوك إلى الله، كانت بمثابة المعالم والقواعد التي تنير طريق السير إلىٰ رب العالمين، فنجد ذٰلك في كلام الزهاد الأوائل؛ من أمثال: الحسن البصري، وسفيان الثوري، وبشر الحافي، ويحيى بن معاذ، والجنيد، وقد ذكرها العلماء في كتب السلوك، وفي كتب التراجم.

وجاء بعدهم علماء، منهم من قعَّد هٰذه الأصول في سياق المراجعة والنقد الذاتي، ومنهم من ذكرها في سياق النقد لتيار التصوف؛ كابن الجوزي في (تلبيس إبليس).

---

(١) يروىٰ مرفوعًا، ولا يصح، قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٣٣): «رواه الديلمي بسند ضعيف عن علي مرفوعًا».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩١) برقم: (٢٦٧٥).

ومن أبرز العلماء والزهاد الذين دونوا في قواعد السلوك:

(١) عماد الدين الواسطي رحمه الله (ت: ٧١١هـ):

فألف كتاب (السلوك قواعد في السير إلى الله تعالى)، وقسّم كتابه إلى ستة أقسام:

الأول: في الكتب. الثاني: في القواعد. الثالث: في الرسائل والمراسلات والمكاتبات. الرابع: في المسائل والجوابات. الخامس: في النصائح والوصايا. السادس: في شرح كلام من المشايخ الذين سلفوا.

وذكر تسعة أصول عليها مدار السلوك، وهي على الترتيب:

الأول: صحة الاعتقاد في جميع ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ. الثاني: اليقظة. الثالث: التوبة. الرابع: المحاسبة. الخامس: الإخلاص. السادس: آداب الصلاة الباطنة، حيث الصلاة هي محك الأحوال والقلوب. السابع: تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ومخالفتها. الثامن: المراقبة. التاسع: المشاهدة وأنواعها.

ثم ذكر فصلًا خصه باللواحق، وذكر تحته عدة فصول:

الأول: حفظ المزاج في جِدّة السير والسلوك، بحيث يكون وسطًا بين الإفراط والتفريط. الثاني: مجانبة صحبة الأحداث. الثالث: مطالعة سنن رسول الله ﷺ. الرابع: أن لا يفوته ورده عند الثلث الآخر. الخامس: دوام الافتقار إلى الله.

ويتحدث في أثناء كتابه عن القواطع والشواغل والآفات التي تعترض السائر إلى الله، وكيفية معالجتها.

ويشدد على ضرورة اتباع السنة وأنها المشرب الوحيد الذي ينبغي للسالك أن يستقي منه في جميع مراحل سيره.

كما ركز علىٰ أهمية الصلاة وضرورة الخشوع فيها للسالك، وعلىٰ أهمية الحضور والفهم للقرآن الكريم عند سماعه، والإعراض عن سماع غيره مما اشتهر عن بعض الصوفية تحت باب السماع.

وذكر أنه لا يكمل سير السائر إلى الله إلا بالعلم، فمن سار بدون أن يتعلم كان سيره ناقصًا، إن لم يكن له شيخ يصحح له سلوكه وسيره، وذكر ميزان الشيوخ، ومن الذي ينبغي اتخاذه مرشدًا، ومن منهم ينبغي الحذر منه.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ (ت: ٧٢٨هـ):

ألّف كتاب (التحفة العراقية في الأعمال القلبية)، وذكر في المقدمة أنها كلمات مختصرات في أعمال القلوب التي تسمى المقامات والأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، والشكر له، والصبر علىٰ حكمه، والخوف منه والرجاء له، وما يتبع ذٰلك.

وصرّح بأن هٰذه الأعمال القلبية واجبة علىٰ جميع الخلق المكلفين باتفاق أئمة الدين، وأن الناس فيها علىٰ ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات[1].

بل جعل أصل الدين هو العلوم والأعمال الباطنة، ولا تنفع الأعمال الظاهرة بدونها، واستشهد بحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»[2].

وله رسائل كثيرة في السلوك بعنوان «قاعدة»، مثل: (قاعدة في المحبة)، و(قاعدة في الرضا)، و(قاعدة في الصبر والشكر)، و(قاعدة في كرامات الأولياء)، و(قاعدة

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

في خوارق العادات)، و(قاعدة في الإخلاص)، و(قاعدة في الفقراء والصوفية)، و(قاعدة في الخلوات)، و(قاعدة في أهل الصفة ومراتبهم وأحوالهم)، و(قاعدة في شيوخ الأحمدية)، و(قاعدة في أمراض القلوب)، و(قاعدة في تزكية النفس)، و(قاعدة في كلام ابن العريف في التصوف)، وله (رسالة العبودية).

(٣) الإمام أبو العباس أحمد البرنسي المالكي الشهير بزروق ﵀ (ت: ٨٩٩هـ):

كتب كتابه المشهور (قواعد التصوف وشواهد التعرف)، وصرح في مقدمته بأن القصد هو تمهيد قواعد التصوف وأصوله على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة...

وسرد في كتابه «٢٢٤» قاعدة، حاول من خلالها ضبط مسيرة السلوك وترشيد التصوف بما يبين حقيقته وبما يضبط مسيرته بهداية الشرع، وهو من العلماء الجامعين بين الفقه والتصوف، وممن وصفه العلماء بأنه من فقهاء الصوفية، أو صوفية الفقهاء.

۞ الخرائط الإيمانية عند السابقين:

المكتبة الإسلامية مليئة بالكتب التي اهتمت بالقضايا الإيمانية والتزكية والسلوك، وقد اطلعنا على خرائط بعض الكتب في هذا المجال، وقمنا بجمع تلك الخرائط، وترتيبها حسب التاريخ، ومنها:

١. كتاب (الرعاية لحقوق الله) للحارث المحاسبي ﵀ (ت: ٢٤٣ هـ):

بدأ الإمام المحاسبي ﵀ كتابه بذكر أبواب متفرقة بلغت واحدًا وأربعين بابًا، ثم أعقب ذلك بذكر ثمانية كتب، تحت كل كتاب مجموعة أبواب، نذكر أسماء أهم هذه المنازل، فمنها:

١. معرفة التقوى
٢. معرفة الورع
٣. محاسبة العبد نفسه في أعماله
٤. ما يبدأ به العبد من العدة للمقام بين يدي الله
٥. وصف منازل المصرين
٦. ما يبعث العبد على التوبة
٧. ما ينال به الخوف من وعيد الله
٨. معرفة التذكر بمعرفة أحواله
٩. معرفة التنبيه التيقظ
١٠. ذم الرياء والعجب
١١. كتاب الكبر
١٢. كتاب الغرة
١٣. كتاب الحسد

٢. كتاب (الرسالة القشيرية) للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله (ت: ٤٦٥هـ):

بعد أن تكلم القشيري في بداية كتابه عن عقيدة أهل التصوف، وذكر جملة من أخبار المشايخ وأحوالهم، وعن المصطلحات الخاصة بهم، شرع في ذكر أبواب شرح المقامات التي هي مدارج أرباب السلوك، وذكر أبوابًا في تفصيل الأحوال، كما سماها، وقد جمعها في ٥٢ بابًا.

وطريقته في كل باب: أن يأتي بدليل على الباب من القرآن إن وُجد، ثم بدليل أو أكثر مِن سنة النبي ﷺ، ثم يُورد تعريفًا للباب، ثم يبدأ بذكر أقوال العلماء، ويُورد بعض الأخبار والقصص المتعلقة بالباب.

وأبرز الأبواب التي ذكرها:

١. التوبة	٢. المجاهدة	٣. التقوى	٤. الورع	٥. الزهد
٦. الخوف	٧. الرجاء	٨. التوكل	٩. الشكر	١٠. اليقين
١١. الصبر	١٢. المراقبة	١٣. الرضا	١٤. العبودية	١٥. الإرادة
١٦. الاستقامة	١٧. الإخلاص	١٨. الصدق	١٩. الحياء	٢٠. الحرية
٢١. الذكر	٢٢. الفتوة	٢٣. الفراسة	٢٤. الغيرة	٢٥. الأدب
٢٦. التوحيد	٢٧. المعرفة بالله	٢٨. المحبة	٢٩. الشوق	

٣. كتاب (الطريق السالم إلى الله) لعبد السيد بن محمد البغدادي المعروف بابن الصباغ ﷺ (ت: ٤٧٧ هـ):

طريقة ابن الصباغ في كتابه شبيهة بطريقة الإمام الغزالي في الإحياء؛ في أنه لم يقتصر علىٰ ذكر المنازل الإيمانية القلبية، وإنما ذكر فيه كثيرًا من مسائل العمل والاعتقاد، إلا أن الغزالي يتميز بترتيب أبواب الإحياء؛ حيث فرق بين أعمال الأبدان وأعمال القلوب، بينما ابن الصباغ لم يفرد أعمال القلوب بباب خاص، وإنما أوردها منثورة ضمن ثنايا أبواب الكتاب، وأورد أكثرها في أواخر الكتاب، إلا أنه ذكرها مع أبواب أخرىٰ لا تعلق لها بأعمال القلوب.

وأما ما يتعلق بالأعمال القلبية: فقد أوردها ضمن أبواب الكتاب، ولم يفرد لها بابًا خاصًا، فتحدث في مقدمة الكتاب عن التفكر، وعن فضل الذكر. وبعد كتاب الصلاة تحدث عن فضيلة الزهد، وعن الصبر والشكر، وعن التوكل، ثم تحدث بعد باب الجهاد عن الخوف والخشية والحزن، وفي آخر الكتاب تحدث عن المحاسبة والتوبة، وعن الإخلاص.

٤ . كتاب (منازل السائرين) لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي ﷺ (ت: ٤٨١ هـ):

قسَّم الإمام الهروي كتابه إلىٰ عشرة أقسام، وجعل تحت كل قسم عشرة أبواب، فالمجموع مائة مقام، وذكر أنه رتبها ترتيبًا يشير إلىٰ تواليها، وأن جميع هٰذه المقامات تجمعها رتب ثلاث: الرتبة الأولىٰ: أخذ القاصد في السير، الرتبة الثانية: دخوله في الغربة، الرتبة الثالثة: حصوله على المشاهدة الجاذبة إلىٰ عين التوحيد في طريق الفناء.

منهجه في الكتاب:

اعتمد الإمام الهروي منهج الاختصار في كتابه، فهو في غالب الأبواب لا يتجاوز كلامه فيها أربعة أو خمسة أسطر، ومنهجه في كل باب: أن يبدأ بذكر آية قرآنية كدليل على الباب، ثم يبين المراد من المقام، وبعد ذلك يذكر درجاته، ويُلاحَظ أنه يذكر لكل باب ثلاث درجات لا يزيد عليها ولا ينقص.

وسأذكر بعض أقسام الكتاب وأبوابه:

قسم البدايات	قسم الأبواب	قسم المعاملات	قسم الأخلاق	قسم الأصول
اليقظة	الخوف	الرعاية	الصبر	القصد
التوبة	الإشفاق	المراقبة	الرضا	العزم
المحاسبة	الخشوع	الإخلاص	الشكر	الإرادة
الإنابة	الإخبات	الاستقامة	الحياء	الأدب
التفكر	الزهد	التوكل	الصدق	اليقين
التذكر	الورع	التفويض	الإيثار	الأُنس
	الرجاء	الثقة	التواضع	الذكر
		التسليم	الفتوّة	الفقر

قسم الأدوية	قسم الأحوال	قسم الولايات	قسم الحقائق	قسم النهايات
الإحسان	المحبة	الصفاء	المكاشفة	المعرفة
العلم	الغيرة	السرور	المشاهدة	التحقيق
الحكمة	الشوق	الغربة	المعاينة	التوحيد
البصيرة		الغيبة		
الفراسة		التمكن		
التعظيم				
السكينة				
الطمأنينة				

وقد قام الإمام ابن القيم بشرح منازل السائرين شرحًا عميقًا موسعًا في كتابه (مدارج السالكين)، لكنه استطرد بذكر قضايا عقدية وفلسفية، وخاض جدالًا ضد المتكلمين والفلاسفة، محله في كتب العقائد والكلام.

٥. كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام أبي حامد الغزالي ﷺ (ت: ٥٠٥هـ):

قسم الإمام الغزالي كتابه إلىٰ أربعة أرباع، وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، ثم جعل تحت كل ربع منها عشرة كتب. وما يهمنا من هٰذه الأرباع مما يتعلق بالتزكية والسلوك والأعمال القلبية فهو موجود في الربعين الأخيرين، أما ربع العبادات وربع العادات فلا علاقة لهما بموضوع التزكية والسلوك بشكل مباشر، عدا كتابين من ربع العبادات، هما: كتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وقد كان ربع المنجيات -وهو الربع الرابع- أكثر الأرباع تعلقًا بالتزكية والسلوك؛ فذكر فيه الغزالي المنازل الآتية: التوبة، والصبر، والشكر، والخوف والرجاء، والزهد، والتوحيد والتوكل، والمحبة، والشوق والأنس، والرضا، والصدق، والإخلاص، والمراقبة والمحاسبة، والتفكر. بينما ذكر في ربع المهلكات آفات النفس، ومن العناوين التي ذكرها في هٰذا الربع مما له تعلق بالتزكية والسلوك: شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس.

٦. كتاب (منارات السائرين ومقامات الطائرين) لأبي بكر عبد الله بن شَاهَاور الرازي ﷺ (ت: ٦٥٤ هـ):

قسم الكتاب إلىٰ عشرة مقامات وأبواب، وأبرز هٰذه الأبواب والمقامات التي لها تعلق بالتربية والسلوك:

مقام المعرفة، ومقام التوحيد، ومقام الإحسان، ومقامات النفس ومعرفتها؛ حيث ذكر فيه آفات النفس وأدويتها، ومقام معرفة القلب، وضمَّنه عدة مقامات، منها: الزهد، والورع، والتوكل، والرضا، واليقين، والصدق، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والمراقبة، والمحاسبة، والذكر، والخلوة. ثم الباب العاشر: في معرفة الروح ومقاماتها، وذكر ضمن مقامات الروح: الاستقامة، والحرية، والفتوة، والمحبة، والمراقبة، والعبودية، والفقر، والتصوف، والأدب، والصحبة، والسماع.

٧. كتاب (بغية السالك في أشرف المسالك) لأبي عبد الله الساحلي المالقي ﷺ (ت: ٧٥٤ هـ):

تكلم المالقي في بداية كتابه عن الذكر ومشروعيته، ثم انتقل إلى الكلام عن المفاهيم التي تنبني عليها التزكية الإيمانية والسلوكية، ورتبها حسب الترتيب الذي ورد في حديث جبريل، فقسمها إلىٰ ثلاث مقامات، هي: الإسلام والإيمان والإحسان، ويشتمل كل مقام من هٰذه المقامات علىٰ ثلاث منازل: البداية، والتمكين، والنهاية، يصل في نهايتها السالك إلى المطلب الأوحد الذي هو معرفة الله.

فالمقامات عنده ثلاثة، والمنازل تسعة، حسب اجتهاده ﷺ، وأرشد في كتابه إلىٰ أهمية توظيف الأذكار في بناء هٰذه المعاني القلبية.

وقد جاءت خارطة الكتاب الإجمالية على الشكل الآتي:

الباب الأول: في الذكر وبيانه باعتبار العامة والخاصة			
الباب الثاني: مقام الإسلام، ومنازله ثلاثة:	١. التوبة	٢. الاستقامة	٣. التقوىٰ
الباب الثالث: مقام الإيمان، ومنازله ثلاثة:	١. الإخلاص	٢. الصدق	٣. الطمأنينة
الباب الرابع: مقام الإحسان، ومنازله ثلاثة:	١. المراقبة	٢. المشاهدة	٣. المعرفة
الباب الخامس: فيما يعرض من العوارض والكرامات			
الباب السادس: جامع لفوائد شتىٰ، وفيه ستة فصول:	١. في سند هٰذا الطريق. ٢. في أحكام المشيخة والتلمذة. ٣. أحكام اجتماعهم على العبادات. ٤. أحكام السماع. ٥. في أذكار وأدعية. ٦. أدعية مختلفة المعاني بحسب أحوال السالكين.		

فهٰذا تعريف ببعض الكتب التي تعرضت لقضية السلوك والسير إلى الله تعالىٰ، لٰكن المتأمل يلحظ فيها بعض الأمور:

أولًا: توسّع بعض المؤلفين في عدد من المقامات على الرغم من تداخلها، وفي ذٰلك تطويل لا حاجة إليه، فكثرة المقامات قد تُحدِث تشويشًا لدى السالك.

ثانيًا: الحاجة إلىٰ إعادة النظر والتدقيق في ترتيب المقامات؛ فترتيبها شيء مهم يُسَهّل على السالك الطريق، ويساعده في معالجة العوارض المترتبة علىٰ كل مرحلة ومقام.

ثالثًا: طريقتهم في الكتابة فيها شيء من الغموض أحيانًا؛ فهناك مصطلحات خاصة بالصوفية، يصعب فهمها على المبتدئ، وقد يؤدي سوء فهمها إلى انحراف في الفكر والسلوك.

رابعًا: الاستطراد في المنازل، وذكر أشياء عملية تتعلق بسلوك الجوارح، وقضايا كلامية فلسفية ليس هٰذا موضعها.

❁ مفهوم (المنازل):

لما كان السلوك سفرًا بالقلب جعلوه كالسفر بالبدن، فيه ديار ومنازل ومراحل ينزل بها كما ينزل المسافر.

وهٰذه منازل للسائرين إلى الله تعالىٰ، وهي منازل يحط فيها القلب رحاله، وينتقل من منزلة إلىٰ أخرىٰ حال سيره إلى الله تعالىٰ.

وهي معالم هادية للسائرين، تأخذ بأيديهم حتىٰ يصلوا إلىٰ أعظم مطلوب؛ كما روىٰ أبو هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ للإسلام صُوًى ومنارًا كمنار الطريق»[1]، والصوىٰ: هي الأعلام المنصوبة في الطريق لهداية المسافرين، واحدتها: صُوَّة، كما قال رؤبة:

إذا جرىٰ بين الفلا رهاؤه   وخشعت من بُعْده أصواؤه

وقال الأصمعي ﵀: «هو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلًا»[2]، وهٰذا المعنىٰ داخل في الأول؛ لأنه عَلَم يرشد المسافر، فهٰذه المنازل بمثابة الصوىٰ والأعلام يهتدي بها السائرون إلى الله والمسافرون إلى الآخرة، يتفيَّؤون في ظلالها وينهلون من مائها، ولا يزالون كذٰلك حتىٰ يصلوا إلىٰ مطلوبهم.

وهٰذه المنازل مثل محطات الوقود للمسافرين؛ يتزودون منها لسفرهم

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٢٠) برقم: (٥٣)، وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري؛ والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٤١) برقم: (٤٢٩).

(٢) ينظر: غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ١٨٣)؛ غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥٢٣).

الطويل، وهي كما يقول الأستاذ عبد المنعم العزّي ﷺ: «منازل طبقيّة، ودرجات صعود، ومدارج انطلاق تتوازىٰ وتتتابع»(١).

ولٰكنها تختلف عن منازل السفر الحِسّيّ؛ بأن المسافر في عالم الأبدان يقطع المنزلة ويفارقها وينتقل إلىٰ منزلة أخرىٰ، فهو مع نزوله في مرحلة يفارق المرحلة السابقة، بخلاف منازل السير في عالم القلوب؛ فإن السالك لا يفارق المقام الأول، ولٰكن يستصحبه معه في المقام الثاني والثالث والأخير.

قال ابن القيم ﷺ: «واعلم أنَّ ترتيبَ هٰذه المقامات ليس باعتبار أنَّ السَّالكَ يقطع المقامَ ويفارقه وينتقل إلى الثّاني، كمنازل السَّير الحسِّيِّ، هٰذا محالٌ، ألا ترىٰ أنَّ اليقظةَ معه في كلِّ مقامٍ لا تفارقه، وكذٰلك البصيرة والإرادة والعزم، وكذٰلك التّوبة، فإنّها كما أنّها من أوّل المقامات فهي آخرها أيضًا، بل هي في كلِّ مقامٍ مستصحَبةٌ، ولهٰذا جعلها الله آخر مقامات خاصّته، فقال تعالىٰ في غزوة تبوك آخرِ الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنِّهايات: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]... وقال في سورة أجَلِ رسول الله ﷺ التي هي آخرُ سورةٍ أُنزلت جميعًا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]... فالتّوبة هي نهايةُ كلِّ سالكٍ وكلِّ وليٍّ لله، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديّته وكذٰلك الصَّبر فإنّه لا ينفكُّ عنه في مقامٍ من المقامات، وإنّما هٰذا التّرتيبُ ترتيبٌ للمشروط المتوقِّفِ علىٰ شرطه المصاحبِ له.

---

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٤/ ٤٢).

مثال ذلك: أنّ الرِّضا مترتِّبٌ على الصّبر، لتوقُّفِ الرِّضا عليه واستحالةِ ثبوته بدونه. فإذا قيل: إنَّ مقامَ الرِّضا ـ أو حالَه على الخلاف بينهم هل هو مقامٌ أو حالٌ؟ ـ بعد مقام الصّبر، لا يُعْنَىٰ به أنّه يفارق الصّبرَ، وينتقل إلى الرِّضا، وإنّما يُعْنَىٰ أنّه لا يحصل له مقام الرِّضا حتّىٰ يتقدَّم له قبله مقامُ الصَّبر. فافهم هٰذا التّرتيب في مقامات العبوديّة»[1].

❁ تفاضل المنازل:

منازل السير متفاوتة في فضلها، ومختلفة في شرفها؛ فبعضها أشرف من بعض وأعلىٰ رتبة من بعضها الآخر، فمنزلة التعظيم والإجلال أعلىٰ رتبة من منزلة الرجاء والخوف، ومنزلة المعرفة والتوحيد أجَلّ من منزلة الأدب، ومنزلة المحبة أعلىٰ من منزلة الذكر، ومنزلة الإحسان أجَلّ من منزلة المحاسبة.

قال العز بن عبد السلام ﷺ: «وأما التفاوت في الأحوال فظاهر؛ فإن مرتبة التعظيم والإجلال أكمل من مرتبة الخوف والرجاء؛ لأن الإعظام والإجلال صدَرَا عن ملاحظة الذات والصفات، فكان لهما شرفان: أحدهما من مصدرهما، والثاني من تعلقهما، وأما الخوف والرجاء؛ فإن الخوف صدَرَ علىٰ ملاحظة العقوبات، والرجاء صدر عن ملاحظة المثوبات، وتعلَّقَا بما صدَرَا عنه، فانْحَطَّا عن التعظيم والإجلال بمرتبتين.

وكذٰلك رتبة المحبة الصادرة عن ملاحظة الإنعام والأفضال منحطة عن رتبة المحبة الصادرة عن ملاحظة الكمال والجمال؛ لصدور تلك المحبة عن ملاحظة الأغيار، وصدور محبة الإجلال عن ملاحظة أوصاف الجمال والكمال.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٥-٢٠٦).

والتعظيم والمهابة أفضل مِن المحبة الصادرة عن معرفة الجلال والجمال؛ لما في المحبة مِن اللَّذة بجمال المحبوب، بخلاف المعظِّم الهائب، فإن الهيبة والتعظيم يقتضيان التصاغر والانقباض، ولا حَظَّ للنفس في ذٰلك، فخَلُص لله وحده»[1].

❁ ترتيب المنازل:

ما سبق من ذكر التفاضل بين المنازل يظهر أثره في التقديم والتأخير بين هٰذه المنازل، فتقدم بعض المنازل بناء علىٰ شرفها وأهميتها، ومن العلماء من رتبها بحسب شرفها، فبدأ بمنزلة المعرفة والتوحيد، ومنهم من رتبها بحسب مرور السالك بها، فبدأ باليقظة والتوبة، ثم انتهىٰ بالمعرفة والتوحيد، أو المشاهدة.

وقضية الترتيب بين هٰذه المنازل فيها صور واضحة وأخرىٰ غامضة يمكن أن يختلف فيها الاجتهاد، وقد قسمناها إلىٰ منازل البدايات ومنازل المتوسطات، ومنازل النهايات.

فأول منزلة صدّرنا بها الخريطة الإيمانية هي منزلة اليقظة؛ باعتبار أن السير يبدأ بانزعاج القلب من الغفلة وتراكم الذنوب وألم البُعْد عن الله تعالىٰ، وهي التي تدفع العبد إلى التفكُّر والمحاسبة، فيدفعه ذٰلك إلى العزم والإرادة، التي تدفع للتوبة وترك ميدان المعصية، وهٰكذا يترقىٰ بعد ذٰلك في المنازل، حتىٰ يصل للمراتب النهائية؛ كالإحسان والمعرفة والمشاهدة.

❁ منازل البدايات:

منها منزلة اليقظة، والبصيرة، والفكرة، والعزم، حتىٰ قال ابن القيم ﵀: «وهٰذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السّفر إلى الله تعالىٰ، ولا يتصوَّر السَّفرُ إليه بدون نزولها البتّة، وهي علىٰ ترتيب

(١) القواعد الكبرىٰ للعز بن عبد السلام (١/ ٣٢).



السَّير الحسِّيّ، فإنَّ المقيمَ في وطنه لا يتأتّىٰ منه السّفر حتّىٰ يستيقظ مِن غفلته عن السّفر، ثمّ يتبصَّر في أمر سفره وخطره وما فيه مِن المنفعة والمصلحة، ثمّ يفكِّر في أُهبة السّفر والتّزوُّد وإعداد عدَّته، ثمّ يعزم عليه، فإذا عزَم عليه وأجمَعَ قَصْدَه انتقل إلىٰ منزلة المحاسبة، وهي التّمييز بين ما له وعليه، فيستصحب ما له، ويؤدِّي ما عليه؛ لأنّه مسافرٌ سفَرَ من لا يعود»[1].

وبين البداية والنهاية منازل اختلف علماء السلوك في ترتيبها وتقديمها وتأخيرها، وهي قضية خاضعة للاجتهاد، وللذوق والتجربة دور كبير فيها.

❁ عدد المنازل:

لعلماء السلوك رأي مختلف في عدد هٰذه المنازل بسبب ما بين هٰذه المنازل من الترابط والتداخل، وبسبب اختلاف النظر والتجارب الشخصية.

قال العلامة ابن القيم ﷺ: «وقد أكثر النّاس في صفة المنازل وعددها، فمنهم مَن جعلها ألفًا، ومنهم من جعلها مائةً، ومنهم مَن زاد ونقص؛ وكلٌّ وصَفَها بحسب سيره وسلوكه»[2].

ويضاف إلىٰ ذٰلك سبب آخر؛ وهو اختلافهم في بعض المنازل هل هي أحوال أو مقامات؟ كالرضا مثلًا اختلفوا فيه هل هو مقام أو حال؟ ففيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين، وحكم بينهم بعض الشيوخ، فقال: إن حصل بكسب فهو مقام، وإلا فهو حال.

وهٰذا مبني علىٰ تحديد الفرق والمعيار بين ما يسمىٰ مقامًا ومنزلًا، وبين ما يسمىٰ حالًا.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٥٩).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٨٨).

قال ابن القيم ﷺ: «ولهم اختلافٌ في بعض منازل السَّير: هل هي مِن قسم المقامات أو من قسم الأحوال؟ والفرق بينهما: أنّ المقامات كسبيّةٌ، والأحوال وهبية، ومنهم من يقول: الأحوال هي نتائج المقامات، والمقامات نتائج الأعمال، فكل مَن كان أصلح عملًا كان أعلىٰ مقامًا، وكل مَن كان أعلىٰ مقامًا كان أعظم حالًا»، ثم رجح ما يراه وقال: «والصّحيح: أنّ الواردات والمنازلات لها أسماءٌ باعتبار أحوالها، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أوّل ظهورها وبُدُوِّها، كما يلمع البارقُ ويلوح عن بُعدٍ، فإذا نازلته وباشرها فهي أحوالٌ، فإذا تمكَّنت منه وثبتت له مِن غير انتقالٍ فهي مقاماتٌ. فهي لوامعُ ولوائحُ في أوّلها، وأحوالٌ في أوسطها، ومقاماتٌ في نهايتها»(١).

فالمقامات إذن تمتاز عن الأحوال بالرسوخ والتمكين والثبات وعدم الانتقال، ولهذا كان من المناسب تسميتها مقامات ومنازل؛ لما فيها من النزول والإقامة والاستقرار، بخلاف الأحوال؛ ففيها عوارض وتغيرات.

وأكثر المتقدمين لم يحصروها في عدد معين، ولم يراعوا الترتيب، بل جاء كلامهم مرسلًا يصب في المعاني الإيمانية وقضايا السلوك مباشرة، وقد وفقنا الله تعالىٰ بجمع جواهرها وفرائدها في كتابنا السابق (تغريدات الصالحين).

وقد فضل ابن القيم ﷺ طريقة المتقدمين، وبيّن ميزاتها، فقال: «فالأَولىٰ الكلامُ في هذه المقامات علىٰ طريقة المتقدِّمين من أئمّة القوم كلامًا مطلقًا في كلِّ مقامٍ ببيان حقيقته، وموجَبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذكر عامِّه وخاصِّه. فكلامُ أئمّة الطّريق هو علىٰ هذا المنهاج لمن تأمَّلَه؛

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٧-٢٠٨).

كسهل بن عبد الله التُّسْتَرِيِّ، وأبي طالبٍ المكِّيِّ والجنيد بن محمَّدٍ، وأبي عثمان النَّيسابوريِّ، ويحيى بن معاذٍ الرَّازيِّ؛ وأرفع من هٰؤلاء طبقةً مثل أبي سليمان الدَّارانيِّ، وعون بن عبد الله الذي كان يقال له «حكيمُ الأمّة»، وأضرابهما؛ فإنّهم تكلَّموا علىٰ أعمال القلوب وعلى الأحوال كلامًا مفصّلًا جامعًا مبيَّنًا مطلقًا، مِن غير ترتيبٍ، ولا حصرٍ للمقامات بعددٍ معلومٍ، فإنّهم كانوا أجَلَّ مِن هٰذا، وهِمَمُهم أعلىٰ وأشرف، إنّما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النُّفوس، وتصحيح المعاملة، ولهٰذا كلامُهم قليلٌ فيه البركة، وكلامُ المتأخِّرين كثيرٌ طويلٌ قليل البركة»[١].

ومع تسليمنا بروعة كلام المتقدمين وبركته لٰكن لا نرىٰ تجاهل الترتيب ومراعاة الترابط بين المنازل والاجتهاد في حصرها في عدد قريب يبتعد عن المبالغة في التفصيل، كما يبتعد عن الإطلاق وتجاهل المناسبات في الترتيب والعدد، وقد حاول علماء السلوك فعل ذٰلك حسب اجتهاداتهم.

❁ وجه الحصر في أربعين منزلة:

بعد الاطلاع على اجتهادات العلماء السابقين في عدد المنازل وترتيبها، رأينا أن نختصر هٰذه المنازل في أربعين منزلة، واستَحْسَنّا هٰذا العدد استئناسًا بعدة المناجاة لموسىٰ ﷺ، والميقات الذي واعده ربه، ثم انتهت بنيل شرف المناجاة وتَلَقّي الشريعة وألواح التوراة عن ربه ﷺ.

قال سبحانه: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾[الأعراف: ١٤٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٥١].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢١٢-٢١٣).

وميزة عدد «الأربعين» أنه عدد مكتمل يرتبط بمعنى الكمال والتمام والقوة، كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وهو بداية عمر الرسالة ونزول الوحي؛ فقد نزل الوحي علىٰ رسول الله ﷺ في الأربعين.

وكذٰلك ورد في أطوار خلق الجنين، وفي خصال الفطرة، والشفاعة علىٰ الجنازة مرتبطة بأربعين مصليًا، وريح الجنة يوجد من مسيرة أربعين عامًا، وما بين مصراعيها أربعون عامًا.. وهٰكذا في مواضع متعددة من الشرع.

۞ العلاقة بين المنازل:

العلاقة بين هٰذه المنازل متنوعة:

١ . **التباين**: بمعنىٰ أن كل منزلة تباين المنزلة الأخرىٰ وتنفصل عنها؛ كالعلاقة بين منزلة الخوف ومنزلة الرجاء، ومنزلة الصبر مع منزلة الشكر، ومنزلة التوبة مع منزلة السكينة.

٢ . **التداخل**: بمعنىٰ أن بعضها يدخل في بعض؛ إما كُلِّيًّا، فتكون العلاقة العموم والخصوص المطلق، وإما جزئيًّا، فتكون العلاقة العموم والخصوص الوجهي، وذٰلك مثل: منزلة الورع داخلة في منزلة التقوىٰ، ومنزلة الصبر شرط في منزلة الرضا، فلا يتحقق الرضا دون وجود الصبر.

فبين هٰذه المنازل تداخل، يرتبط بعضها ببعض من كل الوجوه أو من بعض الوجوه؛ فالورع يدخل في درجات الخوف الدنيا عند الإمام الغزالي، ويدخل في التقوىٰ عند آخرين.

قال العلامة ابن القيم ﷺ: «ومن المقامات ما يكون جامعًا لمقامين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يستحقُّ صاحبُه اسمَه إلّا عند استجماع جميع المقامات فيه؛ فالتَّوبة جامعةٌ لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصوَّر وجودها بدونهما... والتّوكُّل جامعٌ لمقام التّفويض والاستعانة والرِّضا، لا يتصوَّر وجوده بدونها، والرَّجاء جامعٌ لمقام الخوف والإرادة...

ومقامُ المحبَّة جامعٌ لمقام المعرفة والخوف والرّجاء والإرادة، فالمحبّة معنًى يلتئم من هذه الأربعة، وبها تحقُّقُها، ومقامُ الخشية جامعٌ لمقام المعرفة بالله، والمعرفةِ بحقِّ عبوديّته، فمتىٰ عرَف الله وعرَف حقَّه اشتدَّت خشيتُه له، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلماء به وبأمره هم أهلُ خشيته؛ قال النّبيُّ ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدُّكم له خشيةً»[1]»[2].

ثم استطرد في تقرير هذا التداخل والترابط بين المنازل، وضرب أمثلة عديدة لذلك.

٣. وقد تكون العلاقة بينهما علاقة المقدمة بالنتيجة، وعلاقة الأصل بالفرع، وعلاقة الثمرة بالشجرة، فمنزلة المحبة مؤدية لمنزلة الشوق؛ لأنه لا يشتاق إلا محب، ومنزلة الذكر مؤدية إلىٰ منزلة الطمأنينة، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ومنزلة اليقظة مؤدية إلىٰ منزلة التوبة، وكذلك منزلة العلم والمعرفة تولد منزلة الخشية، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨]، وقد تكون بعض المنازل رتبة من مراتب منزلة أخرىٰ؛ كمن جعل مرتبة التفويض منزلة عليا من منازل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٦) برقم: (٦١٠١)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٩٠) برقم: (٢٣٥٦)، ولفظه: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه! فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٩-٢١٠).

التوكل على الله تعالىٰ، ومنزلة الخشية مرتبة من مراتب الخوف.

وبعض هٰذه المنازل يؤدي إلىٰ منازل هي كالثمرة لما قبلها، وكالمقدمة لما بعدها؛ فالحب إذا استحكم في القلب تَوَلَّد عنه الشوق والأُنْس بالله وبذكره، وهٰذا إذا استحكم تَوَلَّدت عنه الطمأنينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والمعارف عمومًا تورث الأحوال والمقامات؛ فالخوف -كما يقول العز بن عبد السلام ﷺ- «ناشئ عن معرفة شدة النقمة، والرجاء ناشئ عن معرفة سعة الرحمة، والتوكل ناشئ عن معرفة تفرد الرب بالضر والنفع والخفض والرفع»[١]، وفصَّل هٰذا المعنىٰ كثيرًا في كتابه الجليل (شجرة المعارف والأحوال).

❁ المنازل مجرد أسباب الوصول، والوصول برحمته واصطفائه:

قال ابن عطاء ﷺ: «لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك، ومحْو دعاويك لم تصل إليه أبدًا، ولٰكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطىٰ وصفك بوصفه، وغطىٰ نعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك، لا بما منك إليه»[٢]. فاستيعاب السير في هٰذه المنازل لا يستلزم تطهير النفس طهارة كاملة كطهارة قلوب الأنبياء، ولٰكن الله برحمته يغطي ضعف السالك ونقصانه بجوده وكرمه.

❁ وسائل اكتساب المنازل:

قال ابن عطاء ﷺ: «إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك، وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه»[٣].

(١) القواعد الكبرىٰ للعز بن عبد السلام (١/ ٢٠٦).
(٢) تغريدات الصالحين (٢/ ١٤٠٦).
(٣) تغريدات الصالحين (٢/ ١٢١٩).

فدوام التحديق بالقلب والعقل يُكسب الإنسان الطاعة القلبية، وتترسخ فيها، مع توظيف الأذكار المناسبة وتكرارها بحيث يترسخ في النفوس أنوارها ومعانيها.

وثالثة الأثافي: في التدريب العملي المستمر من خلال العبادة المقترنة بالتأمل العميق، كما نجد ذلك في إعداد الرسول ﷺ والجيل الأول من الصحابة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ١-٢]، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٦].

ورابعها: في الارتباط بالشيخ المربي المرشد وأصحابه الصالحين، وحضور مجالس الذكر والتربية والتزكية.

۞ الخريطة الإيمانية:

لفظ «الخريطة» ورد في كلام العرب بمعنى الوِعاء والكيس الذي تُحفَظ فيه الأشياء، وممن استعمله: الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه (الأم)[1]، وهو ممن يُحْتَجّ بلغته، بل جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها ذكر خريطة الدراهم، وقال فيها النبي ﷺ: «أين تلك الخريطة التي فَتَنَتْني البارحة»[2].

وروى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن أبي بكير قال: دخل شهر بن حوشب بيت المال، فأخذ خريطة من دراهم، فقال فيه الشاعر:

لقد باع شهْرٌ دينَه بخريطةٍ ... فمَن يأمن القُرَّاءَ بعدَك يا شهْرُ[3]

وروى الهيثم بن عدي عن أشياخه: أن الشاعر لما قال البيت المذكور ما مَسّ شهرٌ خريطة حتى مات[4].

(١) ينظر: الأم (٣/ ٢٤٠)، (٤/ ١٣٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٤١٤) برقم: (٩٩٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٤): «رواه الطبراني بأسانيد، وبعضها جيد».

(٣) العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل (٣/ ٢٦).

(٤) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٥٩٨).

والثابت أنه كان مسؤولًا عن بيت المال، فضاعت منه خريطة فيها دراهم، واتهموا شهرًا بذٰلك(١).

وكان عبد الله بن لهيعة المصري يلقب أبا خريطة؛ لخريطةٍ كان يحملها فيها أوراق وكتب وأجزاء يقرؤها ويُدَوِّن فيها(٢).

وسمي الشمردل بن شريك اليربوعي «ابن الخريطة»؛ لأنه وُضِعَ في خريطةٍ وهو صبي صغير(٣).

وكل هٰذه الشواهد استعملت في المعنى اللغوي الأصلي، وهو الوعاء مِن جلدٍ أو قماش ونحوه تحفظ فيه الأشياء، وله أسماء أخرىٰ في اللغة، مثل: (العِلاقة، والمِخلاة، والمِقْنب، والخُرج، والصُّفْن، والوَخْفة، والجُرجة، والخافة، والوَفْضة، والقَفَدان).

ولٰكن الناس بعد عصور الاحتجاج استعملوا «الخريطة» في معنىٰ آخر، وهو: «صورة سطح الكرة الأرضية أو جزء منها، ومعالمها الجغرافية»، وصار استعمال هٰذا اللفظ في هٰذا المعنىٰ أشهر وأظهر في عرف الناس ومحادثتهم، بل صار عِلْمًا مستقلًّا يُدرس في الجامعات.

وتوسع المختصون في تقسيم الخرائط إلىٰ: خرائط جغرافية، وخرائط اقتصادية، وخرائط سياسية، وخرائط مناخية، ومن أشهرها: «خريطة الطريق»، التي ترشد الشخص إلىٰ موقعه والمسافة بينه وبين مقصوده، وتحديد الطرق والاتجاهات الموصلة إليه.

---

(١) ينظر: المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٥٩).

(٢) ينظر: المجروحين لابن حبان (٢/ ١١).

(٣) ينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦٩٣)؛ أنساب الأشراف للبلاذري (١٢/ ١٩٨).

وهٰذا المعنىٰ هو أقرب المعاني المقصودة في عنوان كتابنا هٰذا، وآثَرْنا تسميته بخريطة بدل خارطة؛ لاستعمال العرب الأقحاح للكلمة الأولىٰ، بخلاف الثانية، فإنها لم تُؤثر عن العرب الأقحاح -فيما نعلم-، وإن كانت علىٰ أوزانها في الكلمات، واستعملها أهل اللغة قليلًا في الناقة الخارطة؛ أي: الجامحة[1].

كما دفَعَنا إلىٰ إيثار هٰذا الاستعمال المعاصر: قربه من أفهام الناس، وسرعة تبادره إلى الأذهان بسبب الشهرة والاستعمال، وقد قال علي بن أبي طالب ﷺ: «حدِّثوا الناس بما يعرفون»[2].

وفي نهاية هٰذه المقدمة الطويلة، أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إنجاز هٰذه الخريطة الإيمانية، وأخصّ بالذكر:

١. فضيلة الأستاذ الشيخ: آدم محمد بعاق

٢. فضيلة الأستاذ الشيخ: محمد حسن سليمي

٣. فضيلة الأستاذ الشيخ: عبد الله سعيد بيكوف

٤. فضيلة الأستاذ الشيخ: رياض صاكي

٥. فضيلة الدكتور: إسماعيل محمد بعاق

فأسأل الله تعالىٰ أن يكتب لنا جميعًا الأجر الجزيل، والذكر الجميل في الدنيا والآخرة، وأن يجعل هٰذا العمل مباركًا وخالصًا لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

الأستاذ الدكتور مصطفىٰ مخدوم

إسطنبول ٦/ جمادى الأولىٰ/ ١٤٤٥هـ

٢٠/ ١١/ ٢٠٢٣م

---

(١) ينظر: تاج العروس للزبيدي (١٩/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٧) برقم: (١٢٧).



تمهيد
في قواعد السلوك



إن قواعد السلوك ووصايا الصالحين تصب في تربية النفس وسياسة التعامل معها كقوانين تربية الأطفال والمراهقين، حتىٰ تخرج من ميدان الغفلة والمعصية إلىٰ ميدان الطاعة واليقظة، كما قال البوصيري رحمه الله:

والنّفس كالطّفل إن تُهمِلْه شبّ علىٰ ... حُبّ الرّضاع، وإنْ تفطمْه ينفطمِ
فاصرفْ هواها وحاذرْ أن تولّيهُ ... إنّ الهوىٰ ما تولّىٰ يُصْمِ أو يصِمِ
وراعها وهي في الأعمال سائمةٌ ... وإن هي استحلتِ المرعىٰ فلا تُسِمِ[1]

فهو علم يُعنىٰ بسياسة التعامل مع النفس والهوىٰ، ومن شأنها أن تضبط السلوك وترشده في سيره إلى الله، فلا ينحرف عن الطريق الصحيح، ولا يقع صاحبه في الزلّات والشطحات، ويبين للسالك البصير موازين التعامل مع قضايا السلوك وممارسات السالكين.

١. قاعدة: العلم قبل العمل

يجب على السائر إلى الله تعالىٰ أن يطلب علم أعماله ويعرف حكم الشرع فيها، فإن العمل بالشيء لا يصح إلا بعد معرفة حكم الله فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، قال البخاري رحمه الله: «باب في العلم قبل القول والعمل»، ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد الهاشمي (٢/ ٢١٧).

وقال ابن عيينة ﷺ: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»[١]، وقال ﷺ: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا ففيه شبَهٌ من النصارىٰ»[٢].

والتزهيد في العلم سبب من أسباب انحراف بعض تيارات التصوف عن المسار الصحيح، فالتصوف كان أول أمره حركة زهدية تربوية في مقابل النزعة المادية التي انتشرت في الناس بعد الفتوحات والغنائم، لكن بعض مدارسه ورموزه أصابته العلل بسبب الإعراض عن العلم وذمهم له، والاكتفاء بخواطر النفس بحجة الأخذ عن الله مباشرة.

٢. قاعدة: يؤخذ كل علم من العارفين به[٣]

لكل علم رجاله العارفون به، والمختصون في قضاياه، والعارفون بتفاصيله بسبب التخصص والاهتمام، فعلم الحديث يؤخذ من علمائه، وعلم الفقه يؤخذ من أربابه، وعلم العربية من رجالها، وهٰكذا في كل علم.

وهٰذا ما ينطبق علىٰ علم السلوك، فإنّ له أئمة مشهورين عارفين به، سالكين سبيله، مع العلم والورع، منهم زُهّاد الصحابة والتابعين، ومنهم بشر الحافي، ومعروف الكرخي، والجنيد، والمحاسبي، والسَّرِيّ السقَطي، وعبد القادر الجيلاني، والعماد الواسطي، وإسماعيل الهروي، وابن القيم ﷺ.

وأصل القاعدة في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

---

(١) العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله (٣/ ١١٨).

(٢) دقائق التفسير لابن تيمية (٢/ ١٤٥).

(٣) ينظر: قواعد زروق (ص: ١١٤).

سئل الإمام أحمد ﷺ عن مسألةٍ في الورع، فقال: «لا يحل لي أن أتكلم في الورع، لو كان بشرٌ حيًّا تكلم في هذا.

وسئل عن مسألة في الإخلاص، فقال: اذهب إلى الزُّهّاد، أيُّ شيءٍ نحن تجيء إلينا»[1]؟!

٣. قاعدة: المعصوم هو الرسول ﷺ وسائر أئمة الهدى والسلوك غير معصومين، وخطؤهم مغمور في بحار حسناتهم

فالرسول هو الإمام الأكبر، وعليه المعول، وغيره من أئمة السلوك والفقهاء غير معصومين، وما يصدر عنهم قد يكون فتحًا، وقد يكون شطحًا، فلا أسوة في الشطحات.

وقد يقول أحد الصالحين قولًا عند غلبة الحال عليه -كما قال ابن تيمية ﷺ: «وَجْدٌ بلا تمييز»- دون أن يَزِنَه بميزان الشرع والرسول، فيُعذر في زَلّته، ولا يُقتدىٰ به فيها، ويُستر عليه، ولا تُذاع زلته إلا لسبب شرعي، بل تُطوىٰ ولا تُروىٰ؛ نحو قول بعضهم: «سبحاني»، و«ما في الجبة إلا الله»، «أنا الحق»، وقول: «قدمي علىٰ رقبة كل وليٍّ بعد رسول الله»!

٤. قاعدة: وجوب عرض الخواطر والأحوال علىٰ نصوص الوحي

لما كانت العصمة غير مضمونة لغير الأنبياء كان لزامًا على السالكين في الطريق عرض خواطرهم وأحوالهم على الميزان، وهو الكتاب والسنة، ليميز بين المقبول والمردود؛ قال أبو سليمان الداراني ﷺ: «إنه ليقع في قلبي النكتة من نُكَت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين من الكتاب والسنة»[2].

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب الحنبلي (ص:٤٧).

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (١٣/ ٤٣٠).

وقال أبو القاسم الجنيد ﷺ: «عِلمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتدىٰ به»[1].

وقال أبو عثمان النيسابوري ﷺ: «من أَمَرَّ السنة علىٰ نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أَمَرَّ الهوىٰ علىٰ نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة»[2].

وقال أبو عمرو بن نجيد ﷺ: «كل وَجْدٍ لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل»[3].

وقال ابن عجيبة ﷺ: «لا تصَوُّف إلا بفقه، ولا فقه إلا بتصوّف».

٥. قاعدة: يجب تجنب العبارات المُوهِمة والمشكلة في التعبير عن الله تعالىٰ ومعاني السلوك إليه

من الأدب مع الله أن يتجنب المتكلم التعبير عن الله بما يفهم منه خلاف الشرع وعدم التعظيم؛ لأنه خلاف الوضع اللغوي الذي يراد به الإفهام والإيضاح، ولما فيه من إيقاع الشبه والباطل في عقول السامعين، فيصير فتنة لهم.

بل قال الفقيه زروق: «لا يجوز وضعه من غير الشارع ألبتة»، ويقصد بذلك: أن الله تعالىٰ جعل المتشابه في كلامه لحكمة الابتلاء؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، ومنه الحديث القدسي: «مرضت فلم تعدني»[4]، وحديث: «أنا جليس من ذكرني»[5].

---

(١) الزهد والورع والعبادة لابن تيمية (ص: ١٤٨)؛ وينظر: الرسالة القشيرية (١/ ٧٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٤).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٣٠٢)، ونسبه إلىٰ سهل بن عبد الله، بينما نسبه ابن تيمية في منهاج السنة (٥/ ٣٣١) إلىٰ أبي عمرو بن نُجيد.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣) برقم: (٢٥٦٩).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٦٦) برقم: (١٢٣١)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٥١) برقم: (٦٨٠).

وقد مدح الله قومًا فقال: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وكان سادة الأولياء يتأدبون غاية الأدب في مخاطبة ربهم، ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠]، وقال ﷺ: «والخير كله في يديك، والشرّ ليس إليك»[1].

وبعض أرباب السلوك يؤثر اللغة الرمزية والغامضة في توجيهاته غَيرةً علىٰ المعنىٰ!! وهٰذا قد يناسب الخاصة لٰكن لا يناسب العامة.

٦ . قاعدة: قضايا السلوك نوعان: محكمة قطعية يتوجه فيها الإنكار، واجتهادية ظنية لا يسوغ فيها الإنكار

في قضايا السلوك ومسائل التزكية والتصوف أمور محكمة قام الدليل القطعي علىٰ ثبوتها أو نفيها، فيجب الوقوف عند حدودها والالتزام بموجب الشرع فيها، ومن تعداها فيُنْكَر عليه، ويُحاوَر بالحجة والموعظة للرجوع إلى الحق فيها، وذٰلك مثل: وجوب الإخلاص وترك الرياء، ومشروعية أصل الذكر والتعبد...

ومنها قضايا جرىٰ فيها الخلاف بين الفقهاء؛ لكونها مسائل اجتهادية لم يقم الدليل القاطع فيها، فهٰذه يشرع فيها الحوار والمناقشة العلمية، للوصول إلىٰ الصواب، وترك الإنكار فيها على المخالف بدليل.

مثل: الالتزام في العبادات المطلقة بصفة معينة، ومثل: ترك العمل خوفًا من الرياء، ومثل الرضا هل هو واجب أو مندوب.

ومدار ذٰلك على الفقهاء والحجج والأدلة.

٧. قاعدة: زلات السائرين لا تدل علىٰ خطأ الطريق

كثير ممن سلك طريق السلوك وقعوا في الزلات، وخالفوا الشرع، ووقعوا في البدع، وهٰذا أمرٌ متوقع؛ بسبب الجهل والهوىٰ أحيانًا، وبسبب كونهم بشرًا غير معصومين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٨٥) برقم: (٧٧١).

ولكن زلاتهم لا تدل على بطلان طريق الصالحين وانحراف علم السلوك والتزكية، وفساد الفرع لا يدل على فساد الأصل، فقد يكون الأصل صحيحًا وفرعه فاسدًا.

قال الفضيل بن عياض ﷺ: «اتّبعْ طرقَ الهدَى، ولا يضرُّكَ قلّةُ السالكين، وإياك وطرقَ الضلالة، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»[1]، وهكذا في كل العلوم والمعارف وقعت فيها أخطاء وزلّات، فلا يدل وقوعها على بطلان أصل العلم، ففي علم العقيدة وأصول الدين وقعت أخطاء وزلّات لكثير من أصحابه، وهذا لا يعني فساد علم العقيدة وأصول الدين، وهكذا في علم الطب زلّ كثير من الأطباء، ووقعوا في أخطاء فاحشة، وهذا لا يعني فساد علم الطب وذمه.

٨. قاعدة: الوصول يتوقف على اجتماع العلم والإرادة

يحتاج السائرون في طريق الله إلى قوتين:

١. قوة العلم والمعرفة.

٢. قوة العزيمة والإرادة.

ولا بد من اجتماعهما، ويقع الزلل والانحراف بضعف أحدهما أو غيابه؛ قال ابن القيم ﷺ: «لا يبلغ العبد الكمال إلا بعلم يهديه، وهمة تُرَقّيه»، وألّف في بسط هذا المعنى كتابه (مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والإرادة).

والناس في هذا الباب أربعة أنواع:

١. قوي العلم وقوي الإرادة، وهذا أشرفهم.

٢. ضعيف العلم وضعيف الإرادة، وهذا أَخَسُّهم.

٣. قوي العلم ضعيف الإرادة، وهذا يقع في العلماء وطلابه.

٤. ضعيف العلم قوي الإرادة، وهذا يقع في العُبّاد والمتصوفة والعامة.

---

(١) الأذكار للنووي (ص: ٢٦٨).

٩ . قاعدة: الفتح من الله مأمول لكل صادق

يعني: أن كل سالك صادق يمكن أن يفتح الله عليه بعلم أو حكمة أو عمل، والله لا يمنعه شيء عن جوده وكرمه، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ولا فرق في هٰذا بين المتقدم والمتأخر.

قال ابن مالك ﷺ: «إذا كانت العلوم مِنَحًا إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدّخر لبعض المتأخرين ما عسر فهمه على كثير من المتقدمين، أعاذنا الله مِنْ حَسَدٍ يسدّ باب الانصاف ويَصُد عن جميل الأوصاف»[١].

والاستقراء والتأمل يدل على أن الجيل الأول كانوا أكثر فتحًا من المتأخرين، لٰكن كرم الله لا يحدّه شيء، وهٰذا رسول الله ﷺ سيد الأنبياء وأعظمهم علمًا وحكمة، وإن كان آخرهم زمانًا.

١٠ . قاعدة: كفى بالاستقامة كرامة

يسير بعض السالكين في طريق السلوك لينال الكرامة وخرق العادات، وهٰذا يُكسبه الشهرة وكثرة الأتباع، وهٰذا زَغَلٌ في النية، وسوء في الفهم؛ فإن الكرامة منحة إلهية وليست حالًا ولا مقامًا يؤتيها الله من يشاء، بل قال العلماء: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[٢]، لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقوله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»[٣]، أي: لن تطيقوا كل الطاعات .

---

(١) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك (ص: ٢).

(٢) مدراج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٧١).

(٣) أخرجه مالك في موطئه (١/ ٤٥) برقم: (٩٠)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ١٣٠) برقم: (٤٤٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

١١ . قاعدة: سيروا إلى الله عُرجًا ومكاسير؛ فإن انتظار الصحة بطالة(١)

المطلوب من المسلم العاقل أن يسير في طريق الله، ويسعىٰ للوصول إلى الله، وإن كان متلبسًا بالنقائص والعيوب، ولا يترك السير إلى الله بحجة نقائصه وعيوبه؛ لأنه لو فعل ذٰلك فإنه لن يسير أبدًا في طريق الله؛ لأن الإنسان لا يخلو من نقص دائمًا، فيلزمه البطالة وترك العمل!

وهٰكذا بعد المسير، فإن زَلّ السالك وسقط في المهالك فلا يترك، بل يقوم ويستغفر، ويواصل المسير ولو زحفًا، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

١٢ . قاعدة: في اختلاف المسالك راحة للسالك

فالله تعالىٰ جعل للوصول إليه طرقًا عديدة، وليس طريقًا واحدًا، ونَوَّع المنازل والعبادات والأذكار لِعِلمه باختلاف طبائع الناس وتفاوت قدراتهم، فبعضهم عابد يقطع الليل تسبيحًا وقرآنًا، وآخر زاهد يفرّ من الدنيا والخلائق، وثالث عارف يتعلق بالحقائق، ورابع لا يزال لسانه رطبًا بذكر الله ... والكل في دائرة الحق، وكلٌّ مُيَسّرٌ لما خُلِق له.

قال بعض الصالحين: «الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق»، يريد أن الطرق الموصلة إلى الله كثيرة، فلا يدّعي أحدٌ العجزَ عن السير إلى الله.

وفي هٰذه القاعدة توسعة على السالكين، وترويح لنفوسهم؛ كالتنقّل بين الأزهار والبساتين.

١٣ . قاعدة: لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقصد

الناظر في كتب السلوك والتصوف يرىٰ تنوعًا في التوجيه، وإرشادات متعددة؛

---

(١) عبارة نُسبت للشافعي، ونسبت لمحمد القرشي الهاشمي الزاهد في وفيات الأعيان (٤/ ٣٠٦).

منهم من يعتمد علىٰ منزلة المحبة، ويجعلها مدار الطريق وغايته، ومنهم من يعتمد على الذكر القلبي واللساني، ومنهم من يتعلق بمنزلة المعرفة، ويجعلها الغاية، وهٰذا لا يعني إلا اختلافًا في الوسائل والأساليب، أما المقصود فواحد، وهو: الوصول إلى الله تعالىٰ، ونيل رضوانه ورحمته.

وقد ذكرها الشيخ زروق ﷺ، ومَثَّل لذٰلك بالعبادة والزهادة والمعرفة، كلها مسالك لقرب الحق علىٰ سبيل الكرامة، ثم قال: «من غلب عليه العمل عابد، أو الترك فزاهد، أو النظر لتصريف الحق فعارف، والكل صوفية»[1].

١٤. قاعدة: التدرج في تربية النفس ومعالجتها

إن سَوْق النفس بالتدرج أسهل للمقصود وأدعىٰ لاستجابتها، وقد كان ﷺ يفتتح قيام الليل بركعتين خفيفتين[2].

ولٰكن النفس إذا حملت على العزائم جملة واحدة نفرت من ذٰلك، وإن استجابت فإلىٰ حين، ثم يصيبها الملل والنفور، فهٰذا من سياسة النفس وعلاج أمراضها.

١٥. قاعدة: تقديم المهم شأن الصادقين

إنّ الصادق في سيره يراعي المهم ويقدمه علىٰ غير المهم، فلا يخوض في تفاصيل السير وهو لم يحكم قواعده وكلياته، ولا يخوض في الغوامض وهو لا يعرف الواضحات، أو يتطلع إلى النهايات وهو لم يُحْكِم البدايات، قال ابن عطاء ﷺ: «تَشَوُّفك إلىٰ ما بطن فيك من العيوب خير من تَشَوُّفك إلىٰ ما حجب عنك من الغيوب»[3].

---

(١) قواعد التصوف لزروق (ص: ٣٠).

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٨٤) برقم: (٧٦٧)، بلفظ: عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل ليصلي افتتح صلاته بركعتين خفيفتين».

(٣) الحكم العطائية لابن عطاء الله بشرح النفري (ص: ٥٢).

وقال السري السقطي رحمه الله: «من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح فيما لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش»[1]. والأخير محل الشاهد، فالبحث عن عيوب النفس مقدم على الاشتغال بعيوب الناس، فالسالك يحتاج إلىٰ فقه الموازنات.

١٦ . قاعدة: اتباع الأحسن والأخذ بالأفضل

الأخذ بالأحسن محبوب طبعًا، ومطلوب شرعًا، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، وجاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها»[2].

قال زروق رحمه الله: «بُنِيَ التصوف على اتباع الأحسن»[3].

ومع هٰذا فالاستحسان يختلف باختلاف نظر المستحسن.

١٧ . قاعدة: إذا ثبت صدور الشطحات ممن عُرف بالصلاح والاستقامة، أنكرنا شطحته بالشرع، وأوَّلْنا كلامه إن كان محتملًا، وأحْسَنّا الظن به، وأرجعنا أمره إلىٰ ربه

فالرجل الصالح قد يَزِلّ ويخطئ، وليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا، كما قال ابن تيمية رحمه الله، وقد يقع في الصغيرة بلا إصرار، وقد يقع في الكبيرة مع الاستغفار والتوبة، فإن اجتهد وأخطأ فليس مأثومًا ولا معصومًا، فلا يُتَّبع في قوله وفعله، ولا يُحكَم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ١٣١) برقم: (٢٨٩٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٨): «رواه الطبراني، وفيه خالد بن إلياس، ضعَّفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي، وبقية رجاله ثقات».

(٣) قواعد التصوف لزروق (ص: ١١١).

ولما كان السالك بشرًا غير معصوم من الخطأ -سوى الأنبياء- كان الوقوع في الزلة أمرًا واردًا.

وهٰذا ما نجده عند التأمل في تاريخ السالكين وفكر السائرين في طريق السلوك، فمنها علىٰ سبيل المثال:

١. سقوط التكليف عند حصول اليقين:

وقع بعض السالكين في هٰذه الزلّة، فادعوا أن السالك إذا وصل إلىٰ درجة اليقين والمشاهدة سقطت عنه التكاليف؛ لتحقق المقصود، فلا يحتاج إلى العبادة والطاعات، واحتجوا لذٰلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وهٰذا غلط آخر في فهم الآية وتفسيرها، فاليقين هنا بمعنىٰ الموت؛ كما في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٧]، أي: الموت، بلا خلاف بين السلف، وقال ﷺ لما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه: «أما هو فقد جاءه اليقين»[(١)]، وسُمي الموت يقينًا لأنه موقن به.

والأنبياء وهم أشرف السالكين وأكملهم معرفة ويقينًا لم يتركوا عبادة الله والتقرب إليه إلىٰ حين الوفاة[(٢)].

وحكم العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله علىٰ هٰذا التفسير الخاطئ بأنه كفر وزندقة ولعب، ولا يسمىٰ تأويلًا في الاصطلاح[(٣)].

٢. الاستغناء عن الذكر بحجة حضور القلب:

كذٰلك زعم بعض السالكين أن الإنسان يستغني عن الذكر وقراءة الأوراد من القرآن والأذكار عند وجود اليقظة وشهود القلب، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٣٨) برقم: (٧٠١٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٤).

(٣) ينظر: أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٢٥١).

يُطالَب بالأوراد مَن كان غافلًا فكيف بقلبٍ كل أوقاته وِرْدُ

٣. كل الأفعال طاعات وليست هناك معصية:

زعم بعض المنتسبين إلى السلوك والتصوف أن أفعاله كلها طاعات؛ لأنها موافقة للقدر والإرادة، وأنه إن عصى الأمر فقد أطاع الإرادة والقدر، فقال:

أصبحت منفعلًا لما تختاره

مني ففعلي كله طاعاتُ

وعليه لم يقسموا الأفعال إلىٰ طاعات ومعاصي.

وهٰذه فكرة قد تطرقت إلى التصوف الفلسفي بناء على القول بوحدة الوجود، لأن الطاعة والمعصية يكونان بين اثنين ضرورة: آمرٌ ومأمور، ومطيع ومطاع، والمطيع عندهم هو عين المطاع، والآمر هو عين المأمور، فليس ثمة طاعة ولا معصية؛ لأن الوحدة المطلقة تنفي الانقسام إلىٰ طاعة ومعصية[1].

١٨. قاعدة: التوجيه حسب القابل، والجواب علىٰ قدر السائل

في كل علم قضايا عامة وقضايا خاصة، فالعامة تُبَثُّ للعامة من الناس، وأما الخاصة -وهي المسائل الغامضة والمشكلة- فلا تُبَثُّ للعامة، وإنما للخاصة، والمرشد يراعي القابل لا القائل، ويجيب علىٰ قدر فهم السائل.

قال علي رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله!»[2].

قيل للجنيد رحمه الله: «يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هٰذا بخلاف ذاك! فقال: الجواب علىٰ قدر السائل»[3].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٧) برقم: (١٢٧).

(٣) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح لعبد الحق الدهلوي (١/ ٥٥٥).

١٩ . قاعدة: خرق العوائد السيئة بالصدق والهمة

فمِن الخطأ الحرص على الثمرات والنتائج وأنت لم تأخذ بأسبابها، وتتمنىٰ أن تكون من أهل الكرامات وأنت عاجز عن خرق عاداتك السيئة وتصرفاتك المنحرفة، فيجب التخلي أولًا عن الأخلاق المذمومة والعادات السيئة، ليكون قلبك أهلًا لنزول الأنوار عليه، وسكون المعارف فيه، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال ابن عطاء ﷺ: «كيف تريد أن يخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد!»[١].

٢٠ . قاعدة: مدح التوسط في كل عمل مكتسب

التوسط أخْذٌ بالطرفين واعتدال بين الجانبين: الإفراط والتفريط، فهو من أحسن الأمور التي مدح الله اتّباعها، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفي الحكمة: «خير الأمور أوسطها»[٢]. وجاء في الحديث: «القصدَ القصدَ تبلغوا»[٣]، أي: اقصدوا التوسط.

وقد كان التوسط منهجه ﷺ في السلوك والتعبد، فلا إفراط ولا تفريط، قال ﷺ: «أمّا أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٤].

وكان يقوم من الليل نصفه وثلثه، وأحيانًا ثلثيه، وهٰذا وسط بين من يقوم الليل كله، وبين من لا يقوم أصلًا، وبين من يقوم يسيرًا منه، ورَدَّ عبد الله بن عمرو للوسط في الصيام وخَتْم القرآن.

---

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله بشرح النفري (ص: ٦٧).

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/ ٢١١)، ونسبه إلىٰ مُطرّف بن عبد الله بن الشّخّير.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢) برقم: (٥٠٦٣)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٢٩) برقم: (١٤٠١).

قال زروق ﷺ: «فلزم التوسط في كل مكتسب؛ لأنه أرفق بالنفوس، وأبقىٰ للعبادة»(١).

٢١. قاعدة: التكلف في البدايات

السائرون إلى الله لا تصدر عنهم هٰذه الطاعات والمقامات في البدايات إلا بنوع من المجاهدة والتكلف وحمل النفس عليها والمداومة علىٰ ذٰلك حتىٰ تصير طبعًا راسخًا في القلب، فعندها تصدر عن باطنهم بلا كلفة ولا تصنع ولا تكلف، عندها يستحقون الوصف بالصالح والعارف ونحو ذٰلك من الألقاب.

وقد جاء في الحديث: «وإنما الحِلْم بالتَّحَلُّم»(٢).

وقد أكد الواسطي ﷺ علىٰ هٰذا المعنىٰ في مواطن من كتابه السلوك(٣).

وقديمًا قال ابن القيم ﷺ: «المزاولات تعطي الملكات»(٤).

٢٢- قاعدة: السداد والمقاربة في السير إلى الله

فالسائر إلى الله يجتهد في لزوم السداد والصواب في عبادته القلبية والبدنية، فإن عجز عنه لعارض عرض له أو مانع منعه فإنه يلزم المقاربة ومحاولة الدنو من أقرب الحالات إلى السداد.

وقد لخّص النبي ﷺ هٰذا المنهج بقوله: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله...»(٥).

---

(١) قواعد التصوف لزروق (ص: ١٦٦).

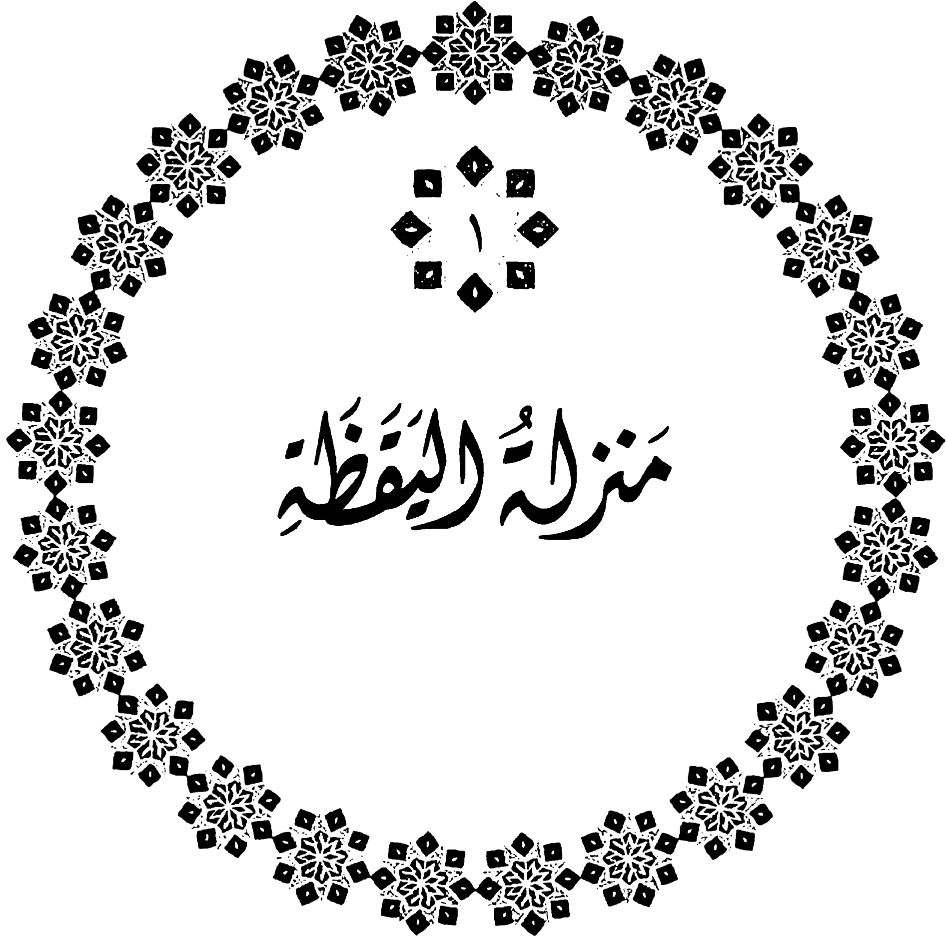
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٤٥٤) برقم: (٢٦٩٣٢)؛ والطبراني في الأوسط (٣/ ١١٨) برقم: (٢٦٦٣). قال الدارقطني في العلل (٦/ ٢١٨): «عن عبد الله موقوفًا، وهو المحفوظ». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٨): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد، وهو كذاب».

(٣) ينظر: السلوك للواسطي (٢/ ٦٣٨).

(٤) مدارج السالكين في منازل السائرين لابن القيم (٣/ ٣٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٧)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤١) برقم: (٢٨١٨).

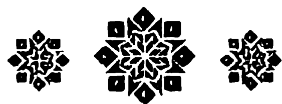


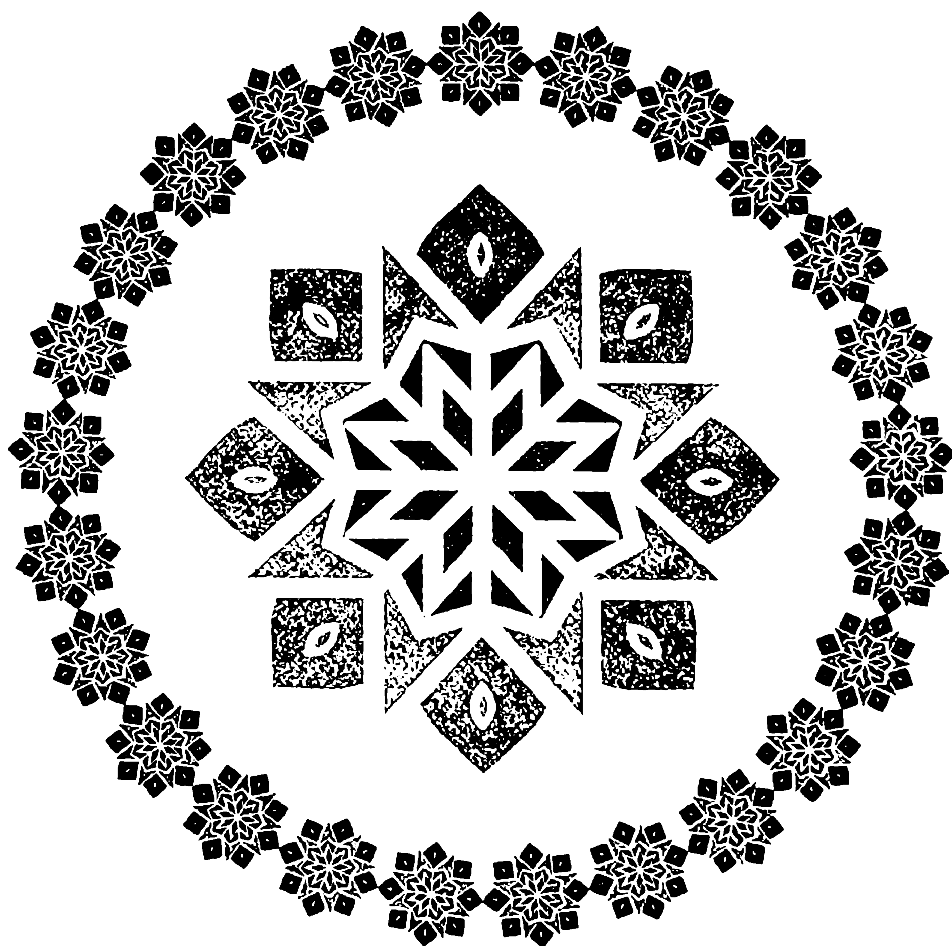


١

مَنزلةُ اليَقَظةِ











منزلة اليقظة



بين يدي اليقظة

يعيش الإنسان في حياته الدنيوية حالةً من الغفلة؛ فينسىٰ أصله وحقيقته وسبب وجوده، فهو واقع في شراك الغفلة، فإذا لم ينهض لنجاته ويزيل عن قلبه حجاب الغفلة فلن يبدأ الحركة نحو الله تعالىٰ.

إن اليقظة أهم منزلة في طريق السائر إلى الله؛ فهي بداية الانطلاقة وأصل السير، وكل المنازل مبنية عليها، واليقظة قبل منزلة التوبة؛ لأن الإنسان لا يتوب إلا إذا كان يقِظًا، أما النائم الغافل فلا يدري حاجته أصلًا إلى التوبة.

ولكن هٰذه المنزلة -كبقية المنازل- لا يمكن تجاوزها بعد التحقق بها، بل هي دائمة تصحب العبد قبل التوبة وبعد التوبة إلىٰ مماته؛ فالإنسان بحاجة دائمة إلى اليقظة؛ لأنه ربما استيقظ فتاب، ثم غفل بعد ذٰلك ونام، فرجع عما كان عليه من الخير إلىٰ ما كان عليه قبل من الشر. ومن هنا يجب أن يجدد العبد يقظته من حين لآخر، فيتفكر في نفسه أهو يقظ أم هو من الغافلين[1].

ومعاني اليقظة مبثوثة في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ من ذٰلك ما ورد في حديث أم سلمة: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزِعًا يقول: «سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن! مَن يوقِظ صواحب الحُجُرات -يريد أزواجه- لكي يُصَلِّين؟ رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٌ في الآخرة»[2].

---

(١) ينظر: منزلة اليقظة لفريد الأنصاري (ص: ١٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٤٩) برقم: (١١٢٦).

ولا يستيقظ البدن للصلاة ليلًا أو نهارًا إلا إذا استيقظ القلب قبله، فإنما يقظة البدن من يقظة القلب. ودعوته ﷺ لإيقاظ أمهات المؤمنين هي دعوة منه لأزواجه حتىٰ يجدن ما وجد رسول الله ﷺ من الخوف، أما أن يستيقظ الإنسان ليجلس ويتكلم، أو حتىٰ ليصلي ولا يجد في قلبه ما يجد الخائف من ربه حقًّا، فلا يزال بينه وبين اليقظة مسافة بعيدة؛ لأن اليقظة منزلة إيمانية[1].

حقيقة اليقظة

معنى اليقظة لغة: نقيض النوم، واستيقظ من نومه؛ أي: انتبه[2]. والتيَقُّظ: هو كمال التنَبُّه والتَّحَرُّز عمّا لا ينبغي[3].

معنى اليقظة اصطلاحًا: هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين[4].

فالعبد يكون في غفلةٍ معرضًا عن خالقه، مُنصرفًا عن طاعته، مُنْكَبًّا علىٰ شهواته وملذاته، فيتداركه الله بلطفه؛ فيُخطِر في قلب عبده ذكْرَه وذكر آخرته، ويُحرِّكُه لتَذَكُّر عظيم قدر مولاه، وتذَكُّر ما سلف من أمره في جنايته علىٰ نفسه وإسرافه عليها بكثرة الذنوب، وأنه لا محيص عن الموت ولا مَعدِل له عن لقاء ربه، فيستيقظ من رقدته، وينهض لتدارك ما فاته.

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

اليقظة تقابلها الغفلة، والغفلة تدل علىٰ يقظة كانت قبلها، وهي الفطرة، فاليقظة هي الفطرة، تعقبها غفلة، ثم يتم الخروج منها إلى اليقظة.

---

(١) ينظر: منزلة اليقظة لفريد الأنصاري (ص: ١٧-١٨).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ٢٠٢)؛ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (١١/ ٧٣٧٣).

(٣) ينظر: الكليات لأيوب بن موسى الكفوي (ص: ٣١٤).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٨٨).

أسباب الغفلة

للغفلة أسباب تؤدي إليها؛ فإذا أراد العبد أن يتخلص من الغفلة لا بد أن يعرف أسبابها ويقوم بمعالجتها، ومن تلك الأسباب:

١. مصاحبة أهل الغفلة وجُلَساء السوء:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، فالحِرمان أنْ يغفل العبدُ عن هٰذا الأمر، ويُشابِه قومًا نسوا الله وغَفَلوا عن ذِكرِه والقيامِ بحقه، وأقبلوا علىٰ حظوظ أنفسهم وشهواتِها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا علىٰ طائل، بل أنساهم اللهُ مَصالِحَ أنفسهم، وأغْفَلَهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرُهم فُرُطـًا، فرجعوا بخسارة الدَّارَين[١].

٢. المبالغة في الرفاهية والتنعُّم:

إن انهماك الناس في اللذائذ -وإن كانت مباحة- تجعلهم ينشغلون بها عن الله، ولذٰلك حذّر النبي ﷺ من الانغماس في بعض الهوايات الموجودة في عصره والمبالغة فيها، فقال: «ومن اتَّبع الصيدَ غَفَل»[٢]. وهو محمول علىٰ من واظب علىٰ ذٰلك حتىٰ يشغله عن غيره من المصالح الدينية وغيرها[٣].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص: ٨٥٣).

(٢) أخرجه النسائي في المجتبىٰ (١/ ٨٤٨) برقم: (٤٣٢٠)؛ وأبو داود في سننه (٣/ ٧٠) برقم: (٢٨٥٩)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٠٦) برقم: (٢٢٥٦)، وقال: حسن غريب.

(٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٩/ ٦٦٢).

٣. اتباع الهوىٰ:

من أعظم أسباب الغفلة اتباع الهوىٰ والانغماس في الشهوات، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٤. الإعراض عن دين الله:

قال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣]، فأكثر الناس في غفلة معرضون عما خُلِقوا له؛ لانشغالهم بشهواتهم ودنياهم.

فضل اليقظة وثمراتها

١. تبعث في القلب نورًا يفرق به صاحبه بين الحق والباطل:

قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. قال ابن كثير: «هٰذا مثَلٌ ضربه الله تعالىٰ للمؤمن الذي كان ميتًا؛ أي: في الضلالة، هالكًا حائرًا، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله»(١).

٢. الاهتمام بالنِّعَم الإلهية:

يصبح للنعم الإلهية معنًى جديد بعد حصول اليقظة، فهي تؤدّي إلىٰ إيجاد معرفة تجعل الإنسان يدرك مدىٰ تقصيره فيما أسلف في التعامل مع تلك النعم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٠).

يقول الهروي: «واليقظة هي ثلاثة أشياء؛ الأول: لَحْظ القلب إلىٰ النِّعْمَة علىٰ الإياس من عدِّها، والوقوف علىٰ حدِّها، والتفرُّغ إلىٰ معرفة المِنَّة بها، والعلم بالتقصير في حقِّها»(١).

٣. معرفة النفس الأمارة:

اليقظة تجعل السالك عارفًا بالنفس وأهوائها، وبواسطتها يدرك أنّها كانت أعظم حجاب نُصِب بينه وبين الله، وإذا عرف ذلك تحرّك نحو النجاة وفتّش عن طريق محاربة النفس وكبح جماحها.

أسباب اليقظة وطرق التحقق بها

١. العلم:

إن الجهل من أكبر أسباب الغفلة، وكلما ازداد الإنسان علمًا ينبغي أن تزول الغشاوة عن قلبه حتىٰ يستيقظ قلبه، وهذا ما أكدته الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلم يورث الخشية، والخشية من تمام اليقظة، وهذا ما أكده النبي ﷺ حين قال: «يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلًا»(٢). ولكن ليس كل مَن حصّل علمًا حصلت له اليقظة، وإنما العلم من أهم وسائل اليقظة لمن صفت فطرته وزال عن قلبه حجاب الكبر والغرور، ولو استيقظ القلب لوقر العلم فيه، ولو علم بحقائق الحياة وبحقيقة نفسه لفزع ووَجِل، وإذا فزع بدأ العلم يقع في قلبه كلما قرأ القرآن أو تدبر في الكون أو نظر إلىٰ نفسه(٣).

(١) منازل السائرين للهروي (ص: ١١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٩) برقم: (٦٦٣١).

(٣) ينظر: منزلة اليقظة لفريد الأنصاري (ص: ٣١-٣٢).

أمـا والله لـو عـرف الأنـام لِمـا خُلِقـوا لَمـا غفلـوا وناموا
لقـد خلقُـوا لِمـا لَـو أبصرَتْـهُ عُيُون قُلُوبهم ساحوا وهاموا
ممـاتٌ ثـمَّ قبـرٌ ثـمَّ حشـرٌ وتوبيـخٌ وأهـوالٌ عِظَـام[1]

٢. التفكر:

أن يتفكر العبد ويبحث عن الغاية من وجوده، وإلىٰ أين يسير؟ يتفكر كيف أن الله يُغدِق عليه النِّعَم وهو يقابل ذٰلك بالعصيان والصدود والنكران! يتفكر إلىٰ أين المصير بعد الحياة؟ وماذا ينتظره من الحساب؟ يتفكر في نعيم القبر وعذابه وأهوال الموقف يوم القيامة.

قال ابن الجوزي: «فتارة تقع اليقظة بمجرد فكرٍ يوجبه نظر العقل، فيتَلَمَّح الإنسان وجود نفسه، فيعلم أن لها صانعًا، وقد طالبه بحقِّه، وشكرِ نعمته، وخوفِه عقاب مخالفته»[2].

٣. التدبر:

بأن يتدبر في آيات القرآن، وليس من شرط التدبر كثرة قراءة القرآن، فقد تجد الإنسان العابر للطريق يسمع أثناء مروره الكلمة من القرآن تلامس شغاف قلبه فتكون بتوفيق الله جديرة بأن توقظه. وقد كان سبب يقظة كثير من العصاة سماعهم لآية من القرآن طرقت باب قلوبهم فانتفض من سبات الغفلة[3].

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ولم يذكر قائله.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٦٦).

(٣) ينظر: منزلة اليقظة لفريد الأنصاري (ص: ٣٢-٣٣).

٤. مطالعة النعم:

إن نعم الله متدفقة كالبحر تحيط العباد من كل مكان، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فمن نظر إلىٰ تلك النِّعَم وطالع عظيم فضل الله عليه وتسخير ما في الكون من أجله فإنه يستحي من نفسه كيف يقابل تلك النِّعَم بالإعراض والغفلة عن المنعم(١).

٥. ذكر الموت وزيارة القبور:

ورد في الحديث عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكىٰ وأبكىٰ مَن حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يُؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تُذَكِّر الموت»(٢). فاستحضار العبد لأحوال الموتىٰ وما صاروا إليه بعد النعيم الذي كانوا فيه، وأنه عما قريب سيؤول حاله إلىٰ ما صاروا إليه، ويفقد كل ما في يده من حطام الدنيا يجعله متيقظًا مُشمِّرًا. ورد أن ابن مطيعٍ نظر ذات يوم إلىٰ داره، فأعجبه حُسْنُها، فبكىٰ، وقال: «والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لَقَرَّت بالدنيا أعيُنُنا»(٣).

ومن النّاس مَن يعيش شقيّا   جِيفةَ اللّيل غافلَ اليقظة
فـإذا كان ذا حيـاءٍ وديـنٍ   راقب اللهَ واتّقى الحفَظَة
إنّمـا النّـاس سـائرٌ ومقيـمٌ   والّذي سار للمُقيم عِظَة(٤)

---

(١) ينظر: المصدر السابق (ص: ٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٦٥) برقم: (٢٢٤٣).

(٣) قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٦).

(٤) الأبيات رويت عن عمر بن عبد العزيز. الاشتقاق لابن دريد (ص: ٣٤).



مراتب اليقظة

ليقظة القلب مراتب كما هو في قياس يقظة النفس في البدن، فلحظة الاستيقاظ من النوم ليست مماثلة للحظة المشي بعد اليقظة، ولحظة المشي ليست شبيهة بلحظة الوضوء، وليست محاكية للحظة اليقظة أثناء الصلاة، وهٰكذا يقظة القلب الإيمانية، فإن القلب ينتقل من مرتبة إلىٰ مرتبة، ويستمر في الصعود حتىٰ يحتل المرتبة الأولىٰ. ويمكننا تقسيم اليقظة إلى المراتب الآتية[1]:

١. بداية اليقظة:

تبدأ اليقظة -في الغالب- ببصيصٍ من النور يجعل القلب يفيق قليلًا من غفلته ويستيقظ من سُباته، ليبدأ معها العقل في التفكير في حقيقة الحياة والموت، ويزداد شغفه للتعرف علىٰ تفاصيل ما يحدث بعد الموت، ومن المتوقع في هٰذه المرحلة، سيطرة الشعور بالندم على القلب كلما استرجع ذكريات الماضي، والأخطاء التي وقع فيها في حق الله، وفي حق الآخرين، فيدفعه هٰذا الشعور إلى الحياء من الله عز وجل والرجاء في عفوه ومغفرته وتوبته، ويدفعه كذٰلك إلىٰ العمل علىٰ رد الحقوق التي استلبها من الآخرين.

ومن المتوقع في هٰذه المرحلة أن يَصغُر حجم الدنيا -ولو قليلًا- في عين العبد، وينعكس ذٰلك علىٰ تعامله مع مفرداتها، فبعد أن كان يُسابق ويُنافس عليها تجد حرصه عليها يتناقص، ليثمر ذٰلك تحسنًا ملحوظًا في المعاملات والعمل علىٰ ضبطها بضوابط الشرع، وإن بقي الكثير من حب الدنيا في القلب.

---

(١) ينظر: نظرات في التربية الإيمانية لمجدي الهلالي (٣٠-٣٢).

ومن أهم المظاهر العملية لهٰذه المرحلة: الاتجاه الإيجابي نحو أداء العبادات وفضائل الأعمال؛ من الحرص علىٰ أداء الصلوات المكتوبة في أول وقتها، والإكثار من النوافل وصيام التطوع، وتلاوة القرآن.

٢. تمكُّن واستحكام اليقظة:

ينتقل إلىٰ هٰذه المرحلة من مَنّ الله عليه بالثبات، فيزداد حرصًا علىٰ فعل الخير، ويزداد ورعه، وتقِلُّ عنده الرغبة بالدنيا؛ وذٰلك بعدم الفرح الشديد بإقبالها وزيادتها، أو الحزن العميق علىٰ فواتها ونُقصانها، ويزداد عنده التفكير في الموت وإمكانية لقاء الله في أي وقت، مما يدفعه إلىٰ زيادة التشمير والسباق نحو فعل الخير.

وقد أخبرنا النبي ﷺ بهٰذه العلامات، فقال: «إن الإيمان إذا دخل القلبَ انفسح له القلب وانشرح»، وذكر هٰذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قالوا: يا رسول اللّٰه، وهل لذٰلك من آية يُعرف بها؟ قال: «نعم؛ الإنابة إلىٰ دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت»[(١)].

٣. استمرار النمو الحقيقي للإيمان:

عندما تتمكن اليقظة من القلب ويستمر الإمداد، ومن ثَمَّ النمو والارتقاء الإيماني، فإن ذٰلك من شأنه أن ينعكس علىٰ معاملات العبد في شتى المجالات، وبخاصة في تعامله مع ربه، ومع الدنيا، ومع المال، ومع الناس، ومع أحداث الحياة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٥٤) برقم: (٣٥٤٥٥)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٣١١) برقم: (٧٩٥٨)؛ والبيهقي في الزهد الكبير (ص: ٣٥٦) برقم: (٩٧٤). وقال السيوطي: مرسل له شواهد كثيرة متصلة ومرسلة يرتقي بها إلىٰ درجة الصحة أو الحسن. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٢٥٤).

هٰذا النمو من شأنه كذٰلك أن ينقل القلب من مرحلة إلىٰ مرحلة في رحلة سيره إلى الله، حتىٰ يصل إلىٰ أقرب ما يُمكن أن يصل إليه عبدٌ في هٰذه الرحلة بعد الأنبياء، حيث الحضور القلبي الدائم مع الله، أو بمعنىٰ آخر: القلب السليم الأبيض الذي لا تضُرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض كما في الحديث.

مظاهر اليقظة وعلامات التحقق بها[1]

١. التعامل مع الدنيا:

عندما يكون الإيمان مُخَدَّرًا نائمًا مُنزويًا في القلب تجد صاحبه غافلًا، لا يستطيع أن يرى الدنيا علىٰ حقيقتها، بل يراها جميلة مبهرة تذهب بالأبصار، فيشتد حرصه عليها، ويزداد فكره فيها وفي كيفية تحصيلها، فتجد الناس يتنافسون على الدنيا، ويفرحون بتحصيل أي شيء منها، ويظنُّون أن هٰذا هو غاية السعادة، فإذا ما استيقظ الإيمان في قلوب بعضهم، واستحكمت اليقظة منها، فإنهم -وبصورة تلقائية- لا يجدون في أنفسهم رغبة في مشاركة من حولهم في اللهو، وتنصرف رغبتهم -شيئًا فشيئًا- عنها.. هٰذا التحول هو انعكاس لطبيعة مرحلة «النمو الإيماني» الذي ارتقوا إليه؛ كحال من انتقل إلىٰ مرحلة البلوغ من الأطفال عندما يأتيه أبوه بالدُّمية التي طالما تاقت نفسه إليها في الصِغَر، فإذا به يتعامل معها بدون لهفة ولا شغف، وسُرعان ما يتركها ولا يُبالي بها.

٢. التعامل مع المال:

الكثير من الناس يظنُّون أنهم يستطيعون بالمال أن يُحققوا جميع أمانيهم ويجلبوا لأنفسهم السعادة، ولأن الشيطان يعلم طبيعة النفس وحبها الشديد للمال،

---

(١) ينظر: نظرات في التربية الإيمانية لمجدي الهلالي (١/ ٣٢-٣٣)

فإن من مداخله الرئيسية على الناس: إزكاء هٰذه الطبيعة فيهم، وتخويفهم من الفقر، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ولٰكن إذا ما استيقظ الإيمان يقظة حقيقية كان من أهم علامات التغيير الذي يحدث للمرء:

أ. قلة النَّهَم والشَّغَف بالمال -نسبيًّا- في ذات العبد، وكلَّما نمَا الإيمان أكثر انعكس ذٰلك علىٰ طريقة تعامله معه، فيزداد إنفاقه في أوجه الخير المختلفة، ويسهل عليه اتخاذ قرار الإنفاق، وشيئًا فشيئًا ينقطع تعلق القلب بالمال، ومن ثَمَّ يصير حُرًّا منه، لا عبدًا له.

ب. نقص ملحوظ في فرحه عندما يُفاجَأ بزيادة رصيده من المال، أو عند الفوز بصفقة رابحة، وكذٰلك نقص ملحوظ في حزنه عند فقده جزءًا من ماله.

ج. السماحة في البيع والشراء، فلا يُدقق في سعر الشيء ليشتريه بأرخص الأسعار، أو يُغالي فيه ليبيعه بأعلاها.

وليس معنىٰ هٰذا هو حب الفقر والرغبة فيه، ولكننا نتكلم هنا عن حالة إيمانية سامقة يعيشها القلب تدفعه إلى الضَّنِّ بالمال على الدنيا، والاكتفاء بأقل القليل لتيسير أموره فيها، وإرسال كل ما يُمكن إرساله إلى الدار الباقية.

٣. التعامل مع أحداث الحياة:

الحياة الدنيوية ما هي إلا مشهد عظيم تتجلىٰ فيه مظاهر صفات الله عز وجل، والهدف العظيم من وجود المخلوقات بهٰذه الكثرة على اختلاف أشكالها وألوانها، ومن تقلبات أحداث الحياة من سرَّاء وضرَّاء، وعطاء ومنع... إنما هو الدلالة على الله وإظهار قدرته وقيُّوميته سبحانه، لٰكن ظلمات الهوىٰ قد تحُول بين العبد وبين الرؤية الصحيحة والتحليل الحقيقي لهٰذه المشاهد والأحداث،

فإذا ما استيقظ الإيمان فإنه يُحْدِث في القلب نورًا يجعله ينتبه لِما يجري حوله، فيربط الأحداث والمشاهد بالله عز وجل؛ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤]، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وكان ﷺ يعيش بكيانه كله في هٰذه الحقيقة؛ فعندما مات ابن لابنته زينب أرسل يقول لها: «إن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ، وكلٌّ عنده بأجلٍ مُسمًّىٰ»(١).

٤. التعامل مع المنع والعطاء:

ينعكس النمو الإيماني علىٰ طريقة تعامل العبد مع المنع والعطاء؛ فتجده يربط النعم التي تَرِد عليه بالله المنعم، ويفرح بفضله سبحانه، ويستكثر علىٰ نفسه هٰذا الفضل، ومن ثَمَّ تهيج مشاعر الامتنان لله عز وجل في قلبه ليعيش حالة القلب الشاكر. وفي أوقات المحن والبلايا تجده -وإن تضايق قليلًا في البداية- إلَّا أنه سرعان ما يعود به إيمانه إلى الصبر وعدم الجزع أو التَّسَخُّط، بل -مع استمرار النمو الإيماني- يعيش المرء في حالة الرضا عن الله، فيسكن قلبه مهما تقلَّبت به الأحداث، ويزداد فهمه كذٰلك لأحداث الحياة وتقلباتها -وبخاصة المؤلمة منها- لتتحول كلها في نظره إلىٰ عطاء من الله عز وجل؛ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

الآفات التي تَعرِض لليقظة

١. الاغترار ببدايات اليقظة:

هناك قسم من الذين مَنَّ الله عليه بالتزام طريق الهداية يفرح بآثار التغيير المحدود الذي حدث له، ثم ما يلبث أن تفتر همته وعزيمته للعمل على استكمال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم: (١٢٨٤).

الترقي الإيماني، ويكتفي بما صار إليه، ولـم يعلم أن الإيمان يزيد وينقص، وأن النفس له بالمرصاد؛ مما يجعل الإيمان يتناقص في قلبه شيئًا فشيئًا، فتعود -بالتدريج- السيطرةُ للهوىٰ، مما يؤثر بالسلب على اهتماماته وسلوكياته.

نعم، في الغالب لن يعود لسابق عهده من الغفلة الشديدة والنوم العميق والسيطرة التامة للهوىٰ، إلا أن أحواله الإيجابية ستقِلُّ كثيرًا عن المستوى الذي بدأ به مرحلة «بداية اليقظة»، فهو يُصلي لكنه ليس -كالسابق- حريصًا علىٰ الصلاة في أول وقتها بالمسجد، وبخاصة صلاة الفجر، وهو لا يسرق، لكنه غير منضبط انضباطًا صحيحًا في معاملاته المادية، ولا يكذب، لكنه قد لا يقول الحقيقة كاملة تنصُّلًا من لوم الآخرين أو تحقيقًا لمصلحة.

٢. المبالغة في الطاعات:

كثير من الذين استيقظوا بعد غفلة طويلة قد يحملهم فرحهم بالهداية وتذوقهم للذة الطاعة إلىٰ أن يُلزموا أنفسهم بعبادات مرهقة فوق طاقتهم، وتشددوا في أمور مختلف فيها وفيها سعة ظنًّا أن ذٰلك هو الدين، فتجدهم بعد فترة من الزمن تفتر همتهم وتضعف عزيمتهم؛ وذٰلك لصعوبة ما ألزموا أنفسهم به، فتملّ نفوسهم، وتتعب أبدانهم، مما يسبب لهم نفورًا، وربما ينقلبون إلىٰ سابق عهدهم.

ولذٰلك أمر النبي ﷺ بالاعتدال في الطاعة، وعدم إرهاق النفس بها؛ ففي الحديث عن عائشة ﵂ قالت: كانت عندي امرأة من بني أسد، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: «من هٰذه»؟ قلت: فلانة، لا تنام بالليل، فذُكِر من صلاتها، فقال: «مَهْ، عليكم ما تطيقون من الأعمال؛ فإن الله لا يَمَلّ حتىٰ تَمَلُّوا»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤) برقم: (١١٥١)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٩٠) برقم: (٧٨٥).

وعن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، وحبلٌ ممدودٌ بين ساريتين، فقال: «ما هٰذا»؟ قالوا: لزينب، تُصلي فإذا كَسَلَت أو فترت أمسكت به، فقال: «حُلُّوه، لِيُصَلِّ أحدُكم نشاطَه، فإذا كَسَل أو فَتَر فليقعد»(١).

نموذج من يقظة الصالحين

كثير من الصالحين كانوا في بداية حياتهم منغمسين في الملذات والمعاصي، ولٰكنهم في لحظة واحدة حدث معهم موقف قلب حياتهم رأسًا علىٰ عقب، وكان ذٰلك هو سبب يقظتهم من غفلتهم، ومن ذٰلك، ما حدث مع بِشْر الحافي:

حكي أن بِشرًا كان في زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون، فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدقَّ الباب، فخرجت إليه جارية، فقال: صاحب هٰذه الدار حُرٌّ أو عبد؟ فقالت: بل حُرّ! فقال: صدقتِ، لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب، فسمع بِشر محاورتهما، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولَّى الرجل، فقال للجارية: ويحكِ! مَن كلَّمك على الباب؟ فأخبرته بما جرىٰ، فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا.

فتبعه بِشر حتىٰ لحقه، فقال له: يا سيدي، أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم، قال: أعِد علي الكلام، فأعاده عليه، فمَرَّغ بِشْرٌ خدَّيه علىٰ الأرض وقال: بل عبدٌ عبد، ثم هام علىٰ وجهه حافيًا حاسرًا حتىٰ عُرِف بالحفاء. فقيل له: لم لا تلبس نعلًا؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ، فلا أزول عن هٰذه الحالة حتى الممات(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣) برقم: (١١٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٩) برقم: (٧٨٤).
(٢) ينظر: التوابين لابن قدامة (ص: ١٢٩).

المقترحات العملية والتدريبات

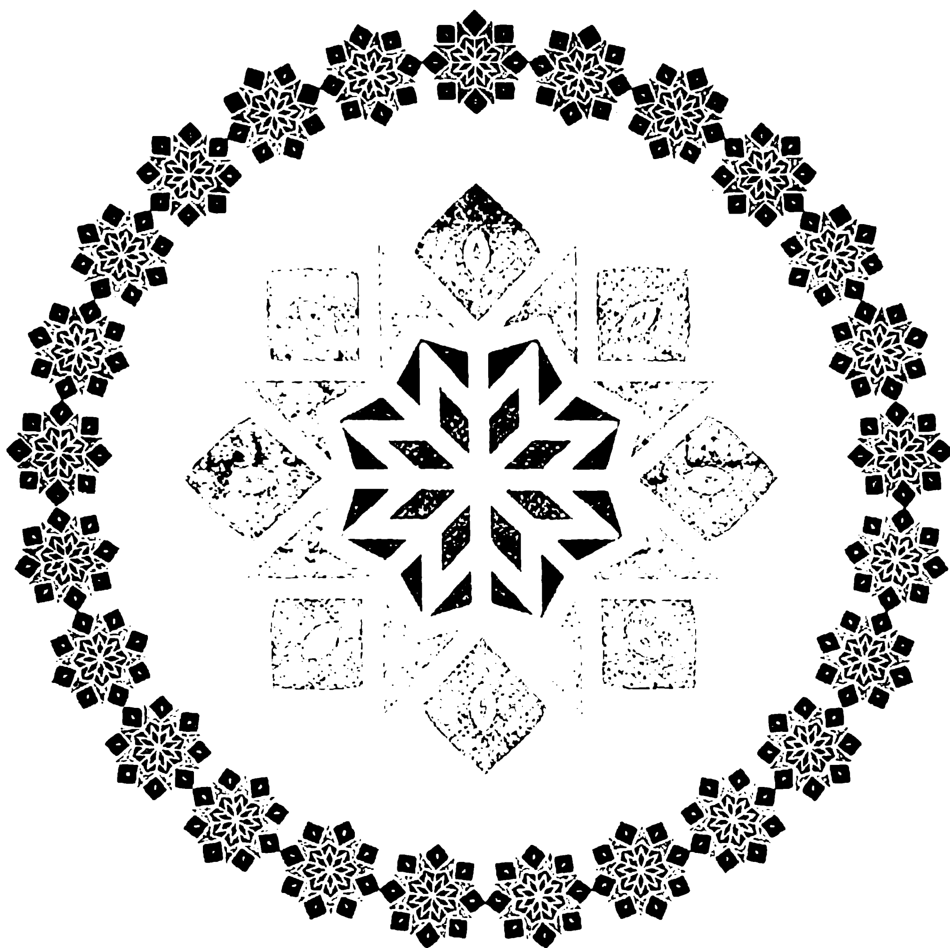
١. استمع إلى محاضرة (منزلة اليقظة) لفريد الأنصاري، ضمن سلسلة منازل الإيمان.

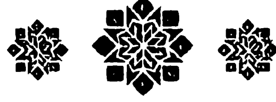
٢. اقرأ كتاب (نظرات في التربية الإيمانية) لمجدي الهلالي.

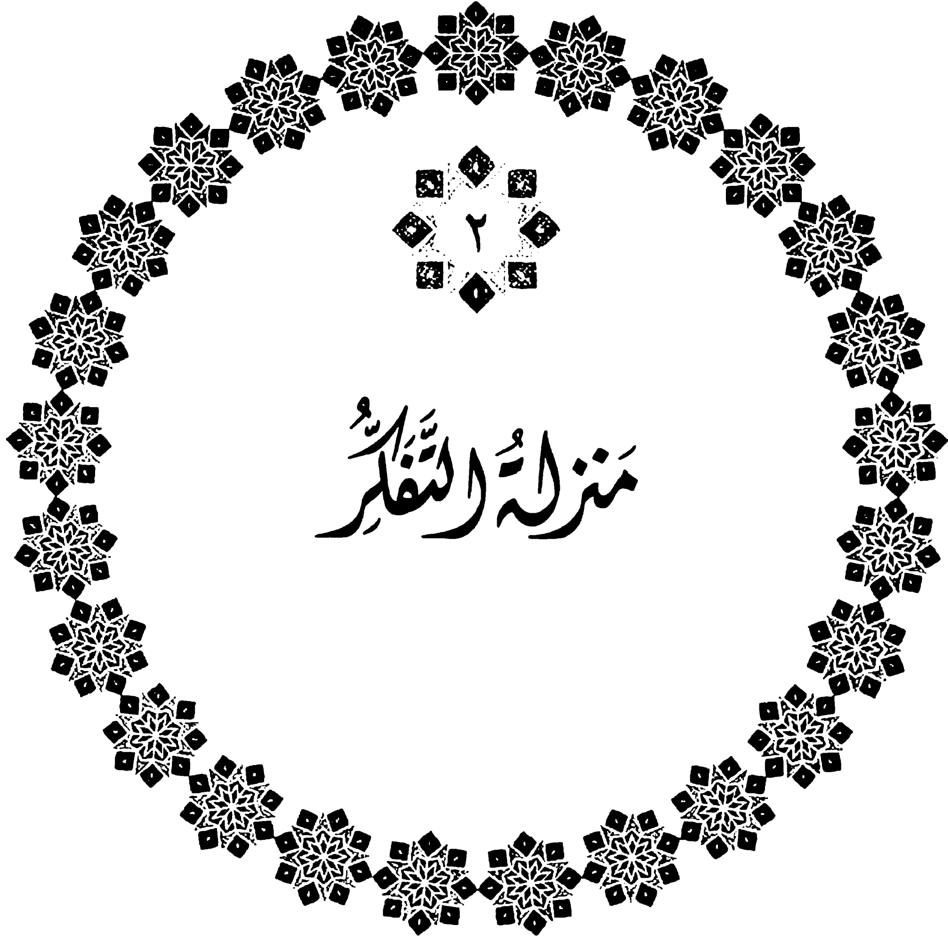
٣. اربط نفسك بمجموعة من طلاب العلم ومَن تثق بدينه وعلمه من أهل التزكية والسلوك، تلتقون ولو مرة في الأسبوع، تتدارسون أحد الكتب، وتتواصون على الخير.

٤. هناك عدد من المحاضرات الإيمانية والتربوية على اليوتيوب، ومن ذلك سلسلة (التربية الإيمانية) لفاضل سليمان، فاجعل لنفسك برنامجًا للاستماع لتلك المحاضرات، فتتجدد يقظتك ويقوى إيمانك.



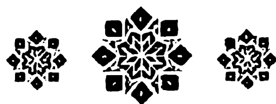



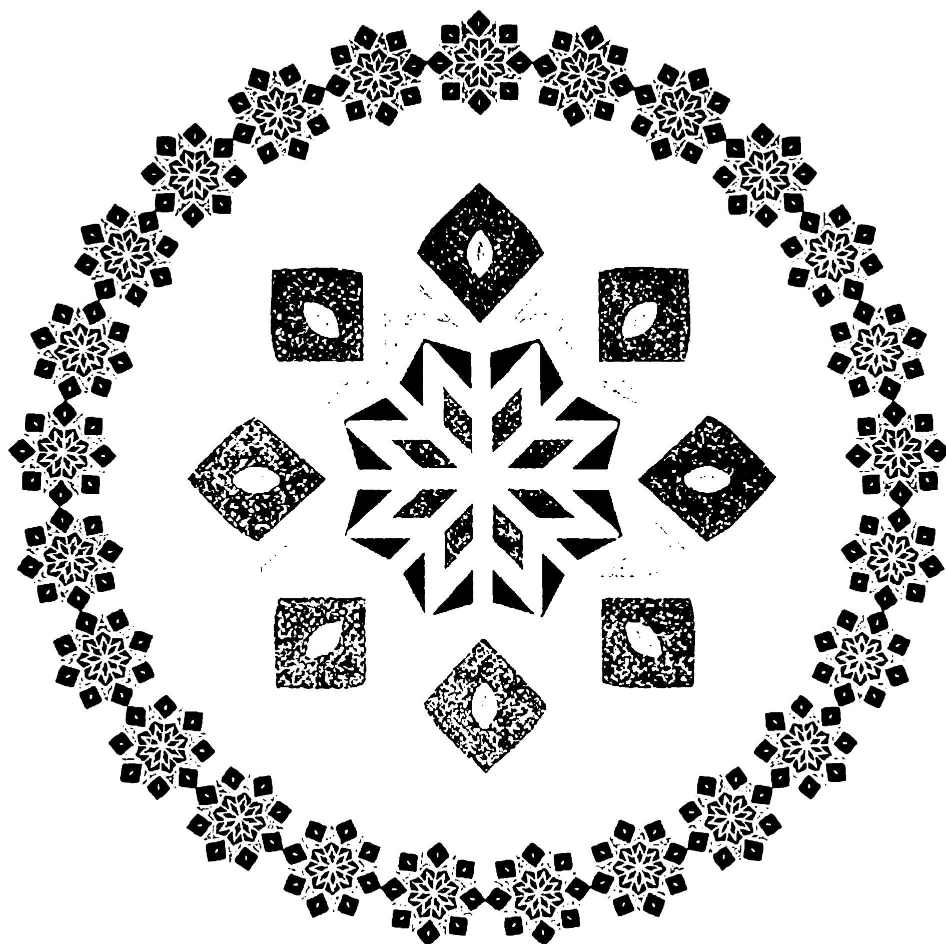


٢

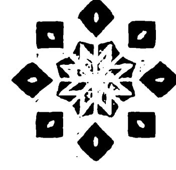
منزلة التفكر



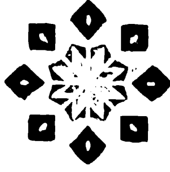








منزلة التفكر



بين يدي التفكر

إن من أعظم ما يزيد الإيمانَ في القلب أن يُحرِّكَ القلبُ بالتدبر والتفكر؛ يتدبرُ آياتِ الله المتلوَّة، ويتفكرُ في آياته المنظورة، وهي المخلوقات. فالتفكر من أعظم العبادات؛ فبهٰذه العبادة تُتْرَك المعاصي، وبها يعرف العبد ربه ويُحبه، وبها يرقّ القلب ويتصل بالله عز وجل. وإن أنفع الفكر هو الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وطرق اجتنابها، والفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه.

والتفكر هو مفتاح كل خير وعمل صالح، ولذٰلك رأىٰ بعض علماء السلوك أن التفكر هو أول المنازل، ومنه يبدأ السير إلى الله تعالىٰ؛ ورد عن الحسن أنه قال: «أوصيكم بتقوى الله، وإدمان الفكر، فإن الفكر أبو كل بِرٍّ وأُمُّه، مُفَتِّح خلال الخير كله، وبه يحضر تسديد الله عز وجل كلَّ مُوَفَّق»(١). والقلب المتفكر في آلاء الله يكتشف الخواطر الشريرة التي تمر علىٰ ذهنه بسهولة؛ بفضل حساسيته المفرطة التي اكتسبها من إدامة التفكر.

وإذا تفكر العبد في عظمة الله عز وجل، ووحدانيته، وحكمه، وتدبيره، وسلطانه، سطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك، وظلمة الريب؛ يقول خليفة العبدي: «لو أن الله تبارك وتعالىٰ لم يُعبَد إلا عن رؤيةٍ ما عبَدَه أحد،

(١) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٢٦٠).

ولـٰكن المؤمنين تفكروا في مجيء هـٰذا الليل إذا جاء فملأ كل شيء، وغطىٰ كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالىٰ، حتىٰ أيقنت قلوبهم بربهم عز وجل، وحتىٰ كأنما عبدوا الله تبارك وتعالىٰ عن رؤية»[1].

موضوعات التفكر في القرآن الكريم تراوحت ما بين التفكر في عظمة الخالق وآياته في الكون الشاسع، والتفكر في النفس التي بين جنبي الإنسان، والتفكر في حقيقة أمر الرسول ﷺ، وما جاء به عن ربه، والتفكر في حقيقة الدنيا وسرعة زوالها، والموت وحقيقة وقوعه، والتفكر في حِكَم بعض التشريعات خاصة المتعلقة منها بالفقه، والتفكر في عاقبة من لم ينفعه علمه ونكص علىٰ عقبيه، والتفكر في عظم القرآن وعظم آثاره، والتفكر في نِعَم الله التي لا تحصىٰ.

حقيقة التفكر

التفكر لغة:

التفكُّر: التأمل، مأخوذ من فكَر، مصدره: فِكر وفَكر، وفكَّر في أمره: مبالغة في فكَر؛ أي: أكثر من الفكر، والفِكر: جوَلان الخاطر في النفس لترتيب أمور معلومة يُتوصل بها إلىٰ مجهول. والتفكر: قوة مُطَرِّقة للعلم إلى المعلوم، وهو جَوَلان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب[2].

(١) المصدر السابق (١/ ٣٢٥).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٦٤٣)؛ التعريفات للجرجاني (ص: ١٦٨)؛ التوقيف علىٰ مهمات التعريف للمناوي (ص: ٢٦٣).

فالتفكر تفاعل مستمر في العقل الإنساني يصور رؤىٰ ومشاهد وحوارًا لا صوت له إلا في الوجود الداخلي للفرد.

التفكر اصطلاحًا:

عرّف الغزالي الفكر فقال: «هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة». ثم شرح الغزالي هٰذا التعريف بمثال، فقال: «ومثاله: أن مَن مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولىٰ بالإيثار من العاجلة فله طريقان؛ أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولىٰ بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر... وهٰذا يسمىٰ تقليدًا ولا يسمىٰ معرفة. والطريق الثاني: أن يعرف أن الأبقىٰ أولىٰ بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقىٰ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولىٰ بالإيثار. ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولىٰ بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين، فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمىٰ تفكرًا واعتبارًا وتذكُّرًا ونظرًا وتأمُّلًا وتدبُّرًا»(1).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

التذكر:

التذكر: تفعُّلٌ من الذِّكر، وهو ضدُّ النِّسيان، وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من معلومات، والذِّكْر هو فائدة التذَكُّر، وهو رجوع الصورة المطلوبة إلىٰ الذِّهْن، والذكر له علاقة بالاعتبار، فمن الذكر: الذكرى التي تدل على العبرة(2).

---

(1) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٢٥).

(2) ينظر: الفوائد السنية في شرح الألفية لمحمد بن عبد الدائم البرماوي (١/ ١٣١)؛ مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم لمحمد المجالي (ص: ٣٧).

والتفكر قبل التذكُّر؛ لأن التفكر طلب واستدعاء لشيء مفقود عند احتجاب القلب بالشهوات، فيجلو التفَكُّرُ الغشاوةَ عن القلب، فيلْمَس التقصير ويتدارك الموقف.

وأما التذكر فهو لشيء موجود؛ لأنه يكون لِمَا حصل بالتفكر، ولكنه غاب عنه بالنسيان، فإذا تذكره وجده وظفر به. فمنزلة التذكر من التفكر منزلة حصول الشي المطلوب بعد التفتيش عنه(1).

التدبّر:

قال الغزالي: «أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة»(2). إلا أننا لو نظرنا إلى المعنى اللغوي للتدبر لتبين أن هناك فرقًا دقيقًا بينه وبين التفكر، وذلك لأن التدبر: هو النظر في الأمر إلى آخره، وهو مِن دبر الشيء: آخِره. التدبير: النظر في دُبُر الأمور وتأملها، وقد يقال ذلك في تأمل الشيء بعد حصوله ومعرفة خيره من شره، وصلاحه من فساده(3).

فالتدبر نوع من التفكر ولكنه مختص بعواقب الأمور، وقد اقترن التدبر بالقرآن فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، فالله يريدنا أن لا نقف عند ظاهر النص فقط، بل نتفكر فيه إلى درجة التدبر والوصول إلى دبر النص، بمعنى التعمق في مدلولاته والوقوف على لؤلؤه ووجوه هدايته.

---

(1) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (2/ 69).

(2) إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 426).

(3) ينظر: تفسير السمعاني (1/ 452)؛ تفسير الراغب الأصفهاني (3/ 1348).

فضل التفكر وثمراته

١. التفكر من أعظم العبادات:

أمَر الله تعالىٰ بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأثنىٰ علىٰ المتفكرين؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّر خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساه»(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»(٢). وعن صالح بن محمد الليثي، قال: «كان فتيةٌ من بني ليث يختلفون إلىٰ مسجد رسول الله ﷺ، يصومون ويقومون بين الأولىٰ والعصر، فقلت لسعيد بن المسيب: يا أبا محمد، ما يمنعنا أن نفعل ما يفعل هؤلاء الليثيون؟ هذا والله حق العبادة، قال: فقال لي سعيد: «اسكت، فإن عبادة الله ليست بالصوم والصلاة، ولكن بالفقه في دينه، والتفكر في أمره»(٣).

وقال محمد بن كعب القرظي: «لَأن أقرأ في ليلتي حتىٰ أُصبح بـ (إذا زلزلت)، و(القارعة) لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر؛ أحب إلي من أن أَهُذّ القرآن ليلتي»، أو قال: «أنثره نثرًا»(٤).

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٩٧).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣٣٢)؛ الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٤/ ٣٥٣).

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ١١٧).

(٤) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٧٩).

٢. التفكر يورث الإيمان واليقين:

كلما تفكر الإنسان أكثر زاد يقينه وإيمانه، واطمأن قلبه، قال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وقال عامر بن عبد قيس: «سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان التفكر»[١].

٣. التفكر يورث زيادة الخوف من الله تعالىٰ:

قال حاتم الأصم: «من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف»[٢]. وقال بشر بن الحارث: «لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوا الله»[٣].

٤. التفكر يورث إعظام الله ومحبته:

فالعبد كلما نظر في الخلق وتفكر في دقة الصنع وروعة التنسيق وجمال التصميم في المخلوقات كلما ازداد تعظيمًا للخالق جل جلاله، وكلما تفكر في التشريعات ورأفة الله بعباده وتخفيفه عنهم وعظيم ثوابه وجزائه كلما ازداد محبة له سبحانه؛ يقول عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: «ما رأس هٰذا الدين وصلاحه إلا التفكر، تتفكر فتنظر أنه أخذ منك قليلًا من العمل، ورضي به لنفسه، وهو الرب تبارك وتعالىٰ، فأنت العبد ما كلفك واحدة من ثنتين، ما كلفك قدر حقه فلا تطيقه، وما كلفك ما لا تستطيع، فقال: اعمل علىٰ قدر حقي، فأعطاك الثواب علىٰ قدر كرمه وتوسعه، وقبل منك العمل علىٰ ضعف بني آدم»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٢٥).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٣٧).

(٤) العظيمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٢٢٨).

٥. اغتنام الوقت والمسارعة في الخيرات:

فإذا فكر العبد في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخسَّتها وفنائها أثمرَ له ذٰلك الرغبةَ في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكَّر في قِصَر الأمل وضيق الوقت أورثه ذٰلك الجدَّ والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهٰذه الأفكار تُعلِي همته، وتُحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في وادٍ والناس في وادٍ[(١)]؛ قال وهب بن منبه ﷺ: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل»[(٢)].

٦. عدم التفكر يؤدي إلى الضلال:

عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢]، يقول: «من كان في الدنيا أعمىٰ عمَّا يرىٰ من قُدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب، وأشباه هٰذا، فهو عَمّا وصفت له في الآخرة ولم يَره أعمىٰ وأضل سبيلًا، يقول: وأبعد حجة»[(٣)].

وقد ذم الله تعالىٰ من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة علىٰ ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

٧. التفكر يؤدي إلىٰ معرفة قدر النفس:

كتب عمر بن الخطاب ﷺ، إلىٰ أبي موسى الأشعري ﷺ: «وإذا أحببت أن تحقِر عملك، فتفكر فيما أنعم الله عليك، وقدر ما عمل الصالحون قبلك،

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٨٧).
(٢) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٣١٣).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٤٠).

وقدر عقوبته في الذنوب، إنما فعل بآدم الذي فعل بأكلة أكلها، فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وإنما لعن إبليس وجعله شيطانًا رجيمًا من أجل سجدة أبىٰ أن يسجدها، وجعل منهم قردة وخنازير من أجل حيتان أصابوها يوم السبت، وقد نُهوا أن يَعدُوا فيه، فتفَكَّر في نعيم الجنة وملكها وكرامتها، فإذا فكرت في هٰذا كله عرفت نفسك، وحقرت عملك، وعلمت أن عملك لن يغني عنك شيئًا إلا أن يتغمدك الله برحمته، وبعفوه»[١].

٨. التفكر مفتاح كل خير:

وذٰلك لأن مبدأ كل عمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل؛ قال الغزالي: «فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر؛ فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهٰذا هو الذىٰ يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن الفكر ذكرٌ وزيادة»[٢]. وعن الحسن رحمه الله، قال: «أوصيكم بتقوى الله، وإدمان الفكر، فإن الفكر أبو كل بِرٍّ وأمُّه، مُفَتِّح خلال الخير كله، وبه يحضر تسديد الله عز وجل كلَّ مُوَفَّق»[٣].

شروط التفكر

التفكر الذي له أثر في زيادة إيمان العبد لا بد له من تحقق شرطين؛ نستفيدهما من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]،

(١) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٢٤٦).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٢٦).
(٣) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٢٦٠).

فالمنتفع بالآيات وبالتفكر فيها لا بد أن يتحقق فيه هٰذان الشرطان[1]، وهما:

١. سلامة القلب وصحته وقبوله:

أي أن يكون له قلب واعٍ وقّاد، فمن امتلك قلبًا سليمًا كان كل ما حوله يدعوه إلى التفكر والتأمل، فحيثما يلتفت يجد ما يُذكّره بعظمة الله ونعمه وآلائه، فلا يحتاج إلى استجلاب حضور قلبه ليشهد ذٰلك، بل قلبه واعٍ حاضر، وهٰذا حال أهل الكمال.

٢. إلقاء السمع وإصغاؤه:

بأن يستمع لآيات الله تعالىٰ مع استجماع القلب واستحضاره، أو يستجمع قلبه ويستحضره عند النظر في آيات الكون من حوله، فلا يشغل قلبَه بغير ما يستمع إليه ويتفكر به.

مراتب التفكر

التفكر يمر بثلاث مراحل متداخلة، تنتهي بمرحلة رابعة، وهي كالتالي[2]:

١. التفكر في المخلوقات:

وهو يبدأ أولًا بالمعارف التي تحصل بالإدراك الحسي المباشر؛ بالنظر والسمع واللمس وغيرها من الحواس، أو التي تأتي بطريق غير مباشر؛ كما في التخيل، أو المعارف العقلية المجردة، فإذا دقق الإنسان فيها النظر وتعرف علىٰ بعض خصائصها الجمالية ودقة صنعها، فإنه ينتقل إلى المرحلة التي بعدها.

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٤٨٥-٤٨٨).

(٢) ينظر: التفكر من المشاهدة إلى الشهود لمالك بدري (٤٢/ ٤٣).

٢. تذوق دقة الصنع وجمال التنسيق:

وهٰذه تحصل كنتيجة للمرحلة السابقة، فإذا ما أمعن النظر في جمال وتناسق المخلوقات فإنه يتولد له إحساس مرهف ومشاعر متدفقة تجاه هٰذا الجمال وهٰذه الدقة في التصميم.

٣. إجلال وتعظيم الخالق سبحانه:

المرحلتان السابقتان قد يشترك فيهما المؤمن والكافر، فقد يحدث للكافر انبهارٌ من دقة الصنعة وجمال التنسيق في المخلوقات، ولٰكن لا يتخطىٰ نظره إلىٰ مبدع هٰذا الجمال، أما المؤمن فإنه ينتقل بفكره ليربط هٰذا الجمال وهٰذه الدقة في الصنع بالمبدع سبحانه، فيزداد خشوعًا وإجلالًا وتعظيمًا لله سبحانه.

٤. الوصول إلىٰ مرحلة البصيرة:

إذا داوم المؤمن على التفكر في المخلوقات بحيث أصبح التفكر عادة متأصلة فيه، فإن الأشياء العادية المألوفة التي كان يمر عليها غافلًا تصبح مصدر إثراء لفكره، حتىٰ يصبح كل شيء مثيرًا للفكر ومحرِّكًا للتأمل، وهٰذه المرحلة هي مرحلة الشهود التي يتحدث عنها كثير من العلماء، قال ابن القيم: «ثمّ يفتح له الشُّعور بمشهد القيُّوميَّة؛ فيرىٰ سائر التقلُّبات الكونيَّة وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده... وعند ذٰلك إذا وقع نظرُه علىٰ شيءٍ من المخلوقات دلَّه علىٰ خالقه وبارئه، وصفاتِ كماله ونعوت جلاله، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه»[1].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٣٤٦).

أنواع التفكر

إن حصر أنواع التفكر باعتبار المتفكرين فيه أمر صعب، ولكن سنذكر أنواعًا مجملة منه، فمن أنواع التفكر:

١. التفكر في النفس وشأنها:

فيتفكر ويسأل نفسه: مَن أنا؟ ومَن خلقني؟ وإلىٰ أين المصير؟ فإذا عرف حقيقة نفسه وأنه عبد مخلوق لله تعالىٰ، خلقه لعبادته، وأن المصير إليه ليحاسبه علىٰ ما قدم، دفعه ذٰلك إلىٰ عبادة ربه وأداء حقوقه عليه، وينشغل بمحاسبة نفسه ومراقبة تصرفاته.

٢. التفكر في نِعَم الله:

إن التفكر في نِعم الله تعالى التي لا حصر لها يورث محبة الله تعالىٰ، وخير معين على التفكر في تلك النعم هو قراءة سورة النحل التي سميت بسورة النِّعَم؛ لما ورد فيها من أصول النِّعم؛ من نحو: نعمة الهداية والإيمان، إلى المطعومات والمشروبات والملبوسات والمسكن، والصحة، والرزق، والأزواج والأولاد.

٣. التفكر والاتعاظ بالموت:

المؤمن يجعل تذكره للموت إيجابيًّا، يدفعه لزيادة رصيده من الأعمال الصالحة، والحسنات الكثيرة؛ يقول ابن الجوزي: «وأي موعظةٍ أبلغ من أن ترىٰ ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيامٍ مثلهم!». وقال: «والمؤمن إذا رأىٰ ظلمةً ذكَر ظلمةَ القبر، وإن رأىٰ مؤلمًا ذكر العقاب، وإن سمع صوتًا فظيعًا ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نيامًا ذكر الموتىٰ في القبور،

وإن رأىٰ لَذةً ذَكَر الجنة، فهمّته متعلقة بما ثَمَّ، وذٰلك يشغله عن كل ما تمَّ»[1].

وقال يزيد بن تميم: «من لم يردعه القرآن والموت، ثم تناطحت الجبال بين يديه لم يردع»[2].

٤. التفكر في الحشر والحساب:

لو تفكر العبد فيما يأتي عليه بعد الموت وحياة البرزخ من النفخ في الصور والسير إلى الأرض المحشر وما يتبع ذٰلك من أهوال الموقف بين يدي الله تعالىٰ للحساب لسارع إلىٰ تقديم ما ينجيه من تلك الأهوال، يقول المحاسبي واصفًا مشهد النفخ في الصور وما يتبعه: «فتوهم كيف وقع الصوت في مسامعك وعقلك، وتفهَّم بعقلك بأنك تُدعىٰ إلى العرض على الملك الأعلىٰ، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء؛ لأنها صيحة واحدة بالعرض علىٰ ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء... حتىٰ إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستووا جميعًا في موقف العرض والحساب، تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها، فبينا أنت والخلائق علىٰ ذٰلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعِظَمها من فوق رؤوسهم، وذٰلك بعينك تنظر إلىٰ هول ذٰلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة، والملائكة قيام علىٰ أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتىٰ صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة»[3].

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٣٥، ٤١١).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣٨).

(٣) التوهم في وصف أحوال الآخرة للحارث المحاسبي (ص: ١٠-١١).

٥. التفكر في الجنة ونعيمها:

التفكر في الجنة يدفع المؤمن إلى العمل، ويهون عليه المشاق فيصبر عليها، قال ابن الجوزي: «فيكاد إذا تخايل نفسه متقلبًا في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنىٰ يطيش فرحًا، ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه»(١).

٦. التفكر في ملكوت الله:

إن التفكر في ملكوت السماوات والأرض من شأنه أن يَهدي الحيارىٰ، ففي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه الواحد، تأملُ عجيبِ قدرةِ الله في خلقه، وكيف يسير الكون بنظام دقيق؛ فالنظر والتفكر في خلق الله من أعظم العبادات، قال ﷺ: «لقد نزلت علي الليلة آية ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، الآية كلها»(٢). قال ابن الجوزي: «تأملت علىٰ أكثر الناس عباداتهم، فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية؛ فإن الغافل يقول: سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذٰلك فيقول: سبحان الله»(٣).

٧. التفكر في المعاصي وتقصير النفس في الطاعة:

ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه على التفصيل وبدنه علىٰ الجملة هل هو في الحال مُلابِسٌ لمعصية فيتركها، أو قارفها بالأمس فيتداركها بالترك والندم، أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها؛

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٤١١).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦) برقم: (٦٢٠).

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٤٠٩).

فينظر في اللسان وهل هو متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير؟ ثم يتفكر كيف يحترز منه. وكذلك يفتش في سمعه وبصره وسائر أعضائه، فإذا تفكر بذلك اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ أعضاءه عن المعاصي. ويتفكر في الصفات المهلكة التي محلها القلب؛ كالبخل والغضب والكبر والعجب وغيرها؛ فإن رأى من نفسه عُجبًا فيتفكر ويقول: إن كل ما أنا فيه من القوة أو حسن الصنعة أو جمال الصورة ليس مني وإنما هو من خلق الله وفضله علي، فكيف أعجب بنفسي! كما يتفكر في الطاعات؛ فينظر أولًا في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل، ثم يرجع إلى كل عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيعمله[1].

طرق اكتساب التفكر

١. الصيام وقلة الطعام:

ولكن التقليل من الطعام ينبغي أن يكون باعتدال؛ لأن المبالغة في الإقلال منه يُفسد التفكر، كما أن الإكثار منه سبب لنوم الفكرة وكسل الأعضاء عن العبادة؛ قال لقمان: «إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة»[2].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٣٠).

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (ص: ٣٣٥).

٢. العزلة:

قال ابن عطاء الله: «ما نفع القلبَ مثل عزلةٍ يدخل بها ميدان فكرة». والعزلة التي يأمر بها الإسلام هي تلك التي تكون مناخًا للتأمل والتفكر فيما يفيد الإنسان وفيما يقربه إلى الله، فالعزلة تشبه الحِمْية بالنسبة للمريض، والفكرة هو الدواء، لا يستفيد من الواحد منهما إن لم يُتْبِعه بالثاني؛ كان لقمان يجلس وحده ويقول: «طول الوحدة أفهم للتفكر، وطول التفكر دليل على طريق الجنة»[١]. وقد كان النبي ﷺ يعتكف في كل سنة في رمضان، والاعتكاف يحقق تلك العزلة.

٣. الابتعاد عن المعاصي:

إن كثرة المعاصي تغطي القلب وتحجب الهدى عنه، فمن توغل في المعاصي قسا قلبه فلم يعد يتأثر بالمواعظ، وصار تعلقه بالأمور التافهة، وسها عن التفكر في حاله وفي آلاء الله وما هو مقبل عليه من أهوال الآخرة؛ قال أحمد بن خضرويه البلخي رحمه الله: «القلوب جوَّالةٌ؛ إما أن تجول حول العرش، وإما أن تجول حول الحُشِّ»[٢]. والحشّ: هو موضع قضاء الحاجة.

٤. قراءة القرآن بتدبر:

إن القرآن هو ميدان التفكر والتأمل، ومن اعتاد قراءته بتدبر رسخ في نفسه مفهوم التفكر؛ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، حيث القرآن حافل بالآيات التي تدعو إلى التدبر والتفكر في النفس والآفاق والنِّعَم، وحافل بالقصص وأخبار الأنبياء والأمم السابقة المسوقة للاعتبار؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

---

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٦٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٩٦)؛ وصفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٤١).

الآفات التي تؤثر في التفكر

١. الانغماس في الشهوات:

إن الانغماس في الشهوات والمعاصي يورث القلب قسوة، فيغلق عن النظر والتفكر فيما ينفعه في الآخرة، وينحصر فكره في كيفية إرواء غرائزه، فالشهوات غطاء على القلب بالران الكثيف، وعلى العقول بعدم التفكير بالعواقب والنهايات الوخيمة؛ جاء في الحديث: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقل[١] قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[٢].

٢. كثرة متاع الدنيا:

إن كثرة المال تطغي الإنسان وتشغله عن عبادة ربه عز وجل؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧]، ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافًا»، وفي رواية: «قوتًا»[٣]. فالمال يلهي أكثر الناس، ولذلك حذر الله منه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا»[٤]. والضيعة: القرية التي تُزرع وتُستغل، وهذا وإن كان نهيًا عن اتخاذ

(١) سُقِل: سقل لغة في صقل، وسقلت السيف؛ أي: جلوته. ينظر: الأفعال لابن حداد (٣/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٠) برقم: (٩٣٠)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥) برقم: (٦)؛ والنسائي في الكبرىٰ (٩/ ١٦٠) برقم: (١٠١٧٩)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم: (١٠٥٥)؛ وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٢٥٤) برقم: (٦٣٤٣).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٨٧) برقم: (٧١٠)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٥٥) برقم:

الضياع لكنه مجمل فسره بقوله: «فترغبوا في الدنيا» يعني: لا يتخذ الضياع من خاف علىٰ نفسه التوغل في الدنيا، فيلهو عن ذكر الله، بخلاف مَن لم يخف ذٰلك.

نماذج من تمثل الصالحين بالتفكر

١. قالت أم الدرداء: «كانت أكثر عبادة أبي الدرداء التفكر»، وقد كان يقول: «ما يسرني أن أربح في كل يوم ثلاثمائة دينار أنفقها في سبيل الله عزّ وجلّ، قيل: ولم ذٰلك؟ قال: يشغلني ذٰلك عن التفكّر»(١).

٢. عن عمر بن عبد العزيز ﷺ، أنه بكىٰ يومًا بين أصحابه، فسئل عن ذٰلك، فقال: «فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتىٰ تُكَدِّرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادَّكر»(٢).

٣. قال يوسف بن أسباط: قال لي سفيان الثوري ﷺ، وقد صليت العشاء الآخرة: «ناولني المطهرة أتوضأ، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره علىٰ خده، ثم قمت ونمت، فلما طلع الفجر أتيته، فقلت: يا أبا عبد الله طلع الفجر، فإذا المطهرة بيمينه ويساره علىٰ خده، فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أفكر في أمر الآخرة إلى الساعة»(٣).

٤. قال الشيخ أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري علىٰ شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة»(٤).

(٢٣٢٨)، وقال: حسن.

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).

(٣) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٣١٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٤).

المقترحات العملية والتدريبات

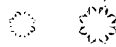
١. القيام في الثلث الأخير من الليل، وصلاة عدة ركعات تتدبر الآيات التي تتلوها.

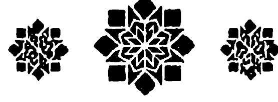
٢. تلخيص كتاب (التفكر من المشاهدة إلى الشهود) لمالك بدري.

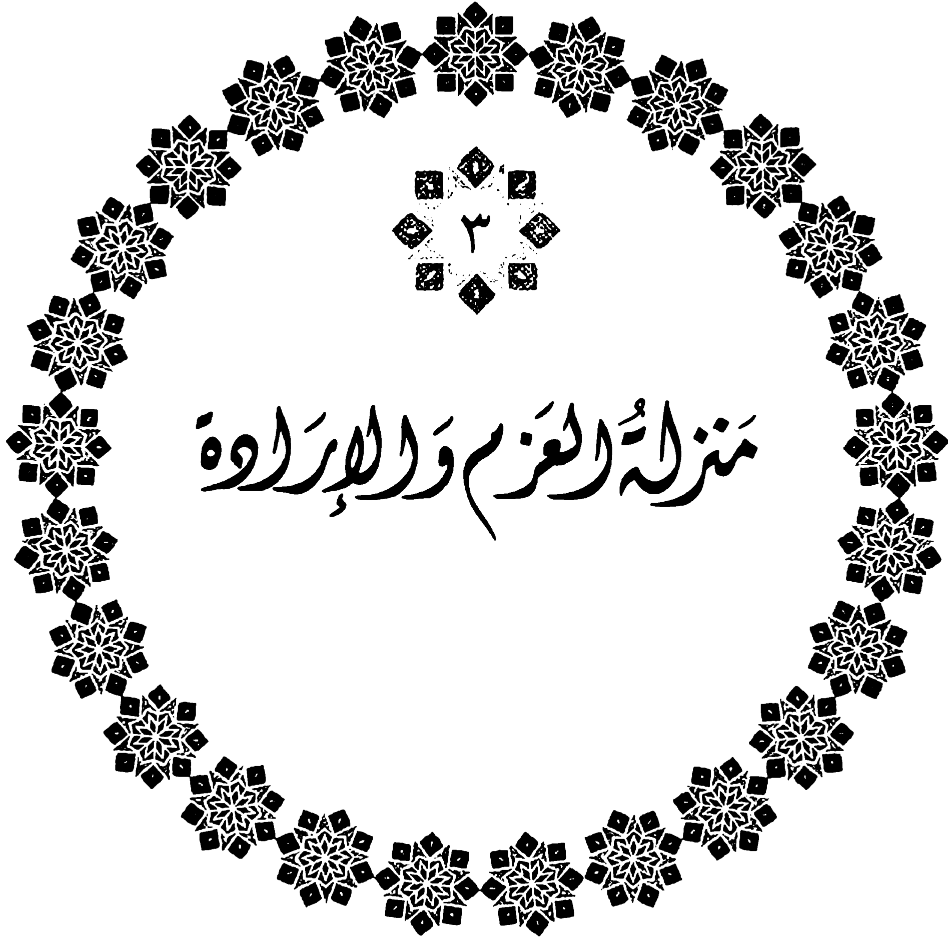
٣. قراءة كتاب (التوهم في وصف أحوال الآخرة) للحارث المحاسبي.

٤. مشاهدة بعض الأفلام الوثائقية التي تتحدث عن الكون وسعته وآياته، فهي تزيد من تعظيم الله في القلب ومعرفة قدره تعالى.

٥. الاعتكاف في العشر الأخير من رمضان مع الفكر والذكر؛ فالاعتكاف هو أفضل عزلة تؤتي ثمارها في تحصيل التفكر.





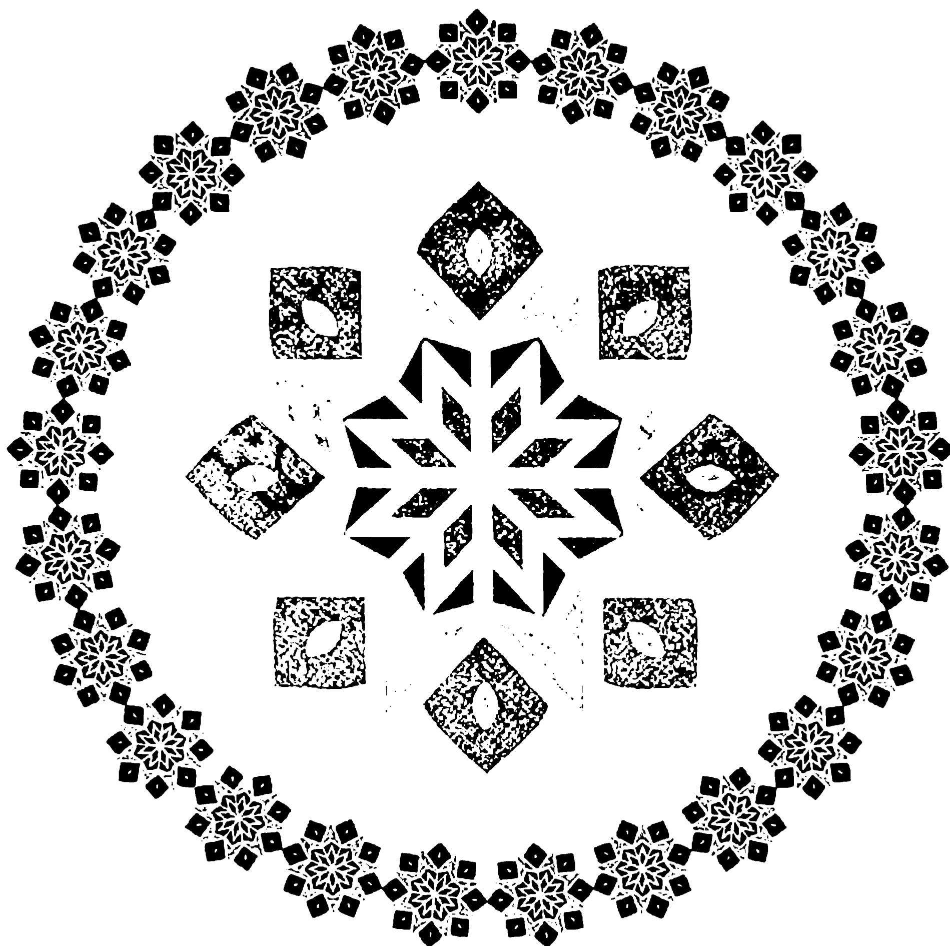


٣

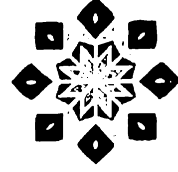
منزلة العزم والإرادة











منزلة العزم والإرادة



بين يدي العزم والإرادة

الإرادة بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالىٰ، وإنما سميت هٰذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مقدمة كل أمر، فما لم يُرِد العبدُ شيئًا لم يفعله، فلما كان هٰذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عز وجل سمي إرادة تشبيهًا بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها(١).

فبعد أن تيقظ العبد من غفلته عليه أن يعلم أنه مُعَرَّضٌ للمِحَن فيما يستقبل من عمره، وأن عدوه لم يمت وأن طبعه قائم لم ينقلب، وأن الدنيا بزينتها لم تتغير(٢)، وأن عليه أن يكون حذرًا ولا يغتر بيقظته وإقباله علىٰ ربه، فاليقظة إن لم يصاحبها إرادة وعزم قوي على المضي في طريق الهداية فإنها تفتر وتضعف حتىٰ يعود صاحبها إلىٰ نوم الغفلة، وربما لا ينتبه بعدها أبدًا.

والعزم نوعان؛ أحدهما: عزم المريد على الدُّخول في الطَّريق، وهٰذا من البدايات. والثَّاني: عزمٌ على الاستمرارِ على الطاعاتِ بعدَ الدخولِ فيها، وعلىٰ الانتقالِ من حالٍ كامل إلىٰ حالٍ أكملَ منهُ، وهو مِنَ النهاياتِ، ولهٰذا سمَّى الله تعالىٰ خواصَّ الرسلِ بأُولي العزمِ. فالعزمُ الأولُ يُحصِّلُ للعبدِ الدخولَ في كلِّ خيرٍ

---

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٣٥١).

(٢) ينظر: الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (ص: ٨٠).

والتباعُد من كلِّ شر، إذْ به يحصلُ للكافرِ الخروجُ من الكفرِ والدخولُ في الإسلامِ، وبه يحصلُ للعاصِي الخروجُ من المعصيةِ والدخولُ في الطاعةِ، ومن ثم الترقي في درجات القرب من الله(١).

ويتفاوت العزم من شخص لآخر، ولقد وصل نفر قليل من البشر لأعلىٰ درجات العزم علىٰ فعل ما يرضي الله عز وجل من الاستقامة علىٰ أمره، ودعوة الخلق إليه، مع الاستعداد لتحمل أشد الصعوبات وأقسى الآلام في سبيل ذٰلك، وهٰؤلاء هم الذين سماهم الله عز وجل: أولوا العزم من الرسل(٢).

حقيقة العزم والإرادة

العزم والإرادة من الخواطر التي تعرض للإنسان قبل القيام بأي عمل من خير أو شر، وهٰذه الخواطر علىٰ مراتب؛ فأول ما يعرض من ذٰلك يسمى السانح، ثم الخاطر، ثم الإرادة -وهي الهمّة، ثم العزم. وفي هٰذا المعنىٰ يقول الحسن البصري: «رحم الله عبدًا وقف عند هَمِّه؛ فإنه ليس من عبد يعمل حتىٰ يَهمّ، فإن كان خيرًا أمضاه، وإن كان شرًّا كفَّ عنه»(٣).

فالعزم في اللّغة: يدل على الصّريمة والقطع، قال الخليل: العَزْمُ: ما عَقدَ عليه القلبُ أنَّك فاعلهُ، أو من أمرٍ تيقّنْتَهُ، وما لفلانٍ عزيمة، أي: ما يثْبتُ علىٰ أمرٍ يَعْزِم عليه(٤).

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٤)؛ تفسير ابن رجب لابن رجب الحنبلي (١/ ٢٢١).

(٢) ينظر: عودة الروح ويقظة الإيمان لمجدي الهلالي (ص: ٢٩).

(٣) المصنف لابن أبي شيبة (١٩/ ٥٣٥)؛ وينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي (٣/ ٤٣٤).

(٤) ينظر: العين للخليل بن أحمد (١/ ٣٦٣)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٣٠٨).

وأما الإرادة في اللغة: من أراد يريد إرادة، وأراد الشيء: أحبه وعني به، والإرادة المشيئة[1]. وفرق بعضهم بين الإرادة والمشيئة بأن: الإرادة هي العزم على الفعل أو الترك بعد تصور الغاية، فهي أخص من المشيئة؛ لأن المشيئة ابتداء العزم على الفعل[2].

والعزم في الاصطلاح: عرفه الراغب بقوله: «هو عقد القلب على إمضاء الأمر»[3]. وعرفه ابن القيم بأنه: «استجماع قوى الإرادة على الفعل»، وعرفه أيضًا بأنه: «القصد الجازم المتّصل بالفعل»[4].

وأما الإرادة اصطلاحًا: فهي: نهوض القلب في طلب الحق سبحانه[5].

فالإرادة هي أن يريد الشخص فعل شيءٍ بحيث تميل نفسه إليه، وقد يكون عازمًا على فعله أو غير عازم، بينما صاحب العزيمة هو الذي لديه التصميم على تنفيذ الشيء، فالعزم فوق الإرادة، وهو أعلى مراتب القصد، وهو العقد القلبي الذي يتقرر على أساسه القول والعمل، لذلك كان العزم أول درجات المسؤولية قبل القول والعمل، ويترتب عليه الثواب والعقاب[6].

فالفرق بين العزم والإرادة: أن الإرادة هي الخطوة الأولى في طريق السير إلى الله، وأما العزم فهو ما يبقيك على هذا الطريق حتى النهاية.

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٩١).

(٢) ينظر: الصحاح للجوهري (٢/ ٤٧٨)؛ لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٩١)؛ معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٣٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥٦٥).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٤).

(٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٥٢).

(٦) ينظر: الأشباه والنظائر للسيوطي (ص: ٣٤).

فضل العزم والإرادة وثمراتهما

١. صاحب العزم القوي أحب إلى الله من غيره:

جاء في الحديث: «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرِص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعْجِز»[١]. والمراد من قوة المؤمن هنا: قوة إرادته وحزمه في الأمور وعزمه على القيام بجلائل الأعمال[٢]. وفي الحديث كذلك نهي عن العجز، وهو ضد العزم.

٢. من عزم علىٰ عمل نال أجره وإن لم يعمله:

عن أنس بن مالك ﵁، أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سِرْتُم مَسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة! قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[٣].

وعن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من امرئ تكون له صلاة بليل، فغلبه عليها نومٌ إلا كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه صدقة عليه»[٤].

٣. الطريق إلى الله يُقطع بقوة العزم:

العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، فالكيِّس يَقطعُ من المسافة بصحة العزيمة وعلوِّ الهمَّةِ وتجريد القصد أضعافَ أضعافِ ما يقطعه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

(٢) ينظر: الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (٢/ ١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٨) برقم: (٤٤٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٤٩) برقم: (١٩١١).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٦٠) برقم: (٣٨٥/ ١١٣)؛ والنسائي في المجتبىٰ (١/ ٣٧٤) برقم: (١٧٨٣)؛ وأبو داود في سننه (١/ ٥٠٦) برقم: (١٣١٤).

الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر المُشِقّ؛ فإن العزيمة والمحبة تُذهِب المشقة وتُطيِّب السيرَ، والتقدمُ والسبقُ إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدمُ صاحبُ الهمة مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل[1].

قال أبو حازم: «إذا عزم العبد على ترك الآثام أتته الفتوح»[2]. يشيرُ إلى ما يُفتَحُ عليه بتيسيرِ الإنابةِ والطاعةِ ومقاماتِ العارفينَ.

٤. العزم يطرد الدنيا من القلب ويُبْعِد عنه الشيطان:

سئل بعض السلف: «متى ترحل الدنيا من القلب؟ قال: إذا وقعت العزيمة ترحلت الدنيا من القلب، ودرج القلب في ملكوت السماء، وإذا لم تقع العزيمة اضطرب القلب ورجع إلى الدنيا»[3].

ومن صدَق العزيمة يئِس منه الشيطان، ومتى كان العبد متردّدًا طمع فيه الشيطان وسَوَّفه ومنّاه، فمن رآه الشيطان قد خرج من مجالس الذكر كما دخل وهو غير عازم على الرشد فرح به إبليس[4].

طرق اكتساب العزم والإرادة

١. الدعاء والصدق في الطلب:

جعل الله سبحانه أهم سبب لإمداد الإنسان بالعزيمة وقوة الإرادة هو وجود الرغبة الأكيدة لديه، جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي، كُلُّكم ضالٌّ إلا من هديتُه،

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٧).
(٢) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: ٤٣).
(٣) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٢٢٣).
(٤) ينظر: تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٢).

فاستهدوني أهدِكم»[1]، فالحديث يؤكد على أن الهداية من الله، وأنه سبحانه يمنحها من يسألها ويريدها، فالإمداد بحسب الاستعداد، وعلى قدر الصدق في طلب الشيء يكون المدد من الله عز وجل، كما قال ﷺ: «إن تصدق الله يصدقك»[2]، فمن يرد الخير بصدق يدله الله عليه ويمنحه قوة العزم لتحقيقه، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ومن يَتَحَرَّ الخير يُعْطَه، ومَن يتَّقِ الشرّ يُوقَه»[3]، ومن يصدق عزمه في طلب العفة يعفه الله، ففي الحديث: «ومن يَسْتَعْفِف يعفه الله»[4].

٢. صحبة أصحاب العزائم ومطالعة أخبارهم:

إن العبد يستمد من لحظ الصالحين قبل لفظهم، كان بعضهم يقول: «كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده، فعملت على ذلك أسبوعًا»[5]. إلا أن هذا العلاج قد تعذر؛ إذ قد فُقِد في هذا الزمان مَن يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، فينبغي أن يَعدِل مِن المشاهدة إلى السماع وقراءة أحوالهم، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم.

٣. كثرة ذكر الموت:

لأنه يدفع إلى العمل للآخرة ومحاسبة النفس وتجديد التوبة وإيقاظ العزم على الاستقامة، في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦) برقم: (٢٥٧٧).
(٢) أخرجه النسائي في المجتبى (١/ ٤٠٤) برقم: (١٩٥٢)؛ والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٥) برقم: (٦٥٨٩)؛ والبيهقي في سننه (٤/ ١٥) برقم: (٦٩١٨).
(٣) الحلم لابن أبي الدنيا (ص: ٢٠).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٢) برقم: (١٤٢٧)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم: (١٥٢).
(٥) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٠٨).

إذ بصر بجماعة فقال: «علام اجتمع هٰؤلاء»؟ قيل: علىٰ قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهىٰ إلى القبر، فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكىٰ حتىٰ بل الثرىٰ من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: «أي إخواني! لمثل هٰذا اليوم فأعِدّوا»[1].

وقال أبو حامد اللَّفاف: «من أكثر من ذكر الموت أُكْرِم بثلاثةِ أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القوت، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة»[2].

٤. التحول عن البيئة المُثَبِّطة:

إن للبيئة المحيطة أثرًا جسيمًا لا يخفىٰ، فإذا كانت البيئة داعية إلى الكسل والخمول فإن على المرء أن يهجرها إلىٰ حيث تعلو همته، وأشد الناس حاجة إلىٰ تجديد البيئة المحيطة وتنشيط الهمة الحديث العهد بالتوبة، فإن من شأن التحول من بيئة المعصية إلىٰ بيئة الطاعة أن ينسيه ما يجذبه إلىٰ صحبة السوء وأماكن السوء، فيجتمع قلبه ويلتئم شمله، وتتوحد همته وتتوجه بصدق وعزم إلىٰ أسلوب من الحياة جديد، وهٰذا عين ما أشار به العالم للرجل الذي قتل مائة نفس، حيث قال له: «انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلىٰ أرضك فإنها أرض سوء»[3].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨/ ٤٢٣٩) برقم: (١٨٩٠٠)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٨٦) برقم: (٤١٩٥)؛ والبيهقي في سننه (٣/ ٣٦٩) برقم: (٦٦١١)؛ والطبراني في الأوسط (٣/ ٩٢) برقم: (٢٥٨٨).

(٢) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين للسمرقندي (ص: ٤١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٢٧٦٦).

ولعل هٰذا المعنىٰ كامنٌ أيضًا في تشريع نفي الزاني غير المحصن وتغريبه سنة بعيدًا عن وطنه، حتىٰ يبعد عن مسرح الجريمة فينساها، ولا يبقىٰ حيث يُعامَل باحتقارٍ وإهانة، ويتعرض للمضايقات[1].

٥. الإكثار من الأدعية الواردة:

إن الدعاء هو مخ العبادة؛ لأن فيه إظهار الفقر والحاجة والتذلل بين يدي الله عز وجل، وللدعاء تأثير كبير في قضاء الحاجات ودفع الكروب، قال ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء»[2]. وقد ورد عن النبي ﷺ عدد من الأدعية التي لها تعلق في تقوية جانب العزم والإرادة والاستعاذة من الكسل والبلادة؛ ومن ذٰلك:

أ. عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اكتنز الناس الدنانير والدراهم فاكتنزوا هٰؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[3].

ب. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات»[4]. فالمؤمن الصادق قوي العزم يكره الكسل ويستعيذ بالله منه.

---

(١) ينظر: علو الهمة لمحمد إسماعيل المقدَّم (ص: ٣٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٨) برقم: (٢١٣٩)، وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٥) برقم: (٩٣٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧٩) برقم: (٦٣٦٧)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٧٥) برقم: (٢٧٠٦).

علامات التحقق بالعزم

١. المسارعة إلى العمل:

لو أن صاحب شركة من الشركات أيقظه رنين الهاتف في منتصف الليل، وأخبره المتصل بأنه قد حدث حريق في الشركة، ماذا تتوقع أن يكون رد فعله؟ هل سيقول في نفسه: سأذهب لأطمئن على الوضع في الصباح ثم يستكمل نومه؟ بالتأكيد سيفزع ويشعر بالخطر الشديد ويسارع إلى الشركة باذلًا غاية جهده في محاولة لتقليل الخسائر.. فالشعور بالخطر هو الذي حرك العزائم واستنفر الطاقات المخزونة في ذات الإنسان، وقد أكد هذا المعنىٰ قوله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»[1]، وهذا ما يظهر قوة العزم عند السائر إلى الله، فما يرىٰ خيرًا إلا كان من السابقين إليه[2].

٢. الصبر وقوة التحمل:

إنما اكتسب الرسل الخمسة صفة أولي العزم بسبب تحملهم للمشاق وصبرهم على الصعاب التي واجهتهم في دعوتهم، وتحملهم لأذىٰ قومهم، وكذلك حال السائر إلى الله مع التكاليف وفتن الدنيا وشهواتها؛ فإن التزم بها وصبر علىٰ مشقتها وأعرض عن شهوات الدنيا المحرمة فهذا دليل علىٰ قوة عزمه، وإرادته الصادقة في الترقي في مقامات القرب من الله عز وجل.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٧) برقم: (٧٩٤٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٤١) برقم: (٢٦٥٤)، وقال: حسن غريب.

(٢) ينظر: التوازن التربوي لمجدي الهلالي (ص: ٦٨).

آفات وعواقب ضعف العزم والإرادة

١. التسويف والتمني:

من أكبر العقبات التي تهدم العزم وتوهن الإرادة هو التسويف والتمني، وهما صفة بليد الحسِّ عديم المبالاة، الذي كلما همت نفسه بخير وعزمت عليه إما يُعيقها بـ(سوف) حتى يفجأه الموت، وإما يركب بها بحر التمني، وهو بحر لا ساحل له، يدمن ركوبه مفاليس العالم، يقول الحسن البصري: «والمؤمن أحسن الناس عملًا، وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جبلًا من مال ما أَمِن دون أن يُعايِن، ولا يزداد صلاحًا وبرًّا وعبادةً إلا ازداد فَرَقًا، يقول: لا أنجو لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيُغفر لي، ولا بأس عليّ، يسيء العمل، ويتمنى على الله تعالى»[١].

٢. الانتكاس والفتور:

قد يتعرض صاحب العزيمة في بداية الطريق إلى الفتور وقد تعتريه فترة من الغفلة، وهذا أمر طبيعي، ولكن المصيبة أن يستسلم العبد لذلك ولا يتحرك لإيقاظ نفسه وطرد الفتور عنها، إنما عليه أن يسارع في تدارك نفسه، مستعينًا بالله ثم برفقة صالحة تعينه على استئناف عزيمته ومواصلة سيره، قبل أن تستمرئ نفسه الراحة والبطالة، وتهوي به الغفلة إلى دركات أهل الضلال.

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... ولَيلُك نومٌ والرَّدى لكَ لازمُ
يَغُرُّك ما يفنى وتُشغَل بالْمُنَى ... كما غُرَّ باللَّذاتِ في النومِ حالمُ
وتشغل فيما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلكَ في الدنيا يعيش البهائمُ[٢]

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ١٨٩).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٩٦).

ومن مظاهر الفتور والغفلة:

١. تضييع الوقت وعدم الإفادة منه، وتزجيته بما لا يعود بالنفع، وتقديم غير المهم على المهم، والشعور بالفراغ الروحي والوقتي وعدم البركة في الأوقات، وعدم إنجاز شيء من العمل مع طول الزمن.

٢. عدم الاستعداد للالتزام بشيء، والتهرب من كل عمل جدّي.

٣. الفوضوية في العمل: فلا هدف محدد، ولا عمل متقن.

٤. خداع النفس بالانشغال مع الفراغ، وبالعمل وهي عاطلة، الانشغال بجزئيات لا قيمة لها ولا أثر يذكر، وإنما هي أعمال تافهة ومشاريع وهمية.

٥. النقد لكل عمل إيجابي؛ تنصلًا من المشاركة والعمل، وتضخيم الأخطاء والسلبيات؛ تبريرًا لعجزه وفتوره، تراه يبحث عن المعاذير، ويصطنع الأسباب؛ للتخلص والفرار[1].

٣. الشهوة الخفية وتحول النية:

إن الذي عاش فترة من الضياع والبعد عن الله تعالىٰ ثم استيقظ من غفلته وعزم على السير في طريق الهداية، فإنه يحظىٰ بالترحيب ويطرق سمعه عبارات المدح والثناء من أهل الالتزام والتدين، فربما تميل نفسه إلىٰ ذٰلك الإطراء والمدح، ويعجبه ثناء الناس علىٰ قوة عزيمته، فإن أرخىٰ سمعه لكلام المادحين دخله الرياء والعجب، فتتحول نيته، ويصبح همه أن يرى الناسُ أعماله ليكسب مزيدًا من الثناء والإطراء، ومن لاحظ نظر الخلق سقط من عين الله.

---

(١) ينظر: الفتور لناصر العمر (ص: ٣٩-٤٠).

٤. عدم الواقعية:

من أهم الأسباب التي تؤدي إلى الفتور وضعف العزم هي عدم الواقعية، ويُقصد بعدم الواقعية هنا: عدم التناسب بين الإمكانات الذاتية وبين مقدار الجهد الذي يبذله السائر إلى الله عز وجل للترقي في درجات القرب منه سبحانه. ولعدم الواقعية صور وأشكال متعددة، ومن ذٰلك(١):

أ. الغلو والتشدد:

إن الإنسان قد يكون مندفعًا في بداية طريقه في السير إلى الله، فيأخذ نفسه بالشدة، ويلزمها ببرنامج إيماني فيه مشقة، دون مراعاة التدرج؛ فيزيد في النوافل فوق طاقته، كأن يلزم نفسه بالقيام لساعات طويلة في صلاة التهجد، أو يأخذ علىٰ نفسه مواصلة الصيام دون انقطاع، فما إن تمر فترة من الزمن حتىٰ يضجر ويملّ، وربما يترك ما هو فيه دفعة واحدة، ولهٰذا جاء الآيات والأحاديث زاجرة عن هٰذا الغلو والتشدد؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وعندما دخل ﷺ علىٰ عائشة وعندها امرأة، فقال: «من هٰذه؟» قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: «مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتىٰ تملوا»، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه(٢).

فمن يريد المبالغة في العبادة عليه أن يجعل تلك المبالغة مع رفق، فإن الذي يبالغ فيه بغير رفق ويتكلف من العبادة فوق طاقته يوشك أن يمل حتىٰ ينقطع عن الواجبات(٣).

---

(١) ينظر: الفتور لناصر العمر (ص: ٥٥ وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٧) برقم: (٤٣).

(٣) ينظر: المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٦١٥).

ودخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبلٌ ممدودٌ بين ساريتين، فقال: «ما هٰذا؟» قالوا: هٰذا لزينب تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به، فقال: «حُلُّوه، لِيُصَلِّ أحدَكم نشاطَه، فإذا كَسَل أو فَتَر قعد»[1].

ب. التركيز علىٰ جانب وإهمال بقية الواجبات:

إن الحماس الذي يعيشه المتيقظ المقبل على الله عز وجل في بداية طريقه قد تجعله يسرف في بعض جوانب العبادة بما يؤثر علىٰ إهماله لحق أهله عليه، أو التقصير مع أقاربه وذوي رحمه، في حين أن المسلم يجب أن يكون متوازنًا، فلا يقوم بواجب علىٰ حساب واجبات أخرىٰ، ولا يقدم غير المهم على المهم، ولا المهم على الأهم.

ومما يدل علىٰ ذٰلك ما ورد في الحديث عن أبي جحيفة قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأىٰ أم الدرداء مُتَبَذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كُل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكلٍ حتىٰ تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصلَّيَا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقه. فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذٰلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣) برقم: (١١٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٩) برقم: (٧٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٨) برقم: (١٩٦٨).

نماذج من عزم السابقين

١ . عمرو بن الجموح:

كان عَمْرو بن الجَمُوح لم يشهد بدرًا، وكان رجلًا أعرجَ، فلما أراد رسول ﷺ الخروج إلىٰ أحدٍ منعهُ بَنُوهُ من الخروج، وقالوا: قد عذرك الله وبك من الزَّمانَةِ ما بك، فأتىٰ عَمْرو رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّ بَنيَّ يريدونَ أن يحبسوني عن الخروج معكَ إلىٰ هٰذا الوجه، والله إني لأرجو أَنْ أَطَأَ بِعَرْجَتي هٰذه في الجنة! فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عَذَرَكَ الله ولا جهاد عليك»، ثم قال لبنيهِ: «لا عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقهُ الشهادةَ». فخلَّوا عنهُ. قالت امرأته هندُ بنت عَمرو بن حَرام: كأني أنظر إليه مُولّيًا قد أخذ دَرْقَتَهُ، وهو يقول: اللهم لا تردّني إلىٰ أهل خُرْبَىٰ -وهي منازِلُ بنىٰ سلمة-، قال أبو طلحة: فنظرت إلىٰ عَمْرو بن الجَمُوح حين انكشف المسلمون ثم ثابوا وهو في الرّعيل الأوّل لكأني أنظر إلىٰ ظَلَعٍ في رجلِه يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة، ثم أنظُرُ إلى ابنهِ خَلّادٍ يعدو في أثره حتىٰ قُتلا جميعًا[١].

٢ . عمر بن عبد العزيز:

عندما تولىٰ عمر بن عبد العزيز إمارة المؤمنين عزم أن يسير بالأمة بسيرة الخلفاء الراشدين، ويعيدها إلىٰ ما كانت عليه، وذٰلك بعد سنوات طويلة من انقضاء تلك الخلافة الراشدة، وما حدث بعدها من بعض الانحرافات، والمظالم التي أبعدت الأمة عن النهج القويم.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٤/ ٣٧٦).

لقد عزم عمر على هٰذا ولا يملك سوى هٰذا العزم الصادق، فالأجواء المحيطة به لم تكن لتشجعه على هٰذا، وأعوانه لم يكونوا آنذاك كأعوان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ أجمعين، لٰكنه صدق في عزمه..

فكتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر: «أما بعد، فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من هٰذا الأمر، عن غير مشورة ولا طلب له، ولٰكن كان ما قدر الله عز وجل، فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هٰذا فابعث إليَّ بكُتُب عمر بن الخطاب وقضائه وسيرته في أهل الذمة، فإني مُتَّبِعٌ أثره وسائر بسيرته إن أعانني الله على ذٰلك، والسلام».

فكتب إليه سالم: «جاءني كتابك تذكر أن الله عز وجل ابتلاك بما ابتلاك به من هٰذا الأمر من غير طلب ولا مشورة كان منك، ولٰكن ما كان قدر الله أن يبتليك، فأسأل الله الذي ابتلاك بما ابتلاك به أن يعينك عليه، فإنك لست في زمان عمر وليس عندك رجال عمر، فإن نويت الحق وأردته أعانك الله عليه وأتاح لك عمالًا وأتاك بهم من حيث لا تحتسب، فإن عون الله على قدر النية، فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له، ومن قصرت نيته قصر من العون بقدر ما قصر منه، والسلام»(1).

المقترحات العملية والتدريبات

١ . سجّل في دورة علمية مكثفة لحفظ القرآن أو السنة أو حفظ متن من المتون العلمية؛ فإن صحبة أهل العزم تُقوّي عزمك.

---

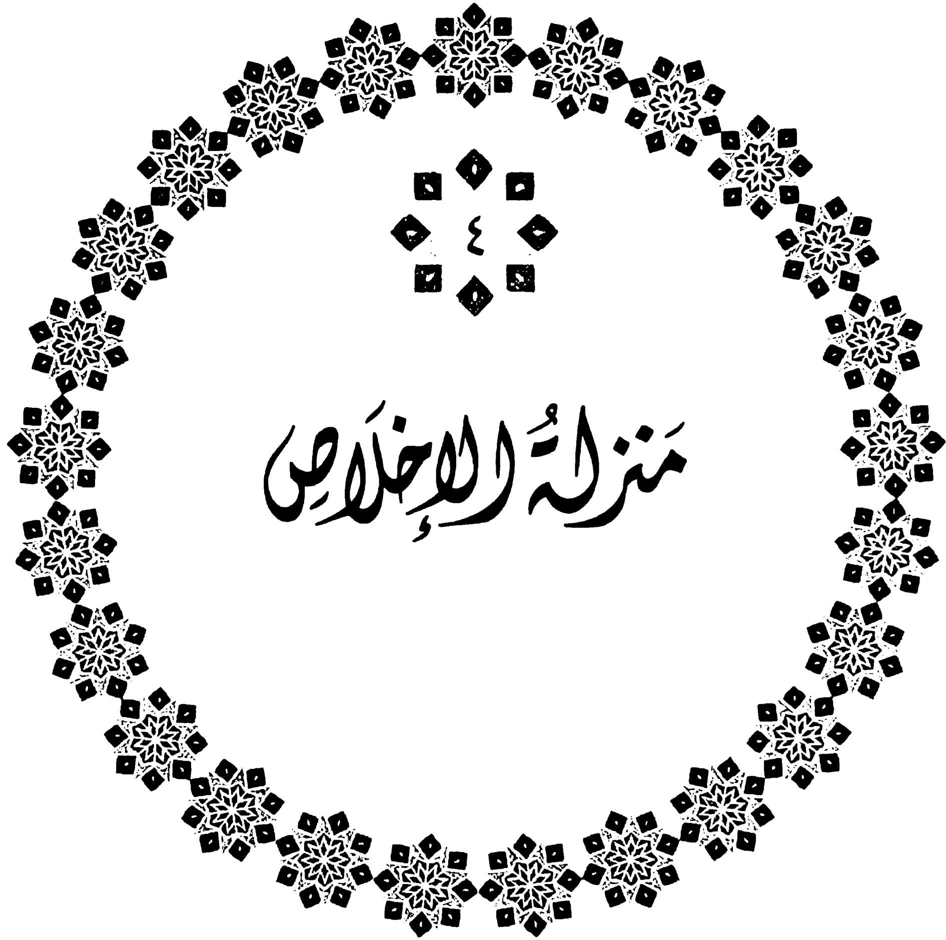
(١) ينظر: الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٤)؛ عودة الروح ويقظة الإيمان لمجدي الهلالي (ص: ٣٥).

٢. اعتكف العشر الأواخر من كل رمضان؛ فإن الطاقة الإيمانية والعزيمة على العبادة التي تخرج بها من ذلك الاعتكاف هي خير يشدّ عزيمتك بقية العام.

٣. أَلْزِم نفسك في كل شهر بصيام عدد من الأيام؛ كصوم الإثنين والخميس، أو صوم الأيام البيض، وهي: أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، فهذا له أثر في جعلك ذا همة وعزيمة.



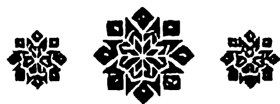


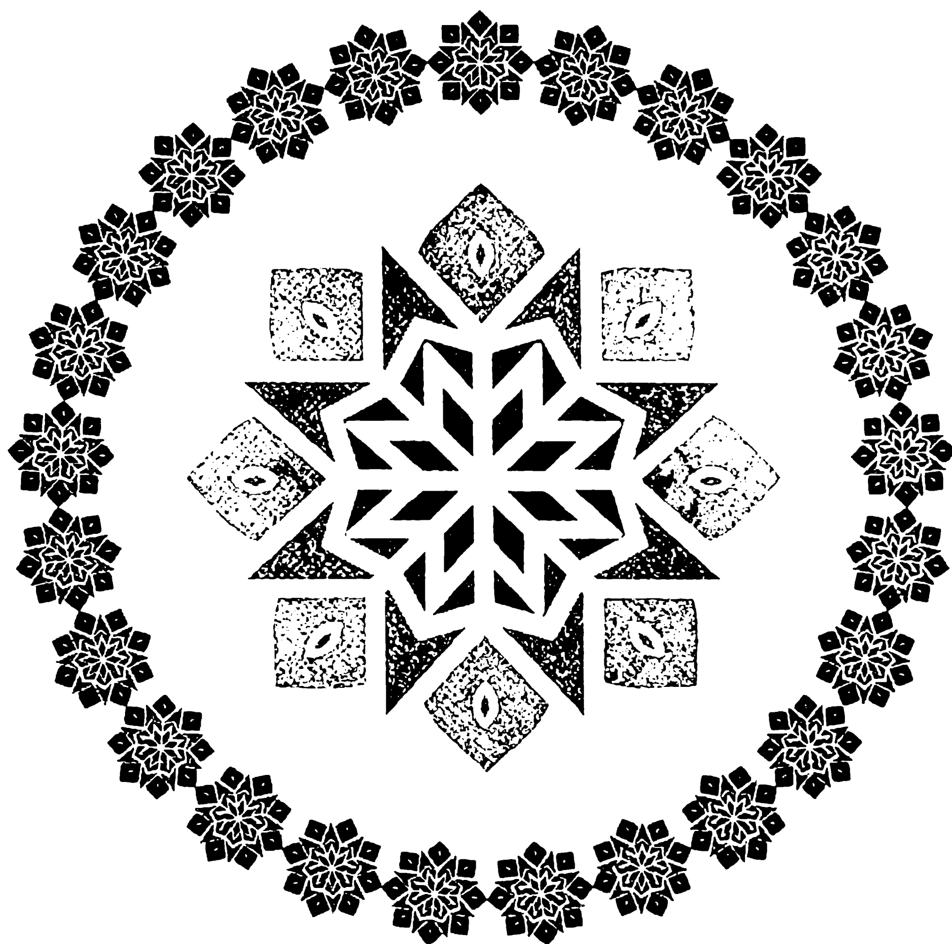


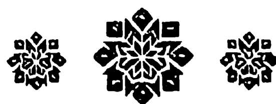
٤

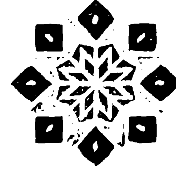
منزلة الإخلاص











منزلة الإخلاص



بين يدي الإخلاص

بعد أن تيقظ الغافل من غفلته وتاب إلىٰ ربه، يجب عليه أن يتدارك ما فاته من تقصير، فيحاول أن يجدّ السير رغبة في تعويض ما فرّط في جنب الله، فيستكثر من القُرَب والطاعات؛ رجاء مغفرة الله ورضوانه.

ولكن الأعمال والطاعات التي ينال بها المسلم مرضاة الله تعالىٰ مؤلفة من عمل وقصد، ولا قيمة للعمل مهما كان في مظهره مقبولًا إن لم يكن القصد والدافع إليه مجرد الحصول علىٰ مرضاة الله ومثوبته، وكل عمل لم يكن بهذا الهدف فهو لاغٍ باطل، قال تعالىٰ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣][1].

عن إبراهيم بن الأشعث في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «أخلَصُه وأصوَبُه، قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة»[2].

وفي الحديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، فأعادها ثلاث مرات،

---

(١) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (١/ ١٥٠).
(٢) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠).

يقول له رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابْتُغِيَ به وجهُه»[1].

والإخلاص عمل من أعمال القلوب، بل هو مقدمة الأعمال القلبية؛ لأن قبول الأعمال لا يتم إلا به، وقد أجمع الربانيون على أهمية الإخلاص وضرورته لكل عمل من أعمال الآخرة وكل سالك للطريق، قال الغزالي: «فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء»[2].

حقيقة الإخلاص

الإخلاص لغة:

خلص الشيء خلوصًا: إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم، وخلَّصْتُه: إذا صفيته من كدرٍ أو درَن[3].

قال تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، فإنما خلوص اللبن: ألا يكون فيه شَوبٌ مِن الدم والفَرْث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به[4].

(١) أخرجه النسائي في المجتبى (١/ ٦١٩) برقم: (٣١٤٠). قال العراقي: إسناده صحيح، ينظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٦/ ٢٤١١).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٦٢).
(٣) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٦٠٤)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ٦٥).
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٧٩).

فالإخلاص يدور حول تنقية الشيء وتصفيته من الشوائب.

الإخلاص اصطلاحًا:

الإخلاص شرعًا: «تجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع الشوائب»[1]. أو هو: «إرادة العبد بعمله وجه الله وليس فيه شيء من معاني الدنيا»[2].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

النية والإخلاص:

إن مما له تعلق بالإخلاص النية، والنية هي روح العمل ولبُّه، وهو تابع لها صحةً وفسادًا، والعامل ليس له من عمله إلا ما نواه، وتعلقها بالإخلاص من ناحية أنه لا بد من تجريدها من كل الشوائب والرغبات الدنيوية حتىٰ يكون العمل مقبولًا عند الله عز وجل.

والنية في كلام العلماء تقع علىٰ معنيين؛ أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض؛ كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر، وتمييز رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات؛ كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التَّبَرُّد والتنظيف، وهٰذه النية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني لها: أنها تأتي بمعنىٰ تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده؟ أم لله وغيره؟ وهٰذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم علىٰ الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف المتقدمين[3].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٧٩).
(٢) آداب النفوس للحارث المحاسبي (١٤٣).
(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٦٣).

فضل الإخلاص وثمراته

١. الإخلاص يُنجي من إضلال الشيطان وإغوائه:

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، قرأ الكوفيون ونافع بفتح اللام، وقرأ الباقون بكسرها(١)، فمن قرأ بالكسر فإنه يعني به: إلا من أخلص طاعتك، فإنه لا سبيل لي عليه، فهؤلاء لم يُجعل للشيطان عليهم سبيل، وإنما سلطانه على قوم اتخذوه وليًّا، وأشركوه في أعمالهم(٢).

٢. النية الخالصة تجعل العمل المباح قربة وطاعة:

قال النبيُّ ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرتَ عليها، حتى ما تجعل في في امرأتِك»(٣). والإنسان لا يضع اللقمة في في امرأته إلَّا عند ملاعبتها وملاطفتها والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع ذلك فقد أخبر ﷺ أنه إذا قصد بذلك وجه الله تعالى حصل له الأجر، فغيره من الحالات أولى بحصوله إذا أراد به وجه الله تعالى(٤).

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٥)؛ غيث النفع في القراءات السبع لأبي الحسن الصفاقسي (ص: ٣٢٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٠٣، ٢٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨١) برقم: (١٢٩٥)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٠) برقم: (١٦٢٨).

(٤) ينظر: العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام لأبي الحسن بن العطار (٣/ ١٢٢٣).

٣. الإخلاص يُفرِّج الهموم ويُنجي من المكاره والشدائد:

ودليل ذٰلك حديث الثلاثة الذين أووا إلىٰ غارٍ، فانحطت صخرة علىٰ فم الغار فانطبقت عليهم، فلجأوا إلى الله يدعون بصالح أعمالهم، فكان كل واحد منهم يذكر عملًا صالحًا، ثم يقول: «فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذٰلك ابتغاء وجهك فافْرُجْ عنّا ما نحن فيه»، فلما فرغ الثالث من دعائه انفرجت الصخرة وخرجوا يمشون(١). فقد اختاروا الأعمال التي فعلوها خالصة لوجه الله ولم يقصدوا بها غيره، وهٰذا سر تفريج ما نزل بهم.

بل الأعجب أن المشرك إذا أخلص لله في التجائه وتضرُّعه فإنه يُفرّج عنه، فما بالك بالمؤمن! قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

٤. الإخلاص سبب لعِظَم الجزاء مع قلة العمل:

قال تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وفي الحديث: «بينما كلبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّة قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها فاستقت له به، فسقته إياه، فغُفِر لها به»(٢).

---

(١) الحديث بطوله أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣) برقم: (٥٩٧٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٣) برقم: (٣٤٦٧)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٤٥) برقم: (٢٢٤٥). ومعنىٰ: **يُطيف**: يحوم حولها. ينظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٩/ ٢٤٢). **بركية**: الركية: البئر. ينظر: صحاح الأنوار علىٰ صحاح الآثار للقاضي عياض (١/ ٢٩٠). **بغي**: أي زانية. ينظر: الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٨٢). **مُوقها**: أي خُفَّها. ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٩٧٨).

وفي الحديث أيضًا: «بينما رجلٌ يمشي بطريق، وجد غُصن شوكٍ على الطريق فأخَّرَه، فشكر الله له فغفر له»[1].

قال ابن تيمية تعليقًا على الحديثين: «فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغُفِر لها، وإلا فليس كل بغيٍّ سقت كلبًا يُغفَر لها. وكذلك هذا الذي نحَّى غُصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص... وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له»[2].

٥. إحراز ثواب العمل وإن لم يتمه:

من بركات الإخلاص أن المخلص يستطيع أن يحرز ثواب العمل كاملًا وإن لم يقدر على إتمامه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وفي الحديث: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي بالليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه»[3].

٦. استحقاق محبة الله عز وجل:

جاء في الحديث القدسي: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمُتَحابّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمُتَزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٢) برقم: (٦٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٥١) برقم: (١٩١٤).
(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦/ ٢٢١-٢٢٢).
(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٣٣٩) برقم: (١١٧٢)؛ وابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٢٣) برقم: (٢٥٨٨)؛ والنسائي في الكبرى (٢/ ١٧٨) برقم: (١٤٦٣). قال العراقي: أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء لزين الدين العراقي (ص: ٤٠٩).
(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٣٩٠) برقم: (٣٥٠٧)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٣٥) برقم:

مراتب الإخلاص

الإخلاص ليس على درجة واحدة، وإنما هو درجات، ويتفاوت الناس فيه بحسب مراتبهم في الإيمان والقرب من الله تعالى، فهو على ثلاث مراتب[1]:

المرتبة الأولى: ما يتعلق بالنيات المصحِّحة للأعمال، فكل المكلفين مطالبون به بحسب الإمكان، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

المرتبة الثانية: تصحيح الوجهة إلى الله في جميع الحركات والسكنات، وهو يعم النيات وغيرها من أعمال الباطن.

المرتبة الثالثة: وهو خاص بمرتبة أهل النهايات، وهو الخروج عن الأكوان حتى عن تلَمُّح الإخلاص؛ استغراقًا في مشاهدة الواحد الحق سبحانه.

قال أبو عثمان المغربي: «الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظٌّ بحال، وهذا إخلاص العوام، وأما إخلاص الخواص؛ فهو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد»[2]. وقال أبو بكر الدقاق: «نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله تعالى أن يُخَلِّص إخلاصَه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مَخلَصًا لا مخلِصًا»[3].

---

(٥٧٥).

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ٢٩٣).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٠).

(٣) المصدر السابق.

شروط الإخلاص[1]

لا يتحقق الإخلاص إلا بشروط، ومن تلك الشروط:

١. إيجاد معنى العبادة في القلب نقيةً من الخواطر المنافية للإخلاص.

٢. غيبة القلب في أعمال الطاعات عن الالتفات لغير الله.

٣. الصبر علىٰ ما ينافي الطباع وينافر الهوىٰ من أمور الإخلاص، وذٰلك بحمْل النفس ومجاهدتها علىٰ سبيل الإخلاص، لأن الإخلاص من أشد الأشياء على القلب، وأصعبها على النفس؛ إذ ليس لها حظ تميل إليه من أجله، ولذٰلك قال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي لأنها تفلت عليّ». يعني تشرد أو تضعف[2]. وقال يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشد علىٰ العاملين من طول الاجتهاد»[3].

٤. عدم المبالاة بغير الله تعالىٰ، فالله هو محط نظر المخلص، وغيره لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

علامات التحقق بالإخلاص[4]

١. كراهة الشهرة والفرار منها:

فالمخلص يخاف من الشهرة وانتشار الصيت، خاصة إذا كان من أصحاب المواهب، وهٰذا كان حال كثير من السلف فهم يخافون علىٰ قلوبهم من فتنة

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٢٦٤).

(٣) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٥/ ١٢٨).

(٤) ينظر: النية والإخلاص ليوسف القرضاوي (ص: ٣٧-٣٨).

الشهرة ويهربون منها، ويُوصون تلاميذهم بالابتعاد عنها؛ فهٰذا خالد بن معدان كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة[1].

وورد أن رجلًا صحب ابنَ مُحَيريز في سفر، فلما أراد أن يفارقه قال: أوصني، قال: «إن استطعت أن تَعرِف ولا تُعْرَف، وتمشي ولا يُمْشىٰ إليك، وتسأل ولا تُسْأل فافعل»[2].

وما حدث مع أبي عمرو بن نُجيد، أنه سمع أبا عثمان الحيري يقول يومًا علىٰ المنبر: علي ألف دينار، وقد ضاق صدري. فمضىٰ أبو عمرو إليه في الليل بألف دينار، وقال: اقض دينك! فلما عاد وصعد المنبر، قال: نشكر الله لأبي عمرو؛ فإنه أراح قلبي، وقضىٰ ديني، فقام أبو عمرو، فقال: أيها الشيخ! ذٰلك المال كان لوالدتي، وقد شقَّ عليها ما فعلتُ، فإن رأيت أن تتقدَّم بردِّه فافعل؛ فلما كان في الليل عاد إليه، وقال له: لماذا شهَّرتني بين الناس؟! فأنا ما فعلت ذٰلك لأجل الخلق، فخذه ولا تذكرني![3].

٢. اتهام النفس:

المخلص يتهم نفسه دائمًا بالتفريط في جنب الله والتقصير في أداء الواجبات، ويخاف من تسلل الرياء إلىٰ نفسه وهو لا يشعر، قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل»[4].

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ٧١).

(٢) المصدر السابق (٨٠).

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٦٨-٣٦٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٨).

٣. استواء مدح الناس وذمهم:

قال الفضيل: «وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت محمودًا عند الله عز وجل!»[١]. وقال ذو النون المصري: «ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة»[٢].

٤. استواء العمل في القيادة أو الجندية:

المخلص يستوي عنده أن يعمل قائدًا أو جنديًّا في آخر الصفوف، ما دام عمله في كلا الموقعين فيه إرضاء لله تعالىٰ؛ ولقد بعث النبي ﷺ بعثًا وأمّر عليهم أسامة بن زيد، وكان تحت إمرته في ذٰلك الجيش أبو بكر وعمر ووجوهٌ من المهاجرين والأنصار، فما تذمّر أحد، وسمعوا له وأطاعوا[٣].

٥. جعل الرضا والسخط لله لا للنفس:

فيكون غضبه ورضاه وحبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لله ولدينه لا لنفسه ومنافعه، فقد تجد بعض العاملين في ميدان الدعوة إذا مسه أحد من إخوانه بكلمة مؤذية أو جرح شعوره بتصرف يسوؤه في نفسه سرعان ما يغضب وربما اعتزل ميدان الدعوة. والإخلاص يقتضيه أن يصرّ علىٰ دعوته مهما أخطأ في حقه المخطئون؛ لأنه يعمل لله لا لنفسه؛ ولذٰلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله»[٤].

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ٤٣).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٠).

(٣) ينظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٤٧٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٠) برقم: (٦١٢٦)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٨٠) برقم: (٢٣٢٧).

٦. نسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة:

فالمخلص لا يأمن أن يكون عمله مَشوبًا بحظٍّ للنفس قد يخفى عليه، فلا يحظى عمله بالقبول عند الله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

٧. الخوف من تسرب الرياء:

قال سهل بن عبد الله: «لا يعرف الرياء إلا مخلص»[١]؛ لأنه لخوفه منه يرقُبُه ويتتبعه، ويعرف مداخله.

طرق اكتساب الإخلاص

إن الإخلاص وإن كان يبدو في الجملة سهلًا هيِّنًا، إلا أنه في حقيقة الأمر صعب المرام متعذر المنال، لا يتحقق به إلا من لزم مجاهدة نفسه ومراقبة نيته، قال أبو يوسف بن الحسين: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر»[٢].

ومما يعين على تحقق الإخلاص في جميع الأعمال عدة أمور:

١. أن يعلم المكلف يقينًا بأنّه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرًا، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفَضُّلٌ منه وإحسانٌ إليه.

٢. مشاهدة فضل الله وتوفيقه في كل عمل يقوم به، إذ لولا أن الله أمده بالعافية ووجه قلبه إلى طاعته لما استطاع أن يقوم هو بذلك، فالفضل لله وحده، وليس للعبد إلا الصورة الظاهرة من العمل.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ١٨٨).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٦٢).

٣. الخوف من مقت الله تعالىٰ إذا اطلع علىٰ قلبه وهو مُنْطوٍ على الرياء.

٤. الإكثار من العبادات غير المشاهدة وإخفاؤها؛ كقيام الليل، وصدقة السر، والبكاء خاليًا من خشية الله؛ فكلما استتر العمل كان أرجىٰ للقبول وأقرب إلىٰ الإخلاص، قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢٧١]. وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ذكر منهم رجلين استحقّا هٰذه المنزلة بسبب المبالغة في إخفاء العمل؛ أولهما: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»، والثاني: «ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[(١)].

قال بشر بن الحارث: «لا تعمل لتُذكَر، اكتم الحسنة كما تكتم السيئة. وقد فضلت نافلة صلاة الليل علىٰ نافلة النهار واستغفار السحر علىٰ غيره؛ لأن ذٰلك أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص»[(٢)].

٥. مطالبة النفس بالإخلاص في المباحات والعادات، وإحضار نية القربة في كل حال؛ لأنه إذا أخلص النية في العادات وصل إلى الإخلاص في العبادات[(٣)].

٦. المجاهدة؛ بأن يوجه إرادته إلىٰ جهاد النفس الأمارة بالسوء، ومقاومة رغابتها الذاتية حتىٰ تخلص لله تعالىٰ، وقد وعد الله من جاهد في سبيل مرضاته أن يهديه سبيله وينير طريقه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٦٨) برقم (٦٨٠٦)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١).

(٢) خطوات إلى السعادة: عبد المحسن بن محمد القاسم (١٧).

(٣) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ٢٩٨-٢٩٩).

٧. أن يتفكر في شدة حاجته إلىٰ صافي الحسنات غدًا يوم القيامة، فالأعمال التي خالطها إرادة غير الله لا قيمة لها، لأنه لا يُقبل يوم القيامة إلا ما كان خالصًا لله تعالىٰ صافيًا لوجهه، لا تشوبه إرادة أحد غيره[1].

٨. استصحاب أن الناس لا يملكون له نفعًا ولا ضرًّا، ولا يملكون جنة ولا نارًا، فإذا شعر العبد بأن الذين يرائي لهم سوف يقفون معه في المحشر خائفين عارين أدرك أن صرف النية لهم في غير محله حيث لم يخففوا عنه وطأة المحشر، بل هم معه في ذٰلك الضنك[2].

٩. أن يلجأ إلى الله تعالىٰ بالضراعة بأن يخلص إخلاصه من الشوائب؛ فالافتقار إلى الله دليل الإخلاص.

آفات الإخلاص وطرق علاجها

أخطر ما يتعرض له العبد المخلص مما يُكدِّر عليه إخلاصه ثلاث آفات: الأولىٰ: الرياء. الثانية: الاغترار بالعمل. الثالثة: طلب العوض علىٰ عمله.

الآفة الأولىٰ: الرياء

تعريف الرياء:

لغة: استَرْأى الشيء: استدعىٰ رؤيته، وراءيتُ الرجل مراءاةً ورياءً: أريتُه أني علىٰ خلاف ما أنا عليه، فالرياء: إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا به خيرًا[3].

(١) ينظر: الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (١٥٥).

(٢) خطوات السعادة لعبد المحسن بن محمد القاسم (١٩).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٢٩٦)؛ تاج العروس للزبيدي (٣٨/ ١٠٥).

وشرعًا: هو إظْهارُ عمل العبادة لِينال مُظْهِرُها عَرَضًا دُنيويًّا؛ إمَّا بجلْب نَفْعٍ دُنيويٍّ، أو لِدفْع ضررٍ دنيويّ، أو تعظيمٍ أو إجلال[1].

خطورة الرياء:

إن الرياء دقيق غامض قلَّما تسلم الأعمال من أمثاله، وقلَّ من يتَنَبَّه له، إلا من وفقه الله تعالىٰ، والغافلون يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات، وهم المرادون بقوله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨]، وبقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

والرياء يُحبط العمل ويوجب سخطَ الله وعقابه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت علىٰ غير السُّنّة أو أريد بها غير وجه الله[2].

وجاء في الحديث: «إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استُشْهِدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يُقال جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقيَ في النار، ورجلٌ تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليُقال عالم، وقرأت القرآن ليُقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار، ورجلٌ وَسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال:

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام (١/ ١٤٧).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٨٠)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٤٥).

فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيلٍ تُحِب أن يُنْفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال هو جَوَادٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِب على وجهه، ثم أُلقِيَ في النار»[1].

وكم مِن أعمالٍ يَتعَبُ الإنسان فيها، ويَظُنُّ أنها خَالصةٌ لوجه الله، ويكون فيها مغرورًا؛ لأنه لا يرىٰ وجه الآفة فيها، كما حكي عن بعضهم أنه قال: «قضيت صلاةَ ثلاثين سنةً كنت صليتها في المسجد في الصف الأول؛ لأني تأخرت يومًا لعذر، فصليت في الصف الثاني، فاعترتني خجلةٌ من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إليَّ في الصف الأول كان مَسَرَّتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر»[2].

مظاهر الرياء وأنواعه:

إن الرياء منه ما هو ظاهر جليّ، ومنه ما هو خفي لا يكاد يتنبه له إلا من نوَّر الله بصيرته، ومن أبرز مظاهر الرياء:

١. الرياء في البدن:

ويكون بإظهار النحول والاصفرار؛ ليريهم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وإظهار ضعف الصوت، وذبول العينين؛ ليدل بذلك علىٰ أنه مواظب على الصوم، ولهذا روي عن عيسىٰ عليه السلام أنه قال: «إذا صام أحدكم فلْيَدْهَن رأسَه، ويُرَجِّل شعره، ويُكَحِّل عينَه»[3]. وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٧) برقم: (١٩٠٥).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٨٠).
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٩٧).

وقال ابن مسعود: «أصبِحوا صيامًا مُدَّهِنين»[1]. ومن ذٰلك الرياء في الزي بلبس ما هو خاص بأهل الزهد من الثياب الخشنة.

٢. الرياء بالقول:

وذٰلك ما يحصل لمن يشتغل بالوعظ والتذكير، ويكون ذٰلك بحفظ الأخبار والآثار؛ لأجل المحاورة وإظهار غزارة العلم، والدلالة علىٰ شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذٰلك على الخوف والحزن[2].

٣. الرياء بالعمل:

وذٰلك بأن يرائي بطول القيام في الصلاة، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذٰلك.

٤. الرياء بالأصحاب والزائرين:

بأن يزور عالمًا أو عابدًا ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا، أو أن يتكلف ويُلِحّ في دعوة من هو معروف بالعلم والصلاح ليُقال: إن أهل العلم والصلاح يترددون إليه، وكذٰلك يرائي بكثرة الشيوخ ليقال: لقي شيوخًا كثيرة واستفاد منهم، فيباهي بذٰلك[3].

(١) ينظر: الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (ص: ١٧٩).
(٢) ينظر: المصدر السابق (ص: ١٨٢).
(٣) ينظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص: ٢١٦).

٥. أن يذمّ نفسه أمام الناس:

قد يذم الإنسان نفسه أمام الناس وهو يريد بذلك أن يعتقد الناس فيه التواضع فيمدحونه بذلك، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه التابعون فمن بعدهم[١]، قال مطرف بن عبد الله ابن الشخير: «كفى بالنفس إطراءً على رؤوس الملأ، كأنك أردت به زَيْنَها، وذلك عند الله عز وجل شَيْنُها»[٢].

علاج الرياء:

علاج الرياء يكون بملاحظة عدة أمور:

الأول: معرفته أنه بالرياء يتحبب إلى العباد بالتبغُّض إلى الله عز وجل، ويتقرب إليهم بالتباعد من الله تعالى، ويطلب رضاهم بالتعرض لسخطه ﷻ.

الثاني: أنه بالرياء يُحرَم الأجر في الآخرة، ويحبط عمله في وقتٍ أشد ما يكون حاجة إليه؛ إذ قد تكون سيئاته أرجح من حسناته، ولو أخلص في الأعمال التي دخل فيها الرياء لرجحت حسناته ودخل الجنة، فيُعرِّض نفسه لدخول النار. ولو كان لديه حسناته راجحة، فإنه بسبب الأعمال التي دخلها الرياء يخسر بعض حسناته، فيُحرم المقامات العالية في الجنة.

الثالث: أنه بالرياء يتَشتَّت قلبُه وتتراكم عليه الهموم؛ لأنه إنما يرائي ليكسب حمد الناس وثناءهم ورضاهم، وإرضاء الناس غاية لا يمكن أن تُدرك؛ لأنه إن فعل ما يُرضي بعضهم أسخط الآخرين، فبعضهم يحمده على ما يذمه به آخرون، فهو دائمًا مُشَتَّتٌ مهموم. ثم هم لا يزيدوه بحمدهم في أجلٍ ولا رزق، ولا ينتفع بهم في جلب عافيةٍ ولا صرف بلاء ولا دفع مكروه مما قدر الله عز وجل.

---

(١) ينظر: بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب (ص: ٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢٠٢).

الرابع: أنه إن كان الذي حمله على الرياء الطمع بما في أيدي الناس، أو الخوف من ذمهم؛ فليعلم أنه لا ينال ما لم يقدر له، وإن كان قد نال شيئًا فإنما نال ما قُدِّر له مما لو كان أخلص عبادة ربه لناله لا محالة. وليعلم أن مخافة ذمهم لا يصرف عنه شيئًا من العاقبة والرزق، ولا يقطع من الأجل ما قدره الله له.

فكيف لا يزهد عاقل في هٰذه الخلال إذا عرف ضررهن، وأنه لا ينال منفعة في دنياه بشيء منهن، وأن أمر الله مفروغ منه؟

ورد في الحديث أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن حمدي زينٌ وإن ذمي شَين، فقال النبي ﷺ: «ذاك الله عز وجل»(١).

فإذا كان لا يزين حمد غير الله عز وجل، ولا يشين ذم غيره، واستقر ذٰلك عند العبد العاقل، استوىٰ حامده وذامُّه في طاعة الله عز وجل(٢).

الآفة الثانية: الاغترار بالعمل

فمن رأىٰ أنه قد قام بالعمل وفق السنة وكان مخلصًا فيه ربما يظن أنه قد وصل إلىٰ مرتبة لا يصل إليها إلا القليل؛ وذٰلك لصعوبة تنقية وتخليص العمل من الشوائب، فيرضىٰ بعمله ويسكن إليه.

علاج هٰذه الآفة:

يمكن أن تُعالَج هٰذه الآفة من خلال الخطوات الآتية:

١. أنه لو نظر في حقيقة الأمر لرأىٰ أن هٰذا مُنافٍ للإخلاص، فإن المخلص مُشْفِقٌ من عمله، يخاف ألا يقبل منه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٠٧) برقم: (٣٢٦٧)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ينظر: الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (ص: ١٧٣-١٧٧).

٢. أن يُراجع عيوبه وتقصيره، وأن يعيد النظر في عمله؛ فقَلَّ عملٌ من الأعمال إلّا وللشيطان فيه نصيبٌ وإن قَلَّ، وللنَّفس فيه حظٌّ؛ عن عائشة ﵂ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال: «هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد»(١). فإذا كان هٰذا التفاتُ طَرْفِه ولحظه، فكيف التفاتُ قلبه إلىٰ ما سوى الله! هٰذا أعظم نصيب الشيطان من العبوديَّة(٢).

٣. أن يعلم أنه لا يستطيع أن يقوم بعمل لولا فضل وتوفيقه، فهو قد وصل إلىٰ ما وصل إليه بالله لا بنفسه، وأنَّه لو خُلِّي ونفسَه لم يتمكن من القيام بشيءٍ من الأعمال الصالحة البتَّة، فإنَّ النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة، فالخير الذي صدر منها إنَّما هو من الله تعالىٰ وبه، لا من العبد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال أهل الجنَّة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخَلْقيَّة؛ مِن سمعه وبصره وقوَّته، بل من صحَّته وسلامة أعضائه؛ فالكُلُّ مجرَّد عطاء الله ونعمته وفضله. فالذي يُخلِّص العبد من هٰذه الآفة معرفةُ ربِّه ومعرفة نفسه(٣).

الآفة الثالثة: طلب العوض علىٰ عمله

قد يظن العامل الذي يرىٰ من نفسه الإخلاص وإخفاء الأعمال أنه يستحق من الناس التقدير والمدح والثناء لما يعرفون من صلاحه، فهو يرىٰ أن ذٰلك من الجزاء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٥٠) برقم: (٧٥١).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٥٣).

(٣) ينظر: المصدر السابق (٢/ ٣٥١-٣٥٢).

العاجل على عمله، وأن عليهم أن يسعوا في قضاء حوائجه والقيام بخدمته.

علاج هذه الآفة:

أن يعلم أنه عبد محض، والعبد لا يستحقُّ على خدمته لسيِّده عوضًا ولا أجرةً، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديَّته، فما يناله من سيِّده من الأجر والثواب تفضُّلٌ منه وإحسانٌ إليه وإنعامٌ عليه، لا معاوضة[1].

فروع متعلقة بالإخلاص

١. أكثر الناس عرضة للرياء:

وأشد الخلق تعرُّضًا لهذه الفتنة هم العلماء؛ فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم إنما هو لذة الاستيلاء والفرح بكثرة الأتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يُلَبِّس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والدفاع عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ.

وترى الواعظ يفرح بقبول الناس قولَه وإقبالهم عليه، وهو يدَّعي أنه يفرح بما يُسِّرَ له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظًا، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه، ساءَه ذلك وغمَّه، ولو كان باعثه الدينُ لَشَكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهمَّ بغيره، وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان، فيُحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض جهلٍ وغرور؛ فإن النفس سهلةُ القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يفِ بالوعد[2].

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٥٢٦).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨٠-٣٨١).

٢. ترك بعض الأعمال خشية الرياء:

قد يقطع العبدُ العملَ خشيةَ أن يُقال: هو مُرَاءٍ؛ كالرجل يصلي في المسجد وحده والناس حوله جلوس، أو يبيت مع قوم وقد عوَّده الله القيام من الليل، فيدع ذٰلك خشية أن يتهموه بالرياء.. فهل تصرفه من الرياء؟

والجواب: أنه لا بد من التفريق بين حالتين؛ فهو إن ترك العمل الصالح لأجل أن يقول الناس: إن فلانًا مخلص، فهٰذا مِن الرياء، مِثله مِثل مَن أتىٰ بالعمل لأجل الناس، فالترك والفعل سواء، بل إن الترك نوع من أنواع الفعل، كما قال في مراقي السعود:

.... والترك فعلٌ في صحيح المذهب[1].

وأما إن ترك العمل الصالح خوفًا من دخول الرياء عليه عند العمل، فهٰذا لم يقع في الرياء، بل فرَّ منه، ولٰكنه من ضعف النفس وقلة الفهم؛ فإن الشيطان يرغب في ترك العبد للعمل الصالح فيَدخل عليه من باب الخير، وإنما الواجب على العبد في هٰذه الحالة أن يجاهد نفسَه على الإخلاص ويُقبِل على العمل ويُصفِّي نيتَه من الشوائب، فلا ينبغي أن يمنعه خوف الرياء من القيام بالعمل أو إتمامه، بل تركه للعمل غلطٌ وتفويتٌ لفضلٍ عظيم، ولا ينبغي له الالتفات إلىٰ ما قد يقوله الناس عنه، بل هٰذا يُعَدُّ من سوء ظنه بالناس، وقد نُهينا عن إساءة الظن إذا كان بغير دليل واضح.

---

(١) نثر الورود شرح مراقي السعود لمحمد الأمين الشنقيطي (١/ ٥٥).

لذلك يقول الفضيل بن عياض: «ترك العمل مِن أجل النَّاس رياء، والعمل من أجل النَّاس شرك، والإخلاص أَن يعافيك الله منهما»[1].

وقال الحارث بن قيس: «إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي، فقال: إنك تُرائي، فزِدها طولًا»[2].

ويقول الإمام النووي ﷺ: «ثم لا ينبغي أن يُتركَ الذكرُ باللسان مع القلب خوفًا مِن أن يُظنَّ به الرياء، بل يَذكرُ بهما جميعًا ويقصدُ به وجه الله تعالىٰ... ولو فَتَح الإنسانُ عليه بابَ ملاحظة الناس، والاحتراز مِن تَطَرُّقِ ظنونهم الباطلة لَانْسَدَّ عليه أكثرُ أبواب الخير، وضيَّع علىٰ نفسه شيئًا عظيمًا من مُهمَّات الدين، وليس هٰذا طريق العارفين»[3].

وقال ابن تيميه: «ومن كان له وِرْدٌ مشروعٌ من صلاة الضحىٰ أو قيام ليل أو غير ذٰلك فإنه يُصَلِّيه حيث كان، ولا ينبغي له أن يَدَع وِرْدَه المشروع لأجل كونه بين الناس إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سِرًّا لله، مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص»[4].

٣. العمل إذا خالطه نية أخرىٰ غير نية القربة:

قلما ينفك الإنسان في أفعاله وعباداته عن حظوظه وأغراضه العاجلة، لذٰلك قيل: من سلِم له من عمره لحظة خالصة لوجه الله نجا، وذٰلك لعزة الإخلاص وعُسر تنقية القلب عن الشوائب، وهٰذه الحظوظ إن لم تكن هي الباعثة وحدها

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦١).
(٢) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٥٢١).
(٣) الأذكار للنووي (ص: ٩).
(٤) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢٣/ ١٧٤).

على العمل، وكان القصد الأصلي هو التقرب إلى الله، ثم انضافت إليه هٰذه الأمور والشوائب؛ كأن يصوم لينتفع بالحمية مع قصد التقرب إلى الله، أو يطلب العلم لينال مرتبة بين الناس، ويكون له قصد الدعوة إلى الله كذٰلك، فقد اختلف العلماء هل خلط النية بهٰذه الأمور يُبطل العمل كله؟ أو لا يؤثر علىٰ صحة العمل وله الأجر كاملًا؟ أو يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان لله؟ أو لا يقتضي شيئًا أصلاً فيكون لا له ولا عليه؟

فالإمام الغزالي ذهب إلى الترجيح باعتبار قوة الباعث، فقسم الأعمال بحسب الباعث إلىٰ ثلاثة:

١. فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفسي، تساقَطَا وصار العمل لا له ولا عليه.

٢. وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوىٰ، فهو ليس بنافع، وهو مع ذٰلك مضرٌّ ومفضٍ للعقاب، ولٰكن العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب.

٣. وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني؛ وهٰذا لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ويشهد لهٰذا أيضًا إجماع الأمة علىٰ أن من خرج حاجًّا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس(١).

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٥).

وابن القيم ذهب إلىٰ تقسيمٍ مختلف، فقسمها ثلاثة أقسام، ولٰكن باعتبار الباعث الأول على العمل:

«الأول: أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في أثنائه؛ فهٰذا المعوَّل فيه على الباعث الأول، ما لم يفسَخه بإرادة جازمة لغير الله، فيكون حكمُه حكمَ قطع النية في أثناء العبادة وفسخها.

الثاني: عكس هٰذا، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلبُ النية لله، فهٰذا لا يحتسب له بما مضىٰ من العمل، ويحتسب له من حين قلَب نيته. ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة، كالصلاة، وإلا لم تجب؛ كمن أحرَمَ لغير الله، ثم قلَبَ نيته لله عند الوقوف والطواف.

الثالث: أن يبتدئها مريدًا بها الله والناس، فيريد أداء فرضه، والجزاء والشُّكور من الناس؛ وهٰذا كمن يصلِّي بالأجرة، فهو لو لم يأخذ الأجرة صلَّىٰ، ولٰكنه يصلِّي لله وللأجرة؛ وكمن يحجُّ ليسقط الفرض عنه، ويقال: فلان حجَّ، أو يعطي الزكاة لذٰلك؛ فهٰذا لا يُقبل منه العمل»[1].

٤ . ما يظن أنه قادح في الإخلاص وليس كذٰلك:

بالَغ بعض العُبَّاد في تجريد القصد إلى الله والتقرب إليه، حتىٰ جعلوا طلب الثواب الأخروي الذي وعد الله به عباده الصالحين قادحًا في الإخلاص، وهم وإن لم يقولوا ببطلان الأعمال التي قصد أصحابها الثواب الأخروي، إلا أنهم كَرِهوا للناس العمل علىٰ هٰذا النحو، ووصفوا العامل رجاء حظ أخروي

(١) ينظر: إعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ٥١٧).

بالرعونة، وسموه بأجير السوء.

ومن هٰذا ما قاله رويم ﷺ: «الإخلاص في العمل هو الذي لا يريد صاحبه عليه عوضًا في الدارين، ولا حظًّا من الملكين»(١).

والحقيقة أن هٰذا غير مطلوب لتحقيق الإخلاص، فإن طلب الجنة والاستعاذة من النار لا يقدح في الإخلاص، بل إن نصوص القرآن والسنة تدعوا المؤمنين للعمل طمعًا في الجنة وخوفًا من النار، وقد وصف الله سادات المؤمنين بأنهم كانوا يعبدون الله خائفين من ناره راجين جنته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالىٰ في سياق وصف عباد الرحمٰن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

وخليل الرحمٰن إبراهيم يقول في دعائه: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٥-٨٧].

وقد وصف الله نعيم الجنة في سورة المطففين، ثم حث على التنافس والتسابق في طلبه، فقال: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال النبي ﷺ لرجل: «كيف تقول في الصلاة؟» قال: أَتَشَهَّد وأقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أَمَا إني لا أُحْسِنُ دَنْدَنَتك(٢) ولا دَنْدَنة معاذ، فقال النبي ﷺ: «حولها نُدَنْدِن»(٣).

---

(١) الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (٢/ ١١٣).

(٢) الدندنة: كلامٌ لا يُفهم معناه. ينظر: الأذكار للنووي (ص: ١٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٢٩٢) برقم: (٧٩٢)؛ وأحمد في مسنده (٦/ ٣٤١٥) برقم: (١٦١٤٣)؛ وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٤٩) برقم: (٨٦٨).

ولٰكن بعض الخواصّ يرون أن الله تعالىٰ يستحق العبادة ولو لم يكن هناك جنة ولا نار -وهٰذا حقٌّ لا ينكره أحد-، ولذٰلك قد ورد عن بعض هٰؤلاء الزهاد عبارات تُعبِّر عما في باطنهم من تعظيم الله تعالىٰ وحبه لذاته، وهٰذه لا شك درجة عالية من إخلاص القصد والتجرد في عبادة الله لا يستطيعها عوام الناس، ولٰكنها ليست شرطًا من شروط تحقق الإخلاص.

٥. ما يتوهم أنه رياء وليس كذٰلك:

هناك بعض الأعمال قد يتوهم بعض الناس أنها من الرياء، وهي ليست كذٰلك، ومنها:

أ. نشاط العبد بالعبادة عند رؤية العابدين:

قد يبيت الرجل مع المتهجدين، فيُصَلّون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة فقط، فيقوم الليل معهم أكثر الليل، أو يصومون فيصوم معهم، ولولاهم لما نشط علىٰ الصيام، فربما ظن ظانٌّ أنّ هٰذا رياء، ويأتيه الشيطان فيصده عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرائيًا، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلىٰ قصده الباطن، فإن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالىٰ، ولٰكن تعوقه العوائق وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدةُ الغير سببًا لزوال الغفلة ولتجدُّد النشاط، ولٰكن عليه أن يختبر أمره في مثل هٰذا الموقف؛ بأن يتصور أنه لو كان هٰؤلاء في مكان يراهم ولا يرونه، فهل كان سيجتهد في التعبد؟ أو لا يجتهد إلا إذا كانوا يرونه؟ وبذٰلك يعرف نفسه، ويصحح نيته، ثم يستمرّ في العمل[١].

ب. كتمان الذنوب وسترها:

إن كتمان الذنوب وعدم إظهارها لا يعتبر من الرياء، بل هو واجب شرعي،

(١) ينظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص: ٢٢٦).

لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها؛ ولأن في إظهار المعاصي تشجيع عليها، وقد ورد في الحديث: «كل أمتي مُعافىٰ إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[1].

نماذج من إخلاص الصالحين

١. زين العابدين علي بن الحسين:

لما مات علي بن الحسين وجدوا بظهره أثرًا، فسألوا عنه، فقالوا: هٰذا مما كان يَنْقُل الجُرْبَ بالليل علىٰ ظهره إلىٰ منازل الأرامل، ووجدُوه يَعُولُ مائةَ بَيْت بالمدينة[2].

٢. أيوب السختياني:

كان أيوب السختياني يقوم الليل كله فيخفي ذٰلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[3]. وكان أيوب في مجلس، فجاءته عبرة، فجعل يمتخط، فيقول: «ما أشد الزكام»[4].

٣. صاحب النَّقْب:

لما حاصر مسلمة بن عبد الملك حصنًا، فأصابهم فيه جهد عظيم، فندب الناس إلىٰ نَقْبٍ منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من الجند فدخله، ففتح الله عليهم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٠) برقم: (٦٠٦٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٤) برقم: (٢٩٩٠).

(٢) ينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي (٦/ ٤٤٤).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٧).

(٤) مسند ابن الجعد (ص: ١٩٠).

فنادىٰ منادي مسلمة: أين صاحب النَّقْب؟ فما جاء أحد، حتىٰ نادىٰ مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فجاء في الرابعة رجل، فقال: أنا أيها الأمير صاحب النَّقْب، آخذ عهودًا ومواثيق ثلاثًا: لا تُسَوِّدوا اسمي في صحيفة، ولا تأمروا لي بشيء، ولا تشغلوني عن أمري، قال: فقال له مسلمة: قد فعلنا ذٰلك بك، قال: فغاب بعد ذٰلك فلم يُرَ. قال: فكان مسلمة بعد ذٰلك يقول في دبر صلاته: اللهم اجعلني مع صاحب النَّقْب[1].

٤. أويس القَرَني:

وهٰذا أويس القَرَني خير التابعين، عندما لقيه عمر، وذكر له حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»، فقال له عمر: استغفر لي، فاستغفر له، ثم قال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلىٰ عاملها؟ قال: أكون في غبْراء الناس[2] أحب إليّ.. ثم لما كان العام المقبل حج رجل من قبيلته، فسأله عمر عن أويس، فقال: تركته رَثَّ البيت قليل المتاع، فذكر له عمر الحديث: «فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»، فلما رجع الرجل أتىٰ أويسًا، فطلب منه أن يستغفر له، فقال له: لقيتَ عمر؟ قال: نعم، ففَطِن الناس له وأقبلوا عليه، فانطلق علىٰ وجهه[3].

ومعنىٰ: «فانطلق علىٰ وجهه»؛ أي: أخفىٰ أمْرَ نفْسِه لئلّا يشتهر؛ مخافة الفتنة[4].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٨/ ٣٦).

(٢) غبراء الناس: هم فقراؤهم وضعفاؤهم الذين لا يُلتفت لهم، فأراد أويس أن يكون خاملًا بحيث لا يُلتَفت له. ينظر: دليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان (٣/ ٢٤٠).

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٦٩) برقم: (٢٥٤٢)، وقد نقلت بعض الفقرات منه باختصار.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٧/ ٥٨٣).

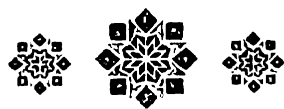
المقترحات العملية والتدريبات

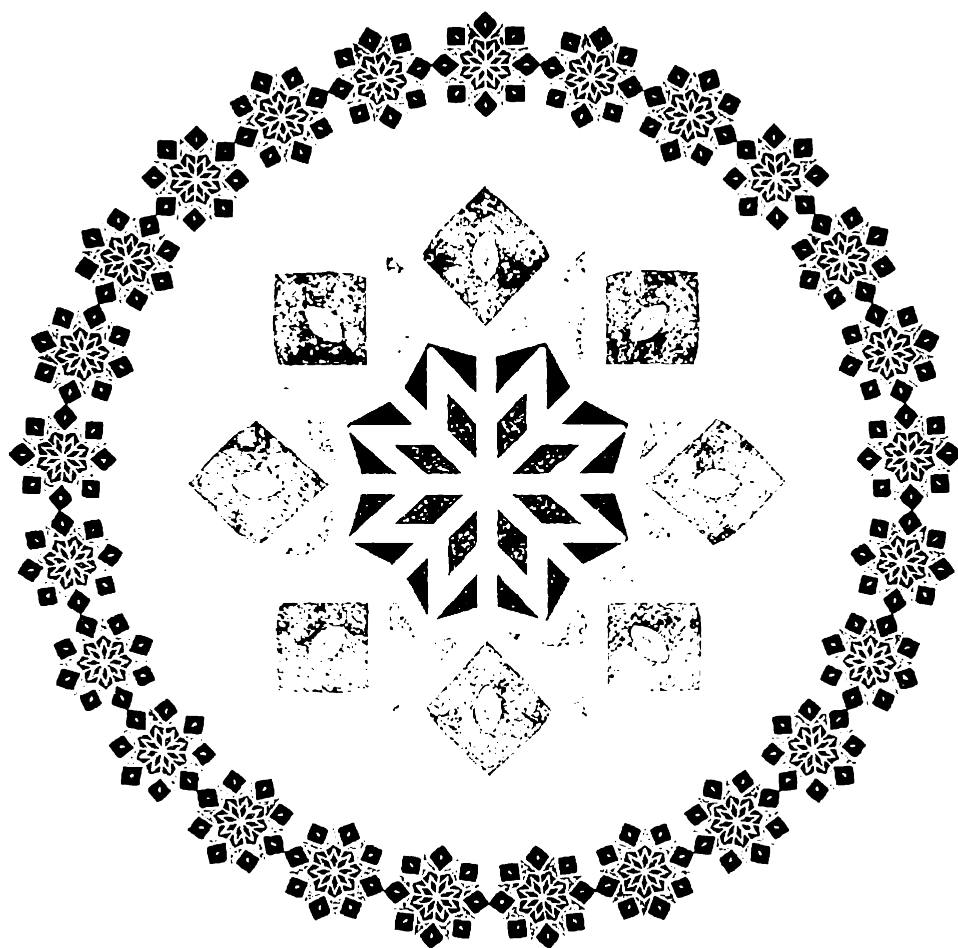
١. احرص على صلاة قيام الليل قبل الفجر، فالصلاة في جوف الليل أدعى للإخلاص.

٢. تصدق كل شهر على عائلة فقيرة مع حرصك أن لا يعلم بصدقتك أحد.

٣. إن صمت نفلًا فاحرص على أن لا يعلم بصيامك إلا من تضطر لإخباره بذلك.

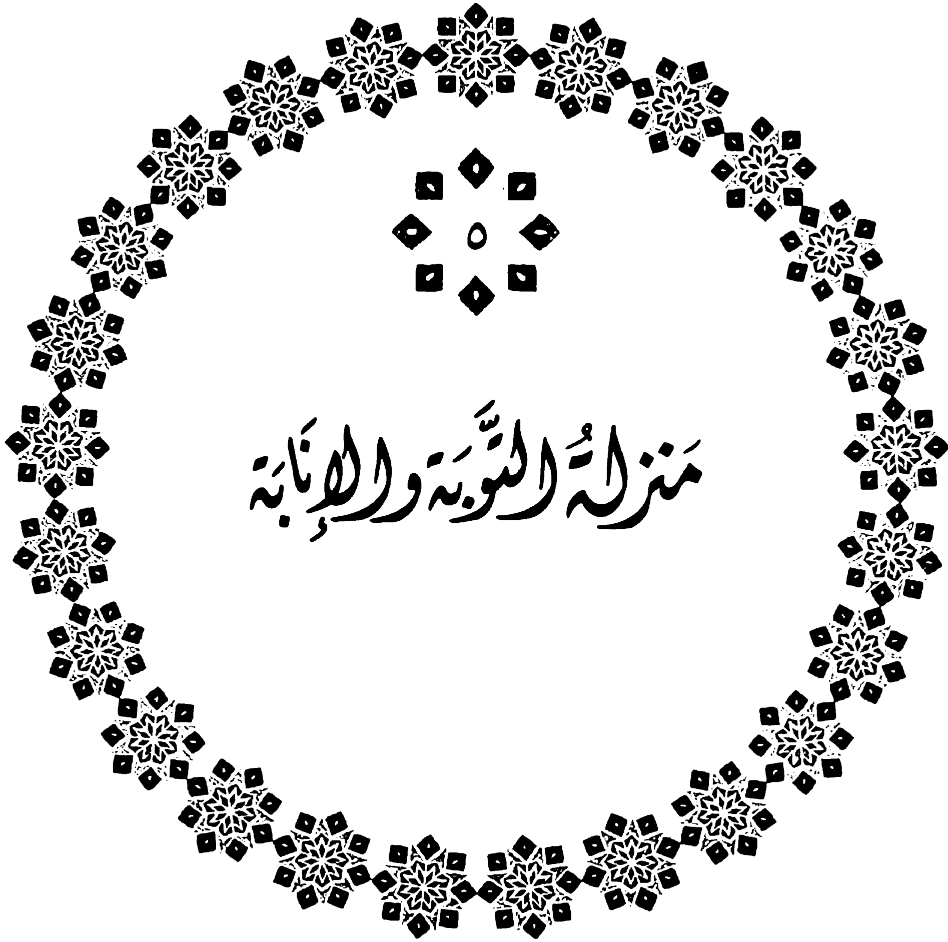




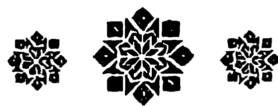


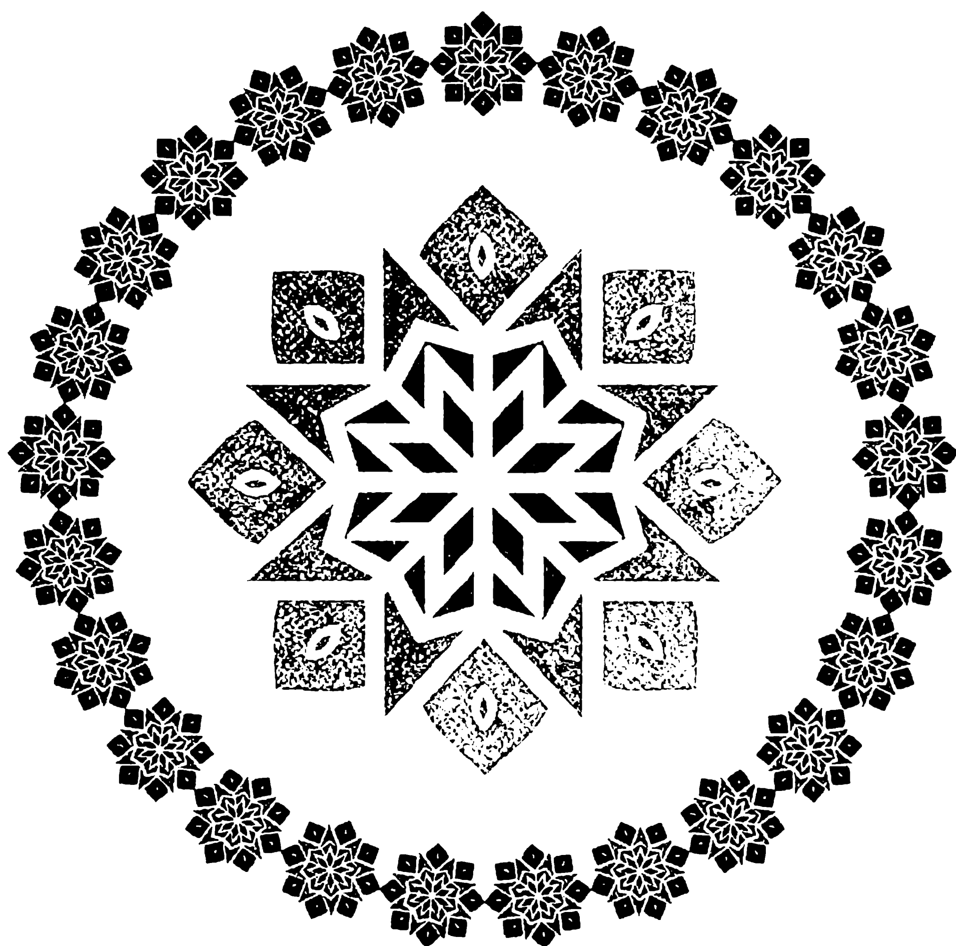





مَنزِلَةُ التَّوبَةِ والإنَابَة











منزلة التوبة والإنابة



بين يدي التوبة

منزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد، ولا يزال فيها إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزلة أخرى ارتحل بها ونزل بها، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما حاجته إليها في البداية كذلك[1].

حقيقة التوبة

التوبة في اللغة:

أصل كلمة تاب: عاد إلى الله ورجع وأناب، وتاب الله عليه؛ أي: عاد عليه بالمغفرة، والتَّوْب: جمع توبة، وتاب إلى الله يتوب توبًا وتوبةً ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، ورجل توَّاب أوَّاب ثوَّاب منيب، بمعنى واحد[2].

التوبة في الشرع:

النَّدم على ما مضى مِن المعاصي والذُّنوب، والعزْم على ترْكها دائمًا لله عزَّ وجلَّ[3].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٧٤).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ٢٣٦)؛ لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٣٣).

(٣) ينظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٨٤).

وسُمي الإقبال على الله رجوعًا، واستعملت للدلالة على هذا المعنى كلمات: تاب، وآب، وأناب ومشتقاتها؛ لأن كل أنواع الانحراف الإنساني إنما هي ابتعاد عن مواقع الفطرة السليمة التي فطر الله الإنسان عليها، وهي مواقع الإيمان والطاعة لله والقرب منه، فكل دنوٍّ من مواقع هذه الفطرة السليمة بعد الابتعاد عنها هو في حقيقة الأمر رجوع[1].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

ذكر العلماء ضمن منزلة التوبة أو بعدها منازل قريبة منها، ومن تلك المنازل: الإنابة، والأوبة.

الإنابة:

في اللغة: الرجوع إلى الله بالتوبة، ناب فلان إلى الله تعالى، وأناب إليه إنابة فهو منيب: أقبل وتاب، ورجع إلى الطاعة؛ وقيل: ناب لزم الطاعة، وأناب: تاب ورجع[2]. وفي اللَّفظة معنى الإسراع والرُّجوع والتّقدُّم، فالمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كلَّ وقتٍ، المتقدِّم إلى محابِّه.

ومعنى الإنابة قريب من معنى التوبة؛ فقد ذكر العلماء منزلة الإنابة بعد التوبة، فهي تأتي بعد استقرار قدم العبد في التوبة، وبعض العلماء جعلهما بمعنى واحد؛ قال ابن فورك: «الإنابة: الرجوع عن السيئة بالندم عليها، والعزم على ترك معاودتها، ونظير الإنابة: التوبة»[3].

---

(١) ينظر: الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (١/ ٦٨٢).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٧٥).

(٣) تفسير ابن فورك (٢/ ٣١٥).

الأوبة:

معنى مادة «أوب» وما اشتق منها يرجع إلى أصل واحد هو الرجوع، والمآب: المرجع[1]، والفرق بين الأوْب والرجوع أن الأوب لا يقال إلا في الحيوان الذي له إرادة، والرجوع يقال فيه وفي غيره، يقال: آب أوبا وإيابا ومآبا[2].

وعبارات العلماء تدور حول المعنى اللغوي، قال سعيد بن المسيب: «الأوّاب: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ثم يصيب الذنب ثم يتوب»، وقال مجاهد: «الراجعون التائبون»[3].

التفريق بين معاني هذه المنازل:

من العلماء من فصّل في معاني هذه الكلمات وفرق بينها، وهو مجرد اصطلاح أو تقسيم لأنواع التوبة، ومن ذلك:

أ. قال أبو علي الدقاق: «التوبة على ثلاثة أقسام؛ أولها: التوبة، وأوسطها: الإنابة، وآخرها: الأوبة. فالتوبة بداية، والإنابة واسطة، والأوبة نهاية؛ فإن من تاب لخوف العقوبة كان صاحب توبة، ومن تاب طمعًا في الثواب أو رهبة من العقاب كان صاحب إنابة، ومن تاب مراعاةً للأمر لا لرغبةٍ في الثواب أو رهبةٍ من العقاب كان صاحب أوبة»[4].

ب. ويقال أيضًا: التوبة صفة المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، والإنابة صفة الأولياء والمقربين؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين؛

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ١٥٢).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٩٧).

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ٤٢٤).

(٤) الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (١/ ٢٦٨).

قال الله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠][(١)].

ج. قال ابن عطاء: التوبة توبتان: «توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة؛ فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه»[(٢)].

التقارب بين معاني هٰذه المنازل:

التوبة والأوبة والاستغفار متقاربة، وبحسب ما اختلفت فيها الاعتبارات اختلفت عليها العبارات، فالإنابة: الرجوع عن طريق الضلال إلى الهدىٰ، والأوبة: رجوع القلب إلى الحق والوقوف عليه.

وخلاصة الأمر: أن التوبة والإنابة والأوبة متقاربة المعنىٰ، وقد تستخدم التوبة للدلالة على الخطوة الأولىٰ في الرجوع إلى الله، والإنابة علىٰ مواصلة ذٰلك، والأوبة على الاستمرارية الدائمة في التوبة.

فضل التوبة وثمراتها

الآيات والأحاديث الواردة في الترغيب بالتوبة وما أعدّه الله للتائبين تُغري العبدَ المذنب بالهرولة إلىٰ كنف الله والسعي في القرب منه ﷻ، وذٰلك لأن الله خلق في الإنسان الشهوات، فهو عُرضة بحسب تكوينه لأحوال الضعف التي ينزلق بها في مزالق المعاصي، وطريق التوبة هو السبيل الوحيد لرجعته إلىٰ سبيل الاستقامة، ولولا أن باب التوبة مفتوح لكل العصاة لتحول العاصي الذي ييأس

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢١١). وهٰذا التقسيم هو أقرب إلىٰ ذكر المثال منه إلى الحصر؛ فقد وردت الإنابة في معرض ذكر الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، ووردت الأوبة في معرض ذكر الصالحين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

(٢) المصدر السابق (١/ ٢١٣).

من التوبة والغفران إلىٰ أكبر مجرم طاغ وأخبث شيطان[1].

ومن فضل التوبة وثمراتها ما يأتي:

١ . التوبة سبب محبة الله عز وجل:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وإذا أحب الله عبدًا رفع قدره، وذَكر اسمه عند ملائكته، وحبَّبه إلىٰ أهل السماء والأرض.

٢ . التوبة سبب الفوز والفلاح:

قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فالتوبة سبب لحصول الفلاح في الدنيا والآخرة.

٤ . التوبة سبب فرح الله عز وجل:

جاء في الحديث أن الله أشد فرحًا بتوبة العبد من فرحة الرجل المنقطع في الصحراء الذي أضاع راحلته حتىٰ يئس منها وشارف على الموت، ثم وجدها بعد ذلك[2]. ومن مستلزمات الفرح الرضا، فالتوبة تورث العبدَ رضا ربه عليه.

٥ . القبول عند الله:

فالتائب المقبل علىٰ ربه يقبله الله مهما كان جرمه كبيرًا، حتىٰ ولو لم يعمل خيرًا قطّ؛ فقد ورد في حديث الرجل الذي قتل مائة نفس: « فانطلَق، حتىٰ إذا نَصَف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛

---

(١) ينظر: الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمٰن حبنكة (١/ ٦٨٢).

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٣) برقم: (٢٧٤٤)، ولفظه: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن مِن رجلٍ في أرضٍ دَوِيَّةٍ مُهلِكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتىٰ أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلىٰ مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتىٰ أموت، فوضع رأسه علىٰ ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزادِه».

فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلىٰ أيّتِهما كان أدنىٰ فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنىٰ إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة». قال قتادة: فقال الحسن: ذُكر لنا أنه لما أتاه الموت نأىٰ بصدره[1].

٦. التوبة تُزيل الضيق عن الصدر، وتُذهب عنه الصدأ والغفلة:

فالتوبة سبب في تفريج الهموم وسعة الرزق، جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إنه لَيُغانُ علىٰ قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[2]، وقال ﷺ: «مَن لَزِم الاستغفارَ جَعَلَ الله له من كل ضيق مَخرَجًا، ومن كل همٍّ فرَجًا، ورزَقَه من حيث لا يحتسب»[3].

٧. أنها سبب لمغفرة الذنوب ودخول الجنة:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨]. والتوبة النصوح: هي التي يناصح الإنسان نفسه بالإخلاص في الندم مع صحة العزم علىٰ ترك المعاودة من غير تقصير[4].

وقد رُجِمَت امرأة زانية بعد أن أقرت بذنبها، ثم صلى النبي ﷺ عليها،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٨) برقم: (٢٧٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٥) برقم: (٢٧٠٢)

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٦٢٨) برقم: (١٥١٨)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٥٥٢) برقم: (٢٢٧٠)؛ والبيهقي في سننه الكبير (٣/ ٣٥١) برقم: (٦٥١٤). قال البغوي: هو ضعيف. ينظر: شرح السنة للبغوي (٥/ ٧٩).

(٤) الطريق السالم إلى الله لابن الصباغ (٤٢٦).

فقال له عمر: تُصلّي عليها يا نبي الله وقد زنت؟! فقال: «لقد تابت توبةً لو قُسِمت بين سبعين من أهل المدينة لوَسِعَتْهم، وهل وَجَدتَ توبةً أفضلَ مِن أن جادَتْ بنفسها لله تعالىٰ؟»[1].

٨. أن التائب يُبَدِّل الله سيئاتِه إلىٰ حسنات:

قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

ومعنىٰ ذٰلك أن الله تعالىٰ يصلح حال التائبين، فيبدل أعمالهم في الشرك حسناتٍ في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلىٰ ما يرضىٰ[2].

٩. التوبة تحمي من قسوة القلب:

فإن للذنوب آثارًا سيئة، إذا تكاثرت وتراكمت من غير إحداث توبة سترت الهداية عن القلب، فلم يعد ينتفع بموعظة ولا تذكير، وأصبح مغطىٰ بطبقة عازلة، فينكر كل ما يرد عليه من خواطر الإيمان، إلا أن يتداركه الله برحمة. يدل علىٰ هٰذا ما ورد في الحديث الصحيح؛ قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِت في قلبه نُكْتة[3]، فإن هو نَزَع[4] واستغفر وتاب صُقِلت[5]، فإن عاد زيد فيها، فإن عاد زيد فيها حتىٰ تعلوَ فيه، فهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[6].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٢٤) برقم: (١٦٩٦).

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٣١٢).

(٣) **النُّكتة**: أثر قليل كالنقطة، شِبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١١٤).

(٤) **نزَع**: نزع عن كذا: انتهىٰ عنه. مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٧٣).

(٥) **الصقل**: الجلاء. لسان العرب لابن منظور (١١/ ٣٨٠).

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤).

شروط التوبة

إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالىٰ ولا تعلق لها بحق آدمي، فلها أربعة شروط[1]:

١. أن يُقلع المذنب عن المعصية، فالتوبة لا تكون مع إقامة العبد عليها.

٢. الندم، فإن مَن لم يندَم على القبيح فذلك دليلٌ علىٰ رضاه به وإصراره عليه.

٣. أن يعزم علىٰ عدم العود إلى المعصية أبدًا.

٤. أن تكون في وقتها الشرعي، أي: قبل إغلاق باب التوبة، وباب التوبة يغلق عند تحقق أحد أمرين: الأول: عند حضور الموت، فإذا بلغت الروح الحلقوم لم تُقبل التوبة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر»[2]. والثاني: عند ظهور إحدىٰ علامات الساعة الثلاث، وهي: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، وخروج الدابة، فإذا ظهرت هٰذه العلامات لم تقبل توبة أحد، كما ورد في الحديث الصحيح[3].

وأما إذا كانت التوبة من معصية تتعلق بحق إنسان، فيضاف إلى الشروط السابقة شرط خامس:

---

(١) ينظر: رياض الصالحين للنووي (ص: ١٤)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٠٧) برقم: (٣٥٣٧)، وقال: حسن غريب؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٩٤) برقم: (٦٢٨)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٠٦) برقم: (٦٢٦٩). ومعنىٰ ما لم يُغرغر: مأخوذ من الغرغرة، وهي: أن يجعل المشروب في الفم ويُردّد إلىٰ أصل الحلق ولا يُبلع، والمقصود هنا: أي ما لم تبلغ روحه حلقومه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٣٧) برقم: (١٥٨)، ولفظه: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

٥ . أن يبرأ من حق صاحبها؛ فإن أخذ منه مالًا أو نحوه رده إليه، أو طلب منه المسامحة من غير إكراه، وإن كان الحق حد قذف ونحوه، مكَّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها، فإذا تعذر عليه أن يسترضي أصحاب الحقوق، صدق في توبته، وسأل الله أن يتولىٰ عنه إرضاءهم، وحين يعلم الله صدق توبته وعجزه عن تأدية الحقوق لأهلها، فإن الله يتولىٰ عنه يوم القيامة إرضاءهم، ويغفر له(١).

مراتب التوبة(٢)

لما كانت التوبة رجوعًا إلى الله من مواقع البعد عنه بسبب المعاصي والذنوب، أو المخالفات والتقصيرات، أو الغفلات واشتغال النفس والفكر والقلب بغير مراقبة الله والتفكير فيه، كانت ذات مستويات متفاوتة:

١ . أدناها: التوبة من الكفر والشرك، وهي توبة ترفع إلىٰ مستوى الإيمان.

٢ . وفوقها: التوبة من الكبائر، وهي توبة ترفع إلىٰ بعض درجات التقوىٰ.

٣ . وفوقها: التوبة من الصغائر، وهي توبة ترفع إلىٰ أعلىٰ درجات التقوىٰ.

٤ . وفوقها: التوبة من المكروهات وترك المندوبات، وهي توبة ترفع إلىٰ درجات البر.

٥ . وفوقها: التوبة من التقصيرات عن درجات الكمال الإنساني في السلوك، وهي توبة ترفع إلىٰ أعلىٰ درجات الإحسان.

---

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (ص: ٢٠٨)؛ رياض الصالحين للنووي (ص: ٣٣-٣٤)؛ الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (١/ ٦٨٣).

(٢) ينظر: الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (١/ ٦٩٠).



٦ . وفوقها: التوبة من الغفلة عن الله والاشتغال بغير مراقبته والتفكر فيه، وهي توبة ترفع إلىٰ مرتبة المقربين.

ولهٰذا لما سئل ذو النون الْمِصْرِي عَنِ التوبة، قَالَ: «توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة»(١).

وتوبة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من مستوى التوبة العليا، واستغفارهم هو من شعورهم بتقصيرهم عن بلوغ أعلىٰ درجاتها، فكلما وجدوا من أنفسهم أي تقصير ينزل بهم عن المرتقى الرفيع الذي ينشدونه تابوا إلى الله واستغفروا وأنابوا، ولذٰلك ثبت في الصحيح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢).

الأمور التي تعين على التوبة

١ . أن يُقبِل العبد على الله ويعمل لطلب مرضاته:

ويكون ذٰلك بأن يصدق النية معه في الرجوع إليه بإصلاح العمل ظاهرًا وباطنًا، وأن يتدارك ما فاته من العبادات، كلما أمكن ذٰلك، فإن التهاون في الفرائض يؤدي إلى التهاون في السنن، والتهاون في السنن يؤدي إلى الوقوع في الشبهات ثم الوقوع في المعاصي.

٢ . تذكر عظمة الله ومراقبته:

وذٰلك بأن يتدبر عظيم قدر مولاه، وقدر رضاه وسخطه، وما وعد به الطائعين، وتوعد به العاصين، ويداوم علىٰ ذٰلك؛ حتىٰ يستنير قلبه ويعود إلىٰ أصله الذي فطره الله عليه.

(١) الرسالة القشيرية (٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٧).

٣. المبادرة إلىٰ محاسبة النفس:

ويكون بالتوبة عن كل معصية توبةً نصوحًا قبل الموت، ويتدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله عز وجل، ورد المظالم إلىٰ أهلها، واستحلال كل من تعرض له بلسانه ويده وسطوته بقلبه، وتذكر ما سلف من جناية نفسه عليه، ويُوقن أن في طاعتها هلاكه يوم معاده، وذله في حياته الدنيا، وأن في عصيانها نجاته في آخرته وعزه في حياته الدنيا، فيعزم بقلبه علىٰ تأديبها، ويواظب علىٰ توقيفها والإلحاح علىٰ معاتبها، ويداوم علىٰ موعظتها وتذكيرها بربها الذي لا بد لها من المصير إليه.

٤. أن يستحضر خطورة المعاصي وما تسببه من الذل والحرمان:

قال الحسن في شأن العصاة: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين[١]، إلا أن ذُل المعصية لا يجاوزهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه»[٢]، وقال الفضيل بن عياض ﷺ: «إني لأعصي الله فأعرف ذٰلك في خلق حماري وخادمي»[٣].

٥. الابتعاد عن مواطن المعصية:

وذٰلك بمفارقة قرناء السوء ومقاطعتهم، ما داموا علىٰ حالهم، واستبدالهم بصحبة أهل الخير، الذين يُذَكِّرونه إذا نسي ويعينونه إذا ذكر ويقومونه إذا اعوج، ويقودونه إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

---

(١) البراذين: جمع، مفرده: برذون، وهي الدابة. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ٢٠٧٨).

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم (ص: ٢٠١). ونقله أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٩) بلفظ قريب منه.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٠٩).

٦. ترك الإصرار:

الإصرار هو عَقْد القلب على شهوة الذنب، حتى ولو أقلع عنه، والتطهير يكون بإدمان معاتبة النفس وتخويفها وتذكيرها بإنذارات القرآن وبأخبار العصاة، وحكايات من جرت عليهم المصائب بسبب ذنوبهم، وخوف تعجيل العقوبة في الدنيا وحرمان الرزق الحسي والمعنوي بسبب المعاصي.

٧. عدم التمادي في الذنوب:

فلا يتمادى في الذنوب اتكالًا على فضل الله تعالى ورجاء عفوه؛ قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

٨. التحلل من مظالم العباد:

كأن يكون قد أخذ مالاً بغير طريق شرعي أو غصبه من صاحبه، فلا بد من رده إليه والخروج عنه ما دام قادرًا على ذلك، وإلا فيعزم على رده إذا قدر في أعجل وقت وأسرعه؛ عينًا كان أو غيره، وإن لم يعثر له على صاحب معين، أو له صاحب وأيس من تحصيله، صرفه في مصلحة للمسلمين على نية صاحبه.

٩. أن يُكثِر من الاستغفار باستمرار:

فإن جريان الاستغفار على اللسان مدعاة لتذكر الذنوب وعدم نسيانها، فإن نسيان الذنوب يقود إلى تهوين أمرها واستسهالها ومعاودة الجراءة عليها.

علامات التوبة الصحيحة

يقبل الله عز وجل توبة التائبين إذا تحققت شروطها وانتفت موانعها؛ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]،

وقبول التوبة مرجعه إلى الله تعالىٰ، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فلا يمكن لأحد الجزم بأن الله تعالىٰ قد تقبل توبته وتجاوز عما كان من سيئاته، إلا أن للتوبة الصحيحة الصادقة علامات تدل علىٰ صحتها، وأمارات تشير إلىٰ صدقها، ومن ذٰلك:

١. الحرقة في القلب:

فيندم علىٰ ما وقع منه من الذنوب في حق الله، وينظر إلىٰ نفسه نظرة تقصير في حق الله وقدره، فتضيق الأرض عليه كما ضاقت علىٰ كعب بن مالك وصاحبيه، فيستولىٰ عليه الحزن والبكاء، فيشغله عن اللهو والضحك.

٢. الإقلاع الفعلي عن الذنب:

فيشعر بكراهية هٰذه الذنوب وبغضها، حيث أوصلته إلىٰ ما أوصلته من الغفلة والفجور، ويأخذ في مقابلة ذٰلك بأعمال الطاعة، وهٰذا دليل حساسية القلب وشعوره بخطورة الإثم، ورغبته في التوبة.

٣. العمل علىٰ تدارك ما فات وإصلاح ما يأتي:

فإن كان الماضي تفريطًا في عبادة قضاها، أو مظلمة أدَّاها، أو خطيئة لا توجب غرامة حزن إذ تعاطاها، وهٰذا دليل علىٰ تعظيم الله في قلبه واشتداد خوفه منه، ورجائه إياه، وطمعه فيما عنده.

٤. أن يكون حاله بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها:

فيعمر وقته بالأعمال الصالحة وصحبة الصالحين، ويبتعد عن مظان الذنوب وأهلها الداعين إليها.

٥ . أن لا يأمن مكر الله طَرْفةَ عين:

فيصحبه الخوف طيلة حياته، ويستمر علىٰ ذٰلك حتىٰ يلقى الله وهو علىٰ ذٰلك.

٦ . محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه والإتيان من العمل بما تقتضيه هٰذه المحبة:

فلا يجتمع حب الطاعات وحب المعاصي في قلبٍ واحد، فإذا أبغض الإنسان الذنوب فسيمتلئ قلبه بحب الله ورسوله والمؤمنين والعمل الصالح.

آفات التوبة

١ . التسويف والتأجيل:

قد تَعْرِض على العبد الخواطرُ الإيمانية، فيدعوه قلبه إلىٰ ترك الشهوات والمعاصي، فتحول نفسه وشيطانه دون تحقيق ذٰلك، وتُغْريه نفسُه ورُفَقاء السوء بالاستمتاع بأيام شبابه، وأن العمر أمامَه طويلٌ مُمْتَدّ، فلا يزال ذٰلك به وهو مستمر في معاصيه شاردٌ عن صراط الله حتىٰ يقسو قلبه من كثرة المعاصي، فلا ينتفع بوعظ، وربما يعاجله الأجل وهو علىٰ هٰذه الحال.

ومما يعينه علىٰ قطع التسويف أمران[1]:

الأول: خوف المعاجلة بالموت؛ بأن يكون أجل الله عز وجل في روحه قبل الأجل الذي أَجَّله لتوبته، فيموت بحسرته، لم يبلغ أمله ولم يتب من ذنبه، فلا إلى الله عز وجل تاب، ولا بلغ من لذته ما أراد، فمات بغصة الدنيا والآخرة.

الثاني: خوف أن يضرب الله عز وجل قلبه بعقوبة مانعة له من التوبة؛ من القسوة

(١) ينظر: الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (ص: ١٣١-١٣٣).

والرَّين أو الطبع أو المرض أو الإقفال، ويكون أجله مؤَخَّرًا، فيطول عمره بالسكرة والحيرة، فيكون ممن يُمْلِي له الله تعالىٰ ليزداد إثمًا.

٢. اليأس والقنوط:

قد يتوب الإنسان من ذنبه ثم تحدث له غفلة أو ضعف فيعود إلىٰ مقارفته مرة أخرىٰ، فيتوب ثم يرجع إليه مرة أخرىٰ كذٰلك، وهنا قد يجد الشيطان إلىٰ نفس هٰذا التائب فجوة يفسد عليه فيها حاله، بحيث يُخيِّل إليه أن هٰذا يعد تلاعبًا وليس توبة، حتىٰ يصرفه عن التوبة، ويُدخل اليأس علىٰ نفسه.

يقول القاضي عياض: «وربما غلط بعض المذنبين ودام على الإصرار خوفًا من أن يتوب فينقض، وهٰذا اغترار وجهالة، ولا يحسن أن يترك واجبًا عليه علىٰ الفور، خوفًا أن يقع منه بعده ما ينقضه»(١).

ولا يعتبر هٰذا منه تلاعبًا؛ فإن التلاعب هو الذي يقول بلسانه ما ليس في دخيلة نفسه، وذٰلك بأن يكون في قرارة نفسه غير عازم على الإقلاع عن الذنب، ثم يقول بلسانه: اللهم إني تبت إليك، فهٰذه توبة لسانية فقط غير مصحوبة بنية صادقة في القلب، فلا ينظر الله إليها(٢).

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ قال: «قد دعا الله إلىٰ مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة،

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٨/ ٢٤٠).
(٢) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمٰن حبنكة (١/ ٧٠٥).

يقول الله تعالىٰ لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٧٤]، ثم دعا إلىٰ توبته من هو أعظم قولًا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس ﷺ: من آيَس عبادَ الله من التوبة بعد هٰذا فقد جحد كتاب الله»[1].

علاج هٰذه الآفة:

يكون بطرد هٰذه الوساوس عن نفسه، وتذكر الآيات والأحاديث الواردة في هٰذا الشأن، وأن العبد مهما شرد عن صراط الله ثم تاب فإن الله يقبل توبته، ومن ذٰلك: ما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن عبدًا أصاب ذنبًا، وربما قال: أذنب ذنبًا، فقال: ربِّ أذنبت، وربما قال: أصبت، فاغفر لي، فقال ربه: أعَلِم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا، أو أذنب ذنبًا، فقال: ربِّ أذنبتُ أو أصبت آخرَ فاغفره؟ فقال: أَعَلِم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا وربما قال: أصاب ذنبًا، قال: قال: ربِّ أصبتُ أو أذنبتُ آخر فاغفره لي، فقال: أعَلِم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي -ثلاثًا- فليعمل ما شاء»[2].

وكذٰلك ورد عن سيدنا علي ﷺ أنه أتاه رجل فقال: ما ترىٰ في رجلٍ أذنب ذنبًا؟ قال: «يستغفر الله ويتوب إليه»، قال: قد فعل ثم عاد، قال: «يستغفر الله ويتوب إليه»، قال: قد فعل ثم عاد، قال: «يستغفر الله ثم يتوب إليه»، فقال له في الرابعة: قد فعل ثم عاد، فقال علي ﷺ: «حتىٰ متىٰ؟»، ثم قال: «يستغفر الله ويتوب إليه ولا

(١) المفاتيح في شرح المصابيح لحسين بن محمود المظهري (٣/ ١٨١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٥) برقم: (٧٥٠٧).

يَمَلَّ حتىٰ يكون الشيطان هو المحسور»[1].

٣. ضعف التوبة وسهولة الوقوع في المعصية نفسها من جديد:

لا بد للتائب من أن يحصن نفسه من العودة إلىٰ ما كان عليه أثناء غفلته، وذٰلك باتخاذ خطوات تحفظه من النكوص، وتعينه على الاستمرار في طريق الهداية، وهٰذه الخطوات هي[2]:

الأول: ترك الأصحاب الذين ألفهم على التقصير وصحبهم على العصيان، وإلىٰ هٰذا المعنى الإشارة بقوله ﷺ: «المرء علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالِل»[3].

الثاني: مواصلة أهل الخير ومؤالفتهم، لا سيما الذين أقامهم الله تعالىٰ هداة للخلق؛ كالعلماء، فهم وإن لم يدعوا للخير بأقوالهم، فهم يدعون إليه بأحوالهم، وإلىٰ ذٰلك الإشارة بقوله ﷺ: «مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كمثل حامل المسك ونافخ الكير...»[4].

الثالث: اجتناب مواضع السهو واللهو والغفلة، فإن النفس تنبعث بذٰلك إلىٰ الشهوات وتسترسل في الغفلة؛ مثل الرجل يشكو حب النظر إلىٰ ما لا يحل، وهو يجلس على الطريق يتحدث، فكلما جلس على الطريق ينوي ألا ينظر فجأة ما يهيج شهوته على النظر، فتغلبه نفسه فينظر، ثم يرجع فيندم ويتوب،

(١) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٥٨).

(٢) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١٨٦-١٨٨)؛ الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (ص: ٣٠٩، ٣٢٣-٣٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ١٨٧) برقم: (٢٣٧٨)، وقال: حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٩٦) برقم: (٥٥٣٤)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٦) برقم: (٢٦٢٨).

ثم يعاود الجلوس، فيصيبه مثل ذٰلك، فهٰذا إذا قطع الجلوس ولزم منزله أو مسجده سقط عنه السبب الذي كان يفتنه، وصار في تلك الخصلة مع ضعفه أقوىٰ من القوي الذي يعرض نفسه للفتنة بالجلوس.

الرابع: ألا يذكر شيئًا من لذَّاته التي خلت علىٰ وجه الاستلذاذ؛ فإن النفس تتحرك بذٰلك لما قد خرجت عنه بالتوبة، وله أن يذكر ذٰلك ويتفكر فيه مقرونًا بالوعيد عليه علىٰ وجه التخويف بالعقوبة.

٤ . العُجْب والغرور:

قد يتوب العبد من ذنبه، ويلتزم طريق الاستقامة، فيدخل عليه الشيطان من باب العجب بالنفس، وأنه أفضل من غيره، وينظر إلى العصاة نظرة احتقار، وهٰذه آفة خطيرة تحبط العمل، وتمنع من دخول الجنة، قال ابن عطاء الله: «معصية أورثت ذُلًّا وافتقارًا، خير من طاعة أورثَتْ عزًّا واستكبارًا»[١].

علاج هٰذه الآفة:

١ . استحضار خطورة العجب:

فالمدلّ بعمله لا يصعد عمله وصلاته فوق رأسه ولا ينفعه بشيء مع أنه يحسب أنه عمل عملاً حسنا، فلا يُقبل ولا يُلتفت إليه لعدم إخلاصه، أو لعُجبه ومَنّه علىٰ ربه.

٢ . تذكر الحاجة إلىٰ حلم الله ورحمته:

فعلى المرء أن يتذكر دائما بأن رحمة الله ومغفرته هي السبيل الوحيد للنجاة، كما في الحديث«سدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخِلَ الجنة أحدًا عملُهُ»،

---

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٢).

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا،إلا أن يتغمدني الله برحمة»[١].

٣. الخوف من الذنوب صغيرها وكبيرها:

فالعبرة ليس بحجم المعصية، بل بكونها صدرت من العبد في مخالفة مولاه عز وجل، فالإنسان العاقل ينظر إلىٰ عظمة من عصاه ولا ينظر إلىٰ صغر معصيته، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعِدٌ تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذُبابٍ مرَّ علىٰ أنفه، فقال به هٰكذا»، أي: بيده فوق أنفه[٢].

٤. استحضار فضل الله ومنّته:

فلولا فضل الله ومدده ومعونته لما استطاع أن يقوم بأي عمل، ولما استطاع تربية النفس على الخير وتزكيتها بمعاني الإيمان، وإبعادها عن كل الشرور والآفات، فما كان من فضل فمن صاحب الفضل ﷻ؛ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

٥. عدم الاغترار بمدح الناس وثنائهم:

فالناس لا يمكنهم الاطلاع إلا علىٰ ظاهر حال الإنسان، لٰكن في المقابل فإن هٰذا الإنسان يعرف حقيقة نفسه المقصّرة على الدوام، والخطّاءة باستمرار، والمليئة بالعيوب والنواقص، فينبغي على الإنسان أن يكون ذامًّا لنفسه ومعاتبا لها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٧)، ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤١) برقم: (٢٨١٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٨).

فروع متعلقة بالتوبة

١. ما هي الذنوب التي تصح التوبة منها؟

تصح التوبة الصادقة المستوفية لكل شروطها من كل الذنوب، ولو كانت من أكبر الكبائر؛ كالكفر بالله والقتل، والزنا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فهذا مقيد بأنه مات على الشرك دون أن يتوب منه[١]، أما التوبة من الشرك والدخول في الإسلام فبابها مفتوح، فإذا دخل المشرك في الإسلام ووحد الله فإن الإسلام يجبّ ما قبْله..

٢. هل التوبة واجبة على الفور أو يجوز تأخيرها؟

والتوبة واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها أو التكاسل فيها، وتأخير التوبة ذنب يحتاج إلى توبة، فأوامر الله ورسوله كلها على الفور إذا لم يقم دليل على جواز تأخيرها، وتأخير التوبة سبب لتراكم الذنوب والرَّيْن على القلوب، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِت في قلبه نُكْتة[٢]، فإن هو نَزَع[٣] واستغفر وتاب صُقِلت[٤]، فإن عاد زيد فيها، فإن عاد زيد فيها حتى تعلوَ فيه،

---

(١) تفسير النسفي (١/ ٣٦٤).

(٢) النُّكتة: أثر قليل كالنقطة، شِبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١١٤).

(٣) نزَع: نزع عن كذا: انتهى عنه. مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٧٣).

(٤) صُقِلَت: الصقل: الجلاء. لسان العرب لابن منظور (١١/ ٣٨٠).

فهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[١].

فإذا تاب المسلم من الذنب بقي عليه توبة أخرىٰ، وهي توبته من تأخير التوبة.

٣. ما حكم توبة العاجز عن المعصية؟

إذا حيل بين العاصي وبين أسباب المعصية وعجز عنها، بحيث يتعذر وقوعها منه هل تصح توبته؟

كالسارق إذا قُطِعَ، والزاني إذا جُبَّ، وشاهد الزور إذا قطع لسانه، وكل من وصل إلىٰ حد بطلت معه دواعيه إلىٰ معصية كان يرتكبها، فتوبته صحيحة، وتكون التوبة من عزمه على المعصية لو قدر عليها، ومن وساوس الشيطان له بالمعصية بأن لا يستحليها ويستعذبها، بل ينفر منها ويشمئز منها[٢].

٤. هل العودة إلى الذنب مفسد للتوبة؟

قال النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤).

(٢) التوبة إلى الله للسدلان (ص: ٥١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٥) برقم: (٧٥٠٧)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٩) برقم: (٢٧٥٨).

معناه: ما دمتَ تذنب ثم تتوب غفرتُ لك، فلو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر دون إصرار، وتاب في كل مرة، قبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته[١].

فليس الإشكال في وقوع الذنب، وإنما الإشكال في الإصرار عليه واستمرائه؛ فإن النبي ﷺ قد قال: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[٢]. وقال أيضا ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[٣].

نماذج من توبة الصالحين

١ . توبة ماعز بن مالك:

عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، طهِّرني، فقال: «ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهِّرني، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله: «فيمَ أُطَهِّرك؟» فقال: من الزنا، فسأل رسول الله ﷺ: «أَبِه جنون»؟ فأُخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «أشرِب خمرًا»؟ فقام رجل فاستنكهه[٤]، فلم يجد منه ريح خمر، قال:

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨ ٩٤) برقم: (٢٧٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤ ٢٧٣) برقم: (٢٤٩٩).

(٤) **استنكهه**: شم رائحة فمه. ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٥٥٠).

فقال رسول الله ﷺ: «أزنيت»؟ فقال: نعم، فأمر به فرُجم، فكان الناس فيه فرقتين؛ قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبةٌ أفضل من توبة ماعز أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: «استغفروا لماعز بن مالك»، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبةً لو قُسِمَت بين أمَّةٍ لوسعتهم»[1].

٢. توبة الفضيل بن عياض:

كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها قال: بلىٰ يا رب، قد آن، فرجع فآواه الليل إلىٰ خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتىٰ نصبح؛ فإن فضيلًا على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعىٰ بالليل في المعاصي وقومٌ من المسلمين هاهنا يخافونني! وما أرى الله ساقني إليهم إلا لِأَرْتَدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

المقترحات العملية والتدريبات

١. عندما تذنب ذنبًا توضأ وصلِّ ركعتين سنة التوبة؛ فإن للوضوء أثرًا في تطهير الأعضاء من الذنوب، وفي صلاة ركعتين أثرٌ في محو ذلك الذنب؛ ففي الحديث: «ما مِن عبد يُذنب ذنبًا، فيُحْسِن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ١١٨) برقم: (١٦٩٥).

ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخر الآية(١).

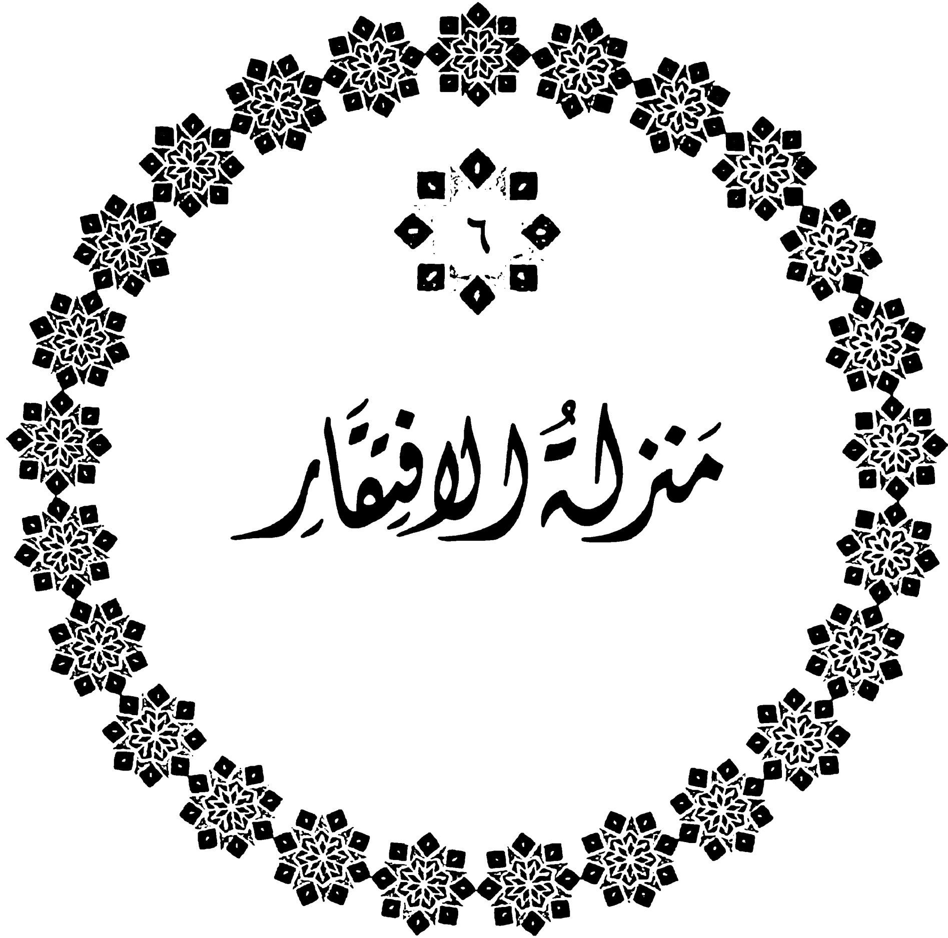
٢. داوم على الاستغفار والإكثار منه بالصيغة التالية: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه».

٣. اقرأ كتاب (التوابين) لابن قدامة، واستخرج منه أبرز القصص التي أثرت فيك.



(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٦١) برقم: (١٥٢١)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٩) برقم: (٦٢٣).

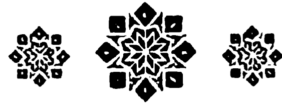
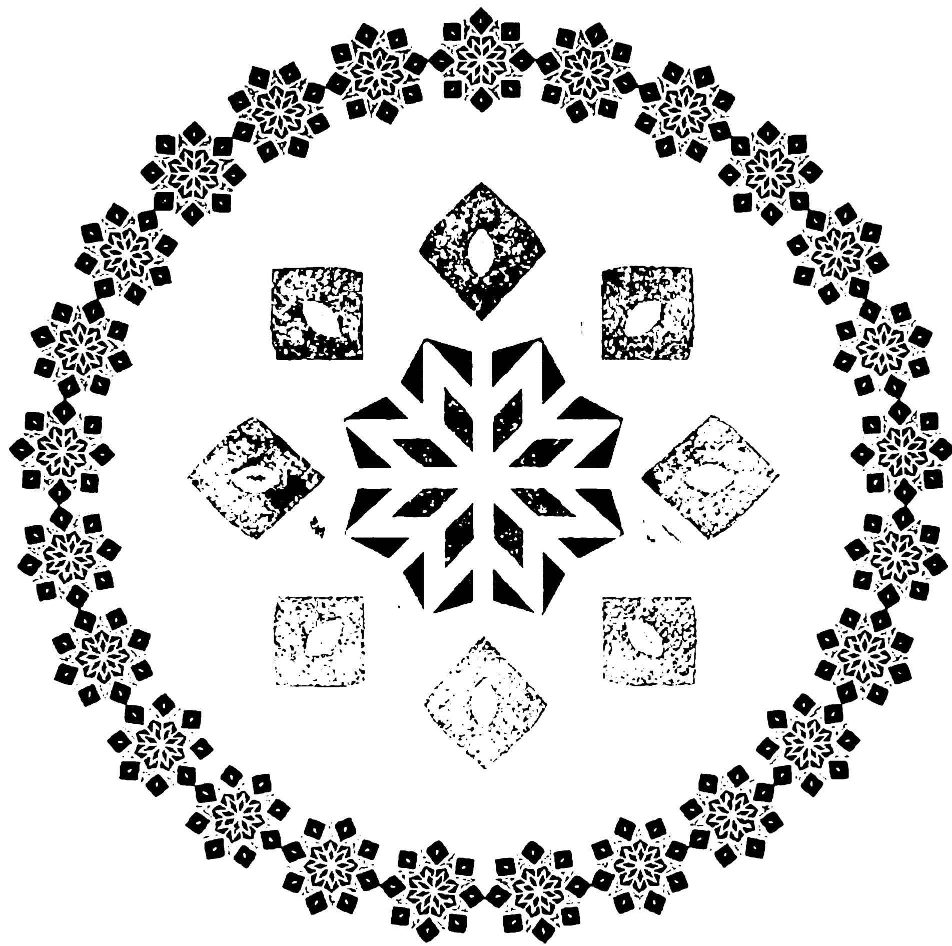


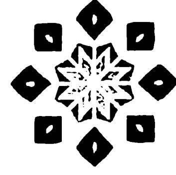


٦

مَنزلةُ الافتِقَار



منزلة الافتقار



بين يدي الافتقار

المقصود بالافتقار هو أحد نوعي الفقر الذي تكلم فيه أرباب السلوك والتصوف، وهو فقر خاص، وهٰذا الفقر الذي يشير إليه أرباب السلوك لا ينافيه وجود الأموال والأملاك؛ لأن مِن الأنبياء والصلحاء والعلماء مَن كان ذا غنىً ومالٍ، لٰكن لم يكن لهما تأثير في قلوبهم. فالفقر الحقيقي هو: دوام الافتقار إلى الله تعالىٰ في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرةٍ مِن ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً إلى الله تعالىٰ من كل وجهٍ(١).

وقد قسم ابن القيم ﷺ الفقر بهٰذا إلىٰ نوعين: المعنى الذي يتبادر إلى الذهن، والمعنى الخاص الذي يراد به مقام الافتقار، وقد استنبط ذٰلك من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، قال ﷺ: «فعلَّق الفقر إليه باسمه (اللَّه) دون اسم الربوبية؛ ليُؤْذِن بنوعي الفقر، فإنَّه نوعان: فقرٌ إلىٰ ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها؛ وفقرٌ إلىٰ إلاهيته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهٰذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم، ويتكلمون عليه، ويُشمِّرون إليه هو الفقر الخاص لا العام، وقد اختلفتْ عباراتُهم عنه ووصفُهم له، وكلٌّ أخبرَ عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير»(٢).

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٣٤).

(٢) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ١٨-١٩).

حقيقة الافتقار

المعنى اللغوي:

الفقر: الحاجة، وهو ضد الغنىٰ، وفعله الافتقار، والنعت فقير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠][١].

المعنى الشرعي:

الفقر والافتقار كلاهما مستعمل في كتب السلوك والأخلاق، إلا أن التعبير بالافتقار أدقُّ وأقرب من حيث دلالته على المعنى المراد؛ لأن المراد هو افتقار العبد إلىٰ ربه سبحانه، فهو فعل العبد وشعوره.

وحقيقة الافتقار إلى الله تعالىٰ: أن يُجرِّد العبدُ قلبَه من كل حظوظها وأهوائها، ويستشعر بالحاجة الدائمة المطلقة إلى الله ويُقبِل بكليته إلىٰ ربه عز وجل، مُتَذللًا بين يديه، مستسلمًا لأمره ونهيه، متعلقًا قلبه بمحبته وطاعته؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣][٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «ومراد القوم بالفقر شيءٌ أخصُّ من هٰذا كلِّه، وهو تحقيق العبوديّة والافتقار إلى الله تعالىٰ في كلِّ حالةٍ، وهٰذا المعنىٰ أجلُّ من أن يسمّىٰ فقرًا، بل هو حقيقة العبوديّة ولبُّها، وعزْلُ النّفس عن مزاحمة الرُّبوبيّة»[٣].

وسئل الشبلي رحمه الله عن حقيقة الفقر، فقال: «أن لا يستغني بشيء دون الله عز وجل»[٤].

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٥/ ٦٠).

(٢) ينظر: الافتقار إلى الله تعالىٰ لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ١٣).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢٣٢).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٣٥).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

١. الذل:

والمراد به تذلُّل العبد بين يدي ربه سبحانه خاشعًا قانتًا، وعلاقة الذل بالفقر: أنه شرط تحقق الافتقار وعلامة من علاماته وثمرة من ثمراته، فالذل الذي يتكلم فيه أهل السلوك والرقائق ركن ركين من مقام الفقر، بل هو عين الفقر، ولا يدل على افتقار العبد إلى ربه مثل التذلل بين يديه؛ قال ابن القيم: «والفقر له بدايةٌ ونهايةٌ، وظاهرٌ وباطنٌ، فبدايته الذُّلُّ، ونهايته العزُّ، وظاهره العدم، وباطنه الغنى»[1].

٢. الغنى:

وذلك أن الاستغناء بالله تعالى من كل شيء سواه يجعل العبدَ مفتقرًا إليه وحده، فهي إحدى تجليات معنى الافتقار؛ قال ابن القيم ﷺ: «وإذا عرفت معنى الفقر عرفتَ أنّه عينُ الغنى بالله، فلا معنى لسؤال مَن سأل: أيُّ الحالينِ أكمل؛ الافتقار إلى الله أم الاستغناء به؟ فهذه مسألةٌ غير صحيحةٍ؛ فإنّ الاستغناء به هو عين الافتقار إليه»[2].

وسئل الجنيد ﷺ عن الافتقار إلى الله عز وجل والاستغناء به أيهما أتمُّ؟ فقال: «الافتقار إلى الله عز وجل موجبٌ للغنى بالله عز وجل، فإذا صحّ الافتقار إلى الله عز وجل كمل الغنى بالله تعالى، فلا يقال: أيُّهما أتم؟ لأنّهما حالان لا يتم أحدهما إلا بتمام الآخر، ومن صحَّح الافتقارَ صحَّح الغنى»[3].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٣٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٣٦).

(٣) اللمع للطوسي (ص: ٣٠٩)؛ الرسالة القشيرية (٢/ ٤٣١).

٣. التجريد والفناء:

صاحب التجرد هو الذي يتجرّد عن ماله وحاله وكسبه وعلمه في سبيل مرضاة مولاه وخالقه، وصاحب الفناء: هو مَن فني بحب ربه وابتغاء مرضاته عن حب غيره وابتغاء مرضاته، وقد قرن العلماء بين الفقر والتجريد والفناء؛ لأن العبد إذا وصل إلىٰ مقام الفقر الحقيقي صار في يد التقطع والتجريد، فالمنازل متقاربة[(١)]. قال ابن القيم: «فالفقر والتجريد والفناء من واردٍ واحدٍ»[(٢)].

فضل الافتقار وثمراته

١. الآثار الواردة في فضل الفقر:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فالناس جميعًا مفتقرون إلى الله في وجودهم، واستمرار وجودهم، وفي كل شيء، ولكن المؤمن يتحقق بهذا الافتقار ويعترف به؛ ولذلك قال سيدنا يوسف عندما كاد له النسوة: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فنادىٰ ربه بافتقاره إليه، فالافتقار صفة الأنبياء الأصفياء.

وجاء في الحديث: «يدخل الفقراءُ الجنةَ قبل الأغنياء بخمس مئة عام، نصف يوم»[(٣)]. والفقر هنا هو الفقر المادي، وإنما دخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بهذه الفترة الطويلة؛ لأن الأغنياء يوقفون ليحاسبوا علىٰ كل مال كسبوه، فيُسألون عن مصدره، ثم يُسألون فيمَ أنفقوه؟ أما الفقراء فليس لديهم مال ليُسألوا عنه. وهكذا

(١) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٦٠-٦٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٧٢) برقم: (٢٣٥٣)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ١٩٢) برقم: (١١٢٨٥)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٣٨) برقم: (٤١٢٢)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٢١٩٤) برقم: (١٠٨٠٤). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

الذين تحققوا بصفة الافتقار؛ فهم قد استغنوا بالله وتخلوا عما في أيديهم وترفعوا عن الدنيا، فلم يعد في قلبهم سوىٰ طلب رضا خالقهم، فخف بذٰلك حسابهم.

٢. الافتقار صفة جامعة لجميع العبادات:

المتأمل في جميع أنواع العبادات القلبية والعملية يرىٰ أن الافتقار فيها إلى الله تعالىٰ هي الصفة الجامعة لها، فبقدر افتقار العبد فيها إلى الله سبحانه يكون أثرها في قلبه ونفعها له في الدنيا والآخرة، وحسبنا أن نتأمل في الصلاة، فالعبد المؤمن يقف بين يدي ربه في سكينة ووقار، خاشعًا متذللًا، وفي ذٰلك دلالة جلية علىٰ تعظيم الله تعالىٰ وحده وترك ما سواه من الأحوال والأموال والمناصب، وفيها من مظاهر الافتقار: طأطأة الرأس بالركوع، ووضع الجبهة على الأرض في السجود، مع التذلل وإظهار الفقر والحاجة إلىٰ مولاه[1].

٣. الافتقار سبب حياة القلب:

هٰذه المنزلة الجليلة التي يصل إليها القلب هي سرُّ حياته وأساس إقباله علىٰ ربه ﷻ، فالافتقار حادٍ يحدُو العبدَ إلىٰ ملازمة التقوىٰ ومداومة الطاعة[2].

شروط الافتقار

من تعريف الافتقار بمعناه الشرعي لاحظنا بعض الشروط والعلامات التي يتحقق بها الافتقار عند العبد، قيل: «أقلُّ ما يَلزمُ الفقيرَ في فقره أربعة أشياء: عِلمٌ يَسُوسُه، وورعٌ يَحجِزه، ويقينٌ يحمله، وذكرٌ يُؤنِسه»[3].

(١) ينظر: الافتقار إلى الله تعالىٰ لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ١٤).

(٢) ينظر: المصدر السابق (ص: ١٥).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٣٥).

والذي يظهر بعد ملاحظة أقوال العلماء في ذلك أن حقيقة الافتقار لا تحصل إلا بوجود أمرين، هما:

١. إدراك عظمة الله وجبروته:

كلما كان العبد أعلم بالله تعالىٰ وصفاته وأسمائه كان أعظمَ افتقارًا إليه وتذلُّلًا بين يديه؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. فالذين أوتوا العلم أدركوا عظمة ربهم سبحانه فأعلنوا تذللهم بين يديه تعالىٰ بالسجود والبكاء[١].

٢. إدراك ضَعفِ المخلوقِ وعجزه:

فمن عرف قدرَ نفسه -وأنه مهما بلغ في الجاه والسلطان والمال عاجز ضعيف لا يملك لنفسه صرفًا ولا عدلًا- تصاغرتْ نفسُه، وذهب كبرياؤه، وذلَّتْ جوارحه، وعظُم افتقارُه لمولاه والتجاؤه إليه وتضرُّعه بين يديه؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٥-١٠][٢].

قال ابن القيم: «من كمُلَتْ عظمةُ الحقِّ في قلبه عظُمَتْ عنده مخالفتُه؛ لأنَّ مخالفةَ العظيم ليست كمخالفة مَن هو دونه، ومَن عرَف قدرَ نفسه وحقيقتَها وفقرَها الذَّاتيَّ إلىٰ مولاها الحقِّ في كلِّ لحظةٍ ونفَسٍ، وشِدَّةَ حاجتها إليه: عظمتْ عنده جنايةُ المخالفة لمن هو شديدُ الضَّرورة إليه في كلِّ لحظةٍ ونفَسٍ»[٣].

(١) ينظر: الافتقار إلى الله تعالىٰ لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ١٥-١٦).
(٢) ينظر: المرجع السابق (ص: ١٩).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٢١).

مراتب الافتقار

ينقسم الافتقار إلىٰ ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ: الزهد في الدنيا

لما كان تعلُّق الدنيا بالإنسان من خلال الجوارح والقلب واللسان، كان حقيقة الفقر: تعطيل هٰذه الثلاثة عن تعلقها بها وسلبها منها؛ قال الهروي ﷺ: «الدّرجة الأولىٰ: فقر الزُّهّاد، وهو نفض اليدين من الدُّنيا ضبطًا أو طلبًا، وإسكاتُ اللِّسان عنها ذمًّا أو مدحًا، والسّلامة منها طلبًا أو تركًا»[1].

فأهل هٰذه المرتبة يقبضون أيديَهم عن إمساك الدنيا إذا حصلت، لهم ويجودون بها، وإن لم تحصل كفُّوا أيديهم عن طلبها، ولا يمدحونها ولا يذمونها؛ لأن الاشتغال بمدحها أو ذمِّها دليل محبتها والرغبة فيها، فإن مَن أحب شيئًا أكثر من ذكره، ويفرِّغون القلبَ منها بالسلامة من آفات طلبِها وتركِها؛ لأن لطلبها وتركِها آفات، والفقر: سلامة القلب من آفات الطلب والترك، بحيث لا تحجُبه عن ربه سبحانه بوجهٍ من الوجوه الظاهرة والباطنة[2].

المرتبة الثانية: عدم رؤية الأعمال مع مطالعة فضل الله ومنته

قال الهروي: «الدرجة الثانية: الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل، وهو يُورِث الخلاصَ من رؤية الأعمال ويقطع شهودَ الأحوال ويمحِّض من أدناس مطالعة المقامات»[3].

---

(١) منازل السائرين لإسماعيل الهروي (ص: ٧٢).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٤١).

(٣) منازل السائرين لإسماعيل الهروي (ص: ٧٢).

ويقصد بذلك الالتفات إلىٰ ما سبقتْ به السابقةُ من الله بمطالعة فضله ومنَّته وجُوده، وأن العبد وكلَّ ما فيه من خيرٍ محضُ فضلِ الله تعالىٰ وإحسانه، وليس للعبد من ذاته شيء، وإنما ذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله تعالىٰ له، فإذا استحضر هٰذا وتحقق به خلَّصه من رؤية أعماله، فلا يراها إلا من الله وبالله عز وجل[1].

المرتبة الثالثة: شهود كمال الاضطرار إلى الله تعالىٰ والفاقة إليه علمًا وحالًا

وذٰلك بالانقطاع والانفصال عن كل شيء غير ربه، والاستسلام والإذعان له ولغناه، مع تجريد الوحدانية لله تعالىٰ، والفناءُ عن شهود سوى الله تعالىٰ، فهو حَبَس نفسَه ومنعها عن شهود غيره، فتمحو رؤيةُ التوحيد عن العبد شواهدَ استبدادِه واستقلاله بأمر من الأمور، ولو في النفس والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة، إلا بإرادة المريد الحق سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته[2].

قال ابن القيم: «الفقر الأوَّل فقرٌ عن الأعراض الدنيوية، والفقر الثاني فقرٌ عن رؤية المقامات والأحوال، وهٰذا الفقر الثالث فقرٌ عن ملاحظة الوجود الساتر للعبد عن مشاهدة الموجود، فيبقى الوجودُ الحادثُ في قبضة الحق عزَّ وجلَّ كالهباء المنثور في الهواء»[3].

طرق اكتساب الافتقار

من الأمور والأسباب التي تعين على اكتساب صفة الافتقار في النفس ما يلي:

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: المصدر السابق (٣/ ٢٤٦).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٥٤).

١. معرفة حقيقة الإله الخالق ومعنى الربوبية:

وذلك بأن يعرف ويستحضر دائمًا أن الله هو الخالق، وأنه غني عن خلقه، وأنه عالم الغيب والشهادة، وأنه يدبِّر الأمرَ كيف يشاء، فمتى اجتمع له هذا الشهود يؤدي ذلك إلىٰ تحقق الفاقة والفقر والضرورة التامة إليه ﷻ[١].

٢. معرفة حقيقة النفس ومعنى العبودية:

والتحقق بمعرفة ذلك يوجب صحة الاضطرار إلىٰ ربه في حركاته وسكناته، وكمال الفقر والفاقة، ويحول بين العبد وبين رؤيةِ أعماله وأحواله والاستغناءِ بها، والخروجِ عن ربقة العبودية إلىٰ دعوىٰ ما ليس له[٢].

قال ابن القيم: «وإنَّما يصحّ له هذا بمعرفتين لا بد منهما: معرفة حقيقة الربوبية والإلهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية، فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر، فإن أعطىٰ هاتين المعرفتين حقَّهما من العبودية اتَّصف بهذا الفقر حالًا»[٣].

علامات التحقق بالافتقار

١. غاية الذل لله تعالىٰ مع غاية الحب:

المؤمن الحقيقي يُظهِر افتقارَه إلى الله تعالىٰ بتسليم نفسه له، منكسرًا بين يديه متذللًا لعظمته، يقدِّم حُبَّه سبحانه علىٰ كل حبٍّ، مع طمأنينة النفس وسكينة القلب، ويظهر أثر هذا الحب والافتقار في الوقوف عند حدود الله تعالىٰ والإقبال علىٰ طاعته، والتزام أمره ونهيه[٤].

---

(١) ينظر: المصدر السابق (١/ ١٠٥-١٠٧).

(٢) ينظر: المصدر السابق (١/ ٥٨).

(٣) ينظر: المصدر السابق (١/ ٥٤).

(٤) ينظر: الافتقار إلى الله تعالىٰ لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ٢١).



ويتحقق التذلل لله تعالىٰ بنزع جلباب الكبرياء والتعالي والتعاظم، والانكسارِ بين يدي جبار السماوات والأرض والخضوع لأمره ونهيه؛ قال ﷺ فيما يحكي عن الله عز وجل: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار»(١).

قال ابن تيمية: «فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: مِن جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلىٰ ربه ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه»(٢).

٢. التعلق بالله تعالىٰ وبمحبوباته:

شعور العبد بفقره وحاجته إلىٰ ربه عز وجل يدفعه إلى الاستكانة له والإنابة إليه، ويتعلق قلبه بذكره وحمده والثناء عليه، والتزام مرضاته والامتثال لمحبوباته؛ ولهٰذا نرى العبد الذي تعلق قلبه بربه -وإن اشتغل في بيعه وشرائه أو مع أهله وولده أو في شأنه الدنيوي كله- مقيمًا علىٰ طاعته، مقدِّمًا محبوباته علىٰ محبوبات نفسه وأهوائها، ولا تلهيه زخارف الدنيا عن مرضاة ربه(٣).

---

(١) أخرجه بهٰذا اللفظ أبو داود في سننه (٤/ ١٠٢) برقم: (٤٠٩٠)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٧٣) برقم: (٤١٧٥)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٥٥٥) برقم: (٧٤٩٩)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٥) برقم: (٣٢٨)؛ والحكم في مستدركه (١/ ٦١) برقم: (٢٠٣). وأخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٥) برقم: (٢٦٢٠)، ولفظه: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته».

(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ١٩٣).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٣٢)؛ الافتقار إلى الله تعالىٰ لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ٢٧).

قال الله تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: «سبعة يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظله... ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ في المساجد»(١).

قال ابن حجر ﷺ: «إشارة إلىٰ طول الملازمة بقلبه، وإن كان جسده خارجًا عنه»(٢).

٣. ملازمة الذكر والاستغفار:

قلب العبد المؤمن المفتقر إلىٰ ربه عاكف علىٰ ذكره والثناء عليه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ في جميع أحواله، ويكون دائم التوبة والاستغفار عن الزلل والتقصير، يجد لَذَّته وأُنْسَه بتلاوة القرآن، ويرىٰ راحته وسكينته بمناجاة الرحمن(٣)؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

٤. الخوف من عدم قبول العمل:

ومع شدة إقبال العبد على الطاعات والتقرب إلى الله بأنواع القربات،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٦٦٠)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٣) برقم: (١٠٣١).
(٢) فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٤٥).
(٣) ينظر: الافتقار إلى الله تعالىٰ لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ٣٢).

إلا أنه مشفق على نفسه أشد الإشفاق، يخشى أن يُحرَم من القبول؛ سألت السيدةُ عائشةُ ﵂ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]: أهُمُ الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنتَ الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]»(١). فعلى الرغم من حرصهم على أداء هذه العبادات فإنهم لا يركنون إلى جهدهم، ولا يُدْلُون بها على ربهم، بل يزدرون أعمالَهم ويُظهِرون الافتقارَ التام لعفو الله ورحمته، وتمتلئ قلوبهم مهابة ووجلًا، يخشون أن تُرَدَّ أعمالُهم عليهم، ويرفعون أكفَّ الضراعة ملتجئين إلى الله تعالى يسألونه أن يتقبل منهم(٢).

٥. خشية الله عز وجل في السر والعلن:

الخوف من الله تعالى مِن أجلِّ صفات أهل الإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. وخشية الله عز وجل في السر والعلن من أعظم آيات الافتقار والفاقة إليه، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأدرك عظمتَه وجبروتَه خاف منه حق الخوف، ومن كانت هذه هي حاله كان متيقظ القلب، يرتجف خشيةً وإشفاقًا، دائم المناجاة لربه، يستجير ويستغيث استغاثة المفتقر الذليل؛ قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩](٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٢٣٦) برقم: (٣١٧٥)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٨٧) برقم: (٤١٩٨)؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٦٠٩٦) برقم: (٢٥٩٠٠)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٩٣) برقم: (٣٥٠٧).

(٢) ينظر: الافتقار إلى الله تعالى لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ٣٧).

(٣) ينظر: المرجع السابق (ص: ٤٩).

٦. تعظيم الأمر والنهي:

تعظيم الأمر والنهي من تعظيم الله جل وعلا، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وتعظيم الأمر والنهي يعني الوقوف عند حدود النصوص الشرعية والالتزام الصادق بمقتضياتها ودلائلها[١].

٧. الرضا وعدم إظهار الشكوىٰ:

وذٰلك لأن المفتقر الذي تحقق بمعنى الافتقار إلى الله يعرف أن كل ما يصيبه فبعلم الله الأزلي وقضائه وقدره، وأنه لا يُقدِّر عليه إلا ما فيه مصلحة له؛ إما تكفير للسيئات، أو رفع للدرجات، أو دفع لضرر أكبر لم يُحِط العبد بعلمه، لٰكن الله تعالىٰ علم ذٰلك، مثل ما حصل لأهل السفينة في قصة سيدنا موسىٰ عليه السلام مع الخضر؛ سئل إبراهيم الخواص عن علامة الفقير الصادق، فقال: «تركُ الشكوىٰ وإخفاءُ أثر البلوىٰ»[٢].

الآفات التي تؤثر على الافتقار

١. الكبر والعجب:

وبيان ذٰلك: أن الشيطان عندما يرىٰ أن ابن آدم قد ثبت أمام مغرياته وطرق تخويفه، فاستقام علىٰ طريق الهدىٰ والافتقار؛ لا يخاف إلا من الله، ولا يطلب حاجتَه إلا منه، يأتي إليه الشيطان من طريق آخر ليُلبِّس عليه أمرَه، ويضيِّع جهدَه وصبرَه، فيوسوس عليه أنه قد وصل إلىٰ كمال العبودية، وتحقق بصفة الافتقار

(١) ينظر: المرجع السابق (ص: ٥٤).
(٢) ينظر: اللمع للطوسي (ص: ٧٣).

الذي عجز عنه أكثر الناس، فرتبته أعلىٰ من رتب باقي البشر، فيبدأ الشيطان بغرس بذور العجب في قلبه، حتىٰ يُرَسِّخ فيه صفة التكبر، فيُضيِّع ابن آدم عملَه، ويُضحِك عليه عدوَّه.

قال ذو النون: «دوام الفقر إلى الله تعالىٰ مع التخليط أحبُّ إليّ من دوام الصفاء مع العجب»[1].

٢. الاتكال على القدر:

وبيان ذٰلك: أن بعض الناس يحسب أنه متحقق بصفة الافتقار إلى الله تعالىٰ، بينما هو قائم بكل ما تهواه نفسه من المعاصي والأهواء، ويدعي أن هٰذا قدر الله تعالىٰ له كتبه عليه، فهو يستجيب للقدر وراض عما كتب عليه، ويظن أن هٰذا الرضا هو محض الافتقار إلى الله والرضا بقضائه، فإن قيل له: اتق الله ولا تعصِه! قال: إن كنتُ عاصيًا لأمره فأنا مطيع لحكمه وإرادته، فهٰذه مقولة الجبرية، ولا يتحقق الافتقار إلى الله سبحانه إلا بالبراءة من هٰذا القول والاعتقاد، ووظيفة الفقير في هٰذه الحالة هو: مشاهدة الأمر والشرع، ورؤية قيامه بالأفعال وصدورها منه كسبًا واختيارًا، وتعلُّق الأمر والنهي بها طلبًا وتركًا، وترتُّب الذم والمدح عليها شرعًا وعقلًا، وتعلق الثواب والعقاب بها آجلًا وعاجلًا[2].

فروع متعلقة بالافتقار

قسم العلماءُ الفقراءَ إلىٰ ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: جميع الخلق، وهو فقر يعُمُّ أهلَ الأرض كلهم؛ غنيهم وفقيرهم،

---

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٤٣٨).

(٢) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٥٤-٥٥).

مؤمنهم وكافرهم، ودل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

الصنف الثاني: فقراء المسلمين عامتهم وخاصتهم، وهم أحد الأصناف الذين يُصرَف إليهم الزكاة بعلة فقرهم، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

الصنف الثالث: خواص الفقراء من المسلمين الذين تحلَّوْا بصفات التعفُّف عن سؤال الناس وعن قبول صدقاتهم، وهي مرتبة خاصة لا يبلغها إلا أهل الصبر والورع من أهل الإيمان، يحسبون ما عند الله ويزهدون فيما عند الناس. ويدل علىٰ ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وكذٰلك قوله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨][1].

ففقر الصنف الأول فقر البشرية جمعاء إلى الله عز وجل خالِقِهم ورازِقِهم، ولا يقضي حاجتهم إلا ربُّهم ولا يستغنون عن مسألته والحاجة إليه، وهو فقر معنوي وضمنه فقر مادي.

أما فقر الصنفين الثاني والثالث فهو فقر بعض البشر إلىٰ بعضهم، وهو الفقر الذي يخطر ببال أي إنسان عندما يسمع هٰذه الكلمة، وهٰذان الصنفان حاجاتهم ليست بالضرورة تقضىٰ من طرف ناس آخرين، وليسوا مضطرين إلىٰ سؤالهم، فلهم أن يصبروا أو يسألوا الناس أن يقضوا لهم حاجاتهم، فهٰذا فقر مادي محض؛

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٣١).

لذلك قسم أرباب السلوك فقراء المسلمين بهٰذا الفقر «أعني: الصنفين الثاني والثالث» إلىٰ ثلاث طبقات:

الأولىٰ: من لا يملك شيئًا، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحدٍ شيئًا، ولا ينتظر من أحدٍ شيئًا، وإن أُعطي شيئًا لم يأخذ، فهٰذا مقامه مقام المقربين.

الثانية: من لا يملك شيئًا، ولا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يطلب ولا يعرِّض، وإن أُعطِي شيئًا من غير مسألةٍ أخذ.

الثالثة: من لا يملك شيئًا، وإن احتاج انبسط إلىٰ بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه، فكفارة مسألته صدقه، وهٰذا مقام الصديقين في الفقر[1].

نماذج من افتقار الصالحين

١. نقل القشيري عن أبي علي الدقاق رحمة الله عليهما أنه قال: «قام فقير في مجلس يطلب شيئًا، فقال: إني جائع منذ ثلاث، وكان هناك بعض المشايخ، فصاح عليه وقال: كذبت، إن الفقر سر الله، وهو لا يضع سره عند مَن يحمله إلىٰ من يريد»[2].

٢. قال أبو محمد بن ياسين ﷺ: «سمعت ابنَ الجلَّاء يقول، وقد سألته عن الفقر، فسكت حتىٰ خلا، ثم ذهب ورجع عن قريب، ثم قال: كان عندي أربعة

(١) يقارن بما ذكره الإمام الغزالي ﷺ في الإحياء، حيث جعل الفقراء علىٰ خمس حالات ورتبها حسب درجاتها، وهي: حال الزاهد، ثم الراضي، ثم القانع، ثم الحريص، ثم المضطر، وبعده ذكر قسما سادساً لهٰذه الأحوال يأتي قبل الدرجة الأولىٰ، وهي حال المستغني، وهو الذي تحقق بصفة الافتقار إلى الله تعالىٰ بالمعنى الذي تكلم عليه أهل السلوك وكان محور بحثنا هٰذا، والله أعلم. ينظر: اللمع للطوسي (ص:٧١-٧٣)؛ إحياء علوم الدين للغزالي (٨/ ١٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٣١).

دوانيق[1] فاستحييتُ من الله عز وجل أن أتكلم في الفقر، فذهبت وأخرجتُها، ثم قعد وتكلم في الفقر»[2].

٣. قال أبو علي الروذباري: «كان أربعة في زمانهم: واحد كان لا يقبل من الإخوان ولا من السلطان شيئًا، وهو يوسف بن أسباط، ورث من أبيه سبعين ألف درهم ولـم يأخذ منها شيئًا، وكان يعمل الخوص بيده. وآخر كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعًا وهو أبو إسحاق الفزاري، فكان ما أخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون، والذي كان يأخذه من السلطان كان يخرجه إلىٰ أهل طرسوس. والثالث: كان يأخذ من الإخوان ولا يأخذ من السلطان، وهو عبد الله بن المبارك، وكان يأخذ من الإخوان ويكافئ عليه. والرابع: كان يأخذ من السلطان ولا يأخذ من الإخوان، وهو مجلد بن الحسين، كان يقول: السلطان لا يمُنُّ والإخوان يمنون»[3].

٤. قال بعضهم: «رأيت كأن القيامة قد قامت، وقيل: أدخِلوا مالك بن دينار ومحمد بن واسع الجنة، فنظرت أيهما يتقدم، فتقدم محمد بن واسع، سألت عن سبب تقدمه، فقيل لي: إنه كان له قميص واحد ولمالك قميصان»[4].

٥. قال محمد بن علي الكتاني ﷺ: «كان عندنا بمكة حرسها الله تعالىٰ فتىً عليه أطمارٌ رثَّة، وكان لا يُداخِلنا ولا يُجالسنا، فوقعتْ محبتُه في قلبي، ففُتِح لي بمائتي درهم من وجهٍ حلال، فحملتُها إليه ووضعتُها علىٰ طرفِ سجادتِهِ،

(١) جمع دانق، وهو سدس الدينار والدرهم. ينظر: تاج العروس للزبيدي (٢٥/ ٣١٠).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٣٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٣٤).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٣٧).

وقلت له: إنه فُتِح لي ذلك من وجهٍ حلال، تَصْرِفه في بعض أمورك، فنظر إلي شزَرًا، ثم كشف عما هو مستور عني، وقال: اشتريتُ هذه الجلسة مع الله تعالىٰ على الفراغ بسبعين ألف دينار، غير الضياع والمستغلات، تريد أن تخدعني عنها بهذه! وقام وبدَّدها، وقعدتُ ألتقط، فما رأيت كَعِزِّه حين مرَّ، ولا كذُلِّي حين كنتُ ألتقطُها»[1].

المقترحات العملية والتدريبات

١ . اقرأ كتاب (الافتقار إلى الله تعالىٰ) لأحمد الصويان.

٢ . اقرأ باب الافتقار إلى الله تعالىٰ من كتاب (مدارج السالكين) لابن القيم.

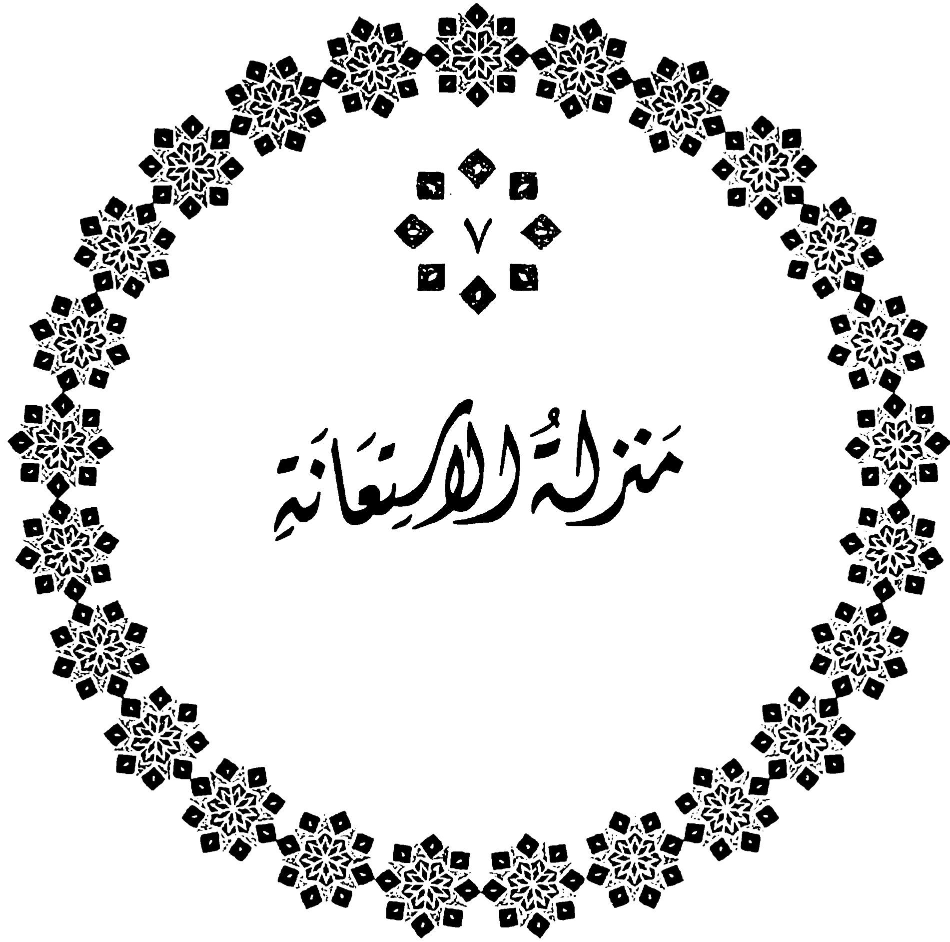
٣ . اختر المقاطع القرآنية التي فيها ذكر فقر الخلق إلى الله تعالىٰ، واستمع إليها وتدبُّر معانيها.

٤ . اختر ذكرًا معيَّنًا يُغذِّي هذه المنزلة، وأحسَنُه قول نبي الله آدم عليه السلام الذي ألهمه الله إياه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، أو قول نبي الله يونس عليه السلام في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فأيهما كان ذا تأثير أكثر على قلبك فواظب عليه.



(١) المصدر السابق (٢/ ٤٣٨).

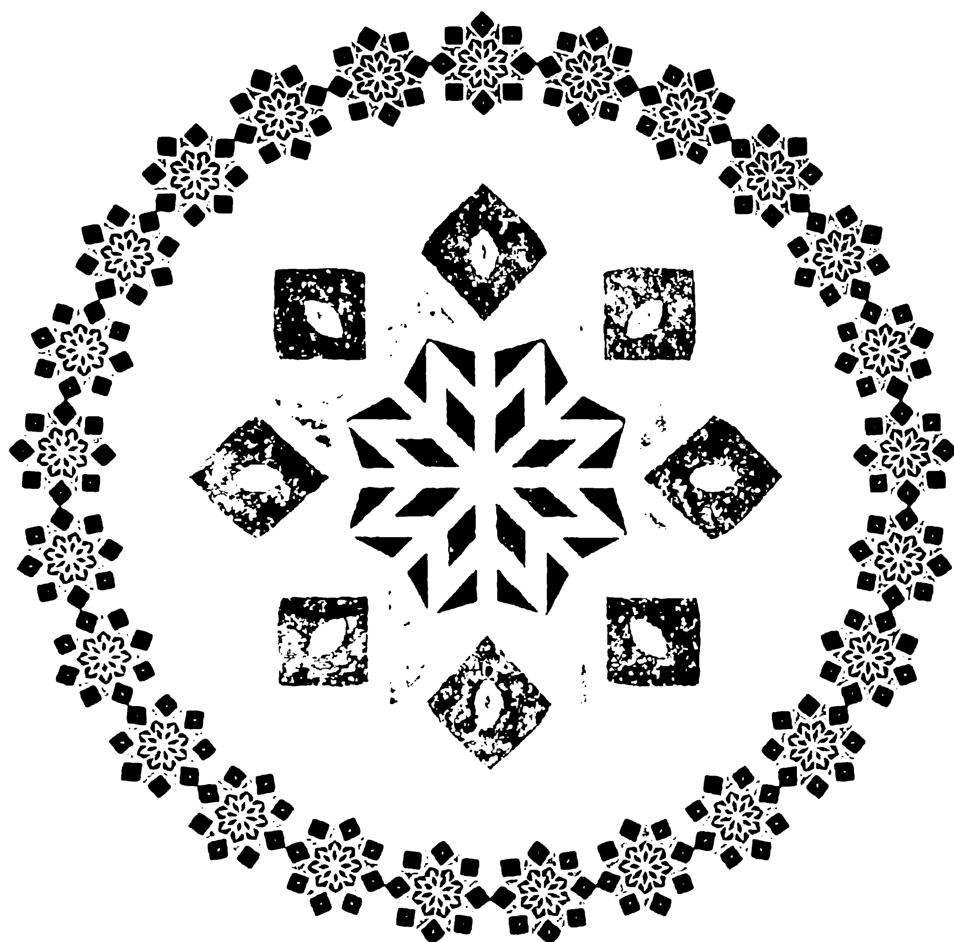
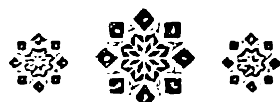




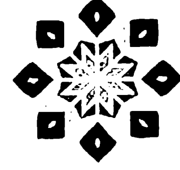
٧

منزلة الاستعانة

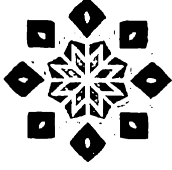






منزلة الاستعانة



بين يدي الاستعانة

إن المؤمن الذي يريد أن يرتقي في منازل السير إلى الآخرة لا يستطيع أن يرتقي إلا بعد عون الله عز وجل وتوفيقه له؛ لذلك فالله تعالىٰ هو المستعان على الحقيقة دون غيره من الخلق؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضارِّه، ولا مُعين له علىٰ مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل.

وحاجة العبد إلى الاستعانة بالله تعالىٰ لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقر إليه في جميع حالاته، فهو محتاج في كل أحواله إلى الهداية والإعانة عليها، ومحتاج إلىٰ تثبيت قلبه على الحق، ومغفرة ذنبه، وستر عيبه، وحفظه من الشرور والآفات، وقيام مصالحه، وغير ذلك من الحاجات التي لا تنفك عنه لحظةٌ من لحظات حياته، وغيرها كثير مما يكثر احتياجه إليه وافتقاره إلى الإعانة عليه، فالله تعالىٰ هو المستعان الذي بيده تحقيق النفع ودفع الضر، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه[1].

(١) ينظر: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (حرف الألف: الاستعانة) (٣/ ٣٥).

حقيقة الاستعانة

المعنى اللغوي:

الاستعانة مصدر فعل (استعان) للطلب، مأخوذ من (العَوْن)، وهو: الظهير على الأمر، والجمع: أعوان، والمعونة: الإعانة، يقال: ما عندك معونة ولا معانة ولا عون، واستعنْتُه واستعنت به فأعانني وعوَّنني، وتعاونوا واعتَوَنُوا: أعان بعضُهم بعضًا، فالاستعانة: طلبُ العون، وكل شيء أعانك فهو عونٌ لك[1].

المعنى الشرعي:

الاستعانة: هي طلب العون من الله عز وجل، وهي نوع من أنواع العبادة؛ قال الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، ونبرأ من كل معبودٍ دونك ومن عابدِيه، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك، فلا حول لأحدٍ عن معصيتك ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك[2].

قال محمد أبو زهرة ﷺ: «الاستعانة: طلب العون من الله تعالى، مستحضرًا ما في الذات العلية من صفات الربوبية والرحمة والسلطان المطلق يوم الجزاء؛ إذ لا سلطان في يوم الدين لأحد سواه»[3].

وقد سوّى ابن القيّم بين التّوكّل والاستعانة وقال في تعريفهما: «التوكّل والاستعانة: حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى، والإيمان بتفرّده بالخلق،

(١) ينظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: ١٢١٧)؛ الصحاح للجوهري (٦/ ٢١٦٨)؛ لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٢٩٨-٢٩٩)؛ تاج العروس للزبيدي (١٠/ ١٩).
(٢) ينظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول للحكمي (٢/ ٤٥٢).
(٣) زهرة التفاسير لمحمد أبي زهرة (١/ ٦٤).

والتّدبير والضّرّ والنّفع، والعطاء والمنع، وأنّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه النّاس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه وطمأنينةً به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكّل عليه فيه واستعان به عليه، وأنّه مليٌّ به، ولا يكون إلّا بمشيئته، شاء النّاس ذلك أم أبَوْه»[1].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

١. التوكل: هو تفويض الأمر إلى الله عز وجل والثقة به، وصدق اعتماد القلب عليه في استجلاب المصالح ودفع المضارِّ، من أمور الدنيا والآخرة كلِّها، وكِلَةُ الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه[2]. ووجه علاقته بالاستعانة أن الاستعانة تجمع أصلين: الثقةَ بالله والاعتمادَ عليه سبحانه، والتوكل معنىً يلتئم من الأصلين: من الثقة والاعتماد، وهو حقيقة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3].

٢. الافتقار: وهو تجريد العبد قلبَه من كل حظوظها وأهوائها، وإقباله بكليته إلى ربه عز وجل، متذللاً بين يديه، مستسلمًا لأمره ونهيه[4]، وحقيقته: عدم الاستغناء بشيء دون الله عز وجل[5]. ووجه علاقته بمنزلة الاستعانة: كونه شرطًا لتحقق الاستعانة، كما أن من علامات صحة افتقار العبد إلى الله: الاستعانةَ به وحده والاستغناء عن غيره.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٢٦). ينظر: نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (٢/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٩٠)؛ جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤٩٧)؛ أعمال القلوب لخالد السبت (١/ ٤٤٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١١٦).

(٤) ينظر: الافتقار إلى الله تعالى لب العبودية لأحمد الصويان (ص: ١٣).

(٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٣٥)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٣٤).

٣. **الدعاء**: وهو سؤال العبد ربَّه حاجتَه، ووجه الصلة بين الدعاء والاستعانة: أن الدعاء صورة من صور الاستعانة، فالاستعانة أعمُّ من الدعاء، وتكون بالدعاء وبغيره، فكلُّ دعاءٍ استعانةٌ ولا عكس(١).

٤. **الاستعاذة**: هي اللجوء والاعتصام وطلبُ دفعِ الشرِّ، والاستعانة أعم من الاستعاذة، فإنهما يجتمعان في طلبِ كفِّ الشرِّ، فالاستعاذة صورة من صور الاستعانة، وتزيد الاستعانةُ عليها بأنها تكون في تحصيل الخير أيضًا، فكل استعاذةٍ استعانةٌ ولا عكس(٢).

٥. **الاستغاثة**: طلبُ الغوث في الشدائد والأزمات والملمَّات، بينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ، فكل استغاثةٍ استعانةٌ ولا عكس، فالاستغاثة خاصة في الشدائد والكربات، والاستعانة عامة فيها وفي غيرها(٣).

فضل الاستعانة وثمراتها

١. حَثُّ القرآن والسنة على الاستعانة:

ورد ذكر الاستعانة بالله سبحانه والحث عليها بكلا نوعيها في الآيات القرآنية والسنة النبوية، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله تعالى حكاية عن وصية سيدنا موسى ﷺ لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله تعالى حكاية عن جواب سيدنا يعقوب ﷺ

(١) ينظر: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (حرف الألف: الاستعانة) (٣/ ٣٠-٣١)؛ الاستعانة في القرآن، مقالة منشورة على موقع (إسلام ويب).

(٢) ينظر: المرجعان السابقان.

(٣) ينظر: المرجعان السابقان.

لأبنائه: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨]، وقوله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقال النبي ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»(١)، وقال ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرِصْ علىٰ ما ينفعك واستعِنْ بالله ولا تعجزْ»(٢)، وكان النبي ﷺ يفتتح خطبته بهٰذه الكلمات: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه»(٣)، وكان إذا غزا قال: «اللهم أنت عَضُدي، وأنت نَصِيري، وبك أُقاتِل»(٤)، وقال ﷺ: «لِيَسأَلْ أحدُكم ربَّه حاجتَه كلَّها، حتىٰ يسأَلَ شِسْعَ نعلِه إذا انقطع»(٥).

وقد أرشد ﷺ معاذَ بن جبل ﷺ إلى الاستعانة بالله عز وجل على الطاعة، فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك»، فقلت: بأبي أنت وأمي، والله إني لأحبك، قال: «يا معاذ، إني أوصيك، لا تدعَنَّ أنْ تقول دُبُرَ كلِّ صلاة: اللهم أعِنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٤) برقم: (٢٥١٦)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٦٤٨) برقم: (٢٧١٣)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (٤/ ٤٣٠) برقم: (٢٥٥٦). قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١١) برقم: (٨٦٨).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٣٤٦) برقم: (٢٦٣٢)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٥٤٠) برقم: (٣٥٨٤)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٨/ ٢٩) برقم: (٨٥٧٦).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٦٠) برقم: (٣٦٠٤)؛ وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٤٨) برقم: (٨٦٦)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (٦/ ١٣٠) برقم: (٣٤٠٣).

(٦) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٦١) برقم: (١٥٢٢)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٨٠) برقم: (١٢٢٧)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥١٩٤) برقم: (٢٢٥٤٦). إسناده صحيح. ينظر: نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي (٢/ ٢٣٥).

٢. الهداية إلى الصواب وطريق الحق:

قال ابن تيمية ﵀: «فإذا حصل الاستعانة بالله واستهداؤه ودعاؤه والافتقار إليه أو سلوك الطريق الذي أمر بسلوكها: هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم»(١).

٣. عزة النفس والاستغناء عن الناس:

إذا علم المسلم أن الغني القادر الذي بيده الخير كله هو الله تعالىٰ وحده، تربَّىٰ على الأنفة والاستغناء عن المخلوقين، وعلم أن السبيل الوحيد إلىٰ ذلك هو التعلق بالله تعالىٰ والتوكل عليه، وعبادته والالتجاء إليه، مع الأخذ بأسباب الجد والعمل، وبذلك يحفظ المسلم ماء وجهه من التذلل والسؤال، وخفض الأكف والانكسار للأشخاص مهما كانوا، فيحفظ كرامته، وتبقىٰ له عزته ومكانته؛ كتب الحسن البصري إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليهما: «لا تستعن بغير الله، فيَكِلَك الله إليه»(٢).

وقد كان ﷺ يعلّم أصحابه أن لا يسألوا أحدًا شيئًا، وإنما يستعينوا بالله وحده؛ فعن عوف بن مالك الأشجعي ﵁ أنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديثَ عهدٍ ببيعةٍ، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعَلامَ نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس،

---

(١) الصفدية لابن تيمية (١/ ٢٩٥).

(٢) أورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٢)؛ وفي نور الاقتباس (٣/ ١٣٦).

وتطيعوا -وأسرَّ كلمة خفية- ولا تسألوا الناس شيئًا». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه[1].

٤. تيسير الطاعات:

وذلك عند الاستعانة بالله تعالىٰ لأداء طاعة، كما في قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) عند سماع «حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح»، فإنها استعانة بالله تعالىٰ لأداء الصلاة.

٥. التوفيق والنجاح:

ستبقى الاستعانةُ بالله واللجوءُ إليه سبحانه الوسيلةَ الأهمَّ للنجاح والتفوق، فعطايا الرحمٰن ليس لها حد ولا حساب؛ كما قال الشاعر:

إذا لم يكُنْ عَوْنٌ مِن الله للفَتَىٰ   فأوَّلُ ما يَجْنِي عليه اجتهادُه[2]

٦. الوقاية من وساوس الشيطان وهوى النفس:

فلا نجاة من مصايد الشيطان ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالىٰ والتعرضِ لأسباب مرضاته؛ حكي عَنْ بعض السلف أنه قَالَ لتلميذه: «مَا تصنع بالشيطان إذا سَوَّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أُجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أُجاهده، قال: هٰذا يَطول، أرأيت إن مَرَرت بغنمٍ فنَبَحَك كلبُها أو منَعَك مِن العُبور ما تصنع؟ قال: أُكابِدُه وأَرُدُّه جهدي، قال: هٰذا يَطول عليك، ولٰكن استَعِن بصاحب الغنم يَكُفُّه عنك»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٩٧) برقم: (١٠٤٣).

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي (١/ ١٧٧)؛ التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص: ١٠).

(٣) تلبس إبليس لابن الجوزي (ص: ٣٥).

٧. طردُ الرياء والعُجبِ عن نفس المسلم:

ذلك أن المسلم إذا تم له أمرٌ ثم علِمَ أنه لولا عونُ الله لم يتمَّ له أيُّ أمرٍ زاد إخباتُه لربِّه واعترافُه بفضله عليه، ولم يبقَ للعجب مكانٌ في قلبه، فإذا أيقن العبدُ بضعفِهِ وأنه لا حولَ له ولا قوةَ إلا بعون الله زاد افتقارًا لله تعالى وأكثرَ مِن سؤاله العونَ والتأييدَ[١].

شروط الاستعانة

يشترط لتحقُّق الاستعانة بالله تعالى عدة أمور:

١. الثقة بالله تعالى واليقين به والْتِجاء القلب إليه سبحانه، والإيمان بأن النفع والضر بيده، وأنه هو الذي يقضي الحاجات ويفرِّج الكربات، وأنه مالك الملك ومدبِّر الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فيستعين به تعالى راجيًا إعانتَه، وإذا كان يقين العبد ضعيفًا والثقة بربه غير تامَّةٍ فاستعانته بلسانه لا تغنيه شيئًا، فيجب أن تكون هناك صلة بين اللسان والجنان.

٢. الاعتماد على الله تعالى، وذلك بتفويض الأمر إلى الله عز وجل وتوطين نفسه على الرضا بما يقسم الله له، بعد تقديم الحاجة إليه[٢].

٣. بذل الأسباب التي هدى الله إليها وبيَّنها، فيبذل في كل مطلوب ما أذن الله تعالى به من الأسباب.

وهذه الأمور الثلاثة قد أرشد إليها النبي ﷺ بقوله في الحديث السابق:

---

(١) الاستعانة بالله تعالى آثارها وثمارها لعبد العزيز السدحان (ص: ٤٨٠)، خطبة الجمعة منشورة على شبكة الألوكة.

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١١٦).

«احرِصْ علىٰ ما ينفعك واستعِنْ بالله ولا تعجزْ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنِّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّرَ الله وما شاء فعل، فإنَّ «لو» تفتح عمَلَ الشيطانِ»(١).

فالحرص علىٰ ما ينفع عام في أمور الدين والدنيا، والاستعانة بالله تكون بطلب عونه وتأييده لتحقيق ما ينفع، والعجز هو ترك بذل السبب مع إمكانه؛ فنُهي عنه. وقد رتَّب النبي ﷺ هٰذه الكلمات الثلاث ترتيبًا بديعًا لتوافق الحال؛ فإن معرفة المطلوب ومعرفة نفعه والحرص عليه سابقة للاستعانة علىٰ تحقيقه، ثم تكون الاستعانة مرتبة بعدها؛ فيطلب العبد العون من ربه عز وجل علىٰ تحقيق ما ينفعه وأن يهديه لتحصيله من الوجه الذي يحبه ويرضاه، ثم يبذل الأسباب التي أذن الله بها، فإذا قام العبد بهٰذه الأمور فقد حقق الاستعانة؛ فإنْ تحقَّق له ما يطلب كان من الشاكرين، وإن أصابه ما يكره من فوات مطلوبه، قال: قدَّر الله وما شاء فعل، فصبَر لذٰلك وأحسن الظن بالله، ورجا أن يعوضه ربُّه خيرًا فيما فاته، وأما ترك الأخذ بالأسباب فهو عجز مذموم، كما أن تعلق القلب بها أمر مذموم(٢).

أنواع الاستعانة

الاستعانة بالله عز وجل علىٰ نوعين:

النوع الأول: الاستعانة بأسماء الله تعالىٰ وصفاته، وهٰذا أعلىٰ أنواع الاستعانة، وقد ندب الشارع إليها، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النبي ﷺ: «ما قال عبد قطُّ إذا أصابه هم أو حزن:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

(٢) التوكل والاستعانة، الدرس السادس لعبد العزيز المطيري علىٰ موقع ملتقىٰ أهل التفسير.

اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمُك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همَّه وأبدله مكانَ حزنِه فرحًا»(١). والشاهد فيه قوله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك».

النوع الثاني: الاستعانة بالأعمال الصالحة؛ كالصلاة والصيام والصدقة والإحسان إلى الناس، والصبر عن الشهوة أو على البلاء، ونحوها؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ومنه قصة الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار، فتوجه كل واحد منهم إلى الله تعالى بالدعاء، يستعين بما سلف من أعماله الصالحة: فأولهم ذكر برَّه بالوالدين، والثاني ذكر صبرَه عن الزنا بعد أن قدر عليه، والثالث ذكر صدقتَه على الأجير بأضعاف ما استحقه بعمله، ففرَّج الله عنهم(٢). وهذا في حقيقته استعانة بالله تعالى، أما الأعمال الصالحة فهي مجرد وسيلة لطلب الاستجابة، وقد قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

طرق اكتساب الاستعانة والأمور المعينة عليها

١. التوكل على الله عز وجل حق توكُّله:

وذلك بتربية النفس على مقام التوكل؛ لأن التوكل معنى مرادف لمعنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٨٦٤) برقم: (٣٧٨٨)؛ وأبو يعلى في مسنده (٩/ ١٩٨) برقم: (٥٢٩٧)؛ والبزار في مسنده (٥/ ٣٦٣) برقم: (١٩٩٤). وصححه ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٣١٨).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٧٩) برقم: (٢٢١٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٣).

الاستعانة وشرط من شروطه، فالطريق للوصول إلىٰ منزلة الاستعانة يمر من خلال التخلق بمنزلة التوكل وتحقق العبد بها.

٢. الافتقار إلى الله تعالىٰ:

وهٰذا أيضًا مثل الطريق الأول، فطريق تحقق العبد بمنزلة الاستعانة يمر من خلال تحققه بمنزلة الافتقار إلى الله عز وجل؛ لأن الافتقار شرط أساسي من شروط الاستعانة، ولا يكون العبد مستعينًا بالله عز وجل إلا إذا كان يشعر من نفسه بالفقر الضروري إلىٰ ربه، وخلاف ذٰلك رياء وتكبُّر؛ لأن عدم استعانته بالآخرين أساسه الكبر والعجب بالنفس، وإظهاره أنه يستعين بالله وحده مع عدم رؤية الافتقار إليه من نفسه أساسُه: الرياء وطلب السمعة.

٣. صدق اليقين والثقة بالله تعالىٰ وحده:

وذٰلك بأن يعلم العبدُ ويستيقن أن الأمور كلها بيد الله سبحانه، وأنه لا مانع لِما أعطىٰ ولا مُعطي لِما منع، ولا ينفع ذا الحظِّ عنده حظُّه ولا جاهُه، إنما هو بأمر الله ومشيئته، فشعور العبد بأن الأمر كله لله تعالىٰ ثم ثقته به وحده لقضاء حاجاته وتفريج كرباته يدفعه إلى الاستعانة به وحده عز وجل، وإذا استعان بالبشر علىٰ سبيل السؤال من باب اتخاذ الأسباب فيما لا بد منه يكون قلبه متعلِّقًا بالله وحده، ويرى الناس يقومون بأمره لأن الله تعالىٰ سخَّرهم لإعانته، وهي مجرد صورة دنيوية يُرىٰ فيها أن العبد هو الفاعل، ولكن الفاعل الحقيقي هو الله رب العالمين؛ لأنه سخَّر العباد له ووفَّقهم ويسَّر لهم؛ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧].

٤ . الصلاة:

حثَّ الله تعالى المؤمنين على الاستعانة بالصبر والصلاة في قضاء حوائجهم؛ وذلك أن قضاء الحاجة وكشف الغمة بيد الله وحده، فلا بد للعبد من التوجه إليه بالصلاة التي تجمع بين الدعاء والثناء والذكر والتلاوة، ثم ينتظر الفرج من الله صابرًا متيقِّنًا أن الله سيستجيب له؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وعن حذيفة ﷺ قال: «كان النبي ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ صلَّى»(١).

٥ . الصبر:

وذلك أنه بعد توجُّه العبد إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء لا بد من الصبر حتى يأتي فرج الله سبحانه، وقد قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، أي: معهم بنصره وتأييده وتوفيقه، وكثير من الناس يقعون في خطأ عظيم نبَّه عليه النبي ﷺ وحذَّر منه، وذلك استعجالهم وضجرهم، مُتأَلِّين على الله تعالى أنهم دعَوْه فلم يستجب لهم، كأنهم هم الذين يحدِّدون وقت الاستجابة! قال ﷺ: «لا يزال يُستجاب لأحدكم ما لم يَعجَلْ، يقول: دعوتُ فلم يُستجَبْ لي»(٢).

علامات التحقق بالاستعانة

١ . المبادرة إلى الدعاء عند حصول حاجة مهما كان قدرها، وطلب العون من الله تعالى في قضائها.

٢ . السعي في قضاء حاجته والقيام بأمره بنفسه، ولا يتكلف الاستعانة

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٠٧) برقم: (١٣١٩)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥٥٣٦) برقم: (٢٣٧٧٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧٤) برقم: (٦٣٤٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٧) برقم: (٢٧٣٥).

بالآخرين مهما كان جاهه، سواء كان معلِّمًا يستعين بالطلبة أو أخًا كبيرًا يستعين بإخوته الصغار أو عمًّا أو خالًا يطلب المساعدة من أبناء عمومته أو خؤولته، ويستثنىٰ من ذٰلك الوالدان مع أولادهما؛ لأن الاستعانة بهم في حقهما لا يؤدي إلى الاعتماد على الآخرين، وليس مكروهًا، بل ليس حتىٰ خلافَ الأولىٰ.

٣. الترفع عن سؤال الناس والاستغناءُ عنهم، إلا بقدر الضرورة فيما لا بد منه لإقامة معيشة الحياة.

٤. الافتقار إلى الله والانكسار بين يديه وكثرة اللجوء إليه، فمن لم يشعر بافتقاره إلى الله سبحانه في كل شأن من شؤونه لم يستعن به حق الاستعانة وإن ردَّد علىٰ لسانه الأدعيةَ والأذكارَ بحُكمِ العادة والعرف.

الآفات التي تؤثر على الاستعانة

١. الكبر والعجب:

وذٰلك أن العبد إذا قام بالعبادة والطاعة ربما يأتي إلىٰ خاطره أنه فعل أمرًا كبيرًا وعمل عملًا صالحًا، ليكون طريقًا يتسرب منه الكبر والعجب إلىٰ قلبه، فعلىٰ العبد أن يعالج قلبَه ويعلِّقه بالله تعالىٰ دائمًا، وأنه هو الذي أعانه على الطاعة ووفَّقه لها، وهٰذا سرُّ عطف الاستعانة على العبادة في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: بك نطلب الإعانة على العبادة.

٢. كثرة الاعتماد على الناس من غير ضرورة ولا حاجة:

وهٰذه بلية ابتُلي بها أكثرُ الناس، خاصة ذوو الجاه وأصحاب المناصب منهم؛ لأن أغلب الناس بطبعهم يتهافتون علىٰ خدمة مَن يرجون منه المنفعة أو يخافون غضبَه، ويصحب ذٰلك في كثير من الأحيان التملُّقُ والتذلُّلُ والمداهنةُ،

فإذا كان المخدوم ضعيفَ النفس، مريضَ القلب، محبًّا للدنيا مائلًا إلىٰ لذّاتها كانت هٰذه الخدمة فتنةً له، فينزل تدريجيًا إلىٰ منازل أسفل السافلين من أهل الدنيا في الاعتماد على الناس وحبِّ مدحِهم وطلب الخدمة منهم حتىٰ في أبسط الأمور، إلىٰ أن يجر ذٰلك إلى البطر وغمط الناس والعجب بنفسه والتكبر على الخلق.

ويستثنىٰ من ذٰلك: الاستعانة فيما لا يتأثر به قلبه، وما لا بد منه؛ كاستعانة المعلِّم بتلامذته لإحضار كتابٍ أو شايٍ أو نحو ذٰلك مما يحتاجه في الدرس ويكون في قيامه به بنفسه تضييع مصالح أكبر منه وأعم نفعًا، فيستفيد من وقته في التدريس وإفادة الطلبة، بينما يكفيه طلبتُه حاجاتِه اليسيرة.

نماذج من استعانة الصالحين

١. لـمَّا وُضِع أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم ﷺ في المنجنيق ثم طُرِح في النار، جاءه سيدنا جبريل ﷺ فقال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال له: سَلْ مَن لك إليه حاجة -يعني: الله عز وجل- فقال: أحبُّ الأمرين إليه أحبُّهما إليَّ، وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال الله تعالىٰ كما أخبرنا في كتابه: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فأنجاه الله عز وجل: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١][1].

٢. عندما خرج سيدنا موسىٰ ﷺ من مصر خائفًا يترقب ووصل منازل مدين آوىٰ إلىٰ ظل شجرة، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤٦٧)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢٠)؛ شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٥٢)؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٩٠)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١/ ٣٧٧)؛ الجامع لعلوم الإمام أحمد لخالد الرباط وسيد عزت عيد (٢٠/ ٣٩٦).

استعان بالله عز وجل على حاله، فجاءه الفرج مباشرة: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ﴾ [القصص: ٢٥]، فجاءته فرصة العمل، ثم الزواج، ثم أكرمه الله بالنبوة وكلَّمه بلا واسطة، فصار كليم الله عز وجل.

٣. وعندما خرج من مصر مرة ثانية ومعه قومه، قال ﷺ واثقًا بإعانة الله له، وهو بين عدو يتربص به من خلفه وبين بحر يحول بينه وبين الفرار: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وأمرَ قومَه بطلبِ العون من الله تعالى في مواجهة عدوهم مع ضعفهم وقوته: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. ففلَقَ الله تعالى البحرَ ونجَّى موسى ﷺ وقومَه وأهلك فرعونَ وجنودَه.

٤. واستعان سيدنا يوسف ﷺ بربه في مواجهة فتنة نسوة مصر معترفًا بضعفه، قائلًا: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته الذي لا يغتر بعصمته، فيريد مزيدًا من عناية الله وإحاطته وإعانته على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء، فيأتيه العون من الله تعالى، وهو قوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

٥. وكان نبينا محمد ﷺ كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله تعالى، وخصوصًا في مغازيه وعند اشتداد الكروب؛ قال الله تعالى عنه ﷺ في لحظة من اللحظات الحرجة التي مر بها: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠][1].

---

(١) ينظر: آثار الاستعانة بالله تعالى وحظ الأولياء منها للفريق العلمي في ملتقى الخطباء، خطبة منشورة على موقع ملتقى الخطباء (ص: ١٣).

٦. ويوم الأحزاب عندما اشتد الكرب على المسلمين حتىٰ بلغت القلوبُ الحناجرَ وزُلزِلوا زلزالًا شديدًا، توجه الصحابة ﷺ إلى النبي ﷺ كما روىٰ أبو سعيد الخدري ﷺ، قال: «قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوبُ الحناجرَ! قال: «نعم، اللهم استُرْ عوراتِنا وآمِنْ رَوْعاتِنا»، فضرب الله عز وجل وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله عز وجل بالريح[1].

٧. مؤمن آل فرعون، فقد ذكر الله تعالىٰ قصتَه في القرآن، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، ولما أراد قومُه البطشَ به قال لهم: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، فاستعان بالله تعالىٰ عليهم، فكانت نتيجة استعانته: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥]. فهٰذا بيان للعاقبة الطيبة التي أكرمه الله سبحانه بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده، فكانت نتيجة إيمانه بالله واستعانته به أن وقاه الله تعالىٰ ما أراده الظالمون به من أذىٰ وعدوان، ونزل وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب، بأن أغرقهم الله تعالىٰ في البحر[2].

المقترحات العملية والتدريبات

١. قراءة ما كتبه ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين) في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] عن الاستعانة وشروطها وعلاقتها بالعبادة، وتطبيق ذٰلك في الواقع العملي.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/ ٢٧) برقم: (١٠٩٩٦)؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦) وحكم علىٰ إسناده بأنه متصل ورجاله ثقات.

(٢) موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (حرف الألف: الاستعانة) (٣/ ٤٥).

٢. قراءة أخبار الأنبياء والسابقين في استعانتهم بالله تعالىٰ فيما أصابهم، والتي ذكرت في القرآن الكريم، كما مر ذكر النماذج عنهم في العنوان السابق.

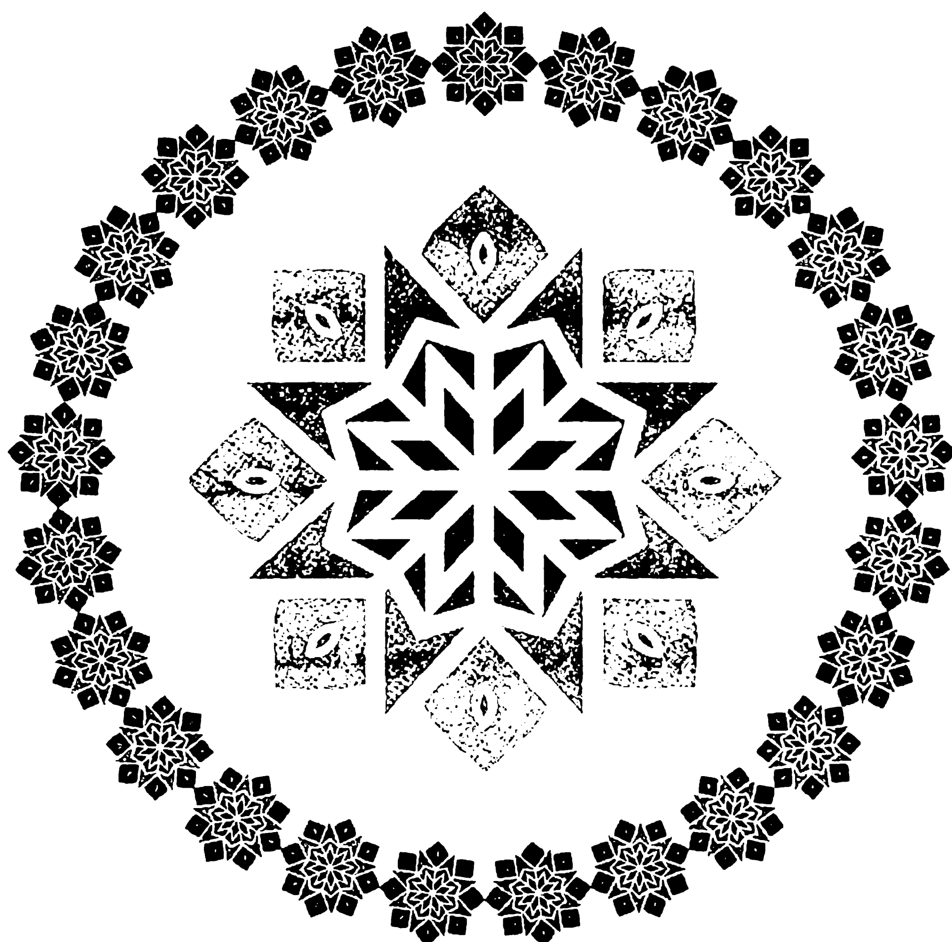
٣. الإكثار من هٰذا الدعاء بتضرع وخشوع: يا حيُّ يا قيُّوم! برحمتك أستغيث، أصلِحْ لي شأني كلَّه ولا تَكِلْني إلىٰ نفسي ولا إلىٰ أحدٍ من خلقك طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ من ذٰلك، وقد وردت بذٰلك أحاديث(١).

٤. ترك الاستعانة بالخلق قدر المستطاع ولو في أبسط الأمور، وعدم الرجوع إليهم إلا عند الضرورة(٢).

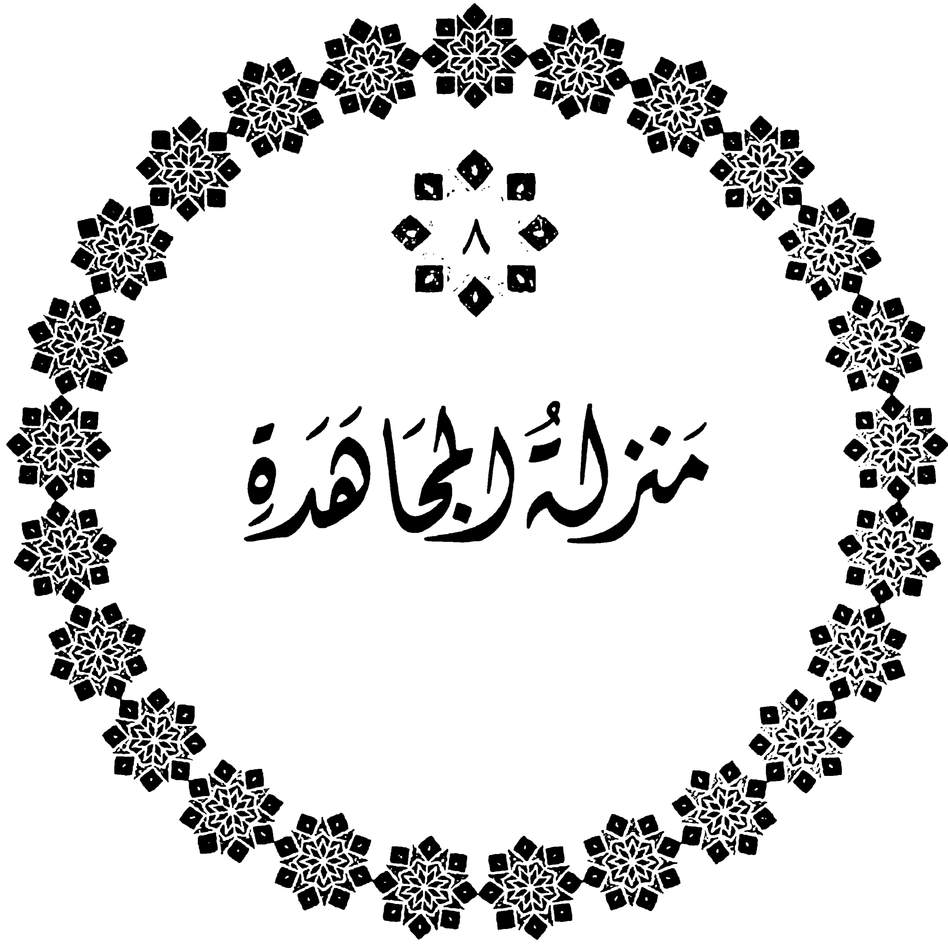


(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٩/ ٢١١) برقم: (١٠٣٣٠)؛ والبزار في مسنده (١٣/ ٤٩) برقم: (٦٣٦٨)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٤٥) برقم: (٢٠٠٧).

(٢) ولو لم يكن من أضرار كثرة الاستعانة بالناس إلا كونها علامة علىٰ ضعف شخصية الإنسان وعجزه عن القيام بأمره، بحيث ينظر الناس إليه بنظرة الاستحقار والاستضعاف، ومخالفًا لمعنىٰ عزة النفس: لكانت هٰذه الأسباب الدنيوية كافية لتقليل الإنسان من الاعتماد على البشر والالتجاء إلىٰ رب البشر والاستعانة به والتوكل عليه ﷻ.

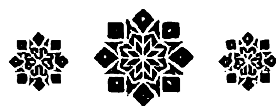
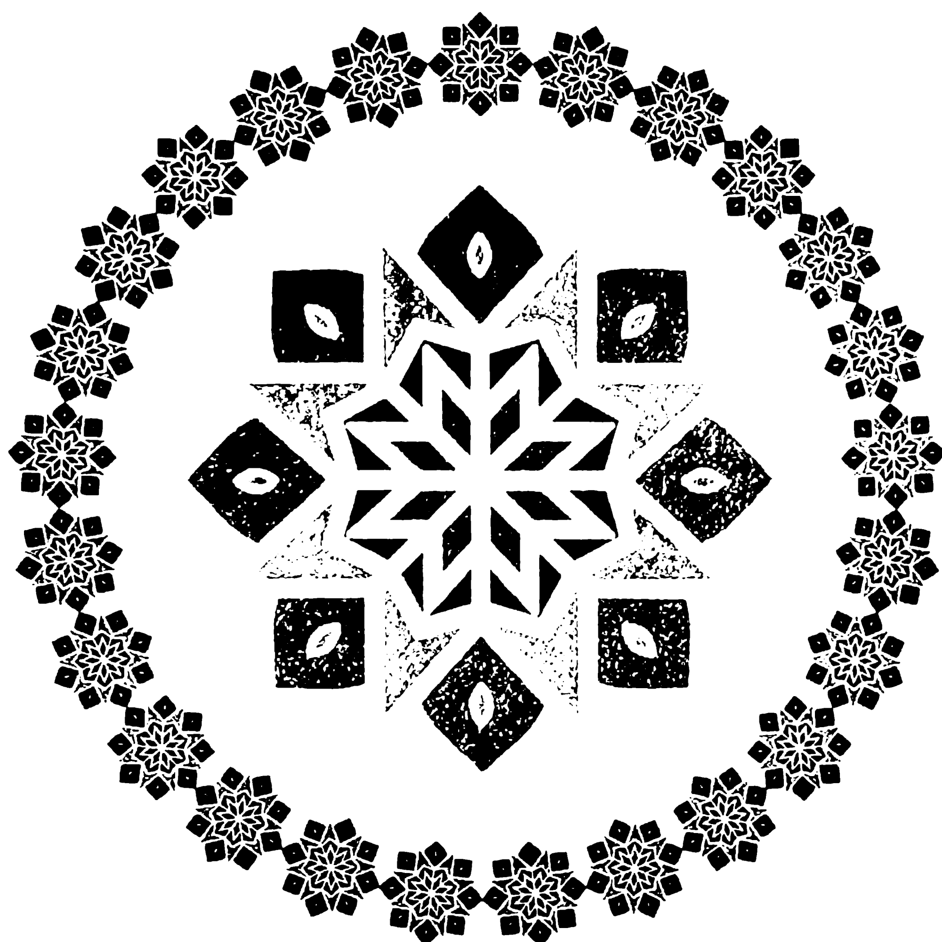
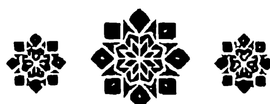


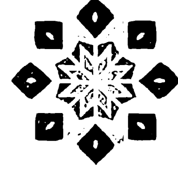



٨

مَنزِلَةُ المجَاهَدَةِ





منزلة المجاهدة



بين يدي المجاهدة

العبد في الدنيا يعيش صراعًا متواصلًا مع النفس والشيطان، فلا يزالان يزينان له المعاصي، ويحاولان الإيقاع به، فإن لم ينازع نفسه وهواها، ولم يواجه كيد الشيطان ووسوسته انحرف وضل، والإنسان لا يستقيم حق الاستقامة إلا بالمجاهدة، وقد حذرنا الله تعالى من اتباع الهوى والانخداع بالشيطان فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والسالك في طريق الآخرة أول ما يسلك بعد التوبة هو أن يلزم نفسه بالمجاهدة، فلا بد أن يسعى ويجاهد حتى يظفر بالفوز، فالجنة لا تُنال بالتمني، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩]، فمريد العاجلة -وهي الدنيا وزينتها- يجد سبله إليها ميسورة، إذ لا تقف في نفسه عقبات صادَّة، نظرًا إلى أن حب العاجلة متأصل في نفسه، ولكن من أراد الآخرة فلا بد أن يسعى لها سعيها مع شرط الإيمان حتى ينال جزاءه، والإرادة وحدها وما تستخدمه من طاقات التنفيذ العادية لا تكفي للتغلب على عقبات النفس المعارضة،

بل تحتاج إلىٰ طاقات زائدة نسبيًّا علىٰ مستوىٰ طاقات التنفيذ العادي، فالقضية هنا فيها مصارعة ومغالبة لأهواء النفس وشهواتها[1].

والنفس قابلة لأن تتزكىٰ أو تتدَسَّىٰ، وهي التي تعلو بصاحبها حين تكون راضية مطمئنة، وهي التي توقعه في المعاصي حين تكون أمّارة بالسوء، وهي أخطر على المرء من الشيطان؛ لأن الله وصف كيد الشيطان بأنه ضعيف، فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، بينما ذكر أن النفس أمارة بالسوء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وأمَّارة صيغة مبالغة تدل علىٰ الإصرار والتكرار، والشيطان ما درج علىٰ إغواء بني آدم إلا حين وجد أنفسًا قابلة للمعاصي والفجور، فما قتل قابيل هابيل إلا بتطويع نفسه لقتل أخيه، قال تعالىٰ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٠]، وفي يوم القيامة يتبرأ الشيطان من أتباعه الغافلين، ويذكرهم أن خطأهم في اتباعه لم يكن منه، وإنما من أنفسهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]. قال أبو عمر الدمشقي: «الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان»[2].

فالنفس من طبعها التفلُّت والانطلاق، وهي ميالة إلى الكسل عن الخيرات أمّارة بالسوء، وتحتاج إلىٰ صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله وثباتها عليها، ومجاهدتها عن المعاصي وردعها عنها، فإذا رُوّضت ذلت واستجابت إلىٰ ما تكره، وترويضها ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلىٰ مصابرة مستمرة وعزم قوي، قال محمد بن المنكدر: «كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت»[3].

(١) ينظر: الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (١/ ١١١).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٢٥٢).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٤٧).

وقال مالك بن دينار: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم»[1]. وقال ابن القيم: «تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان»[2].

وما يردع النفس اللجوج عن الهوىٰ ... من الناس إلا حازم الرأيُ كاملُهْ

فحال المؤمن مع نفسه حال المجاهد، لا يضع سلاحه ولا يجد راحته، قال ابن مسعود: «لا راحة للمؤمن دون لقاء الله عز وجل»[3]. فلا راحة ولا اطمئنان إلا إذا وضعتَ قدميك كلتيهما في الجنة.

حقيقة المجاهدة

المجاهدة في اللغة:

المجاهدة مفاعلة، وهي مأخوذة من الجهد، والجهد بفتح الجيم وضمها: الطاقة والمشقة، والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمّل المشقة، والجِهادُ والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو[4].

المجاهدة في الاصطلاح:

المجاهدة فيها معنى المفاعلة والتدافع، إذ الإنسان يجاهد نفسه باستعمالها فيما ينفعها حالًا ومآلًا، وهي تجاهده بما تركن إليه[5].

وقد عُرفت المجاهدة بعدة تعريفات، كلها تؤدي المعنىٰ نفسه؛ فقيل: «فَطْم النفس عن المألوفات وحملها علىٰ خلاف هواها في عموم الأوقات»[6].

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٢١٨)؛ المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ١٠١).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٦).

(٣) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٣١١).

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٢٠٨).

(٥) ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان (٢/ ٣٠٨).

(٦) الرسالة القشيرية (١/ ٢١٨).

وقيل: «محاربة النفس الأمَّارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع»[1].

فالمجاهدة بمعنى المدافعة، ويرجع معناها إلىٰ مجموعة الطرق والوسائل التي يدافع بها الإنسان عن نفسه كلَّ ما يُثَبِّطُها عن طاعة الله ويستجلب لها كل ما يعينها علىٰ ذٰلك، ليرقىٰ إلىٰ منزلة المجاهدة والمجاهدين السالكين إلىٰ الله تعالىٰ.

والمجاهدة خُلُق ربانيّ ومنزلة إيمانية عالية، ووسيلة تربوية تتمثل في استفراغ الإنسان وسعه في مدافعة أعدائه ونحوهم؛ تزكيةً لنفسه وتقوية لها علىٰ فعل الطاعات واجتناب المحرمات، بل هي عبادة لا تنفك عن عباد الله الصادقين المخلصين، وهي ملازمة لهم في كل وقت وحين إلىٰ أن يرحلوا من هٰذه الدنيا[2].

فضل المجاهدة وثمراتها

١. مجاهدة النفس أفضل من مجاهدة الكفار:

لأن الشيء إنما يفضل ويشرف بشرف ثمرته، وثمرة مجاهدة النفس هي الهداية؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وكفىٰ به فضلًا، وهٰذا هو الذي يستحق لقب المجاهد، قال ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه»[3].

---

(١) التعريفات للجرجاني (ص: ٢٠٤).

(٢) ينظر: مقال في جريدة المحجة تحت عنوان: خلق المجاهدة ومستلزماتها للدكتور عبد اللطيف الوغلاني.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٨٤) برقم: (٤٦٢٤)؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٥٧٩٠) برقم: (٢٤٥٩٨)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٢٦٤) برقم: (١٦٢١)، وقال: حسن صحيح.

٢. المجاهدة تورث حلاوة العبادة:

قال بشر الحافي: «لا تجد حلاوة العبادة حتىٰ تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد»[١]. وقال ثابت البناني: «كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعّمت بها عشرين سنة»[٢].

٣. نيل محبة الله:

ففي الحديث القدسي يقول الله تعالىٰ: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أُحِبَّه»[٣]؛ ولا شك أن ملازمة النوافل والحفاظ عليها يحتاج إلىٰ مجاهدة للنفس وإلزام وإرغام وصبر ومصابر.

٤. لزوم المجاهدة يوصل إلىٰ مقام الإحسان:

إذا واظب العبد علىٰ مجاهدة نفسه ومخالفة هواها، ولازم التوبة والإنابة فإن هٰذه المواظبة توصله إلىٰ مقام الإحسان في عبادته لربه ومراقبته له، قال ابن غانم المقدسي: «لزوم المجاهدة يوصل إلىٰ حضرة المشاهدة»[٤]. والمشاهدة هي مرتبة الإحسان الذي دل عليه حديث: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك».

٥. نيل المقام العالي:

لن يستكمل عبد مؤهلات الرقي في سلم العبودية الكاملة لله تعالىٰ حتىٰ يؤثر دينَه علىٰ شهواته، ولذٰلك كان من بين السبعة الذين يظلهم الله في ظله:

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمٰن السلمي (ص: ٤٧).
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٢٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).
(٤) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ٧١).

«ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله». قال الفضيل بن عياض: «لن يستكمل عبد الإيمان ولا يكون مؤمنًا حقًّا حتىٰ يؤثر دينه علىٰ شهوته، ولن يهلك عبد حتىٰ يؤثر شهوته علىٰ دينه»[1].

٦. **المجاهدة هي الطريق الموصل إلى الجنة:**

فإن المجاهد لنفسه يحملها علىٰ ما تكره، ويمنعها ما تحب، وهٰذا هو طريق الجنة، فقد ورد في الحديث: «حُفت الجنة بالمكاره»[2].

٧. **المجاهدة على الطاعة تزكي النفس وتطهرها:**

إن الطاعة الواحدة لا يشعر العبد بتأثيرها في تزكية نفسه وتطهيرها في الحال، ولٰكن الاستمرار في الطاعة والمداومة عليها تورث تزكية للنفس وتطهيرًا ما كانت لتصل إليه إلا بمجاهدة النفس على الالتزام بتلك الطاعة، ولذٰلك لما سُئل النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «أدْوَمُها وإن قَلّ»[3].

الأصناف التي تتعلق بها المجاهدة

المجاهدة تتعلق بأصناف ثلاثة، وهٰؤلاء هم أعداء العبد، ولا بد له من معرفتهم؛ لأن معرفة العدو هي أول طريق للنصر عليه، وقد قيل: اعرف عدوك تنتصر عليه، ومعرفته تكون بمعرفة ما عنده من عدة وعتاد، وما لديه من حِيَل وخُدَع، إذ من أسباب الهزيمة الجهل بطبيعة العدو، ولذٰلك ورد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (١/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٤٢) برقم: (٢٨٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٥).

أن يُدركني»[1]. وهؤلاء الأعداء هم: النفس، والشيطان، والفتن، قال يحيى بن معاذ الرّازيّ: «أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدّنيا بالزّهد فيها، ومن الشّيطان بمخالفته، ومن النّفس بترك الشّهوات»[2].

١. إبليس:

جلّى الله لنا حقيقة إبليس فصرح بأنه عدو لبني آدم، وأمر العباد أن يقابلوه العداوة بمثلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وأول شيء تجاهد به إبليس أن تعتقد أنه عدو وتشعر به، إذ أول ما يدخل به إبليس على الناس أن يُنسيهم ويُلهيهم عن عداوته، وبهذا أوقع آدم وزوجه بالمعصية، حيث جاءهما في صورة الناصح، فغفلا عن عداوته، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وقد بسط الله في آيات كثيرة طرائق إضلاله وإغوائه في بيانٍ جليٍّ أقام به الحجة على الخلق، ومن ذلك بيان الطريقة التي يتعامل بها الشيطان مع ضحاياه، وأنه لا يهجم عليهم دفعة واحدة ليخرجهم من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، بل يتدرج للوصول إلى هدفه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

ومع خطورة الشيطان إلا أن كيده ضعيف، ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]؛ إذ يقتصر في إضلاله على الوسوسة والدعوة إلى الغواية، قال تعالى على لسان إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وفي الحديث: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٩) برقم: (٣٦٠٦).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٦٦).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٩٠) برقم: (٥١١٢)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٥٢١) برقم: (٢١٢٨).

والشيطان ليس له سلطان على إرادة الإنسان، إلا من سلم قياد نفسه له، وتبعه مختارًا لنفسه طريق الغواية، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

وإذا عرف المؤمن طرق الشيطان في الغواية والإضلال عليه أن يكون شديد الحذر متفطنًا إلى ألاعيب الشيطان وخدعه وأباطيله، وأن يتحصن بالأوراد والأذكار التي فيها حفظ وحماية من الشيطان ووساوسه، ومن تلك الأذكار والأوراد:

أ. الإكثار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، ففي الحديث: عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[1].

ب. قراءة آية الكرسي قبل النوم، فقد ورد في حديث أبي هريرة عندما وكله رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فجاءه رجل يحثو من الطعام ليأخذه، حتى فعل ذلك ثلاثة أيام، فلما أراد أبو هريرة أن يأخذه في اليوم الثالث ليرفعه إلى رسول الله ﷺ، قال له: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح. فذكر أبو هريرة ذلك لرسول الله، فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٦) برقم: (٣٢٩٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٩) برقم: (٢٦٩١).

كذوب»، ثم بين له أن الذي كان يأتيه إنما هو شيطان(١).

٢. النفس:

هذه النفس هي التي تفتن الإنسان، وتميل به نحو طريق الغواية، فعليه أن يعرف طبيعتها الكلية والجزئية، فالطبيعة الكلية هي التي جعلها الله في كل نفس، حيث بين لنا أنها أمّارة بالسوء، وأنها تغترّ بزينة ومفاتن الدنيا، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وأما الطبيعة الجزئية، فهذا يختلف من شخص لآخر، فمواطن الضعف عند كل شخص تختلف عن مواطن الضعف عند شخص آخر، فبعض الناس له قوة في ناحية من نواحي الخير، بأن يكون كريمًا مثلًا، فيجاهد بماله وينفق في سبيل الله، ولكنه ضعيف في عبادة أخرى، وشخص آخر يبادر إلى الصيام والقيام، ولكنه بخيل في الجانب المالي، أو ضعيف أمام شهوة النساء، فهذه هي النفس الجزئية، وكل إنسان عنده فيها مشكلة عليه أن يكتشفها ليعالجها ويجاهدها؛ فلا يمكن أن يجاهد الإنسان نفسه إلا بعد معرفته لطبيعتها الكلية والجزئية، ثم يحارب جانبها السيّئ(٢).

ومجاهدة النفس يحصل بعدة أمور:

أ. منع النفس من بعض المباحات؛ لأن النفس إذا لم تُمنع من بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه أن يلزم السكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠١) برقم: (٢٣١١).

(٢) ينظر: درس مسجل للشيخ فريد الأنصاري ضمن سلسلة منازل الإيمان بعنوان (منزلة المجاهدة).

حتىٰ تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق، ومن اعتاد أن يرمي بصره إلىٰ كل شيء جميل لم يتحفظ عن النظر إلىٰ ما لا يحل، وكذلك سائر الشهوات، فإن لم يعودها العبد الاقتصاد علىٰ قدر الضرورة من الشهوات غلبته[1].

ب. الصبر والتدرج في المنع؛ فالنفس إذا اعتادت الشيء صعب عليها تركه، ولكن لو صبر العبد عليها واستمر علىٰ منعها منه فتألفه ويهون عليها، وذلك كمثل الصبي الذي أَلِف الرضاع من ثدي أمه، حتىٰ لا يكاد يصبر عنه ساعة، فإذا فطمته اشتد على الصبي وبكىٰ، فإذا دام الفطام نسيه وأقبل على الطعام، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي وعاف ذكر اللبن.

ج. ومن صور مجاهدتها: عدم التعلق والوَلَه بالأموال والأولاد؛ لأن الوَلَه وشدة التعلق بهم يُشغل عن ذكر الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، فلم يَعِب المال والولد، وإنما عاب شدة التعلق بالمال والولد، فصار المال والولد فتنة لحبه إياهما[2].

٣. الفتن:

بين النبي ﷺ أن الفتن تزيد وتكثر كلما تقدم الزمن، ففي الحديث: «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتىٰ تلقوا ربكم»[3]، ولا شك أن الزمان الذي نعيشه قد كثرت فيه الفتن من الشهوات والشبهات وهذا يتطلب جهدًا مضاعفًا لمواجهة هذه الفتن، وقد وصف النبي ﷺ من يثبت أمامها كمن يقبض على الجمر،

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٦٨).

(٢) ينظر: رياضة النفس للحكيم الترمذي (ص: ٤٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٩) برقم: (٧٠٦٨).

ففي الحديث: «فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر»(١).

ولشدة هٰذه الفتن وكثرتها كان أجر مجاهدتها مضاعفًا، ففي الحديث: «العبادة في الهرج كهجرة إلي»(٢). وفي حديث آخر: «للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم»(٣).

ومجاهدة هٰذه الفتن يكون بعدة أمور:

أ. الابتعاد عن مواطنها والفرار منها، ففي الحديث: «ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَن تَشَرَّف لها تَسْتَشْرِفْه، فمَن وجد ملجأً أو معاذًا فليَعُذ به»(٤). وفي حديث آخر: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»(٥).

ب. وأما الشبهات التي اقتحمت بيوت الناس عبر وسائل التواصل الحديثة، فهٰذه من أخطر الفتن، وأفضل طريق في ردها هو عدم الاستماع إلىٰ من يثيرها من أصحاب الأهواء والأفكار الهدامة، فقد ورد عن طاووس بن كيسان: أنه كان جالسًا وعنده ابنه، فجاء رجل من المعتزلة فتكلم فِي شيء، فأدخل طاووس أُصبعيه فِي أذنيه وقال: يا بني، أدخِل أصبعك فِي أذنيك حتىٰ لا تسمع من قوله شيئًا؛

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ١٤٦) برقم: (٣٠٥٨)، وقال: حسن غريب؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٢١٥) برقم: (٤٣٤١)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم: (٣٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٠٨) برقم: (٢٩٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ١٤٦) برقم: (٣٠٥٨)، وقال: حسن غريب؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٢١٥) برقم: (٤٣٤١)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم: (٣٨٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٥١) برقم: (٧٠٨١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٦٨) برقم: (٢٨٨٦).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣) برقم: (١٩).

فإن هٰذا القلب ضعيف، ثم قال: أيْ بُني، اسْدُد، فما زال يقول: أُسْدد حتىٰ قام الآخر[1]. وقد تأتي تلك الشبهات من وسوسة الشيطان، فعند ذٰلك طريق ردها يكون بعدم التمادي مع تلك الوساوس، والاستعاذة بالله من الشيطان، فقد ورد في الحديث: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: مَن خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتىٰ يقول: مَن خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولْيَنْتَه»[2].

ج. الالتجاء إلى الله والإكثار من العمل الصالح، عن أم سلمة ﵂ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزِعًا يقول: «سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن! وماذا أَنزل من الفتن! مَن يوقظ صواحب الحجرات -يريد أزواجه- لكي يُصلِّين، رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عارية في الآخرة»[3].

أنواع المجاهدة

تنقسم المجاهدة إلىٰ ثلاثة أنواع:

١ . مجاهدة المقاصد والنيات:

المقصود بالنية هنا هي النية التي تصحبك طيلة الطريق حتىٰ تلقىٰ ربك، فقد يبدأ الإنسان العمل بنية صالحة خالصة، ولٰكن تجري بعد البدء بالعمل أشياء قد تغير نيته، وإنما ينجو المؤمن من هٰذا التغير بالمجاهدة؛ بأن يجاهد بشكل دائم، وأن يكون دائم الصلة بالله.

---

(١) ينظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ١٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٣) برقم: (٣٢٧٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٨٤) برقم: (١٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٩) برقم: (٧٠٦٩).

٢. مجاهدة المفاهيم والمعاني:

إن الكفر اليوم ومؤسساته الكبرىٰ في العالم يريد أن يغير من حقائق الدين ومفاهيمه بألفاظ ومصطلحات يصفون بها الدين والمتدينين، أو بتحريف معاني ألفاظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حتىٰ يجد المسلم نفسه في حرج إذا أراد أن ينتسب إلىٰ هٰذا الدين أو يكون في صفّ الملتزمين، وهٰذا يحمل وزره كثير من وسائل الإعلام ووسائل النشر، فهي تصُبُّ علىٰ رؤوس المسلمين القناطير المقنطرة من المفاهيم الباطلة المشوشة للعقول.

فكان لا بد للمسلم اليوم أن يعيش نوعًا من المجاهدة العلمية والثقافية، مجاهدة في حسن الفهم للألفاظ الخاصة للقرآن الكريم، التي لها دلالات خاصة؛ كالصلاة والربا والزنا، هٰذه الألفاظ كثير منها تعرض للتحريف عبر وسائل الإعلام والمناهج الدراسية في البلاد الإسلامية، فيطلقون تسميات خاصة علىٰ بعض المحرمات حتىٰ يستسيغها المسلم ويفقد الشعور بالحرج من تعاطيها، فيطلقون على الخمر مشروبات روحية، وعلى الربا اسم الفائدة، والزنا حرية شخصية، ولذٰلك حذر النبي ﷺ من حرب المصطلحات هٰذه فقال: «ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»(١).

أما في شرعنا فلا يمكن للحرام أن يكون حلالًا، ولا يمكن للباطل أن يصير حقًّا، فالزنا في كتاب الله هو الزنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والربا هو ربا، وآكله محاربٌ لله ورسوله.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٣٧٩) برقم: (٣٦٨٨)؛ والنسائي في سننه (١/ ١٠٧٨) برقم: (٥٦٧٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ١٥١) برقم: (٤٠٢٠)؛ وابن حبان في صحيحه (١٥/ ١٦٠) برقم: (٦٧٥٨).

وهٰذا التلاعب بالألفاظ والمصطلحات ينتج عنه سلوك اجتماعي معين، وهو التطبيع مع المنكر، فالمؤمن قد رُبّي على أن ينكر المنكر وينقبض صدره عند رؤيته، إذ علمنا رسول الله ﷺ ذٰلك فقال: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذٰلك أضعف الإيمان»(١). فالمنكر إن لم تنكره أنكرك، وإن لم تغيره غيَّرك، وأهل الشر والضلال يريدون منك أن تنشرح للمنكر وإلا كنت مُتَطرِّفًا.

والتطبيع النفسي مع المنكر هو أفتك الأسلحة في القضاء على الشخصية الدينية للأمة الإسلامية، ولذٰلك نجد النهي عن الجلوس إلىٰ طاولة الخمر وإن لم تَشربها؛ لأن جلوسك في هٰذا المكان يُفْقِد فيك حِسّ الإنكار، فلذٰلك قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ أي: بحقائق القرآن. فالإعلام اليوم كله سحر يغير الحقائق ويقلبها، وعصا هٰذا الزمان هو القرآن، عباراته قاطعة، لا يستطيع شيء أن يثبت أمامه أي سحر، فهو كفيل بالقضاء على الأباطيل، ولٰكن عليك أن تصحبه، أن تلقي بالقرآن علىٰ نفسك وعلىٰ محيطك(٢).

٣. مجاهدة الأعمال بالتروك والأفعال:

إن النفس تميل إلى الراحة وتنفر من الالتزام والقيود، ومع أن دائرة المباح في الشريعة واسعة، إلا أن فيها أوامر ونواهي والتزامات شاقة على النفس، وسر السعادة في الدنيا والآخرة هو الالتزام بتلك الأوامر والانتهاء عن النواهي، والتزام النفس لتلك الطاعات والعبادات سماه الشرع جهادًا ورباطًا، جاء في الحديث: «ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٠) برقم: (٤٩).

(٢) ينظر: درس مسجل للشيخ فريد الأنصاري ضمن سلسلة منازل الإيمان، بعنوان: (منزلة المجاهدة).

وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»[١].

فالأعمال إذا لم يجاهد بها العبد نفسه إما أن ينقطع عنها، وإما أن تصير بلا فائدة ولا روح، فيضيع المعنى المقصود منها، ويبقى الشكل والرسم، ولا عبادة تحصل في القلب، كما وصف النبي ﷺ صلاة المنافق: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتىٰ إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا»[٢].

والمجاهدة بالتروك أن تترك شرب الخمر بين بيئة يشربون الخمر، وتصرح لهم بأنه حرام بدون استحياء من دينك، بعزة نفس واستعلاء إيمان، والمجاهدة بترك الكلام فيما لا يعني ولا ينفع، ففي حديث معاذ: «أخذ النبي ﷺ بلسانه وقال: «كف عليك هٰذا»[٣]. ومجاهدة النفس بكفها عن الغضب وما ينتج عنه، ففي الحديث: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٤].

ومجاهدة النفس علىٰ ترك المعاصي قد يكون أشق من مجاهدتها علىٰ فعل الطاعة، قال ابن رجب الحنبلي: «الداعي إلىٰ فعل المعاصي قد يكون قويًّا لا صبر معه للعبد على الامتناع من فعل المعصية مع القدرة عليها، فيحتاج الكفُّ عنها حينئذ إلىٰ مجاهدة شديدة، ربما كانت أشق على النفوس من مجرد مجاهدة النفس علىٰ فعل الطاعة، ولهٰذا يوجد كثيرًا من يجتهد فيفعل الطاعات ولا يقوىٰ علىٰ ترك المحرمات، وقد سئل عمر عن قوم يشتهون المعصية ولا يعملون بها، فقال: أولئك قوم امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ، لهم مغفرة وأجر عظيم»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٥١) برقم: (٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١١٠) برقم: (٦٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم: (٢٦١٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٨) برقم: (٦١١٤).

(٥) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٥٥).

طرق التحقق بمنزلة المجاهدة

١. القراءة في أخبار السابقين:

أن يقرأ ما ورد من أخبار السابقين في مجاهدتهم لأنفسهم، وأن يتذكر أن أيام الدنيا قليلة وشهواتها مكدرة، فإن جاء الموت قطع عليه كل لذاتها، وقد ورد أن كُرزًا الجرجاني كان يجتهد في العبادة، فقيل له في ذٰلك، فقال: كم بلغكم عمر الدنيا؟ قالوا: سبعة آلاف سنة، قال: فكم بلغكم مقدار يوم القيامة؟ قالوا: خمسين ألف سنة، قال: أفيعجز أحدكم أن يعمل سُبُع يومٍ حتىٰ يأمن ذٰلك اليوم!»[١].

٢. المداومة على الطاعة والإكثار من النوافل:

فالازدياد من الطاعات والمداومة عليها تمد المؤمن بالهمة علىٰ مجاهدة نفسه وتُبْعِد عنه الغفلة، ولذٰلك لما سئلت عائشة: كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ هل كان يخص شيئًا من الأيام؟ قالت: «لا، كان عمله دِيمة»[٢]. كما أن الإكثار من النوافل تجعل العبد قريبًا من ربه، وتحفظ جوارحه من الوقوع في الآثام، كما ورد في الحديث: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأُعْطيَنّه، ولئن استعاذني لأُعِيذَنّه»[٣].

٣. الاعتدال في المأكل والمشرب:

قال بعض الصالحين: «إن البطون إذا شبعت صارت الأرواح أجسادًا، وإذا جِعْنَ صارت الأجسام أرواحًا»[٤].

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٦)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٩) برقم: (٧٨٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/ ٨).

ثمت ارتباط وثيق بين الجسد الذي أصله من الطين وبين الروح التي هي من الله سبحانه، وبينهما علاقة تأثر وتأثير، فإذا غلّب الإنسان جانب الجسد بإعطائه كل ما يطلب من الشهوات المحسوسة كالطعام والشراب فإن ذلك يجعل الجسد يقوىٰ ويتغوَّل علىٰ حساب الروح، فيتثاقل الجسد إلىٰ أرض الكسل والراحة، ويسحب الروح معه إلىٰ هٰذا التثاقل. وإذا كبح الإنسان جماح شهوات الجسد وأعطاه من الطعام بقدر حاجته وما يقيم صلبه، فإن ذلك يجعل الروح تقوىٰ وترتفع وترفع الجسد معها إلى المكارم والمعالي، إن الروح تصير قوية قادرة على الطيران وحمل الجسد معها، فيصير الجسد خفيفًا نشيطًا.

٤. دفع الخواطر وحديث النفس:

فإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها، فإنها تصير مُنىٰ، ومتىٰ ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوىٰ فتصير همومًا، ثم تقوىٰ فتصير إرادات، ثم تقوىٰ فتصير عزمًا يقترن به المراد. فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته(١).

٥. الابتعاد عن مواطن الفتن والشهوات:

قال ابن الجوزي: «مَن قارب الفتنة بَعُدَتْ عنه السلامة»(٢)، فمن أراد السلامة في دينه عليه أن يبتعد عن أسباب المعاصي؛ لأن الاقتراب منها مؤذن باقترافها والوقوع فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فمن تهاون في رد الشهوات والشبهات وفي إغلاق الأبواب أمام المغريات انفتحت عليه أبواب المصائب والبلايا، فكم من قدمٍ زلت بعد ثبوت!

(١) ينظر: عدة الصابرين لابن القيم (١/ ١٠٧).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٢٦).

وكم أغرق بحر الشهوات والشبهات مِن عبد بعد أن جرفه التيار فأغرقه في لُجَجِه بعد أن عاش زمانًا على شاطئ السلامة.

قال ابن القيم: «دافِع الخطرةَ، فإن لم تفعل صارت فكرةً، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوةً، فحارِبْها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمَّةً؛ فإن لم تُدافعها صارت فعلًا؛ فإن لم تتداركهُ بضدِّه صار عادةً، فيصعُبُ عليك الانتقالُ عنها»[1].

٦. تذكر عواقب المعاصي:

إن مدافعة الإنسان لشهوته ومغالبتها أسهل عليه من معالجة ما يترتب على الشهوات والمعاصي من آثار؛ لأن المعصية تجر إلى معصية ثانية، وكلما وقعَت معصية نُكِتَ في القلب نكتةٌ سوداء، وتسببت في قسوة القلب، وأورثت من الألم والحسرة ما لا يمكن دفعه، قال ابن مسعود: «رب شهوة تورث حزنًا طويلًا»[2].

وقال ابن القيم: «الصبرُ على الشهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجِبُهُ الشهوةُ؛ فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبةً، وإمّا أن تقطع لذَّةً أكملَ منها، وإما أن تُضيِّع وقتًا إضاعتُهُ حسرةٌ وندامةٌ، وإما أن تَثْلم عِرضًا توفيرُهُ أنفعُ للعبد من ثَلمِه، وإما أن تُذهِبَ مالًا بقاؤُهُ خيرٌ له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامُهُ خيرٌ من وضعه، وإما أن تَسْلُب نعمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة، وإما أن تُطرِّق لوضيعٍ إليك طريقًا لم يكن يجدُها قبل ذلك، وإما أن تَجلِب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقاربُ لذَّةَ الشهوة، وإمَّا أن تُنسِي علمًا ذِكرُه ألذُّ من نيل الشهوة، وإما أن تُشمِّت عدوًّا وتُحزِن وليًّا، وإما أن تقطع الطريقَ على نعمةٍ مقبلةٍ، وإما أن تُحدِثَ عيبًا يبقى صفةً لا تزولُ؛ فإن الأعمال تُورِثُ الصفاتِ والأخلاقَ»[3].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٥).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٤).
(٣) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٣).

٧. معاقبة النفس على التقصير والمخالفات:

قد يجد الإنسان مشقة شديدة في إخضاع نفسه لطاعة الله وثنيها عن المعاصي، فلا ينبغي أن يهملها؛ فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وعسر عليه فطامها، ومن الوسائل المتاحة في تربيتها معاقبتها على التقصير، فالإنسان يعاقب ولده وأهله على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير، ويخاف إن تجاوز عنهم أن يزيد طغيانهم، والنفس أولى بالمعاقبة؛ لأن الضرر من طغيانها أشد وأعظم من طغيان الأهل والولد، وقد ورد عن كثير من الصالحين أنهم كانوا يعاقبون أنفسهم بعد المخالفة، فقد ورد عن ابن وهب أنه قال: «جعلتُ على نفسي كلما اغتبتُ إنسانًا أن أصوم يومًا، فهان عليّ، فجعلتُ على نفسي كلما اغتبتُ إنسانًا أتصدق بدرهم، فثقل علي، فتركَتِ الغيبة»[١]. وكان أبو مسلم الخولاني قد علّق سَوطًا في مسجد بيته يخوِّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفنَّ بكِ زحفًا حتى يكون الكَلَل منكِ لا مني، ثم تناول سَوطه وضرب به ساقه، ويقول: أنتِ أولى بالضرب من دابتي[٢].

٨. منع النفس من بعض الحلال:

فإذا عزم العبد على مجاهدة النفس لا بد أن يلزم كل جارحة من جوارحه الفطام عن عملها؛ حلالًا كان أو حرامًا، حتى تموت تلك الشهوة؛ لأن النفس إذا تمكّنت من الحلال طمِعت في الحرام، فإذا اعتادت النفس لذة رمي البصر حيثما وقع من غير مُبالاة، ولم يُلزِمها الخفض عما لا بد منه، اعتادت نفسه رمي البصر لتدرك الأشياء، فإذا رأى الحرام لم يملك بصره؛ لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته،

(١) الفوائد والأخبار لابن حمكان (ص: ١٧٠).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤١١).

فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمىٰ بها إلى الأرض إذا مشىٰ وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه.

فإذا لم يعوِّد نفسه رفض بعض الحلال لم يملك نفسه عند رؤية الحرام، ولم يقدر علىٰ تسكينها، بل هي تغلب القلب بما فيها من سلطان الشهوة، فيصير القلب أسيرًا للنفس بعد أن كان أميرًا عليها[1].

وإذا اعتاد العبد علىٰ مخالفة نفسه فإن ذٰلك يُسهل عليه سرعة استجابتها له، قال ابن القيم: «من ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوي فيه باعث الشهوة، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوىٰ غلبه متىٰ أراد»[2]. وهٰذا مُشاهَد في أمور الدنيا، فمن اعتاد علىٰ ممارسة الأعمال الشاقة والألعاب البدنية تزيد قوته في تلك الأعمال التي لا تكون عند غيره، وهٰكذا من يعتاد علىٰ مخالفة هواه تزيد قوته الإيمانية ويغلبه بسهولة.

٩. الالتزام بما ورد من الأدعية:

كان النبي ﷺ يستعيذ بالله عند خروجه من المنزل من الضلال والزيغ، وفي ذٰلك حماية للعبد من أن الوقوع في شرَك المعاصي والأهواء، عن أم سلمة قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: «اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلّ أو أُضَلّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلّ، أو أَظْلِم أو أُظْلَم، أو أَجْهَل أو يُجْهَل عليّ»[3].

---

(١) ينظر: رياضة النفس للحكيم الترمذي (ص: ٣٨).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (١/ ١٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٨٦) برقم: (٥٠٧٨)؛ والنسائي في سننه (١/ ١٠٥١) برقم: (٥٥٠٠)؛ وأحمد في مسنده (١٢/ ٦٤٥٠) برقم: (٢٧٢٩٤).

علامات التحقق بالمجاهدة

١. الإكثار من الطاعات والابتعاد عن المعاصي:

فإن الطاعة تجر إلى الطاعة، لأن للطاعة لذةً إذا ذاقها الإنسان لم يصبر علىٰ تركها، كما قال ثابت البناني: «كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعّمت بها عشرين سنة»(١). ويزداد المجاهد بُعدًا عن المعاصي، فلا يهمّ إلىٰ شيء من المعاصي ظاهرًا وباطنًا، ويكُفُّ عنها جوارحه؛ وإذا رأىٰ منكرًا يسارع إلىٰ إنكاره، ويأمر بالمعروف والخير.

٢. التواضع:

فالتواضع أصل الطاعات كلها، وبها يُدرِك العبدُ منازلَ الصالحين الراضين عن الله تعالىٰ في الضراء والسراء، فلا يلقى العبد أحدًا من الناس إلا رأىٰ له الفضل عليه، ويقول: عسىٰ أن يكون عند الله خيرًا مني وأرفع درجة، فإن كان صغيرًا قال: هٰذا لم يعصِ الله وأنا قد عصيت، فلا شك أنه خير مني، وإن كان كبيرًا قال: هٰذا عبَدَ الله قبلي، وإن كان عالـمًا قال: هٰذا أعطي ما لم أبلغ ونال ما لم أَنَل، وعلم ما جهلتُ وهو يعمل بعلم، وإن كان جاهلًا قال: هٰذا عصى الله بجهل، وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بم يُختَم له وبما يختم لي(٢).

٣. تجنب إيذاء الخلق:

وإذا آذاه أحد لا ينتقم لنفسه، ولا يكافئ السيئة بالسيئة، ويحتمل ذٰلك في سبيل الله وتعالىٰ، اقتداء بما كان عليه رسول الله ﷺ، فلم يكن يدفع السيئة بالسيئة، ولٰكن يعفو ويصفح(٣).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٢٠).

(٢) ينظر: الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (٢/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٦/ ١٣٥) برقم: (٤٨٣٨)، والحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

٤. اكتساب الأخلاق الحميدة:

الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تَكَلُّف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح يظهر أثره في القلب[١].

٥. اكتساب قوة العزم:

فإن الذي يعتاد على مخالفة نفسه وهواه رغم شدة منازعة نفسه له يكتسب قوة في الإرادة وعزمًا متينًا، ويسهل عليه الوفاء بما عزم عليه، إذ الأخلاق تُكتسب بالترويض والمجاهدة.

آفات المجاهدة

١. الاطمئنان إلى النفس:

مهما بلغ الإنسان وارتقى في درجات الطهر والصفاء من خلال مجاهدته لنفسه فستبقى نفسه نزّاعة إلى شهواتها وأهوائها، فلا يمكن للإنسان أن يأمنها، فالسكون إليها والاطمئنان لها وترك مجاهدتها يجعلها تستهوي كل شيء من الشهوات، وهذا هو العجز الذي أشار إليه النبي ﷺ في الحديث: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[٢].

فالإنسان مطالب بمواصلة المجاهدة وألا يغفل عن نفسه؛ فالانشغال عن

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٦٦٣)، وقال: حديث حسن؛ وأحمد في مسنده (٧/ ٣٧٩٩) برقم: (١٧٣٢٩)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٢٨) برقم: (٤٣٨٤).

المجاهدة ساعة قد يودي إلى النار، قال ابن حزم: «إهمال ساعة يفسد رياضة سنة»[1].

٢. التساهل بالمعاصي واتباع خطوات الشيطان:

فإذا تساهل العبد بمقدمات المعاصي لا بد أن يقع بها، ولذٰلك ورد النهي عن الاقتراب عن أسباب المعاصي؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ومن أرخىٰ لنفسه الزمام وقع لا محالة في الحرام، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]. وقد يعمل العبد ويجاهد نفسه لفترة طويلة حتىٰ تستقيم أو تقارب، ثم يغفل عنها لحظة فيقع في معصية فإذا بها تنتكس وتهدم له مراحل السير السابقة، قال ابن حزم: «إهمال ساعة يفسد رياضة سنة»[2].

«يروىٰ أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة فيه، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة فرقي يومًا المنارة علىٰ عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لذِميٍّ نصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ فقال: أنتِ أريد، قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبتِ لُبّي وأخذتِ بمجامع قلبي، قالت له: لا أجيبك إلىٰ ريبة، قال لها: أتزوجكِ، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال لها: أَتَنَصَّر، قالت: إن فعلتَ أفعل، فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذٰلك اليوم رقىٰ إلىٰ سطح كان في الدار، فسقط منه فمات، فلا هو بها اتصل ولا هو بدينه حصل»[3].

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص:٣٣).
(٢) المصدر السابق (ص: ٣٣).
(٣) العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الإشبيلي (ص: ١٨١).

٣. طمس نور العقل ونكران الحق:

من اتبع هواه ولم يجاهد نفسه في معرفة الحق واتباعه يختفي عقله، ويغيَّب عن الاسترشاد بالخير، قال أبو علي الثقفي: «من غلبه هواه توارىٰ عنه عقله»[١]. وقال ابن القيم: «اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم»[٢].

نماذج من المجاهدة

١. صور من مجاهدة النبي ﷺ:

أ. عن عائشة ﵂: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتىٰ تتفَطَّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هٰذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا»[٣].

ب. عن حذيفة قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة. فقلت: يركع عند المائة، ثم مضىٰ، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضىٰ، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مُتَرَسِّلًا؛ إذا مرّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذ. ثم ركع، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم»، فكان ركوعه نحوًا من قيامه. ثم قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلىٰ»، فكان سجوده قريبًا من قيامه»[٤].

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمٰن السلمي (ص: ٢٧٦).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٥) برقم: (٤٨٣٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٨٦) برقم: (٧٧٢).

٢. صور من مجاهدة الصحابة:

أ. عن أبي بن كعب قال: كان رجل لا أعلم رجلًا أبْعَد من المسجد منه، وكان لا تُخْطِئه صلاة، قال: فقيل له -أو قلت له-: لو اشتريتَ حمارًا تركبه في الظَّلْماء وفي الرَّمْضاء، قال: ما يَسُرُّني أن منزلي إلىٰ جنب المسجد، إني أريد أن يُكتَب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلىٰ أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «قد جمع الله لك ذٰلك كله»(١).

ب. عن أبي أراكة قال: «صليت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلاة الفجر، فلما انفتل عن يمينه مكث كأنَّ عليه كآبة، حتىٰ إذا كانت الشمس علىٰ حائط المسجد قيد رمح قال(٢)، وحائط المسجد أقصر مما هو الآن، ثم قلَّب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شُعْثًا غُبْرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزىٰ، قد باتوا لله سُجَّدًا وقيامًا يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم»(٣).

المقترحات العملية والتدريبات

١. المحافظة علىٰ صلاة الجماعة في المسجد في الصلوات الخمس، والحرص علىٰ إدراك الركعة الأولىٰ في الصف الأول.

٢. الحرص على الاستيقاظ قبل الفجر لصلاة التهجد؛ فمن استطاع مجاهدة نفسه وهي في أهنأ أوقات النوم يسهل عليه مجاهدتها علىٰ بقية أنواع الطاعات وإبعادها عن المعاصي والمخالفات.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٣٠) برقم: (٦٦٣).

(٢) من القيلولة، وهي النوم نصف النهار.

(٣) مقتل علي لابن أبي الدنيا (ص: ٢٥).

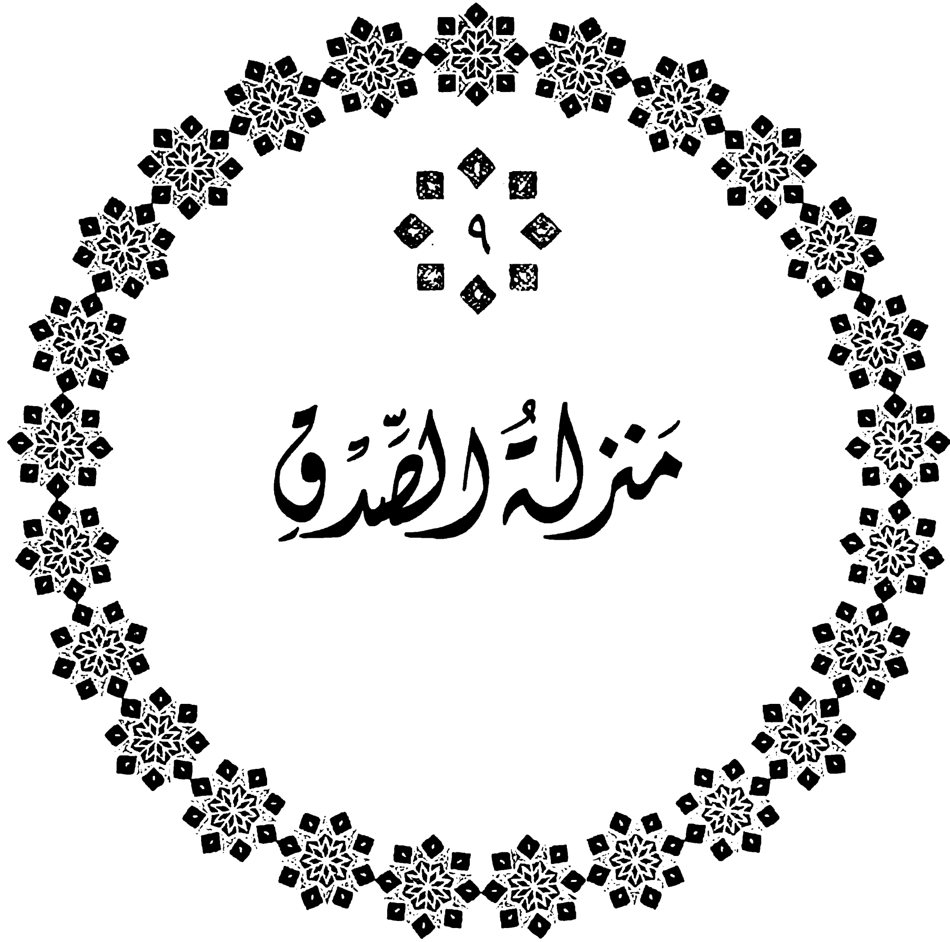
٣. احرص على الصيام في أيام الصيف؛ فمن استطاع إرغام نفسه على احتمال مشقة الصوم مع طول النهار وشدة الحر يصبح أكثر قدرة على ضبطها عند ثوران الشهوة.

٤. الإنفاق في حال العسر وشدة الحاجة إلى المال؛ ولهذا جعل النبي ﷺ هذا النوع أفضل أنواع الصدقات، ففي الحديث لما سئل النبي ﷺ: أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيحٌ شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى»[1]. لأن الصحيح الشحيح إذا خشي الفقر، وأمل الغنى صعبت عليه النفقة، وسول له الشيطان طول العمر، وحلول الفقر به، فيكون قد غلّب طاعة الله على شهوته، وجاهد نفسه على حب الغنى وجمع المال.

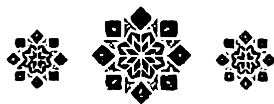
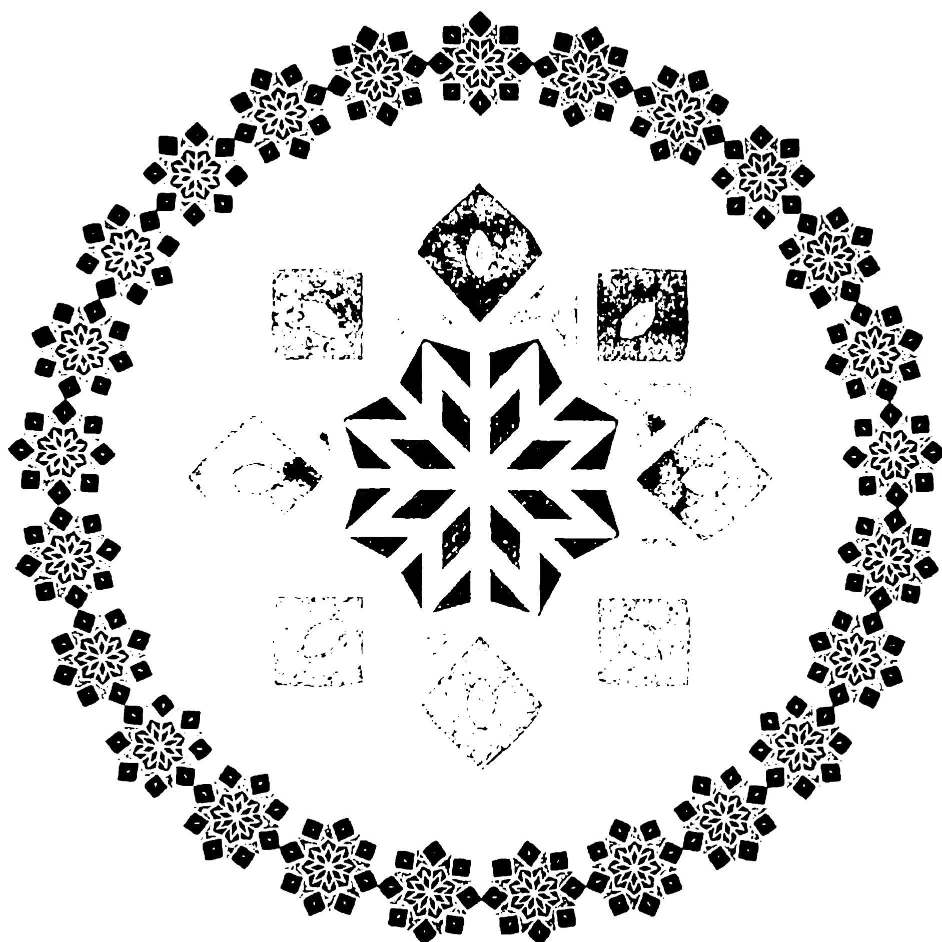


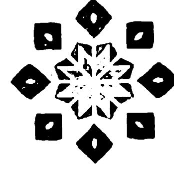
(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٠) برقم: (١٤١٩).




9
مَنزلةُ الصِّدقِ



منزلة الصدق



بين يدي الصدق

إن الصدق ينشأ عن كمال الإخلاص، وهو أصل أعمال القلوب كلها، وهو أسنىٰ أحوال السالكين وأنفعها في الخلاص من عوارض التوحيد، وهو عبارة عن صفاء في معاملة الله عز وجل من امتزاج الخواطر الجلية والخفية.

وليس المراد بالصدق هنا صدق اللسان خاصة، وإنما صدق اللسان هو أحد أفراده، فالصدق هنا أعم من ذٰلك بما يشمل صدق الباطن، الذي تجاوز صاحبه صدق اللسان إلىٰ صدق الأفعال، ويقال لصاحبه في أول هٰذا المنزل: صادق، وفي آخره: صِدِّيق.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، قال ابن زيد: «لم يصدّقوا إيمانهم بأعمالهم، فردّ الله ذٰلك عليهم، فمن انتحل الإيمان بالكلام ولم يعمل فقد كذب وليس بصادق»[١].

حقيقة الصدق

الصدق لغة:

نقيض الكذب، وصَديق الرجل: الذي يصادقه المودة، والصدق: الصلب من كل شيء، وتمرٌ صادق الحلاوة: إذا اشتدت حلاوته، والصِّدِّيق: الدائم الصدق، والذي يُصَدِّق قولَه بالعمل[٢].

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٣١٤).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٦٥٦).

الصدق شرعًا:

هو: «صفاءٌ في معاملة الله عز وجل من امتزاج الخواطر الجلية والخفية»[1].

أو هو: «استواء السر والعلانية»[2]. والصدِّيق: هو «الذي لم يدع شيئًا مما أظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله»[3].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الصدق والإخلاص:

الإخلاص والصدق متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص[4]، فحالة الصدق تنشأ عن كمال الإخلاص، غير أن بينهما فرقا مبنيًّا على المعنى الدقيق لكل منهما؛ فالإخلاص يختص بنفي صفات الإشراك، بمعنى: أن الإنسان قام بالعمل الصالح لوجه الله تعالى وليس رياءً للناس، أما الصدق فيختص بنفي صفات النفاق، فالصادق يحاسب نفسه فيما دقَّ وجلّ، فيستوي سره وعلانيته، فلا يُظهر حالًا من الخشوع والتقوى أمام الناس ويكون في الباطن خلافه[5].

فضل الصدق وثمراته

الصدق بمعناه الشامل للصدق في اللسان والصدق في الحال له فضائل كثيرة

(١) بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالكي (١/ ٣٣٢)؛ لسان العرب لابن منظور (١٠/ ١٩٣).

(٢) الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (٢/ ٣٣٤).

(٣) التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني (ص: ١٣٢).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٤٨).

(٥) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ٣٣١)؛ تفسير الماوردي (٣/ ٤٣).

وفوائد تعود على الصادقين في الدنيا والآخرة، ومن ذلك:

١. نجاة الصادقين يوم القيامة:

أخبر سبحانه أنَّه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من العذاب إلَّا صدقُه، فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٩]؛ أي: ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم ونطقت به جوارحهم فافْتُضِحوا، ثم بيَّن ثوابهم فقال: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩][(١)].

٢. للصّدّيقين منزلة القرب من الله:

إذ درجتهم منه ثاني درجةٍ بعد النبيِّين وقدمهم على الشهداء، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾[النساء: ٦٩]، فمرتبة الشهيد عظيمة إلا أن مرتبة الصّدّيق أعظم عند الله؛ لأن الصدِّيق صدَق الله في بذْل نفسه له في جميع عمره، والشهيد صدق الله في بذل نفسه له في وقت الوفاة[(٢)]. ولذلك قال يوسف بن أسباط: «لَأَن أبيت ليلةً أُعامل الله فيها بالصدق أحبُّ إليَّ مِن أن أضرب بسيفي في سبيل الله»[(٣)].

٣. الصدق يهدي إلى أعمال الخير والبر ويوصل إلى الجنة:

كما ورد في الحديث: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يَصدقُ ويتحرى الصدقَ حتى يُكتب عند الله صدّيقًا»[(٤)].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) ينظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول للحكيم الترمذي (٤/ ٢٢٠).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٥) برقم: (٦٠٩٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٩) برقم: (٢٦٠٧).

ومعناه: أن الصدق يهدي إلى العمل الصالح الخالص من كل مذموم، والبر اسمٌ جامعٌ للخير كله[1].

قال النووي في شرحه للحديث: «قال العلماء: هٰذا فيه حثٌّ علىٰ تحرِّي الصدق، وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه؛ فإنه إذا تساهل فيه كَثُر منه فعُرِف به، وكتبه الله لمبالغته صدِّيقًا إن اعتاده، أو كذَّابًا إن اعتاده، ومعنىٰ يُكتب هنا: يُحكَم له بذٰلك ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم، أو صفة الكذَّابين وعقابهم، والمراد: إظهار ذٰلك للمخلوقين؛ إما بأن يكتبه في ذٰلك ليشتهر بحظّه من الصفتين في الملأ الأعلىٰ، وإما بأن يُلقي ذٰلك في قلوب الناس وألسنتهم، كما يوضع له القبول والبغضاء»[2].

٤. الصدق يُنجي من المهالك:

الصدق يقي العبد من غضب الله ومن شر الظلمة؛ فالصدق هو الذي نجّىٰ الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من غضب الله ومن النفاق الذي رمى الله به الذين كذبوا علىٰ رسول الله ﷺ، ولذٰلك قال كعب بن مالك: «فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لِرَسُولِ الله ﷺ، ألَّا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا»[3].

وروي أن التابعيّ ربعي بن حِراش كان له ابنان عاصيان زمن الحجاج، فقيل للحجاج: إن أباهما لم يكذب كذبة قط، لو أرسلت إليه فسألته عنهما، فأرسل

(١) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (١٦/ ١٢٢).

(٢) المصدر السابق (١٦/ ١٦١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٣) برقم: (٤٤١٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٢٧٦٩).

إليه، فقال: أين ابناك؟ قال: هما في البيت، قال: قد عفونا عنهما بصدقك[١].

وعن أبي زرعة الرازي قال: قلت لأحمد بن حنبل: كيف تخلصت من سيف المعتصم وسَوْط الواثق؟ فقال: «لو وُضِع الصدق على جرح لَبَرِئ»[٢].

قال ابن القيم: «مَن صدَقَ الله في جميع أموره صنعَ له فوقَ ما يصنع لغيره»[٣].

٥. الصدق يؤدي إلى حصول البركة في الأرزاق:

قال رسول الله ﷺ: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدقَا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبَا وكتمَا مُحِقَت بركة بيعهما»[٤]، ومعنى «بورك في بيعهما»: كثر نفع المبيع والثمن، وقوله: «مُحِقَت بركة بيعهما» المحْق هو: النقصان وذهاب البركة، والمراد بمحق بركة البيع: ما يقصده التاجر من الزيادة والنماء، فيعامل بنقيض ما قصده[٥].

٦. الصادق في نيته يبلغ درجة العامل وإن لم يتيسر له العمل:

قال النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدقٍ بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[٦]، فالدعاء بالشهادة إذا كان يصدقه بقلبه فهو مستجاب، وقيده بالصدق لأن الصدق هو معيار الأعمال ومفتاح بركاتها[٧].

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩/ ٤٣٢).

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ٤٧٤).

(٣) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٧٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٥) برقم: (٢١١٤)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١٠) برقم: (١٥٣٢).

(٥) ينظر: عمدة القاري للعيني (١١/ ١٩٥).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٩) برقم: (١٩٠٩).

(٧) ينظر: حاشية السندي على ابن ماجه (٢/ ١٨٤).

شروط الصدق

١. التخلص من العلائق والعوائق الماثلة في طريق الصدق، والانصراف عن الشواغل المانعة من إخلاص العبادة لله.

٢. إسقاط حظوظ النفس، وإخماد نار الشهوات.

٣. تصحيح العزم بإخلاص القصد لله، وعدم الالتفات إلىٰ رضا ما سواه.

٤. ملازمة الكتمان؛ احتياطًا لقلبه، وفرارًا من رائحة الشرك والرياء[١].

مراتب الصدق ودرجاته[٢]

للصدق أربع مراتب، إذا اجتمعت كلها عند العبد كان صادقًا حقًّا، وهٰذه المراتب هي:

المرتبة الأولىٰ: الصِّدق في العزم:

فالعزم قد يكون صادقًا جازمًا، وقد يكون فيه نوعُ تَرَدُّدٍ وضعف، فصدق العزم هنا عبارة عن التمام والقوة، جاء في الحديث: «من سأل الله الشهادة بصدقٍ بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات علىٰ فراشه»[٣].

المرتبة الثانية: الصِّدق في الوفاء بالعزم:

فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال؛ إذ لا مشقة في الوعد والعزم، فإذا حقَّت الحقائق وحصل التمَكُّن انحلت العزيمة وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم؛ لذٰلك قال ابن تيمية: «العزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق»[٤].

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٣٣٢-٣٣٤).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٨٨-٣٩١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٩) برقم: (١٩٠٩).

(٤) دقائق التفسير لابن تيمية (٢/ ٣٦٠).

ومن نماذج الوفاء بالعزم: ما فعله أنس بن النضر؛ فعن أنس ﷺ قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلتَ المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليَرَيَنّ الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنةَ وربِّ النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين: ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل وقد مَثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنَانه. قال أنس: كنا نرىٰ أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] (١).

المرتبة الثالثة: الصدق في الأقوال:

ولا يكون إلا بالإخبار أو فيما يتضمن الإخبار، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو المستقبل، ويدخل فيه الوفاء بالوعد، وصدق اللسان هو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البِرّ، وإن البِرّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يَصدقُ ويتحرى الصدقَ حتىٰ يُكتب عند الله صدّيقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتىٰ يكتب عند الله كذّابًا» (٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩) برقم: (٢٨٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٥) برقم: (٦٠٩٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٩) برقم: (٢٦٠٧).

قال إياس بن معاوية: «إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان، ومن عَدِم فضيلة الصدق فقد فُجِع بأكرم أخلاقه»(١).

والصدق في الأقوال له كمالان: الأول: أن يحترز عن صريح لفظ الكذب وعن المعاريض أيضًا إلا عند الضرورة. والثاني: أَنْ يُراعِيَ معنى الصِّدق في ألفاظه التي يُناجي بها ربه؛ كقوله: وَجَّهْتُ وجهيَ للذي فطر السماوات والأرض، فإنَّ قلبَه إنْ كان مُنصَرِفًا عن الله تعالى مشغولًا بأماني الدنيا وشهواتها فهو كذب(٢).

المرتبة الرابعة: الصدق في الأعمال:

وهو أن يجتهد في العمل حتى يكون ما ظهر من أعماله مُصدِّقًا لما بطن منها، ويعبّرون عنه باستواء الظاهر والباطن.

قال عبد الواحد بن زيد: «كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحدًا قطُّ أشبه سريرةً بعلانية منه»(٣).

«وبحسب كمال هذه الأمور في العبد وقيامها به تكون صدِّيقيَّته، ولذلك كان لأبي بكرٍ الصِّدِّيق ذروةُ سنام الصدِّيقيَّة حتى سمِّي الصِّدِّيق على الإطلاق. والصدِّيق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق»(٤).

طرق اكتساب الصدق

الصدق شديد على النفس، ولهذا قال ابن القيم: «فحَمْلُ الصِّدق كحَمْل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلَّا أصحاب العزائم، فهم يتقلَّبون تحته تقلُّب الحامل

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٢٢).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٨٨).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٣٩١).

(٤) مدراج السالكين لابن القيم (٢/ ٦٢٩).

بحمله الثقيل»[1]، ولذلك لا بد من ذكر بعض ما يعين على اكتساب هذه المنزلة العظيمة، وإليك بعضها:

١. معرفة أهمية الصدق وعِظَم مكانته:

إذا عرف الإنسان أهمية الصدق وعظيم قدره فإنه يجاهد نفسه على التخلق به قلبًا وقالبًا، كما يحرص على الابتعاد عن ضده وهو النفاق.

فقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فهم أهل الرفيق الأعلى، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، ولا يزال الله يمدهم بنعمه وألطافه، ويزيد إحسانًا منه وتوفيقًا، ولهم مزية المعية مع الله، فإن الله تعالى مع الصادقين. ولهم منزلة القرب منه؛ إذ درجة الصديقين منه ثاني درجة النبيين، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر، وبأنهم أهل الصدق، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[البقرة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]، وهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسَم سبحانه الناسَ إلى صادق ومنافق، فقال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٣٧).

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما يحارب الآخر. وأخبر سبحانه أنه في القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، فقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩][(١)].

٢. اتهام النفس وتمحيص العمل باستمرار:

فالذي يعرف حقيقة نفسه، يُسيء الظن بها ويجعلها دائمًا في موضع الاتِّهام، ويَحذَر من أن توقعه في شيء مما تدعو إليه لئلا يصير أسيرًا لها مكبلًا بشهواتها؛ وذلك لأن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها.

وعدم توافق القول مع العمل جعل السلف الصالح يخافون علىٰ أنفسهم من النفاق، وأَعْظِمْ بالنفاق من ذنب كبير يخشى الصالحون منه علىٰ أنفسهم، قال ابن أبي مُلَيكة: «أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه»[(٢)].

فلا تكون للعبد قدم راسخة في العبودية، وتصفىٰ قدمه التي وضعها في بداية طريق عبوديته لله تعالىٰ إلا حين يتهم نفسه بالتقصير في تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي؛ فهو يرىٰ أن أعماله قد شابها وخالطها النقص والفساد مثل الرياء والعجب وغيرها.

٣. إصلاح السريرة بالإكثار من عمل السر:

من الأمور التي يصلح بها العبد باطنه مراقبة الله في كل أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، وخطرات قلبه، ثم بالإخلاص لله تعالىٰ؛ حتىٰ يزول عنه الرياء وحب الثناء والسمعة.

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (٣/ ٣٩٨-٣٩٩).
(٢) التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ١٣٧).

والإكثار من الأعمال الصالحة بين العبد وربه حيث لا يطلع عليه الناس تربي صاحبها على الصدق في عبوديته وتكون له نجاة يوم القيامة؛ جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[1]، قال ابن رجب ﷺ: «فهذا رجل يخشى الله في سره، ويراقبه في خلوته، وأفضل الأعمال خشية الله في السر والعلانية، وخشية الله في السر إنما تَصدر عن قوةِ إيمانٍ ومجاهدةٍ للنفس والهوىٰ، فإن الهوىٰ يدعو في الخلوة إلى المعاصي، ولهذا قيل: إن من أعز الأشياء الورع في الخلوة»[2].

فالطاعة في السر من علامات الإخلاص، أما الموافقة في الظاهر مع انتهاك الحرمات في الخلوات من علامات النفاق.

٤ . صحبة الصادقين:

على المسلم أن يحرص علىٰ مجالسة الصالحين وأهل ولاية الله وطاعته، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]؛ لأن في مجالستهم تذكير بالله وزيادة في الإيمان، حيث إن قلوب هؤلاء الصالحين تكون رقيقة رقراقة خاشعة، قال الله في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٦٦٠)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٣) برقم: (١٠٣١).
(٢) فتح الباري لابن رجب (٦/ ٥٠).

فالجليس الصالح يؤثر في صاحبه بزكاء قلبه وروحه بالإيمان والعمل الصالح والقرب من الله تعالىٰ، وكذا الإفادة من أخلاقه الرفيعة الملتزمة بهدي الإسلام، وإفادة الصاحب من سلوك صاحبه وعقله وعلمه.

علامات التحقق بالصدق

١ . الاهتمام بصلاح القلب وإخفاء الأعمال الصالحة:

سئل الحارث المحاسبي عن علامة الصدق، فقال: «الصادق هو الَّذي لا يبالي لو خرج كل قدْرٍ له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطِّلاع النَّاس علىٰ مثاقيل الذَّرِّ من حُسْن عمله»[١]. فالنفس تريد إظهار الأعمال الصالحة لتكسب مدح الناس، ولٰكن الصادق يكبت هٰذه الرغبة حفاظًا علىٰ سلامة قلبه، حتىٰ لو أدىٰ كتمانه للأعمال الصالحة إلىٰ سقوط مكانته من قلوب الناس. قال محمد بن المبارك ﷺ: «أعمال الصادقين لله بالقلوب، وأعمال المرائين بالجوارح للناس»[٢].

٢ . حفظ الوقت والمسارعة إلىٰ أعمال البر:

فالصادق ينتقل من عمل برٍّ إلىٰ غيره، لا يترك بابًا فيه خير إلا ولَجه، ولذٰلك قال الجنيد: «الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرَّةً، والمُرائي يثبت علىٰ حالةٍ واحدةٍ أربعين سنةً»[٣]. فالصادق مطلوبه رضا ربِّه وتنفيذُ أوامره، فبينا هو في صلاةٍ إذ رأيتَه في ذكرٍ، ثمَّ في غزوٍ، ثمَّ في حجٍّ، ثمَّ في إحسانٍ للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع، ثمَّ في أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ، فقلبه في تقلُّب وحركة شديدة

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٩٨).

(٣) الرسالة القشيري (٢/ ٣٦٣).

علىٰ حسب عظمة مطلوبه، خوفًا من أن يعجب بعمله أو يدخل عليه طاعن في نيته وصدقه، فكلُّ صادقٍ في طلب شيءٍ لا يستقرُّ له قرار، ولا يدوم علىٰ حالة واحدة. وأما المرائي؛ فيلزم حالة واحدة؛ لأنه يُرائي بعبادته وحالِه المخلوقين، فيخاف من ذهاب محبتهم إن قام بالتغيير[1].

وقال إبراهيم الخوَّاص: «الصَّادق لا تراه إلَّا في فرضٍ يؤدِّيه، أو فضلٍ يعمل فيه»[2].

٣. الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها:

فالصادق لا يرضىٰ عن عمله، وإنما يرىٰ أنه مهما جدَّ في السير وأجهد نفسه في العمل لا يستطيع أن يوفي شكر نعمة واحدة من نعم الله عليه، والموجب له هٰذه الرُّؤيةَ: استعظامُ مطلوبه، واستصغارُ نفسه، ومعرفتُه بعيوبها، وقلَّةُ زاده في عينه، وبذٰلك يبتعد عن الغرور والعُجب، فلا يجتمع الصدق والعجب في قلب مؤمن أبدًا، كما إن هٰذه الصفة تطهر القلب من الحقد على المسلمين وتصيُّد أخطائهم وعثراتهم.

٤. وجود الطمأنينة في القلب عند العمل:

إن الصدق في جميع الأحوال باطنها وظاهرها يُورِث الطمأنينة والسكينة في القلب، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه؛ مصداق ذٰلك ما ورد عنه ﷺ: «دع ما يَريبُك إلىٰ ما لا يَريبُك؛ فإن الصِّدق طُمأنينة، والكذب ريبة»[3].

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٦٣٦)؛ بستان العارفين للنووي (٢٨-٢٩).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٦٥).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٦) برقم: (٢٥١٨)، وقال: حديث صحيح.

٥. استواء السر والعلانية:

بل يكون سره خيرًا من علانيته، وتكون علانيته على خير، قال زيد بن الحارث: «إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النَّصَف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجَور»[١]. وقال ابن تيمية: «إن الظاهر لا بد من باطن يحقِّقه ويُصَدِّقه ويوافقه»[٢]. فحفظ حدود الله وأوامره ونواهيه لا يكون في حال دون حال، بل في كل حال يكون عليه العبد المسلم؛ فلا يقدم في سره بالخيانة لما ائتمنه الله عليه.

٦. إقبال الناس على سماع كلامه والانتفاع به:

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كل كلام يَبرُز وعليه كسوة القلب الذي منه بَرز»[٣]، وقال وهب بن منبِّه: «يا بُنيّ، أخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يُصَدِّق الله فيها فعلك في العلانية»[٤]. فمن صدَق الله في طاعته في السر فإن الله يُصَدِّق فعله في العلانية، فيجعل لأقواله وأفعاله القبول الحسن، فإن رأى الواعظ أن كلامه لم يلق قبولًا عند الناس، وأن موعظته منزوعة البركة ولا تكاد تنشرح لها قلوب العباد، فعليه أن يراجع نفسه ويتشكك في صدقه، نعم إذا رأى أن حاله ترضي الله ﷻ وأن المشكلة من عند المدعويين بسبب عنادهم وغلبة شقوتهم فإنه عند ذلك يكون قد أبرأ ذمته وأدى ما عليه.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩١).

(٢) مجموع الفتاوي لابن تيمية (١٣/ ٢٦٨).

(٣) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٥).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٦٩).

٧. قلة الكلام وكثرة العمل:

إن الصادق ينشغل بما ينفع، ويترك فضول الكلام في غير حاجة، وعمله أكثر من قوله؛ فإن كثرة الكلام بدون عمل دليل النفاق؛ قال أبو عمرو الأوزاعي: «إن المؤمن يقول قليلًا ويعمل كثيرًا، وإن المنافق يقول كثيرًا ويعمل كثيرًا»(١). ودخل الحسن البصري المسجد ومعه فرقد، فقعد إلىٰ جنب حلْقة يتكلمون، فنَصَت لحديثهم، ثم أقبل علىٰ فرقد، فقال: «يا فرقد، والله ما هٰؤلاء إلا قومٌ مَلُّوا العبادة ووجدوا الكلام أهون عليهم من العمل، وقل ورعهم فتكلموا»(٢).

٨. الأُنْسُ بالله والاستيحاش من الناس:

مَن يصدق مع الله في طاعته وعبادته يجد من لذة الوصال والأنس بربه ما يكون له قرة عين، فيؤثر دوام صلته بربه علىٰ كل شيء، ومن يأنس بالله يستوحش عند مخالطته للناس، لذٰلك قال بشر الحافي: «من عامل الله بالصدق استوحش من الناس»(٣)، وخاصة صحبة أهل الغفلة وقطاع طريق القلب إلى الله، فإن الصادق لا يصبر علىٰ صحبتهم، لأن الغافل لما استحكمت فيه الغفلة واستحكم الصدق في الصادق أحسّت روحه بالمضادّة والنفرة بينه وبينه، فقلب الصادق قوي الإحساس، لا يأنس بالغافل إلَّا تكلُّفًا، ولا يصاحبه إلَّا ضرورةً، فيأخذ من صحبته قدر الحاجة(٤).

---

(١) المصدر السابق (٦/ ١٤٢).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٢٠).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٤٧).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٦٤٥).

الآفات التي تقدح في الصدق

الآفة الأولى: الكذب باللسان

حقيقة الكذب:

الكذب لغة: نقيض الصدق، وكذَب الرجل: أخبر بالكذب[1].

وشرعًا: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، سواء كان عمدًا أم خطأً[2].

الكذب مذموم شرعًا، وهو من علامات النفاق، عن عبد الله بن عمرو ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤْتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[3].

وعن عائشة ﷺ، قالت: «ما كان خُلُق أبغضَ إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يُحَدِّث عند النبي ﷺ بالكِذْبة، فما يزال في نفسه عليه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة»[4].

التحذير من الكذب وأضراره:

١. الكذاب له عذاب أليم، قصَّ النبي ﷺ على الصحابة رؤيا، فقال: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابْتَعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما...

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٠٤، ٧٠٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم (٣٤)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٧٨) برقم (١٠٦).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥١٧) برقم: (١٩٧٣) وقال: هذا حديث حسن؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٦٠٧٨) برقم: (٢٥٨٢٢).

فأتينا على رجل مُسْتَلْقٍ لِقفاه، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكَلُّوبٍ[1] من حديد، وإذا هو يأتي أحد شِقَّي وجهه، فيُشَرْشِر[2] شِدقَه[3] إلى قفاه، ومِنْخَره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى، قال: قلت: سبحان الله ما هذان؟... قالا لي: وأما الرجل الذي أتيت عليه؛ يُشَرْشَر شِدْقُه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه: فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكِذبة تبلغ الآفاق»[4].

٢. الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار كما في الحديث الذي مر في فضل الصدق.

٣. الكذب جِمَاع الشرور، وسبب العداوات والبغضاء، قال الماوردي: «والكذب جماع كل شر، وأصلُ كلِّ ذمّ؛ لسوء عواقبه، وخُبث نتائجه؛ لأنه يُنتج النميمة، والنميمة تُنتِج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمنٌ ولا راحة، ولذلك قيل: من قلَّ صِدقُه قلَّ صديقه»[5].

٤. الكذب من علامات النفاق؛ عن أبي هُرَيرةَ ﷺ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أخلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»[6].

---

(١) الكَلُّوب: هو حديدة مُعْوَجَّة الرأس. ينظر: المفاتيح في شرح المصابيح للحسين بن محمود المظهري (٥/ ١١١).

(٢) يشرشر؛ أي: يُشَقِّقُه ويُقَطِّعُه. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١١/ ١٨٨).

(٣) الشدق: طرف شَفَته من جانب أذنه. ينظر المفاتيح في شرح المصابيح (٥/ ١١١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٤) برقم: (٧٠٤٧).

(٥) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٦١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم: (٣٣)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٧٨) برقم: (١٠٧).

الأحوال التي يجوز فيها الكذب:

هناك حالات أباح الشارع الكذب فيها؛ وذٰلك لأن المصلحة الحاصلة من الكذب فيها أكثر من قول الصدق، بل أحيانًا هناك حالات يكون الكذب فيها واجبًا؛ مثل: ما لو قصد ظالم أن يقتل مسلمًا معصوم الدم، هو عنده مُخْتَفٍ، وكان يقدر علىٰ أن ينجيه منه بالكذب، فاتفقوا علىٰ وجوب الكذب في هٰذه الصورة، كأن يقول: ليس هو هنا[1].

وهناك ثلاث حالات يجوز فيها الكذب، وهي:

الأولىٰ: كذب الرجل علىٰ زوجته؛ بأن يَعِدَها ويُمَنِّيها، ويُظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه؛ يستديم بذٰلك صحبتها.

الثانية: الكذب في الإصلاح بين المتخاصمين؛ بأن ينقل عن كل واحد منهما كلامًا جميلًا ويبلِّغه إلى الطرف الآخر؛ من أجل أن يصلح بينهما.

الثالثة: الكذب في حالة الحرب؛ بأن يقول لعدوه: غدًا يأتينا مدد، ويقصد به الطعام ونحوه، أو يُظْهِر من نفسه قوةً، ويتحدث بما يقوي أصحابه مما ليس بحقيقة.

والدليل علىٰ جواز الكذب في هٰذه الحالات: ما ورد في الحديث عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، ويقول خيرًا ويَنْمي[2] خيرًا» قال ابن شهاب: ولم أسمع يُرَخَّص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين

---

(١) ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٨/ ٧٧)؛ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٦/ ١٥٨).

(٢) ينمي: تقول: نميت الحَدِيث: إذا بلغته عَلَى وَجه الْإِصْلَاح. ينظر: شرح السنة للبغوي (١٣/ ١١٨).

الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها[1].

فلا خلاف في جواز الكذب في هٰذه الصور الثلاث، ولٰكن اختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها؟

فقالت طائفة: بجوازه علىٰ إطلاقه، واحتجوا بقول إبراهيم ﷺ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقول منادي يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠].

وقال آخرون منهم الطبري: لا يجوز الكذب في شيء أصلًا، وإنما المرادُ بإباحة الكذب في هٰذه الصور: التورية واستعمال المعاريض، لا صريح الكذب[2].

الآفة الثانية: حب مدح الناس:

إذا كان الإنسان يبحث عن مكانة وقدرٍ في قلوب المخلوقين ويتطلع إلىٰ مدح الناس له فإن ذٰلك يدل علىٰ ضعف صدقه في علاقته مع ربه ﷻ؛ فالصادق لا يُقَدِّم رضا أحد علىٰ رضا ربه تبارك وتعالىٰ، ولا ينتظر مدح الناس وثنائهم علىٰ ما يقوم به، لأن العمل لأجل اكتساب مدح الناس قادح في صدقه، وهو طريق نحو العُجْب والغرور، ولذٰلك حذّر النبي ﷺ من مدح الإنسان في وجهه ومن قبول سماع هٰذا المدح؛ ورد أن رجلًا كان يمدح ابن عمر فجعل ابن عمر يقول هٰكذا[3]، يحثو في وجهه التراب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم المدّاحين فاحْثُوا في وجوههم التراب»[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١١) برقم (٢٦٠٥).

(٢) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٦/ ١٥٨).

(٣) أي يحرك بيده ويرمي التراب في وجه المدّاح.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٢٦) برقم: (٥٧٨٨).

الآفة الثالثة: الخوف من قول الحق:

فالصادق مع الله لا تقيده شهوة، ولا تدفعه رغبة، ولا تمنعه رهبة الناس من قول الحق، ولو كان على نفسه وأقربائه، بل يقول الحق ولو كان مُرًّا؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٥].

والصادق لا تَناقُض بين ظاهره وباطنه، فهو بعيد عن النفاق في أقواله وأعماله وأحواله كلها، لا يرضى عن المنكر، ولا يسكت عما يجب عليه فعله من أجل تحصيل غرض دنيوي أو لهوى في نفسه، ولا يُداهن نفسه بأن يعصي الله في الخلوات، ويرضى لنفسه ما ينكره على غيره، ويجد لنفسه المسوغات والتأويلات الفاسدة، مع أن نفسه أولى بنصحه.

فالمسلم الصادق لا يخدع نفسه ولا غيره، وإنما يبين الحق، وينصح لنفسه وللمسلمين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون أول الممتثلين لذلك، جاء في الحديث: «الدِّينُ النَّصيحة» قلنا: لِمَنْ؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١).

الآفة الرابعة: النفاق ومداهنة الناس:

المؤمن صادق في كلمته، ومؤتمن على ما ائتمنه الله عليه، وما ائتمنه عباد الله عليه من أماناتهم، وفيٌّ في عهده، لا يفجر في خصومته؛ وقد عدَّ الرسول ﷺ صفات كذب الحديث وخيانة الأمانة وخلف الوعد والفجور في الخصومة من علامات النفاق؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣) برقم: (٥٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣١) برقم: (٢٤٥٩).

فالاهتمام بالظاهر بحيث يبدو العبد أمام الناس زاهدًا عابدًا تقيًّا ورعًا، ممن يرجون الله ويخافون عذابه، بينما هو في حقيقة الأمر لا يراعي حدود الله في السر، وينتهك المحرمات إذا خلا عن أعين الناس، هو من أخطر الأمور التي تدل على النفاق، وهو سبب لإحباط عمل العبد مهما كان كبيرًا، كما ورد في الحديث: «لَأَعْلَمنّ أقوامًا مِن أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ جبال تِهامة بيضاء، فيجعلها الله عز وجل هباءً منثورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله، صِفهم لنا، جَلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خَلَوا بمحارم الله انتهكوها»[1].

الآفة الخامسة: اختلاف الظاهر والباطن:

للعبد ظاهرٌ وباطنٌ؛ ظاهرٌ يُظهِرُ به أقواله وأفعاله، وباطنٌ في صدره وقلبه لا يطَّلعُ عليه سوى الله تعالىٰ. ولا يمكن لعبد يسعىٰ لتزكية نفسه، والارتقاء بإيمانه أن يفصل في تزكيته للنفس بين الباطن والظاهر؛ إذ لا يصلح العبد في مقام عبوديته لله تعالىٰ إلا حين يسعىٰ بإصلاح الباطن والظاهر معًا.

فمن كان لباطنه مصلحًا فإن الله يكافئه ويزينه ويرزقه صلاح الظاهر بمجاهدة النفس والجوارح، وكفِّهَا عن الشبهات والشهوات، وقد ضمن الله تعالىٰ لمن جاهد نفسه بهدايته لسبل الخير، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ويوفقه لاتباع السنة كلها في كل أحواله وأقواله وأفعاله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤١٨) برقم: (٤٢٤٥)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٤٦) برقم: (٤٦٣٢). قال أبو العباس البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (٤/ ٢٤٦): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

نماذج على الصدق من حياة الصالحين

١. صدق عمر رضي الله عنه:

عن حفصة زوج النبيّ ﷺ، أنّها سمعت أباها يقول: «اللهمّ ارْزُقْنِى قَتْلًا في سبيلك ووفاةً في بلد نبيّك». قالت: قلت: وأنّى ذٰلك؟ قال: إنّ الله يأتي بأمره أنّى شاء[1].

فماذا كان؟ استجاب الله دعاءه فطعن وهو قائم يصلي الفجر في مدينة رسول الله ﷺ. صدق في الطلب فصدَقَه الله في الإجابة.

٢. صِدق رجل من الأعراب:

عن شداد بن الهاد، أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ، فآمن به واتَّبَعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه. فلما كانت غزوةٌ غَنِم النبي ﷺ سبيًا، فقَسَم وقَسَم له، فأعطى أصحابه ما قَسَم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هٰذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسَمه لك النبي ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هٰذا؟ قال: «قَسَمْته لك»، قال: ما على هٰذا اتبعتك، ولكني اتَّبعتُك على أن أُرْمَى إلى هاهنا -وأشار إلى حَلْقِه- بسهمٍ فأموت فأَدخل الجنة. فقال: «إن تَصدُق الله يَصْدُقْك». فلبِثوا قليلًا، ثم نهضوا في قتال العدوّ، فأُتي به النبيَّ ﷺ يُحْمَل قد أصابه سهمٌ حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «أهو هو؟» قالوا: نعم، قال: «صدَقَ الله فَصَدَقه». ثم كفَّنه النبي ﷺ في جبّته ثم قدَّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «اللهم هٰذا عبدُك خرج مهاجرًا في سبيلك فقُتل شهيدًا، أنا شهيد على ذٰلك»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٣٠٧).

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى (١/ ٤٠٤) برقم: (١٩٥٢)؛ والبيهقي في سننه الكبير (٤/ ١٥) برقم: (٦٨١٧)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ٥٩٥) برقم: (٦٥٨٩).

قوله: «إن تَصْدُق الله يَصْدُقْك»؛ أي: إن كنتَ صادقًا ومُخلصًا فيما تقول، وتُعاهد الله تعالىٰ عليه يجازيك علىٰ صدقك بإعطاء ما رغِبْتَ فيه[1].

٣. صدق عاصم بن ثابت وخبيب الأنصاري:

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: «بعث رسول الله ﷺ عشرةً عينًا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب، حتىٰ إذا كانوا بالهَدَة بين عسفان ومكة، ذُكِروا لحيٍّ من هُذيل يقال لهم: بنو لِحْيان، فنفروا لهم بقريبٍ من مائة رجلٍ رامٍ، فاقتَصُّوا آثارهم، حتىٰ وجدوا مأكلهم التمر في منزلٍ نزلوه، فقالوا: تمر يثرب، فاتبعوا آثارهم، فلما حسَّ بهم عاصمٌ وأصحابه لجؤوا إلىٰ موضعٍ، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا، فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم، أمَّا أنا فلا أنزل في ذمة كافر، ثم قال: اللهم أخبِر عنا نبيك ﷺ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا، ونزل إليهم ثلاثة نفرٍ على العهد والميثاق، منهم خُبَيب وزيد بن الدَّثِنَة ورجل آخر، فلمّا استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هٰذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء أُسْوة -يريد القتلىٰ- فجرَّرُوه وعالجوه، فأبىٰ أن يصحبهم، فانطلق بخُبَيْبٍ وزيد بن الدَّثِنَة حتىٰ باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خُبَيبًا، وكان خُبَيبٌ هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبِث خُبَيبٌ عندهم أسيرًا حتىٰ أجمعوا قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسىٰ يَسْتَحِدُّ بها فأعارته، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتىٰ أتاه، فوجدته مُجْلِسَه علىٰ فخذه والموسىٰ بيده، قالت: ففزِعْتُ فزعةً عرفها خُبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذٰلك،

(١) ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ لمحمد بن علي الإثيوبي (١٩/ ٢٠٥).

قالت: والله ما رأيتُ أسيرًا قطّ خيرًا من خُبَيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل قِطْفًا من عِنَب في يده، وإنه لَمُوثَقٌ بالحديد وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزقٌ رزقه الله خُبيبًا، فلما خرجوا به من الحرَم ليقتلوه في الحِلِّ، قال لهم خُبَيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أنّ ما بي جزعٌ لَزِدت، ثم قال: اللهم أحْصِهم عددًا، واقتلهم بَدَدًا ولا تُبْق منهم أحدًا، ثم أنشأ يقول:

فلست أُبالي حين أُقْتَل مسلمًا   علىٰ أيِّ جَنْبٍ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يُبارك علىٰ أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، وكان خُبيبٌ هو سَنَّ لكل مسلم قُتِل صبرًا[1] الصلاة، وأخبر أصحابه يوم أصيبوا خبرهم.

وبعث ناس من قريش إلىٰ عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قتل أن يؤْتَوا بشيءٍ منه يُعرَف، وكان قتل رجلًا عظيمًا من عظمائهم، فبعث الله لعاصم مثل الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فحمته من رسلهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا»[2].

وفي رواية: كان عمر يقول: «يحفظ الله المؤمن؛ كان عاصم بن ثابت بن الأفلح نذر أن لا يَمَسَّ مُشْركًا ولا يَمَسُّه مشرك، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منهم في حياته»[3].

وهٰكذا كان صدقهم مع الله تعالىٰ سببًا في ثباتهم علىٰ دينهم في وجه الكفار، وأكرمهم الله بصدقهم بهٰذه الكرامات.

---

(١) كل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبرًا. النهاية لابن الأثير (٣/ ٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٧٨) برقم: (٣٩٨٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ١٤٧) برقم: (٣٥٦١٤).

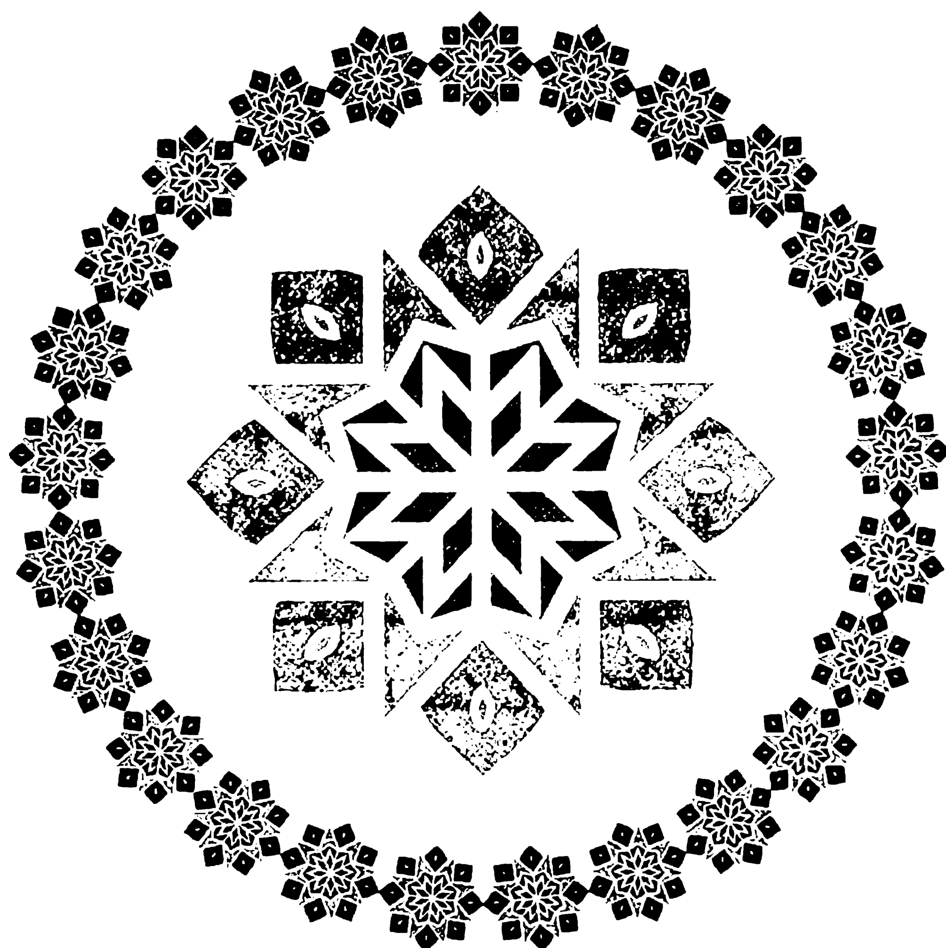
المقترحات العملية والتدريبات

١ . خصص من وقتك كل يوم نصف ساعة تجلس فيها خاليًا تذكر الله تعالىٰ، مع التدبر فيما تذكر، فهٰذا من شأنه إصلاح باطنك وجعله يتوافق مع ظاهرك، وهٰذا هو الصدق.

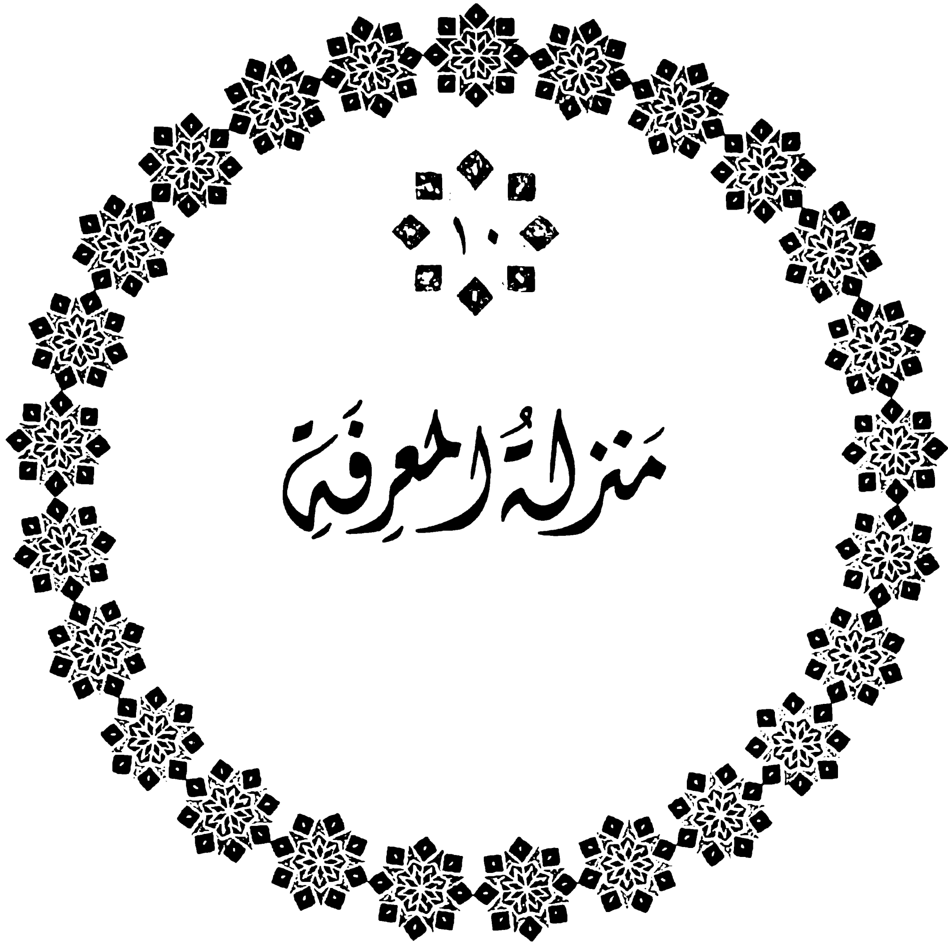
٢ . التَّقليل من الكلام إلا في الخير، وضَعْ بين عينيك قوله عليه الصلاة والسلام: «كفىٰ بالمرء كذبًا أن يُحدِّث بكل ما سمع».

٣ . ألزِم نفسك بالتصدق بمقدار من المال له قيمة عندك إن تكلمت بغير الصدق؛ فمن شأن ذٰلك أن يكون رادعًا لنفسك، ثم مع الزمن تعتاد علىٰ ألا تقولًا إلا صدقًا.





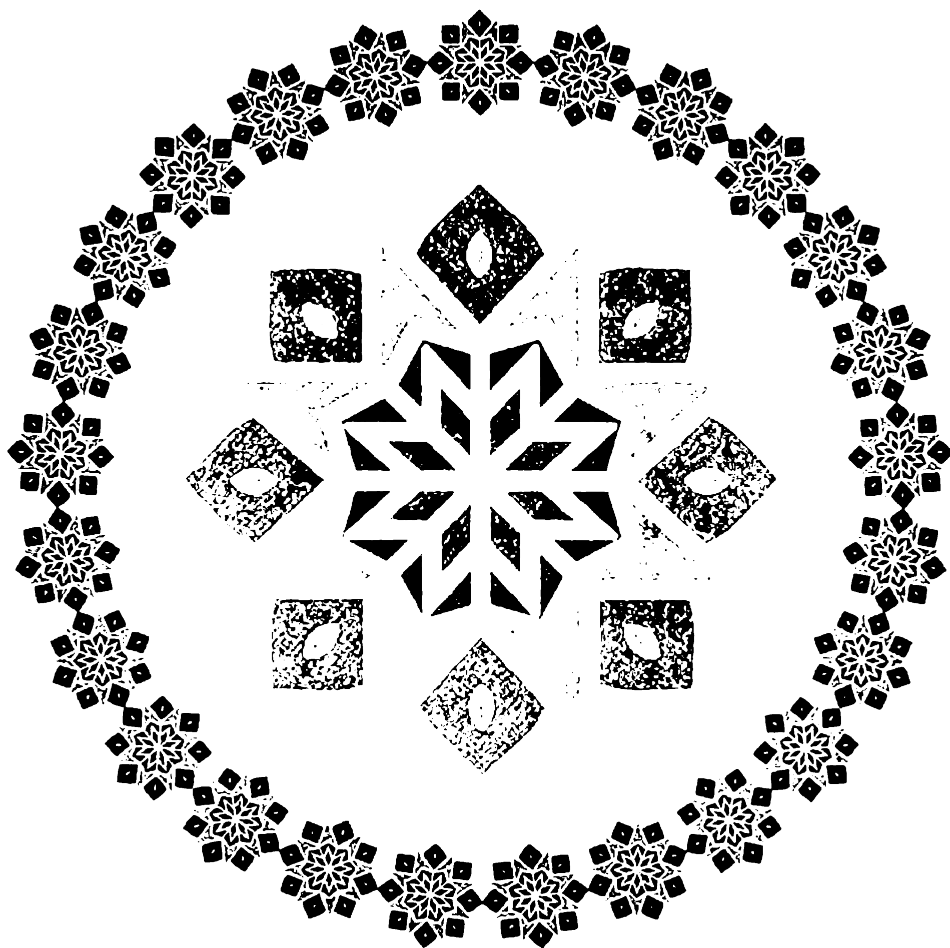



١٠

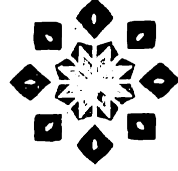
مَنزلةُ المعرِفَةِ











منزلة المعرفة



بين يدي المعرفة

إن المعرفة هي أشرف العلوم الشرعية، وأزكى المقاصد العلية، وأعظم الغايات السَّنيّة؛ لتعلُّقها بأشرف معلوم وهو الله تعالىٰ، فمعرفته سبحانه والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ علوم الدين كلها، وإرادة وجهه أَجَلّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناءُ عليه بأسمائه وصفاته ومدحُهُ وتمجيدُه أشرفُ الأقوال، وذٰلك أساس الحنيفية ملَّة إبراهيم ﷺ، وهو الدين الذي اجتمع عليه جميع النبيِّين، وعليه اتفقت كلمتهم وتواطأت مقالتهم، وتوارد نصحهم وبيانهم، بل إنه أحد المحاور العظيمة التي عليها ترتكز دعوتهم من أولهم إلىٰ خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

إن موضوع المعرفة بالله عز وجل موضوع خطير، انزلق فيه كثير من السالكين؛ بين غُلاة رافضين لهٰذه المنزلة؛ معتبرينها فكرةً من أفكار الصوفية لا أصل لها في الدين، وآخرين متطرفين أَوَّلُوها علىٰ غير مقصودها، زاعمين حلول ذوات العارفين في ذات الله تعالىٰ، أو يرون أن العارفين لا تضرُّهم الذنوب والمعاصي ما زالت قلوبهم عامرة بمعرفة الله عز وجل، وغيرها من تفسيرات مرفوضة شرعًا،

(١) ينظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ١٠٦٤)؛ معرفة الله تعالىٰ غاية مطالب البرية، مقالة منشورة على الموقع الرسمي لعبد الرزاق البدر.

وفريق آخر فهموا من المعرفة حقيقتَها والتزموا بشروطها وأدركوا علاماتها الصحيحة وآفاتها الواردة عليها، فهداهم الله تعالىٰ لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، لأن الحال أن الناس ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥][(١)].

حقيقة المعرفة

المعنى اللغوي:

المعرفة: مصدر (عَرَف)، ويدل علىٰ معنى السكون والطمأنينة، يقال: عرَفَ فلانٌ فلانًا عِرفانًا ومعرفةً، وهٰذا أمر معروف، وهٰذا يدل علىٰ معنىٰ سكونه إليه؛ لأن مَن أنكر شيئًا توحَّش منه ونبا عنه[(٢)]. وقيل في معناها: إدراك الشيء بتفكُّر وتدبُّر لأثره، فتُستَعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكر، بخلاف العلم. وأصل وضعها لتمييز الشيء وتعيينه حتىٰ يظهر للذهن منفردًا عن غيره، وهٰذه المادة تقتضي العلوَّ والظهورَ[(٣)].

المعنى الشرعي:

معنى المعرفة عند أرباب السلوك: العلم الذي يقوم العالِم بموجَبه ومقتضاه، فلا يُطلِقون المعرفةَ علىٰ مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا مَن كان عالمًا بالله تعالىٰ، وبالطريق الموصِل إليه، وبآفاتها وقواطعها، وله حالٌ مع الله يشهد له بالمعرفة، فالمعرفة عندهم تعني: سُمُوَّ اليقين[(٤)].

قال القشيري ﵀: «المعرفة: صفة مَن عرَفَ الحقَّ سبحانه بأسمائه وصفاته،

---

(١) ينظر: معرفة الله تعالىٰ لمحمد المختار لوح، مقالة منشورة علىٰ موقع (جماعة عباد الرحمٰن) الإلكتروني.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٢٨١)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ٢٠٦).

(٣) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني (١/ ٥٦٠)؛ تاج العروس للزبيدي (٢٤/ ١٣٣)؛ بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٤٨٥)؛ نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (٨/ ٣٤٣٣).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٢)؛ التوقيف علىٰ مهمات التعاريف لزين الدين المناوي (ص: ٣١٠).

ثم صدق الله تعالىٰ في معاملاته، ثم تنَقَّىٰ عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفُه ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله بجميل إقباله، وصدَقَ الله في جميع أحواله»[1].

وقال ابن القيم ﷺ: «فالعارف عندهم: مَن عرَفَ الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله في معاملاته، ثم أخلصَ له في قصوده ونيَّاته، ثم انسلخ مِن أخلاقه الرديَّة وآفاته، ثم تطهَّر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثم صبَرَ علىٰ أحكامه في نِعَمِه وبليَّاته، ثم دعا إليه علىٰ بصيرةٍ بِدِينه وآياته، ثم جرَّد الدعوةَ إليه وحده بما جاء به رسوله ﷺ، ولم يَشُبْها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يَزِن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته، فهٰذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة إذا سُمي غيرُه به علىٰ الدعوىٰ والاستعارة»[2].

ويمكن أن نوجز الكلام في تعريف المعرفة في ضوء ما تقدم فنقول: هي حسنُ التعامل مع الله تعالىٰ[3].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

من الألفاظ ذات الصلة بالمعرفة والمعاني القريبة إليها: **العلم**. وبيانه فيما يلي:

أصل معنى المعرفة ينطبق علىٰ معنى العلم، من جهة أنه ثبوت المعلوم وتحقُّقه في النفس، فمن علِمَ بشيء فقد عرَفه، ومن عرفه فقد علِمَ به،

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٧٧).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٢).

(٣) ينظر: معرفة الله تعالىٰ لمحمد المختار لوح، مقالة منشورة علىٰ موقع (جماعة عباد الرحمٰن) الإلكتروني.

ولهٰذا يُفسر أهل اللغة المعرفة بالعلم، كما يُفسرون العلم بالمعرفة[1]، وأصل هٰذا ورد في القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ففي الأول قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فأخبر عن المعرفة بالعلم، فدل علىٰ أنهما بمعنىٰ واحد. قال ابن حزم: «العلم والمعرفة اسمان واقعان علىٰ معنىٰ واحد، وهو اعتقاد الشيء علىٰ ما هو عليه، وتيقُّنه وارتفاع الشكوك عنه»[2]، وقد يُفرَّق بين العلم والمعرفة لفظًا ومعنىً، لٰكن علىٰ وجه لا ينافي اتفاقهما في المفهوم الإجمالي، المستند إلىٰ ثبوت معنىٰ في النفس هو حقيقة العلم والمعرفة، فلا تنافي بين تفسير العلم بالمعرفة، والمعرفة بالعلم، وبين أن يكون لكل منهما مع ذٰلك معنىٰ يختص به. وقد أشبع العلماء هٰذا الموضوع بالكلام وذكر الفروق بين العلم والمعرفة، ينظر في مظانه[3].

فضل المعرفة وثمراتها

علىٰ قدر معرفة العبد بالله تعالىٰ تكون معرفته بالعبادة لله، فكلما عرف الإنسانُ ربَّه كلما تقرَّب إلى الله تعالىٰ؛ لأن كلَّ مَن عرف نفسَه بالذلِّ والانكسار عرف ربَّه بالعُلُوِّ والعِزَّة والاختيار.

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٩/ ٢٣٦).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٥/ ٦٨).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٧٩)؛ بدائع الفوائد له أيضًا (٢/ ٤٨٥)؛ نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (٧/ ٢٩١٢)؛ معرفة الله تعالىٰ ونبيه ﷺ ودين الإسلام لفهد المرشدي (ص: ٣).

أولًا: فضل المعرفة

الآيات الواردة في فضل المعرفة وكذا الأحاديث كثيرة لا تحصىٰ[1]، نقتصر هنا علىٰ ذكر بعضٍ منها:

١. ثناء الله علىٰ أهل المعرفة به:

قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وتنصيص الله عز وجل علىٰ أهل العلم، وثناؤه عليهم بسبب علمهم ومعرفتهم به، وذكر شهادتهم بوحدانيته -ولا تتأتى الشهادة إلا بالمعرفة والعلم-، وأنهم هم القائمون بالقسط، وذكره لهم مع ذكر ذاته العلية وملائكته: جميع هٰذه الإشارات والتصريحات تدل علىٰ فضل المعرفة وعلوِّ مرتبة أهلها عند الله ﷻ.

٢. النبي ﷺ أعلم الناس بالله تعالىٰ:

قال ﷺ: «إنَّ أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا»[2]. وذِكْر علمه ﷺ بربه عز وجل في مقام ذكر التقوىٰ ومراتب المتقين يدل علىٰ فضل العلم بالله ومعرفته؛ إذ بالتقوىٰ يتفاوت الناس عند الله في المنزلة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والتقوىٰ -التي هي معيار فضلِ الإنسان ومكانتِه عند الله- من ثمارها: المعرفة بالله تعالىٰ، كما دل عليه قوله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) ينظر: نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (٨/ ٣٤٤٠ وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣) برقم: (٢٠).

٣. ارتباط العمل بالمعرفة وتوقفه عليها:

لما بعث رسول الله ﷺ معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن قال: «أُدعُهم إلىٰ: شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإنْ هم أطاعوا لذلك، فأعْلِمْهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإنْ هم أطاعوا لذلك فأعلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تُؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ علىٰ فقرائهم»[1]. وفيه عطفُ العمل على المعرفة، فلا يقوم العبد بما طُلِب منه من أعمال أركان الإسلام -وإن قام لا تُقبَل منه- قبل أن يتحقَّق بالمعرفة بالله عز وجل وبشريعته، وفي كل مرة يكرِّر النبي ﷺ لفظ «فأعلِمْهم» مؤكدًا علىٰ ضرورة المعرفة للعبد المؤمن، وقد مر في تعريفها أن العلم والمعرفة بمعنىً.

٤. المعرفة سبب قبول الحق والإذعان له:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. فالمعرفة هي التي دفعتهم إلىٰ قبول هذا الحق والإذعان له، حتىٰ أثَّر ذلك علىٰ قلوبهم لما سمعوه فبكوا.

٥. خَلْق السماوات والأرض وإنزال الشرائع إنما كان لتعريف الناس بخالقهم:

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، فقوله تعالىٰ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ كأنه لخَّص القرآن كلَّه في هذه الكلمة، أنَّ خلق الخلائق وإنزال الشرائع كله كان لتعريف الناس بخالقهم، وهذه هي المعرفة. وكلما ازداد العبد معرفةً بربه وصفاته ازدادت خشيتُه منه؛ لأنه سوف يعلم أنَّ عِلمه تعالىٰ محيطٌ به وأنَّ قدرتَه محيطةٌ به.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٤) برقم: (١٣٩٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٧) برقم: (١٩).



سئل أبو الحسين النوري عن أول فرضٍ افترضَ الله تعالىٰ علىٰ عباده، ما هو؟ فقال: «المعرفة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]»[١]؛ وذٰلك لأن أُولىٰ خطوات عبادة الله سبحانه: معرفته والعلم به.

٦. من عرف الله هانت عليه مشقة الطاعة:

وفضلُ المعرفة بالله وأهميتُها تنجلي من كونها مؤثِّرةً في القيام بامتثال أوامر هٰذا الآمر؛ لأن الإنسان إذا عرف الآمرَ تفانىٰ في تنفيذ أمره، وإذا جهل الآمرَ تفنَّن في معصية هٰذا الآمر، ولأهمية منزلة المعرفة في طريق السير إلى الله تعالىٰ بقي النبي الأعظم ﷺ سنوات طويلة في مكة المكرمة يعرِّف الناسَ بالله تعالىٰ، حتىٰ إذا عرفوا الله سبحانه وصاروا في شوق وانتظار لتنفيذ أوامر هٰذا الآمر جل جلاله بدأت الشرائع تنزل على النبي ﷺ واحدةً تلو الأخرىٰ، وصار الصحابة الكرام ﵃ وهم العارفون بالله يتفانون في امتثال أوامر الله ويُضحُّون في سبيل ذٰلك بالغالي والنفيس[٢].

ثانيًا: ثمرات المعرفة

من ثمرات المعرفة بالله تعالىٰ ما يلي[٣]:

١. العارف بالله عز وجل يُفتَح له بسبب معرفته فتوحات ومعارف، سواء كان علىٰ فراشه أو قائمًا يصلي؛ لأن قلبَه دائمًا مشغول بالله تعالىٰ، فتَرِد عليه الواردات الإلهية والمعارف اللَّدُنّيّة في جميع أحواله.

---

(١) اللمع للطوسي (ص: ٥٨).

(٢) مقتبس من درس محمد راتب النابلسي عن معرفة الله تعالىٰ علىٰ قناة يوتيوب.

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٨-٢٩٤)؛ أحاديث إصلاح القلوب لعبد الرزاق البدر (ص: ١٧٠).

٢. تنطق الحكمة بلسانه بما فتح الله عليه وألهمه، وتنطق المعرفة علىٰ قلبه وحاله وهو ساكت.

٣. المعرفة بالله تعالىٰ تُورِث محبتَه سبحانه والخوفَ منه وتُعزِّز اليقين.

٤. المعرفة تجعل العارف يتلوَّن بتلوُّن أقسام العبودية، فبينما نراه مصليًّا إذ نراه ذاكرًا قارئًا نفَّاعًا للناس مغيثًا للملهوف، فيضرب في كل غنيمة من الغنائم بسهمٍ.

٥. مجالسة العارف تنقل الإنسان من ستة أحوال إلىٰ ستة أحوال مضادة لها: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطويَّة إلى النصيحة.

شروط المعرفة

١. الإيمان القوي:

ربما هٰذا الشرط يدعو إلى الاستغراب؛ لأن المعروف أن المعرفة هي التي تقود إلى الإيمان، إلا أننا نتحدث هنا عن معرفة خاصة، تلك المعرفة المشروطة بالإيمان، والمعينة علىٰ طاعة الرحمٰن، والفناء في خدمة دينه، وإنّ مِثل هٰذه المعرفة لا تتأتىٰ إلا من خلال قدر كبير من الإيمان والعمل بمقتضاه، وهٰذا الإيمان القوي يتولد عبر جهود تعبدية مختلفة من الفرائض والنوافل؛ كالصلاة والصوم والحج والزكاة والإحسان إلى الناس وبر الوالدين وصلة الأرحام وأداء حق الجوار ونحوها.

٢. إرادة صادقة وعزيمة لا تتزعزع:

كما أن جميع الأمور الكبيرة تحتاج إلىٰ إرادة قوية وعزيمة صادقة من صاحبها، كذٰلك الأعمال الأخروية، ومِن أجَلِّها: الوصول إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، وقد ذكر الله تعالىٰ هٰذين الشرطين في قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩][(١)].

٣. الاستقامة علىٰ شرع الله تعالىٰ والعمل بما علمه:

بحيث تظهر علامات الاستقامة عليه في أفعاله وحركاته؛ قيل لمحمد بن الفضل: «حاجةُ العارفين إلىٰ ماذا؟ قال: حاجتُهم إلى الخصلة التي كمُلتْ بها المحاسِنُ كلها، وبفقدها قبحت المفاتِحُ كلها، وهي الاستقامة»[(٢)].

٤. الهيبة والخوف من الله تعالىٰ مع الحياء منه والأنس به:

وهي حالات قلبية لا يَطَّلع علىٰ حقيقتها إلا الله سبحانه، وإن كانت لها بعض العلامات الظاهرة؛ قال ابن عطاء: «المعرفة علىٰ ثلاثة أركان: الهيبة، والحياء، والأنس»[(٣)].

مراتب المعرفة

المعرفة بالله تعالىٰ علىٰ ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ: معرفة أفعال الله تعالىٰ في الآفاق وفي الأنفس

---

(١) ينظر: معرفة الله تعالىٰ لمحمد المختار لوح، مقالة منشورة علىٰ موقع (جماعة عباد الرحمن) الإلكتروني.

(٢) اللمع للطوسي (ص: ٥٣).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨١).

قال الله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. وهٰذه المرتبة أُولىٰ مراتب المعرفة بالله تعالىٰ، إذ بها يستدل البشر علىٰ وجود الله، الإله الخالق للخلائق والمدبِّر لشؤون العوالم، يرون لطفَه سبحانه ورحمتَه وحكمتَه وقدرتَه، وعنايتَه بخلقه وتصرُّفَه في أمور رعيته. ومن هٰذا المعنىٰ يُفهم بعض معاني جمال ذاته عز وجل، فإن العبد يترقىٰ من معرفة الأفعال إلىٰ معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلىٰ معرفة الذات، فإذا شاهد شيئًا من جمال الأفعال استدلَّ به علىٰ جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات علىٰ جمال الذات[1].

المرتبة الثانية: معرفة صفات الله تعالىٰ

قال الهروي: «معرفة الصفات والنعوت، وقد وردتْ أساميها بالرسالة وظهرتْ شواهدها في الصنعة، بتبصير النور القائم في السرِّ، وطِيبِ حياةِ العقل لِزرعِ الفكر، وحياةِ القلب بحُسنِ النظر، بين التعظيم وحسن الاعتبار، وهي معرفة العامة التي لا تنعقد شرائط اليقين إلا بها»[2].

يقصد الهروي أن إثبات الصفات لله تعالىٰ دلَّ عليه الوحيُ الذي جاء علىٰ لسان رسوله ﷺ، والحسُّ الذي شاهَد به البصيرُ آثارَ الصنعة، فاستدلَّ بها علىٰ صفات صانعِها، والعقلُ الذي طابت حياته بزرع الفكر، والقلبُ الذي حُيي بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار[3].

---

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (ص: ٢٦٦).

(٢) منازل السائرين للهروي (ص: ١٢٦).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٣٠٤).

المرتبة الثالثة: معرفة الذات الإلهية

وهٰذه المرتبة أرفع مما قبلها؛ لأن التي قبلها نظرٌ في الصفات، وهٰذه متعلقة بالذات الجامعةِ للصفات، وإن كانت الذات لا تخلو عن الصفات، وهي قائمة بها. والتفريق بين الذات والصفات في الوجود مستحيل، ولٰكنه ممكن في الشهود والتصوُّر الذهني: بأن يشهد الصفةَ ويذهل عن شهود الموصوف، أو يشهد الموصوفَ ويذهل عن شهود الصفة، فالمعرفة في هٰذه الدرجة تعلَّقتْ بالذات والصفات جميعًا، ولا ريب أن ذٰلك أكمل من شهود مجرد الصفة أو مجرد الذات، وهٰذه معرفة الخاصة[1].

المرتبة الرابعة: معرفة مستغرقة في وجود المعروف

وهٰذه آخر المراتب، وهي أرفع من التي قبلها؛ لأن ما قبلها معرفة متعلقة بالوسائط والشواهد الموصلةِ إلى المطلوب، وهٰذه متعلقة بعين المقصود فقط، فهي طاوية للوسائط والشواهد، غالبة علىٰ حال العارف وشهوده، وهي معرفة خاصة الخاصة[2].

وللمعرفة درجات أخرىٰ من حيث تفاعل القلب مع المعرفة بالله عز وجل وشعور العبد بها، وهي:

١. معرفة إقرارٍ:

كإقرار القلب وقبوله لما جاء به الرسول ﷺ عن الله تبارك وتعالىٰ.

٢. معرفة حقيقةٍ:

كمعرفة أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، ومعرفة النفس والكون.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٣١٧-٣١٨).

(٢) ينظر: منازل السائرين للهروي (ص: ١٢٦)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٣٢٦).

٣. معرفة حبٍّ وتعظيمٍ وإجلالٍ:

فالعبد إذا كان علىٰ معرفة صحيحة بالله تعالى انعكس هٰذا على العديد من الأمور في حياته، فيشعر بعظمة الله تعالىٰ وجلاله، ويزداد محبةً له وشوقًا إليه سبحانه.

٤. معرفة مشاهدةٍ:

وفي هٰذه المرتبة يندرج الفهم والعلم، والعبادة والكلام[1].

وأهل المعرفة من حيث تحلِّيهم بهٰذه الصفة وتفاوت درجاتهم في هٰذه المنزلة علىٰ ثلاث درجات أخرىٰ:

٥. معرفة العوام:

وهي معرفة عقلية، وقد تساوىٰ فيها المسلمون واليهود والنصارىٰ والمجوس؛ فإن لهم مشاركة في العقل، وقد اتفق كلهم علىٰ وجود إلٰهٍ بلا خلاف، وإنما وقع الخلاف فيما بينهم في صفات الألوهية، لا في الذات.

٦. معرفة الخواص:

وهي المعرفة النظرية، وهم أهل البصائر والرويَّة من أرباب القلوب السليمة الزكية، فإنهم ينظرون من نافذة القلوب في ملكوت الأشياء، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فيرون الآيات المودَعة في كل شيء، فتدل الآياتُ علىٰ معرفة الله ووحدانيته عز وجل. فمعرفة العوام بدلائل العقول، ومعرفة الخواص بشواهد المدلول ودلائل القلوب.

(١) ينظر: اللمع للطوسي (ص: ٥٨-٥٩)؛ من طرق معرفة الله تعالىٰ لمحمد ريم، مقال منشور علىٰ موقع المرسال (ص: ٣).

٧. معرفة أخصِّ الخواصّ:

وهي المعرفة الشهودية، وهم أصحاب مشاهدات الجمال وأرباب مكاشفات الجلال، الذين استخصَّهم الله تعالىٰ بهٰذه السعادة واصطفاهم لهٰذه السيادة، فهؤلاء مستغرقون في ذاته تعالىٰ ويشاهدون ألطافه[1].

طرق اكتساب المعرفة

١. العلم بأسماء الله وصفاته:

وهو فرضٌ فرضه الله علىٰ خلقه، فإذا عرفه الناسُ عبَدُوه؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

٢. التأمل في آيات الله عز وجل:

وذٰلك من خلال النظر في مخلوقاته؛ إذ لو أمكن تحصيل المعرفة به سبحانه بطريق آخر لَسَلَكه سيدنا إبراهيم ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقال أيضًا: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. والتفكر في خلق الله تعالىٰ أقرب طريقٍ إليه وأوسع باب ندخل منه عليه.

٣. تدَبُّر كتاب الله:

ففي هٰذا الكتاب يمكننا معرفة أفعال الله سبحانه وآياته التي تدل علىٰ حكمته وقدرته. قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]. فالله تعالىٰ يدعونا في كتابه إلىٰ معرفته عن طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهٰذه آياته المسموعة والمعقولة،

(١) منارات السائرين ومقامات الطائرين لأبي بكر الرازي (ص: ٤٩-٥٧).

وقد تجلى الله في القرآن لعباده بصفاته كصفات الهيبة والعظمة والجلال[١].

٤. بذل المجهود في أعمال العبادة مع تحقيق الحالة الوجدانية في القلب:

فالمعرفة ثمرة بذل المجهود في الأعمال مع تحقيق الأحوال القلبية، وحالُ القلب لا يُنال بمجرَّدِ العلم والبحث، فمن ليس له عملٌ ولا حالٌ فلا معرفةَ له[٢].

سئل أبو سعيد الخراز ﷺ عن المعرفة، فقال: «المعرفة تأتي من وجهين: من عَينِ الجُود، وبذلِ المجهودِ»[٣].

٥. العزلة المؤقتة والفعَّالة:

العزلة عن الناس بِحَدّ ذاتها ليست محمودة في الشرع؛ لأن القيام بالدعوة والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر يتطلب من المؤمن أن ينخرط في المجتمع ويختلط مع الناس، و«المسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٤]، إلا أن العزلة في بداية الطريق مطلوبة لتصفية القلب والخلوة مع الله تعالى حتى يفيض عليه من بركاته ونفحاته ومعارفه ما يتسلَّح به عند قيامه بواجبات الشرع؛ وكان نبينا محمد ﷺ يعتزل في غار حراء ليالي مِن كل سنة شهرًا، حتى جاءه الوحي، كما كان يعتكف في العشر الأواخر من شهر رمضان في كل سنة[٥].

---

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (ص: ٢٨)؛ من طرق معرفة الله تعالى لمحمد ريم، مقالة على موقع المرسال.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٩٣).

(٣) للمع للطوسي (ص: ٥١).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٧٨) برقم (٢٥٠٧)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ١٦٠) برقم: (٤٠٣٢)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١١٢٠) برقم: (٥١١٧). وحسّن إسناده ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٥١٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧) برقم: (٣)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٩٧) برقم: (١٦٠).

وشرط هٰذه العزلة: أن تكون فعَّالة ذات نفع؛ بتزكية النفس، والتأمل في آلاء الله وآياته، وليس مجرد الجلوس وإطلاق الخيال.

علامات التحقق بالمعرفة

١ . حصول الهيبة من الله والخوف منه:

فمن ازداد معرفة بالله تعالى ازداد هيبةً له، ويدل على ذٰلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]. وقال ﷺ: «إنَّ أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا»[١]. وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «مَن كان بالله أعرف كان له أخوف»[٢].

٢ . السكون والاطمئنان:

فمن ازدادتْ معرفتُه ازدادتْ سكينتُه[٣]؛ وذٰلك كما قال النبي ﷺ وهو سيد العارفين لأبي بكر رضي الله عنه حين راوده الخوف والقلق في غار حراء، فيما أخبرنا الله تعالى عنهما بقوله: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٤٠].

٣. الأنس بالله تعالى:

وعلامة ذٰلك: أن يُحِسّ بقرب قلبه من الله تعالى فيجده قريبًا منه، فهو مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه، فتضيق نفسه في الدنيا، وتقل رغبته بها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣) برقم: (٢٠).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٧٩).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٣).

٤. طيب الحياة وصفاء العيش وقلة الهموم:

لأنه يجد في الله عوضًا عن كل فائتٍ، فلا يأسف على فائتٍ ولا يفرح لآتٍ.

٥. كثرة الثناء على الله تعالى والبكاء على نفسه خوفا ورجاء:

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «يخرج العارفُ من الدنيا ولا يقضي وطرَه من شيئين: بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه عز وجل»(١).

٦. العارف له نور في وجهه:

إذا رآه الناسُ ذكروا الله، فيشاهدون شيئًا من لطف الله تعالى ورحمته ونوره وجلاله وعظمته سبحانه(٢).

٧. لا يُطالِب ولا يُعاتِب ولا يخاصِم أحدًا:

خاصة مِن أجل أمور دنيوية، ولا يرى له على أحد فضلًا ولا حقًّا؛ قال الجنيد رحمه الله: «لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤه البَرُّ والفاجر، وكالسحاب يُظِلُّ كلَّ شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب»(٣).

٨. يكون على تأهُّبٍ دائمٍ للقاء ربه سبحانه:

كما يكون حال الرجل الذي أراد السفرَ، وقد شدَّ أحمالَه وتأهَّب للخروج، فيستغل أوقاته فيما ينفعه في آخرته.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٠).

(٢) ينظر: اللمع للطوسي (ص: ٥١-٥٦)؛ الرسالة القشيرية (٢/ ٤٧٧-٤٨٢)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٢-٤٨٨)؛ درس مسجل بعنوان: منزلة المعرفة (١)، لمحمد خير الشَّعّال على يوتيوب.

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٠).

الآفات التي تؤثر على المعرفة

١. الانقطاع عن ذكر الله تعالىٰ:

قال ذو النون المصري ﷺ: «لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالىٰ»(١)، فالإنسان إذا انقطع عن ذكر الله أثَّر ذٰلك علىٰ معرفته؛ لأن الغرض منها ذكر الله تعالىٰ علىٰ جميع أحواله، فهما أمران متلازمان، إذا نقص أحدهما ظهر أثره في الآخر، فلا بد للإنسان أن يجعل لسانه رطبًا بذكر الله، وقلبه عامرًا بالإقبال عليه، ولا يسمح للخواطر والوساوس أن تشغله عن الذكر.

٢. مخالفة العمل للعلم:

المعارف النافعة تكون دالةً على الأعمال، والعلم إنما يستمد قيمتَه بقدر بيانه للعمل الواجب الذي يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم وترتقي به نفوسهم، كما قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢]، فالعارف الذي يخالف عملُه علمَه ليس بالعارف حقًّا، وسيؤدي به مخالفته لعلمه إلىٰ نزع المعرفة منه.

٣. ترك أدبٍ من آداب أهل المعرفة:

ونعني بهٰذا أن العارف بالله تعالىٰ له حال ليست كحال غيره من أهل الإيمان، وله آداب يجب أن يتأدب بها، فلا ينبغي أن يترخص في اتباع بعض هواه كعوام المسلمين فيسقط من عين الله عز وجل؛ قال يحيى بن معاذ: «إذا تركَ العارفُ أدبَه عند معرفته فقدْ هَلَكَ مع الهالكين»(٢).

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨١).

(٢) اللمع للطوسي (ص: ٥٦).

نماذج من معرفة الصالحين

١. عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

جاء رجل إلىٰ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته يستعين به علىٰ مَن ظلمه، فغضب عمر لأنه لم يأته في وقت الفراغ، حتىٰ إذا انشغل بأمور المسلمين جاء يشغله، فضربه بالدِّرَّة، فانصرف الرجل مُتَذَمِّرًا، لكن الفاروق لم يلبث أن ندم علىٰ فعله، فدعىٰ بالرجل، ثم طلب منه أن يقتصَّ منه، وأعطاه الدِّرَّة، ولم يكن من جواب الرجل علىٰ هٰذا الإنصاف من أمير المؤمنين رضي الله عنه من نفسه إلا أنْ عفا عنه وسامحه. ثم قام عمر فدخل منزله، فصلىٰ ركعتين وجلس، فقال مخاطبًا نفسَه: يا ابن الخطاب، كنتَ وضيعًا فرفعك الله، وكنت ضالًّا فهداك الله، وكنت ذليلًا فأعَزَّك الله، ثم حَمَلَك علىٰ رقاب الناس فجاءك رجل يستعْدِيك فضربْتَه! ما تقول لربك غدًا إذا أتيته؟ قال الراوي الذي شاهد الموقف: فجعل يعاتب نفسه في ذٰلك معاتبة حتىٰ ظَنَنَّا أنه خير أهل الأرض(١).

٢. منصور بن المعتمر:

مكث منصور بن المعتمر رحمه الله ستين سنة يقوم ليلها ويصوم نهارها، وكان يبكي، فتقول له أمه: يا بني! أَقَتَلتَ قتيلًا؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعتُ بنفسي، فإذا كان الصبح كَحَّل عينيه ودهن رأسَه وبرق شفتيه وخرج إلى الناس(٢). فمعرفته بالله دفعتْه إلىٰ كثرة المجاهدة في العبادة له في السرِّ، ومعرفتُه بنفسه جعلتْه يبكي عليها.

---

(١) ينظر: أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٦٥٤).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (١١/ ٦٤٩)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٤١).

٣. عبد الله بن المبارك:

كان ابن المبارك رحمه الله مرفوع الذِّكْر عند الناس؛ لنقاء سريرته، وخفاء طاعاته وبكائه، يقول أحد تلاميذه: كنا نسافر مع ابن المبارك رحمه الله، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأيِّ شيءٍ فُضِّل هٰذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هٰذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنَّا لَنُصلّي، ولئن كان يصوم إنَّا لَنَصوم، وإنْ كان يغزُو فإنَّا لَنَغزو، وإن كان يحج إنَّا لَنَحجّ. فكنَّا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلةً نتعشّىٰ في بيتٍ، إذ طُفِئَ السِّراجُ، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح، فمكث هُنَيْهَةً، ثم جاءَ بالسّراج، فنظرتُ إلىٰ وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلّتْ من الدموع، فقلت في نفسي: بهٰذه الخشية فُضِّل هٰذا الرجل علينا، ولعله حين فَقدَ السراج فصار إلى الظُّلمة ذكر القيامة[1].

فمعرفته بالله واستحضاره لأهوال القبر -كما ورد في رواية أخرىٰ- جعله يبكي خشيةً من ربه، وهو الذي يقول: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطْيَبَ ما فيها، قيل له: وما أطيبُ ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل»[2].

المقترحات العملية والتدريبات

١ . اجلس بين كل فترة وأخرىٰ جلسة تخلو فيها مع الله عز وجل وتتجرَّد عن التفكير بما سواه، فإن ذٰلك يدلك عليه ويوصلك إلى المعرفة به[3].

---

(١) ينظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/ ٣٧٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٦٧).

(٣) ينظر: سر الأسرار ومظاهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار لعبد القادر الجيلاني (ص: ٤٢).

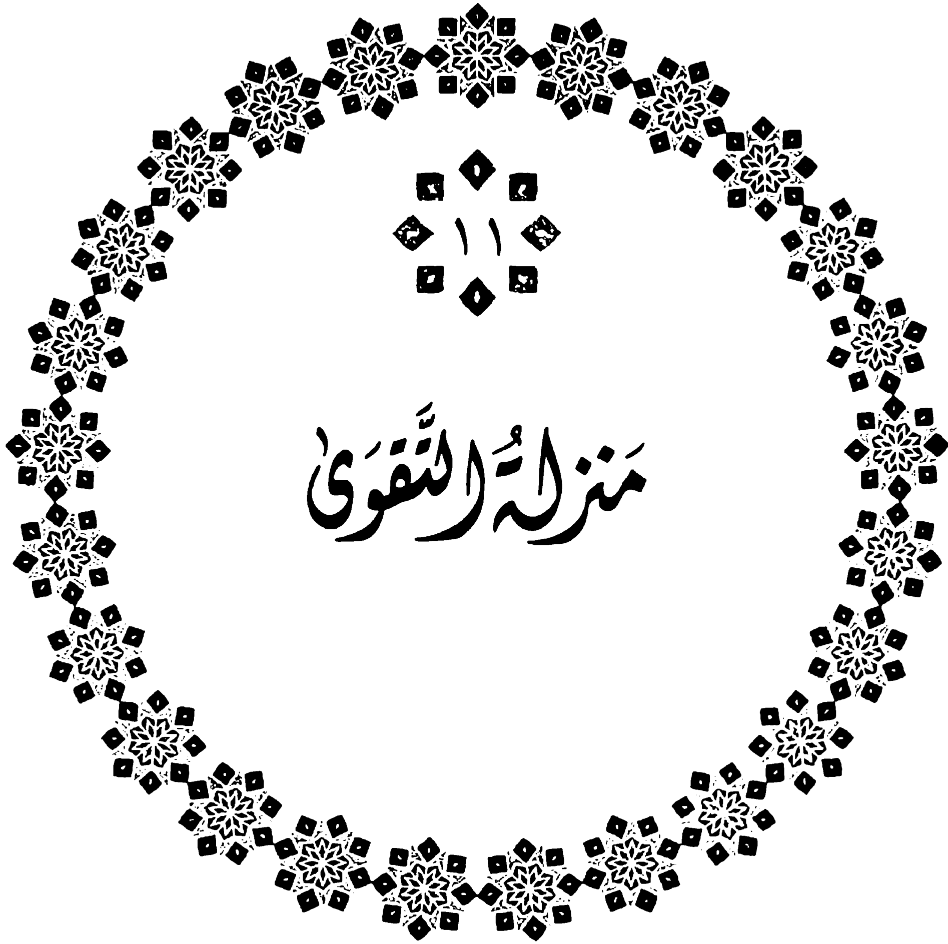
٢. اقرأ كتاب (المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الحسنىٰ) للإمام الغزالي ﷺ، وكتاب (لِأَنَّكَ الله) لعلي الفيفي من المعاصرين، واكتب أهم الفوائد من هٰذين الكتابين.

٣. اقرأ باب منزلة المعرفة من كتابِ (مدارج السالكين) لابن القيم، ومن الرسالةِ القشيرية.

٤. اتخذ وِردًا يوميًّا تكثر فيه من هٰذا الدعاء: «اللهم زدني علمـًا، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».



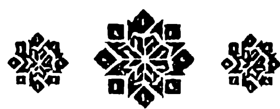


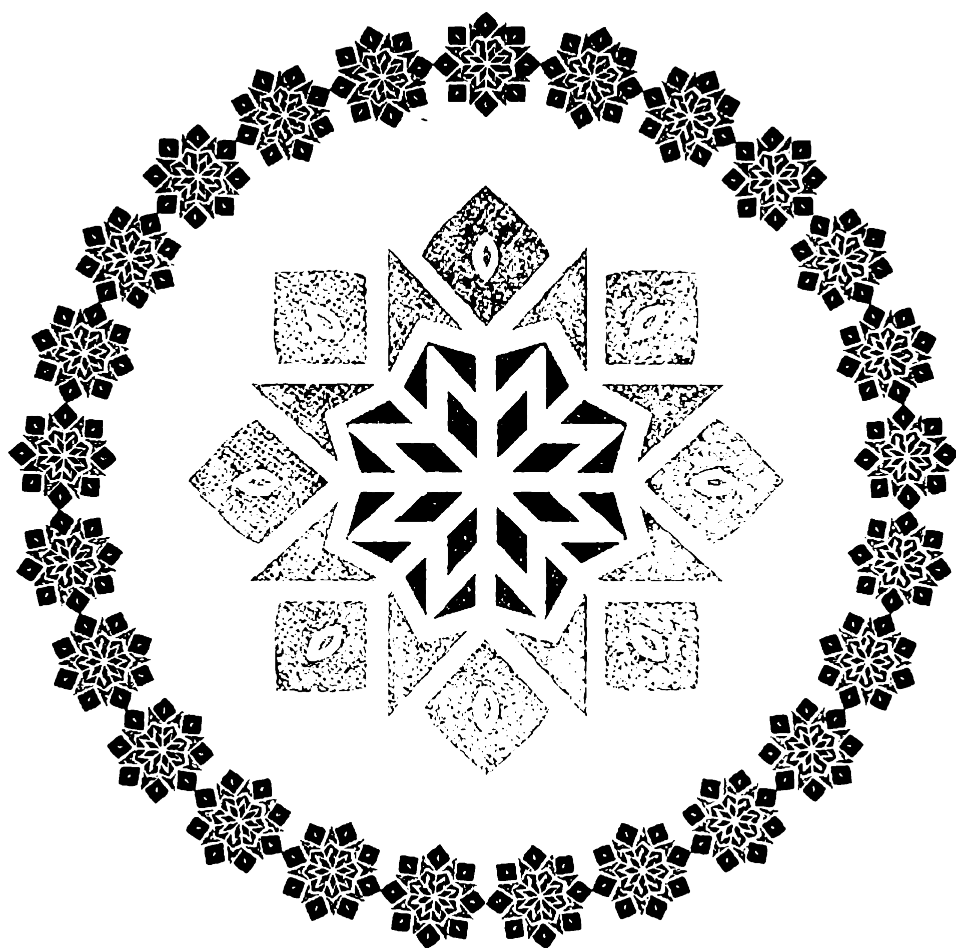


١١

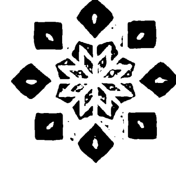
مَنزلةُ التَّقوَى



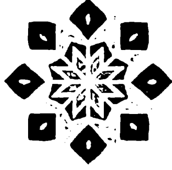








منزلة التقوى



بين يدي التقوى

التقوى وصية الله لجميع خلقه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير من التقوى لأمر الله بها عباده، فلما أوصاهم بهذه الخصلة واقتصر عليها علمنا أنها الغاية التي لا مُتَجاوَز عنها، فهي زاد المؤمن الذي ينبغي أن يستصحبه معه في كل مراحل حياته وسيره إلى آخرته، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ لأنه معرض لانقطاع سفره في أي لحظة بانتهاء أجله، فينبغي أن يكون مشغولًا في كل أوقاته بإعداد ذلك الزاد.

وقد بين الله في كثير من الآيات أن الغاية من الأحكام والعبادات إنما هو الوصول إلى التقوى؛ منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وذكر الله صفات المتقين في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]،

وما ذُكر من أعمالهم يدل على شدة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشد ما يُبذل على النفس، وهو شيئان؛ أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة. وثانيهما: المال الذي تشح به النفوس غالبًا[1].

وللتقوى ملامح: فلها زِيٌّ يعرف به أصحابها؛ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولباسها: الإيمان والعمل الصالح والحياء والخشية. ولها مستقرٌّ يفيض على بقية الأعضاء، وهو القلب؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣]، وهي خير زاد؛ ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ولها مظاهر تُنبئ عما في القلب؛ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ولها أهل، وهو الله تعالى؛ ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المدثر: ٥٦]، فلا أحد غيره يستحق أن يُتّقى ويُتَجَنَّب غضبه[2].

حقيقة التقوى

التقوى في اللغة:

مأخوذة من مادة وقى، وتدل على دفع شيء عن شيء بغيره، وقى الشيء: صانه وحفظه من الأذى، ووقاه ما يكره: حماه منه، وتَوَقّى الشيء: تجنبه، واتّقى الشيء: حذِره واتخذه وقاية له من العدو وغيره[3].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٦/ ٣٤٨).

(٢) ينظر: التقوى في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي لمحمد الدبيسي (ص: ٥٨).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ١٣١)؛ لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٤٠١-٤٠٢).

فالمعنى اللغوي لجذر التقوىٰ ومشتقاته يتمحور حول معنى الوقاية، بما تشتمل عليه من معاني الحذر واتخاذ وسائل الحفظ، سواء أكان ذٰلك لحفظ النفس عمومًا، أو لتجنب أذىٰ شيءٍ محدَّد، وسواء أكان هٰذا الاتقاء بالحذر عمومًا أو باتخاذ شيء ما وسيلة لاتقاء شيء آخر[1].

التقوىٰ في الشرع:

اختُلِف في تعريف التقوىٰ، وعُرِّفت بتعريفات كثيرة، وذكر الثعلبي أكثر من ثلاثين قولًا في تعريفها. وأكثر التعريفات مأخوذة من المعنى اللغوي الذي يدل على الوقاية والحذر والاجتناب، فبعضهم عرفها بأنها اجتناب المحرمات، وبعضهم أدخَل في تعريفها اتقاء الشبهات وبعضَ المباحات، وبعضهم عرفها تعريفًا أعم من ذٰلك فقال: «اجتناب ما تخاف منه ضررًا في دينك»[2].

ولكننا إذا نظرنا إلىٰ آيات القرآن والأحاديث الواردة في التقوىٰ نجد أن للتقوىٰ مفهومًا لا يقتصر علىٰ أعمال الظاهر من فعل المأمورات واجتناب المحرمات، بل إن بعض النصوص بينت أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوىٰ، وإنما تحصل التقوىٰ بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته، قال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فلا عبرة للأعمال إن لم تحصل التقوىٰ في القلب، وجاء في الحديث: «التقوىٰ هاهنا»، ويشير إلىٰ صدره[3].

---

(١) مقالة: مفهوم التقوىٰ والمنظومة الأخلاقية القرآنية: البنية والسياق لعبد الرحمٰن حللي (ص: ٧).

(٢) وهو تعريف الفاكهاني، كما في الغاية القصوىٰ في الكلام علىٰ آية التقوىٰ للفاكهاني (ص: ٣١). وقريب منه تعريف البيضاوي، كما في أنوار التنزيل للبيضاوي (١/ ٣٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٠) برقم: (٢٥٦٤).

وباستقراء النصوص الواردة في التقوى نجد أنها أطلقت على ثلاثة أشياء، وهي:

الأول: على ما في القلب من الإيمان والتعظيم والخشية، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وورد أن النبي ﷺ قال: «التقوى هاهنا»[1]، وأشار إلى صدره، وقال تعالى في تعداد صفات المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فالمقصود من تقوى القلب: الإيمان بالغيبيات، وتعظيم الله عز وجل ومحبته والخوف منه، واجتناب أمراض القلوب من الشرك والرياء والعجب والحقد والحسد.

الثاني: على عمل الجوارح؛ من الطاعات والقربات، واجتناب النواهي والمحرمات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣]، فذكرت الآية من صفة المتقين إقامة الصلاة والإنفاق، وهما من أعمال الجوارح، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وأما ورود التقوى بمعنى اجتناب المحرمات، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، حيث نهى عن مباشرة النساء أثناء الاعتكاف وعن الاقتراب من حدود الله، وذكر أنه الطريق الموصل إلى التقوى.

---

(١) التخريج السابق.

الثالث: على الطباع والأخلاق الحسنة، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله في أوصاف المتقين: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالعفو والوفاء بالعهد والصبر من حسن الخلق.

وعلىٰ ضوء هٰذه الآيات يمكننا أن نستنتج تعريفًا شاملًا للتقوىٰ، فنقول: «هي خضوع القلب وامتلاؤه بمحبة الله والخوف منه، بحيث ينشأ عنه انقياد الجوارح طاعةً لله».

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

إن التقوىٰ لها تعلق شديد بالصبر، فهما متلازمان لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، ولذٰلك جمع الله بينهما في كثير من المواضع؛ من ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

لأن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على الأوامر والطاعات، وصبر عن المعاصي والمخالفات، وصبر على الأقدار والمصائب، والعبد لا يصل إلىٰ حقيقة التقوىٰ إلا بامتلاك ما يكفي من الصبر للقيام بالواجبات والانتهاء عن المعاصي والشهوات التي هي الأصل الذي تقوم عليه التقوىٰ، ولذٰلك أمر الله بالصبر والمصابرة ثم التقوىٰ عقبها؛ لأن التقوىٰ تحتاج إلى الصبر، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فضل التقوىٰ وثمراتها

للتقوىٰ فضائل وثمرات كثيرة، نذكر منها:

١ . التقوىٰ سبب لرحمة الله:

حيث ذكر الله صفات من يستحق رحمته، وذكر أولهم المتقين؛ للدلالة علىٰ أهمية التقوىٰ في نيل رحمة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، قال عمر بن عبد العزيز ﷺ لرجل: «أوصيك بتقوى الله الذي لا يَقْبَل غيرَها، ولا يَرْحم إلا أهلَها»(١).

٢ . هي وصية الله لكل أمة:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فهي هدف عام بُعث من أجله الرسل.

عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِق الناس بخلق حسن»(٢).

٣ . الأتقياء أكرم الخلق عند الله:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٤ . المتقون هم أولياء الله:

قال تعالىٰ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٢٦) برقم: (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده (٩/ ٤٩٨٣) برقم: (٢١٧٥٠).

٥. التقوىٰ حصن الخائف وأمانه من كل ما يحذر:

قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]، وقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

٦. التقوىٰ سبب العون والنصرة والتأييد:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]. قال قتادة ﷺ: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغْلَب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يَضِلّ»[1].

٧. التقوىٰ سبب للرزق وتفريج الكروب وتيسير الأمور:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

٨. سبب قبول العمل:

فلا عبرة بالأعمال إن لم تصاحبها تقوى الله، قال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، هب أَنَّك جاهَدْتَ وثابرت جميعَ عُمرك في العِبادة، أليس ذٰلك كلُّه مُتَوقِّفًا على القَبول؟ وإلَّا كان هَباءً منثورًا.

٩. الرخاء الاقتصادي معلق بالتقوىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٣٩).

١٠. القرآن لا يهتدي بهديه إلا المتقون:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

١١. التقوىٰ تبعث في القلب نورًا وتُقَوِّي بصيرته فيميز بين الحق والباطل:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

١٢. السلامة من كيد الشيطان:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

١٣. النجاة من عذاب النار والفوز بالنعيم:

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

شروط التقوىٰ

إن التقوىٰ لا تؤتي ثمارها إلا إذا تحققت فيها عدة شروط، وهي:

الأول: أن يكون على خوفٍ وَوَجَلٍ من تقصير نفسه في تلك الطاعة، فيَتَّقي بأقصىٰ ما يقدر عليه عن جهات التقصير.

الثاني: أن يكون في غاية الاتقاء من أن يأتي بتلك الطاعة لغرضٍ سوىٰ طلب مرضاة الله تعالىٰ.

الثالث: أن يتقي أن يكون لغير الله فيه شِرْكة.

قال الإمام الرازي بعد ذكره لهٰذه الشروط: «وما أصعب رعاية هٰذه الشرائط»[1].

مراتب التقوىٰ

للتقوىٰ درجات ومراتب، ويمكن تقسيمها إلىٰ خمس مراتب، وهي[2]:

١. الانتقال من الكفر إلى الإيمان:

أن يتقي العبد الكفر، لأن به الخلود في النار، وهٰذه هي التقوى التي خاطب الله فيها الناس كافة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: ١]. وهٰذا مقام الإسلام.

٢. اتقاء المعاصي:

باجتناب الكبائر وترك الإصرار على الصغائر، مع المحافظة على الطاعات، وهي تقوى العامّة من الناس الذين هم مكلّفون بتحصيل هٰذه المرتبة، وإن لم يتحلّوا بها فهم في عداد الفاسقين.

٣. اتقاء الشبهات:

ويدخل فيها ترك الصغائر والمكروهات وكل ما فيه شبهة، وهو ما أشار إليه الحديث: «فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه»[3]، وهي تقوى الخواصّ من الناس الذين يتورّعون عن الشبهات، وهٰذا مقام الورع.

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١١/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

٤. اتقاء المباحات:

وهي تقوى خواصّ الخواصّ، فهو يترك ما يحلّ له من الملاذّ والشهوات، ويزهد في الدنيا فضلًا عن اقتحام الشبهات، وهو مقام الزهد، جاء في الحديث: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»(١). وقال الحسن: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام»(٢).

٥. اتقاء الواردات الصارفة:

أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ويتبتل إليه بكليته، ويُخْرِج حظوظَ الدنيا من قلبه، ويرعى حقوق الله بالالتفات إليه عما سواه، وهو مقام الإحسان الوارد في الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه»(٣).

طرق اكتساب التقوى

التقوى ملكة ينبع عنها سلوك، ولا تكون هذه الملكة إلا بتحقيق معانٍ معينة، وتزداد هذه الملكة بوسائل معينة، ومن الطرق التي تحصل بها:

١. معرفة حقيقة التقوى:

أصل التقوى وطريق الوصول إليها أن يعلم العبد ما يتقي؛ قال عون بن عبد الله: «إن من كمال التقوى أن تبتغي إلى ما علمت منها علم ما لم تعلم»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٢) برقم: (٢٦٥٥)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٩) برقم: (٧٩٩٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ والبيهقي في سننه (٥/ ٣٣٥) برقم: (١٠٩٢٩).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠).

(٤) المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ١٥٨).

وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس رحمهما الله قال: «كيف يكون متقيًا من لا يدري ما يتقي! ثم قال معروف الكرخي: إذا كنت لا تُحسن تتقي أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقي لَقِيَتْكَ امرأةٌ ولم تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقي وضعت سيفك علىٰ عاتقك»[1].

٢. استشعار نظر الله إليك:

إذا تيقن العبد أنه تحت نظر الله لا يخفىٰ منه شيء عليه حمله ذٰلك على التقوىٰ والخوف من ربه تعالىٰ، أوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبي من الأنبياء: «قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي، وتظهرونها لي! إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟»[2].

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خَلَوْتَ الدهرَ يومًا فلا تَقُلْ: ... خَلَوْتُ، ولٰكن قل: عليَّ رقيبُ
ولا تَحْسبنَّ الله يغفلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما نُخفي عليه يغيبُ[3]

٣. محاسبة النفس:

قال ميمون بن مهران ﷺ: «لا يكون العبد تقيًّا حتىٰ يكون أشدَّ محاسبةً لنفسه من الشريك لشريكه»[4].

وقال سهل: «من أراد أن تصح له التقوىٰ فليترك الذنوب كلها»[5].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٦٥).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٤٠٨).

(٣) الجامع لعلوم الإمام أحمد لأحمد بن حنبل (١٣/ ٢٣٤).

(٤) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٥٨٠).

(٥) الرسالة القشيرية (١/ ٢٢٨).

وتأَمُّل ما في الذنوب من الآلام والمصائب، وأن اللذة التي تحصل منها لا تدوم يقود إلى التقوىٰ؛ قال الشاعر:

تفنى اللذاذة ممن نال لذتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
تبقىٰ عواقب سوء من مغبّتها ... لا خير في لذة من بعدها النارُ

٤ . التفكر في خلق الله وآياته:

إن الكون وما فيه من عجيب الخلق والآيات الباهرات يدل علىٰ كمال قدرته تعالىٰ، ومن تفكَّر بهٰذا الصنع العجيب لا بد أن يخضع للخالق سبحانه ويستجيب لأوامره ويدعوه ذٰلك إلىٰ تقواه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وكذٰلك النظر والتفكر في خلق الناس، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، فالتفكر في أن الله هو المنعم علينا بنعمة الإيجاد من العدم وأنه خلقنا من نفس واحدة يوجب علينا أن نتقي الله تعالىٰ؛ لما في ذٰلك من الدليل علىٰ تمام النعمة وكمال القدرة.

٥ . الاجتهاد في الطاعة:

إذا اجتهد الإنسان في طاعة الله تعالىٰ فإن الله يكافئه علىٰ ذٰلك بزيادة الهداية والتقوىٰ، فيُعينه على القيام بما أمر به، ويفتح له أبوب الخير وييسر له من الطاعات ما لم يكن يسيرًا عليه من قبل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وبين الله أن أخذ أوامره وما جاء به رسوله ﷺ بالجد والعزيمة وتطبيقها واستذكارها موصل إلى التقوىٰ، فقال مخاطبًا بني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]. ومن الطاعات التي نص القرآن على أنها وسيلة للوصول إلى التقوى هي الصوم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالإكثار من الصوم طريق موصل للتقوى.

٦. قراءة القرآن وتدبر آيات الوعيد:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]. فقد أنزل الله القرآن عربيًّا لتفهمه العرب فيقفوا على إعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر، وفصّل فيه آيات الوعيد من أجل الوصول إلى التقوى، فمن قرأه قراءة المتدبر لا بد أن يتحقق بالتقوى، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

علامات التحقق بالتقوى

١. الشوق إلى الآخرة:

قال النصرآباذي: «من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]»[١]، وقال بعضهم: «من تحقق من التقوى هوّن الله على قلبه الإعراض عن الدنيا»[٢]. أما من تعلق بشهوات الدنيا وتغلغل حبها في قلبه فإنه يكره مفارقة الدنيا إلى الآخرة؛ روي أن رجلًا سأل أبا الدرداء رضي الله عنه: «ما بالنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم أخربتم آخرتكم،

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٢٨).

(٢) المصدر السابق.

وعمَّرتم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العُمران إلى الخراب»[1].

٢. اتباع الرسول والتسليم لأمره:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣]، وليس المقصود من الآية فقط خفض الصوت عنده، وإن كان مطلوبًا تأدُّبًا، بل خفض الصوت دليل السمع والطاعة؛ إذ لا يُعقل أن يخفض المرء صوته عنده ويخالف أمره ونهيه، وقد فهم الصحابة من الآية أن رفع الصوت عنده سبب الهلاك وحبوط العمل، فما بالك بأزيَد منه![2].

٣. تعظيم شعائر الله:

إن تعظيم شعائر الله وأوامره ومعالم دينه من أقوى الأدلة على تقوى القلب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وإنما سيق هذا الموضع من مواضع التقوى في موضوع الحج ومناسكه؛ لأن كثيرًا من أعمال الحج لا مدخل للتعليل العقلي فيها، وإنما تعتمد على ما وقر في القلب من الإيمان وما تمكن فيه من التقوى[3].

٤. كظم الغيظ والعفو عن الإساءة:

إن أقوى القوى تأثيرًا على النفس هي القوة الغاضبة، ولا يستطيع إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها إلا من امتلك عزيمة راسخة، وهذا هو كظم الغيظ الذي وصف الله به المتقين فقال: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. اغتاظت عائشة ﵂ على خادم لها، ثم رجعت إلى نفسها فقالت: «لله دَرُّ التقوى

---

(١) درر الحكم لأبي منصور الثعالبي (ص: ٢٦).

(٢) ينظر: التقوى في القرآن الكريم لمحمد الدبيسي (ص: ٦٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق (ص: ٧٢).

ما تركت لذي غيظٍ شفاء»[1]. ومن أخلاق المتقين خلق العفو عن الناس فيما أساؤوا به إليهم، وهي تكملة لصفة كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي علىٰ من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو دل علىٰ أن كظم الغيظ وصفٌ متأصل فيهم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فالعفو قرينة التقوىٰ، وكل من كان أقوىٰ في العفو كان أقوىٰ في التقوىٰ[2].

٥. سرعة التوبة:

العبد التقي ليس معصومًا من ارتكاب المعاصي، ولكنه ما إن يقع في المعصية حتىٰ يهرع فزعًا إلىٰ باب الله تائبًا مستغفرًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال تعالىٰ في سياق ذكره لأوصاف المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

٦. قيام الليل والاستغفار بالأسحار:

قال تعالىٰ في وصف المتقين: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]، وفي الحديث: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلىٰ ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنْهَاة للإثم»[3]. فالمتقون يكابدون العبادة في وقت الراحة، يأنسون بربهم ويناجونه ويرفعون إليه حوائجهم، فإذا آذن الليل بالانصرام وأصابهم التعب من القيام، جلسوا يستغفرون الله كأنهم أسلفوا الجرائم في ليلهم ولم يتفرغوا فيه للعبادة، وذلك يشير إلىٰ مزيد خشيتهم وعدم اغترارهم بعبادتهم.

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٥٢)؛ وينظر: بلاغات النساء لابن طيفور (ص: ١٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٤/ ٩١)؛ مفاتيح الغيب للرازي (٢٣/ ٣٥١).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٣١٢) برقم: (١١٣٥)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٣٠٨) برقم: (١١٦٠)، وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٥١٦) برقم: (٣٩٠٤).

٧. الإنفاق في سبيل الله:

الإنفاق من صفات المتقين التي قررتها كثير من الآيات التي تحدثت عن صفاتهم؛ منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[آل عمران: ١٣٤]، وبين كمال شفقتهم على المحتاجين فقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، فقد جعلوا جزءًا محدّدًا من أموالهم لإخوانهم المحرومين، وجعلوه حقًّا للمحتاجين ألزموا به أنفسهم، وليس مجرد صدقة، وفي إضافة الأموال إليهم ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ دليل علىٰ كرمهم وجودهم.

٨. تحرِّي العدل حتىٰ مع الأعداء:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. وعندما فتح النبي ﷺ خيبر عامل أهلها علىٰ أن يعملوا في الأرض ولهم شطر ما يخرج من الزرع والنخل، وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام يخرصها عليهم، ثم يُضَمِّنهم الشطر، قال: فشكَوا إلىٰ رسول الله ﷺ شِدَّة خَرْصِه، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله، أَتُطْعِموني السُّحْت! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض إلي من عِدَّتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه علىٰ أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[1].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٠١٦) برقم: (٢٥٩٥)؛ وابن حبان في صحيحه (١١/ ٦٠٧) برقم: (٥١٩٩)؛ والبيهقي في سننه الكبير (٦/ ١١٤) برقم: (١١٧٤٠)؛

٩. ترْك بعض الحلال خشية الوقوع في الحرام:

وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في الحديث: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتىٰ يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»(١).

آفات ترك التقوىٰ

١. التهاون في الصغائر:

الشيطان يهوِّن على الإنسان صغائر الذنوب، ويزين له ارتكابها بسبب أن الله يكفرها بمجرد اجتناب الكبائر كما ورد في الآية: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١]، وكذٰلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولا يزال الشيطان يهوّن عليه أمرها حتىٰ يُصِرّ عليها، فتنقلب إلىٰ كبيرة؛ جاء في الحديث: «إياكم ومحقِّرات الذنوب؛ فإنما مَثَل مُحَقَّرات الذنوب كقوم نزلوا بطن وادٍ، فجاء ذا بعودٍ، وجاء ذا بعودٍ، حتىٰ أنضجوا خبزتهم، وإن مُحَقِّرات الذنوب متىٰ يؤخذ بها صاحبها تُهْلِكه»(٢).

٢. الانشغال بالأعمال المفضولة عن الفاضلة:

إذا يئس الشيطان من إيقاع العبد في المخالفات والصغائر فإنه يدخل عليه من باب خفيٍّ، وهو أنه يزين له ويحسِّن في عينه الأعمال والطاعات المرجوحة لكي يشغله عما هو أفضل منها وأعظم نفعًا له وللأمة، وبذٰلك يبتعد عن الوصول إلى المراتب العالية. وقد مدح الله من يهتم ويطبق أحسن ما يسمع فقال:

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٢) برقم: (٢٦٥٥)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٩) برقم: (٧٩٩٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ والبيهقي في سننه (٥/ ٣٣٥) برقم: (١٠٩٢٩).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/ ٥٣٩٩) برقم: (٢٣٢٧٢)؛ والطبراني في الكبير (٦/ ١٦٥) برقم: (٥٨٧٢). وقال ابن حجر: إسناده حسن. ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٢٩).

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

٣. التعرض لغضب الله وعقابه:

جرت سنة الله تعالىٰ في خلقه أن يُنزل عذابه علىٰ كل مجتمع عصىٰ أوامره وكذّب رسله، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٨-٩]، وحذّر الله تعالىٰ عباده من حلول غضبه عليهم إذا خالفوا أوامره، فقال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وجعل عاقبة الطغيان والعصيان حلول غضبه علىٰ من تجاوز وطغىٰ، فقال: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١].

نماذج من سير المتقين

١. أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

هو الذي نزلت فيه الآية الكريمة: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٧-١٨]، قال الرازي: أجمع المفسرون منا علىٰ أن المراد منه أبو بكر رضي الله عنه، وسبب نزول الآية: كان أبو بكر يبتاع الضَّعَفة من العبيد فيُعتقهم، فقال له أبوه: يا بني، لو كنت تبتاع مَن يمنع ظهرك، قال: مَنْعَ ظهري أُريد، فنزلت فيه: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٧-١٨]. وقال عطاء عن ابن عباس: إن بلالًا لما أسلم جعلوا يعذبونه في الرَّمْضاء، وهو يقول: أَحَدٌ أحد، فمر به رسول الله ﷺ، فقال: «يُنجيك أحد أحد». ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر أن بلالًا يُعَذَّب في الله، فحمل أبو بكر رطلًا من ذهب، فابتاعه به، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك

إلا ليَدٍ كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢١][1].

٢. أبو بكر المسكي:

قيل لأبي بكر المسكي: إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام، فما سببه؟ فقال: والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولٰكن سبب ذٰلك أن امرأة احتالت عليّ حتىٰ أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب، وراودتني عن نفسي، فتحيرت في أمري، فضاقت بي الحِيَل، فقلت لها: إن لي حاجة إلى الطهارة، فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلىٰ بيت الراحة، ففعلت، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها علىٰ جميع جسمي، ثم رجعت إليها وأنا علىٰ تلك الحالة، فلما رأتني دهشت، ثم أمرت بإخراجي، فمضيت واغتسلت، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلًا يقول لي: فعلت ما لم يفعله أحد غيرك، لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة، فأصبحت والمسك يفوح مني، واستمر ذٰلك إلى الآن[2].

المقترحات العملية والتدريبات

١. صلاة التهجد أربع ركعات في الثلث الأخير من الليل، تطيل فيهما القراءة مع الإكثار من الدعاء في السجود، ودليل ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٧].

---

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي (ص: ٤٨٠).

(٢) المواعظ والمجالس لابن الجوزي (ص: ٢٢٤).



٢. كثرة الاستغفار في وقت السحر وهو آخر الليل قبل طلوع الفجر؛ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]. وقال نافع: «كان ابن عمر يحيي الليل صلاةً، ثم يقول: يا نافع، آسْحَرنا؟ فأقول: لا، فيُعاوِد الصلاة، ثم يسأل، فإذا قلت: نعم قعد يستغفر»[١].

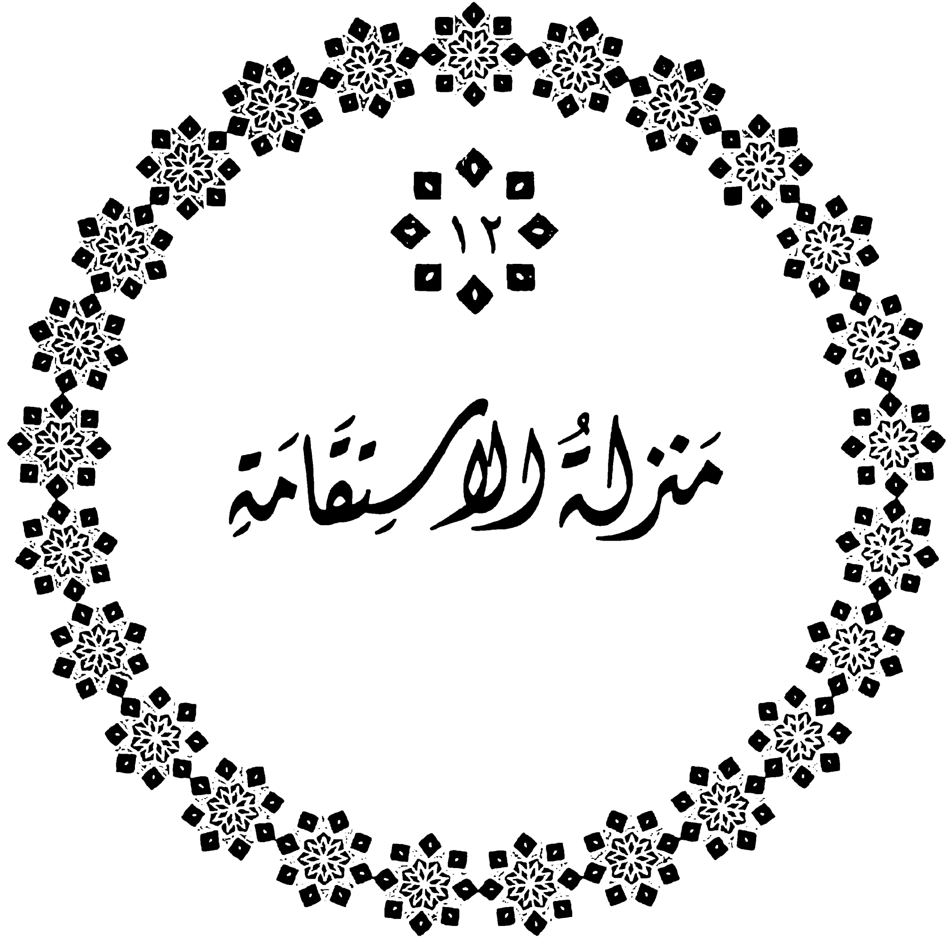
٣. تدريب النفس على ترك الشهوات بالمحافظة على صيام الإثنين والخميس مثلًا، ولو لفترة مؤقتة.

٤. إلزام النفس بترديد هذا الذكر بعدد معين صباحًا ومساءً: «لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».



(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤١١).



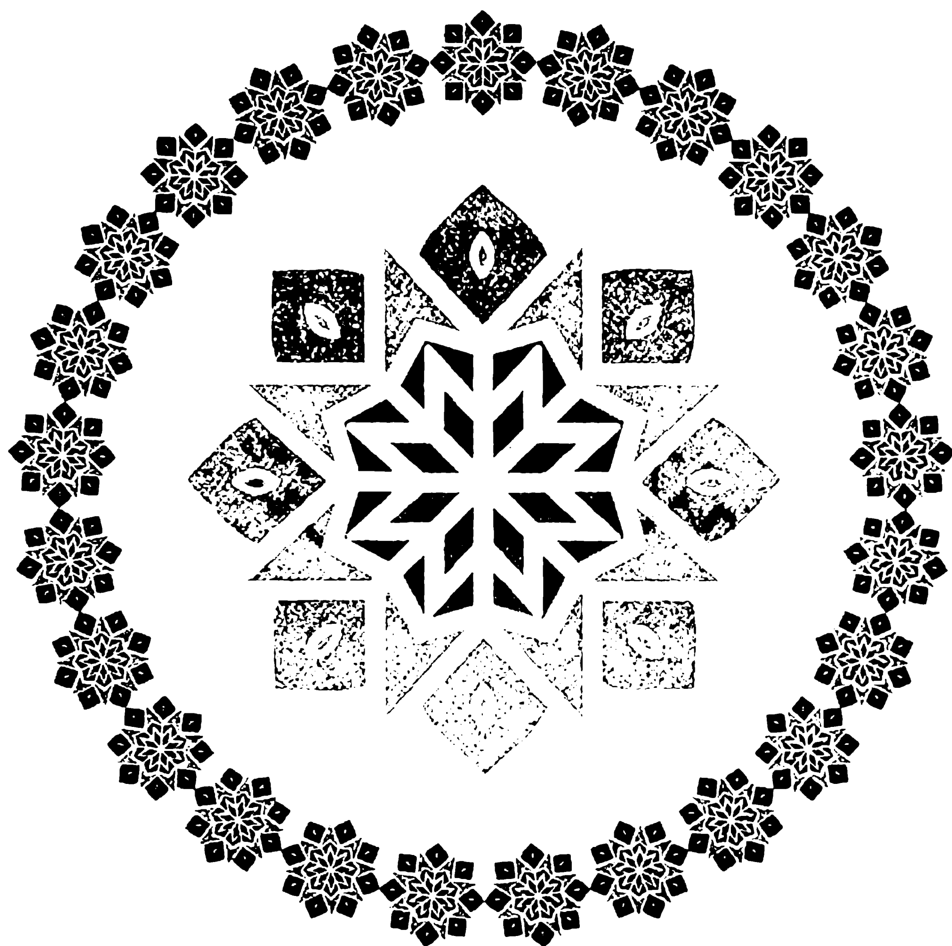


١٢

مَنزِلَةُ الاِستِقَامَةِ











منزلة الاستقامة



بين يدي الاستقامة

الاستقامة درجة بها كمال الأمور، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا في حالته ضاع سعيه وخاب جهده، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، ومن لم يكن مستقيمًا في صفته لم يرْتَقِ من مقامه إلىٰ غيره.

وردت كلمة الاستقامة بكافة تصرفاتها في القرآن الكريم في تسعة وخمسين موضعًا، انقسمت بين أربع وعشرين سورة مكية، وتسع سور مدنية، وجاءت علىٰ إحدىٰ عشر صيغة، وهٰذا القدر من التكرار للاستقامة يدل علىٰ أهميتها، والحث على السعي للتحقق بها، فهي تُرَسِّخ في نفس السالك معنى الاتباع، وتحفظ العبد من الزيغ والضلال.

وللاستقامة ظاهر وباطن؛ فأما ظاهرها: فتحلية الجوارح باتباع السنة، وتعديلها بقانون الشرع وتهذيبها بآدابه، وتطهيرها من جميع المخالفات والعصيان. وأما باطنها: فتحلية الباطن بأخلاق الشرع وآدابه من الإيمان والصدق واليقين وسائر صفات الكمال.

واستقامة الباطن أصل استقامة الظاهر؛ لأن الباطن هو المحرك للظاهر،

فما وقر في القلب لا بد أن يظهر أثره على الجوارح، ومتى استقام القلب علىٰ معرفة الله وخشيته ومحبته، استقامت الجوارح كلها علىٰ طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، وإن كان لاستقامة الظاهر أنوار تُقوِّي عزم الباطن وتؤثر في استنارته، فلكل منهما أثر على الآخر، إلا أن الأصل في ذٰلك هو الباطن.

والصراط المستقيم هو الشرع الإلهي، والإيمان بالله هو رأس هٰذا الطريق، وشِعَب الإيمان منازل هٰذا الطريق، وعلىٰ قدر ثبوت قدم العبد علىٰ هٰذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هٰذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المستقيم المنصوب علىٰ متن جهنم، وعلىٰ قدر سيره علىٰ هٰذا الصراط يكون سيره علىٰ ذٰلك الصراط، ولينظر العبد الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره علىٰ هٰذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذٰلك هي هناك، وما ربك بظلام للعبيد[(١)].

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي السَّدادُ والإصابةُ في النيَّات والأقوال والأعمال، وأصلها استقامة القلب على التوحيد، وهي زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد؛ لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه، والعمل بما يستدعيه.

وطريق الاستقامة لا تتقيد مراتبه ولا تنضبط، كما قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»، أي: لن تُحصوا طرق الاستقامة فإنها كثيرة، ولن تُطيقوا الإحاطةَ في الأعمال، ولٰكن قارِبُوا، فإنكم إن قارَبتُم كان أجدَرَ أن تدوموا علىٰ عملكم، ولهٰذا أَتبع هٰذا القول بقوله: «وخير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[(٢)]، وإذا لم تستطيعوا إحصاء طرق الاستقامة فخذوا الأفضل منها[(٣)].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٤).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٤٥) برقم: (٩٠)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ١٣٠) برقم: (٤٤٦)؛ وابن ماجه في سننه (١/ ١٨٤) برقم: (٢٩٢)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥٢٦٦) برقم: (٢٢٧٥٣).

(٣) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (١٦/ ٢٦٠).

حقيقة الاستقامة

الاستقامة في اللغة:

الاستقامة هي: اعتدال الشيء واستواؤه، واستقام: دام علىٰ حاله، وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام، قام فلان على الشيء: إذا ثبت عليه وتمسك به، والاستقامة: السداد ولزوم الصواب[١].

الاستقامة في الشرع:

الاستِقامة تتضمَّن عِدَّة أمور؛ الأول: إفراد المعبود بالإرادة مِن الأفعال والأقوال والنيَّات، وهو الإخلاص، الثاني: وقوع الأعمال وحصولها وَفْق الأمر الشرعي لا البدعي، وهو متابعة السُّنَّة، الثالث: العمل والاجتِهاد في الطاعة بقدْر وُسْعه، الرابع: الاقتِصاد في العمَل بين الغلوِّ والتفريط.

وقد عرفها الجرجاني بأنها: «الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور، من الطعام والشراب واللباس، وفي كل أمر ديني ودنيوي، وأن يجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي»[٢].

وعرفها ابن رجب فقال: «هي سلوك الصراط المستقيم -وهو الدين القيم- من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذٰلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذٰلك»[٣].

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٦٦)؛ تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي (ص: ٢٤٢)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ٢٦٢)؛ لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٥٠٠).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ١٩).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٥١٠).

وعرفها المالقي بأنها: «اعتدال السير علىٰ نهج السنة من غير تحريف، واستواء السلوك علىٰ سبيل الشرع من غير تبديل ولا تغيير»[1].

الملاحظ من عبارات العلماء في تعريف الاستقامة أنها وإن اختلفت في ألفاظها إلا أن مضمونها واحد، وهي تلتقي في: أنها كلمة جامعة تشمل الالتزام بخصال الدين من عبادات ومعاملات، واجتناب المخالفات. وأنها تعني الوسطية والاعتدال من غير إفراط ولا تفريط.

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

ارتباط الاستقامة باليقين والصبر:

هناك تلازم وعلاقة وثيقة بين اليقين والصبر والاستقامة، وعلىٰ حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور، قال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فمَن قَلَّ يقينه قَلَّ صبره، قال ابن مسعود ﷺ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»[2]، وذلك أن اليقين في موعود الله يدفع صاحبه إلى الصبر على التكاليف والبلاء، كما أنه لا يمكن للعبد أن يلازم الطريق المستقيم ويثبت عليه بدون صبر، فالصبر يورث الثبات والاستقامة؛ لأن الالتزام بالطاعات واجتناب المعاصي شاقٌّ على النفس، كذلك الاستقامة لا تتحقق إلا باليقين؛ قال لقمان لابنه ﷺ: «يا بني، العمل لا يستطاع إلا باليقين ، ومن يَضعف يقينه يضعف عمله»[3].

---

(١) بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ٢١٧).

(٢) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٤٥٦).

(٣) اليقين لابن أبي الدنيا (ص: ٤٥).

ارتباط الاستقامة بالتقوىٰ:

إن الاستقامة هي الطريق إلىٰ تحقيق التقوىٰ؛ كما قال تعالىٰ في الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فمن كان مستقيمًا يوشك أن يكون تقيًّا إن واظب على الاستقامة، فقسر النفس علىٰ سلوك طريق الحق والخير، والبعد عن الذنوب والمعاصي وصوارف الهوىٰ والشيطان، هو الطريق المؤدي لتحقيق التقوىٰ.

فضل الاستقامة وثمراتها

١. الاستقامة سببٌ للحياة الطيبة في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، أي: لا يَضلُّ ولا يشقىٰ في الدنيا ولا في الآخرة، وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وليس من شرط الحياة الطيبة الغنىٰ والمال الوفير، فقد تكون به وقد لا تكون بدونه؛ لأن هناك أشياء كثيرة غير المال تطيب بها الحياة؛ من ذلك: الاتصال بالله والثقة به، والاطمئنان إلىٰ رعايته وستره ورضاه، ومنها: الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن القلوب ومودّات القلوب، والفرح بالعمل الصالح وآثاره.

٢. مضاعفة الحسنات:

فالعبد إذا كان حسن الإسلام مستقيمًا على الشرع، فذلك من أسباب مضاعفة أجر الأعمال؛ ففي الحديث: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تُكتب بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتىٰ يلقى الله»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٧) برقم: (٤٢)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٨٢) برقم: (١٢٩).

٣. حفظ الله ومعونته:

يحفظ الله المستقيمَ في نفسه وأهله وماله، ويكون عونًا له في أوقات الشدة؛ جاء في الحديث: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»[١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، قال ابن كثير: «فيه دليل علىٰ أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلىٰ أعلىٰ درجة في الجنة لِتَقَرَّ عينه بهم»[٢]. قال سعيد بن جبير: «إني لَأَزيد في صلاتي من أجل ابني هٰذا»[٣].

٤. أهل الاستقامة لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، وعدٌ مِن الله وبشارة عظيمة لأهل الاستقامة بأن لهم الأمان؛ فلا يخافون، ولا يصيبهم همٌّ ولا حزنٌ في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يخاف الناس، ولٰكن المستقيم في أمنٍ وأمان؛ لأن قلبه قد امتلأ من الحبة الله وتعظيم شرعه، وعلم أن كل شيء بيده، لا يقع شيء إلا من بعد إذنه، فلا يُخيفه ما يُخيف الناس مِن مرضٍ وفقرٍ أو عدوّ، فهو يعلم أن ما أخطأه لم يكن لِيُصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه؛ لأن كل شيء بقدر الله. هٰذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن الله يقيه من هول يوم القيامة، فيكون آمِنًا من أهوال ذٰلك اليوم، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٤) برقم: (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٦٤٨) برقم: (٢٧١٣)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ٥٤١) برقم: (٦٣٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٨٦-١٨٧).

(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٤/ ٢٧٩).

٥. تبشرهم الملائكة عند الموت:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]؛ أي: يبشرونهم عند الموت قائلين: لا تخافوا مما تُقْدِمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلَّفْتموه من أمر الدنيا مِن ولدٍ وأهل؛ فإنا نخلفكم فيه، وبشارتهم تكون كذلك في القبر وحين البعث.

٦. الاستقامة سبيل الهداية:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ أي: الذين استقاموا على التوحيد ولم يشركوا بالله تعالى يحصل لهم الأمن والهداية والتوفيق، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]؛ أي: يهد قلبه ويوفقه لمعرفة الحق، ويُسدّد عمله في جميع شؤونه؛ قيل لأحمد بن حنبل في مرضه الذي مات فيه: «مَن نسألُ بعدك؟ فقال: سل عبد الوهاب -هو الوراق-، فقال له: إنه ليس له اتِّساعٌ في العلم! فقال أبو عبد الله: إنه رجل صالح، مِثْلُه يُوَفَّق لإصابة الحق»[1].

٧. أهل الاستقامة يحظون بدعوة الملائكة وسلام المؤمنين في كل صلاة:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وورد أن سلام المؤمنين في التحيات يصيب كل عبد صالح؛ ففي حديث التشهد الذي علمه النبي ﷺ لابن مسعود،

(١) الجامع العلوم الإمام أحمد الأحمد بن حنبل (١٨/ ١٣٩).

قال: «السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض»[1].

٨. حب العبادة والتلذذ بها:

إن العبد الذي يجاهد نفسه لِيَثْبُتَ علىٰ طريق الاستقامة يكافئه الله بعد استقامته بأحلىٰ هدية، وهي: تَذَوُّقه لِلَذّة الطاعة وحلاوة العبادة، قال ابن القيم: «ولا يزال العبد يُعاني الطاعة ويَألفها ويُحبها ويُؤثرها، حتىٰ يرسل الله ﷺ برحمته عليه الملائكة تَؤُزُّه إليها أَزًّا، وتُحَرضه عليها، وتُزعجه عن فراشه ومجلسه إليها»[2]. وورد عن بعض السلف أنه قال: «إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هٰذا الحال إنهم لَفي عيشٍ طيب»[3].

٩. دعوة صامتة وقدوة صالحة:

المستقيم علىٰ دين الله عز وجل يدعو الناس بسلوكه الحسن وسيرته الصالحة من دون أن يتكلم، كم من إنسان يراه فيتأثر بشكله، أو يسمع عنه فيتأثر بسيرته مع أهله، أو يتأثر مما يسمعه عن تصرفاته في حياته! فتكون حياته وسيرته دعوة صامته وقدوة مؤثرة في الناس، حتىٰ ولو لم يتكلم، فكم مِن إنسان دخل في الإسلام بسبب موقف أو حُسْن مُعاملة! وكم مِن مسلم تاب واستقام بسبب ذٰلك! بل إن التاريخ الإسلامي يؤكد لنا أن هناك دولًا وشعوبًا دخلت في دين الإسلام بسبب معاملة التجار المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٥١) برقم: (٦٢٣٠)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٣١) برقم (٤٠٢).

(٢) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٥٦).

(٣) الزهد والورع والعبادة لابن تيمية (ص: ٧٩).

١٠. جمال الصورة وبهاء الوجه:

إن ما في القلب ينعكس على صفحات الوجه، فكلما كثرت العبادة استنار الوجه وظهر على صاحبه السمت الحسن والخشوع؛ لأن للحسنة نورًا في القلب وضياءً في الوجه، قال ابن تيمية: «فكلما كثُر البرُّ والتقوى قَوِيَ الحُسن والجمال، وكلما قَوِيَ الإثم والعدوان قوي القُبْح والشَّيْن، حتى ينسخ ذلك ما كان للصورة من حُسْن وقُبْح، فكم مِمَّن لم تكن صورته حسنة ولكن من الأعمال الصالحة ما عَظُم به جماله وبهاؤه، حتى ظهر ذلك على صورته!»[١].

شروط الاستقامة

لكي يستقيم العبد حق الاستقامة لا بد أن يراعي بعض الشروط، ومن ذلك[٢]:

١. تعلم العلم النافع:

الاستقامة على الشيء فرع عن معرفته، وإن أي عمل لا يصح ولا يقبله الله عز وجل إلا بشرطين: أن يكون موافقًا للشرع، وأن يكون خالصًا لوجه الله، فلا بد للإنسان مِن تعَلُّم ما يجب عليه مما يُصَحِّح عبادَته، ومَن عَبَد الله عن غير علمٍ وهدى ضلَّ وأضلّ؛ كما ورد في الحديث عن آخر الزمان: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بِقَبْضِ العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناسُ رؤوسًا جُهّالًا، فسُئلوا فأفتَوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[٣].

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (١/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ٢٢١-٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣١) برقم: (١٠٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٠) برقم: (٢٦٧٣).

٢. التسليم للشرع في جميع ما ورد عنه:

فالمسلم يستسلم للشرع فيما صح عنه وينقذ أوامر الله تعالىٰ بانشراح صدر، حتىٰ وإن لم تظهر له الحكمة في بعض الأحكام؛ فإن الله قد شرع بعض الأحكام وحجب عن العقل معرفة الحكمة من شرعها ابتلاء واختبارًا، فحسب السالك أن يتلقىٰ أحكام الله بالقبول ويقول: سمعت وأطعت.

٣. التزام أحكام الشرع من غير إفراط ولا تفريط:

فإن الدين يُسْر، والتعمق فيه والانقطاع التامّ عن متطلبات الجسد رهبانيةٌ غير مشروعة، ولذٰلك ورد في الحديث: «إن الدين يُسر، ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبَه، فسَدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والرَّوْحة وشيءٍ مِن الدُّلْجة»[١]. وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «هلك الْمُتَنَطِّعون»، قالها ثلاثًا[٢]. ونهىٰ النبي ﷺ عن صوم الدهر وقيام كل الليل؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، ألم أُخْبَر أنّك تصوم النهار وتقوم الليل»؟ فقلت: بلىٰ يا رسول الله، قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقُم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لِعينك عليك حقًّا، وإن لِزوجك عليك حقًّا، وإن لِزَوْرِك عليك حقًّا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام؛ فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذٰلك صيام الدهر كله»[٣].

٤. قصد القربة وتَحَرّي الاتّباع في كل ما يأتي:

فلكي يتحقق العبد بالاستقامة لا بد أن تكون كل حركاته وسكناته مبنيةً علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٧) برقم: (٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٨) برقم: (٢٦٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٩) برقم: (١٩٧٥)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٦٢) برقم: (١١٥٩).

قصد التقرب إلى الله تعالىٰ، وعلىٰ موافقة النبي ﷺ في جميع تصرفاته؛ وذٰلك لأن الأشياء التي لا يصحبها قصد القربة لا أثر لها في تنوير الباطن، الذي يُمِدُّ العبدَ بطاقةٍ تُعينه على الاستقامة ولزوم الشريعة.

مراتب الاستقامة

الاستقامة علىٰ ثلاث درجات، وهي[1]:

١. الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد:

وذٰلك بأن يجتهد في السلوك بين طرفي الإفراط والجور على النفس، والتفريط بالتقصير والإضاعة، وأن يجتهد في متابعة السنة، فإنَّ الشيطان يَشَمُّ قلب العبد ويختبره؛ فإن رأىٰ فيه داعيةً للبدعة وإعراضًا عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأىٰ فيه حرصًا عليها وشدَّةَ طلبٍ لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حدِّ الاقتصاد فيها، قائلًا له: إنَّ هٰذا خيرٌ وطاعة، والزِّيادةُ والاجتهادُ فيها أولىٰ، فلا تفتر ولا تنم، فلا يزال يحثُّه ويحرِّضه حتَّىٰ يخرجه عن الاستقامة.

٢. استقامة الأحوال:

إذا استقامت الجوارح على الأعمال الظاهرة أثَّر ذٰلك على القلب وأحواله، فيشهد العبد بقلبه تفرُّد الله عز وجل في كل شيء، وأنه لولا معونة الله وتوفيقه لما وصل إلىٰ ما وصل إليه من الهداية، وأنه ليس له من الأمر شيء.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٧٣-٣٨٠).

٣. استقامةٌ بترك رؤية الاستقامة:

إذا شهد أن استقامته وثباته عليها بالله لا بنفسه فإنه يغيب بذلك عن رؤية استقامته؛ لأن رؤية الاستقامة تحجبه عن شهود حقيقة أن كل شيء بيد الله وتوفيقه.

طرق التحقق بالاستقامة

١. المحافظة على الصلاة:

إقامة الصلاة بشروطها وأركانها مع الخشوع واستحضار عظمة الله، والحرص على سننها وأوقاتها مع الجماعة في المسجد من أكثر ما يُعين على الاستقامة والثبات، ويَحفظ من الوقوع في المعاصي، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولذلك عندما أمر النبي ﷺ بالاستقامة أعقبها بقوله: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»؛ أي: من أفضل أعمالكم وأتمها دلالةً على الاستقامة الصلاة؛ لأن فيها الإقبال على الله تعالى والانصراف عما سواه؛ ومَن حَفِظ الصلاة فهو لِما سواها أحفظ، ومَن ضيعها فهو لِما سواها أضيع.

٢. الإكثار من النوافل:

كل أنواع النوافل مِن صلاة وصوم وصدقة وغيرها هي من أهم ما يحفظ به العبد دينَه، فهي أسوار تحيط بالفرائض، وعقبات أمام الشيطان تَحول بينه وبين المساس بالواجبات، ومَن حافظ على النوافل أحبه الله، ومَن أحبَّه الله رزقه الاستقامة في جميع جوارحه؛ كما في الحديث: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[1]. وفي حديث ربيعة بن كعب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

عندما قال للنبي ﷺ: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «فأَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود»[1].

٣. العمل بالعلم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]، فقد وعد الله مَن يستجيب لأمره بالثبات في الحياة الدنيا والآخرة، وحصول الأجر العظيم، ثم التوفيق والثبات على هذا الصراط المستقيم بسبب ما عملوه من الطاعة وحسن الانقياد.

٤. الإقبال على القرآن قراءة وتَدَبُّرًا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧-٢٨]، إن تدبر العبد للقرآن وما فيه من آيات الوعد والوعيد وقصص الغابرين وتدبُّر نِعَم الله وآلائه وغيرها، كل هذا يورث لِينًا في القلب، وانكسارًا للنفس، وخضوعًا ومحبة وتعظيمًا لله تعالى، ومن ثمّ يستقيم العبد على شرع مَن أحب وأجَلَّ وعَظَّم وخضع له، كما أن التفكر في آيات الله الكونية فيه تثبيت وترسيخ للعقيدة، ثم لا يلبث العبد أن ينحني لربه إجلالًا وتعظيمًا وحبًّا.

٥. الالتجاء إلى الله وكثرة الدعاء بإظهار الافتقار:

إن العبد يَضِلّ إن ظن أن له جهدًا في استقامته وعبادته، فلا استقامة ولا هداية إلا بتوفيق الله، لذلك ورد في الحديث: «ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»، قال: وكان رسول الله ﷺ، يقول:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٢) برقم: (٤٨٩).

«يا مقلب القلوب، ثبّت قلوبنا على دينك»[1]، فإن لم يُظهر العبد انكساره وضعفه، وإن لم يلتجئ إلى مولاه طالبًا منه الثبات ضل وزاغ، وكان من دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وفي الحديث المارّ: «استقيموا ولن تحصوا» ورد أن معنى: «ولن تحصوا»: لن تطيقوا؛ أي: لا تستطيعون أن تستقيموا بحولكم وقوتكم، ولا باجتهادكم واستطاعتكم، بل لن تطيقوه، وأحرى أن لا تطيقوه، وإن بذلتم مجهودكم فأنتم عاجزون عن أداء حق الله تعالى، صرفهم عن أوصافهم في رؤية الاستقامة منهم، ودلهم على الافتقار إلى الله تعالى في طلب الاستقامة[2].

٦. التوبة الاستغفار:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، أشار إلى أنه لا بد من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيُجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فمن حاد عن الطريق بارتكاب المعاصي وأراد أن يستقيم فالتوبة والاستغفار تُعيده إلى الطريق، قال ﷺ لمعاذ: «اتق الله حيثما كنت، وأتْبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها»[3].

٧. العناية بالقلب:

إن القلب هو المُوَجِّه للأعضاء، وهي له تابعة، فباستقامته تستقيم، وباعوجاجه تعْوَجّ؛ كما في الحديث: «ألَا وإنَّ في الجسد مُضغة، إذا صلحت صلح الجسد

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٢٢) برقم: (٩٤٣)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٥) برقم: (١٩٣٢)؛ والنسائي في الكبرى (٧/ ١٥٦) برقم: (٧٦٩١). وهو بلفظ قريب عند مسلم.

(٢) ينظر: بحر الفوائد للكلاباذي (ص: ٩٧).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٢٦) برقم: (١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٤) برقم: (١٧٨)؛ وأحمد في مسنده (٩/ ٥٩٨٣) برقم: (٢١٦٨٨).

كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألَا وهي القلب»[1]، وتحصل استقامة القلب بتنقيته من أمراض الحقد والحسد وحب الدنيا، وتحْلِيَته بالإيمان واليقين والصدق وحب الله عز وجل، جاء في الحديث: «لا يستقيم إيمان عبد حتىٰ يستقيم قلبه»[2]. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء، ولذٰلك كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»[3].

٨. ضبط اللسان:

اللسان ترجمان القلب والمعبر عنه، فمَن أراد الاستقامة عليه أن يحفظ لسانه من آفات الكذب والغيبة والنميمة، بل إن استقامة إيمان العبد واستقامة قلبه مرتبطان باستقامة لسانه، وهٰذا ما بينه الحديث: «لا يستقيم إيمانُ عبد حتىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيمُ قلبه حتىٰ يستقيم لسانه»[4]. وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، قال رسول الله ﷺ: «قل: ربي الله، ثم استقم»، قال: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف علي؟ قال: «هٰذا»، وأشار إلىٰ لسانه[5].

وعن أبي سعيد مرفوعًا وموقوفا: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تَكْفُر اللسان[6]، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٧٦٢) برقم: (١٣٢٤٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٣): «في إسناده علي بن مسعدة؛ وَثَّقه جماعة وضعّفه آخرون».

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٩) برقم: (٢١٤٠)، وقال: حسن.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٢١) برقم: (٩٤٢)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٣) برقم: (٧٩٦٩)؛ والنسائي في الكبرىٰ (١٠/ ٢٥٦)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢١٠) برقم: (٢٤١٠)، وقال: حسن صحيح.

(٦) معنىٰ «تكفر اللسان»: تذِلُّ وتخضع له. يُنظر: رياض الصالحين للنووي (ص: ٤٢٣)؛ لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٥٠).

وإن اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا»[1]. وحديث معاذ: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلىٰ يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: كف عليك هٰذا، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[2].

٩ . مجاهدة النفس:

النفس من طبعها التفلُّت والانطلاق، وهي ميَّالة إلى الكسل، أمَّارة بالسوء، تحتاج إلىٰ صبر وجهاد لتستقيم علىٰ طاعةَ الله وترتدع عن المعاصي، فإذا رُوِّضَت ذلَّتْ واستجابت إلىٰ ما تكره، وترويضها ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلىٰ مصابرة مستمرة وعزمٍ قويّ؛ لذلك قال محمد بن المنكدر: «كابدْتُ نفسي أربعين سنةً حتى استقامت»[3].

موانع الاستقامة وآفاتها

١ . الكفر بالله:

إن الشرك نقيض الاستقامة وأكبر موانعها، ودلت آيات كثيرة علىٰ أن الكفر من أهم أسباب البُعْد عن الاستقامة، فهو نقيض الإيمان الذي هو أول طريق الاستقامة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣-٧٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥١٢) برقم: (١٢٠٨٩)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٨) برقم: (٢٤٠٧)، وقال: هٰذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم: (٢٦١٦).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٤٧)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٣٧٨).

٢. عدم الحذر من مكايد الشيطان:

قد توعد الشيطان بني آدم وأخذ على نفسه عهدًا بإضلالهم وإبعادهم عن الاستقامة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فالشيطان سيعترض طريق الاستقامة ليصد عنه من يسلكه، ويَحولَ بينهم وبين الإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢]، وسبيل النجاة من كيده ومكره هو الالتجاء إلى الله بِبذلّ العبودية، فمن اعتصم بالله عصمه من كيده.

٣. الفرقة والاختلاف:

إن الاختلاف المنهي عنه هو الاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة والتقاتل والتكفير والتباغض، فهناك أناس لا هَمَّ لهم إلا تتبُّع زَلَّات العلماء، ثم إقامة النكير والتشهير، وبثّ ذٰلك وإعلانه أمام الملأ، مما يوقع في الاختلاف الشديد، ويصبح الناس طوائف شتى لا هَمَّ لِأحدهم إلا نصرة طائفته وحزبه، وتصبح قضايا الاجتهاد الظنية قضايا يقينية يَكفر مَن خالفهم بها، وهٰذا هو الزيغ والضلال بعينه، وهو من موانع سلوك طريق الاستقامة، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤. اتباع الجهلة:

قال تعالىٰ مخاطبًا موسىٰ وهارون ﷺ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، أي: لا تتبعانّ سبيل الجاهلين، وقد بين النبي ﷺ أن من أسباب الضلال والانحراف عن الصراط هو اتباع الناس للجهال، فقال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأفتَوا بغير علم، فضَلُّوا وأضلّوا»(١).

٥. التسويف:

إن التسويف داء خطير يستنزف طاقة العبد ووقته، ويفوّت عليه خيرًا كثيرًا، ولا يزال العبد يُسَوِّف حتىٰ ينقضي عمره، وربما لا ينتبه إلا بعد قوات الأوان، والموت يأتي بغتة، وقد تحدث أشياء وتتطور أمور في حياته أو غير ذٰلك تمنعه من الاستقامة، فالمبادرة هي الدواء لهٰذه الآفة، واستغلال الفرص والنفحات الإيمانية لإحداث ثورة في حياتك، ولا تستوي حسنات من استقام في أول عمره مع مَن استقام في آخره.

٦. أصدقاء السوء:

بعض الناس يريد الاستقامة لكن لديه أصدقاء سوء، كلما هَمَّ بالتوبة والاستقامة ثَنَوا عزْمَه، وزَيَّنوا له طريق الغواية، فإن لم يكن لديه عزم وإرادة قوية خسر حياته، وعَضَّ أصابع الندم حين لا ينفع الندم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣١) برقم: (١٠٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٠) برقم: (٢٦٧٣).

٧. الاستغراق في المباحات:

بعض الناس يستغرق في المباحات ويكثر منها حتىٰ يصعب عليه تركها، فهناك من يعوِّقه عن الاستقامة؛ مثلًا: كثرة النوم، أو الانشغال بمتابعة المباريات، أو ممارسة بعض الألعاب الرياضية، أو كثرة الجلوس والمخالطة مع الناس، إلىٰ غير ذٰلك مما لا نفع فيه، بل ربما وصل به الحال إلىٰ ترك واجبات وتضييع أمانات ومسؤوليات بسبب تلك الملهيات، فيستحوذ عليهم الشيطان والهوىٰ فينسيهم الله والدار الآخرة.

٨. اليأس والقُنُوط والخوف من عدم الاستقامة الكاملة:

عندما يُسْرف الإنسان علىٰ نفسه يظن أنّ الله لا يغفر له، وكلما فكَّر بالاستقامة قنَّطه الشيطان من رحمة الله، بل ربما يتوب ولٰكنه ما إن يعود إلىٰ بعض المخالفات التي كان يعملها حتىٰ يدخل عليه الشيطان من هٰذا الباب، ويصوِّر له أن هٰذا ليس استقامة وتوبة، وإنما هو تلاعب منه، وهٰذا ما يصرفه عن التفكير في الاستقامة، ويخيِّل إليه أن المستقيم ينبغي أن يكون معصومًا لا يقوم بأي مخالفة بعد استقامته، وهٰذا فهم خاطئ؛ فالإنسان ما دام علىٰ قيد الحياة فإنه يسير بين أعدىٰ عدوّين: النفس الأمّارة، والشيطان، وهو معرّضٌ للزلل، ولٰكن المؤمن سرعان ما يتوب، والله يحب التوّابين، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

٩. الإعجاب والغرور:

من مداخل الشيطان على الإنسان حين يلتزم طريق الهداية: أن يدخل عليه من باب الغرور والإعجاب بنفسه وعمله؛ لكي يُحبِط عمله ويُضِلَّه،

وهٰذا يوصله إلى احتقار الآخرين والنظر إلىٰ نفسه نظر الزُّهُوّ والرضا، ولم يَدْرِ أنّ ما هو عليه من الهداية والثبات إنما هو رحمة من الله قد ينزعها منه في أي لحظة، وأنه لولا رحمة الله به لكان يعْمَهُ في غِيّه وضلاله، وقد نبه النبي ﷺ إلىٰ هٰذا الأمر ليقطع دابر الغرور عن كل أحد يرىٰ نفسه مستقيمًا، فقال: «لن يُنْجِيَ أحدًا منكم عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة»[1].

١٠ . الطغيان والتجاوز:

لما أمر الله نبيه ﷺ بالاستقامة نهاه عن ضِدِّها، وهو الطغيان والتجاوز، فقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، والنهي عن التعدّي يشمل النهي عن الإفراط والتفريط؛ فمن فرَّط في الطاعات والعبادات وأضاعها فليس مستقيمًا، وكذٰلك من أفرط وزاد فيما لم يُشْرَع منها يُعدّ خارجًا عن حدِّ الاستقامة، وفي السُّنّة أحاديث حذَّرت من كلا الأمرين، وقد مر بعضها معنا؛ كما في حديث الثلاثة الذين أرادوا ترك بعض المباحات والتفرغ للعبادة.

نماذج من استقامة السابقين

١ . كعب بن مالك رضي الله عنه:

تَعَرَّض كعب بن مالك رضي الله عنه حين تَخَلَّف عن غزوة تبوك لثلاث ابتلاءات قاسية، وشعر أن الأرض علىٰ رحابتها قد ضاقت عليه، ولٰكنه ثبت لتلك الابتلاءات، وهٰذه الابتلاءات هي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٥) برقم: (٢٦٨٢).

أ. **الصدق وقول الحق رغم مرارته:**

حين رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك، جاء الذين تخلفوا عن الغزوة -وكانوا بضعة وثمانين رجلًا- يعتذرون ويأتون بالحجج التي تجعل رسول الله ﷺ يقبل منهم أعذارهم، بينما هو لم يعتذر كما اعتذر غيره، رغم أنه كان قادرًا علىٰ صنع ذٰلك، ولٰكنه قال لرسول الله ﷺ بكل صدق: والله ما كان لي عذر، والله ما كنتُ قطّ أقوىٰ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هٰذا فقد صدق، فقم حتىٰ يقضيَ الله فيك».

وهنا يأتي الابتلاء، يقول كعب: «وثار رجالٌ مِن بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علِمْنَاك أذْنَبتَ ذَنبًا قبل هٰذا، لقد عجزتَ في أن لا تكون اعتذرت إلىٰ رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخَلَّفون! فقد كان كافيكَ ذنبكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتىٰ أردتُّ أن أرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأُكَذِّبَ نفسي»، ولٰكنَّ الله ثَبَّتَه بعد أن علم أن هناك رجلان صالحان قد صدَقَا مِثلَه. ونجىٰ من الاختبار الأول.

ب. **مقاطعة المجتمع:**

يقول كعب: «ونهىٰ رسولُ الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيّها الثلاثة من بين مَن تَخَلَّف عنه، قال: فاجْتَنَبَنَا الناسُ، وقال: تَغيَّروا لنا، حتىٰ تنكَّرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف. فلَبِثْنا علىٰ ذٰلك خمسين ليلة، يقول: فكنت أخرج فأشهد الصلاةَ مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يُكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأُسَلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة،

فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بِرَدِّ السلام عليّ أم لا؟ حتىٰ إذا طال عليَّ ذٰلك مِن جَفْوة الناس، مَشَيتُ حتىٰ تَسَوَّرْتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأَحبُّ الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رَدَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أَنْشُدُك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنَشَدْتُه، فسكت، فعُدتُّ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتولَّيْتُ حتىٰ تَسَوَّرْتُ الجدار».

ورغم شدة وقسوة هٰذه المقاطعة إلا أن كعبًا ثبت، ونجا من الاختبار الثاني.

ج. إغراء من أحد الملوك:

أراد ملِك غسان أن يستغل الظروف الصعبة التي يمرُّ بها كعبٌ مِن مقاطعة المسلمين له، فأرسل إليه يطلب منه المجيء إليه، يقول كعب: «فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نِبْطِيٌّ مِن أنباط أهل الشام مِمَّن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يَدُلُّ علىٰ كعب بن مالك؟ فطَفِق الناس يُشيرون له، حتىٰ إذا جاءني دفع إليَّ كتابًا مِن ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد؛ فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يَجْعَلْك الله بدار هَوانٍ ولا مَضْيَعة، فالْحَق بنا نُوَاسِك. فقلت لما قرأتها: وهٰذا أيضًا مِن البلاء، فتيَمَّمْتُ بها التَّنُّور فسَجَرْتُه بها»(1).

رغم إغراء هٰذا العرض الذي هو بمثابة عرض لُجوء سياسي من ملك، وما سيناله عنده من تكريم وحفاوة، إلا أنه ثبت، حتىٰ أكرمه الله بالفرج والتوبة.

---

(1) حديث كعب بن مالك أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٣) برقم: (٤٤١٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٢٧٦٩).

٢. سعيد بن المسيب:

قال سعيد بن المسيب: «منذ أربعين سنة ما فاتتني تكبيرة الإحرام في جماعة»[١].

٣. الإمام البخاري:

يقول محمد بن إسماعيل البخاري: «إني أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أنِّي اغتبتُ أحدًا»[٢].

التدريبات والمقترحات العملية

١. اجعل لنفسك وِردًا يوميًّا في الصلاة على النبي ﷺ لا تنقص عنه، ولك أن تزيد عليه، خاصة في يوم الجمعة؛ وذلك لأنه ورد في الحديث: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»[٣].

وكيفية الصلاة عليه: أن تبدأ بقراءة الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فأَوْرِد هٰذا الخطاب علىٰ نفسك، ثم أجب: لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، وكل شيء منك وإليك، والعبد الضعيف يتوجه إليك بالإجلال والتعظيم والصلاة عليه والتسليم، ويقول بإمدادك ومِنَّتِك وبما وهبته مِن نعمتك: اللهم صلِّ علىٰ محمد..[٤].

(١) قوت القلوب لأبي طالب الكي (٢/ ١٦٨).

(٢) التاريخ الكبير للبخاري (١/ ١٤)؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٩٢) برقم: (٩١١)؛ والترمذي في جامعه (١/ ٤٩٥) برقم: (٤٨٤)، وقال: حسن غريب.

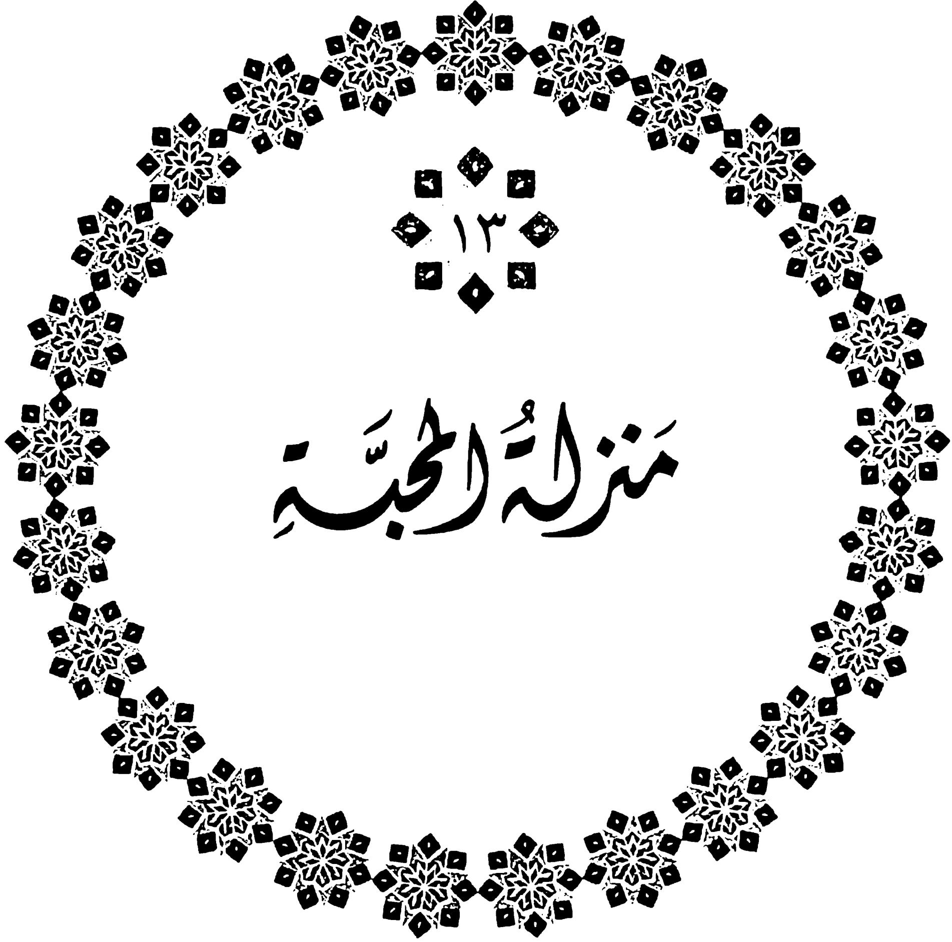
(٤) ينظر: بغية السالك إلىٰ أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ٢٢٨-٢٣٧).

٢. أكثِر من الاستغفار، وزد على السبعين؛ فالعبد لا يَنْفَكُّ عن الصغائر والتقصير، والاستغفار هو دواء ذٰلك، وليكن ذٰلك مع استحضار الفكر، ودفع الخواطر؛ لأن التأثير يكون علىٰ قدر تدبُّر المعنىٰ.

٣. اقرأ كتاب (الكبائر) للإمام الذهبي، ولَخِّصْه تحت عنوان: «القائمة السوداء»، وحاسب نفسك في ضوئها.





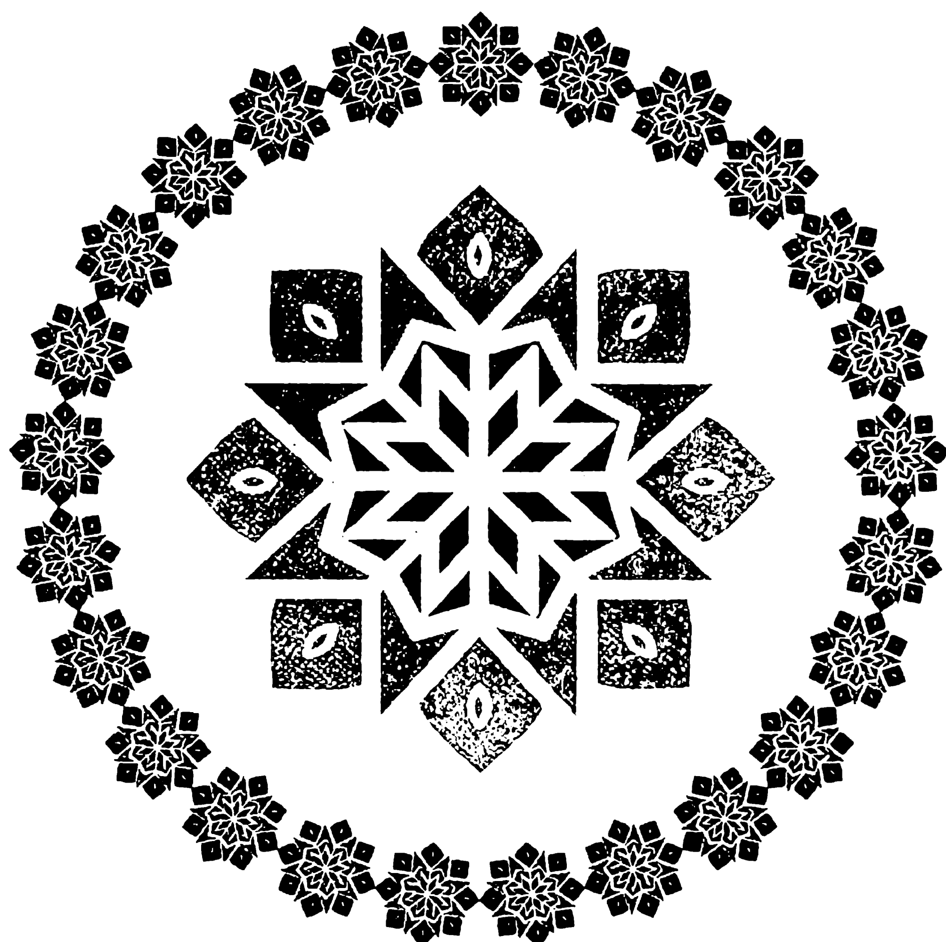


١٣

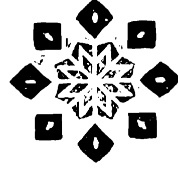
منزلة المحبّة











منزلة المحبة



بين يدي المحبة

المحبة المقصودة هنا هي محبة العبد لربه جل جلاله، ومحبته لرسول الله ﷺ؛ لأن محبة الرسول تابعة لمحبة مرسله، ومحبة الله عز وجل فرض على العبد؛ والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فتوعدهم الله عز وجل على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله، والوعيد لا يقع إلا على فرض لازم وحتم واجب كما يقول ابن سُريج(١).

وفي الصحيحين عن أنس: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أَحَبّ إِلَيْهِ من والده وولده والناس أجمعين»(٢). فإذا كان لا يحصل الإيمان إلا بتقديم محبة الرسول على الأنفس والأولاد والآباء والخلق كلهم، فما الظن بمحبة الله عز وجل(٣)؟!

(١) ينظر: طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (١/ ١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩) برقم: (٤٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن رجب لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٩٩).

ومحبة الله ورسوله تستدعي محبة المؤمنين الطائعين ومحبة ما يحبه الله ورسوله من الإيمان والعمل الصالح وتوابع ذٰلك، وبُغض ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والمعاصي.

إن نشوء محبة الله ونماءها في قلب العبد يسبقها اصطفاء خاص، والشعور بحب الله ليس متاحًا لكل إنسان، إنه سموٌّ يتخير الله له من يشاء، ولذٰلك ختمت الآية في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، والله عز وجل يعطي من تعرّض لعطائه، ويضع الخير في الأيدي الممدودة إليه، أما من أدبر وتولىٰ فلا شيء له إلا الطرد والهوان.

والمفروض أن حب المسلم لربه أربىٰ من أي عاطفة أخرىٰ عند أي إنسان، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومقتضىٰ حب الله عز وجل أن يطيع الإنسان أمره ويدع نهيه، ويحرص علىٰ رضاه، وكلما ربت هٰذه العاطفة فعل الإنسان الكثير لله دون أن يحس تعبًا؛ لأن ما غمر فؤاده من شعور يُهَوِّن عليه المشاقّ، ودعوى الحب مع التفريط في الحقوق ومع الاستهانة باتباع الرسول دعوىٰ منكرة، فإن من أحب الله تأسّىٰ برسوله، واستظل بلوائه، واقتفىٰ في الدقيق والجليل أثره، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فالمحب ينفذ ما يطلبه منه حبيبه، بل هو يتشهىٰ أمرًا منه ليسارع إلىٰ تأديته بشوق ورغبة[1].

---

(١) ينظر: الجانب العاطفي من الإسلام لمحمد الغزالي (ص: ٤٧-٥٠).

حقيقة المحبة

المحبة في اللغة:

المحبة هي الاسم من الحب، وهي تدلّ على اللّزوم والثّبات، واشتقاق الحبّ والمحبّة من أحبّه إذا لزمه، والمحب هو البعير الذي يلزم مكانه، فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه(١). والمحبة اسم لصفاء المودة؛ لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان.

المحبة في الشرع:

قال بعضهم: «الحب كامنٌ في الفؤاد كالنار في الزناد، إن قدحته أوْرىٰ(٢)، وإن تركته توارىٰ، فهو ألطف من أن تدركه عبارة، وأدق من أن تتناوله إشارة، يُستدل عليه بآثاره، ويعرف وجوده بأنواره»(٣).

وعرفها القشيري بقوله: «غليان القلب وثورانه عند العطش والاهتياج إلىٰ لقاء المحبوب»(٤).

وقال ابن القيم: «لا تُحَدُّ المحبّة بحدٍّ أوضحَ منها؛ فالحدود لا تزيدها إلّا خفاءً وجفاءً، فحدُّها وجودها، ولا تُوصَف المحبّة بوصفٍ أظهر من المحبّة»(٥).

وجرت مسألة في المحبة فتكلم فيها الشيوخ، وكان الجنيد أصغرهم سِنًّا،

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢٦)؛ الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٦).

(٢) أورىٰ: ظهر وخرج، من قولهم: أوريت النّار إذا كانت خامدةً فأجَّجْتها. ينظر: العين للخليل بن أحمد (٨/ ٣٠٤).

(٣) البحور الزاخرة في علوم الآخرة لمحمد بن أحمد السفاريني (٣/ ١٥٤٧).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٦).

(٥) مدراج السالكين لابن القيم (٣/ ٣٦٩).

فقالوا: هاتِ ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع لله. فبكىٰ الشيوخ وقالوا: ما علىٰ هٰذا مزيد، جبرك الله تعالىٰ يا تاج العارفين»[1].

فضل المحبة وثمراتها

١. المحب يكفيه العمل القليل:

عن أنس أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعدَدْتَ لها»؟ قال: ما أعددتُ لها من كثيرِ صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أنت مع من أحببت»[2].

قال سمنون: «ذهب المحبون لله تعالىٰ بشرف الدنيا والآخرة؛ لأن النبي ﷺ قال: المرء مع من أحب، فهم مع الله تعالىٰ»[3].

٢. المحبة تتصاغر أمامها المعاصي:

المحب لا يعني أنه لا يعصي، لأن النفس تضعف أمام بعض المغريات، ولٰكن لعظم المحبة فإن الذنوب تتضاءل أمامها، وإذا وقع المحب في المعصية دفعته المحبة إلىٰ سرعة التوبة والندم، ورد أن رجلًا علىٰ عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقّب حمارًا، وكان يُضحِك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٤٠) برقم: (٦١٧١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٤٢) برقم: (٢٦٣٩).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٨).

قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا، فأَمَر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنه، ما أكثر ما يؤتىٰ به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت، إنه يحب الله ورسوله»(١). وفي رواية: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله»(٢).

٣. تَذَوُّق حلاوة الإيمان:

فالمحبة تورث استلذاذَ الطاعات وتحَمُّل المشاقّ، ففي الحديث: «ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٣).

٤. محبة أهل السماء والأرض:

إن الله عز وجل إذا أحب عبدًا أحبه أهل السماء والأرض، ففي الحديث الصحيح: «إذا أحب الله عبدًا نادىٰ جبريل: إن الله يحب فلانًا فأَحِبَّه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض»(٤).

فهٰذا أثر محبة الله للعبد، وهو بالضرورة من آثار محبة العبد لربه أيضًا؛ إذ لا يمكن أن يحب الله عبدًا ثم لا يزرع في قلبه محبته. قال يحيى بن معاذ: «علىٰ قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلىٰ قدر حبك لله يحبك الخلق»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٥٨) برقم: (٦٧٨٠).
(٢) أخرجه البزار في مسنده (١/ ٣٩٣) برقم: (٢٦٩).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٨) برقم: (٤٣).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٤) برقم: (٦٠٤٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٤٠) برقم: (٢٦٣٧).
(٥) الفوائد والأخبار لابن حمكان (ص: ١٤٩).

٥. تورث سرور القلب وتُذهب عنه الحزن:

فإن من أحبَّ الله عز وجل انقشعتْ عنه سحائبُ الظلمات، وانكشفتْ عن قلبه الهمومُ والغمومُ والأحزان، وأصبح قلبه عامرًا بالسرور والأفراح، فإنَّه لا حزن مع الله أبدًا، ولهذا قال الله حكاية عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فدلَّ على أنَّه لا حزنَ مع الله، وأنَّ من كان الله معه فما له وللحزن؟! وإنَّما الحزن كلّ الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له، فعلى أيّ شيءٍ يحزَن؟ ومن فاته الله، فبأيّ شيءٍ يفرح(١)؟!

مراتب المحبة

إن المحبة ليست على مرتبة واحدة، وإنما تتفاوت بحسب قوة الإيمان، فمن قوي إيمانه كانت محبته أبلغ، والمحبة إذا كانت عن المعرفة فإنّ في المعرفة عموم وخصوص؛ فلخصوص العارفين خاصة المحبة، ولعمومهم عموم المحبة.

قال بعض العلماء: «إنّ ظاهر القلب محل الإسلام، وإن باطنه مكان الإيمان، فمن ههنا تفاوت المحبون في المحبة؛ لفضل الإيمان على الإسلام، وفضل الباطن على الظاهر»(٢).

فيمكن أن نقسم المحبة إلى درجتين(٣):

(١) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٦١٠).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٨٥).
(٣) ينظر: استنشاق نسيم الأُنس من نفحات رياض القدس لابن رجب الحنبلي (٣/ ٣٠١).

الدرجة الأولىٰ: درجة المقتصدين أصحاب اليمين، وهي درجة الفرض اللازم الذي لا بد منه لتمام الإيمان، وذٰلك بأن يحب الله سبحانه محبة توجب له محبة ما فرض الله عليه، وبُغْضَ ما حرمه عليه، ومحبة رسوله ﷺ، والرضا بما بلغه عن الله من الدين، وأن يتلقىٰ ذٰلك بالرضا والتسليم، ومحبة الأنبياء والرسل والمتبعين لهم بإحسان جملة وعمومًا، وبُغض الكفار والفجار جملة وعمومًا. ومن أَخَلَّ بشيء من ذٰلك فقد نقص من إيمانه الواجب بحسب ذٰلك.

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين، وهي أن ترتقي المحبة إلىٰ ما يحبه الله من نوافل الطاعات، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات، وإلى الرضا بما يقدره ويقضيه مما يؤلم النفوس من المصائب. وهٰذا فضل مستحب مندوب إليه، وفي الحديث: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه»(١).

ومما يلتحق بهٰذه الدرجة تقديم محبة الرسول ﷺ على النفوس والأهلين، فإن ذٰلك من كمال الإيمان؛ ففي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٢).

وفي حديث عمر حين قال: يا رسول الله، لَأنت أحب إلي من كل شيء، إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحبَّ إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لَأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩) برقم: (٤٤).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٩) برقم: (٦٦٣٢).

طرق اكتساب المحبة

١. المعرفة طريق المحبة:

أصل المحبة هو معرفة الله عز وجل، وكلما ازدادت المعرفة بالله ازداد العبدُ له حبًّا وإجلالًا وخشية، والمعرفة المؤثرة النافعة ليست التي تخاطب العقل فقط، بل التي تخاطب العقل والقلب معًا، فتشكل مقامًا إيمانيًّا مستقرًّا في القلب يظهر أثره في السلوك والأعمال، قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]، فالطريق الأساسي لرحلة المحبة يبدأ من بوابة المعرفة الحقة بالله عز وجل، ومن أعظم ما يساعد علىٰ ذٰلك: التأمل في آيات الله المتلوَّة والمرئية في النفس وفي الكون، فمن تدبر كتاب الله، وتفَهَّم ما فيه من أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ، وتأمل في مخلوقات الله تعالىٰ وما فيها من الآيات الدالة علىٰ حكمة الله وقدرته سينال قدرًا كبيرًا من المعرفة بالله تعالىٰ.

والنفس الإنسانية تبهرها العظمة ويعجبها العظماء، ويسرها الإقبال عليهم والتودد إليهم والتنويه بآثارهم، وكم من عبقري لم نر شخصه طوينا القلوب علىٰ محبته والحماس له لأن أبصارنا تعلقت بمواهبه الجليلة، ففعلت صورته الباطنة بنا ما تفعله صور الجمال الحسي بألباب العشاق[(١)]!

٢. التفكر في النِّعَم وربطها بالمُنْعِم:

إن التفكر في النعم التي تحيط بنا من كل جانب وربطها بالمنعم له دور كبير في استثارة العقل، وتأجيج مشاعر الامتنان لله عز وجل، فالله هو المحسن المتفضل،

(١) ينظر: الجانب العاطفي من الإسلام لمحمد الغزالي (ص: ٢٥٤).

وهو ولي كل نعمة، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. ومن طبيعة الإنسان أن مشاعر الحب داخله تتوجه لمن يُعطيه ويُحسن إليه، وكلما ازداد العطاء ازداد الحب، خاصة إذا ما كان العطاء بلا مقابل، يقول أبو سليمان الواسطي: «ذكر النِّعَم يورث المحبة»[(١)].

ولقد كان من شأن الصحابة تذاكر نِعَم الله عليهم؛ ففي الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم»؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذاك»؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «أمَا إني لم أستحلِفْكم تُهمةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»[(٢)].

وجلس الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: «أنعم الله علينا في كذا، فعل بنا كذا، فعل بنا كذا»[(٣)].

إلا أن الناس قد ألِفت هذه النِّعَم فلم تلتفت إلى المنعِم، وإذا أردت أن تكتشف عظمة هذه النِّعَم فاذهب إلى المشافي وزُر أصحاب البلاء، أو اذهب إلى بلاد فقد أهلها الأمن يخبرك أهلها عن عظمة نعمة الأمن. في الحديث: «أَحبُّوا الله لما يغذوكم بِهِ من نعمه»[(٤)].

---

(١) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي (ص: ١٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧٢) برقم: (٢٧٠١).

(٣) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٤١).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٦/ ١٢٦) برقم: (٤١٦٧)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ١٤٩) برقم: (٤٧٤١)؛ والطبراني في الكبير (٣/ ٤٦) برقم: (٢٦٣٧).

٣. التفكر في عظيم فضل الله عليك:

إن أعظم فضل أكرمك الله به هو أن جعلك من المسلمين، واختصّك من بين كثير من عباده بأن حبّب إليك طاعته وشرح صدرك لذٰلك، وكرّه إليك طرق الضلال، وهٰذا كله ليس لك يدٌ فيه، إنما هو محض فضلٍ من الله عز وجل، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]؟ إن كل طاعة وعمل برٍّ قمتَ به كان الله سببًا في هدايتك إليه، فلولا توفيق الله لك إلىٰ ذٰلك لصرَفَتْك المشاغل عن القيام به.

ثم تذكّر أن الله عز وجل هو الذي صرفك عن كثير من المعاصي والآثام التي يغرق بها كثير من أقرانك، وكل هٰذه المعاصي لا يمنعك من القيام بها سوىٰ ربك، وكان من الممكن أن تقوم بها لو لم يصرفها الله عنك بمنّه وفضله، ألم تسمع إلىٰ قول إبراهيم وهو يدعو ربه بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]؟ وإلىٰ قول يوسف ﷺ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]؟

٤. التفكر في شدة حب الله لعباده:

من مظاهر حب الله لعباده ما شرع من الأحكام التي فيها صلاح الدنيا قبل الآخرة، ولو تأملنا تلك التكاليف لوجدنا لطف الله ورحمته فيها ظاهرة من خلال التخفيف والتيسير؛ يطالبنا بالصوم ثم يخفف عن المريض والمسافر، ويحرّم علينا المواصلة فيه، ويأمرنا بتعجيل الفطر، ويستحب لنا السحور لما فيه من الإعانة، وينهانا أن نشق علىٰ أنفسنا في العبادات رحمة بنا، وأحل لنا التمتع بالطيبات، وجعل العزوف عنها خروجًا عن هدي الإسلام، يجازينا علىٰ قليل الأعمال عظيم الأجر؛ حيث دخل رجل الجنة لأنه نحّىٰ عن الطريق غصن شوك كان يؤذي الناس، وجازانا علىٰ أعمال الحسنات بالمضاعفة، بينما السيئة تكتب

بمثلها، وخفف فرض الصلاة من خمسين إلىٰ خمس ولٰكن بأجر خمسين، أظهر لنا فرحه بتوبة العبد بأشد ما يفرح به إنسان، وذكر لنا مسارعته في التقرب إلينا بأضعاف سرعتنا في سيرنا إليه، «من تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقرَّبت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1]، وأحلّ رضاه على العبد بعد أن يتمتع برزق الله من مأكل ومشرب بقول: الحمد لله؛ في الحديث: «إن الله ليرضىٰ عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[2]، ويجازينا على القليل الأجر الكبير، فركعتان من الضحىٰ أجرها يكافئ ٣٦٠ صدقة، وأذكار قليلة أجرها غفران الذنوب ولو كانت مثل زبد البحر، بل إن البلاء والمصائب مع ما فيها من ألم إلا أن فيها تكفيرًا للسيئات، حتىٰ إن أهل العافية في الآخرة يودون لو أن جلودهم قرضت في الدنيا بالمقاريض لما يرون من عطاء أهل البلاء، ولما في البلاء من تذكر الآخرة وعدم التعلق بالدنيا وبيان حقيقتها الزائلة. هٰذا غيض من فيض من نعم الله التي لا تنتهي، ألا يستدعي التفكر في كل ذٰلك أن يسري حب ربنا في عروقنا!

٥. رحلات الاعتبار:

والمقصد من رحلات الاعتبار هو الذهاب إلى الأماكن التي يتواجد فيها أهل البلاء؛ كالمستشفيات والملاجئ، ودور الأيتام وأصحاب الاحتياجات الخاصة، فهٰذه الرحلات لها دور كبير في إدراك حجم النعم العظيمة التي أمدنا الله بها وأغرقنا فيها، وكذٰلك زيارة السجون لنعرف قيمة نعمة الحرية.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٦٢) برقم: (٢٦٧٥).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٨٧) برقم: (٢٧٣٤).

تخيل نفسك وأنت تشاهد الأخبار مكان أصحاب المجاعات والزلازل والحروب والنكبات، ثم ردد: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك[1].

٦. حَمْد الله عند ورود النِّعَم وكثرة ذكره:

حمد الله باللسان عمل صالح يحبه الله عز وجل، ولكي يؤتي هذا الذكر ثماره المرجوة في تنمية المحبة لله في القلب فلنجتهد في مواطأة القلب اللسان وقت الذكر، والطريقة الميسرة لذلك أن نستفيد من الأوقات التي تُسْتَثار فيها مشاعر الحب لله عز وجل؛ كوقت تذَكُّر نِعَمِه المختلفة، وجوانب رحمته ولطفه وشفقته بعباده، وعند رؤية أهل البلاء والنقص[2].

قال إبراهيم بن الجنيد: «كان يقال: من علامة المحبة لله: دوام الذكر بالقلب واللسان، وقَلَّ ما وَلِع المرء بذكر الله عز وجل إلا أفاد منه حب الله عز وجل»[3].

٧. مناجاة الله بالنِّعَم:

من الأعمال الصالحة التي تورث المحبة والقرب من الله: مناجاته سبحانه بذكر نعمه التي أنعم بها علينا، كما فعل إبراهيم ﵇ في مناجاته لربه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وأفضل أوقات المناجاة على الإطلاق ذلك الوقت الذي يجد فيه المرء قلبه حاضرًا مع ربه، وأكثر ما يحصل ذلك في وقت السحر، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يثني على الله بتعداد نعمه ومناجاته بتلك النعم في جوف الليل،

---

(١) ينظر: كيف نحب الله ونشتاق إليه لمجدي الهلالي (ص: ١٠٩).

(٢) ينظر: المرجع السابق (ص: ١١٠).

(٣) المحبة لأبي إسحاق الختلي (١٨/ ٥).

عن ابن عباس ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»[1].

٨. الإلحاح على الله بأن يرزقنا حبه:

عندما يتوجه العبد إلىٰ ربه طالبًا أن يرزقه محبته، ويلحّ علىٰ ذٰلك فلا يمكن لله أن يخيبه في دعائه؛ لأن الله يفرح بتوبة عبده، فكيف لا يجيب من يطلب أن يرزقه محبته! وقد ورد أن داود كان يدعو الله بذٰلك، ففي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «كان من دعاء داود يقول: اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»[2].

علامات التحقق بالمحبة

إن العبد إذا أحب مولاه عز وجل أكثر من ذكره، واستوحش مما سواه، ورغب في الخلوة به ومناجاته، وسارع في طاعته، واشتاق إلىٰ لقائه، وأصابته الغير من انتهاك محارمه فيغضب من أجله. ولٰكن قد لا يشعر العبد بكل هٰذه العلامات،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٤) برقم: (٧٤٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٧٢) برقم: (٣٨٣٦)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٣) برقم: (٣٦٤٢)، وزاد فيه: وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكر داود وحدث عنه قال: «كان أعبد البشر». وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وذلك لأن درجة الحب لم تسيطر على مشاعره، وهناك مَحابُّ أخرى تشوش عليه وتنازعه المكان، كحب المال والأولاد والزوجة، فإن لم يكن حب الله أكبر مما سواه فلن تظهر هذه العلامات، وهذا ما أكده رسول الله ﷺ بقوله: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». فلكي يجد المؤمن حلاوة الإيمان لا بد أن تكون مساحة حب الله في قلبه أكبر من مساحة حبه لما سواه(١).

ومن علامات حب العبد لربه ما يلي:

١ . المبادرة إلى الطاعة والتلذذ بها:

إن المحب يجد خفة في نفسه تجاه الطاعات والقربات، فيسهل عليه كل جهد في طاعة ربه، وتفنى منه القوى وهو لا يرى أنه وفَّى بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة، قال مالك بن دينار: «إن القلب المحب لله يُحِبّ النَّصَب لله»(٢).

فالمحب يقبِل على محبوبه بسعادة، ويطيع أوامره برضا، يحركه ما حرّك موسى ﵇ عندما قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، ويجد من اللذة في ذلك ما لا يمكن تخيُّله، قال بعض الشيوخ: «لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب»(٣). وقال سيد المحبين عليه الصلاة والسلام: «وجُعِلَت قرة عيني في الصلاة»(٤).

---

(١) ينظر: كيف نحب الله ونشتاق إليه لمجدي الهلالي (ص: ٣-٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٦٣).

(٣) الزهد والورع والعبادة لابن تيمية (ص: ٧٩).

(٤) أخرجه النسائي في سننه (١/ ٧٧٩) برقم: (٣٩٥٠)؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٧٦٤) برقم: (١٣٢٥٧)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ١٦٠) برقم: (٢٦٩١).

٢. ترك المخالفة:

فيُؤْثر ما أحبه الله تعالىٰ علىٰ ما تحبه نفسه، ويلزم مشاقَّ العمل ويجتنب اتباع الهوىٰ، فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس علىٰ محبة الله ورسوله، قال يحيى بن معاذ: «ليس بصادق من ادعىٰ محبته ولم يحفظ حدوده»(١). وقال أيضًا: «علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات». فالمحبة تستبين بترك المخالفة، ولا تبين بكثرة الأعمال، كما قيل: أعمال البرّ يعملها البرّ والفاجر، والمعاصي لا يتركها إلا صدِّيق(٢).

وسئل ذو النون: متىٰ أُحبّ ربي؟ قال: «إذا كان ما يبغضه عندك أَمَرُّ من الصبر»(٣).

٣. الرضا بالقضاء:

المؤمن إذا أحب الله حبًّا صادقًا أحب كل ما يرد عليه منه سبحانه، فالله لا يريد بعباده إلا الخير، والأقدار المؤلمة والبلايا ما هي إلا أدوات تذكير يُذكّر الله بها عباده بحقيقة وجودهم في الدنيا، وأنها ليست دار مقام، كما أن البلاء يُطَهِّر الذنوب، ففي الحديث: «ما يُصيب المسلمَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يُشاكُها إلا كَفَّر الله بها من خطاياه»(٤).

ومَنْعُ الرزق الوفير عن بعض الناس ما هو إلا صورةٌ من صور الرحمة والشفقة بهم؛ ففي الحديث: «إن الله تعالىٰ ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه»(٥).

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٨).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٩٠).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٦٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٤) برقم: (٥٦٤١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٦) برقم: (٢٥٧٣).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/ ٥٦٢٤) برقم: (٢٤٠٥٤)؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٠٨)



هٰذه المعاني العظيمة لا يمكن تَذَكُّرها واستحضارها بصورة دائمة إلا إذا تمكن حب الله من القلب وهيمن عليه(1). عن عامر بن عبد قيس، أنه كان يقول: «لقد أحببت الله حبًّا سهل علي كل مصيبة، وأرضاني بكل قضية، فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه وما أمسيت»(2).

وسأل رجلٌ الفضيلَ بن عياض ﷺ، فقال: «يا أبا علي، متىٰ يبلغ الرجل غايته من حبِّ الله تعالىٰ؟ فقال له الفضيل: إذا كان عطاؤه ومنعه إيَّاك عندك سواءً، فقد بلغت الغاية من حبِّه»(3).

عن أبي تراب النخشبي هٰذه الأبيات(4):

لا تُخْدَعَنَّ فللمُحِب دلائلُ ... ولديه مِن تُحَفِ الحبيبِ وسائلُ
منها تَنَعُّمُه بِمُرِّ بلائه ... وسرورُه في كل ما هو فاعلُ
فالمنعُ منه عطيَّةٌ مقبولةٌ ... والفقر إكرامٌ وبِرٌّ عاجلُ

٤. محبة الرسول وعباد الله الصالحين:

من أحب شيئًا أحب ما يتعلق به، وإذا قويت المحبة تعدت من المحبوب إلىٰ كل ما يكتنف بالمحبوب ويُنسب إليه؛ لأن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، لذٰلك ورد في الحديث: «أحبوا الله لِمَا يَغْذُوكم به من نِعَمِه، وأحبوني لِحب الله»(5).

---

(١) ينظر: كيف نحب الله ونشتاق إليه لمجدي الهلالي (ص: ١٣).

(٢) الأولياء لابن أبي الدنيا (ص: ٣٠).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١١٣).

(٤) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ١٠٣).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه (٦/ ١٢٦) برقم: (٤١٦٧)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ١٤٩) برقم: (٤٧٤١)؛ والطبراني في الكبير (٣/ ٤٦) برقم: (٢٦٣٧).

يقول ابن القيم: «فأصلُ العبادة محبّةُ الله، بل إفرادُه بالمحبّة، وأن يكون الحبُّ كلُّه لله، فلا يُحِبُّ معه سواه، وإنّما يُحِبُّ ما يحبُّه لأجله وفيه، كما يُحِبُّ أنبياءَه ورسلَه وملائكتَه وأولياءه، فمحبّتنا لهم من تمام محبّته، وليست محبّةً معه»[1].

وقال رجل لمسروق: «إني لأحبك في الله، قال: إنك أحببت الله فأحببت من أحب الله»[2].

٥. كثرة ذكر الله:

لكل دعوىٰ بينة وبرهان، وبينة دعوى المحبة كثرة ذكر المحبوب، فمن أحب شيئًا أكثر من ذكره، والشيء إذا تمكن حبه في القلب فاض على اللسان ذكرًا، قال أبو إسحاق الختلي: «كان يقال: من علامة المحب لله عز وجل دوام الذكر بالقلب واللسان، وقَلَّ ما ولع المرء بذكر الله تعالىٰ إلا أفاد منه حب الله عز وجل»[3].

٦. حب القرآن وكثرة تلاوته:

عن ابن مسعود قال: «من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله عز وجل فليعرض نفسه على القرآن؛ فمن أحب القرآن فهو يحب الله عز وجل، فإنما القرآن كلام الله عز وجل»[4]. وقال أبو سعيد الخراز: «من أحب الله عز وجل أحب كلامه ولم يشبع من تلاوته»[5].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٥١).
(٢) العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل (١/ ٢٧٨).
(٣) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي (ص: ١٨).
(٤) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (١/ ١٤٨).
(٥) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس لابن رجب الحنبلي (٣/ ٣٢٩).

٧. بذل النفس:

المحبة الصادقة لله عز وجل تدفع صاحبها لبذل كل ما يملكه من أجل نيل رضا محبوبه، وأغلىٰ ما عند الإنسان نفسه، فالمحب يبذل نفسه ويضحّي بروحه إن كان ذٰلك في سبيل رضا الله ولإعلاء كلمته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، قال بعض الصالحين: «المحبة ثمن كل شيء وإن غلا، وسُلَّم كل شيء وإن علا»(١). فالمحبة إذا سرت في القلب حركت في الإنسان الجد والنشاط، ويسرت عليه كل عسير.

٨. الغيرة لله:

عندما يتمكن حب الله في قلب العبد فإنه يدفعه إلى الغيرة لله إن انتُهِكت محارمه، وعلى الرغم من الشفقة التي ينبغي أن توجد في قلب المحب لله علىٰ العصاة إلا أن هٰذا لا يمنعه من بغضه لتصرفاتهم التي تُغضب ربه، ولو كانت من أقرب الناس إليه. وهٰذا كان حال رسول الله ﷺ؛ فقد كان يتغير وجهه ويغضب أشد الغضب عند انتهاك حرمات الله عز وجل، روت السيدة عائشة ﵂ قالت: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله»(٢).

٩. كثرة الابتلاءات:

إن البلاء والمصائب من علامة حب الله عز وجل للعبد، وإذا أحب الله عبدًا رزقه حبه، فدل ذٰلك علىٰ أن كثرة البلاء دليل علىٰ تمكن حب الله في قلب العبد، جاء في الحديث: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم»(٣).

---

(١) يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي (٤/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٠) برقم: (٦١٢٦)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٨٠) برقم: (٢٣٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٢) برقم: (٢٣٩٦)، وقال: حسن غريب؛ وابن ماجه في سننه

والأنبياء أكثر البشر حبًّا لله عز وجل هم أكثرهم بلاء، عن أبي عبيدة بن حذيفة، عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله ﷺ نعوده في نساء، فإذا سِقاءٌ معلَّقٌ نحوَه يقطُر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حرِّ الحُمَّى، قلنا: يا رسول الله، لو دعوت الله فشفاك، فقال رسول الله ﷺ: «إن من أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١).

١٠ . عدم التأثر بالبلاء والمصائب:

أن يصل العبد إلىٰ عدم التأثر بالمصيبة والبلاء هٰذه مرحلة متقدمة في المحبة، لا يصل إليها إلا مَن تَمَلَّك الحبُّ كلَّ قلبه؛ عن بنان الحمَّال قال: «ليس يتحقق في الحب حتىٰ يتلذذ بالبلاء في الحب كما يتلذذ الأغيار بأسباب النعم»(٢). وهٰذا سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه لما حضره الموت، فهو يغمىٰ عليه مرة ويُفيق مرّةً، فكان يقول عند إفاقته: «اُخْنُق خَنْقَك؛ فَوَعِزَّتِك إني لَأُحبك»(٣).

وعن عبد الواحد بن زيد قال: «خرجت إلىٰ ناحية الحربية، فإذا إنسان أسود مجذوم قد تقطعت كل جارحة له بالجذام، وعَمِيَ وأُقْعِد، وإذا صبيان يرمونه بالحجارة حتىٰ دموا وجهه ورأسه، فرأيته يحرك شفتيه، فدنوت منه لأسمع ما يقول، فإذا هو يقول: يا سيدي، إنك لتعلم أنك لو قرضت لحمي بالمقاريض ونشرت عظمي بالمناشير ما ازددت لك إلا حُبًّا، فاصنع بي ما شئت»(٤).

(٥/ ١٥٩) برقم: (٤٠٣١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/ ٦٥٥٤) برقم: (٢٧٦٦٨)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٩٩) برقم: (٧٥٨٦)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٤٠٤) برقم: (٨٣٢٥)؛ والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٤٦) برقم: (٦٣٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٩٢): «وإسناد أحمد حسن».

(٢) استنشاق نسم الأنس من نفحات رياض القدس لابن رجب الحنبلي (٣/ ٣٦٥).

(٣) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٣/ ٥٤٥).

(٤) الأولياء لابن أبي الدنيا (ص: ٤٨).

قال ابن القيم: «فإن المحب يجد من لذة المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد مِنْ مسِّها ما يجد غيرُه، حتىٰ كأنه قد اكتسىٰ طبيعةً ثانيةً ليست طبيعةَ الخلق»(١).

١١. الشوق إلىٰ لقاء الله:

هٰذه درجة عالية رفيعة تنشأ من قوة المحبة لله عز وجل، فعندما يتمكن حبُّ الله من قلب العبد فإنه يتلهّف شوقًا للقائه، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «وأسألك الرضا بالقضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك، في غير ضراء مُضِرَّة ولا فتنة مُضِلَّة»(٢). ومعنىٰ «في غير ضراء مضرة...»؛ أي: دون وجود أسباب ضاغطة عليه تدعوه لذٰلك، مثل: ضراء الدنيا وأقدارها المؤلمة أو الفتن في الدين المُضلة.

فحب الموت هنا لا ينافي ما ورد من النهي عن تمني الموت؛ ورد أن البويطي قال لبعض الزُّهَّاد: أَتُحِب الموت؟ فكأنه توقَّف، فقال: لو كنت صادقًا لأحببته، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، فقال الرجل: فقد قال النبي ﷺ: «لا يتَمَنَيَنَّ أحدكم الموت»! فقال: إنما قال: «لضر نزل به»(٣). أما من تمناه شوقًا للقاء الله فهٰذا من علامة قوة المحبة.

الآفات التي تحول دون المحبة

للمحبة آفات تحول دونها إن لم يحذر منه السالك نُزعت منه المحبة، ومن هٰذه الآفات(٤):

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤١٠).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٨١) برقم: (١٢٢٩)؛ وأحمد في مسنده (٨/ ٤١٦٦) برقم: (١٨٦١٥)؛ والطبراني في الكبير (١٨/ ٣١٩) برقم: (٨٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢١) برقم: (٥٦٧١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٤) برقم: (٢٦٨٠).

(٤) ينظر: أبواب التصوف لمحمد بن عبد القادر الجيلاني (٢١٦-٢١٨).

١ . كفران النعمة:

ذلك أن المحبة من أعظم النعم التي يمنُّ الله بها على العبد، وهي هبة يهبها الله لمن صدق في طلبها، وقد مر معنا في الحديث أن من أدعية داود ﷺ قوله: «اللهم إني أسألك حبك...»، فإن لم يعترف العبد الذي وُهب المحبة بفضل الله عليه في ذلك فقد كفر تلك النعمة، وكفران النِّعَم مؤذن بزوالها.

٢ . ترك الموافقات:

فشرط المحبة اتباع النبي ﷺ وموافقته في هديه والتزام سنته، والتهاون في أمر السنة والهدي الظاهر والباطن دليل على خلل في المحبة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

٣ . السكون إلى غير الحق سبحانه:

من أحب مولاه محبة صادقة غمرت السعادة والطمأنينة قلبه، فلا يمكن أن يتوكل إلا على ربه عز وجل، ولا يرجو غيره، وذلك لأنه يعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء فلن يضروه إلا بما كتبه وقدره الله عز وجل عليه، وسكونه إلى غيره دليل على عدم صدق المحبة.

فرع متعلق بالمحبة

هل هناك تضاد بين العصيان والمحبة؟

الإنسان ليس معصومًا من الوقوع في المعاصي، فطبيعة ما جُبِل عليه الإنسان من الشهوات تجعله عرضة للوقوع في المعاصي مهما بلغ من درجات الكمال،

إلا أن ما يعده المقربون معصية قد يكون حسنة عند الأبرار، ومعاصي الأبرار ربما تكون طاعات عند غيرهم، ولذلك كلما ترقّى الإنسان في درجات الكمال خفت معاصيه، حتىٰ يحفظه الله من المعاصي. فارتكاب المعاصي يضاد كمال المحبة ولا يضاد أصلها، فالمعرفة قد تضعف، والشهوة قد تغلب فيعجز العبد عن القيام بحق المحبة.

ولذلك ورد أن رجلًا علىٰ عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقّب حمارًا، وكان يُضحِك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا، فأَمَر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنه، ما أكثر ما يؤتىٰ به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت، إنه يحب الله ورسوله»[1]. فعلى الرغم من وقوعه في المعصية لم يسلب عنه ذلك وصف المحبة.

نماذج من حب الصالحين

١. قال ضيغم يومًا لمولىٰ له: «منعني والله حب الله من الاشتغال بحب غيره! ثم سقط مغشيا عليه»[2].

٢. وكان كلاب بن جريّ العابد يقول في سجوده: «وعِزَّتِك لقد خالط قلبي من محبتك أمرٌ يَكِلُّ لساني عما أجد منه في نفسي»[3].

٣. قال عتبة الغلام: «من سكن حبُّه قلبَه لم يجد حرًّا ولا بردًا»[4]. وقال عبد الواحد بن زيد: «كان عتبة يجيء إلى المسجد يوم الجمعة وقد أخذ الناس الظل، فيقوم على الحصىٰ ويسجد السجدة الطويلة. قال عبد الواحد: ما أُراه يعقل بِحَرِّه»[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٥٨) برقم: (٦٧٨٠).
(٢) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب الحنبلي (٣/ ٣٩٠).
(٣) المرجع السابق.
(٤) المحبة لأبي إسحاق الختلي (ص: ٧١).
(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٢٣٤).

من نماذج حب الصحابة للنبي ﷺ:

كان أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه يحمي رسول الله ﷺ في غزوة أحد ويرمي بين يديه، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: «يا نبي الله، بأبي أنت وأمي لا تُشْرِف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك»[(١)].

وعن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء؛ وقى بها النبي ﷺ يوم أحد[(٢)].

المقترحات العملية والتدريبات

١. أكثِر من قراءة الآيات التي تتضمن صفات الله عز وجل، متأمِّلًا في معانيها، ومن تلك الآيات: قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠١-١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٣-١٦]. واستخرج بقية الآيات من خلال تأملك في كتاب الله، واجمعها ثم رددها كل يوم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٣٧) برقم: (٣٨١١)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١٩٦) برقم: (١٨١١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٩٧) برقم: (٤٠٦٣).

٢. صَلِّ ركعتين، تقرأ في الركعة الأولىٰ آية الكرسي -وهي أعظم آية في القرآن وذٰلك لأنها تميَّزت بكونها خاصة بالثناء على الذات الإلهية، وفيها تنزيه الله ووصفه بكل كمالٍ يليق بذاته عز وجل وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه- وتقرأ في الركعة الثانية آخر آيات سورة الحشر، من قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]. فإن هٰذه الآيات قد جمعت عددًا من صفات الله عز وجل.

وأصل ذٰلك في الحديث الصحيح، عن عائشة أن النبي ﷺ بعث رجلًا علىٰ سَرِيَّةٍ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذٰلك للنبي ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيءٍ يصنع ذٰلك»، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمٰن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه»[1].

٣. اقرأ كتاب (لأنك الله) بجزأيه، لعلي جابر الفيفي، واستخرج منه أهم الفوائد.

٤. اقرأ كتاب (كيف نحب الله ونشتاق إليه)، لمجدي الهلالي، ولخِّص فوائده.

٥. اقرأ كتاب (مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنىٰ) لسلمان العودة.

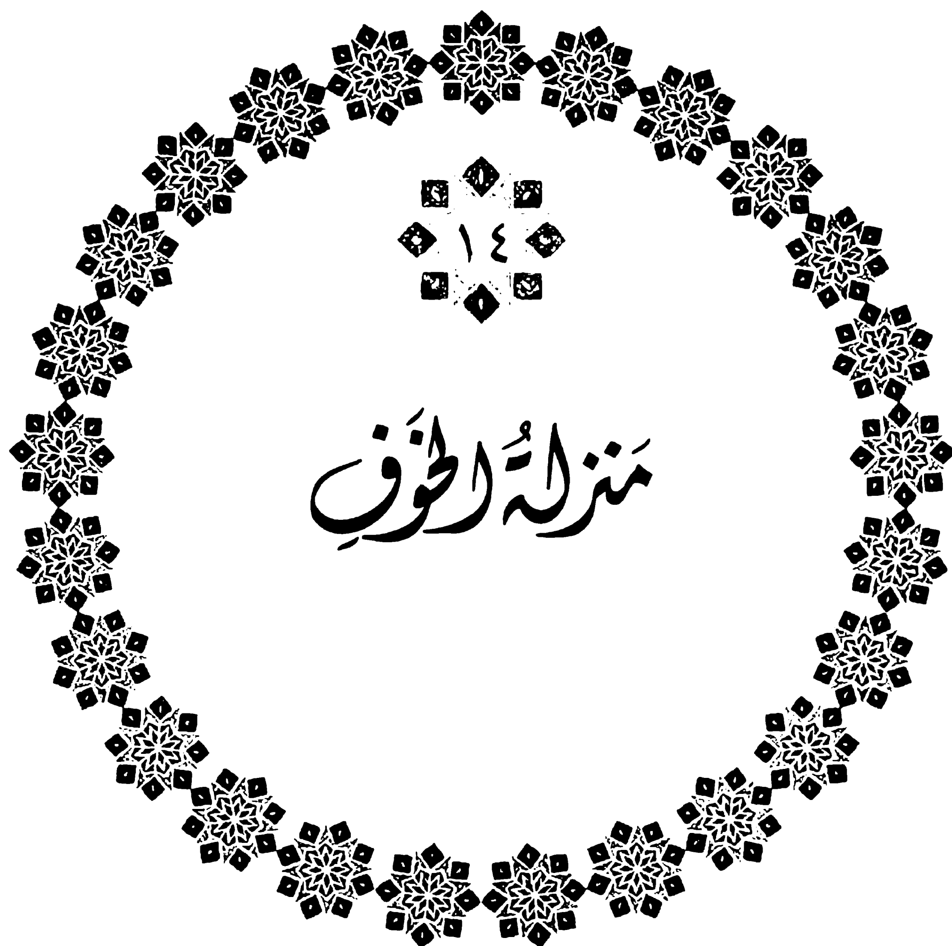
٦. استمع إلىٰ محاضرة الشيخ فريد الأنصاري: منزلة المحبة[2].

٧. اتخذ وِرداً يوميًّا بعدد محدد لا يقل عن ١٠٠مرة تردد فيه هٰذا الذكر: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»،فقد ورد أنه أحب الكلام إلى الله[3].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١١٥) برقم: (٧٣٧٥)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٢٠٠) برقم: (٨١٣).
(٢) والمحاضرة متوفرة على اليوتيوب ومكونة من جزأين، ضمن سلسلة منازل الإيمان.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ١٧٢) برقم: (٢١٣٧).



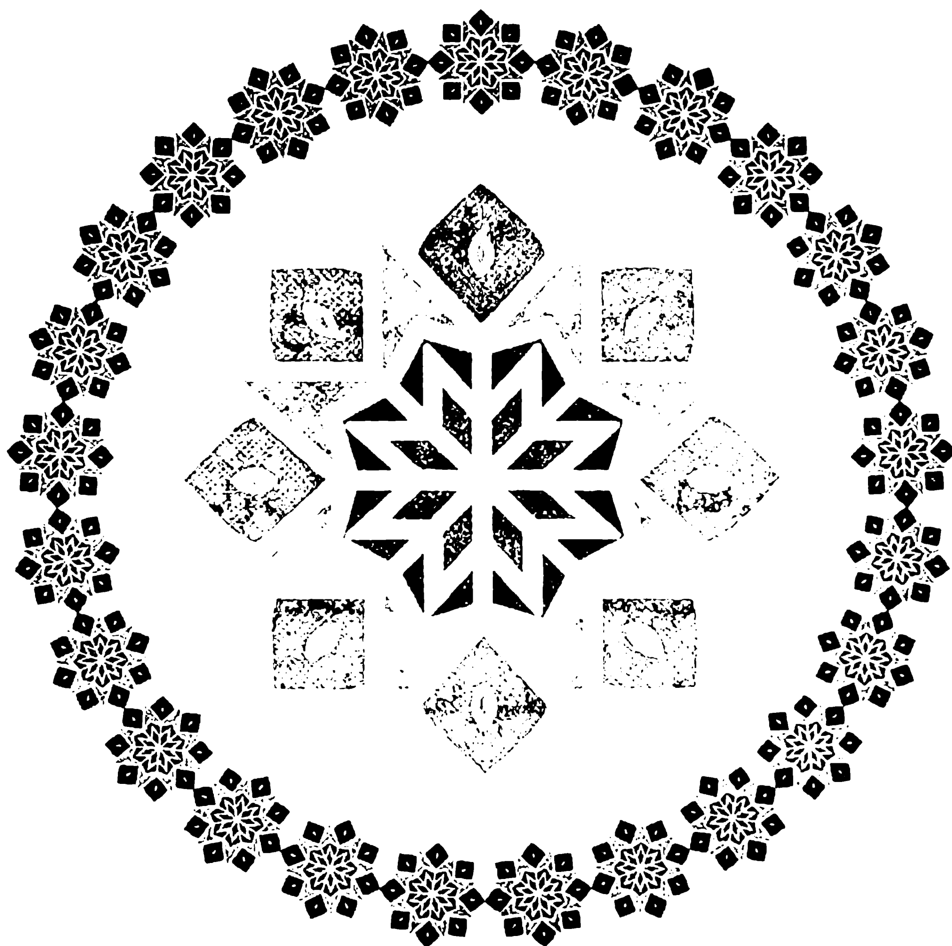


١٤

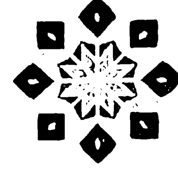
مَنزلةُ الخَوفِ



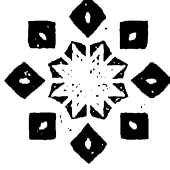








منزلة الخوف



بين يدي الخوف

الخوف شعورٌ بجَلَال الخلَّاق العليم وما ينبغي إكنانه له من مهابة وإعظام، وكيف لا يُخشىٰ جبار السماوات والأرض الذي بيده ملكوت كل شيء، الذي لا يعترض غضبه شيء إذا أعلن غضبه علىٰ أحد!! ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧] (١).

والخوف من المقامات العلية، وهو من لوازم الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وكلما كان العبد أقرب إلىٰ ربه كان أشدَّ له خشية ممن دونه، وإنما كان خوف المقربين أشد لصفاء قلبهم وشدة تعظيمهم لله تعالىٰ، ولأنهم يطالبون بما لا يطالب به غيرهم، وهذا الخوف والتعظيم ينبع من حسن معرفة الله وكمال العلم به، ولذلك كان الأنبياء أشدَّ الناس خوفًا من الله تعالىٰ لكمال معرفتهم به، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

(١) ينظر: الجانب العاطفي من الإسلام لمحمد الغزالي (ص: ٢٢١).

وأعرف الناس بالله هو رسول الله ﷺ، ولذلك قال: «والله إني لَأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أَتَّقي»[1]. وقد بلغ من شدة خوفه عليه الصلاة والسلام أنْ شاب شعره، فقال: «شيبتني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[2]. وقال: «والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلًا»[3]. وورد: أن عثمان بن مظعون لما قُبِر قالت أم العلاء: طِبتَ أبا السائب في الجنة، فسمعها نبي الله ﷺ فقال: «مَن هذه»؟ فقالت: أنا يا نبي الله، قال: «وما يدريكِ»؟ قالت: يا رسول الله، عثمان بن مظعون! قال رسول الله ﷺ: «أجل عثمان بن مظعون، ما رأيناه إلا خَيِّرًا، وها أنا رسول الله والله ما أدري ما يصنع بي»[4].

وقد كان الصحابة الكرام من شدة خوفهم من الجبار سبحانه يتمنون أنهم لم يُخلَقوا بشرًا، مع أنهم قد بُشِّروا بالجنة يقينًا في كثير من الأخبار، ورد عن أبي بكر أنه رأىٰ طيرًا واقعًا علىٰ شجرة، فقال: «طوبىٰ لكَ يا طير، واللَّه لَوَدِدتُ أني كنت مِثلك؛ تقع على الشجر وتأكل من الثمر، ثم تطير وليس عليك حساب ولا عذاب»[5]. وأخذ عمر رضي الله عنه تِبنة من الأرض، فقال: «يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكُ شيئًا، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسيًا منسيًّا»[6]. وقال أبو عبيدة بن الجراح: «وددت أني كنت كبشًا فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقتي»[7].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٨) برقم: (١١١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٢٥) برقم: (٣٢٩٧)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٤٣) برقم: (٣٣٣٣)، وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٩) برقم: (٦٦٣١)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٢٧) برقم: (٩٠١).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٠٩) برقم: (٦٤٣)؛ وأحمد في مسنده (١٢/ ٦٦٩١) برقم: (٢٨١٠٢).

(٥) المصنف لابن أبي شيبة (١٩/ ٢٩٦).

(٦) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٧٩)؛ وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٣/ ٣٣٤).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٣٣٠).

وأبو ذر ﷺ يقول: «وددت أني شجرة تُعْضَد»(١)، وعندما دخل ابن عباس على عائشة وهي تموت فأثنى عليها وأصبح يعدد فضائلها، قالت: «دعني منك يا ابن عباس! والذي نفسي بيده، لوددت أني كنت نسيًا منسيًّا»(٢).

وعندما عوتب الحسن البصري في شدة حزنه قال: «ما يُؤَمِّنُني أن يكون قد اطلع عليَّ في بعض ما يكره فمقتني فقال: اذهب فلا غفرت لك، فأنا أعمل في غير معمل»(٣)!

فكل مؤمن بالله تعالى خائف منه، ولكن خوفه على قدر قُرْبه؛ قال معاذ بن جبل: «إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يُخَلِّف جسر جهنم وراءه»(٤).

فلا يأمن مكرَ الله تعالى من كان عالمًا به سبحانه، كيف وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٨]! وقد حذر الله العبادَ نفسه، وأمر بخشيته، وأخبرهم أن بطشه شديد، وأخذه أليم، وأنه سيجمعهم مع الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، وذلك يوم مشهود، حفاة عُراة غُرلًا، في صعيد واحد، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، القلوب واجفة، والأبصار خاشعة، والخلائق فزعة، قد أحاط الهول بهم، فتصل القلوب الحناجر، وتنقطع الأصوات فلا تسمع إلا همسًا، فأجهل الناس مَن أمِن غير مأمون، وأعلمهم مَن خاف في الأمن حتى يخرج من دار الخوف إلى مقام أمين.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩/ ٥٠٢٦) برقم: (٢١٨٥٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٤٥) برقم: (٢٤٩٨). قال ابن حجر: موقوف صحيح بهذا الإسناد. ينظر: المطالب العالية لابن حجر (١٦/ ٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٠٦) برقم: (٤٧٥٣)؛ وأحمد في مسنده (٤/ ٢٩٨) برقم: (٢٤٩٦). واللفظ له.

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٨١).

(٤) العقل والهوى للحكيم الترمذي (ص: ٣).

حقيقة الخوف

الخوف في اللغة:

الخوف يدل على الذعر والفزع، وهو: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، وطَرِيقٌ مَخُوْفٌ: يَخافُه الناسُ، ومُخِيفٌ: يُخِيْفُ الناسَ، والخِيفَةُ: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف، قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]، والتَّخَوُّف: التّنَقُّص، قال تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]، يقال: هو يتخوف المال؛ أي: يتنقّصه ويأخذ من أطرافه(١).

الخوف في الشرع:

قال الراغب الأصفهاني: «الخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرّعب؛ كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به: الكفّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدّ خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا»(٢).

وقال القشيري: «والخوف من الله تعالىٰ هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالىٰ إما في الدنيا وإما في الآخرة»(٣). وقيل: «ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، إنما الخائف: مَن يترك ما يخاف أن يُعَذَّب عليه»(٤).

وعرفه الهروي بأنه: «الانخلاع مِن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر»؛ أي: الخروجَ عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد(٥).

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢٣٠)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ٢٤٢)؛ المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (١/ ٣٧٨)؛ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٣٠٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٣٠٣).

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥١).

(٤) المصدر السابق (١/ ٢٥٣).

(٥) مدراج السالكين لابن القيم (٢/ ١٨٤).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

ألفاظ متقاربة غير مترادفة:

الخوف والوجل، والخشية، والهيبة، والإجلال ألفاظ متقاربة غير مترادفة. أمّا **الوجل** فهو: رَجَفان القلب وانصداعُه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته. وأما **الخشية** فهي: خوفٌ مقرونٌ بمعرفة. وأمّا **الهيبة** فهي: خوفٌ مقارنٌ للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المعرفة والمحبة. وأما **الإجلال** فهو: تعظيمٌ مقرونٌ بالحبِّ. فالخوف لعامَّة المؤمنين؛ لأنه شرط الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والخشية للعلماء العارفين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والهيبة للمحبِّين، قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران: ٢٨]. والإجلال للمقرَّبين. وعلىٰ قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية(١).

الخوف والرجاء:

لا يُذكر الخوف إلا مقترنًا بالرجاء؛ فهما متلازمان، ولذٰلك عبّرت العرب عن الخوف بالرجاء، واستعمل ذٰلك القرآن فقال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣]، أي: لا تخافون، والتوازن بين الخوف والرجاء مطلوب؛ لأنهما كجناحي الطائر، لا ينبغي أن يطغىٰ أحدهما على الآخر، وإلا وقع الخلل، قال أبو علي الروذباري يقول: «الخوف والرجاء هما كجناحي الطائر؛ إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص واحد منهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا جميعًا صار الطائر في حدّ الموت، لذٰلك قيل: لو وُزن خوف المؤمن ورجاءه لاعتدلا»(٢).

---

(١) ينظر: الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٢)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٨١).
(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ١٢-١٣).

والتوازن بين الخوف والرجاء منهج قرآني وهديٌ نبوي، وهو سبيل الصالحين، فالقرآن لا يكاد يذكر الرجاء إلا ويذكر معه الخوف؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ولا يذكر العذاب إلا ويتبعه بالرحمة والمغفرة، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

فضل الخوف وثمراته

١ . الخوف علامة الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، قال ابن أبي ملكية: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل»، ويذكر عن الحسن: «ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق»(١).

٢ . ثناء الله على الخائفين:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[النور: ٣٧]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]، عن عائشة ﵂ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٨).

قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم»[1]. وقال الحسن: «إنَّ المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءةً وأمنًا»[2].

٣. الفوز برضوان الله والجنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨]، وقال: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦]، وقال أيضًا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

٤. الاستظلال بظل عرش الرحمن والأمن من عذابه:

في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ذكر منهم: «ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال، فقال: إني أخاف الله»[3]. وجاء في الحديث القدسي: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»[4]. وقيل ليحيى بن معاذ: «مَن آمَنُ الخلق غدًا؟ فقال: أشدهم خوفًا اليوم»[5].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٢٣٦) برقم: (٣١٧٥)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٩٣) برقم: (٣٥٠٧)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٦٠٩٦) برقم: (٢٥٩٠٠).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٣٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم: (١٤٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٣) برقم: (١٠٣١).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٠٦) برقم: (٦٤٠)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٢٣) برقم: (٧٥٩). قال العراقي: رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب، ورواه وابن أبي الدنيا من رواية الحسن مرسلًا. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء (٥/ ٢٢١٦).

(٥) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٦٢).

وقال ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1]. وقال أيضًا: «لا يلج النار رجل بكىٰ من خشية الله حتىٰ يعود اللبن في الضَّرْع»[2].

٥. لا ينتفع بالذكرىٰ والموعظة إلا أهل الخشية:

قال تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٠]، وقال: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢-٣].

٦. الخوف يَكُفُّ الجوارح عن المعاصي:

فهو يحرق الشهوات المحرمة، فتصير مكروهة كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمًّا، قال إبراهيم بن شيبان: «إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد عنه رغبة الدنيا»[3]. وقال سهل التستري: «وليس شيء يحرق شهوات النفوس فيزيل آثار آفاتها إلا مقام الخوف»[4].

٧. الخوف سبب لمغفرة الذنوب:

جاء في الحديث: «كان رجل يُسْرِف علىٰ نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مِت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي لَيُعَذِّبَنّي عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فُعِل به ذٰلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت فإذا هو قائم، فقال: ما حملك علىٰ ما صنعت؟ قال:

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٢٧٦) برقم: (١٧٥٢)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٨٢) برقم: (٢٤٤٥).

(٢) أخرجه النسائي في سننه (١/ ٦١٣) برقم: (٣١٠٨/ ٢)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٢٧١) برقم: (١٦٣٣)، وقال: حسن صحيح.

(٣) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمٰن السلمي (ص: ٣٠٤).

(٤) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٧٦).

يا رب خشيتك، فغفر له»[1].

٨. جمع الله تعالىٰ للخائفين ما فرقه على المؤمنين:

فقد جمع الله لهم الهدىٰ والرحمة والعلم والرضوان؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال جل ذكره: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

مراتب الخوف

الخوف ليس مرتبة واحدة، بل هو مراتب، يزيد بحسب تقوى العبد وصلاحه، فهو ينقسم إلىٰ[2]:

١. خوف العامة:

وهو ما حَمَل علىٰ أداء الفرائض واجتناب المحارم، وهو الخوف المطلوب من كل مؤمن؛ لأنه شرط الإيمان كما مر، فهو واجب.

٢. خوف الخاصة:

وهو ما زاد عن الخوف الواجب، بحيث يبعث صاحبه إلى التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتوسع في فضول المباحات.

٣. خوف خاصة الخاصة:

وهو الذي يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالىٰ، حتىٰ لا يبقىٰ لغير الله تعالىٰ فيه متسع، وهٰذا خوف الصِّديقين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٦) برقم: (٣٤٨١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٧) برقم: (٢٧٥٦).
(٢) ينظر: التخويف من النار لابن رجب (ص: ٢٨)؛ إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٥٨).

وينقسم الخوف باعتبار السبب الباعث عليه إلىٰ أقسام[1]:

١. الخوف من العذاب:

وهٰذا هو الخوف الذي يصح به الإيمان، وهو الذي يحمل العبد علىٰ طاعة الله وترك معصيته، وهٰذا الخوف ينشأ من تصديق الوعيد وما ورد من الأهوال التي تبدأ من سكرات الموت وشدته، ثم عذاب القبر، ثم هيبة الموقف بين يدي الله تعالىٰ، والسؤال عن النقير والقطمير، ثم الصراط وحدته، وما ورد في وصف النار وأغلالها وأهوالها. وهٰذا هو خوف أصحاب اليمين.

٢. الخوف من الله تعالىٰ:

وذٰلك لجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة، ولذٰلك الخائف يبقىٰ خوفه وإن كان في طاعة الصديقين؛ لأنه يعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، فهو يخاف من سوء الخاتمة، وقد ورد في الحديث: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناسُ عملَ أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناسُ عملَ أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها»[2]. فصاحب هٰذه المرتبة لا يسكن إلىٰ علم ولا عمل، ولا يقطع على النجاة بشيء من العلوم وإن علت، ولا لسبب من أعماله وإن جلت؛ لعدم علمه تحقيق الخواتم؛ عن زهير بن نعيم الباني قال: «ما أكبر همي ذنوبي، إنما أخاف ما هو أعظم عليّ من الذنوب، وهو أن أُسْلَب التوحيد، وأموت علىٰ غيره»[3]. وقال سفيان الثوري: «ذنوبي أهون من هٰذه -ورفع حبة من الأرض- إنما أخاف أن

(١) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٨٧-٣٨٨)؛ إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٦٤٩٣).

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٨٨).

أُسْلَب التوحيد في آخر الوقت»[1]. وهٰذا الخوف يرفع صاحبه إلىٰ مقام المحبة والرضا.

٣. خوف الحجاب عن الله تعالىٰ:

وهٰذا أعلىٰ مقامات الخوف، وهو خوف العارفين، فالعارف الذي ذاق لذة القرب من الله تعالىٰ وما في ذٰلك من النعيم، تجده في خوف دائم من أن يُحرم هٰذا القرب، فكم من مغبوطٍ بحاله انعكس عليه الحال، فدخل في الظَّلام، فبُدِّل بالأُنس وحشةً، وبالحضور غيبةً، وبالإقبال إعراضًا، وبالتقريب إبعادًا.

أحسنتَ ظَنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ الليالي فاغْتَرَرْتَ بها ... وحين تَصْفُو الليالي يَحدُثُ الكَدَرُ[2]

قال أبو سليمان الداراني: «ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها»[3].

طرق اكتساب الخوف

١. الصحبة الصالحة:

قيل للحسن: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يُحدِّثونا حتىٰ تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: «أيها الشيخ، إنك والله إن تصحب أقوامًا يُخَوِّفونك حتىٰ تُدرِك أمنًا، خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يُؤَمِّنونك حتىٰ تلحقك المخاوف»[4].

(١) المصدر السابق.
(٢) الزهرة لمحمد بن داود الظاهري (ص: ٢٣١)، والبيتان نسبهما لسعيد بن حميد.
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٦٢).
(٤) الوجل والتوثق بالعمل لابن أبي الدنيا (ص: ٢٨).

٢. التفكر في سوء الخاتمة:

العبد لا يدري بماذا يختم له؛ فالقلوب بيد الله، والفتن قد تطيح بإيمان كثير من الناس، ولذلك لما سُئِلت أم سلمة: ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما لِأَكثرِ دعائك «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»! قال: «يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن أشاء أزاغ»[1].

وعند الموت يكون العبد في غاية الضعف؛ فهو يعاني من ألم النزع، والخوف من خطرِ ما هو مُقبِلٌ عليه عند الموت، وهجوم إبليس عليه بجنوده وأعوانه، إذ يقول لأعوانه: دونكم هذا الرجل، إن أفلت منكم اليوم لا تدركونه. ولذلك كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من فتنة المحيا والممات[2]، وفتنة الممات هي الفتنة التي تنزل بالعبد عند سكرات الموت، وكان أكثر خوف الصالحين من سوء الخاتمة.

٣. تذكر الموت والقبر:

إن تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويُلَيِّن القلب القاسي، ويُذهب الفرح بالدنيا، قال الغزالي: «لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كَرْبٌ ولا هولٌ ولا عذابٌ سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره، ويعظم

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٩٥) برقم: (٣٥٢٢)، وقال: حديث حسن؛ وأحمد في مسنده (١٢/ ٦٤١٨) برقم: (٢٧١٦٦)؛ والنسائي عن عائشة (٧/ ١٥٥) برقم: (٧٧٠٩).

(٢) الحديث: «كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، **وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**». أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٩٩) برقم: (١٣٧٧)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٤) برقم: (٥٩٠).

له استعداده، لا سيما وهو في كل نفَس بصدده»[1].

وسيد الخلق ﷺ قد عانىٰ من سكرات الموت فقال عند الاحتضار: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»[2]. وأما القبر وأهواله فيكفي فيه قوله عليه الصلاة والسلام: «ما رأيت منظرًا قطُّ إلا والقبر أفظع منه»[3]. ولذلك كان النبي صلى الله دائم الاستعاذة من عذاب القبر، ورد أن عائشة قالت للنبي ﷺ: إن عجوزين من عُجُز يهود المدينة دخَلَتا عليّ فزعَمَتا أن أهل القبور يُعذَّبون في قبورهم! فقال: «صدقتا، إنهم يُعذبون عذابًا تسمعه البهائم». قالت: فما رأيته بعد في صلاةٍ إلا يتعوذ من عذاب القبر[4].

٤. التفكر في القيامة وأهوالها:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]. وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧]. فلا يوجد هول ولا كرب أشد من هول يوم القيامة، ويكفي في شدة هوله أن مقداره خمسين ألف سنة، قال تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]،

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٧) برقم: (٦٥١٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٢) برقم: (٢٣٠٨)، وقال: حسن غريب؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٣٣) برقم: (٤٢٦٧)؛ وأحمد في مسنده (١/ ١٥٢) برقم: (٤٦١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧٨) برقم: (٦٣٦٦)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٢) برقم: (٥٨٦).

وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق حتىٰ تكون منهم كمقدار ميل، ففي الحديث: «تُدنى الشمسُ يوم القيامة مِن الخلق حتىٰ تكون منهم كمقدار ميل -قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أَمَسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين؟- قال: فيكون الناس علىٰ قدر أعمالهم في العرق؛ فمنهم من يكون إلىٰ كعبيه، ومنهم من يكون إلىٰ ركبتيه، ومنهم من يكون إلىٰ حِقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»(١).

٥. تذكر النار وأهوالها:

لو تفكَّر العبد بما هو قادم عليه من سكرات الموت وأهوال القبر والموقف يوم الحشر، والمرور على الصراط، ثم تفكّر في وصف جهنم الذي ورد في الأحاديث، فإن هذا وحده كافٍ لأن يخلع قلبه، ويجعله يهرول نحو باب الله لائذًا به، فالأحاديث التي تتكلم عن أهوال المحشر وعن النار تنخلع لها القلوب، فمما ورد في وصف النار وعذابها؛ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩-٢١]، وقال عليه الصلاة والسلام في وصف النار: «ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية! قال: «فضلت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرِّها»(٢).

وعن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجْبةً، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا»؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجرٌ رُميَ به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهىٰ إلىٰ قعرها»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٨) برقم: (٢٨٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢١) برقم: (٣٢٦٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٩) برقم: (٢٨٤٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٠) برقم: (٢٨٤٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لو أن قطرةً من الزَّقُّوم قَطَرت في دار الدنيا لَأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه»(١).

وقال أيضًا: «إن أهون أهل النار عذابًا مَن له نعلان وشِراكان من نارٍ يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرجل، ما يرى أنَّ أحدًا أشدّ منه عذابًا، وإنه لَأهونهم عذابًا»(٢).

فكيف يصبر العبد على العذاب إذا وقع وهو عاجزٌ عن الصبر على أدنى آلام الدنيا! قال إبراهيم التيمي: «مثَّلتُ نفسي في الجنة آكلُ ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأُعانِق أبكارها، ثم مَثَّلتُ نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أيْ نفسي، أيُّ شيءٍ تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنتِ في الأُمْنِيَة، فاعملي»(٣).

٦. التفكر في عظيم صفات الله تعالى:

قال ابن القيم: «وإذا تجلَّى بصفات العدل والانتقام والغضب والسَّخط والعقوبة انقمعتِ النفسُ الأمَّارةُ، وبَطَلَتْ أو ضَعُفتْ قُواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضَتْ أعِنَّةُ رُعوناتِها، فأحضرت المطية حظَّها من الخوف والخشية والحذر»(٤).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٥١١) برقم: (٧٤٧٠)؛ والنسائي في الكبرى (١٠/ ٤٨) برقم: (١١٠٠٤)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٣٣٦) برقم: (٢٥٨٥)، وقال حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١٥) برقم: (٦٥٦٢)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٥) برقم: (٢١٣).

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٦).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٩٩).

علامات التحقق بالخوف

١. الانتفاع بالموعظة:

شكا واعظ إلىٰ بعض الحكماء فقال: ألا ترىٰ إلىٰ هٰؤلاء أعظهم وأُذَكِّرهم فلا يَرِقُّون؟ فقال: وكيف تنفع الموعظة من لم يكن في قلبه لله تعالىٰ مخافة! وقد قال الله تعالىٰ في تصديق ذٰلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلىٰ: ١٠-١١]؛ أي: يتجنب التذكرة الشقي[١].

٢. استعظام الصغائر:

الاستخفاف بالذنب يدل علىٰ قلة الخشية من الله، والصحابة الذين هم أشد الناس خشية لله تعالىٰ بعد النبيين كانوا يرون الأمور التي استهان بها غيرهم من المهلكات؛ لعظم إجلالهم لله تعالىٰ وخوفهم منه، عن أنس ﷺ قال: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها علىٰ عهد النبي ﷺ الموبقات»[٢].

٣. البكاء عند قراءة القرآن وسماعه:

عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ»،قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت النساء حتىٰ إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: «كُفّ»، أو «أمْسِك»، فرأيت عينيه تذرفان[٣]. وعن مُطَرِّف، عن أبيه قال:

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٩٧) برقم: (٥٠٥٥)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٩٦) برقم: (٨٠٠).

أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيزِ المِرجل، يعني يبكي»[1].

٤. الاجتهاد في الطاعة وترك المعاصي:

الخوف يحمل العبدَ على الطاعة والبُعدِ عن المعصية، فالخائف الذي يترك ما يخاف أن يعذب عليه. وقد وصف الله عباده الصالحين بامتثال الأوامر والخوف منه فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وأثنى تعالى على من يقومون الليل خوفًا منه سبحانه وطمعًا في رحمته، فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقال ﷺ: «من خاف أدلج[2]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[3].

وقال أبو عثمان: «صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا»[4].

الآفات التي تؤثر في الخوف

١. الرضا عن النفس:

الخائف لا يمكن له يركن إلىٰ خوفه ويظن بنفسه أنه استحق النجاة بما وصل إليه من خوف الله؛ لأن الخوف أمر خفي لا يمكن أن يحكم العبد علىٰ نفسه به، قال أبو عثمان الحيري: «عيب الخائف في خوفه السكون إلىٰ خوفه؛ لأنه أمر خفي»[5].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٣٩) برقم: (٦٦٥)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٢٦٤) برقم: (٩٧٧)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم؛ والنسائي في المجتبىٰ (١/ ٢٦٠) برقم: (١٢١٣ / ١).

(٢) **أدْلَج**: أي سار أول الليل. ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٤/ ٢١٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤١) برقم: (٢٤٥٠)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٧) برقم: (٧٩٤٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٢٥٤).

(٥) المصدر السابق.

٢. اليأس والقنوط:

حد الخوف ما حجز عن معاصي الله، فما زاد علىٰ ذٰلك فهو غير محتاج إليه، وهٰذا الخوف الموقِع في اليأس هو من سوء الظن بالله وإساءة الأدب معه، فإن رحمة الله تعالىٰ سبقت غضبه.

قال الغزالي: «فما يُخرج إلى القنوط فهو مذموم، وقد يُخرِج الخوف أيضًا إلىٰ المرض والضعف، وإلى الولَه والدهشة وزوال العقل، وقد يُخرج إلى الموت، وكل ذٰلك مذموم، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوًا من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثَرَ منها لِيُعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هٰذه الأمور»[(١)].

فرع يتعلق بالخوف

الخوف المذموم:

قال الغزالي: «وربما يُظَنُّ أن كل ما هو خوفٌ محمود، فكل ما كان أقوىٰ وأكثر كان أحمد، وهو غلط، بل الخوف سَوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة علىٰ العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالىٰ»[(٢)].

فالخوف المذموم إما خوف ظاهري شكلي يزول بسرعة، ولا يبعث صاحبه على العمل، وإما خوفٌ زائد عن الحد، بحيث يورث صاحبه مرضًا أو همًّا لازمًا فيُعيقه عن العمل، ويورثه اليأس والقنوط.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٥٧).

(٢) المصدر السابق.

قال الغزالي: «والمحمود هو الاعتدال والوسط، فأما القاصر منه فهو الذي يجرىٰ مجرىٰ رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سببٍ هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوىٰ»، ثم قال: «وأما المفرط فإنه الذي يقوىٰ ويجاوز حد الاعتدال حتىٰ يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضًا؛ لأنه يمنع من العمل»(١).

نماذج من خوف الصالحين

١. خوف الملائكة:

قال تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالىٰ عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. وقال عنهم: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وروي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «ما لي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خُلِقَت النار»(٢).

٢. خوف النبي ﷺ:

أ. عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكًا حتىٰ أرىٰ منه لَهَواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأىٰ غيمًا أو ريحًا عُرِف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِف في وجهك الكراهية! فقال: يا عائشة، ما يُؤَمِّنِّي أن يكون فيه عذاب؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٨٢٢) برقم: (١٣٤٥٧). قال الهيثمي: رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين، وهي ضعيفة، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٣٨٥).

عُذِّبَ قومٌ بالريح، وقد رأىٰ قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]». وفي رواية: «وإذا تَخَيَّلت السماء تغيَّر لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مَطَرت سُرِّيَ عنه»(١).

ب. عن مطرف، عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ، وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كَأزيز المرجل». يعني يبكي(٢).

٣. خوف الصحابة:

أ. روي: «أن عبد الرحمٰن بن عوف ﷺ أُتي بطعام وكان صائمًا، فقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفِّن في بُردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه. وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتىٰ ترك الطعام»(٣).

ب. قال رجل عند عبد الله بن مسعود: «ما أُحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أَحَبُّ إليّ، فقال عبد الله: لٰكن هاهنا رجل ودَّ أنه إذا مات لا يُبعث. يعني نفسه»(٤).

ج. كان شداد بن أوس إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كأنّه حبَّةٌ علىٰ مِقلاة، فيقول: «اللهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٣) برقم: (٤٨٢٨)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٢٦) برقم: (٨٩٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٣٠) برقم: (٧٥٣)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٢٦٤) برقم: (٩٧٧)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم؛ والنسائي في المجتبىٰ (١/ ٢٦٠) برقم: (١٢١٣/ ١)؛ وأبو داود في سننه (١/ ٣٤٠) برقم: (٩٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٧) برقم: (١٢٧٥).

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ١٥٣).

إنّ ذِكْرَ جهنم لا يدعني أنام، ثم يقوم إلىٰ مُصَلَّاه»(1).

د. عن القاسم بن محمد قال: «كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي وترددها. فقمت حتىٰ مللت القيام فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي»(2).

٤. خوف التابعين والصالحين:

أ. قالت فلانة لعامر بن عبد قيس: «ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام! فقال: يا بنية، إن جهنم لا تدع أباك ينام»(3).

ب. قال مالك بن دينار: «واللَّه لو استطعت ألا أنام لم أنم مخافة أن ينزل عذاب وأنا نائم، واللَّه لو وجدت أعوانًا فرَّقتهم في منار الدنيا ينادون: أيها الناس، النارَ النار»(4).

ج. كان الحسن يقول: «إن المؤمنين قومٌ ذَلَّت والله منهم الأسماع والأبصار والأبدان، حتىٰ حسِبَهم الجاهلُ مرضىٰ، وهم واللهِ أصحابُ القلوب، ألا تراه يقول: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، والله لقد كابدوا في الدنيا حُزنًا شديدًا، وجرىٰ عليهم ما جرىٰ علىٰ مَن كان قبلهم، والله ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولكن أبكاهم وأحزنهم الخوف من النار»(5).

---

(١) التخويف من النار لابن رجب الحنبلي (ص: ٣٧).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٣١٩).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٧٨).

(٤) الجامع لعلوم الإمام أحمد لأحمد بن حنبل (٢٠/ ٥٦٥).

(٥) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي (ص: ٣٣).



د. قال عبد الرحمن بن مهدي: «ما عاشرت في الناس رجلًا هو أرَقّ مِن سفيان الثوري، قال: وكنت أُرامِقُه الليلة بعد الليلة، فما كان ينام إلا في أول الليل، ثم ينتفض فزِعًا مرعوبًا ينادي: «النار النار! شغَلني ذكر النار عن النوم والشهوات»[1].

يقول الغزالي: «فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين، ونحن أجدر بالخوف منهم، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإلا فليس أَمْنَنا لِقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا، وغلبت علينا شِقوتنا، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قُرب الرحيل يُنَبِّهُنا، ولا كثرة الذنوب تُحَرِّكنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا!»[2].

المقترحات العملية والتدريبات

١. اقرأ ختمة من القرآن لاستخراج أكثر السور حديثًا عن النار وعذاب الله تعالى، وأشدِّ الآيات تخويفًا في القرآن.

٢. اقرأ كتاب (صفة القيامة والجنة والنار) من صحيح مسلم، ثم اكتب الأحاديث الجامعة لأحوال أهل النار وأهوال يوم القيامة، واجعل لنفسك منها وردًا يوميًّا تقرأ فيه عددًا من الأحاديث، متخيِّلًا نفسك حاضرًا تلك المشاهد وأهوالها.

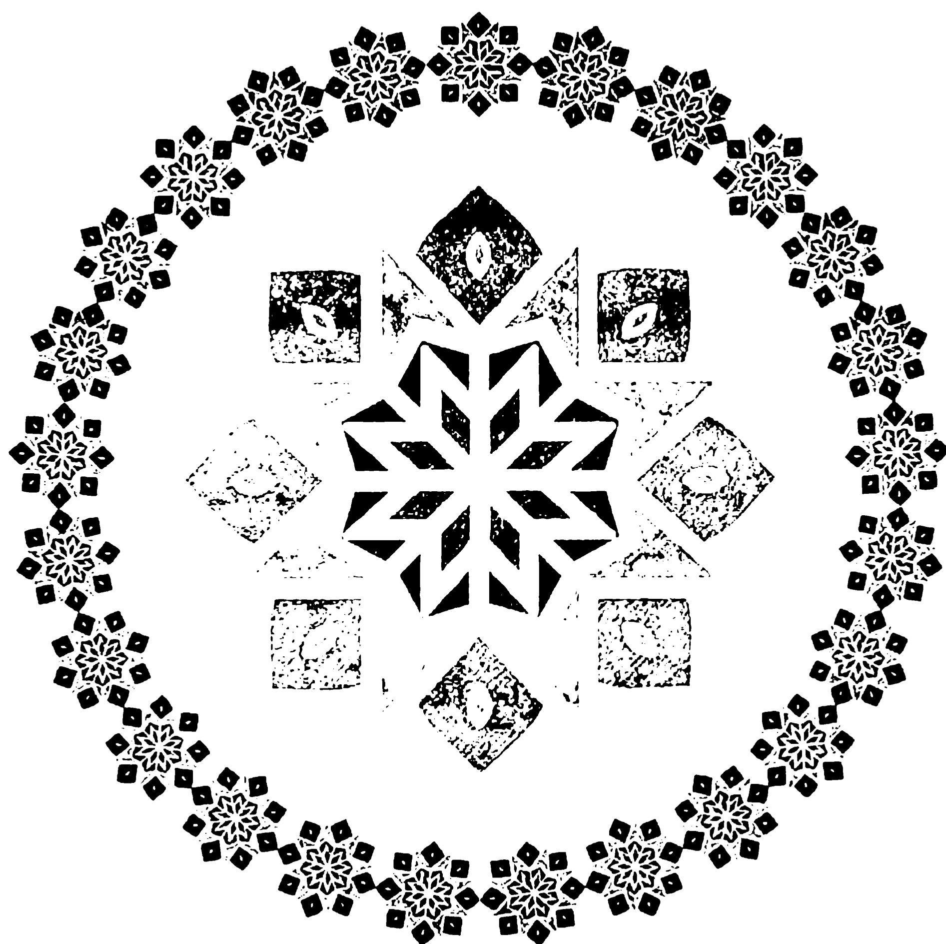
(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٦٠).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٨٨).

٣. اقرأ كتاب: (التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار)، لابن رجب الحنبلي، ثم استخرج منه أكثر القصص والمواقف التي أثرت فيك.

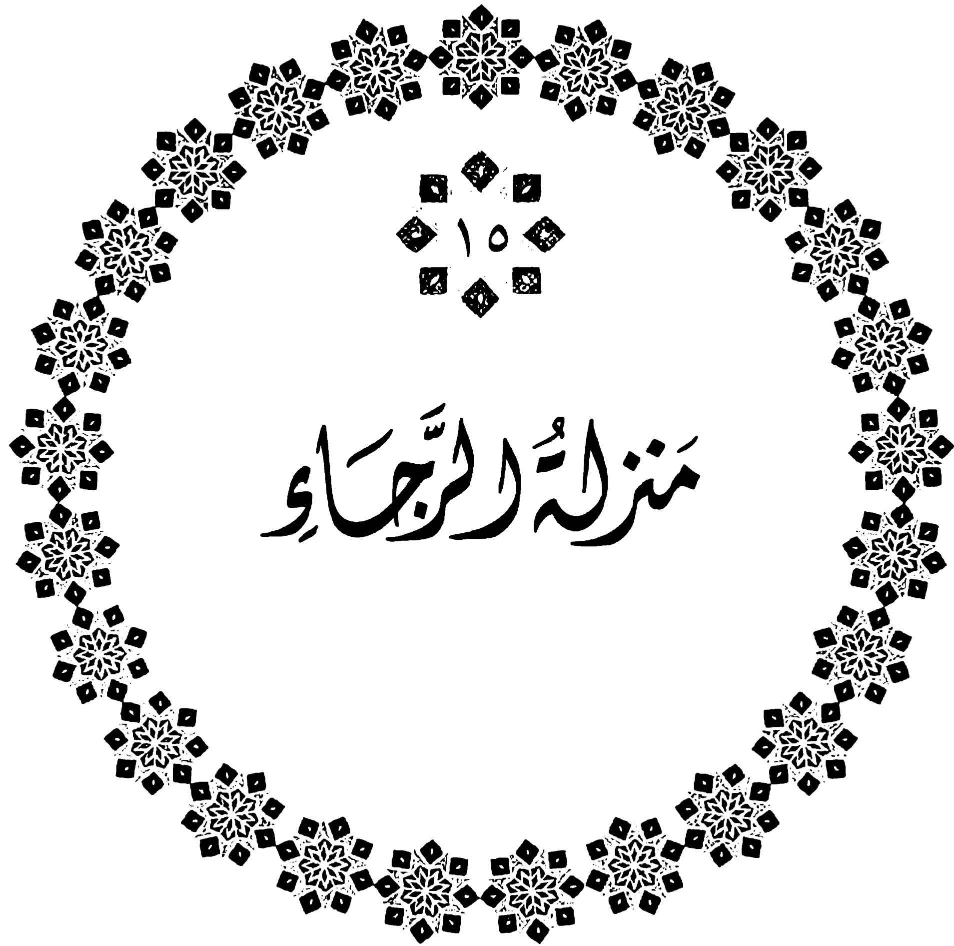
٤. اقرأ كتاب: (الرقة والبكاء) لابن أبي الدنيا، واستخرج منه أبرز ما أثر فيه، ثم عاود قراءته بين فترة وأخرىٰ.

٥. قم بزيارة المقابر لفترة معينة، مع حرصك على التأمل والاعتبار.



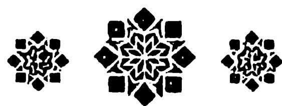


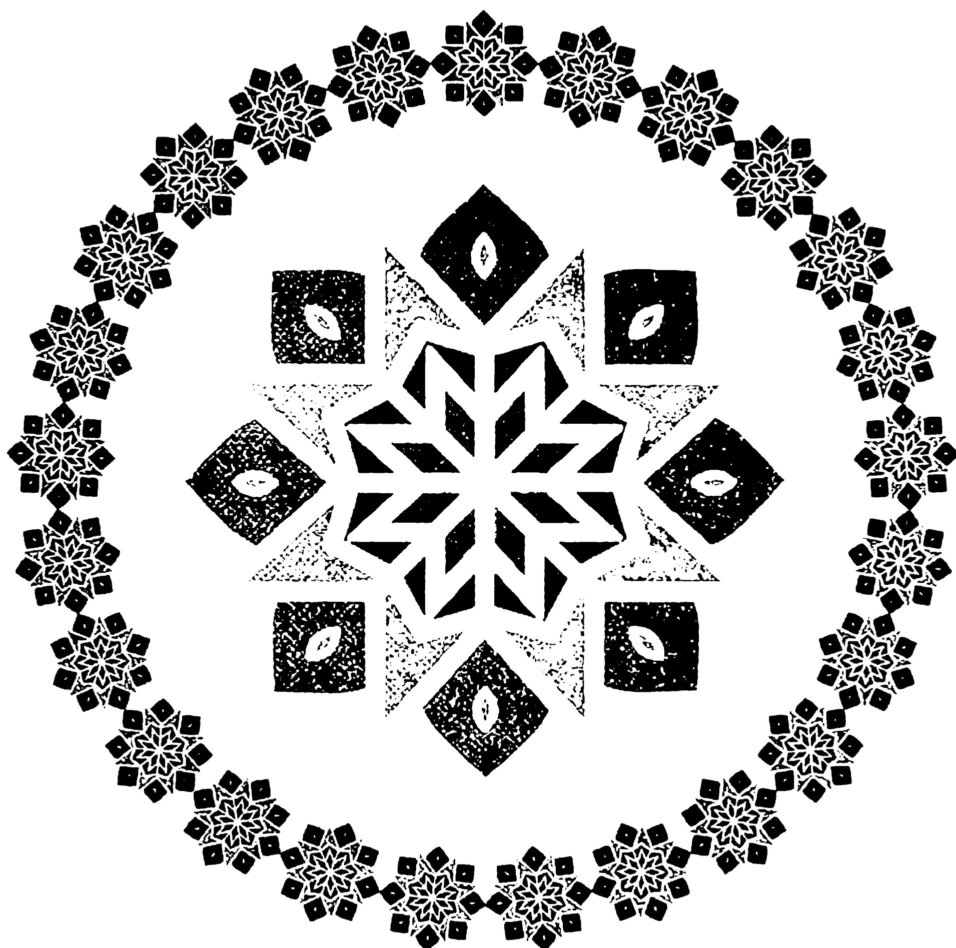



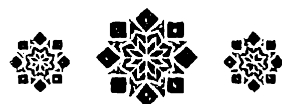
١٥

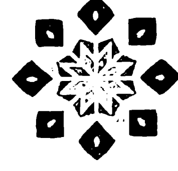
مَنزلةُ الرَّجاءِ



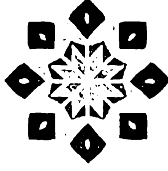








منزلة الرجاء



بين يدي الرجاء

الرجاءُ حادٍ يحدو القلوب إلى الله والدار الآخرة، ويُطَيِّب لها السَّير، وهو عبوديّة وتعلُّقٌ بالله من حيث اسمُه المُحسنُ البَرُّ، ولولا روح الرجاء لعُطِّلت عبوديّةُ القلب والجوارح، بل لولا روح الرجاء لما تحرَّكت الجوارح بالطاعة.

والرجاء ضروري للسالك؛ لأنه دائرٌ بين ذنبٍ يرجو غفرانه، وعيبٍ يرجو صلاحه، وعملٍ صالحٍ يرجو قَبوله، واستقامةٍ يرجو حصولها أو دوامها، وقُربٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصوله إليها؛ ولا ينفكُّ أحدٌ من السالكين عن هٰذه الأمور أو عن بعضها[1].

وعلىٰ حسب المحبَّة وقوَّتها يكون الرجاء؛ فكلُّ محبٍّ راجٍ، وهو كذٰلك خائفٌ بالضّرورة، لأن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه الخوفَ مِن فواته، فيسعىٰ في تحصيله، والسائر على الطريق إذا خاف أسرَعَ السيرَ مخافةَ الفوات.

ويمكن أحيانًا أن يتصاعد دخان الخوف بجنب أكمل الأعمال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، كما يمكن أن يبزغ الرجاء مع الذنوب، قال يحيى بن معاذ: «يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص،

(١) ينظر: مدراج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٦٨-٢٦٩).

وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف! وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف!»[1].

فعمل الإنسان وإخلاصه وتجرّده يُعدُّ أبعادًا مهمة من الحسنات، إلا أنها من حيث علاقتها بالإنسان تظل غير ذات أهمية تُذكر بجنب عظيم عفوه تعالى، ففي الحديث: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»[2]. والرجاء بُعدٌ آخر لحسن الظن بالله، «أنا عند ظن عبدي بي»[3].

وبناء على هٰذا يمكن القول: لما كان الرجاء وسيلة لتجلّي الرحمة الإلهية الواسعة، فلا ينبغي على الإنسان أن يدع هٰذه الوسيلة القوية[4].

فلما قسى قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مِنّي لِعَفْوِك سُلَّما
تعاظَمَني ذنبي فلما قَرَنْتُه ... بِعَفْوكَ ربي كان عفوك أعظما
وأيَقنت أنّ العفوَ منك سجيَّة ... تجود وتعفو مِنَّة وتكرُّما[5]

حقيقة الرجاء

الرجاء في اللغة:

الرجاء: التوقع والأمل، وهو نقيض اليأس، والرجو: المبالاة، يقال: ما أرجو؛ أي: ما أبالي، ويأتي الرجاء بمعنى الخوف وذٰلك إذا كان معه حرف نفي،

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٦١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٦٠) برقم: (٧٥٥٤).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٢) برقم: (٢٦٧٥).
(٤) ينظر: الرجاء في ضوء القرآن والسنة لمحمد إلياس محمد رزاق (ص: ١٣-١٤).
(٥) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١١١).

ومنه قول الله جل وعز: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، المعنى: ما لكم لا تخافون لله عظمةً، قال الفراء: ولم نجد معنى الخوف يكون رجاء إلا ومعه جَحْد. وأما الرجا بالقصر فهو: ناحية كل شيء، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧][1].

وقد ورد الرّجاءُ في القرآن على ستَّة أوجه[2]:

الأول: بمعنى الخوف: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: ما لكم لا تخافون، ومنه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧].

الثاني: بمعنى الطمع: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

الثالث: بمعنى توقُّع الثواب: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

الرَّابع: الرّجا المقصور بمعنى الطَّرَف: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧].

الخامس: الرّجاء المهموز: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]؛ أي: احبسه.

السَّادس: بمعنى التَّرك والتأْخير: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦].

الرجاء في الشرع:

لقد عُرِّفَ الرجاء بتعاريف كثيرة، مضمونها: توقع الخير والطمع في رحمة الله ومغفرته مع فعل الأسباب المشروعة، ومن هذه التعريفات:

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١١/ ١٢٤-١٢٥)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ١١٩)؛ لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣١٠).

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٣/ ٥٠).

تعريف المحاسبي: «ما هاج من الطمع والأمل في الله عز وجل، فسخّىٰ نفس العاصي بالتوبة، وحال بينه وبين القنوط، وبَعث العبد على الطاعة لله عز وجل والتشمير والاجتهاد؛ رجاء ما وعد العاملين»(١).

وعرفه أيضًا بقوله: «الطمع في فضل الله تعالىٰ ورحمته، وصدق حسن الظن عند نزول الموت»(٢).

وقال ابن حجر: «والمقصود من الرجاء: أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها»(٣).

ومنهم من عرفه بأنه: «النظر إلىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ»(٤). وقيل: هو «الاستبشار بوجود فضل الربِّ تعالىٰ، والارتياح لمطالعة كرمه»(٥).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

حسن الظن والرجاء:

حسن الظن هو نفس الرجاء، فهما مترادفان.

التَّمَنِّي والرجاء:

الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز، بينما التمني: حديثُ النفس بالفوز مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، أو توقُّع الثواب والمغفرة من دون عمل، أو التخبّط طوال العمر في وديان الضلالة،

---

(١) الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (ص: ٣٥٠-٣٥١).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمٰن السلمي (ص: ٦١).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٠١).

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٢٦٠).

(٥) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٦٠).

ثم التحدث عن بحبوحة الجنة، وهو الذي قال الرسول ﷺ في حقه: «والعاجز من أتْبَع نفسَه هواها وتمنىٰ على الله»(١).

«كان العلاء بن زياد يَذْكُر النار، فقال رجل: لِمَ تُقَنِّطُ الناسَ؟ قال: وأنا أقدر أن أُقَنّط الناس والله عز وجل يقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، ويقول: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]!! ولكنكم تُحبون أن تُبَشَّروا بالجنة علىٰ مَساوِئ أعمالِكم، وإنما بَعث الله محمدًا ﷺ مُبَشِّرًا بالجنة لمن أطاعه، ومُنْذِرًا بالنار مَن عصاه»(٢).

الطمع والرجاء:

الرجاء لا يكون إلا عن سبب يدعو إليه؛ ككرم المرجوّ، وأما الطمع فهو ما يكون من غير سبب يدعو إليه، ولهذا فالطمع أغلبه مذموم، عدا الطمع في رحمة الله تعالىٰ وغفرانه؛ وقد ورد الطمع المحمود في عدة مواضع من القرآن؛ منها: ما ورد عن سيدنا إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وعلىٰ لسان سحرة فرعون: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]، كما جاء منتظمًا في سياق الدعاء مع الخوف: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦](٣).

الخوف والرجاء:

الخوف ليس ضدًّا للرجاء، بل هو رفيق له، وإنما الذي يضاد الرجاء هو اليأس، فالرجاء باعث على العمل، واليأس صارف عن العمل، والخوف والرجاء هما

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٦٦٣)، وقال: حديث حسن؛ وأحمد في مسنده (٧/ ٢٧٩٩) برقم: (١٧٣٢٩). وينظر: الروح لابن القيم (٢/ ٦٨٦).

(٢) البخاري في صحيحه (٦/ ١٢٦).

(٣) ينظر: معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٢٤٨)؛ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥٢٤)؛ الخوف والرجاء في القرآن الكريم لعبد الله أسود خلف الجوالي (ص: ١٣٧).

كجناحي الطائر بالنسبة للسالك، لا يمكن أن يطير إلا بهما معًا؛ لأن زيادة الخوف تؤدي إلى القنوط، وزيادة الرجاء تؤدي إلى التفريط والغفلة، فإذا وُفِّق السالك إلىٰ إقامة التوازن بينهما فلا يأس ولا انقطاع في الخوف، كما لا رخاوة ولا شطحات في الرجاء.

فضل الرجاء وثمراته

١. فتح الله باب الرجاء لعباده في مغفرةِ أي ذنب:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وفي الحديث القدسي: «قال الله تبارك وتعالىٰ: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقُرَاب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[١].

وورد في حديث الذي قتل مائة نفس أنه خرج مهاجرًا تائبًا، فأدركه الموت وهو في الطريق، فأخذته ملائكة الرحمة، مع أنه لم يعمل خيرًا قطّ[٢].

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لَذهب الله بكم، ولَجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٠٩) برقم: (٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٤) برقم: (٣٤٧٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٢٧٦٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٢٧٤٩).

وفي الحديث: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليَعزِم المسألة، وليُعَظِّم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»[1].

عن جندب أن رسول الله ﷺ حدث أن رجلًا قال: «والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالىٰ قال: من ذا الذي يتألّىٰ عليَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك»[2].

٢. سعة رحمة الله وعظيم فضله:

إن الفضل ينبثق من ذي الجلال والإكرام لأن ذلك وصفه، وعطاؤه علىٰ قدر عظمته، ومن ثَمّ فهو أحق مَن يُرجىٰ ويُقصد، قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال ﷺ: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»[3]. وفي الحديث: «كان تاجر يُداين الناس، فإذا رأىٰ مُعسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه؛ لعل الله أن يتجاوز عَنّا، فتجاوز الله عنه»[4]. وذلك لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات.

وأما الأحاديث الواردة في عظيم فضل الله عز وجل وإثابته أجزل الثواب على العمل قليل فكثيرة جدًّا، ومن ذلك: حديث عتبان بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «لن يوافي عبد يوم القيامة يقول: لا إله إلا الله يبتغي به وجه الله إلا حرم الله عليه النار»[5].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٦٤) برقم: (٢٦٧٩).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٦) برقم: (٢٦٢١).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٦٠) برقم: (٧٥٥٤).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٨) برقم: (٢٠٧٨)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٣٣) برقم: (١٥٦٢).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٠) برقم: (٦٤٢٢)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٥) برقم: (٣٣).

وكان يحيى بن معاذ يقول في مقامات الرجاء: «إذا كان توحيد ساعة يحبط ذنوب خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة ماذا سيصنع بالذنوب»[١]!

وفي حديث أبي ذرّ ذكر أنه قال للنبي ﷺ: يا نبي الله، جعلني الله فداءك مَن تُكَلِّم في جانب الحرة؟ ما سمعت أحدًا يَرجِعُ إليك شيئًا! قال: «ذاك جبريل، عَرَض لي في جانب الحرة فقال: بَشِّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، فقلت: يا جبريل، وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قال: قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قال: قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن شرب الخمر»[٢].

وفي حديث آخر: «يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاءه سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة»[٣].

٣. أمر الله عباده بالرجاء ونهاهم عن القنوط:

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، قال الطبري في تفسير الآية: «ومن ييأس من رحمة الله إلا القوم الذين قد أخطؤوا سبيل الصواب، وتركوا قصد السبيل في تركهم رجاء الله، ولا يَخيب من رجاه، فضلوا بذلك عن دين الله»[٤]. وقال ﷺ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[٥]. وفي الحديث عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول:

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٣) برقم: (٦٤٤٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٧٦) برقم: (٩٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٢٦٨٧).

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١١٣).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ١٤١) برقم: (١٧٣٢).

«لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنِ الظنّ بالله عز وجل»[1]. فهٰذا تحذير من القنوط وحض على الرجاء عند الخاتمة؛ لئلا يغلب عليه الخوف حينئذ، فيخشىٰ غلبة اليأس والقنوط فيهلك.

فالله سبحانه يحبُّ من عباده أن يؤمِّلوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنَّه المَلِك الحقُّ الجواد، وفي الحديث: «إنه من لم يسأل الله يغضَبْ عليه»[2]، والسائل راجٍ وطالب، فمن لم يَرجُ الله يغضب عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، دلت الآية علىٰ أن الأصل عند الله الرحمة وعدم العذاب.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقِمه عليّ، قال: ولم يسأله عنه، قال: وحضرت الصلاة، فصلىٰ مع النبي ﷺ، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة، قام إليه الرجل، فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقم فيَّ كتابَ الله، قال: «أليس قد صليت معنا»؟ قال: نعم، قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك» أو قال: «حَدّك»[3].

شروط الرجاء

للرجاء شروط لا بد من توفرها ليكون مقبولًا، ولٰكن تختلف هٰذه الشروط بحسب أهميتها، لذٰلك يمكن تقسيمها إلىٰ قسمين: شروط واجبة لا يتم الرجاء بدونها، وشروط مستحبة ليكون الرجاء أتم وأكمل.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦٥) برقم: (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٤٩١) برقم: (١٨١٢)، وقال: صحيح الإسناد؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٣٨٧) برقم: (٣٣٧٣)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٢٠٢٨) برقم: (٩٨٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٦٦) برقم: (٦٨٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠٢) برقم: (٢٧٦٤).



الشروط الواجبة في الرجاء أربعة شروط[1]:

١. الأخذ بالأسباب:

وهو القيام بكل عمل يستطيع الإنسان فعله في سبيل تحقيق المرجو، كما فعل النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة عندما أخذ بكل أسباب السلامة للوصول إلىٰ ما يرجوه من النجاة من الكفار.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ[2]

إذن فمن كان يرجو رضا الله تعالىٰ والنجاة في الآخرة فعليه بالاجتهاد في الطاعات والابتعاد عن المعاصي، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

٢. الخوف من عدم تحقق الرجاء:

الرجاء يكون علىٰ حسب المحبة وقوتها، ولٰكن كما أن الحبيب يرجو رضا محبوبه هو في نفس الوقت خائف حريص علىٰ دوام هٰذا الحب، فالخوف من السقوط من عين المحبوب دليل علىٰ حرص صاحب الرجاء علىٰ تحقق رجائه وصدقه فيه.

٣. الصدق في الرجاء والتيقن منه:

لا خير في رجاء عن قلبٍ لاهٍ غافل، ولا خير في رجاءٍ من يشكّ بأصله؛ لأنه رجاء باطل، بل على الراجي أن يتيقن من حصول الرجاء وكأنه يرىٰ ما يرجو رأي العين، ولذٰلك جاء الأمر باليقين بالدعاء لتتحقق الإجابة، والدعاء جزء من الرجاء،

---

(١) ينظر: الخوف والرجاء في القرآن الكريم لعبد الله أسود خلف الجوالي (ص: ١٤٣-١٤٩).

(٢) السِّيَر لأبي إسحاق الفزاري (ص: ٢٦٨).

قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[1].

٤ . دوام التعهّد:

ويقصد به دوام الحفاظ على هذه الفضيلة، كما قال الغزالي عن الرجاء: «حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها، فلا يفتر عن تعهدها أصلًا إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد»[2].

الشروط المستحبة في الرجاء للوصول إلى مرتبة الكمال والتمام فيه:

١ . التملق إلى المرجوّ منه:

وذلك بإظهار الافتقار الدائم لسعة رحمة الله عز وجل وعفوه، فالاستمرار بالدعاء والتعلق به هما من التملق؛ لأن الانكسار وإظهار الحاجة إلى الله تعالى والخضوع له فيها من معاني العبودية ما لا يخفى، وأكثر ما نجد هذا الشرط متحقِّقًا في ثنايا أدعية الراجين، ومن ذلك قول يحيى بن معاذ: «يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٦٥) برقم: (٣٤٧٩)، وقال: حديث غريب؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٣) برقم: (١٨٢٣)، وقال: هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المرّي، وهو أحد زهاد أهل البصرة، ولم يخرجاه.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٤٤).

وكيف أحرزها، وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد علىٰ عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف... إلهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام علىٰ لساني ثناؤك، وأحب الساعات إلىٰ ساعة يكون فيها لقاؤك»[1].

٢. الارتقاء والإكثار من الإقبال:

إن الإكثار من الإقبال على الشيء وكثرة طلبه يزيد من قرب الطالب من مطلوبه، وكذٰلك الرجاء فإن الإكثار من الإقبال عليه يقرب الراجي من نيل رجائه، فيتحول الرجاء إلىٰ صفة دائمة ثابتة في الراجي، وقد استدل بعضهم علىٰ أهمية هٰذا الشرط بقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]؛ لأن فيها من معاني الإقبال الشيء الكثير، فالقنوت في ساعات الليل الذي هو طول القيام للتهجد والدعاء عند تجافي الجنوب عن المضاجع[2].

مراتب الرجاء

الرجاء علىٰ ثلاث مراتب[3]:

١. الرجاء الباعث على العمل:

وذٰلك لما يرجوه من ثواب ربه، فإنَّ مَن عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه، وهٰذا الرجاء يولِّد التلذذ بالعبادة، وذٰلك كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره، فإنه يقاسي مشاقَّ السفر لأجلها، فكلَّما صوَّرها لقلبه هانت عليه تلك المشاقُّ والْتَذَّ بها. وكذٰلك المحبُّ الساعي في مراضي محبوبه الشاقَّة عليه،

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٦١).

(٢) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٦٤).

(٣) ينظر: مدراج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٨٤).

كلَّما تأمَّل ثمرةَ رضاه عنه وقبولِه سعيَه وقُربَه منه تلذَّذ بتلك المساعي، وكلَّما قوي علم العبد بإفضاء ذٰلك السبب إلى المسبَّب المطلوب، وقوي علمه بقدر المسبَّب وقرب السبب منه ازداد التذاذًا بتعاطيه.

٢. رجاء أرباب المجاهدات:

فالذين يجاهدون أنفسهم بترك مألوفاتها والاستبدالِ بها مألوفاتٍ هي خيرٌ منها وأكمل يرجون أن يبلغوا بجهادهم مرحلة يتجرد فيها هممهم عن الالتفات إلىٰ تلك الشهوات، والامتناع عن تناول ما يخشىٰ ضرره آجلًا أو عاجلًا.

٣. رجاء أرباب القلوب:

وهو رجاء لقاء الحق تعالى الباعث على الاشتياق، وهٰذا هو أفضل أنواع الرجاء وأعلاها، وهٰذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصارُ المشتاقين، ولذٰلك سلَّاهم الله بإتيان أَجَلِ لقائه، وضرَب لهم أجلًا له يُسَكِّن نفوسَهم؛ قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

طرق اكتساب الرجاء

من الذي يحتاج إلى التحقق بهٰذه الفضيلة؟

إن مراعاة حد الاعتدال مطلوب في كل أمر من أمور الشريعة، فمَن كان مفرِّطًا لا يفيده الحديث عن الرجاء؛ لأن ذٰلك سيزيده تفريطًا.

يقول الغزالي: «اعلم أن هٰذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجلٌ غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجلٌ غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتىٰ أضر بنفسه وأهله، وهٰذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلىٰ طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلىٰ علاجٍ يردُّهما إلى الاعتدال،

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سمومًا مهلكة في حقه، وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيِّجة له، فلهٰذا يجب أن يكون واعظ الخلق مُتلطفًا ناظرًا إلىٰ مواقع العِلل معالجًا لكل علة بما يُضادُّها لا بما يزيد فيها، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها، وخير الأمور أوساطها، فإذا جاوز الوسط إلىٰ أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط، لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهٰذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضًا تكاد أن لا تَرُدَّهم إلىٰ جادة الحق وسَنَن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية»(١).

فإذن الرجاء علاج لأحد رجلين: رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، ورجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتىٰ أضر بنفسه وأهله. ولهٰذين الصنفين نذكر بعض ما يعين على التحقق بالرجاء:

١ . التأمل في عظيم عناية الله بعباده في الدنيا:

والتأمل والتفكر في عناية الله له جانبان:

الأول: التفكر في عناية الله الكونية:

عندما يرى الإنسان لطائف نِعَم الله تعالىٰ علىٰ عباده في الدنيا، حيث جعل ما في السماوات والأرض مسخرًا علىٰ أحسن وجه لخدمتهم، وأعدَّ لهم كل ما هو

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٤٦).

ضروري في دوام الوجود، بل وما هو من قبيل الزينة والنعيم والترفُّه، عند ذٰلك يُدرك أنه إذا لم يرض الله لعباده أن تفوتهم المزايا في الزينة والحاجة، فكيف يرضىٰ بسياقهم إلى الهلاك المؤبد! بل إذا نظر الإنسان علم أن أكثر الخلق قد هُيِّء له أسباب السعادة في الدنيا، حتىٰ إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت، فإذا كان هٰذا حال أكثر الخلق في الدنيا، وأن الذي يتمنى الموت نادر، فسنة الله لا تجد لها تبديلًا، فالغالب أن أمر الآخرة هٰكذا يكون؛ لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم، فهٰذا إذا تُؤُمِّل حق التأمل قوي به أسباب الرجاء(١).

الثاني: التفكر في عناية الله التشريعية:

يقول الغزالي: «ومن الاعتبار أيضًا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، حتىٰ كان بعض العارفين يرىٰ آية المداينة في البقرة من أقوىٰ أسباب الرجاء، فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال: الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدَّين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالىٰ فيه أطول آية ليَهدي عبده إلىٰ طريق الاحتياط في حفظ دَينه، فكيف لا يحفظ دِينه الذي لا عوض له منه!»(٢).

٢. استقراء الآيات والأخبار الواردة في الرجاء:

فما ورد في الرجاء من الآيات والأحاديث شيء كثير لا يكاد يُحصىٰ، ومن ذٰلك: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فالله يغفر كل ذنب كائنًا ما كان،

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٤٧).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٤٧).

إلا الشرك، ثم أكد هذه المغفرة بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، ولذلك قال ابن مسعود: أرجى آية في كتاب الله هذه الآية، وهكذا قال عبد الله بن عمرو بن العاص[1].

ومن ذلك: دعاء واستغفار الملائكة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر: ٧-٩].

ومن مُقوّيات الرجاء ما ورد في شفاعة النبي ﷺ لأمته يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»[2].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، الآية، وقال عيسى ﵇: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى، فقال الله عز وجل: «يا جبريل، اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يُبكيك»؟ فأتاه جبريل ﵇، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله:

(١) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ١٩١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٣١) برقم: (١٩٩)؛ والبخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٤)، بدون الجملة الأخيرة.

«يا جبريل، اذهب إلىٰ محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسُوؤُك»[1].

وقال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل»[2].

وقال أيضًا: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»، وفي رواية: «وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[3].

وفي هٰذا ترغيب المؤمن في سعة رحمة الله التي لو علمها الكافر الذي لا حظّ له في الرحمة لتطاول إليها ولم ييأس منها، وإذا كان ذٰلك حال الكافر فكيف لا يطمع فيها المؤمن!

٣. الاهتمام بالعمل:

كما أن الرجاء يبعث على العمل كذٰلك العمل الصالح يبعث العبد علىٰ أن يرجو رحمة الله ومغفرته، فكلما كان العمل الصالح أكثر كان الرجاء أقوىٰ، وقد ورد في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلىٰ غار فلما دخلوه نزلت صخرة وأطبقت علىٰ فم الغار، فلجؤوا إلى الله بالدعاء بصالح أعمالهم حتىٰ فرج الله عنهم[4]،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٣٢) برقم: (٢٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٥) برقم:(٣٤٣٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٢) برقم: (٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٩) برقم: (٦٤٦٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٦) برقم: (٢٧٥٢).

(٤) حديث الثلاثة أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٩١) برقم: (٢٢٧٢)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٣).

فقد زاد كل واحد منهم في عمله الصالح رجاءَ استجابة الدعاء، فاستجاب الله لهم، قال ذو النون: «صلاة الفرض مفتاح الخوف، والنافلة مفتاح باب الرجاء، وذكر الله الدائم مفتاح باب الشوق، وليس بالخوف تَنال الفرض، ولكن بالفرض تَنال الخوف، ولا بالرجاء تنال النافلة، ولكن بالنافلة تنال الرجاء»[1].

علامات التحقق بالرجاء

١. الاستكثار من العبادة والنوافل:

من علامة الرجاء حسن التقرب إلى الله عز وجل وكثرة التقرب بالنوافل لحسن ظنّه به وجميل أمله منه، وأنه يتقبّل صالح ما أمر به تفضّلًا منه من حيث كرمه، لا من حيث الواجب عليه ولا الاستحقاق منّا، وأنه تعالىٰ يكفر سيئ ما عمله إحسانًا منه ورحمةً من حيث لطفه بنا وعطفه علينا لألطافه الخفيّة، لا من حيث اللزوم له، بل من حيث حسن الظنّ به، كما قال سفيان الثوري ﵀: «من أذنب ذنبًا فعلم أن الله تعالىٰ قدَّره عليه ورجا غفرانه غفر الله عزّ وجلّ له ذنبه، قال: لأن الله تعالىٰ عيَّر قومًا فقال تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]»[2]. وقال شاه الكرماني: «علامة الرجاء حسن الطاعة»[3].

٢. استبطان الخوف ضمن الرجاء:

ومن علامة صحة الرجاء في العبد كون الخوف باطنًا في رجائه؛ لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فوته؛ لعظم المرجوّ في قلبه وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٥١٣).

(٢) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٦٢).

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٦٠).

حال رجائه من خوف فوت الرجاء؛ والرجاء هو ترويحات الخائفين، ولذلك سمّت العرب الرجاء خوفًا؛ لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر، ومن مذهبهم أن الشيء إذا كان لازمًا لشيء أو وصفًا له أو سببًا منه أن يعبّروا عنه به[1].

٣. الدعاء مع اليقين بالإجابة:

من سأل الله تعالىٰ ورغب إليه في شيء، ورجاه ناظرًا إلىٰ نفسه وعمله، فإنه غير مخلص في الرجاء له تعالىٰ؛ لشركه في النظر إليه، وإذا لم يكن مخلصًا لم يكن موقنًا، ولا يقبل الله تعالىٰ عملًا ولا دعاء إلا من موقن بالإجابة مخلص، ففي الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[2].

٤. القيام للتهجد:

ومن علامات الرجاء القنوت في ساعات الليل؛ وهو طول القيام للتهجّد، والدعاء عند تجافي الجنوب عن المضاجع لما وقر في القلوب من المخاوف، ولذلك وصف الله الراجين بهذا في قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

٥. التلذذ بأعمال البر:

ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة على البّر والتقوىٰ؛ لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة إليها، والحثّ لأهلها عليها، والحزن علىٰ فوتها والفرح بدركها، ومن ذلك الخبر المأثور: «من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[3].

(١) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٦٥) برقم: (٣٤٧٩)، وقد تقدم.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ١٢٢) برقم: (٦٧٢٨)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ١٣) برقم: (٣٢)، وقال: صحيح علىٰ شرطهما.

قال أبو طالب المكي: «ومن الرجاء: انشراح الصدر بأعمال البّر وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فوتها ورجاء قبولها»[1].

الآفات التي تؤثر على الرجاء

آفة الرجاء الاغترار:

إن العبد قد تغالطه نفسه بالاتكال علىٰ عفو الله ومغفرته، أو بالتسويف بالتوبة، وبالاستغفار باللسان، وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: «أستغفر الله» زال أثر الذنب! وقد يعتمد على القيام بالأعمال التي ورد أنها مكفرة للخطايا؛ مثل حديث: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطّتْ خطاياه ولو كانت مثلَ زبَدِ البحر»[2].

وهٰذا الضرب من الناس قد تعلّق بنصوص الرَّجاء، واتّكل عليها، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته، وهؤلاء الذين اعتمدوا علىٰ رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيّعوا أمره ونهيه، نسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين؛ قال أبو الوفاء بن عقيل: «احذَرْه ولا تغترَّ؛ فإنّه قطَع اليد في ثلاثة دراهم، وجلَد الحدَّ في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأةٌ النارَ في هرّة، واشتعلت الشملة نارًا علىٰ مَن غَلَّها وقد قُتِل شهيدًا»[3].

وبعضهم يتَّكل علىٰ صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة؛ لما ورد أن في ذٰلك تكفير ذنوب سنة! ولم يدْرِ أنّ صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم مِن صيام يوم عرفة وعاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينها إذا اجتُنِبَتْ الكبائر، فكيف يُكَفِّر

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٩) برقم: (٢٦٩١).

(٣) الداء والدواء لابن القيم (١/ ٧٥).

صومُ يومِ تطوّعٍ كلَّ كبيرةٍ عملها العبد، وهو مصرّ عليها غير تائب منها!

وبعضهم يتَّكِل على حُسن ظنه بربه، ولكن حسن الظن إنّما يكون مع الإحسان، وأما المسيء المصرّ على الكبائر والظلم والمخالفات، فإنّ وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعه من حسن الظن بربه، قال الحسن البصري: «إنّ المؤمن أحسن الظنَّ بربّه، فأحسن العمل، وإنّ المنافق أساء الظنَّ بربّه، فأساء العمل»[1]. وقال أيضًا: «إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنةً لهم، وقالوا: نحسن الظنّ باللَّه، وكذبوا؛ لو أحسنوا الظنّ باللَّه لأحسَنوا العمل له»[2].

وقد منع النبي ﷺ معاذًا من تحديث الناس بحديث حدّثه به خشية اتكال الناس وترك العمل؛ ففي الصحيحين: «يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»، فقلت: يا رسول الله، أفلا أُبَشِّر به الناس؟ قال: «لا تبشرهم فَيَتَّكِلوا»[3].

نماذج من تمثل الصالحين بالرجاء

١. رجاء هاجر أم إسماعيل:

جاء إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء،

(١) المصنف لابن أبي شيبة (١٩/ ٥٣٩).

(٢) الكشاف للزمخشري (١/ ٥٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٩) برقم: (٢٨٥٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٣) برقم: (٣٠).

فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفىٰ إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهٰذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذٰلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهٰذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت»[1].

٢. رجاء سفيان الثوري:

يقول سفيان الثوري: «ما أحب أن حسابي جُعِل إلىٰ والدتي، ربي خير لي من والدتي»[2].

المقترحات العملية والتدريبات

١. قراءة كتاب (حسن الظن) لابن أبي الدنيا، وانتقاء أكثر ما أثر فيك من الآثار، واجمعها في كُرّاسة.

٢. قراءة كتاب الرجاء من كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي.

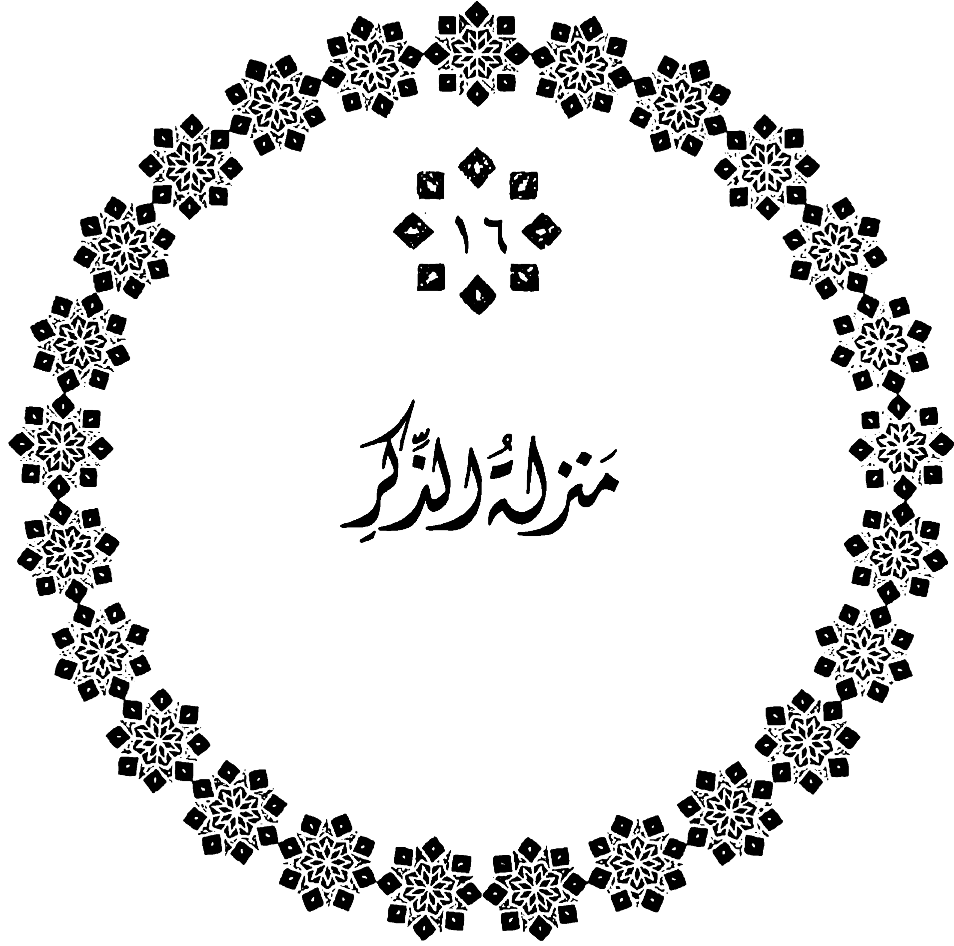
٣. ابحث عن أرجىٰ آية في كتاب الله تعالىٰ، ولماذا كانت كذٰلك؟



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٢) برقم: (٣٣٦٤).

(٢) المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص: ٣٦).



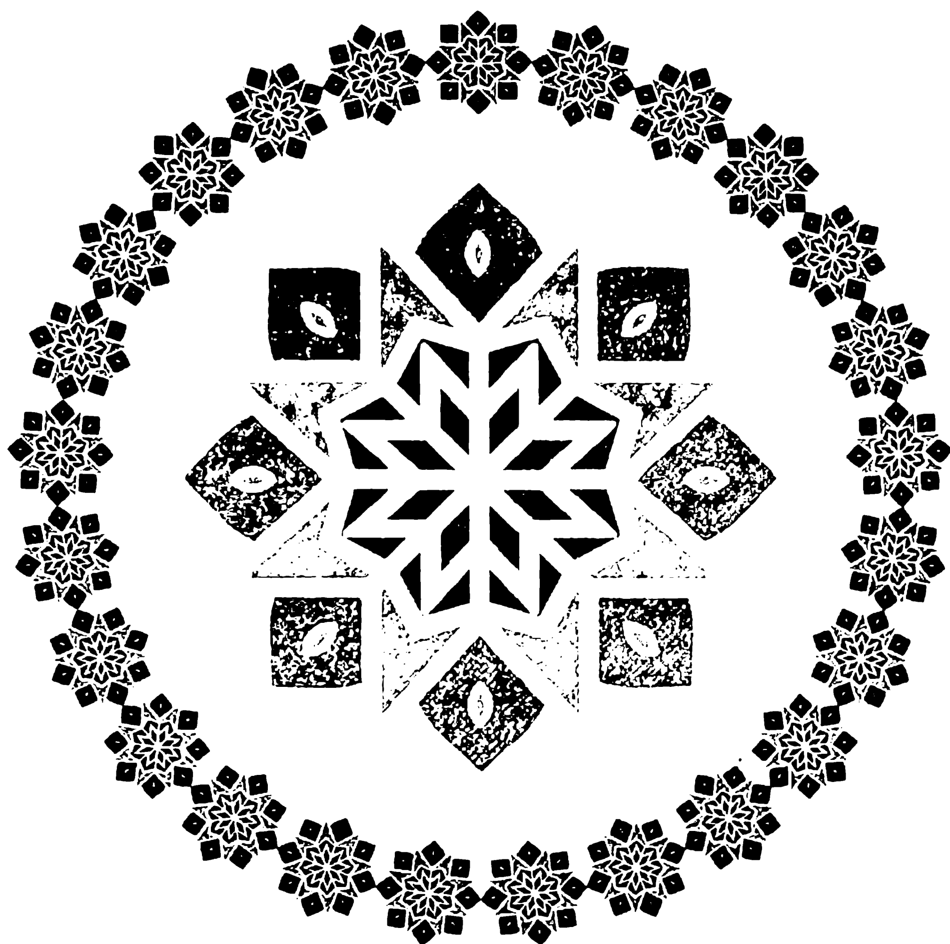


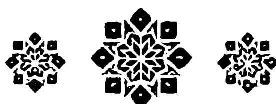
١٦

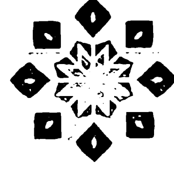
مَنزلةُ الذِّكرِ











منزلة الذكر



بين يدي الذكر

السلوك إلى الله تعالى ليس له بعد الإيمان إلا سبيل الذكر، فلا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر، وإذا كانت الحكمة من العبادات إقامة ذكر الله فلا عجب أن يكون للذكر المحل الكبير في دين الله عز وجل؛ إذ للأذكار صلة كبيرة بموضوع تزكية النفس، بل إنه من المستحيل عادة أن تتم تزكية النفس إلا بذكر الله تعالى. والذكر المراد هنا هو الذكر الحقيقي بالقلب واللسان، ولكن الوصول إلى هذه المرتبة طريقها الذكر اللساني، فإذا صبر الذاكر على ذكره اللساني واتخذ لنفسه من ذلك وِردًا يثابر عليه أدركته يقظة القلب، وبدأ يشعر بحلاوة الذكر، فإذا ازداد إقبالًا إليه وتعلقًا به هيمن الذكر على مشاعره، وأصبح الذكر سجيّة له وغدا عملًا من أعمال الفكر، وهو المقصود الأعظم من الذكر.

ومما يدل على عظيم أمر الذكر في الإسلام أن العبادات كلها مقيدة ولها حد معلوم؛ فالصلاة وإن كانت أشرف العبادات إلا أنها قد لا تجوز في بعض الأوقات، أما الذكر فإن الله لم يجعله مخصوصًا بوقت، بل جعله مطلوبًا في كل وقت وحال؛ عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] يقول: «لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذرٍ، غيرَ الذكر؛ فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣]»[1].

(١) تفسير الطبري (٩/ ١٦٤).

واستعمال الأذكار بشروطها له قوة عجيبة في تحلية النفس وتزكيتها، ولا يوجد هٰذا في غير الذكر، ولذٰلك عظّم الشرع أمره، وبالغ في التحضيض عليه، وبحسب المداومة عليه يكون استحكام اتصاف النفس بما يقتضيه من صفات، حتىٰ يصير ذٰلك طبعًا لها، والجوارح تتبع النفس فيما تتحلىٰ به، فتعمل بمقتضاه.

حقيقة الذكر

الذكر لغة:

الذكر: ضد النسيان، ويكون بمعنى الصيت والثناء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، وأصل الذكر القوة، ومنه تسمية الذكر خلاف الأنثىٰ؛ لأنه أقوىٰ من الأنثىٰ، والذكر تارة يقال ويراد به: هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول[(١)].

الذكر في الشرع:

الذكر يطلق ويراد به أحيانًا العلم، فالعلم بالكتاب والسنة ذكر، والتعليم ذكر، والالتزام بالأمر وترك النهي ذكر، وهٰذا أوسع ما ترد فيه كلمة الذكر، ثم يأتي الذكر بمعنىٰ أقل عمومًا فيدخل فيه القرآن والعبادات التي فيها ذكر مباشر لله، ويأتي الذكر بمعنىٰ أخص من هٰذا وهو الذكر اللساني لله عز وجل وهو المقصود هنا[(٢)].

قال ابن حجر: «المراد بالذكر هنا: الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها

(١) ينظر: الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص: ٢٢١)؛ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٣٢٨)؛ الصحاح للجوهري (٢/ ٦٦٤).
(٢) ينظر: الأساس في السنة لسعيد حوىٰ (٥/ ٢٠٥٥).

والإكثار منها»[1].

وعرفه المالقي من حيث ثمرته والمقصود منه، فقال: «قيام معنى التوحيد في النفس حتى تصير صفة لها لا تغفل عنها»[2].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الذكرى: كثرة الذكر، وهو أبلغ من الذكر؛ قال تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣]، ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]؛ أي: فعظ الناس بما نوحيه إليك من القرآن.

التذكر والتذكرة: هو الموعظة والاعتبار، وما يتذكر به الشيء، قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] وذكَّرته كذا فتذكّر؛ قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧].

فضل الذكر

١. أمَر الله بكثرة ذكره وأثنى على أهله ووعدهم بعظيم الأجر:

حيث جاء الأمر بالذكر في القرآن قرَنه بالكثرة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وعلق الفلاح على كثرته؛ قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وأثنى على أهله وأخبر بما أعدّ لهم من الجنّة والمغفرة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٠٩).

(٢) بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ١٣٧).

إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، قال ابن عباس: «يريد: في أدبار الصلوات، وغدوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا وراح من منزله ذكر الله»(١).

وجعله قرين الأعمال الصّالحة وروحها؛ حيث قرنه بالصلاة فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وقرنَه بالجهاد عند ملاقاة الكفار فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. كما جعله ختام الأعمال الصالحة؛ فختم به الصيام فقال: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وختم به الحج فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وختم به الصلاة فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣].

٢. لا شيء عند الله أفضل من الذكر:

سئل رسول الله ﷺ: أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»، قال: قلت: يا رسول الله، ومِنَ الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دمًا لكان الذاكرون الله كثيرًا أفضل منه درجة»(٢). وبين سبق أهل الذكر فقال: «سبق المفردون قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات»(٣).

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٤٧١).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٨٨) برقم: (٣٣٧٦)، وقال: غريب؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٤٦١) برقم: (١١٨٩٩)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٦٣) برقم: (٢٦٧٦).

وفي الحديث: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلىٰ، قال: «ذكر الله تعالىٰ»[1]. ولأهمية الذكر أمر ﷺ معاذ بن جبل أن يسأل الله الإعانة عليه، فقال له: «يا معاذ، والله إني لأحبك»، فقال معاذ: بأبي أنت وأمي، والله إني لأحبك، فقال: «يا معاذ، أوصيك أن لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أَعِنّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[2].

٣. مجالس الذكر مقصد الملائكة ومكان نزول السكينة وبها يباهي الله ملائكته:

قال ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر؛ فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل تنادوا: هلموا إلىٰ حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء»[3].

وقال أيضًا: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[4].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٨٩) برقم: (٣٣٧٧)؛ ومالك في الموطأ موقوفًا علىٰ أبي الدرداء (١/ ٢٩٥) برقم: (٧١٦)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٦) برقم: (١٨٣١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وأحمد في مسنده (٩/ ٥٠٧٩) برقم: (٢٢١١٦).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٦٤) برقم: (٢٠٢٠)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٢٧٣) برقم: (١٠١٥)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين؛ والنسائي في المجتبىٰ (١/ ٢٧٧) برقم: (١٣٠٢/ ١)؛ وأبو داود في سننه (١/ ٥٦١) برقم: (١٥٢٢)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥١٩٤) برقم: (٢٢٥٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٨) برقم: (٢٦٨٩).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧٢) برقم: (٢٧٠٠).

٤. ذم الغافل عن الذكر:

لا شيء أبلغ في ذم الغافل عن ذكر الله من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]. وفي الحديث: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة»[١].

ثمرات الذكر

١. يورث محبة الله وذكره للذاكر:

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[٢]. بل إن الذكر يُذكّر بصاحبه كما في الحديث: «إن مما تذكُرون من جلال الله: التسبيح والتهليل والتحميد، ينعَطِفن حول العرش، لهنّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحل، تُذَكِّر بصاحبها، أما يُحب أحدكم أن يكون له -أو لا يزال له- مَن يُذَكِّر به!»[٣]. قال إبراهيم: «كان يقال: من علامة المحب لله عز وجل دوام الذكر بالقلب واللسان، وقل ما ولع المرء بذكر الله تعالى إلا أفاد منه حب الله عز وجل»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤١٤) برقم: (٤٨٥٥)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩١) برقم: (١٨١٤)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٢٢٠١) برقم: (١٠٧٧٣). صححه النووي، ينظر: الأذكار للنووي (ص: ٢٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥).

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٣) برقم: (١٨٦١)، وقال: صحيح على شرط مسلم؛ وابن ماجه في سننه (٤/ ٧١٦) برقم: (٣٨٠٩)؛ وأحمد في مسنده (٨/ ٤١٧٧) برقم: (١٨٦٥٣).

(٤) المحبة لأبي إسحاق الختلي (ص: ١٨).

٢. بالذكر تحصل طمأنينة القلب:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٣. الذكر سبب النجاة من عذاب الله:

قال معاذ بن جبل: «ما شيءٌ أنجىٰ من عذاب الله من ذكر الله»(١).

وخرج النبي ﷺ علىٰ حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم»؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده علىٰ ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذاك»؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»(٢).

٤. مجالس الذكر سبب المغفرة:

قال ﷺ: «إن لله تبارك وتعالىٰ ملائكة سيَّارةً فُضُلًا يَتَتَبَّعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم، وحفَّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم، حتىٰ يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل -وهو أعلم بهم-: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادٍ لك في الأرض يسبحونك، ويكبرونك، ويُهَلِّلونك، ويحمدونك، ويسألونك، قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب، قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٨٩) برقم: (٣٣٧٧)؛ ومالك في الموطأ موقوفًا علىٰ أبي الدرداء (١/ ٢٩٥) برقم: (٧١٦)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٦) برقم: (١٨٣١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وأحمد في مسنده (٩/ ٥٠٧٩) برقم: (٢٢١١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧٢) برقم: (٢٧٠١).

قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، قال: فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطَّاء، إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم»[1].

٥. الذاكر في حرز من الشيطان:

في الحديث: «وآمركم أن تذكروا الله؛ فإن مَثَل ذٰلك كمثل رجلٍ خرج العدوُّ في أثره سِراعًا، حتىٰ إذا أتىٰ علىٰ حِصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذٰلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»[2]. فلو لم يكن في الذكر إلا هٰذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يَفْتُر لسانه من ذكر الله تعالىٰ؛ فإن الشيطان لا يَدْخُل عليه إلا من باب الغفلة؛ قال ابن عباس: «الشيطان جاثم علىٰ قلب ابن آدم، فإذا سها وغفلَ وَسْوَسَ، فإذا ذكر الله تعالىٰ خَنَس»[3]. وثبت أن الشيطان يهرب من الأذان، وهو ذكر.

والشيطان يعقد علىٰ قافية كل عبد ثلاث عُقَد لا يحُلّ تلك العُقَد إلا ذكر الله تعالىٰ، جاء في الحديث: «يعقد الشيطان علىٰ قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[4].

وإذا خرج العبد من بيته فذكر الله تنحّىٰ عنه الشيطان؛ جاء في الحديث:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٨) برقم: (٢٦٨٩).
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٢٤) برقم: (٦٢٣٣)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٥٤٤) برقم: (٢٨٦٣)، وقال: حسن صحيح غريب.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٢٤٢) برقم: (٣٥٩١٩).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٢) برقم: (١١٤٢)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٢٨٧) برقم: (٧٧٦).

«إذا خرج الرجل من بيته فقال: باسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ: هُدِيتَ وكُفِيتَ ووُقيت، فتَتَنَحّىٰ له الشياطين، فيقول شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي!»[1].

٦. الذكر يعطي الحياة للقلب والقوة للبدن:

قال ﷺ: «مَثَلُ الَّذي يذكرُ ربهُ والَّذي لا يذكرُ مَثَلُ الحيّ والمَيِّت»[2]، وموقع التشبيه بالحي والميت: لما في الحي من النفع لمن يواليه والضر لمن يعاديه، وليس ذلك في الميت.

وفي الحديث عن علي: أن فاطمة ﷺ شَكت ما تلقىٰ من أثر الرَّحا، فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ، فانطلقَتْ فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبتُ لأقوم، فقال: «علىٰ مكانكما»، فقعد بيننا، حتىٰ وجدت بَرد قدميه علىٰ صدري، وقال: «ألا أُعَلِّمكما خيرًا مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما تُكَبِّرا أربعًا وثلاثين، وتُسَبِّحَا ثلاثًا وثلاثين، وتحمدَا ثلاثة وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم»[3].

٧. إدامة الذكر تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها:

في الحديث: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدُّثُور بالدرجات العُلىٰ والنعيم المقيم! فقال: «وما ذاك»؟ قالوا: يُصَلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نُعتق!

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٨٦) برقم: (٥٠٩٥)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٢٦) برقم: (٣٤٢٦)، وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٧)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٨) برقم: (٧٧٩) بلفظ: «مثل البيت الذي يُذكَر الله فيه والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحي والميت».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٩) برقم: (٣٧٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٤) برقم: (٢٧٢٧).

فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أُعَلِّمُكم شيئًا تُدركون به مَن سَبَقكم، وتَسبِقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم»؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «تُسبِّحون وتُكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة»[1].

٨. الذكر يجعل الدعاء مستجابًا:

ففي الحديث: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قال: فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ»[2]. فالدعاء الذي يَتَقدَّمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد.

٩. كثرة الذكر أمان من النفاق:

فإن الله عز وجل وصف المنافقين بقلة الذكر فقال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعب: «من أكثر ذكر الله برئ من النفاق»[3].

أنواع الذكر

- أنواع الذكر من حيث التقييد والإطلاق؛ ينقسم إلىٰ ذكر مقيد، وذكر مطلق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٦٨) برقم: (٨٤٣)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٧) برقم: (٥٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٦٢) برقم: (٣٤٧٥)، وقال: حسن غريب؛ وأبو داود في سننه (١/ ٥٥٤) برقم: (١٤٩٣)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥٤٤٥) برقم: (٢٣٤٣١).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٤١٥).

١. الذكر المقيد:

هو الذي ندبنا إليه رسول الله ﷺ مقيَّدًا بزمان خاص أو مكان خاص، أو حالة خاصة، وذلك كالذكر بعد أداء الصلوات المكتوبة، وأذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم والاستيقاظ، وأذكار السفر، والأكل والشرب، ودخول الخلاء، وأذكار الحج، وعند فطر الصائم، وأذكار متفرقة؛ كالذكر عند صياح الديك ونهيق الحمار، وعند رؤية مبتلى، وعند رؤية الهلال، وعند المرض، وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الأذكار.

٢. الذكر المطلق:

وهو ما لم يقيد بزمان ولا مكان ولا وقت ولا حال، وهو المطلوب من المؤمن في كل حال، وهو الذي ورد الأمر بالإكثار منه؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبَّث به، قال: «لا يزال لسانك رَطْبًا من ذكر الله»(١).

- أنواع الذكر من حيث العموم والخصوص ينقسم إلى: ذكر أجور، وذكر حضور(٢).

١. ذكر الأجور:

ذكر الأجور هو ذكر العامة؛ وهو: أن يذكر الإنسان الله تعالى بما شاء من الأذكار، لا يقصد به إلا نيل ما وعد الله الذاكرين من الأجر، من غير التفاتٍ لما وراء ذلك، فهذا راتعٌ في رياض الجنة وأجره ثابت على قدر نيته.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٨٨) برقم: (٣٣٧٥)، وقال: حسن غريب؛ وابن حبان في صحيحه (٣/ ٩٦) برقم: (٨١٤)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٥) برقم: (١٨٢٨)، وقال: صحيح الإسناد؛ وأحمد في مسنده (٧/ ٣٩٦٦) برقم: (١٧٨٨٩).

(٢) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ١٤٥).

٢. ذكر الحضور:

وأما ذكر الحضور؛ فهو التزام أذكار معلومة بحسب أحوال مخصوصة على سبيل الاستشفاء من علل النفس وأمراضها، ليخرجها من الأخلاق الذميمة ويُحَلِّيها بالأخلاق الحميدة، وهذه الأذكار مختلفة المعاني، ولكل معنى من معانيها اختصاص بزوال نوع من أنواع علل النفس بالمناسبة الضدية التي بينهما.

مراتب الذكر

الذكر على ثلاث درجات، قال النووي: «الذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضلُ منه ما كانَ بالقلب واللسان جميعًا، فإن اقتصرَ على أحدهما فالقلبُ أفضل»[1]، وتفصيلها كالآتي:

١. ذكر اللسان وحده:

وهو اشتغال اللسان بتحريكه بذكر الله تعالى، بدون حضور ذهن ومواطأة للقلب، ولا شك أن هذه عبادة وطاعة يؤجر عليها الإنسان، وفيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث، وثمرة الذكر باللسان ضعيفة، إلا أنه يحقق فوائد عديدة؛ منها:

تعويد اللسان على الذكر، وإذا أدمن اللسان على الذكر بصدق النية وإخلاص الوجهة لا بد وأن يُثمِر في قلبه نورًا يرتقي به إلى ذكر القلب؛ قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: «إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل! فقال: اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعَوَّدَه الذكر ولم يستعمله في الشر، ولم يعوده الفضول»[2].

---

(١) الأذكار للنووي (ص: ٩).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٨).

ومنها: أن فيه شغلًا للسان عن الباطل من الغيبة والنميمة واللغو، كما قيل: «نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل»[1]، قال الغزالي: «الاستغفار باللسان أيضًا حسنة؛ إذ حركة اللسان بها عن غفلة خيرٌ من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه»[2].

وقال ابن عطاء الله: «لا تترك الذِّكر لعدم حضورك مع الله فيه؛ لأن غفلتك عن وجودِ ذِكْره أشدّ من غفلتك في وجود ذِكْره، فعسىٰ أن يرفعك مِن ذِكرٍ مع وجود غفلة إلىٰ ذِكرٍ مع وجود يقظة، ومِن ذِكرٍ مع وجود يقظة إلىٰ ذِكرٍ مع وجود حضور، ومِن ذِكْرٍ مع وجود حضور إلىٰ ذِكرٍ مع وجود غيبة»[3].

٢. ذكر القلب وحده:

الذكر بالقلب هو الذكر الخفي، وهو الفكرة في عظمة الله وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في أرضه وسمائه، وفي أسرار المخلوقات، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وفي الحديث: «خير الذكر الخفي»[4]. والذكر بالقلب وحده أفضل من الذكر باللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يُثْمِرُ المعرفة، ويهيِّج المحبة، ويُثِيرُ الحياء، ويَبْعَثُ على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويَرْدَع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٨/ ٢٢٣).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٨).

(٣) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٣٤).

(٤) أخرج ابن حبان في صحيحه (٣/ ٩١) برقم: (٨٠٩)؛ وأحمد في مسنده (١/ ٣٧٠) برقم: (١٤٩٥).

٣. الذكر بالقلب واللسان:

إذا كان العبد ذاكرًا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه، قال النووي: «المرادُ من الذكر حضورُ القلب، فينبغي أن يكون هو مقصودُ الذاكر فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه... ولهذا كان المذهبُ الصحيح المختار استحباب مدَّ الذاكر قول: لا إله إلا الله، لما فيه من التدبر»[١].

آداب الذكر

إن تناول الذكر على سبيل التربية للوصول إلى تخليص النفس من أمراضها، وتحليتها بالصفات الحميدة وتزكيتها لا بد له من آداب ينبغي مراعاتها ليحصل المقصود على أكمل وجه، ومن ذلك:

١. الذكر على طهارة:

مر في حديث عائشة أن النبي ﷺ كان يذكر الله على جميع أحيانه، ولكن الذكر على طهارة أرجى في القبول؛ كما في ورد في خبر أبي عامر وهو في الرمق الأخير، فطلب من أبي موسى أن يقرئ رسول الله ﷺ السلام، وأن يستغفر له، قال أبو موسى: فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقلت له: قال: قل له يستغفر لي، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهم اغفر لعُبيد أبي عامر»[٢]. وعن المهاجر بن قنفذ أنه أتى النبي ﷺ وهو يتوضأ، فسلم عليه، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى توضأ، ثم اعتذر إليه، فقال: «إني كرهت أن أذكر الله

(١) الأذكار للنووي (ص: ١٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٥٥) برقم: (٤٣٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٧٠) برقم: (٢٤٩٨).

إلا على طهر»، أو قال: «على طهارة»[1]. فلو لم يكن الدعاء والذكر على طهارة أرجى في القبول لما فعله رسول الله ﷺ.

٢. استقبال القبلة حال الذكر والإسرار به:

الأكمل للذاكر أن يستقبل القبلة حال الذكر؛ لأنها جهة شريفة، قال النووي: «ينبغي أن يكون الذاكرُ على أكمل الصفات، فإن كان جالسًا في موضع استقبل القبلة وجلس مُتذلِّلاً مُتخشعـًا بسكينة ووقار، مُطرقـًا رأسه، ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز ولا كراهةَ في حقه، لكن إن كان بغير عذر كان تاركًا للأفضل. والدليل على عدم الكراهة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، وأما الإسرار به فهو الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

٣. استحضار القلب والتدبر:

الذكر لا يكون له تأثير إن لم يصاحبه حضور قلب وتدبر، قال النووي: «المرادُ من الذكر حضورُ القلب، فينبغي أن يكون هو مقصودُ الذاكر فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه... ولهذا كان المذهبُ الصحيح المختار استحباب مدِّ الذاكر قول: لا إله إلا الله؛ لما فيه من التدبر»[2].

٤. اختصار اللفظ وقوة المعنى:

لكل علة من علل النفس ذِكرٌ يناسبها، وكلما كان الذكر مُركَّزًا ومختصرًا كان أسرع وأنفع في علاج تلك العلة؛ حيث لا يكاد ينتهي من آخره حتى يعود إلى أوله،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٨٢) برقم: (٨٠٣)؛ وأبو داود في سننه (١/ ٨) برقم: (١٧).

(٢) الأذكار للنووي (ص: ١٣).

فلا يكاد المعنىٰ يغيب عنه، أما إذا طال معنى الذكر وكثرت ألفاظه تشعبت معانيه على الفكر، فأورثه تشعب ذٰلك إبطاءً عن المقصود.

أمراض النفس وأدويتها من الأذكار

إذا تأملت حال الشريعة وجدت موارد الأذكار فيها من استغفار وتهليل وتسبيح وتحميد وتكبير وغير ذٰلك من الأذكار مقصودة بحسب الأحوال الخاصة بها، نفيًا لعلل النفس لتتحلىٰ بالصفات الحميدة، وهٰذه جملة من الأذكار التي وردت حسب العلل التي قامت بالنفس[1]:

١. الذنوب:

دواء الذنوب هو: الاستغفار، فقد جعل الله فيه اختصاصًا بمحو الذنوب لأهل المتاب؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

٢. فتور الهمة في التزام أحكام الشريعة:

دواء ذٰلك: الصلاة على النبي ﷺ، فقد جعل الله في الصلاة عليه اختصاصًا برسوخ تعظيمه في النفوس وثبوت محبته في القلوب، وذٰلك سبب قوي في وجود النشاط في اتباعه، ويفهم ذٰلك من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وإن العارفين بالله يعتبرون كثرة الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ تنوب مناب الولي المرشد حال فقده؛ وذٰلك لأن عز وجل يصلي علىٰ من يصلي علىٰ رسوله ﷺ، ومن

---

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ١٥٢-١٥٨)؛ الأساس في السنة لسعيد حوىٰ (٥/ ٢١٦٥-٢١٦٦).

صلىٰ عليه أخرجه من الظلمات إلى النور؛ قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

٣. الهموم والأحزان:

ودواء ذٰلك: ذكر التهليل؛ إذ جعل الله تعالىٰ فيه اختصاصًا بنفي الهموم بما فيه من إمحاض معنى التوحيد؛ قال تعالىٰ -بعد أن ذكر أحوال المنافقين وما كانوا عليه من إبطان المكايد وإضمار الحيل للنبي ﷺ-: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ أي: استصحب معنى التوحيد حتىٰ لا تكترث بأمرِ مَن سواه، فالتهليل له اختصاص بطرد الهموم وتصييرها همًّا واحدًا للواحد الحق سبحانه، وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»(١).

٤. الخوف والجزع:

ذكر إذهاب الخوف والجزع هو: التهليل، والحسبلة، وقد ثبت ذٰلك في الحديث الصحيح؛ عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فَزِعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب؛ فُتِح اليوم مِن ردم يأجوج ومأجوج مثل هٰذا»، وحلق بإصبعه وبالتي تليها(٢). فقد جاء بذكر التهليل بين يدي كلامه لنفي ما يرد على النفس من الجزع والخوف بتوقع خروج يأجوج ومأجوج، واختياره عليه الصلاة والسلام ذكر التهليل بهٰذا الموضع دون غيره من الأذكار يؤذن أن التهليل أخص الأذكار بهٰذه الحال.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧٥) برقم: (٦٣٤٦)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٥) برقم: (٢٧٣٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٨) برقم: (٣٥٩٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٦٦) برقم: (٢٨٨).

ومن الأذكار التي تقال عند الخوف: الحسبلة، وهي «حسبنا الله ونعم الوكيل»؛ عن ابن عباس: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»(١). فنجّى الله إبراهيم بها من النار، وأذهب الخوف عن قلوب الصحابة حين قالوها.

٥. استكثار العدو:

والذكر المؤثر فيه هو: التكبير؛ ورد في الصحيح أن النبي ﷺ لما خرج إلىٰ خيبر لفتحها، ودنا من القرية، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «الله أكبر، الله أكبر، خَرِبت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين»(٢). فجاء ﷺ بذكر التكبير مُشعرًا بتصغير ما وردوا عليه من أمر خيبر وتحقيره، ليذهب عن النفس عارض استكثار العدو، ويتلاشىٰ ما سوى الله تعالىٰ في جنب كبريائه وعظمته، فيقوىٰ جأش الجيش في استقبال أمر العدو.

٦. اتباع المتشابهات ووساوس الشيطان:

الذكر المؤثر في طرد الشبهات عن القلب هو التسبيح، والاستعاذة من الشيطان؛ فالتسبيح يعمق في القلب تنزيه الله عز وجل، والتنزيه من أرقىٰ ما دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد ندبنا إلىٰ كثرة التسبيح لكثرة ما يطغىٰ علىٰ القلب من معاني التشبيه كأثر عن غلبة الحواس علىٰ قلب الإنسان. والاستعاذة تطرد وساوس الشيطان؛ قال ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَن خَلَق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتىٰ يقول: مَن خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٣٩) برقم: (٤٣٦٦).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٥) برقم: (٦١٠)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١٨٥) برقم: (١٣٦٥).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٣) برقم: (٣٢٧٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٨٤) برقم: (١٣٤).

٧. التكبر والاعتداد بالنفس:

الذكر المؤثر في نفي ذلك هو: الحوقلة «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإن من طبيعة النفس البشرية أن تعتد بحولها وقوتها مُحاوِلَةً النزوعَ إلىٰ منازعة الله ربوبيته، لذلك ندبنا إلى الإكثار من الحوقلة لنَفِرَّ من حولنا وقوتنا إلىٰ حول الله وقوته، ونعيد أنفسنا إلىٰ حظيرة المعرفة بالله، وأن كل شيء بعلمه وإرادته وقدرته.

فروع خاصة بالذكر

١. هل القرآن الكريم من قبيل الذكر؟ وهل هو أفضل أم الذكر؟

الذكر وسيلة إلىٰ تحقيق معنى التوحيد في النفس حتىٰ يصير صفة لها، وهو ليس الوسيلة الوحيدة لذلك، وإنما هو واحد منها، والقرآن من جملة الوسائل التي تَجُرُّ النفس إلى اتصافها بحقيقة الذكر، والقرآن يشمله اسم الذكر؛ فقد سماه الله ذكرًا فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، ولكن آيات القرآن فيها ما هو مشتمل علىٰ ما هو وسيلة إلىٰ قيام حقيقة الذكر بالنفس، وما هو وسيلة إلى الوسيلة؛ فليس تلاوة آيات الأسماء والصفات ونحوها مثل تلاوة آيات الأمر والنهي، وليس تلاوة آيات الأمر والنهي كتلاوة آيات القصص والأخبار في سرعة انفعال النفس بالاتصاف بحقيقة الذكر.

إذا تقرر هذا، فالكلام في المفاضلة بين حركة اللسان بالتلاوة وحركته بذكر اسم من أسمائه أو صفة من صفاته أو نحو ذلك هو بحسب الناس؛ إذ الناس في ذلك قسمان: عامة وخاصة. أما العامة؛ فهم الذين لا يخطر ببالهم أثناء الذكر أو القراءة معنىٰ تطهير النفس وتزكيتها، فهؤلاء قراءة القرآن في حقهم أفضل من الذكر؛ وبعضهم أعلىٰ درجة من بعض بحسب إتقانهم للتلاوة وبحسب تدبُّرهم لكلام الله تعالىٰ.

وأما الخاصة؛ فهم الذين أخذوا في تخليص أنفسهم من شوائب الأهواء وتطهيرها من دنس الشهوات عن طريق المجاهدة والتدريب، فمداواة نفوسهم وتطهيرها يكون بالنظر إلىٰ عللها، ثم النظر في أخص وسائل إذهاب تلك العلة؛ فإن وجد شفاء تلك العلة في آية قرآنية فلا شك أن اختياره لتردادها أفضل من اختيار ذكر من الأذكار؛ قال ابن القيم: «فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتىٰ مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مئة مرَّة، ولو ليلة؛ فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان»(١).

وأما تلاوة القرآن كاملًا بقصد إذهاب علل النفس بدون التدبر المطلوب فإنه لا يوصل إلى المعنى المراد إلا بطول كلفة؛ وذٰلك لاختلاف ثمراته وتنوع مشاربه، فهو يجمع المعاني التي تعود بالنفع لأمور مختلفة، فيجمع مثلًا بين آيات الخوف والرجاء، فصاحب الأمن لو أُمِر بالإدمان على التلاوة فمر علىٰ آية الخوف فلا يكاد يتدبر معناها ليرسخ في النفس إذا به ينتقل إلىٰ آية أخرىٰ ربما اقتضت الرجاء، فهو ينتقل من آية فيها تخويف إلىٰ آية فيها اعتبار إلىٰ أخرىٰ فيها أحكام، فلا يحصل له التركيز علىٰ ما فيه علاج لعلته تلك، لذٰلك كان الذكر الواحد أولىٰ بصاحب هٰذا المقام، بأن يكون الذكر الخاص بذهاب علته هو الغالب عليه في أكثر أوقاته(٢).

٢. الذكر أفضل أم الدعاء؟

الذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناءٌ على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاءُ سؤال العبد حاجته، ولهٰذا كان المستحب في الدعاء

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٣٥).

(٢) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (١/ ١٣٧-١٤٢).

أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالىٰ، والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته، ففي الحديث: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو في صلاته، فلم يصلِّ على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «عجِل هٰذا»، ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلىٰ أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصلِّ على النبي ﷺ، ثم لِيَدعُ بعدُ بما شاء»[1].

٣. المفاضلة بين الذكر وبقية الأعمال:

ورد في حديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلىٰ، قال: «ذكر الله تعالىٰ»[2].

فهل الذكر أفضل من الجهاد والصدقة وبقية أعمال البِرّ؟

في الجواب لا بد من توضيح عدة أمور[3]:

١ . قد غلط ناس في فهم هٰذا الحديث، حتىٰ أقبلوا على الذكر وتركوا الفرائض أو تساهلوا في المحرمات. وهٰذا غلط؛ لأن الذكر إنما كان له هٰذا المقام لأنه يساعد علىٰ إقامة الفرائض وترك المحرمات، فالأحاديث التي تحض على الذكر مُفَضِّلةً إياه علىٰ غيره هدفها تربية المسلم على العمل، وأن يرافق الذكر العمل، فلا يُعرض عن الذكر في العمل، ولا يعطل العمل المطلوب.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٦٣) برقم: (٣٤٧٦)؛ وقال: حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٢٩٠) برقم: (١٩٦٠)؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٥٧٨٣) برقم: (٢٤٥٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٨٩) برقم: (٣٣٧٧)؛ ومالك في الموطأ موقوفًا علىٰ أبي الدرداء (١/ ٢٩٥) برقم: (٧١٦)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٦) برقم: (١٨٣١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وأحمد في مسنده (٩/ ٥٠٧٩) برقم: (٢٢١١٦).

(٣) ينظر: الأساس في السنة لسعيد حوىٰ (٥/ ٢٠٥٥)؛ الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/ ٢٠٥).

٢ . إن المعنى الذي نبه إليه هذا الحديث هو أن قبول الله للطاعات التي يؤديها المسلم متوقف على سلامة الصدر وإخلاص النية وصفاء العمل من شوائب العجب والرياء، ولا يتأتى ذلك إلا بطهارة القلب من سائر الآفات التي تحجب العبد عن الله، والسبيل الوحيد إلى ذلك هو ذكر الله، فهو الشرط لصلاحية القربات وقبول الله لها، فأعمال البر كلها إنما مقصودها الأعظم تصفية النفس وتطهيرها وإخراجها عن هواها، فما كان من الأعمال أقرب لهذا المعنى وأعون عليه فهو أفضل، والذكر إذا استعمل على طريقه المعروف مبنيًّا على قواعد الشرع فإنه لا يدع من علل النفس أثرًا إلا أتى عليه.

وذكر ابن حجر أنه قد يستشكل حديث أبي الدرداء هذا مع حديث: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الدائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع»[1]، وغيره من الأحاديث التي تدل على أفضلية الجهاد على غيره من الأعمال الصالحة، قال ابن حجر: «وطريق الجمع -والله أعلم- أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء الذكر الكامل؛ وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكر في المعنى واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلًا من غير استحضار لذلك، وأن أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، فمن اتفق له أنه جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو قتاله الكفار مثلًا فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالى، وأجاب القاضي أبو بكر بن العربي بأنه ما من عمل صالح إلا

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٦٢٩) برقم: (١٦١٦)؛ وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٨٣) برقم: (٤٦٢١)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٢٦٣) برقم: (١٦١٩)، وقال: حسن صحيح.

والذكر مشترط في تصحيحه، فمن لم يذكر الله بقلبه عند صدقته أو صيامه مثلًا فليس عمله كاملًا، فصار الذكر أفضل الأعمال من هٰذه الحيثية»(١).

نماذج من تمثل الصالحين بالذكر

١. عن علي ﵁ قال: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شُعثًا غُبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزىٰ، قد باتوا لله سُجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتىٰ تبل ثيابهم»(٢).

٢. عن أبي هريرة ﵁ أنه «كان له خيط فيه ألفَا عُقدة، فلا ينام حتىٰ يسبح به»(٣).

٢. قال مخمش الجلاب: «صحبت أبا حفص النيسابوري اثنتين وعشرين سنة، ما رأيته ذكر الله تعالىٰ علىٰ حد الغفلة والانبساط، وما كان يذكره إلا علىٰ سبيل الحضور والتعظيم والحرمة، فكان إذا ذكر الله تغيَّرت عليه حاله، حتىٰ كان يَرىٰ ذٰلك منه جميع من حضره»(٤).

٣. «كان خالد بن معدان يسبح في اليوم أربعين ألف تسبيحة سوىٰ ما يقرأ من القرآن، فلما مات ووضع علىٰ سريره ليغسل جعل بأصبعه هٰكذا يحركها، يعني بالتسبيح»(٥).

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢١٠).

(٢) مقتل علي لابن أبي الدنيا (ص: ٢٥).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٣٨٣).

(٤) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمٰن السلمي (ص: ١٠٣).

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢١٠).

المقترحات العملية والتدريبات

١ . قراءة (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) من صحيح مسلم.

٢ . اجعل لنفسك وِردًا يوميًّا تقرأ به عدة صفحات من كتاب (الأذكار) للإمام النووي، واكتب الأذكار الواردة في الأحوال والأوقات الخاصة، واحفظها لترددها في تلك الأحوال والأوقات.

٣ . اجعل لنفسك وردًا يوميًّا لا يقل عن مائة مرة من الأذكار الآتية:

أ. «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». (١٠٠) في الصباح، و(١٠٠) في المساء.

ب. «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

ج. «سبحان الله وبحمده». (١٠٠) في الصباح، و(١٠٠) في المساء.

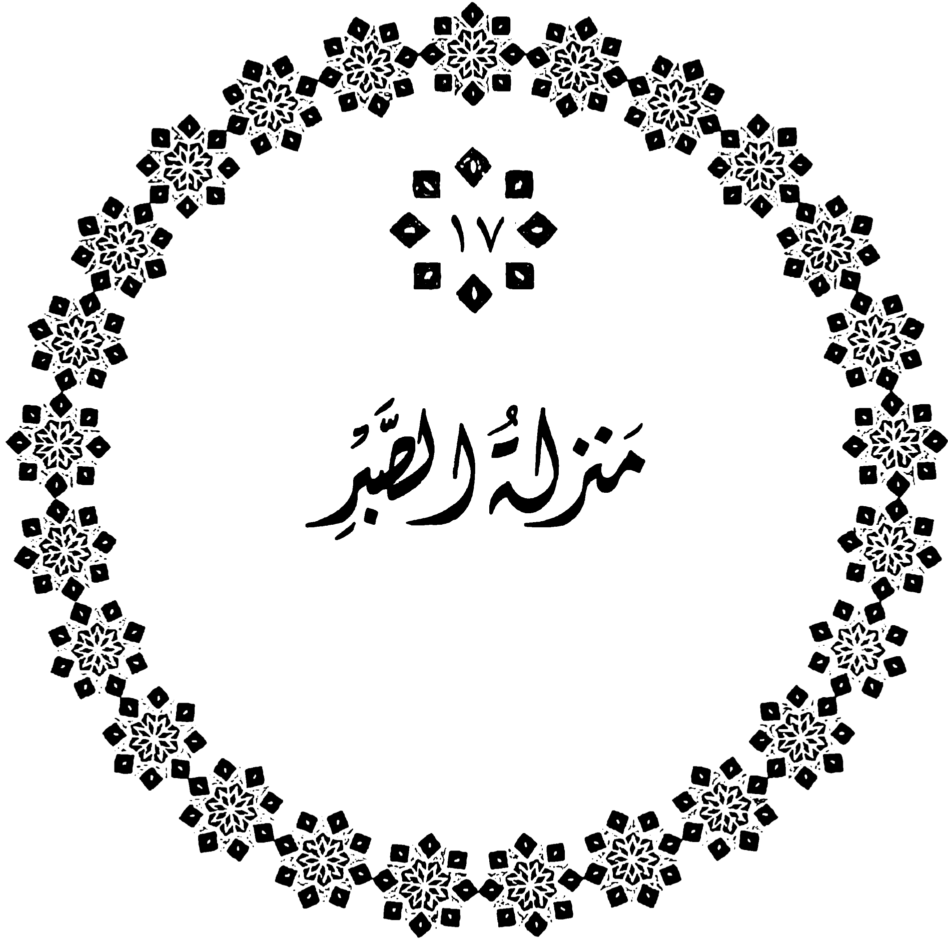
د. «اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

هـ. «أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه».

و. «لا حول ولا قوة إلا بالله».





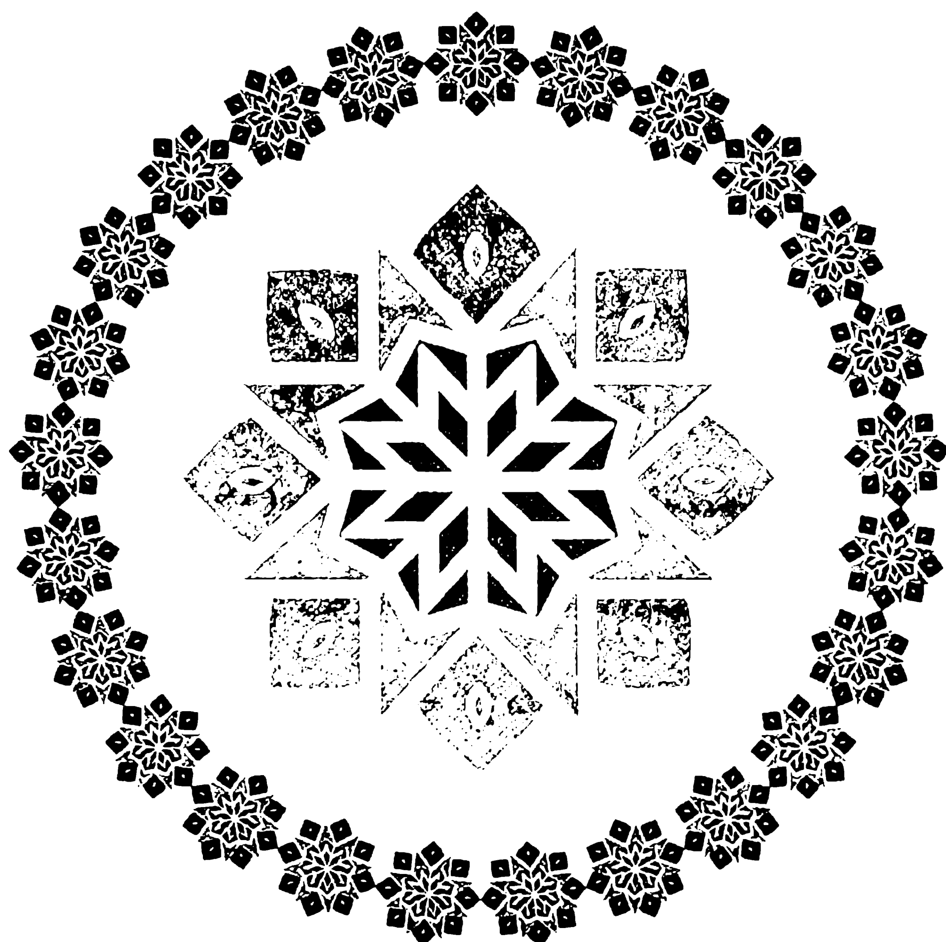


١٧

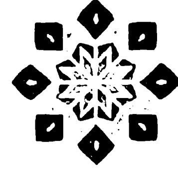
مَنزلةُ الصَّبرِ











منزلة الصبر



بين يدي الصبر

إن مقامات الدين كلها مرتبطة بالصبر، فهو عنصر أصيل في الأعمال الصالحة من صلاة ونفقة وغيرها، وهو الخيط الذي يجمعها، وهو في كيانها كالماء في صنوف الأحياء، فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر؛ فالعفة هي صبر على شهوة الفرج، والشجاعة هي الصبر عند لقاء العدو، والحلم هو الصبر عند الغضب، وكتم السر هو صبر عن شهوة الكلام ونشر الأخبار، والزهد هو الصبر عن فضول العيش، ولذلك قال علي ﷺ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد».

والذي يتبادر إلى الأذهان أن الصبر مطلوب لمواجهة المآسي والآلام فقط، بَيدَ أن الصبر مطلوب في السراء كما هو مطلوب في الضراء، بل الصبر في حال السراء أشدُّ على النفس؛ لذلك قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[1]؛ وذلك لأن لاتصال النعمة سَكْرة تستفِزُّ الضعاف وتدفعهم إلى ما لا يليق مِن بَطَرٍ وجهل، ولذلك أوجب الإسلام على المسلم الصبر في حالي الخير والشر، والنفع والضر؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١٠-١١].

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ١٨١)؛ والمصنف لعبد الرزاق (١٠/ ٤٦٥).

والعبد لا يخلو قطُّ من أن يكون في نعمة أو بليّة؛ فإن كان في نعمة ففرضُها الشكر والصبر؛ أمَّا الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيلُ بمزيدها، وأمَّا الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلُبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظُها؛ فهو أحوجُ إلى الصبرِ فيها من حاجة المبتلىٰ.

وقد ذكر الله تعالى الصبر في كتابه في نحو تسعين موضعًا؛ فمرَّةً أمر به، ومرَّةً أثنىٰ علىٰ أهله، ومرَّةً أمر نبيَّه أن يبشّرهم، ومرَّةً جعله شرطًا في حصول النصر والكفاية، ومرَّةً أخبر أنَّه مع أهله، وأثنىٰ به علىٰ صفوته من العالمين، وهم أنبياؤه ورسله، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الصبر من أجَلّ مقامات الإيمان، وأنَّ أخصَّ النَّاس باللَّه وأولاهم به أشدُّهم قيامًا وتحقّقًا به، وأنَّ الخاصَّة أحوج إليه من العامّة.

حقيقة الصبر

الصبر في اللغة:

أَصل الصَّبْر الحَبْس، وكل من حَبَس شيئًا فقد صَبَرَه، ومنه يقال للرجل يُقدَّم فتُضرب عنقه: قُتل صبرًا، يعني: أنه أُمسِك على الموت، وهو نقيض الجزع، فالصبر: حَبس النفس عن الجزع(١).

الصبر في الشرع:

عرف العلماء الصبر بتعريفات مؤداها واحد في العموم، إلا أن بعضهم لاحظ جانبًا دون غيره، وهٰذه بعض التعريفات كما وردت في الرسالة القشيرية: «قال ذو النون: الصبر: التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرُّعِ غُصص البلية، وإظهار الغنىٰ مع حلول الفقر بساحات المعيشة. وقال رويم: الصبر: ترك الشكوىٰ. وقال الخوَّاص: الصبر: الثبات علىٰ أحكام الكتاب والسنة. وقيل: الصبر: المقام

(١) ينظر: غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٢٥٤)؛ تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ١٢٠-١٢١).

مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية»[1].

وقال ابن القيم: «الصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التَّشكّي والتسَخُّط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما»[2].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الصبر والرضا:

الصبر: حبس النفس وكفها عن السخط مع وجود الألم وتمني زواله، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع. أما الرضا فهو: حالة فوق الصبر، فالراضي لا يتمنىٰ غير حاله التي هو عليها. قال ابن رجب: «وحقيقة الفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر كفّ النفس وحبسها عن التسَخُّط مع وجود الألم، والرضا يوجب انشراح الصدر وسعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم، لكن الرضا يخفف الإحساس بالألم لِمَا يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وقد يزيل الإحساس به بالكلية»[3].

فضل الصبر وثمراته

إن الصبر دليل علىٰ قوة الإرادة وكمال العقل، والبُعد عن الطيش والرعونة، إضافة إلىٰ أنه ثمرة من ثمرات الفهم عن الله عز وجل، وتدبّر حكمته العظيمة في تصريف الأمور وامتحان عباده في هٰذه الحياة، وثمرة من ثمرات الرضا عن الله فيما تجري به مقاديره. وفيما يلي بعض فضائل ومزايا الصبر:

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٣٢٣).

(٢) عدة الصابرين لابن القيم (١/ ١٥).

(٣) نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس لابن رجب الحنبلي (٣/ ١٥١).

١ . ثناء الله على الصابرين وإيجابه معيته ومحبته لهم:

أثنى الله تعالىٰ على الصابرين في كثير من آيات القرآن؛ من ذٰلك قوله تعال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وأشاد بفضيلة خلق الصبر وجعله قرين الصلاة والإنفاق فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]، وقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وأوجب تعالىٰ محبته للصابرين فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وأوجب معيته لهم فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٢ . الصابرون يجازون أحسن جزاء:

مناط الصبر الثواب الجزيل الذي يصبه الله صبًّا علىٰ من ابتلي وسلم لله أمره قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر. والصابرون يجازون بأحسن أعمالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]. وبشر الله الصابرين بأمرين عظيمين؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

٣ . الصبر أحسن عطاء:

في الحديث: أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ نفد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدَّخِرَه عنكم، ومن يَستعفف يعفه الله، ومن يستغن يُغنِه الله، ومن يَتَّصبّر يُصبِّره الله، وما أُعطيَ

أحدٌ عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»(١).

٤. الصبر سبب تكفير الذنوب:

إن الصبر على البلايا والمصائب سبب لمغفرة الذنوب ورفعة الدرجات؛ قال ﷺ: «ما يُصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»(٢).

والمثوبة عليها إن صبر طائعًا، وإلا احتمل همًّا لازمًا، وصبر كارهًا آثمًا، قال علي رضي الله عنه: «إنك إن صبرت جرىٰ عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرىٰ عليك القلم وأنت مأزور»(٣).

٥. الصبر سبب في حصول كل كمال:

فأكملُ الخلقِ أصبرُهم، ولم يتخلف عن أحد كمالُه الممكن إلا من ضعف صبره؛ فإنَّ كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم تكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، ولا تقوم شجرة الثبات والعزيمة إلا علىٰ ساق الصبر؛ قال عمر بن الخطاب: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»(٤).

٦. الصبر طريق الإمامة في الدين والتأهل للقيادة:

جعل الله الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٢) برقم: (١٤٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٤) برقم: (٥٦٤١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٦) برقم: (٢٥٧٣).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (٢٨٨).

(٤) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٣٥٤).

وقد وصل يوسف ﵇ إلىٰ مرتبة القيادة نتيجة لتحققه بالتقوىٰ والصبر؛ قال تعالىٰ: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقوم موسىٰ ﵇ الذين كانوا يعيشون حياة الذل علىٰ أيدي فرعون وجنوده قد أورثهم الله العزة وحكم البلاد بسبب صبرهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

٧. الصبر علىٰ بعض أنواع البلاء له أجر الشهادة:

هناك بعض الأمراض والأوبئة العامة جعل الله أجر الصبر عليها الحصول علىٰ مرتبة الشهادة، وهي مرتبة عليا ليس فوقها إلا مرتبة النبوة والصديقية؛ عن عائشة ﵂ أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها نبي الله ﷺ: «أنه كان عذابًا يبعثه الله علىٰ من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرًا يعلم أنه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد»[1]. وفي حديث آخر قال: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله»[2].

أنواع الصبر

ينقسم الصبر باعتبار ما يصبر عنه إلىٰ نوعين[3]:

١. الصبر علىٰ ما يوافق الهوىٰ:

وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وجميع ملاذ الدنيا، فإن العبد إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذّها المباحة أخرجه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٣١) برقم: (٥٧٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٢) برقم: (٦٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٥١) برقم: (١٩١٤).

(٣) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٣١)؛ إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٦٩ وما بعدها).

ذلك إلى البَطَر والطغيان؛ فإن الإنسان ليطغىٰ أن رآه استغنىٰ، فالصبر على الغنىٰ أن لا يبذله في الهوىٰ، وأن يرعىٰ حقوق الله في ماله بالإنفاق، والصبر علىٰ الصحة في بدنه يكون ببذل المعونة للخلق، والصبر على النعمة أن لا يستعين بها علىٰ معصية، فحاجة المؤمن إلى الصبر في هٰذه المعاني ومطالبته بالصبر عليها كحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر وعلى الشدائد والضرّ، ويقال: إن البلاء والفقر يصبر عليهما المؤمن، والعوافي لا يصبر فيها إلا صِدِّيق، وقال سهل: «الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء»[1]، وقال عبد الرحمٰن بن عوف ﷺ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[2]؛ ولذٰلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]. وهٰذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر.

٢. الصبر علىٰ ما لا يوافق الهوىٰ والطبع

وهٰذا الصبر لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد؛ كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره؛ كالمصائب والنوائب، وهٰذا بيانه:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره

وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فهو ضربان:

الأول: الصبر على الطاعة:

والصبر على الطاعة شديد؛ إذ العبادات ثقيلة فيها مشقة؛ فمنها ما يُكره بسبب الكسل؛ كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل؛ كالزكاة، ومنها ما يُكره بسببهما جميعًا؛ كالحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٣١).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ١٨١)؛ والمصنف لعبد الرزاق (١٠/ ٤٦٥).

ويحتاج المطيع إلى الصبر علىٰ طاعته في ثلاث أحوال:

الحالة الأولىٰ: قبل الطاعة؛ وذٰلك في تصحيح النية والإخلاص، وذٰلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء، ولهٰذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١].

الحالة الثانية: حالة العمل؛ كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ولعله المراد بقوله تعالىٰ: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩]؛ أي: صبروا إلىٰ تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل؛ إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، كما قال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذىٰ فقد أبطل عمله.

الثاني: الصبر عن المعاصي:

وأشد أنواع الصبر الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة، ثم إن كان ذٰلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس؛ كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب، وذكر الموتىٰ والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم.

القسم الثاني: ما لا يدخل تحت الاختيار

وهي المصائب والشدائد؛ مثل: موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض، وعمى العين، وفساد الأعضاء، وسائر أنواع البلاء، وهٰذا يكون محمودًا إذا وافق الشرع وحَسُنت نية صاحبه؛ بأن صبر ابتغاء مرضاة الله؛ وذٰلك

كصبر أحمد بن حنبل على الضرب والتعذيب في محنة خلق القرآن، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر؛ ولذلك قال ﷺ: «وارزقني من اليقين ما تُهَوِّن به علي مصائب الدنيا»[1]. وقال ﷺ: «إن الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحَبيبتيه فصبر عوَّضته منهما الجنة». يريد عينيه[2]. فأحسن الناس صبرًا عند المصائب أكثرهم يقينًا، وأكثر الناس جزعًا وسخطًا في المصائب أقلّهم يقينًا.

شروط الصبر

لا ينال العبد درجة الصبر إلا إذا حقق شروطه، وشروط الصبر هي:

١. الإخلاص لله في الصبر واحتساب الأجر:

وذلك بأن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأغراض.

٢. الصبر في أوانه:

وهو الصبر عند الصدمة الأولى؛ كما ورد في الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[3]، فالصبر الذي يَشُقّ ويعظم تحمُّله ومجاهدة النفس عليه، ويقل صابِره ويؤجر عليه الأجرَ الجزيل إنما يكون عند وقوع المصيبة وهجومها، وأما بعد الصدمة الأولى وبَرْد المصيبة فكلُّ أحدٍ يصبر حينئذ ويقل جزعه، ولذلك قيل: «يجب للعاقل أن يلتزم حين مصابه ما لابد للأحمق منه بعد ثلاث»[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٨) برقم: (١٩٤٠)، وقال: صحيح على شرط البخاري؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٨١) برقم: (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٦) برقم: (٥٦٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم: (١٢٨٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم: (٩٢٦).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٣/ ٣٦٨).

٣. حفظ اللسان والجوارح عند المصيبة:

فإن بعض الناس من شدة وقع المصيبة قد تخرج كلمة تدل سخطه من قضاء الله وعدم قبوله، فهٰذا ينافي الصبر، وقد ورد في الحديث: «وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم»[١]. وكذٰلك فإن بعضهم قد يقوم بتصرفات تدل علىٰ تبرُّمه من قضاء الله؛ كشق الثياب ولطم الخدود وغيرها، وقد ورد التحذير من هٰذه الأعمال؛ ففي الحديث: «ليس مِنّا من لَطَم الخدود، وشَقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[٢].

٤. عدم التشكي:

قال طائفة من السَّلف في قوله تعالىٰ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ [يوسف: ١٨]، قال: «لا شكوىٰ معه»[٣]. وكان الإمام أحمد لا يشتكي ما به من المرض إِلَىٰ أحد، وذُكِرَ له أن مجاهدًا كان يكره الأنين في المرض، فتركه، فلم يئِنّ حتىٰ مات، وكان يقول لنفسه: «يا نفسي، اصبري ولا تندمي»[٤]. وفي هٰذا المعنىٰ يقول بعضهم:

تَفِيضُ النفوس بأوصابها ... وتكتم عُوَّادَها ما بها
وما أنصفَتْ مُهْجَةٌ تشتكي ... هواها إلىٰ غيرِ أحبابها[٥]

ولٰكن التشكي المنافي للصبر هو فيما إذا كان بسبب الجزع والتسَخّط، أما مجرد ذكر الشكوىٰ بلا جزع فلا بأس به، ولا ينافي الصبر؛ ومنه حديث عائشة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم: (٦٤٧٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨١) برقم: (١٢٩٤)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٦٩) برقم: (١٠٣).

(٣) تفسير ابن رجب (١/ ١٣٥).

(٤) نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس لابن رجب (٣/ ١٥٣).

(٥) ينظر: المصدر السابق.

عن النبي ﷺ: «بل أنا وارأساه»[1]. فمن شكا إلى الناس وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله، لم يكن ذٰلك جزعًا.

مراتب الصبر

للصبر ثلاث مراتب[2]:

١. التصبّر:

وهو تحمُّل مشقَّةٍ وتجرُّع غُصّةٍ في الثبات علىٰ ما يجري من الحكم، وعلىٰ امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وصاحبه في هٰذه المرحلة متصبّر يجاهد نفسه للتحقق بخلق الصبر، وهو في هٰذه المرحلة لا يخلو من جزع، وهو صبر العوامّ.

٢. الصبر:

الصبر ثمرة التصبر، وهو تحمُّل البلاء بطيب نفس، وعدم الشعور بالمشقة في التكاليف، فصاحبه بعيد عن الجزع، ولٰكنه لا يخلو من بعض الشكوىٰ، وهو صبر المريدين.

٣. الاصطبار:

الاصطبار أبلغ من الصبر، وهو شدّة الصبر على الأمر الشاق؛ لأن صيغة الافتعال تفيد القوة، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال أيضًا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، فالاصطبار هو الاستبشار باختيار المولىٰ، وصاحبه قد صار الصبر سجيّة وخُلُقًا راسخًا في نفسه، فيصبر بلا جزع ولا شكوىٰ، ويكون صبره مقرونًا بالرضا والتسليم، ولو ببذل الروح في سبيل الله، وهو صبر العارفين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٩) برقم: (٥٦٦٦).

(٢) ينظر: منارات السائرين لأبي بكر الرازي (ص: ٢٠١)؛ طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٥٧٥-٥٧٦).

طرق اكتساب الصبر

قد مر معنا أن الصبر ثلاثة أنواع؛ صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء والشدة، وليسهل على السالك التحقق بالصبر في هٰذه الأنواع لا بد من بيان طرق اكتساب كل نوع علىٰ حدة.

أولًا: طرق اكتساب الصبر عن المعصية[1]:

١. قطع باعث الشهوة:

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع وغلبت عليه الشهوة بحيث لم يعد يملك معها فرجه، أو لا يستطيع غض بصره، فلا بد من قطع باعث الشهوة للسيطرة عليها، وذٰلك يحصل بعدة أمور؛ منها: قطع مادة الشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها؛ وذٰلك بالمداومة على الصوم، والاقتصار عند الإفطار علىٰ طعام قليل خالٍ من الأطعمة المهيجة للشهوة. ومنها: قطع أسبابه المهيجة، وذٰلك بالاحتراز عن مظانٍّ وقوع البصر على الصور المشتهاة، والبُعد قدر الإمكان عن أماكن الاختلاط. ومنها: عدم تأخير النكاح، وهٰذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر؛ فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال[2].

٢. العلم بقبح المعاصي وسوء عاقبتها:

فالمعاصي إنّما حرَّمها الله تعالىٰ ونهىٰ عنها صيانةً لعبده وحمايةً له عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالدُ الشفيقُ ولدَه عما يضرّه؛ فالمعاصي تورث سواد

---

(١) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٥٨٨-٥٨٩).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٧٥-٧٦).

الوجه، وظلمة القلب والطبع عليه، والوقوع في بئر الحسرات؛ لأنه لا يستطيع نيل كل اللذات، وما يعجز عنه منها أضعاف أضعاف ما يقدر عليه، وهي تورث كذلك ضعف البدن وزوال المهابة، وضياع الوقت، وحرمان حلاوة الطاعة، وإعراض الله عنه، وفوات ما هو أحب إليه منها؛ فإنَّه لا يجمع الله لعبده بين لذَّة المحرمات في الدنيا ولذَّة ما في الآخرة، وغيرها من الآثار القبيحة التي لا يمكن أن يحيط بها العبد، فإن شرّ الدنيا والآخرة بحذافيره في معصية الله تعالىٰ.

٣. الحياء من الله تعالىٰ:

فإنّ العبد متىٰ علم بنظر الله تعالىٰ إليه وأنّه بمرأىٰ منه ومسمع، وكان حَيًّا حَيِيًّا، استحيا من ربّه أن يتعرّض لمساخطه؛ قال أبو الجلد: «أوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي، وتظهرونها لي! إن كنتم ترون أني لا أراكم، فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟!»[(١)].

٤. مراعاة نِعم الله تعالىٰ والحذر من زوالها:

فإنّ الذنوب تزيل النِّعَم، فما أذنبَ عبد ذنبًا إلّا زالت عنه نعمةٌ مِن الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه، وإن أصرّ لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تُزيل عنه نعمةً نعمةً حتّىٰ يُسلَب النِّعَمَ كلها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]. قال الفضيل بن عياض: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق دابتي وجاريتي»[(٢)]. وربما كان العقاب العاجل معنويًا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: «يا رب! كم أعصيك ولا تعاقبني! فقيل له:

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٤٠٨).

(٢) ذم الهوىٰ لابن الجوزي (ص: ١٨٥).

كم أعاقبك وأنت لا تدري! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي»[1]. قال بعضهم:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها فإنَّ المعاصي تُزيلُ النِّعَمْ[2]

ثانيًا: طرق اكتساب الصبر على الطاعة:

إن طاعة الله تعالىٰ والعمل الصالح يوصل إلىٰ رضا الله وسبب في دخول الجنة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ولكن ثمرات الطاعة لا تقتصر على الجزاء الأخروي، بل لها آثار طيبة كثيرة في الدنيا، وإذا تفكّر العبد في هذه الآثار فإن ذلك يعينه على الصبر علىٰ مشقتها، ويدفعه إلى القيام بها، ومن تلك الآثار:

١. العلم بأن الصبر سبب الحياة الطيبة والرزق الوافر:

وعد الله تعالىٰ من أطاعه وتزود من الصالحات بالحياة الطيبة في الدنيا؛ قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ومن الأعمال الصالحة التي ينال بها العبد البركة في الرزق: صلة الرحم؛ ففي الحديث: «مَن أحب أن يُبسط له في رزقه وأن يُنْسَأ له في أثره، فليصل رحمه»[3].

٢. الطاعة سبب القوة والنشاط في البدن:

إن الطاعة عمومًا والذكر خاصة يزيد المؤمن قوة ونشاطًا؛ عن علي أن فاطمة اشتكت ما تلقىٰ من الرحىٰ في يدها، وأتى النبيَّ ﷺ سبيٌ، فانطلقت فلم تجده، ولقيت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها،

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٦٥).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٤٦)، ولم ينسبه لأحد.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٥) برقم: (٥٩٨٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨) برقم: (٢٥٥٧).

فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال النبي ﷺ: «على مكانكما»، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: «ألا أعلمكما خيرًا مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما أن تكبرا الله أربعًا وثلاثين، وتسبحاه ثلاثًا وثلاثين، وتحمداه ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»[1].

وفي حديث آخر: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عُقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عُقَدُه كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[2].

٣. أثر الطاعة عند سكرات الموت ويوم الفزع الأكبر:

إن ساعة قبض الروح هي أشد حالات الكرب التي يمر بها الإنسان، ومع ذلك فإن المؤمن الطائع تأتيه الملائكة لتبشرّه وتُذهب عنه ما يلاقي من شدة النزع ووحشة القبر؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وكذلك يثبت الله تعالى في هذا الموقف التي تتزعزع فيه القلوب وتُفتن؛ قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والطائع المتصدق يأمن من الفزع الأكبر؛ قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ٨-١١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٨٤) برقم: (٣١١٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٤) برقم: (٢٧٢٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٢) برقم: (٣٢٦٩)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٧) برقم: (٧٧٦).

ثالثًا: طرق اكتساب الصبر على البلاء والمصائب:

لتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب إذا قارنت حزمًا وصادفت عزمًا هان وقعها، وقَلَّ تأثيرها وضررها؛ ومن تلك الأسباب:

١ . العلم بأن كل بلاء نزل إنما هو بقدر:

الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فُرِغ منها، فمنها مَا هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه؛ عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: «يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، قال: ربِّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[1].

٢ . إشعار النفس بما تعلمه من زوال الدنيا:

فإن لكل أحد أجل محتوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء؛ ففي الحديث: «نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وِطاءً، فقال: «ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها»[2]. ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة مكتوب فيها: «إذا لم يكن جَدٌّ ففيمَ الكَدّ! وإن لم يكن للأمر دوام ففيمَ السرور! وإذا لم يُرِد الله دوام مُلك ففيم الحيلة!»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٣٦٢) برقم: (٤٦٨٦)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥٣٦٢) برقم: (٢٣١٤٥)؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٢٧٤) برقم: (٣٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٨٦) برقم: (٢٣٧٧)، وقال: حسن صحيح؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٢٩) برقم: (٤١٠٩)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٨٦٣) برقم: (٣٧٨٥).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٩٢).

٣. أن يتصور انجلاء الشدائد وأنها لا تدوم:

فكل بلية مهما كبرت ستصغر مع مرور الوقت بالنسيان أو الزوال، فلا تَقْصر بجَزَعٍ ولا تَطول بصبر، وكل يوم يمر بها يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب، حتىٰ تنجلي وهو عنها غافل، فكم من شدة قد صعبت وتعذر زوالها على العالم بأسره ثم جاء الفرج في أقل من لحظة!

اصبر لكل مصيبةٍ وتجلَّدِ ... واعلم بأن الضُّرّ غيرَ مؤبَّدِ
واصبر كما صبر الكرامُ فإنها ... نُوَبٌ تنوب اليوم تُكشَف في غدِ(١)

٤. تذكر نِعَم الله وأن ما صُرف عنه من البلاء أكثر مما ناله:

فإذا أجال فكره في كثرة نِعم الله تعالىٰ عليه تيقن من عجزه عن عدِّها، فيهون عليه ما هو فيه من البلاء، ويرىٰ أن ما هو فيه من البلاء بالنِّسبة إلىٰ أيادي الله ونعمه كقطرةٍ من بحرٍ؛ وأن ينظر إلىٰ أهل البلاء ممن ابتلاه الله ببلاء أشد؛ ولذٰلك ورد في الحديث: «انظروا إلىٰ من أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم؛ فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله»(٢). ثم يذكر لطف الله به، وأنه لو جازاه بما كسب لصَبّ عليه البلاء؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، فإن علم أن ما وُقي من الرزايا وكُفي من الحوادث ما هو أعظم من رزيته وأشد من حادثته كان هٰذا أدعىٰ للصبر والشكر؛ عن شريح قال: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نِعَم: أن لا تكون كانت في دينه، وأن لا تكون أعظم مما كانت، وأنها كائنة، فقد كانت»(٣).

---

(١) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٨/ ١١٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٣) برقم: (٢٩٦٣)؛ والبخاري في صحيحه (٨/ ١٠٢) برقم: (٦٤٩٠)، بلفظ: «إذا نظر أحدكم إلىٰ من فُضِّل عليه في المال والخلق فلينظر إلىٰ من هو أسفل منه».

(٣) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٣٠).

٥. ملاحظة عِظَم الجزاء:

فعلىٰ حسب ملاحظة حسن الجزاء والوثوق به يخِفُّ حِمْلُ البلاء، كما تهون كل مشقة إن لاحظ لذة عاقبتها، فالبلاء سبب لتكفير الذنوب ورفع الدرجات، وكثرة البلاء وشدته دليل علىٰ قوة دين العبد؛ ورد في الحديث عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقة ابتلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»(١). فالنعيم لا يُدرَك بالنعيم، وعلىٰ قدر التعب تكون الراحة؛ قال زيد بن أبي الزرقاء: «عثرت امرأة فتح الموصلي، فانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: فأين ما تجديه من حرارة الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه»(٢).

٦. المجاهدة للحصول على الصبر:

فإن الصبر من الأخلاق التي تكتسب بالمزاولة والتدريب؛ في الحديث: «ومن يتَصَبَّر يُصبرْه الله». والصبي يُحمَل على التعلم في الابتداء قهرًا، فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتىٰ إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب، وهكذا بالنسبة للمصائب.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٣) برقم: (٢٣٩٨)، وقال حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده (١/ ٣٧٠) برقم: (١٤٩٩)؛ والنسائي في الكبرىٰ (٧/ ٤٦) برقم: (٧٤٣٩).

(٢) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٧/ ١٥٩).

الآفات التي تؤثر على الصبر

إن من يسعىٰ للتحقق بمقام الصبر لا بد أن يحذر من الآفات التي تقف عائقًا دون ذٰلك، ومن الآفات:

١. الحرص:

إن الحريص على الدنيا ومتاعها يصعب عليه التحقق بمقام الصبر؛ إذ الحرص هو التعلق بالدنيا وأسبابها ومتاعاها الزائل، والصبر عدم الجزع علىٰ ما فات، وعدم التسخط علىٰ أقدار الله المؤلمة، فمن تعلق قلبه بالدنيا كيف له أن لا يجزع علىٰ فقدها وذهابها من يده! فمن أراد التحقق بالصبر لا بد أن يجاهد نفسه في إخراج حب الدنيا والحرص عليها من قلبه؛ لأن الحرص شيءٌ جُبِل عليه ابن آدم فلا يخرج إلا بالمجاهدة؛ ففي الحديث: «يهرم ابن آدم وتشِبُّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»(١).

٢. اليأس والجزع:

إن الجزع يورث الحسرة والندم، ويحمل العبد علىٰ أفعال لا ترضي الله تعالىٰ؛ من شقِّ الثياب وضرب الخدود والدعاء على النفس بالويل والثبور، وهٰذا يتنافىٰ مع كمال الإيمان؛ فإن كل ما يقع للإنسان مقدَّر لا يتقدم عنه لحظة ولا يتأخر؛ قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، فلا يملك أحدٌ دفعه، فلا وجه للجزع إلا ضعف اليقين والإيمان. ورد أن «عبد الرحمٰن بن مهدي مات له ابنٌ، فجَزِع عليه جزعًا شديدًا،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٠) برقم: (٦٤٢١)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٩) برقم: (١٠٤٧)، واللفظ له.

حتى امتنع عن الطعام والشراب، فبلغ ذلك محمد بن إدريس الشافعي ﷺ، فكتب إليه: أما بعد، فعزِّ نفسك بما تُعَزِّ به غيرك، ولتستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أن أمضى المصائب فقْدُ سرورٍ مع حرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا على اكتساب وزر! وأقول:

إني مُعَزِّيكَ لا أنّي على طمعٍ ... مِن الخلود، ولكن سنة الدينِ
فما الْمُعزِّي بباقٍ بعد صاحبهِ ... ولا الْمُعزَّى ولو عاشا إلى حينِ»[1]

وقال بعضهم:

لَا تُطِلْ الحُزْنَ على فائتٍ ... فقلَّما يُجْدِي عليك الحَزَنْ
سِيَّانِ مَحْزُونٌ على فائتٍ ... ومُضْمِرٌ حُزْنًا لِما لم يكُنْ[2]

٣. الاستعجال:

النفس مولعة بحب العاجل ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فإذا أبطأ على الإنسان ما يريد نفد صبره وضاق صدره، واستعجل قطف الثمرة قبل أوانها، فلا هو ظَفِر بثمرة طيبةٍ، ولا هو أتمَّ المسير، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ أي العذاب، فإن له يومًا موعودًا. ولقد باءت بعض الدعوات بالفشل ولم تؤت ثمرتها المرجوة بعلة الاستعجال، ولو أنهم صبروا لكان خيراً لهم، فقد ثار بعضهم على الطغيان ولـمَّا يقم على ساقه ويشتد عوده وتكتمل آلته وتنضج دعوته وتمتد قاعدته، فقُضيَ على الدعوة، وَوُئِد الداعية.

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢٤٨).
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٨٩).

نماذج من تمثل الصالحين بالصبر

١. الصبر على طاعة الله تعالى:

وأبرز نموذج في الصبر على طاعة الله تعالى هي قصة إبراهيم في ذبح ولده إسماعيل ﷺ؛ فقد حكى الله لنا قصة بطولة فريدةً من بطولات الصبر، قدمها ولدٌ ووالده في امتحان رباني عجيب؛ إذ يكلف الله إبراهيم في رؤيا منامية أن يذبح ولده إسماعيل، فيتجه بصبر عجيب لطاعة أمر ربه، فيقول لابنه إسماعيل: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فيقول الابن البارّ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وأسلما أمرهما لله صابرين، وشرَعا في تنفيذ التكليف، فلما علم الله طاعتهما وصدق إسلامهما وتسليمهما أنزل لهما كبش الفداء، وتوقف أمر ذبح الوالد لولده، وتم الذبح للكبش. ولم يكن صبر إبراهيم في الإقدام على ذبح ولده امتثالًا لأمر ربه بأقل من صبر إسماعيل في إقدامه مستسلمًا للذبح امتثالًا لأمر ربه أيضًا.

٢. الصبر عن معصية الله تعالى:

وأبرز الأمثلة وأشدها وضوحًا صبر يوسف ﷺ على مراودة امرأة العزيز، وكشف عن هٰذا حين عثر إخوته عليه فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، لقد رفض كل العروض والإغراءات وخرج من الفتنة بإيمانه وصبره، وكان صبره هٰذا أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هٰذه أمور جرت عليه بغير اختياره، ليس له فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس، ولاسيما مع الأسباب التي تَقوى معها دواعي الموافقة؛ فإنه كان شابًّا، وداعية الشباب إليها قوية،

وعَزَبًا ليس معه ما يعوضه ويرُدُّ شهوته، وغريبًا، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي فيه بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية إلىٰ نفسها والحريصة علىٰ ذٰلك أشد الحرص، وتوعدته إن لم يفعل بالسجن، ومع هٰذه الدواعي كلها صبر إيثارًا لما عند الله، لقد ضحىٰ بدنياه من أجل دينه، وبحريته من أجل عقيدته، وقال قولته المشهورة: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

٣. الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة:

أ. صبر أيوب عليه السلام:

عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب نبي الله ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتىٰ ذكر ذٰلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أَمُرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلىٰ بيتي فأُكَفِّر عنهما كراهية أن يُذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلىٰ حاجته، فإذا قضىٰ حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلىٰ أيوب في مكانه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هٰذا المبتلىٰ؟ والله علىٰ ذٰلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا، قال: فإني أنا هو»[1].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ١٥٧) برقم: (٢٩٠٣)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٨١) برقم: (٤١٣٧).

ب. صبر أم سُليم ﵂:

عن أنس قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سُليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتىٰ أكون أنا أحدثه. قال: فجاء، فقربت إليه عشاءً، فأكل وشرب، فقال: ثم تصنَّعَت له أحسنَ ما كان تَصَنَّع قبل ذٰلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهلَ بيتٍ فطلبوا عاريتهم، أَلَهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب، وقال: تَركْتِني حتىٰ تَلَطَّختُ ثم أخبرتني بابني! فانطلق حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما»[1].

ج. صبر عروة بن الزبير:

ابتلي عروة بن الزبير ﵀ في موضع واحد بقطع رجله وبموت ابنه، فلم يزد علىٰ أن قال: «اللهمّ كان لي بنون سبعة فأخذتَ واحدًا، وأبقيتَ ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرَفًا وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتلَيتَ لقد عافيت، ولئن أخذتَ لقد أبقيت»[2].

المقترحات العملية والتدريبات

١. اجعل لنفسك وردًا يوميًّا تقرأ فيه من كتاب (الفرج بعد الشدة)، للقاضي أبي علي التنوخي، قيّد ما يمرّ معك من الفوائد والقصص التي تجد فيها تسلية وإعانة على الصبر.

٢. قراءة كُتيِّب (بعد الضيق يأتي الفرج)، خالد أبو صالح.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٨٤) برقم: (٥٤٧٠)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٤٥) برقم: (٢١٤٤).
(٢) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (ص: ١١٥).

٣. مطالعة (قاعدة في الصبر) لابن تيمية، وهي ورقات قليلة، تجد فيها تسلية وأشياء تعين على الصبر.

٤. قم بزيارة المشافي ودور العجزة لتستشعر عظيم نِعَم الله عليك، فإنه مهما كانت مصيبتك كبيرة ستجد مَن أصيب بأشد من مصيبتك، وعندما يرى الإنسان مصائب الآخرين يهون عليه مصابه.

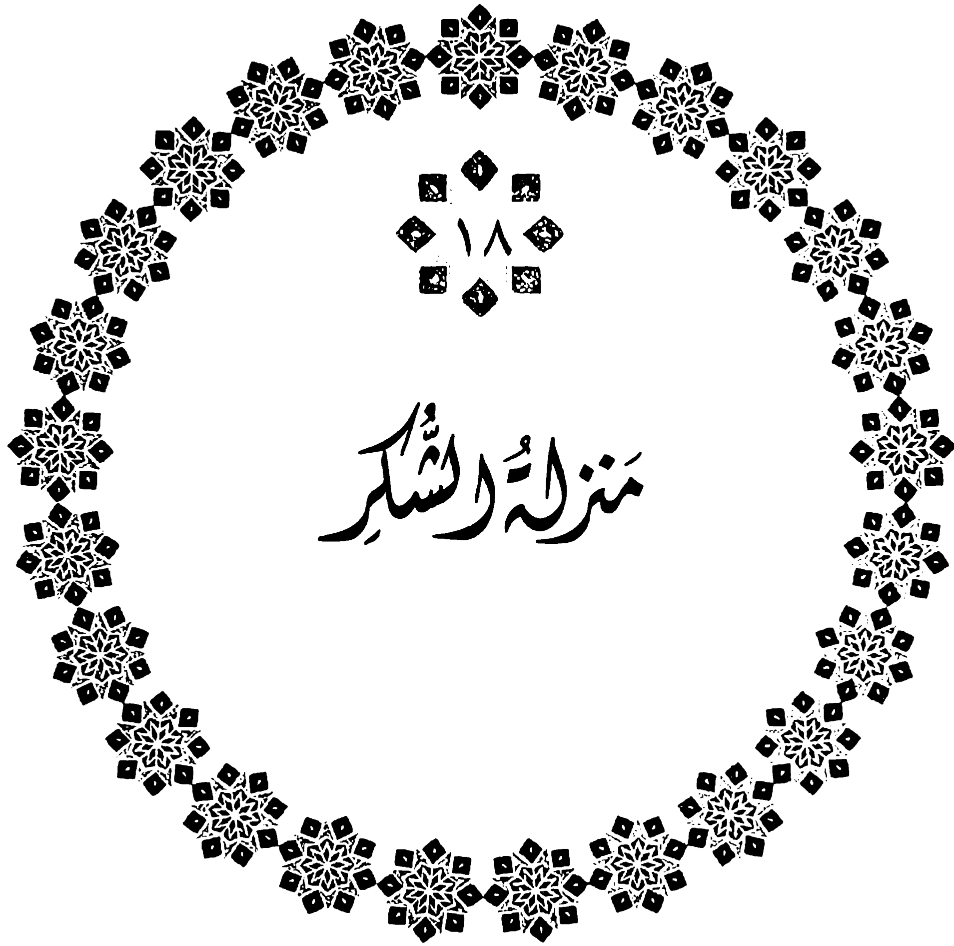
٥. الإكثار من الصوم؛ بأن تصوم الإثنين والخميس، فإن الصوم يعين على الصبر؛ ففي الحديث: «والصوم نصف الصبر»[1].

٦. أكثر من قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» عند كل شدة تقع بها حتى لو كانت صغيرة.



(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٩٣) برقم: (٣٥١٩)، وقال: حديث حسن؛ وأحمد في مسنده (٨/ ٤١٥٤) برقم: (١٨٥٧٦).

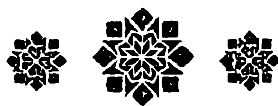
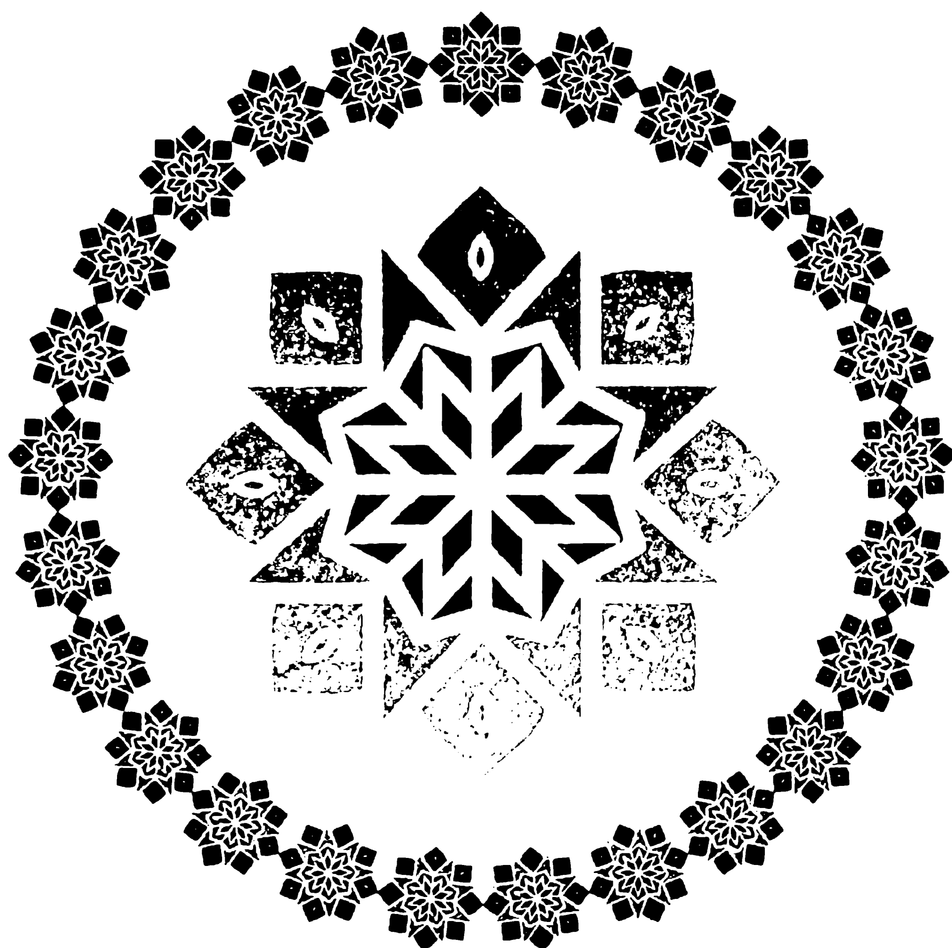
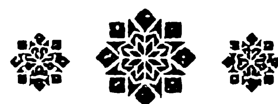


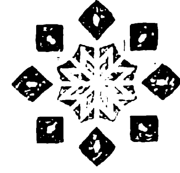


١٨

مَنزِلَةُ الشُّكرِ





منزلة الشكر



بين يدي الشكر

الشكر من أعلى المنازل، وهو نصف الإيمان، فالإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصفٌ شكر، وهو فوق منزلة الرِّضا؛ فإنه يتضمَّن الرضا وزيادة، فالرضا من العبد مندرجٌ في الشكر؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وليس معنى الشكر الذي أوجبه الله على عباده أن يتقربوا إلى الله بجلائل الطاعات وعظيم القربات ما يُكافئ نعمه التي يتفضل بها عليهم؛ فإن الطاعة التي يتقرب بها العبد إلى ربه ليشكره بها على نعمه إنما هي من فضل الله عليه، فهو الذي أقدره عليها ووفقه إليها، فهي إذن نعمة تحتاج بدورها إلى شكر، إنما الشكر المطلوب هو تسخير النعمة للوظائف التي خلق الإنسان للقيام بها، فلا يستخدمها فيما يغضب الله، والاعتراف بأنها صادرة عن الله تعالى، وأنه عاجز عن شكرها وأداء حقوق الله تعالى.

والكلمة الشائعة في الترجمة عن شكر الإنسان لربه هي الحمد، بشرط أن يرددها المسلم وهو شاعرٌ بالْمِنَّة والجميل، مُقرٌّ من أعماقه بأن الله مصدر ما اندفق عليه من خير، وأهلُ ما صعد إليه من شكر.

ونِعَم الله لا تحصى، منها الظاهر المُدرَك، ومنها الباطن الخفي، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]؛

قال عون بن عبد الله ﷺ: «الخير مِن الله كثير، ولن يُبصره من الناس إلا اليسير»[١].

إن الخير للناس من الله معروض، ولكن لا يبصره من لا ينظر إليه، ولا يجده مَن لا يبتغيه، ولا يستوجبه مَن لا يعلم به، ألم تروا إلىٰ كثرة نجوم السماء؟ فهل يستطيع أن يهتدي بها أحد إلا العلماء؟ وهذا حال أكثر النعم، لا يشعر بها إلا من نظر وتفكَّر، ولو تفكر الناس فيما حولهم لوجدوا نعم الله وآثارها في كل شيء حيثما ولَّوا وجوههم، ولكن الغفلة وإلْفَ تلك النعم أنساهم قيمتها وأنساهم واهبها، فلا تكاد تجد شاكرًا لها، ولا من يعرف قيمتها إلا من فقدها.

إن شكر الله تعالىٰ ومعرفة عظيم فضله هو من سمات العارفين؛ قال يحيى بن معاذ ﷺ: «يخرج العارف من الدنيا ولم يَقضِ وَطَرَه من شيئين: بكاءً علىٰ نفسه، وثناءً علىٰ ربه عز وجل»[٢].

ويظن كثيرٌ من الناس أن النعم التي تُشكر هي ما يحصل عليه من مال ومتاع، ولم يدرِ أنه يتقلب في نعم الله في كل نَفَسٍ يتنفَّسُه، وكل خطوة يخطوها، وأكلة يأكلها دون ألم، وشربة يشربها دون مرارة يجدها علىٰ لسانه؛ عن أبي الدرداء قال: «مَن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعمه ومشربه فقد قَلَّ فقهه، وحضر عذابه»[٣].
جاء رجل إلىٰ يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: «أَيَسُرُّك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف درهم؟ قال: الرجل لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال الرجل: لا، قال: فبرجليك؟ قال الرجل: لا، قال: فذكَّرَه بِنِعَم الله عليه، وقال يونس: أرىٰ عندك مئين ألوف وأنت تشكو الحاجة!»[٤]. وقال رجل من أهل

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١١/ ٢٣١)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٤٥).
(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٠). وهذا الشرح يتعلق بالشكر، وأما شرح ما يخص البكاء فقد مر في باب البكاء والخشوف، الحكمة رقم: (٤٣١).
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٣٣).
(٤) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٣٦).

روح بن القاسم: «لا آكل الخبيص، أو الفالوذج؛ لا أقوم بشكره، قال: فلقيت الحسن، فقلت له في ذٰلك، فقال الحسن: هٰذا إنسان أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد!»[1].

حقيقة الشكر

الشكر في اللغة:

الشكر: هو مقابلةُ المنعِم على فعله بثناءٍ عليه، وقبولٍ لنعمته، واعترافٍ بها، يقال: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ له، وباللام أفصح. والشُّكْرانُ: خلاف الكفران، ويقال: إن حقيقة الشكر الرضا باليسير؛ يقولون: فرسٌ شكور؛ إذا كفاه لِسِمَنِه العلفُ القليل. ومن معاني الشكر: الامتلاء والغُزْر في الشيء، ومنه: شَكِرت الشجرة؛ إذا كثر فيئُها[2].

الشكر شرعًا:

من أسماء الله تعالى: الشكور، ومعنى الشكر منه عز وجل: المجازاة على أفعال المطيعين، فيعطي الكثير من الثواب على العمل اليسير[3]. أما الشكر من العبد فقد عرفه العلماء بتعريفات متعددة تدور حول معنى الاعتراف بالنعمة، والثناء على الله، واستعمال الجوارح في طاعته.

قال الجنيد: «الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة»[4].

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٢٨).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ١٠)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٧٠٢)؛ اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم الزجاجي (ص: ٨٧).

(٣) ينظر: اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم الزجاجي (ص: ٨٧)؛ الرسالة القشيرية (١/ ٣١٢).

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٣١٣).

وقال أبو علي الدقاق: «حقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع»[1].

وقيل: هو «الاعتراف بالنعمة علىٰ جهة التعظيم للمنعم»[2]. وقيل: هو «عكوف القلب علىٰ محبَّة المنعم، والجوارح علىٰ طاعته، وجريان اللِّسان بذكره والثناء عليه»[3].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الشكر والحمد:

إن كلًّا من الحمد والشكر يطلق على الآخر، ولكن الحمد أعم وأوسع من الشكر، ويختلف عن الشكر من وجهين؛ الأول: أن الحمد أخص من الشكر من جهة أنه قولٌ فحسب، وأما الشكر فهو اعتقاد وقول وعمل. والثاني: أن الشكر لا يكون إلا على النعمة والسراء، بينما الحمد أعم من ذٰلك؛ فقد يكون مقابل نعمة، وقد لا يكون كذٰلك؛ بأن تحمد إنسانًا علىٰ إتقانه لعمله، مع أنه لم يصلك منه أي نعمة، وكذٰلك فإنه كما يكون في مقابل النعمة، فإنه يكون كذٰلك علىٰ ما يقابلها من النقمة أو غيرها من مكروه أو بلاء، كما ورد: «الحمد لله الذي لا يُحمَد علىٰ مكروه سواه».

فبينهما عموم وخصوص: فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته، وحمدته

(١) المصدر السابق (١/ ٣١١).

(٢) معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٣٠١).

(٣) مدراج السالكين لابن القيم (٢/ ٥٨٩).

لكرمه، بينما الشكر خاص بالصفات المتعدية إلى الغير؛ كالكرم، فلا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه.

والشكر يدخل تحت الحمد ولا يدخل الحمد تحت الشكر؛ لذلك يقول أهل اللغة: قد يوضع الحمد موضع الشكر، فيقال: «حمدت الرجل على معروفه وإحسانه»، ولا يوضع الشكر موضع الحمد فيقال: «شكرت الرجل على شجاعته»، ويقال: «حمدت الرجل». ويجوز أن يحمد الإنسان نفسه في أمور جميلة يأتيها، ولا يجوز أن يشكرها؛ لأن الشكر يجري مجرى قضاء الدين، ولا يجوز أن يكون للإنسان على نفسه دين[1].

فضل الشكر وثمراته

١. الشكر صفة الأنبياء:

امتدح الله عز وجل أنبياءه بالشكر، فقال عن نوح ﷺ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال عن إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]

وسيد الشاكرين نبينا ﷺ؛ فعن عائشة ﵂: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا»[2].

---

(١) ينظر: اشتقاق أسماء الله للزجاجي (ص: ٨٧)؛ معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٣٠١)؛ تفسير ابن كثير (١/ ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٥) برقم: (٤٨٣٧).

٢. عُلوّ منزلة الشكر عند الله تعالىٰ:

لعظيم منزلة الشكر افتتح الله تعالىٰ به كتابه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقِلَّة أهله في العالمين تدلُّ علىٰ أنّهم خواصُّ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وأمر الله به نبيه ﷺ فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، وأمر به المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وبين النبي ﷺ أن الحمد أفضل الدعاء فقال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»(١). ثم بين فضل الحمد علىٰ غيره من الكلام فقال: «إن الله اصطفىٰ من الكلام أربعًا: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ فمن قال: سبحان الله كتب له عشرون حسنة، وحُطَّت عنه عشرون سيئة، ومن قال: الله أكبر فمثل ذٰلك، ومن قال: لا إله إلا الله فمثل ذٰلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين مِن قِبَل نفسه كُتب له ثلاثون حسنة، وحطت عنه ثلاثون سيئة»(٢). وأوصىٰ ﷺ معاذ بن جبل أن يسأل الله الإعانة علىٰ شكره دبر كل صلاة، فقال: «أوصيك يا معاذ، لا تدع في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعِنّي علىٰ ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»(٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٢٦) برقم: (٨٤٦)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٣٩٣) برقم: (٣٣٨٣)، وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥١٢) برقم: (١٨٩٢)؛ والنسائي في الكبرىٰ (٩/ ٣٠٩) برقم: (١٠٦٠٨)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ١٦٨٤) برقم: (٨١٢٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٦٤) برقم: (٢٠٢٠)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ٢٧٣) برقم: (٥٢٣٠)، وقال: صحيح الإسناد؛ والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ٨٠) برقم: (١٢٢٧)؛ وأبو داود في سننه (١/ ٥٦١) برقم: (١٥٢٢).

٣. الشكر سبب رضا الله تعالىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧]، وقال ﷺ: «إن الله لَيَرضىٰ عن العبد أن يأكل الأَكْلة فيحمدَه عليها، أو يشرب الشَّرْبة فيحمدَه عليها»(١).

٤ . الله يحب أن يُشكَر ولذلك تفضَّل علىٰ عباده بالنعم:

خلق الله الخير والشر والصحة والمرض والغنىٰ والفقر من أجل أن يشكره الناس؛ إذ لولا المرض لما عرف الناس قيمة الصحة، وهٰكذا يقال في بقية النعم والنقم؛ ورد في الحديث في قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال: «ورُفع عليهم آدم ينظر إليهم؛ فرأى الغني والفقير، وحسَن الصورة ودون ذٰلك، فقال: «ربِّ، لولا سويت بين عبادك! قال: إني أحببت أن أُشْكَر»(٢).

والهدف من تفضل الله علىٰ عباده بالنعم هو أن يشكروه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٨٧) برقم: (٢٧٣٤).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٣٦٣) برقم: (١١٥٨)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢٣) برقم: (٣٢٧٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وفيه محمد بن يعقوب الربالي وهو مستور، وبقية رجاله رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٥).

وقال في تسخير الأنعام: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦]. وقال بعد فرْضِه صيام رمضان: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٥. الشكر سبب حفظ النِّعَم وزيادتها:

فشُكر النِّعم أمانٌ لها من الزوال، وقيدٌ لها من الفرار، كما أن كفرانَ النعمة سببٌ في زوالها، والإنسان مهما سهر علىٰ تحصين تجارته وحمايتها بالطرق الفكرية والمادية فلن يكفي ذٰلك سبيلًا لحمايتها، وكذٰلك نعمة العافية ونعمة السكن والأسرة، ونعمة الأمن والطمأنينة، وبقية النعم كل ذٰلك لا يجدي لحمايته والإبقاء عليه مجرد الاعتماد على الأسباب المادية، وإنما يتمثل الحصن الحقيقي في ربطها بالمنعم، وشكر الله عليها بتسخيرها فيما خُلق الإنسان من أجله، قال ابن عطاء الله: «من لم يشكر النِّعَم فقد تعرَّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيَّدها بِعِقالها»(١)، عن الفضيل بن عياض قال: «كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه، لم يستتم ذٰلك حتىٰ يرى الزيادة؛ لقول الله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]»(٢).

إن الإقرار بالجميل وركون الفؤاد إلىٰ صانعه يجعل المرء أهلًا للمزيد؛ لأن النعمة تثمر فيه كما يثمر الماء في الأرض الخصبة، ولذٰلك لا يُضَنّ عليها بالقليل والكثير، أما الأرض السبخة فإن انعدام الأمل في ريِّها يجعل إرسال الماء إليها عبثًا، ولذٰلك يُقطَع عنها.

---

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٧) الحكمة رقم: (٦٤).
(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٢٣).

٦. الشكر أمانٌ من العذاب:

إذا عاش العبد حامدًا لله شاكرًا لنعمه وآلائه، فذٰلك ضمان له من عذاب الله في الدنيا والآخرة؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، ونجى الله آل لوط بسبب شكرهم فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤-٣٥]. قال أبو العالية[١] رحمه الله: «إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين: نعمةٍ يَحمد الله عليها، وذنبٍ يستغفر منه»[٢].

مراتب الشكر

والناس في الشكر درجات: عوام، وخواص، وخواص الخواص.

١. شكر العوام:

العوام يشكرون الله على السراء والنِّعَم الظاهرة غير المعتادة، وأما النعم التي اعتادوا عليها فإنهم ينسون شكرها، ولٰكن حين يُفَاجَأ أحدهم بما يستجدُّ من نِعَمٍ تستحق الشكر، أو يتذكر بنفسه، أو يُذَكِّرُه غيرُه بِنِعَم الله يشكر ربه علىٰ ذٰلك، وهٰذا لا يعني أنه في غير ذٰلك غير شاكر لأَنْعُم الله، لٰكن المقصود أن الغالب عليه هو الشكر اللحظي علىٰ ما جَدّ من النعم.

---

(١) أبو العالية رفيع بن مهران الرِّياحيّ البصري، أعتقته امرأة من بني رياح سائبةً، الإمام المقرئ، الحافظ، المفسر، أحد الأعلام، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر ودخل عليه، وسمع من كبار الصحابة، قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، مات سنة ٩٠هـ، وقيل ٩٣هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٩/ ١١١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢٠٧).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٣٢)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢١٩).

٢. شكر الخواص:

شكر الخواص هو شكرٌ على المكاره وعلى المنع؛ والخواص في ذٰلك أحد رجلين:

الأول: الذي يميِّز بين الأحوال، فهو لا يحبُّ المكروه، ولا يرضىٰ بنزوله به، فإذا نزل به مكروهٌ شكر الله تعالىٰ عليه، فكان شكره كظمًا للغيظ الذي أصابه، وسَتْرًا للشكوىٰ؛ رعايةً منه للأدب مع الله تعالىٰ؛ ودليل هٰذا ما ورد في الحديث: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمِدَك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد»[(١)].

الثاني: فهو الذي لا يميِّز بين الحالات، بل يستوي عنده المكروه والمحبوب، فشكر هٰذا إظهارٌ منه للرِّضا بما نزل به؛ لأنه علىٰ يقين بحكمة الله تعالىٰ في منعه، إذ لا يمنع إلا لحكمة، ولا يبتلي إلا لمصلحة، فإذا عرف وجه الحكمة في المنع مع القدرة على العطاء علم أنه مَنَعَه لِيُعطيه، فصار المنع عطاءً، واليسير منه كثيرًا. قال إبراهيم بن أدهم لشقيق: «يا شقيق، علىٰ ماذا أَصَّلْتم أصولكم؟ فقال شقيق: أصَّلنا أصولنا علىٰ أنّا إذا رُزِقنا أكلنا، وإذا مُنِعنا صبرنا. فقال إبراهيم بن أدهم: هٰكذا كلاب بلخ، فقال شقيق: فعلىٰ ماذا أصَّلتم أصولكم يا أبا إسحاق؟ فقال: أصَّلْنا أصولنا علىٰ أنا إذا رُزِقنا آثرنا، وإذا مُنِعْنا حمدنا وشكرنا»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٢١٠) برقم: (٢٩٤٨)؛ والترمذي في جامعه (٢/ ٣٢٩) برقم: (١٠٢١)، وقال: حسن غريب؛ والبيهقي في سننه الكبير (٤/ ٦٨) برقم: (٧٢٤٦)؛ وأحمد في مسنده (٨/ ٤٥٤٣) برقم: (٢٠٠٣٩).

(٢) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (١/ ٤٥٦).

والمتأمل يعلم أن الشدائد نِعَمٌ في الحقيقة؛ بدليل أنها تُعَرِّض العبد لمنافع عظيمة، ومثوبات جزيلة، وأعواضٍ كريمة في العاقبة تتلاشىٰ بجانبها مشقة هٰذه الشدائد؛ مثال ذٰلك: من يسقيك دواءً كريهًا مرًّا لداءٍ شديد، فيؤدي ذٰلك إلىٰ صحة النفس وسلامة البدن، فيكون إيلامه إياك بمرارة الدواء نعمة بالغة بالحقيقة، وإن كان في صورته يَنْفِرُ عنه الطبع، وأنت تحمد الذي تولىٰ منك هٰذا، بل تحسن إليه ما أمكنك. وهٰكذا هو البلاء والشدائد من الله تعالىٰ، فكلها منافع وعطايا؛ لما فيها من تطهير الذنوب ورفع الدرجات في الآخرة، وأما منافعها في الدنيا فإنها تخفىٰ علىٰ أكثر الناس؛ كما حدث في قتل الخضر للغلام الصغير، حيث بين لسيدنا موسى الحكمة من قتله إياه بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١].

٣. شكر خواص الخواص:

أن يغيب عن النِّعَم بمشاهدة المُنعم، فالشكر الحقيقي هو في استحضار العبد للمُنعِم بهٰذه النعم، فلا تحجبه تلك النعم عن مشاهدة ومعرفة مصدر تلك النعم، فيزداد العبد تعظيمًا وحبًّا لربه المتفضل المنان، وعندما يستحضر العبد هٰذه الحقيقة يكون قد أدرك ما يريده الله من عبده في إغداق النعم عليه، جاء في الحديث: «أحبوا الله لما يَغْذُوكم مِن نِعَمِه»(١). قال الشبلي ﷺ: «الشكر رؤية المنْعِم لا رؤية النعمة»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٦/ ١٢٦) برقم: (٣٧٨٩)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٥٩٠).

أنواع الشكر

الشكر ثلاثة أنواع: شكر اللسان، وشكر الجوارح، وشكر القلب.

١. شكر اللسان:

شكر اللسان يكون بحسن الثناء على الله تعالىٰ والتحدث بنعمه، وكثرة الحمد والمدح له، وإظهار إنعامه وإكرامه، ونشر أياديه وإحسانه، وألا يشكوه إلىٰ خلقه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. جلس الفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: «أَنْعَم الله علينا في كذا، فعل بنا كذا، فعل بنا كذا»[١]. وكان السلف يتساءلون عن أحوالهم إذا التقوا؛ ليستخرجوا بذلك حمدًا لله تعالىٰ، فيكونوا شركاءه في ذلك لأنهم سبب ذكره لله تعالىٰ.

٢. شكر الجوارح:

شكر الجوارح هو صرف العبد ما أنعم الله عليه من السّمع والبصر وغيرهما إلىٰ ما خُلِق له وأعطاه لأجله، فشكر العينين هو وعي ما رأىٰ من الخير ونشره، والابتعاد عن رؤية الشر وستره إذا وقع النظر عليه، وشكر الأذنين هو استعمالهما في سماع الخير وحفظه، وإبعادهما عن سماع ما يضر ويؤذي، وإذا سمع شيئًا ما من الشر ستره علىٰ صاحبه، وهكذا الجوارح الأخرىٰ كاليدين والبطن والفرج فيصرفها فيما خلقها الله ويبعدها عما نهىٰ عنه.

وشكر الجوارح علىٰ درجتين: إحداهما: واجب؛ وهو أنْ يأتي بالواجبات، ويجتنب المحارم، وأن يستعين بنعمته علىٰ طاعته ولا يستعين بها علىٰ معاصيه،

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٤١).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قيل: «استعانوا بنعمه على معاصيه»[١]. قال مخلد بن حسين: كان يقال: «الشكر ترك المعاصي»[٢].

المرتبة الثانية: الشكر المستحب؛ وهو أن يعمل بنوافل الطاعات، سواء كانت في شخصه أو متعدية إلى غيره؛ وهذه المرتبة أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «كل سُلامى[٣] من الناس عليه صدقةٌ، كلَّ يومٍ تطلع فيه الشمس»[٤].

٣. شكر القلب:

شكر القلب يكون بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله تعالى، ورد في الحديث: «ما أنعم الله على عبد نعمةً فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها»[٥]. وفي حديث آخر: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك، فمنك وحدَك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر ذلك اليوم»[٦].

وعن أبي الجلد، قال: قرأت في مسألة داود ﷺ أنه قال: «أي رب، كيف لي أن أشكرك، وإني لا أصل شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحي: أن يا داود، أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال: بلى يا رب، قال: فإني أرضى بذلك منك»[٧].

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٤٤).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ١١).

(٣) السُّلامى: كل عظم، ومفصل يعتمد عليه في الحركة. ينظر: شرح السنة للبغوي (٤/ ١٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٥٦) برقم: (٢٩٨٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٨٣) برقم: (١٠٠٩).

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥١٤) برقم: (١٩٠٠)، وقال: هذا حديث لا أعلم في إسناده أحدا ذكر بجرح، ولم يخرجاه؛ والطبراني في الأوسط (٣/ ١٢٣) برقم: (٢٦٧٦).

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٤٢) برقم: (٨٦١)؛ والنسائي في الكبرى (٩/ ٧) برقم: (٩٧٥٠)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٤٧٨) برقم: (٥٠٧٣).

(٧) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٧).

طرق اكتساب الشكر

١. التفكر في كثرة النِّعم الخفية والظاهرة:

أصل قلة الشكر الجهل بالنعمة وعدم التفكر في كثرة آلاء الله ونِعَمه الظاهرة والباطنة؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]؛ وورد في الحديث: «إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحّ لك جسمك ونَرْوِيك من الماء البارد؟»(١). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «كم من نعمةٍ لله تعالىٰ في عِرْق ساكن»(٢). وعن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال: «النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار»(٣).

جاء رجل إلىٰ يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: «أَيَسُرُّك ببصرك هٰذا الذي تبصر به مائة ألف درهم؟ قال: الرجل لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال الرجل: لا، قال: فبرجليك؟ قال الرجل: لا، قال: فذكَّرَه بنِعَم الله عليه، وقال يونس: أرىٰ عندك مئين ألوف وأنت تشكو الحاجة!»(٤).

وقرأ الفُضيلُ ليلةً هٰذه الآية: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨]، فبكىٰ، فسئل عن بكائِهِ، فقال: «هل بتَّ ليلة شاكرًا لله أنْ جعل لك عينين تُبصر بهما؟ هل بتَّ ليلةً شاكرًا لله أنْ جعل لك لسانًا تنطق به؟ وجعل يعدِّد من هٰذا الضرب»(٥).

وعن بكر المزني قال: «يا ابن آدم، إنْ أردتَ أنْ تعلمَ قدرَ ما أنعمَ الله عليك، فغمِّضْ عينيك»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٧٦) برقم: (٣٣٥٨)، وقال: حديث غريب.
(٢) الزهد لأبي داود السجستاني (ص: ٢١٦).
(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٨٢).
(٤) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٣٦).
(٥) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٧٥).
(٦) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٦٢).

٢. التفكر في أن كل ما تقوم به من عبادة وقربة إنما هو بفضل الله وليس بجهدك:

قال وهب بن منبه: «عبَدَ الله عابدٌ خمسين عامًا، وأوحى الله: أني قد غفرت لك، قال: يا رب، وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذِن لعرقٍ في عنقه فضرب عليه، فلم ينم ولم يُصلِّ، ثم سكن فنام، فأتاه ملَك فشكا إليه، فقال: ما لقيت من ضربان العرق؟ فقال الملك: إن ربك يقول: عبادتك خمسين سنة تعدل سكون هذا العرق»[١].

٣. النظر إلىٰ أهل البلاء:

جاء في الحديث: «انظروا إلىٰ من أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله» قال أبو معاوية: «عليكم»[٢]. وعن سلام بن أبي مطيع، قال: «دخلت علىٰ مريض فإذا هو يئِنّ، فقلت له: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر الذين لا مأوىٰ لهم، ولا من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فلم أسمعه يئِنّ، قال: وجعل يقول: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر مَن لا مأوىٰ له ولا مَن يخدمه»[٣]. وعن عبد العزيز بن أبي رواد، قال: «رأيت في محمد بن واسع قُرحة، قال: فكأنه رأىٰ ما شق علي منها، فقال: أتدري ماذا لله تعالىٰ علي من هذه القرحة من نعمة؟ فأسكتُّ، قال: إذ لم يجعلها علىٰ حَدَقتي، ولا علىٰ طرف لساني، ولا علىٰ طرف ذَكَري، فهانت علي قرحته»[٤].

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٢) برقم: (٦٤٩٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢١٣) برقم: (٢٩٦٣)، واللفظ له. ولفظ البخاري: «إذا نظر أحدكم إلىٰ من فُضِّل عليه في المال والخلق فلينظر إلىٰ من هو أسفل منه».

(٣) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٤٨).

(٤) المصدر السابق (ص: ٥٢).

٤. الخوف من الاستدراج:

إذا كان الله تعالىٰ يُنْعِم عليك وأنت ذاهل عن شكره، مُقيم علىٰ معصيته فاحذر أن يكون ذٰلك استدراجًا لك لينتقم الله منك شرّ انتقام؛ عن سفيان، في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، قال: «نُسبغ عليهم النعم، ونَمْنَعهم الشكر»، فقال غير سفيان: «كلما أحدثوا ذنبًا أحدثتُ لهم نعمة»(١).

٥. الخوف من زوال النعمة:

قال تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، والبَطَرُ: سوء حمد النعمة، وهو أن يتكبر ويُعْرِضَ عن الشكر؛ قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وعن الحسن قال: «إن الله ليُمْتِع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشكَر قلبها عليهم عذابًا»(٢). وقال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا النعم بالشكر»(٣). وقد ورد في حديث الأبرص والأقرع والأعمىٰ كيف أن الله تعالىٰ سلب عن اثنين منهم نعمه؛ لأنهما كفرا نعمة الله، وكيف زاد للثالث في ماله وبارك له فيه لأنه شكر نعمة الله وعرف حقها(٤). وقال الفضيل بن عياض: «عليكم بمداومة الشكر على النّعم؛ فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم»(٥).

قال ابن عطاء الله السكندري ﷺ: «من لم يشكر النِّعم فقد تعرَّض لزوالها،

---

(١) المصدر السابق (ص: ٤١).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ١١).

(٣) المصدر السابق (ص: ١٣).

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧١) برقم: (٣٤٦٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢١٣) برقم: (٢٩٦٤).

(٥) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٤٩).

ومن شكرها فقد قيَّدَها بِعِقالها»(١).

علامات التحقق بالشكر

١. نسبة الفضل إلى الله في كل نعمة:

أرشدنا رسول الله ﷺ إلى استحضار ونسبة الفضل إلى الله تعالىٰ في كل نعمة صغُرت أو كبرت، فإنه كان يقول إذا أكل طعامًا: «الحمد لله الذي أطعمني هٰذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة»(٢). وإذا خرج من الخلاء قال: «الحمد لله الذي أذهب عني الأذىٰ وعافاني»(٣)، وكان يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا: «اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه»(٤)، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»(٥). ففي كل حركة يُذكرنا أنها بفضل الله وتوفيقه.

قال ابن المنكدر لأبي حازم: «ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير، ما أعرفهم، وما صنعت إليهم خيرًا قط! فقال أبو حازم: لا تظن أن ذٰلك من قِبَلِك، ولٰكن انظر إلى الذي جاءك ذٰلك من قبله فاشكره»(٦).

---

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٧).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٧) برقم: (١٨٧٦)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٧٤) برقم: (٤٠٢٣)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٥٢) برقم: (٣٤٥٨)، وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٩/ ٣٥) برقم: (٩٨٢٥)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٢٦) برقم: (١٠). قال المنذري: وقد قيل إن أبا الفيض لم يدرك أبا ذر، وأخرجه الدارقطني في علله، وقال: وقفه علىٰ أبي ذر أصح. ينظر: البدر المنير لابن الملقن (٢/ ٣٩٠).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٣٩) برقم: (٥٤٢٠)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ١٩٢) برقم: (٧٥٠١)؛ والنسائي في الكبرىٰ (٩/ ١٢٣) برقم: (١٠٠٦٨)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٧٤) برقم: (٤٠٢٠)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٣٦٧) برقم: (١٧٦٧)، وقال: حسن.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧١) برقم: (٦٣٢٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٧٨) برقم: (٢٧١١).

(٦) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٣٨).

٢. التحدث بالنِّعَم:

فالتحديث بالنعم إن لم يكن على وجه العُجب والْمَخيلة هو من شكر الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والتحدُّث بنعمة الله شكرٌ؛ كما في الحديث: «من أعطي عطاء فوجد فليَجْزِ به، ومن لم يجد فليُثْنِ؛ فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر»[١]. وعن الحسن، قال: «أكثروا ذكر هذه النعمة، فإن ذكرها شكر»[٢].

ومن الرزية أنّ شكري صامتٌ عَمَّا فعلتَ وأنّ بِرَّك ناطقُ
تأتي الصَّنيعةُ منكَ ثم أُسِرُّها إني إذًا ليَدِ الكريمِ لسارقُ[٣]

٣. عدم الشكوى إلى المخلوقين عند نزول البلاء:

إن الشكوى إلى المخلوقين عند نزول البلاء -مع الجزع والتَّبَرُّم- ينافي الأدب مع الله؛ إذ المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نِعمٌ من الله تعالى؛ إما أن تكون درجة، وهذا للمقرّبين والمحسنين، وإما أن تكون كفّارة، وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار، أو تكون عقوبة، وهذا للكافة من المسلمين، فتعجيل العقوبة في الدنيا رحمة ونعمة، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين؛ عن حبيب بن عبيد، قال: «ما ابتلى الله عبدًا ابتلاء إلا كان لله عليه فيه نعمة ألا يكون ابتلاه بأشد منه»[٤].

وعن الحسن بن أبي الحسن: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال: «يعدد المصائب، وينسى النعم»[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٠٣) برقم: (٣٤١٥)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٤٠٣) برقم: (٤٨١٣)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٥٥٦) برقم: (٢٠٣٤)، وقال: حسن غريب.
(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ١٦).
(٣) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الآمدي (٣/ ٢٧٢)، والبيت لأبي تمام.
(٤) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٤٦).
(٥) المصدر السابق (ص: ٢٥).

٤ . السعي في خدمة عباد الله:

إن من علامة شكر الإنسان لربه أن يستخدم نِعَم الله عليه في قضاء حوائج الناس، فالعاقل من يستديم النعمة ويداوم على الشكر والإفضال منها على عباده، جاء في الحديث: «كل سُلامى من الناس عليه صدقةٌ، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس»؛ قال: «تَعدل بين الاثنين صدقة، وتُعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة»(١).

٥ . إظهار الفرح بِنِعَم الله تعالى:

إن المؤمن يُظهِرُ فرحه عند كل نعمة جديدة؛ بل إن الإسلام شرع إظهار الفرح بالنِّعَم الجليلة؛ فشُرعَت وليمة العرس شكرًا لنعمة الزواج، وشرعت العقيقة شكرًا لنعمة الولد، ومما يُسن عند تجدد النعم واندفاع النقم مما له وقْعٌ أن يسجد لله تعالى عند حصول ذٰلك من حيث لا يحتسب الإنسان؛ كما ورد في حديث كعب عندما سمع صوت الصارخ من الجبل وهو يقول: يا كعب بن مالك أبشر، قال كعب: «فخَرَرْتُ ساجدًا»(٢).

الآفات المؤثرة على الشكر

١ . نسيان النِّعم وتذكر المصائب:

إن نسيان الإحسان من العباد سبب في دخول النار، كما أخبر ﷺ عندما قال: «أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن». قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»(٣). هٰذا جزاء كفران نعمة الزوج، فكيف بمن ترك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٥٦) برقم: (٢٩٨٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٨٣) برقم: (١٠٠٩).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٣) برقم: (٤٤١٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٢٧٦٩).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٥) برقم: (٢٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٣٣) برقم: (٩٠٧).

شكر نعمة الله! وعن الحسن بن أبي الحسن: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال: «يعدد المصائب، وينسى النعم»(١).

إنك لو أطعمت إنسانًا شهرًا أو شهرين، أو قضيت عنه دينًا، أو رفعته درجة ثم تجهَّم لك بعد هذه الأيادي وأعرض عنك لرأيت أنَّ فراغ الحياة مِن مثله واجب، وأن بقاءه على ظهر الأرض قذى يتحرك، فما ظنك بمن خَلَق مِن عَدَم وأطعم وستر، وأغدق وأمدَّ الأعوام بعد الأعوام! عندما يرى عبده قد حاز كل هذه النعم ثم عادى مُسْدِيها! إنه لا يليق بإنسان أن يستقبل فضل مولاه بُكْرةً وأصيلًا ثم يدير له ظهره ويتولى عن إجابة أمره(٢).

٢. التَّرَف:

ذم الله تعالى المترفين الذين أطغتهم النعمة وأنستهم شكرها وأورثتهم الغفلة عن الله تعالى؛ فالإنسان عند كثرة النِّعَم ينشغل بها عن المنعم؛ قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقد ورد النهي عن التنعُّم الذي يُنسي شكر الله تعالى ويورث الغفلة عنه؛ عن أبي عثمان قال: كتب إلينا عمر ونحن بأذربيجان: يا عتبة بن فرقد، إنه ليس مِن كَدِّكَ ولا مِن كَدِّ أبيك ولا مِن كَدِّ أُمك، فأشبِع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتَّنَعُّم وزِيِّ أهلِ الشرك ولَبُوس الحرير؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن لَبُوس الحرير»(٣).

نماذج من تمثل الصالحين بالشكر

١. شكر النبي ﷺ:

في سيرة الرسول ﷺ من مظاهر الشكر وآيات الحمد لله رب العالمين ما يثير

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٢٥).

(٢) ينظر: الجانب العاطفي من الإسلام لمحمد الغزالي (ص: ٢٠٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ١٤٠) برقم: (٢٠٦٩).

الدهشة؛ فكان من دأبه ﷺ الثناء الدائم على الله عز وجل؛ من ذٰلك أنه كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤوي!»(١). وإذا قدِم من سفر قال: «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»(٢).

وكان إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول: «الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغنىً عنه ربُّنا»(٣).

وكان إذا رفع من الركوع يقول: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(٤).

وكان يقوم من الليل حتىٰ تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هٰذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا»(٥).

٢. صاحب الحديقة:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة: اسْقِ حديقة فلان، فتنحىٰ ذٰلك السحاب فأفرغ ماءَه في حرَّة، فإذا شَرْجةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبت ذٰلك الماء كله، فتتبعَ الماء، فإذا رجل قائمٌ في حديقته يُحَوِّل الماءَ بِمِسْحَاتِه، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان -للاسم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧٩) برقم: (٢٧١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٢) برقم: (٦٣٨٥)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٠٥) برقم: (١٣٤٥).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٢) برقم: (٥٢١٨)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ١٣٦) برقم: (٧٢٨٥)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٥١) برقم: (٣٤٥٦)، وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٤٧) برقم: (٤٧٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٥) برقم: (٤٨٣٧).

الذي سمع في السحابة- فقال له: يا عبد الله، لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هٰذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمّا إذ قلت هٰذا فإني أنظر إلىٰ ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكُل أنا وعيالي ثلثًا، وأَرُدُّ فيها ثلثه»[1].

المقترحات العملية والتدريبات

١. اجلس يوميًّا متأملًا إحدى النِّعَم التي أنعم الله بها عليك، فتأمل النَّفَس الذي يجري بدون جهد أو تَعَب، بينما هناك أناس لا يستطيعون التنفس إلا عن طريق منفسة اصطناعية، تأمل نِعمة الله عليك في سلامة أعضائك، ويعينك علىٰ تذكرها الذهاب إلى المشافي ورؤية أهل البلاء.

٢. التزم وِردًا يوميًّا بصيغة: (الحمد لله رب العالمين)، لا يقل عن مائة مرة، وتزيد ما تشاء.

٣. لا تنسىٰ أن تحمد الله عز وجل بعد كل طعام تأكله، وشراب تشربه، ونعمة تحصل عليها، وبلية يصرفها الله عنك.

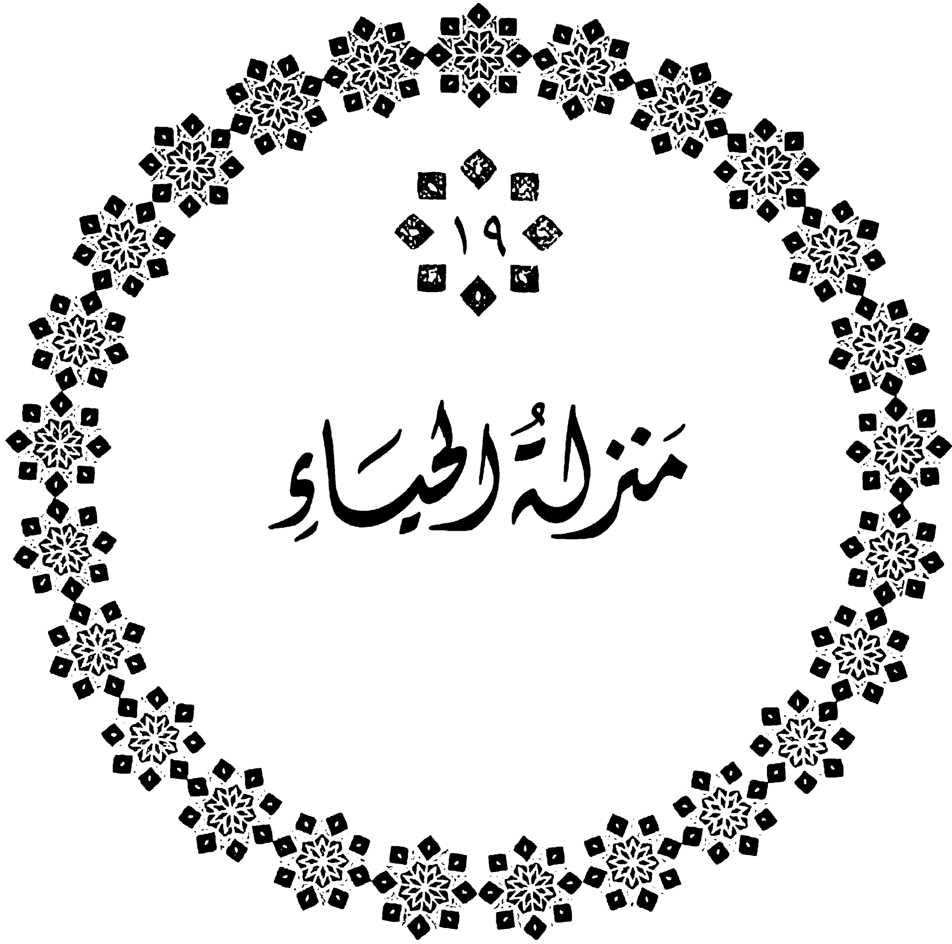
٤. اقرأ كتاب (الشكر) لابن أبي الدنيا، ولَخِّصه.

٥. ردِّد هٰذا الدعاء يوميـًا عند ذهابك للنوم: «الحمد لله الذي كفاني وآواني،وأطعمني وسقاني، والذي منَّ عليَّ فأفضل، والذي أعطاني فأجزل، الحمد لله علىٰ كل حال، اللهم رب كل شيء ومليكه، وإله كل شيء أعوذ بك من النار»، فقد كان رسول الله ﷺ يقوله عندما يأخذ مضجعه[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٢) برقم: (٢٩٨٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٣٤٩) برقم: (٥٥٤٣)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٤٥) برقم: (٢٠٠٨)؛ وقال: صحيح الإسناد؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٤٧٣) برقم: (٥٠٤٢).

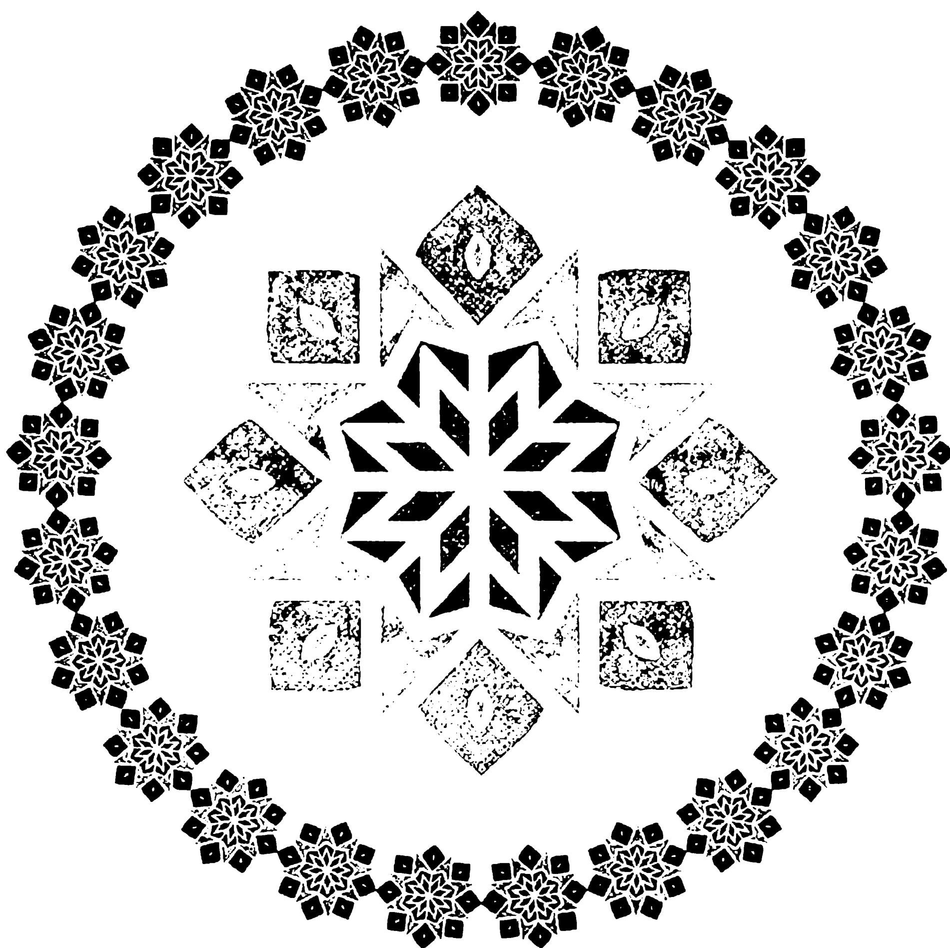


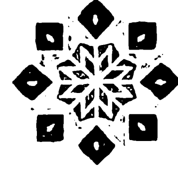


١٩

مَنزِلَةُ الحَيَاءِ



منزلة الحياء



حقيقة الحياء

الحياء في اللغة:

تَغَيُّرٌ وانكسار يعتري الإنسان مِن خوف ما يُعاب به، وقد يُطلق علىٰ مجرد ترك الشيء بسبب، واستحياه واستحيا منه بمعنًى واحد، ويقال: استَحَيت واسْتَحْيَيْت[١].

وعرفه الجرجاني بأنه: «انقباض النفس من شيء، وتركه حذرًا عن اللوم فيه»[٢].

الحياء في الشرع:

هو خُلُقٌ يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق[٣].

فيعلم من هٰذا أن الحياء في المعنى اللغوي أعم من معناه الشرعي، فمسمىٰ الحياء شرعًا لا يطلق إلا علىٰ ما يكون محمودًا في الشرع، واللغوي قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا.

---

(١) ينظر: الصحاح للجوهري (٦/ ٢٣٢٤)؛ فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٢).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص:٩٤).

(٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٢).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الخجل: وهو فرط الحياء حتىٰ يتحير ويُدهَش مِن شدة الحياء[1]، فبعض الناس يخجلون من الإقدام علىٰ أفعال لا يُسْتَحيا منها، وليست مما يُستقبح لا شرعًا ولا عرفًا، وقد يؤدي فرط الخجل إلىٰ ترك ما يجب فعله، فيكون مذمومًا، كأن يخجل مِن النهي عن المنكر، أو مِن ترك مجلس أصدقائه والقيام لأداء الصلاة، وذٰلك خجلًا من أن يعيبوا فعله أو غير ذٰلك.

المروءة: الامتناع عن المباحات التي لا تليق بأمثاله[2]، فتختلف عن الحياء من جهة أن قواعد المروءة تختلف بين بلد وبلد، وبين طبقة وطبقة في المجتمع، وقد يترك الإنسان ما يستقبح في عرف طبقته ودافِعُه إلىٰ ذٰلك الخوف علىٰ سمعته بين الناس، وليس بسبب الحياء في قلبه، فالغني مثلًا قد يَأْنَف مِن شراء ثوبٍ مستعمل ولو كان جيِّدًا، وفي بعض البلدان لا يخرج الرجل حاسر الرأس، فلو فعل ذٰلك عُدَّ معيبًا ومنقصة في حقه، فيمتنع عن ذٰلك مراعاةً لعرف البلد؛ وإن لم يكن ذٰلك حرامًا، وإن كان الشخص نفسه يسافر إلىٰ بلد آخر فيخرج حاسر الرأس فيه؛ لعدم تعارف أهلها علىٰ ذٰلك.

فضل الحياء وثمراته

١. الحياء لا ينفك عن الإيمان:

فحيث وُجِد الحياء وجد الإيمان؛ إذ هما من جنس واحد، ويؤديان مهمة ووظيفة واحدة، ويحققان مقصدًا واحدًا؛ «الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا، فإذا رفع

---

(١) ينظر: الصحاح للجوهري (٤/ ١٦٨٢).

(٢) ينظر: الوسيط في المذهب للغزالي (٧/ ٣٥٣).

أحدهما رفع الآخر»[1]. ومر النبي ﷺ على رجل يعظ أخاه في الحياء فقال: «دعه فإن الحياء من الإيمان»[2].

وهو إحدى شعب الإيمان؛ كما ورد في الحديث: «الإيمان بضع وسبعون -أو قال: بضع وستون- شعبة، فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[3].

وإنما أفرد النبي ﷺ الحياء بالذكر دون غيره من الشُّعَب؛ لأنه كالداعي إلى باقي الشُّعَب، إذ الحيي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، ومن الحياء يكون العفاف وترك المعاصي[4].

٢. الحياء مفتاح كل خير:

لأنه أساس الأخلاق ومنبع الفضائل؛ ففي الحديث: «الحياء خيرٌ كلُّه»، أو قال: «الحياء كله خير»[5]، وفي لفظ آخر: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[6].

فهو من أعظم الأخلاق التي ورد بها ديننا، ورغب بها نبينا عليه الصلاة والسلام، حيث جعل ﷺ الحياء خلق الإسلام الذي يتميز به عن باقي الأديان؛ ففي الحديث: «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء»[7] وزيد في رواية: «ومَن لا حياء له لا دين له»[8].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٢٢) برقم: (٥٩)، وقال: صحيح على شرطهما؛ وابن أبي شيبة موقوفًا على ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٤) برقم: (٢٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٣) برقم: (٣٥).

(٤) ينظر: المسالك في شرح موطأ مالك لابن العربي (٧/ ٢٥٥)؛ فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٧) برقم: (٣٧).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٩) برقم: (٦١١٧).

(٧) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٥) برقم: (٩).

(٨) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٢٨١).

ومِن أَعظَم ما يدل على فضل هذا الخلق؛ ما ذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، عن معبد الجهني والحسن البصري أن لباس التقوى هو الحياء[1]، وإنما سمي بذلك لأنه يدفع بصاحبه إلى تقوى الله تعالى، فيؤدي ما ينبغي عليه أداؤه، ويجتنب ما يجب عليه اجتنابه.

٣. الحياء رادعٌ من فعل المعاصي:

في الحديث: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحيِ فاصنع ما شئت»[2]، والحديث يمكن أن يحمل على عدة معاني، ومن بين المعاني التي يصح حمل الحديث عليها: أنّ الرَّادع عن القبيح إنَّما هو الحياء، وبغياب الحياء تتدمَّر الأخلاق، وتُرتَكب الفواحش والموبقات، فمن لم يستح فإنَّه يصنع ما شاء، الشخص الذي ليس له حياء يردعه عن ترك القبائح؛ لا يمكن أن يرتدع بعد ذلك[3].

٤. الحياء زينة:

قال ﷺ: «زينوا الإسلام بخصلتين»، قلنا: وما هما؟ قال: «الحياء والسماحة في الله لا في غيره»[4]. وفي الحديث أيضًا: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»[5].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٦) وتفسير البغوي (٣/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٩) برقم: (٦١٢٠).

(٣) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٢/ ١٦٦).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٢٨١)؛ والتمهيد (٢١/ ١٤٢).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥١٨) برقم: (١٩٧٤)، وقال: حسن غريب؛ والبخاري في الأدب المفرد (ص: ٢١٠) برقم: (٦٠١).

شروط الحياء

هناك شروط يجب توفرها في خلق الحياء، سأذكرها بشكل مختصر، ثم أبين أمثلة عليها عند ذكر آفات:

١. ألا يؤدي إلى ترك واجب أو فعل محظور.

٢. ألا يؤدي إلى ترك السؤال والتعلم، أو إلى خطأ في إيصال المعلومة للمتعلمين.

٣. ألا يؤدي إلى فهم خاطئ للمعنى المراد، وخصوصًا في الموضوعات المهمة التي يترتب عليها عقوبات وحقوق، فلذا لا تُقْبَل الكنايات من الألفاظ في باب القضاء ومعرفة الحقوق، ولا بد من التصريح بالألفاظ المعروفة حتى لا يؤدي الحياء إلى ظلمِ بريء.

٤. ألا يؤدي بالإنسان إلى الانطواء وضعف الشخصية، بل يجب على الإنسان أن يوازن بين الحياء والثقة بالنفس، فلو دعت الحاجة للكلام أو النصيحة استطاع أن يُعبِّر عن مُراده بيسر وسهولة.

أنواع الحياء

ينقسيم الحياء باعتبار أصل نشأته إلى نوعين:

١. **نفسي غريزي:**

وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلها؛ كالحياء من كشف العورة بين الناس.

٢. إيماني مكتسب:

وهو أن يمنع المؤمن نفسه من فعل الرذائل والمعاصي خوفًا من الله تعالىٰ[١].

وينقسم الحياء باعتبار المستحيىٰ منه إلىٰ أنواع:

٣. الحياء من الله تعالىٰ:

فالله تعالىٰ مُطَّلِعٌ علىٰ عباده، وهو معهم يسمع ويرىٰ، فالمؤمن يستشعر مراقبة الله تعالىٰ له في كل حين، فإذا دعته نفسه لمخالفة مولاه ثار في نفسه الحياء من ربه أن يراه حيث نهاه، أو يفتقده حيث أمره، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء»[٢]، وفي حديث آخر قال ﷺ: «الله أحق أن يُسْتَحيا منه»[٣].

وهٰذا الحياء يكون بحسب معرفة العبد بربه؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلما ازدادت معرفة الإنسان بربه ازداد خشية له، ولذا كان ﷺ أكمل الناس حياء؛ لأنه أكملهم معرفة بالله تعالىٰ.

٤. الحياء من الملائكة الحافظين:

فالله تعالىٰ وَكَّل بكل عبد ملائكةً يحفظون عليه عمله؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، فالمؤمن يسشعر وجودهما معه، ومراقبتهما لعمله، فيدفعه ذٰلك إلى الحشمة وصيانة نفسه عن المخالفات، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لِيَسْتَحِ أحدكم مِن مَلَكَيه الذين معه كما يستحي من رجلين صالحين من جيرانه، وهما معه بالليل والنهار»[٤].

---

(١) ينظر: التعريفات للجرجاني (ص: ٩٤)؛ وفتح الباري لابن حجر (١/ ٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٣٧) برقم: (٢٤٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا (١/ ٦٤).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١٧٨) برقم: (٧٣٤٤)، وقال: إسناده ضعيف، وله شاهد ضعيف.

٥. **الحياء من الناس:**

فالمؤمن يكسوه الوقار والحشمة حيثما كان، فإذا خرج على الناس لم يروا منه إلا منظرًا حسنًا، عليه ثياب الحشمة والأدب، وإذا تكلم لم يسمع الناس إلا كلامًا طيبًا، يجتنب الكلام الفاحش البذيء، وإن احتاج إلىٰ ذكر ما يُسْتَحيا مِن ذكره عَمَد إلى الكنايات والمعاريض، إلا عند الضرورة، والأمثلة علىٰ ذٰلك في حديث النبي ﷺ وسيرة السلف الصالح أمثلة كثيرة، فمن ذٰلك أن النبي ﷺ كان يكني في الحديث عن أمور النساء بما يفهمه السامعون، دون أن يثيرَ فيهم كوامن الشهوات، أو يتلفظَ بما يستقبح من الكلمات.

ففي الحديث عن النبي ﷺ: «لو أن أحدكم قال حين يأتي أهله: بسم الله، اللهم جَنِّبْنَا الشيطان وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتَنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولدٌ في ذٰلك لم يَضُرَّه شيطان أبدًا»[1]، فعبر عن علاقة الرجل بأهله بلفظ «الإتيان».

ونحو ذٰلك قول الله تعالىٰ في كتابه: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، علىٰ ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها[2].

٦. **الحياء من النفس:**

وذٰلك بأن يصون نفسه عن التلفظ بالقبائح أو سماعها، حتىٰ وإن كان خاليًا بنفسه عن مراقبة الناس، وروي أن النبي ﷺ قال: «إذا كرهت أن يرىٰ عليك شيء في نادي القوم؛ فلا تفعله إذا خلوت»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٢) برقم: (٦٣٨٨)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٥٥) برقم: (١٤٣٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٩١).

(٣) أخرجه معمر بن راشد في جامعه (١١/ ١٤٤) برقم: (٢٠١٥١)، وفيه ضعف، ينظر: الترغيب والترهيب للمنذري (٣/ ٣٥٩).

ولكن ما هو الغرض من الحياء من النفس؟

والجواب: أنه صيانة للجوارح أن تعتاد القبائح في الخلوة فتنزلق بها أمام الناس في الجلوة، فمن أَلِفَ كشف عورته خاليًا ربما جَرَّه ذٰلك إلىٰ كشفها أمام الناس، بأن يطلع عليه في خلوته بعض الناس عمدًا أو خطأً، ومن صان عورته في خلوته أن تنكشف إلا لضرورة، فهو لها أمام الناس أشد صَونًا، وكذا من أَلِف استماع اللغو والكلام الفاحش في خلوته من الإذاعات أو غيرها، فإنه يألفها ويعتادها، ثم لا يلبث أن تنفلت منه تلك الكلمات النابية، فالحياء من النفس كالدرع الذي يحفظ الحياء أمام الناس، ومتىٰ نزع ذٰلك الدرع صار الإنسان مُعَرَّضًا لفقد الحياء من الناس.

٧. الحياء من الجناية:

كحياء آدم حين فر من الجنة، فقال الله تعالىٰ له: أفرارًا مني يا آدم؟ فقال: لا، بل حياءً منك يا رب مما جئت به[١]. وقال بشر الحافي: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالىٰ لَمَا عَصوه»[٢].

٨. الحياء من التقصير:

كحياء الملائكة، ففي الحديث عن النبي ﷺ: «ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنَّا لم نشرك بك شيئًا»[٣].

---

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (ص: ٢١٥) برقم: (٣٠٤)؛ والخرائطي في مكارم الأخلاق (ص: ١١٠) برقم: (٣١٠)؛ والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٤٢) برقم: (٨٥٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٤) برقم: (١٧٥١)؛ والحاكم في المستدرك (٣/ ٩٩) برقم: (٤٥٦٣).

٩. حياء الكرم:

كما ورد أن النبي ﷺ لما تزوج السيدة زينب بنت جحش ﵂؛ دعا الناس إلىٰ طعام، فجلس رسول الله ﷺ، وجلس معه رجال بعدما قام القوم وأطالوا الجلوس، فاستحيا النبي ﷺ أن يأمرهم بالانصراف[١].

١٠. حياء الحشمة:

كحياء سيدنا علي ﵁ أن يسأل النبي ﷺ عن المذي لمكان ابنته، فأمر المقداد أن يسأله[٢].

١١. حياء الاستحقار واستصغار النفس:

كما ورد في بعض أخبار بني إسرائيل؛ أن موسىٰ ﵇ استحيا أن يسأل بعض حوائج الدنيا، فقال له الله تعالىٰ: سلني حتىٰ ملح عجينك وعلف حمارك[٣].

طرق اكتساب الحياء

من الوسائل المعينة على اكتساب الحياء:

١. مراقبة الله تعالىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقد جعل النبي ﷺ مراقبة الله تعالىٰ أعلىٰ مراتب الإسلام، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١١٩) برقم: (٤٧٩٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٦٢) برقم: (٢٦٩).
(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٣٩).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠).

٢ . العلم بعظمة الله تعالىٰ وكرمه، وضعف الإنسان وحاجته:

فإذا علم العبد مقدار عظمة الله تعالىٰ، من خلال النظر في خلقه وآلائه حمله ذٰلك على الحياء منه تعالىٰ؛ إذ هو المتفضل بكل نعمة، فإن فكر أن يعصيه فليتفكر أنه إنما يعصيه بما منحه الله من صحة وقوة؛ قال ذو النون المصري: «اعلموا أن الذي أهاج الحياء مِن الله عز وجل معرفتهم بإحسان الله إليهم، وعلمهم بتضييع ما افترض الله عليهم مِن شكره، وليس لشكره نهاية»[1].

٣. مجالسة أهل الحياء:

فإن الأخلاق تنتقل من الجليس لجليسه، وقد قيل: الصاحب ساحب، وقال ﷺ: «الرجل علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[2] ومن يجالس السفهاء يفقد حياءه شيئًا فشيئًا.

ولا تجلس إلىٰ أهل الدنايا ... فإن خلائق السفهاء تعدي[3]

٤ . مطالعة تراجم الصالحين:

فإن مطالعة أخبار أهل الحياء وسِيَرهم تدفع إلى التشبه بهم قدر الاستطاعة.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرامِ فلاحُ[4]

٥ . هجران مواطن الغفلة والفحش والفسوق:

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٠/ ١٨١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٠٧) برقم: (٤٨١٨)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٧) برقم: (٢٥٦٩)، وقال: حسن غريب.

(٣) البيت لأبي العلاء المعري، من قصيدة مطلعها: «أمامة كيف لي بإمام صدق»، ينظر: ديوان اللزوميات له (١/ ٢٧٩).

(٤) البيت لأبي الفتوح السهروردي، من قصيدة مطلعها: أبدا تحن إليكم الأرواح، ينظر: ديوان السهروردي المقتول بشرح كامل مصطفى الشيبي (ص: ٦٢).

فمن المهم جدًّا أن يختار المسلم مجتمعًا صالحًا يعيش فيه، لا تُكْشَف فيه العورات، ولا تنتهك فيه الحرمات؛ فإن كثرة رؤية المخالفات تجعلها من المألوفات، وتُهَوِّن مِن شأن الوقوع فيها، ولذا حذر النبي ﷺ من الإقامة بين ظهراني المشركين، فقال ﷺ: «أنا بريءٌ مِن كل مسلمٍ يُقيم بين أظهر المشركين»(١)، وكذلك حذرنا النبي ﷺ من كثرة التردد إلى الأسواق لغير حاجة؛ لأنها مظنة الكلام البذيء والأخلاق الذميمة، قال ﷺ: «أَحَبُّ البلاد إلى الله مساجدُها، وأبغضُ البلاد إلى الله أسواقُها»(٢).

علامات التحقق بالحياء

بين لنا النبي ﷺ علامات التحقق بهذا الخلق العظيم أيَّما بيان؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء» قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وتذكر الموت والبِلَىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمَن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»(٣). فقد ذكر المصطفىٰ ﷺ علامات للحياء:

١. أن يحفظ الرأس وما وعىٰ:

فيحفظ بصره عن النظر للمحرمات؛ حياء من الله الذي أنعم عليه بنعمة البصر،

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٣٤٨) برقم: (٢٦٤٥)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٢٥٢) برقم: (١٦٠٤). قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٢١٨): «وصحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرسالَه إلىٰ قيس بن أبي حازم».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦٤) برقم: (٦٧١).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٨)، وقال: حديث غريب؛ وأحمد في مسنده (٣٦٧١)؛ وحسنه النووي في المجموع (٥/ ١٠٥)؛ وصَوَّب المنذري وقفَه على ابن مسعود.

ويحفظ أذنه عن استماع المحرمات؛ كالغيبة والمعازف والكلام الفاحش، حياء من الله الذي أنعم عليه بنعمة السمع، ويحفظ لسانه عن قول الحرام من الكلام الفاحش البذيء؛ لأن الله الذي أنعم عليه بنعمة النطق يكره الفاحش البذيء، ويحفظ فكره وخواطره أن تجول في الحرام أو تفكر فيه؛ حفظًا لنعمة العقل عن استعمالها فيما يغضب الله تعالىٰ.

٢. أن يحفظ البطن وما حوىٰ:

فيحفظ بطنه من أن يدخل جوفه طعام أو شراب حرام؛ لأن كل جسدٍ نَبَت مِن سُحْتٍ فالنار أولىٰ به، ويحفظ فرجه عن الحرام، فيجتنب الفواحش والرذائل؛ حياء من الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته.

٣. أن يذكر الموت والبلىٰ:

فالمسلم متذكر للموت في كل حال، فلا يبالغ في الانهماك بخدمة جسده، فهو يتذكر عظم قدرة الله تعالىٰ عليه، وأنه تحت قبضته وقدرته، فيعلم أن نهايته إلى الموت والفناء، فيستحيي من الله تعالىٰ أن يشتغل بخدمة جسد فانٍ عن عبادة ربه سبحانه.

٤. الزهد في ملذات الدنيا:

فالمسلم لو تيسرت له النعم المباحة فإنه يتنعم غير غافل عن شكر المنعم، ولو لم تتيسر له فلا ينهمك بكُلِّيّته في طلب الملذات؛ لأنه يعلم أن الدنيا فانية وأن الآخرة باقية، فيُفَضِّل لذة الآخرة على الدنيا.

فهٰذه علامات أربعة ذكرها النبي ﷺ لمن تحقق بخلق الحياء، أما لو ادعىٰ الإنسان الحياء ولم يتخلق بهٰذه الأخلاق؛ فما هو إلا مدع لا حَظَّ له في الحياء علىٰ وجه الحقيقة.

آفات الحياء وطرق علاجها

سبق أن الحياء بمعناه الشرعي محمود في كل حال، أما هٰذه الآفات فهي داخلة ضمن مسمى الحياء لغةً لا شرعًا، فقد ذكر ابن حجر الحياء في طلب العلم والحياء في قول الحق، فقال: هٰذا ليس بحياء شرعي[1]، فالإنسان قد يبالغ في الحياء حتىٰ يصل إلىٰ درجة الامتناع عن الخيرات، والمكوث على المخالفات، فيكون قد دخل في سلك الخجل المذموم، وعرَّض نفسه للعقاب واللوم. ومن هٰذه الآفات:

١ . الحياء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وذٰلك بأن يرىٰ منكرًا يستطيع إنكاره، إلا أنه يستحيي من إنكاره، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، روي أن عمر بن الخطاب ﷺ خطب يومًا فقال: لا تزيدوا في مهور النساء، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال، ثم نزل، فعَرَضت له امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين، أكتاب الله أحق أن يُتبع أو قولك؟ قال: بل كتاب الله تعالىٰ، فما ذاك؟ قالت: نَهَيتَ الناس آنفًا أن يُغالوا في صَدَاق النساء، والله تعالىٰ يقول في كتابه: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]، فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر -وفي رواية أنه قال: امرأة خاصمت عمر فخصمته-، ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: إني كنت نهيتكم أن تُغالوا في صَدَاق النساء، أَلَا فليفعل رجلٌ في ماله ما بدا له[2]. فلم يمنعها الحياء أن تُدافع عن حق النساء، ولم يمنع الحياء عمر ﷺ أن يعتذر عن الخطأ.

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٢).
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٣٨٠) برقم: (١٤٣٣٦).

ولعلاج هٰذه الآفة لا بد من تدريب القلب على الجرأة في قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخير ما يعين عليه استحضار قصص السلف في قولهم الحق وجرأتهم فيه.

٢. الحياء في طلب العلم:

قال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر»، وقالت عائشة: «نِعْم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[١]، وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أنه قال لعائشة: إني أريد أن أسألك عن شيء؛ وأنا أستحي منك، فقالت: سل، ولا تستحيِ، فإنما أنا أُمّك، فسألها عن الرجل يغشىٰ ولا يُنْزِل، فحدثته عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أصاب الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل»[٢].

ولِاجتناب هٰذه الآفة لا بد من معرفة أهمية العلم الذي يتركه بسبب خجله، فلو عرف ضرورته لَعَظُمت في سبيل الوصول إليه جُرأته، ولتضاعفت لأجل تحصيله عزيمته وهمته.

فإن تمكن منه الخجل ولم يستطع طرح سؤاله؛ فلْيَستَعِن بأحد إخوانه في توكيله بطرح هٰذا السؤال للمعلم حتىٰ يُحَصِّل الإجابة، ولا يُحرم من العلم بسبب خجله.

٣. الخلط بين الحياء والخجل:

من أكثر الآفات التي ينبغي اجتنابها في هٰذا المنزل؛ الخلط بين الحياء والخجل، وقد تقدم التفريق بينهما؛ وأن الخجل ما تجاوز الحد المحمود من الحياء، وأدىٰ بصاحبه للوقوع في القبائح بترك ما يتعين عليه فعله، أو فعل ما يتعين عليه تركه.

---

(١) الأثران أخرجهما البخاري في صحيحه تعليقًا (١/ ٣٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤١/ ١٩٧) برقم: (٢٤٦٥٥).

فلا بد من معرفة ما يترتب على حيائه، فإن كان محمودًا فحياؤه محمود، وإن كان مذمومًا فحياؤه مذموم مستقبح، وتسميته حياء من باب التسمية اللغوية، وهو غير داخل تحت مسمى الحياء شرعًا.

فروع متعلقة بالحياء

بين الحياء والرياء:

هل يتنافى الحياء من الناس مع منزلة الإخلاص لله تعالى؟

والجواب: أن الحياء من الناس وسيلة معينة للمسلم على اجتناب المحرمات، فقد يُزَيِّن الشيطانُ للإنسان الوقوع في المعصية، ويغره بأن الله غفور رحيم، فيأتي دور الحياء من الناس فيكون رادعًا عن تلك المعصية، فإذا ما فقد الإنسان الحياء من الناس كان عرضة للوقوع في المعاصي؛ سئل لقمان الحكيم: «أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئًا»[1]. وعن مجاهد: «لو أن المسلم لم يُصِب مِن أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه عن المعاصي لكفاه»[2]، وبهذا يتجلى أثر الصحبة الصالحة في حياة المسلم.

أما إذا وقف الإنسان في سيره عند الحياء من الناس، ولم يكتسب الحياء من الله تعالى؛ فصار يعمل المعاصي والموبقات في خلوته، ويتركها في جلوته، لا خوفًا من الله تعالى لكن خشية أن يسقط من عين الناس؛ فهذا جعل الله تعالى أهونَ الناظرين إليه، ولم يُبالِ باطِّلاعه عليه، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٢٣٥) برقم: (٦٦٠٢).

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في المنهيات (ص: ١٦٢).

فيتلخص من ذلك: أن الدافع للإنسان إلى العمل أو تركه؛ إذا كان مراقبة الناس فقط دون نظر إلى الغاية الأسمى منه وهو رضوان الله تعالى؛ فهذا العمل رياء لا حياء.

وإن كان فعل الفعل أو تركه إرضاءً لله تعالى؛ الذي أمره أن يحسن تعامله مع الناس، ويتخلق بالحشمة واللطف مع خلقه، ونهاه عن الفحش والتفحش، فهذا هو الحيي الذي تحلى بهذا الخلق العظيم.

نماذج من قصص أهل الحياء

أولًا: حياء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

جاءت شرائع الأنبياء كلها بتعظيم هذا الحياء؛ فعن أبي مسعود البدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحيِ فاصنع ما شئت»[1]، ومعنى الحديث: أن الحياء أمره ثابت منذ زمان النبوة الأولى، فإنه ما من نبي إلا وقد ندب إلى الحياء وبعث عليه، ولم يُبَدَّل فيما بُدِّل منه[2]، ولما كان الأنبياء أكمل الناس معرفة بالله تعالى؛ كانوا أكملهم حياء منه، وأكملهم في ذلك رسول الله ﷺ.

١. فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه[3].

٢. وفي قصة الإسراء والمعراج؛ لما فُرضت الصلاة خمسين صلاة، لقي نبينا موسى عليهم الصلاة والسلام، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فسله التخفيف،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٩) برقم: (٦١٢٠).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (١٩/ ٦٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٠) برقم: (٣٥٦٢).

فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعه، فحط عنه شطرها، فلقي موسىٰ فقال له: راجع ربك فإن أمتك لا تُطيق ذلك، فلم يزل يراجعه حتىٰ كانت خمس صلوات، فقال موسىٰ: راجع ربك، فقال النبي ﷺ: استحييت من ربي[1].

٣. وعن عائشة قالت: سألتْ امرأةٌ النبيَّ ﷺ كيف تغتسل من حيضتها؟ قال: فذكرت أنه علَّمها كيف تغتسل، ثم تأخذ فُرْصَةً مِن مِسكٍ فتَطَهَّر بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: «تطهري بها، سبحان الله»، واستتر، وأشار لنا سفيان بن عيينة بيده علىٰ وجهه، قال: قالت عائشة: واجتَذَبْتُها إليَّ، وعرفتُ ما أراد النبيُّ ﷺ، فقلت: تتبعي بها أثر الدم[2].

٤. ومكث آدم ﵇ في الأرض لا ترقأ عيناه، وقال: ما زلت مستحيًا من ربي تعالىٰ أن أرفع طرفي إلى السماء منذ صنعت ما صنعت[3].

٥. وكان موسىٰ ﵇ رجلًا حييًا سِتِّيرًا، لا يُرىٰ من جلده شيء استحياءً منه[4].

ثانيًا: حياء الصحابة الكرام ﭫ

١. عن أم المؤمنين عائشة ﭬ قالت: كنت أدخل البيت الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبي واضعةً ثوبي، وأقول: إنما هو زوجي وأبي، فلما دُفِن عمر والله ما دخلتُه إلا مشدودةً علي ثيابي حياءً من عمر ﭬ[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧٨) برقم: (٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧٠) برقم: (٣١٤)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ١٧٩) برقم: (٣٣٢)، واللفظ له.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٦) برقم: (٢٤٠٤).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٧) برقم: (٤٤٦٣).

٢. سيدنا الصديق ﷺ يستحيي من ربه تعالىٰ عند قضاء حاجته، فيغطي رأسه حياء من ربه سبحانه، فقد خطب الناس يومًا فقال: يا معشر المسلمين، استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده إني لأظل حين أذهب الغائط في الفضاء مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياء من ربي عز وجل(١).

ثالثًا: حياء السلف الصالح ﷺ

١. عن الأسود بن يزيد -وكان مجتهدًا في العبادة- أنه لما حضرته الوفاة بكىٰ، فقيل له: ما هٰذا الجزع؟ فقال: ما لي لا أجزع! ومن أحق مني بذٰلك؟ والله لو أُتيت بالمغفرة مِن الله عز وجل لَهَمَّني الحياء منه مما قد صنعته؛ إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مُسْتَحِيًا منه(٢).

٢. وعن الربيع بن خُثَيْم أنه كان لا يعطي السائل أقل من رغيف، ويقول: إني لأستحي من ربي عز وجل أن أرىٰ غدًا في ميزاني نصف رغيف(٣).

٣. وعن أبي حازم ﷺ أنه قال: إني لأستحيي من ربي عز وجل أن أسأله شيئًا فأكون كالأجير السوء، إذا عمل طلب الأجرة، ولكن أعمل تعظيمًا له(٤).

٤. وعن الجنيد بن محمد ﷺ قال: دقَقَتُ علىٰ أبي يعقوب الزيات بابَه في جماعةٍ مِن أصحابنا، فقال: ما كان لكم شُغل في الله يَشغلكم عن المجيء إليّ؟ قال الجنيد: إذا كان مجيئنا إليك مِن شغلنا به لا ننقطع عنه، ففُتح الباب، فسألته عن مسألة في التوكل، فأخرج درهمًا كان عنده ثم أجابني، فأعطى التوكل حقه، ثم قال: استحييت من الله عز وجل أن أجيبك وعندي شيء(٥).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٣٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٠٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١١٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٤٢).

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٢٣).

٥. وعن الفضيل بن عياض ﷺ قال: أدركت أقوامًا يستحيون من الله سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على جنب، فإذا تحرك قال: ليس هذا لكِ، قومي خذي حظك من الآخرة[١].

المقترحات العلمية والتدريبات

١. المحافظة على اللباس المحتشم، وستر العورة في المنزل في خلوتنا، حياءً من الله تعالى وملائكته، وهذا في حال الخلوة أدب وكمال، أما أمام الناس؛ فيجب ستر ما لا يجوز كشفه.

٢. المحافظة على اللباس المحتشم عند قراءة القرآن والأذكار؛ تعظيمًا لذكر الله تعالى وحياءً منه.

٣. تنمية الشعور بوجود ملائكة الله تعالى معنا ومرافقتهم لنا، وذلك بالاعتياد على السلام عند الدخول للمنزل، حتى وإن كان المنزل خاليًا، فنقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، ونستشعر بدخول الملائكة في قولنا في التشهد في الصلاة: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكذلك عند السلام من الصلاة نستشعر بخطابهم بالسلام، وهم يسمعون سلامنا ويردون، وإن لم نسمع جوابهم.

٤. الانتباه لتصرفات أولادنا وطلابنا، والتنبيه عند وجود أي فعل أو قول مُخِلٍّ بالحياء بالطريقة المناسبة.

---

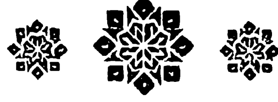
(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٨).

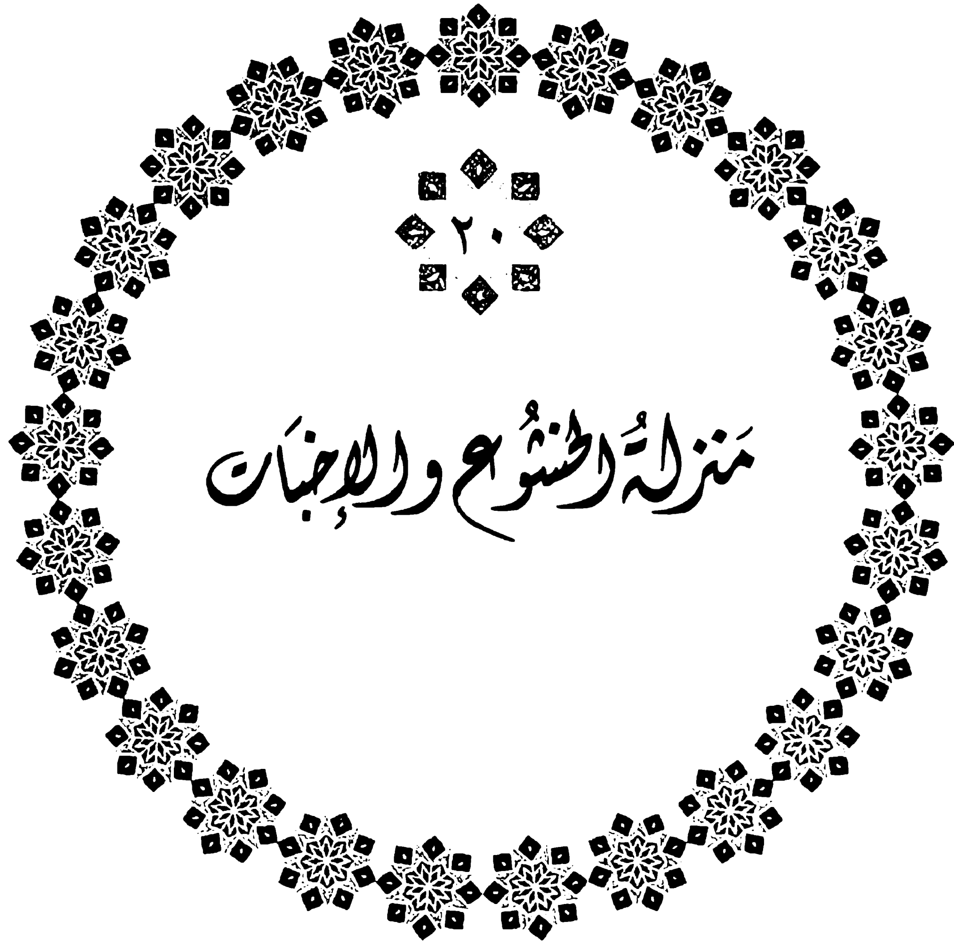
٥. القراءة في سيرة سيدنا عثمان بن عفان ﷺ، واستنباط مظاهر الحياء في حياته.

٦. تلخيص كتاب (خلق الحياء في ضوء الكتاب والسنة النبوية) للأستاذة لبنىٰ خالد إسماعيل.

٧. جمع عشرين بيتًا شعريًّا في فضيلة الحياء وحفظها وتكرارها.



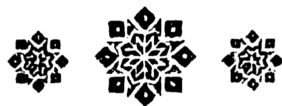
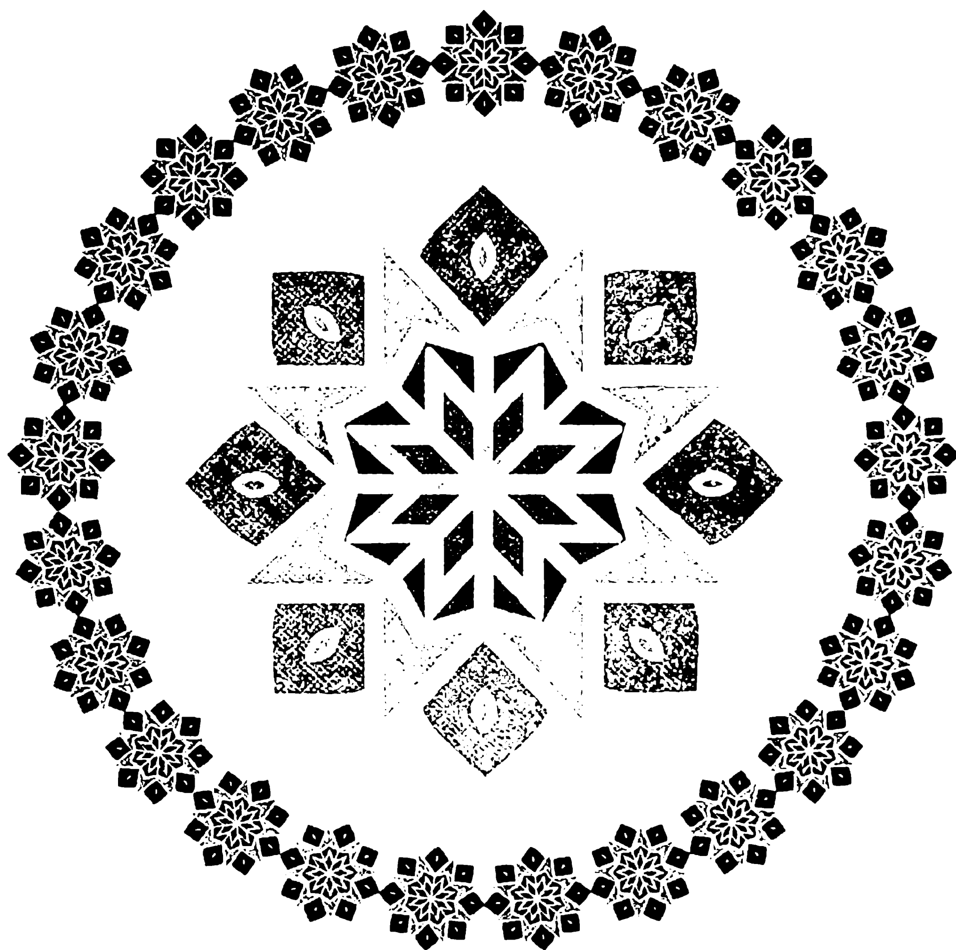


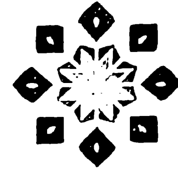


٢٠

مَنزلةُ الخشُوعِ والإخبَات





منزلة الخشوع والإخبات


بين يدي الخشوع والإخبات

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهٰذه الآية إلا أربع سنين»(١).

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: هٰذه الكلمة حث، وإطماع، وجدال، وحجة؛ وهي في الآية تصرخ أن خشوع القلب الذي تلك صفته هو كمال الدين للإيمان، وأن وقت هٰذا الخشوع هو كمال العمر، فالبِدارَ البِدارَ ما دمتَ في نَفَس مِن العمر؛ فإن لحظة ما بعد الآن لا يضمنها الحي.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾: وهٰذا كالنص على أن غير هٰؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق، وجعل الخشوع للقلوب خاصة؛ إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم؛ فهٰذا الأخير لا يكون خشوعًا، بل ذلًّا، أو ضَعَةً، أو رياء، وإن صلاح المؤمن ينبع من قلبه، متىٰ كان هٰذا القلب خاشعًا لله وللحق،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٣١٩) برقم: (٣٠٢٧).

وإن لم يكن كذٰلك نبع منه الفسق والظلم، وخشوع القلب لله وللحق معناه: السُّمُوّ فوق حب الذات وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة، والخشوع لما نزل من الحق ينفي خشوعًا آخر هو الذي أفسد ذات البين من الناس، وهو الخشوع لما قام من المنفعة، وانصراف القلب إليها بإيمان الطمع لا الحق[1].

وقد وصف الله تعالىٰ في كتابه الأرض بالخشوع فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]، «فاهتزازها وربوها -وهو: ارتفاعها- مزيلٌ لخشوعها، فدل علىٰ أن الخشوع الذي كانت عليه هو سكونها وانخفاضها، وكذٰلك القلب إذا خشع فإنه يسكن خواطره وإرادته الرديئة التي تنشأ عن اتباع الهوىٰ»[2].

وقد غلب استعمال الوصف بالخشوع في الصلاة، لكن الحقيقة أن الخشوع يصح أن يطلق علىٰ ما يكون في الصلاة وفي غيرها.

فالخشوع: «ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذٰلك فإنه يكون خاشعًا في الصلاة وفي غير الصلاة، بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفته اطلاع الله تعالىٰ على العبد، ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد، فمن هٰذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة»[3].

(١) ينظر: وحي القلم للرافعي (١/ ٢١٧).
(٢) روائع التفسير لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٠).
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٧١).

حقيقة الخشوع والإخبات

الخشوع والإخبات لغة:

الخشوع: التطامن، يقال: خشع الرجل إذا رمىٰ بصره على الأرض، وخشع ببصره: غضه، وخشعت الأرض: إذا يبست، ولم تمطر، والخشوع قريب من الخضوع، لكن الخضوع في البدن، والخشوع: في البدن والصوت والبصر؛ قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، والتخشّع لله: الإخبات والتذلل، والتخشع: تكلف الخشوع(١).

أما الإخبات: الخبت: المتسع من بطون الأرض، وأخبت الرجل لله: إذا خشع وتواضع، والمخبت: هو المتأله، المتوقي للمأثم، وفيه خبتة، أي: تواضع، وأخبت لله: خشع؛ وأخبت: تواضع، والإخبات: الخشوع والتواضع، وفي حديث الدعاء «واجعلني لك مخبِتًا»(٢)، أي خاشعًا مطيعًا، وقال الفراء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]، يعني: تخشعوا لربهم، قال: والعرب تجعل إلىٰ في موضع اللام، قال: ومعنى الإخبات: الخشوع(٣).

الخشوع والإخبات شرعًا:

الخشوع: «خمود النفس وهمود الطباع لمتعاظم أو مفزع»(٤).

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/ ١٠٨)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١٢٠٤)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ١٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٥٥٤) برقم: (٣٥٥١)؛ والبخاري في الأدب المفرد (ص: ٢٣٢) برقم: (٦٦٥) قال الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ٢٤٨): «صحيح».

(٣) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢٣٨)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ١٣٦)؛ لسان العرب لابن منظور (٢/ ٢٨)؛ تاج العروس للزبيدي (٤/ ٥٠٢).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٩٦).

وعُرِّف كذلك بأنه: «الانقياد للحق، وقيل: الخوف الدائم في القلب، وقال أبو البقاء: الذل والتضاؤل»(١).

وقال الجرجاني: «الخشوع والخضوع والتواضع بمعنىٰ واحد»(٢).

يقول الرافعي: «وخشوع القلب لله وللحق معناه: السمو فوق حب الذات، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة»(٣).

قال سفيان الثوري: «سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوري، أنت تريد أن تكون إمامًا للناس ولا تعرف الخشوع! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع، فقال: أُعَيمِش! تريد أن تكون إمامًا للناس ولا تعرف الخشوع! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس، لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء، وتخشع لله في كل فرض افترض عليك»(٤).

فأصل الخشوع: «خشوع القلب، وهو انكساره لله، وخضوعه وسكونه عن التفاته إلىٰ غير من هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعًا لخشوعه»(٥)؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي»(٦).

وقد عرّف أبو طالب المكي الإخبات بالخشوع فقال: «والإخبات: هو الخشوع، والطمأنينة بحسن الجزاء من الله ﷻ في الآخرة، لقرب اللقاء وسرعة فناء الدنيا»(٧).

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي (ص: ١٥٥).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ٩٨).

(٣) وحي القلم للرافعي (١/ ٢١٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٣٧٥).

(٥) فتح الباري لابن رجب (٦/ ٣٦٧).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٨٥) برقم: (٧٧١).

(٧) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٣١).

هل الخشوع والإخبات منزلة واحدة أو منزلتان؟ فالجواب: عند التفصيل هما منزلتان، لكن عند الإجمال نجد بينهما شيئًا من التداخل، فالإخبات يأتي بمعنى الخشوع، وبمعنى التواضع، وبمعنى الطمأنينة، وأصله المكان المنخفض، والمعنى الشرعي لا يخرج عن هذا المعنى، فبين الخشوع والإخبات تداخل في المعنى كما سبق، لكن قد يستعمل الخشوع للجوارح، كما في قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٤]، بينما الإخبات في القلب، مع الاتفاق على أن أصل الخشوع في القلب والجوارح تبع له.

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الخشوع والخوف:

عن قتادة قال: «الخشوع في القلب هو الخوف»[١]، وقال الحسن البصري: «الخشوع: الخوف الدائم اللازم للقلب»[٢].

ارتباط منزلة الإخبات بمنازل السكينة واليقين والثقة:

الإخبات هو من أول مقامات الطمأنينة، يعني بمقامات الطمأنينة: السكينة، واليقين، والثقة بالله تعالى ونحوها، فالإخبات مقدمتها ومبدؤها[٣].

الإخبات والعزم:

قال ابن القيم رحمه الله: «السالك إذا ورد مورد الإخبات تخلص من التردد والرجوع، ونزل أول منازل الطمأنينة لسفره وجدّ في السير»[٤].

---

(١) روائع التفسير لابن رجب الحنبلي (٢/ ٩).

(٢) الرسالة القشيرية للقشيري (١/ ٢٧٦).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢١٠).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٢١٠).

ارتباط منزلة الإخبات بمقام المحبة والخضوع:

يقول ابن القيم: «الإخبات جامع لمقام المحبة والذل والخضوع، لا يكون أحدها بدون الآخر إخباتًا»(١).

فضل الخشوع والإخبات وثمراته

١. الخشوع والإخبات سبب الفلاح والثواب الجزيل:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، «والفلاح: الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، أي: فازوا بما طلبوا ونجوا مما هربوا»(٢).

يقول ابن تيمية ﷺ: «ومما ينبغي أن يُعلم أن فضل القراءة والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك»(٣).

عن حسان بن عطية قال: «إن الرجلين ليكونان في صلاة واحدة، وإن بينهما من الفضل لكما بين السماء والأرض؛ ذلك أن أحدهما يكون مقبلًا على الله بقلبه، والآخر ساهٍ غافل»(٤).

«فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه؛ فإن موضع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات»(٥).

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٠٩).

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٢/ ٤٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٧/ ١٣٩).

(٤) الزهد والرقائق لابن المبارك: (الملحق: ٢٤).

(٥) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٦٣)

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]، قال القرطبي: «بشرهم بالثواب الجزيل»[١].

٢. أول شيء يرفع من الأمة:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «أول ما يرفع من هذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيه خاشعًا»[٢].

وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة»[٣].

وقال أيضًا: «ولَتُنْقَضَنّ عُرى الإسلام عروة فعروة، ويكون أول نقضها الخشوع، حتى لا يرى خاشعًا»[٤].

مراتب منزلة الخشوع والإخبات

١. طاعة الشرع والتسليم للقدر:

فالخشوع في مقابل الحكم الشرعي حقيقته: عدم معارضته برأي أو شهوة؛ وأما الاستسلام للحكم القدري، فهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض، وعليه فحقيقة الخشوع الاستسلام للحكمين، وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمره وقضائه؛ لأن العبد إذا رأى أن ما قدره الله له قد سبق به تقديره، وهو واصل إليه لا محالة، ولا بد أن يناله سكن جأشه[٥].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/ ٥٨).

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٤٠٠) برقم: (١٥٧٩)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٣٦): «رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن».

(٣) الزهد للإمام أحمد (ص: ١٤٧)؛ المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠).

(٤) الشريعة للآجري (١/ ٣٢٣).

(٥) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٩٧) (٣/ ٥٠٦).

وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أي: «المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له»[1].

٢. مدافعة الشهوة بالاعتصام، ومدافعة الغفلة بخوف المقام:

فالخشوع: «خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدر، وإشراق نور التعظيم في القلب»[2].

«وإنما يخشع القلب بما يتجلى له من عظمة الله عز وجل وجلاله، ويهيج من النفس الخوف والخشية والحياء منه، فيوجل القلب، فإذا خافت النفس وخشيت، فوجل القلب واستحيا، سكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها على الحدود»[3].

٣. ألا يرى لنفسه فضلًا، ولا تقطعه عن الطريق فتنة:

يقول ابن القيم: «مَن لاحظ بعين قلبه ما سبق له من ربه من جزيل الفضل والإحسان والبر، من غير معاوضة ولا سبب من العبد أصلًا، فإنه سبقت له تلك السابقة وهو في العدم لم يكن شيئًا البتة، شغلته تلك الملاحظة بطلب الله ومحبته وإرادته عن الطلب منه»[4].

وعن مطرف قال: «لو أُخرج قلبي فجعل في يدي هٰذه في اليسار، وجيء بالخير فجعل في هٰذه اليمنى، ثم قربت من الأخرى، ما استطعت أن أولج قلبي منه شيئًا حتى يكون الله عز وجل يضعه»[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٤٢٤).

(٢) الرسالة القشيرية للقشيري (١/ ٢٧٦).

(٣) رياضة النفس للحكيم الترمذي (ص: ٤١).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٥١٢).

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢٠١).

أما قطع الفتنة لطريق العبد: فإن العبد قد يؤتىٰ من قبل المعاصي فينقطع عن ربه، كما أنه قد يؤتىٰ من قبل الطاعات، «وذٰلك أن الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها، أكثر من الذي يخاف فتنتها، والذي يجهل فتنتها، أكثر من الذي يعلم فتنتها، ومن الناس من يعلم فتن الأعمال ومبطلاتها ثم يغلبه الهوىٰ ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل»(١).

طرق اكتساب الخشوع والإخبات

١ . العلم بالله وبمقام الرب ﷻ:

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وهو مقام الرب علىٰ عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية، وتذكّر هٰذا المقام يورث اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه علىٰ تفاصيل ما في القلب والجوارح، وخوفه من هٰذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضارًا له كان أشد خشوعًا، وإنما يفارق القلب الخشوع إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه(٢).

والخشوع من فعل القلب، فإذا علم القلب أين قام ولمن قام تَخَشَّع، وإذا استقام القلب ذلت النفس، وإذا ذلت النفس هدأت الجوارح(٣).

«وكل من يطمئن بين يدي غير الله عز وجل خاشعًا، وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثًا، فذٰلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل، وعن اطلاعه علىٰ سره وضميره»(٤).

---

(١) آداب النفوس للمحاسبي (ص: ٧٦).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٩٧).

(٣) ينظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول للحكيم الترمذي (٤/ ٢٤).

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٦٩).

أما الخوف من الله تعالىٰ، فإنه «إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر، فلا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقًا متأدبًا متذللًا، وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذٰلك»[1].

٢. الخشوع من الإحسان في العبادة:

ففي حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»، فالعبد في حضرة الله تعالىٰ على الدوام، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

مما استعمله أهل التربية قديمًا للتذكير بالخشوع، المقارنة بين حال العبد في حضرة ملوك الدنيا، وبين حاله عند وقوفه بين يدي رب العالمين، فالأصل أن تعظيم الله تعالىٰ أعظم في قلب العبد من تعظيم كل ما سواه، لٰكن أغلب الناس يذهلون عند حضورهم عند ملوك البشر، بينما تكثر حركتهم بين يدي الله.

ذكر الغزالي ما روي عن بعض أحوال الخاشعين، كحال مسلم بن يسار وقد سقطت الأسطوانة في المسجد، واجتمع الناس وهو في صلاته ولم يشعر بهم، ثم قال: « وكل ذٰلك غير مستبعد، فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا، وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم، حتىٰ يدخل الواحد علىٰ ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج، ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك، لكان لا يقدر على الإخبار عنه؛ لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٣٧٥).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٦٣).

٣. مطالعة عيوب النفس وآفات الأعمال:

من علامة الاستدراج العمىٰ عن عيوب النفس، فالعبد إن غفل عن عيوب نفسه وآفات عمله، نقص خشوعه بقدر ذٰلك، لذٰلك كان لا بد من تتبع ظهور نقائص نفسه وعمله وعيوبهما، فمتى اطلع عليها، تخشع القلب لا محالة لمطالعة تلك العيوب والنقائص، وعلم من نفسه قلة اليقين، وضعف الصدق، والكبر، وعلم من عمله العجب، والرياء، وتشتت النية، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي يرضاه لربه[1].

علامات تحقيق الخشوع والإخبات

١. الانقياد للحق:

من علامات الخشوع انقياد العبد للحق من أي وجه جاء، وفي هٰذا المعنىٰ يقول ابن القيم: «وقيل: الخشوع الانقياد للحق، وهٰذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته أن العبد إذا خولف أو رُدَّ عليه بالحق استقبل ذٰلك بالقبول والانقياد»[2].

٢. قلة وساوس النفس والشيطان:

فكلما خشع القلب لربه انشغل به عن وساوس النفس وتزيين الشيطان، فإن «القلب إذا خشع فإنه يسكن خواطره وإرادته الرديئة التي تنشأ عن اتباع الهوىٰ، وينكسر ويخضع لله عز وجل، فيزول بذٰلك ما كان فيه من البأو[3] والترفع والتعاظم والتكبر»[4].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٩٨).

(٢) الرسالة القشيرية للقشيري (١/ ٢٧٦).

(٣) **البأو**: من الزهو والافتخار والكبر. ينظر: العين للخليل بن أحمد (٨/ ٤١٤).

(٤) الذل والانكسار للعزيز الجبار لابن رجب الحنبلي (ص: ٢٩٢).

وقال سهل: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان»[١].

الآفات التي تؤثر في الخشوع والإخبات

١. الرياء والتكلف:

الخشوع المحمود ما كان سببه خشية الله، وكان نابعًا من قلب العبد، وظهر ذلك على جوارحه دون تكلف، «وأما المذموم فتكلفه، والتباكي ومطأطأة الرأس، كما يفعله الجهال، ليُرَوا بعين البر والإجلال، وذلك خداع من الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان، روى الحسن أن رجلًا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن، فلكزه عمر أو قال: لكمه»[٢].

«ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه، مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه، كان ذلك خشوع نفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه»[٣]، فقد روى ابن المبارك عن أبي الدرداء أو أبي هريرة قال: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق»، قيل: وما هو؟ قال: «أن يُرى الجسد به خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[٤].

وقال الفضيل بن عياض ﷺ: «كان يُكرَه أن يُرِي الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه»[٥].

---

(١) الرسالة القشيرية للقشيري (١/ ٢٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٣٧٥) والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية (ص: ٦٤).

(٣) روائع التفسير لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٠).

(٤) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٤٦).

(٥) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٩٥).

٢. الغفلة واتباع الهوىٰ:

فلما كان الخشوع: «قيام القلب بين يدي الحق سبحانه بهمٍّ مجموع»[١]، كانت الغفلة منافية لجمعية القلب علىٰ ربه، فكل ما يشغل القلب يشوش عليه خشوعه.

«وإذا أقبل على الخالق عز وجل، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس، والنفس مشغوفة بها، ملأىٰ منها، فكيف يكون ذٰلك إقبالًا وقد ألهته الوساوس والأفكار، وذهبت به كل مذهب؟!»[٢].

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، «قيل: سكارىٰ من كثرة الهم، وقيل: من حب الدنيا، وقال وهب: المراد به ظاهره، ففيه تنبيه علىٰ سكر الدنيا، إذ بيّن فيه العلة فقال: حتىٰ تعلموا ما تقولون، وكم من مصل لم يشرب خمرًا وهو لا يعلم ما يقول في صلاته»[٣].

ومن ذٰلك «النهي عن الصلاة مع مدافعة الأخبثين، فقيل: علته عدم الخشوع والإقبال علىٰ أفعال الصلاة»[٤].

وعن عائشة ﵂: أن النبي ﷺ صلىٰ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذهبوا بخميصتي هٰذه إلىٰ أبي جهم، وأتوني بأَنْبِجانيّة أبي جهم، فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي»[٥].

---

(١) الرسالة القشيرية للقشيري (١/ ٢٧٥).

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (١/ ٤٥).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٥٠).

(٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن الملقن (٢/ ٣٠٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٤٧) برقم: (٥٥٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٩١) برقم: (٥٥٦).

وفي هٰذا المعنىٰ قول أبي الدرداء ﷺ: «مِن فِقه المرء إقباله علىٰ طعامه حتىٰ يقبل علىٰ صلاته وقلبه فارغ»(١).

«فالخشعة للقلب الذي قد ماتت شهوات نفسه، فاطمأن لفراغه من النفس وفراغه من تكلفها»(٢).

نماذج من خشوع وإخبات السابقين

١. إسرائيل بن يونس الهمذاني:

قال عنه الذهبي: الحافظ، الإمام، الحجة، قال: «وبلغنا عن شقيق البلخي، قال: أخذت الخشوع عن إسرائيل، كنا حوله لا يعرف مَن عن يمينه، ولا من عن شماله؛ مِن تفكره في الآخرة، فعلمت أنه رجل صالح»(٣).

٢. محمد بن الحسن الشيباني:

وهو صاحب الإمام أبي حنيفة رحمهما الله، وكان حَسَن الصلاة كثيرَ الخشوع، يقرأ القرآن في ثلاثة أيام، مشغولًا بنفسه عن مخالطة الناس، حافظًا لوقته، مستغرق الزمان في تصانيف الكتب وشرحها، كان يقول لأهله: لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا فتشغلوا قلبي، وخذوا ما تحتاجون إليه من وكيلي، فإنه أَقَلُّ لِهَمّي وأفرغ لقلبي(٤).

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا (١/ ٢٣٨).

(٢) نوادر الأصول في أحاديث الرسول للحكيم الترمذي (٢/ ١٧٢).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٥١).

(٤) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (١٣/ ١٣١).

٣. **محمد بن عبد الرحمن الأزدي القرطبي أبو عبد الله الفراء:**

تلا القرآن على أبي بكر يحيى بن مجاهد الإلبيري، وكان رجلًا صالحًا، مواظبًا على تلاوة القرآن، كثير الخشوع، إذا قرأ بكى ورتّل وبيّن في مهل، ويقول: أبو بكر علّمني هذه القراءة(١).

المقترحات العملية والتدريبات

١. عود نفسك أن تقرأ القرآن في الصلاة وغيرها بالترتيل، فإنها تورث العبد الخشوع.

٢. تتبع قصص وتراجم الصالحين، فإن مما يلفت نظر القارئ لها تكرر وصف الكثير منهم بالقول: كان كثير الخشوع، في كثير من تلك التراجم.

٣. اجلس مع نفسك، وتذكر ذنوبك وعيوبك، وتذكر ما يعرض لعملك من الرياء والعجب، وما يعرض لك من الفتور والتقصير في الطاعات، وتذكر جميل ستر الله عليك.

٤. وطّن نفسك أن تتشاغل بنفسك عن الناس، وبعيوبك عن عيوبهم، واحرص أن تفرّغ قلبك لربك ما استطعت.

٥. مما يحاول به علماء السلوك إحياء الخشوع في القلب: المقارنة بين تأدب الناس بين يدي ملوك الأرض، وتحفظهم عندهم في لحظهم، وحركتهم ومقالهم، وبين تحفظهم وخشوعهم بين يدي ملك الملوك، فتذكر هذه المقارنة لعلها تحيي الخشوع في القلب(٢).

---

(١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبد الله المراكشي (٤/ ٤٠٠).

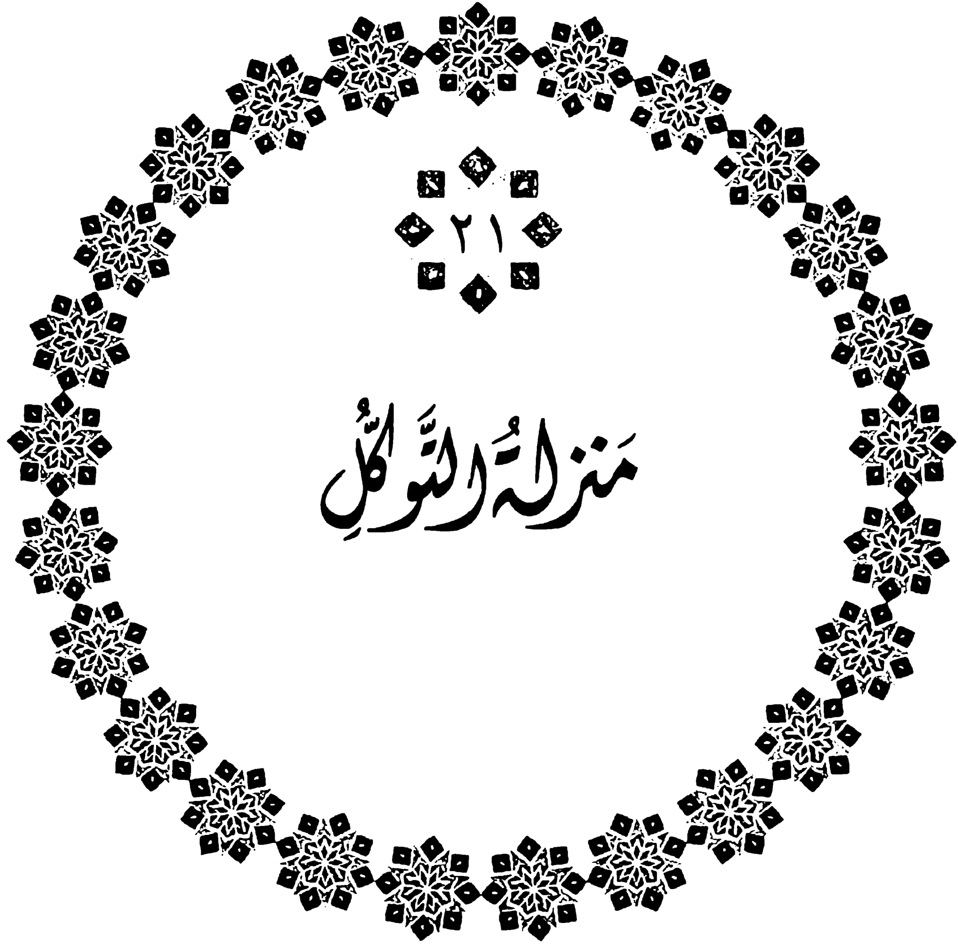
(٢) المسلكيات لإبراهيم السكران (ص: ١٤٦).

٦ . من بركة العلم التلقي عن أهله، وخير العلوم ما أورث عملًا وحالًا، قال عبد الرزاق: «أهل مكة يقولون: أخذ ابن جريج الصلاة عن عطاء، وأخذها عطاء من ابن الزبير، وأخذها ابن الزبير من أبي بكر، وأخذها أبوبكر من النبي ﷺ، ثم قال عبد الرزاق: ما رأيت أحدًا أحسن صلاة من ابن جريج»[١].

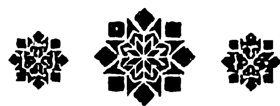
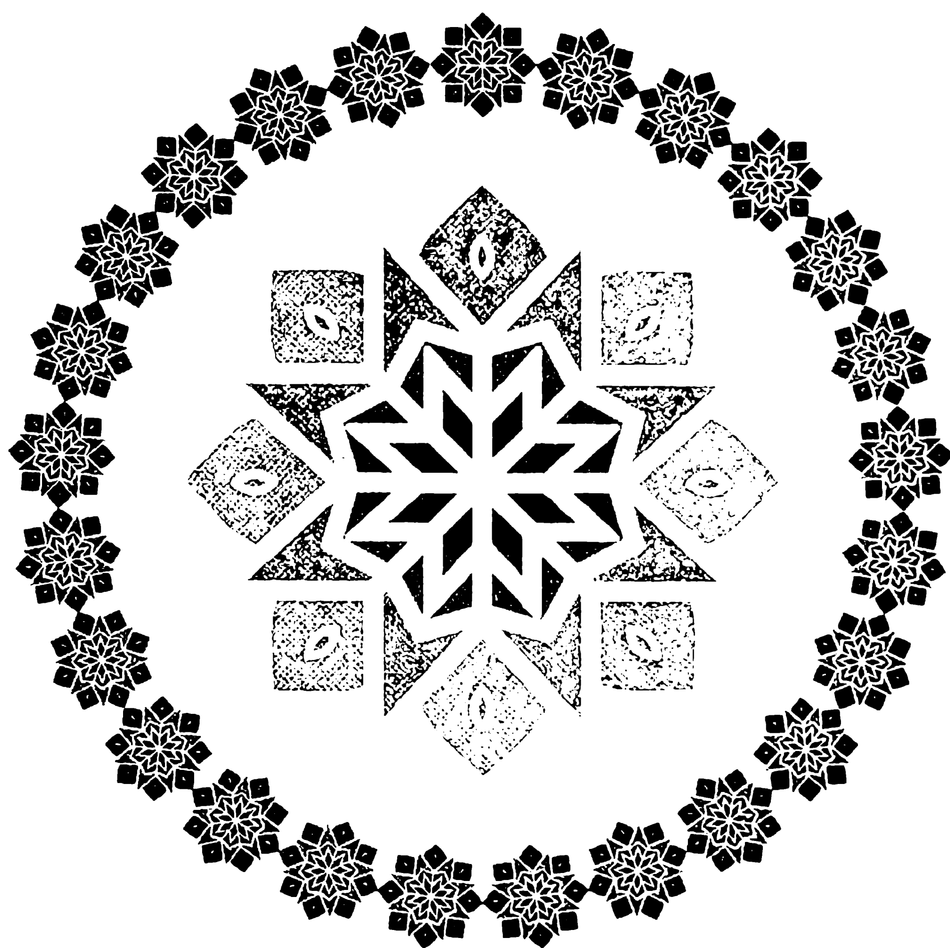


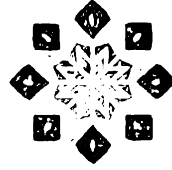
(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٣٦) برقم: (٧٣).




٢١
مَنزلةُ التَّوكُّلِ



منزلة التوكل



بين يدي التوكل

التوكل على الله تعالىٰ هو أحد مقامات اليقين التسعة(١)؛ بل هو واسطة عقدها ولسان ميزانها، فهو أعلىٰ مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقربين، واليقين شهادة المعرفة بحقيقة الحق المبين، فإذا جعل الله تعالىٰ قلب الموقن مكاناً لذلك مَكَّن فيه علىٰ قدر المكان ما يليق به(٢).

وهو مقام رفيع من مقامات الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد وصف الله تعالىٰ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بأنه من الموقنين؛ وكان له من التوكل المقام المشهود؛ وقد تواردت الرسل صلوات الله عليهم وسلامه بذكره، ولهجت به ألسنتهم؛ وخاصة في مواجهة تكذيب أقوامهم لهم حين دعوهم إلى الله تعالىٰ؛ فقد قال نوح ﷺ لما كذبه قومه: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود ﷺ لما عارضه قومه وكذبوه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦]، وقال إبراهيم ﷺ والذين آمنوا معه لما تبرأوا من قومهم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال يعقوب ﷺ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]،

---

(١) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (ص: ٤٩٩). والمقامات التسعة على الترتيب هي: التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا والمحبة.

(٢) ينظر: المصدر السابق (ص: ٨٥١، ٨٦٧).

وقال شعيب ﷺ لما أنكر عليه قومه دعوتهم إلى التوحيد: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وكذلك قالت الرسل لأقوامهم لما كذبوهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال موسىٰ ﷺ لمن كان معه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤- ٨٥]، وقال الله ﷻ لخاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

والتوكل من أعمال القلوب، ودرجة عالية من درجات المجاهدات للرُّقيّ في المقامات، قال سهل التستري في قول الله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]: «أصدقكم توكلًا»، وقال: «التقوىٰ واليقين مثل كفتي الميزان والتوكل لسانه، به تعرف الزيادة والنقصان»[1]، يعني: أن التوكل معيار التقوىٰ واليقين، فبقدر ما للعبد من حال التوكل والتحقق به يكون له من مقام التقوىٰ وشهادة اليقين.

ومنزلة التوكلِ من أوسع منازل أهل الإيمان والسائرين إلى الله تعالىٰ ومن أجَلِّها وأجمعها، وذلك لسعة ما يتعلّق بالتوكل، ولكثرة حوائج الخلق، ولعموم التوكل؛ إذ المكلفون -من الإنس والجن وغيرهم- في مقام التوكل سواء، وإنْ اختلفت الجهة التي يتعلق بها توكلهم؛ فالأولياء وخاصّةُ الصالحين يتوكلون عليه ﷻ في تحصيل ما يُرضيه منهم، وفي إقامته في الخَلْق، فيتوكَّلون عليه في الإيمان، ونُصرة الدين، وإعلاءِ كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابّه، وتنفيذ أوامره،

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٤).

ومَن هو دون هٰؤلاءِ في الرتبة مَن يتوكَّل عليه في شيء معلومٍ يطلبه ويسعىٰ في تحصيله: مِن رزق، أَو عافية، أو نَصْرٍ علىٰ عدوٍّ، أو زوجة، أو ولد، ونحو ذٰلك[1].

حقيقة التوكل

التوكل في اللغة:

التوكل يدلُّ على اعتماد غيرك في أمرك، ومن ذٰلك الوُكَلَةُ وَالوَكَلُ: الرَّجلُ الضعيفُ، ومنه التَّوَكُّل، وهو إظهارُ العجز في الأمر والاعتمادُ على الغير، وسميَ الوكيلُ؛ لأنه يُوكَلُ إليه الأمرُ، والتوكيل: أن تعتمد غيرك وتجعله نائبًا عنك، وربما فسر الوكيل بالكفيل، والوكيل أعم؛ لأن كل كفيل وكيل، وليس كل وكيل كفيلًا[2].

التوكل شرعًا:

عرفه الهروي بأنه: «كِلَة الأمر إلىٰ مالكه، والتعويل علىٰ وكالته»[3]. وعرفه ابن عطاء: «بأن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها»[4]. وأجمعُ تعريف للتوكل ما قاله ابن رجب الحنبلي؛ بأنه: «صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكِلَة الأمور كلها إليه،

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٨٣).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ١٣٦)؛ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٨٣٤).

(٣) منازل السائرين للهروي (ص: ٤٣).

(٤) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٠).

وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه»[1].

فالأصل في معنى التوكل هو: الاعتماد القلبي فيما يعجز العبد عن تحصيله لتحقيق مصالحه؛ فيلتجئ ويُسنِد أموره إلىٰ مَن يطمئن إلىٰ تدبيره ويثق بقوته؛ لِيَسدّ عجزه ويُكمل قصورَه، وهو معنىٰ لا حول ولا قوة إلا بالله؛ لأن المتوكل يتبرىٰ مِن حوله وقوته، ويلجأ إلىٰ مَن بيده الحول والقوة ومَن بيده ملكوت كل شيء ﷻ، قال أبو يعقوب السوسي: «لا تطعنوا علىٰ أهل التوكل؛ فإنهم خاصة الله الذين خُصُّوا بالخصوصية، فسكنوا إلى الله واكتفوا به واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة»[2].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الاستعانة: وهي طلب العون[3]، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وبين الاستعانة والتوكل اشتراك من حيث المعنىٰ؛ وهو الاعتماد على الله عز وجل، إلا أن التوكل اعتماد القلب، وهذا اعتماد في تحصيل الفعل أو دفعه، فالاستعانة وإن كانت في الأصل عملًا قلبيًّا إلا أنها تتخذ صورًا مادية ظاهرة.

اليقين: وهو أصل لكل المقامات؛ ومنها التوكل.

التواكل: هو من المعاني القريبة من حيث الاشتقاق والمقابلة، إلا أن علاقته مع التوكل علاقة التضاد والعكس، فالتواكل: هو ترك الأسباب لكن مع التطلع إلىٰ

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٩١٤).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (ص: ٨٥٤).
(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥٢٨).

ما في أيدي الخلق؛ وقد ورد أن قوله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ [البقرة: ١٩٧] نزل في قوم من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس[1]، قال المهلب: «وفيه أن التوكل لا يكون مع السؤال، وإنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء»[2].

وورد عن معاوية ابن قرة قال: «لقي عمر بن الخطاب ﷺ ناسًا من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتواكلون؛ إنما المتوكل الذي يُلقي حبَّه في الأرض ويتوكل على الله عز وجل»[3]، فهؤلاء تركوا الأسباب اعتمادًا على الخلق وليس اعتمادًا على الله تعالىٰ، بخلاف المتوكل فإن اعتماده على الله تعالىٰ، وقد منع النبي ﷺ معاذًا أن يخبر الناس بحديث: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا حرمه الله على النار»؛ قال: يا رسول الله، ألا أُخبِر بها الناس فيستبشروا؟ قال ﷺ: «إذن يتَّكِلوا»[4].

وقد ذكر بعضهم الرضا، والثقة، والتفويض، والتسليم وجعلها من المعاني القريبة من التوكل، وفي الواقع هي ثمرات من ثماره كما يأتي.

فضل التوكل وثمراته

١. الوصول إلىٰ محبة الله عز وجل:

إن أعلىٰ ما يسعىٰ إليه العبد ليحصله في دينه محبةُ الله تعالىٰ وطلب رضاه،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٣٣) برقم: (١٥٢٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٣٨٤).

(٣) التوكل على الله لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٧) برقم: (١٢٨)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٦١) برقم: (٣٢).

والطرق الموصلة إلىٰ ذٰلك كثيرة؛ ومن أعظمها طريق التوكل على الله ﷻ؛ إذ هو طريق مؤكد للوصول إلىٰ محبة الله تعالىٰ ورضوانه، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢. دخول الجنة بغير حساب:

المتوكلون على الله هم أهل الشرف والكرامة عند الله تعالىٰ يوم القيامة؛ حيث يكرمهم الله تعالىٰ ويشرفهم بدخولهم إلى الجنة بغير حساب، كما ورد في الصّحيحين حديث السبعين أَلْفا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب، وقد بين النبي ﷺ صفتهم بأنهم «الَّذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَتَطَيَّرُون ولا يكتوون، وعلىٰ ربهم يتوكَّلون»[1].

٣. سبيلٌ لتيسير الأرزاق:

التوكل سبب لكثرة الخير والبركة في أحوال العبد كلها؛ في خروجه وسفره وعمله؛ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطيرَ: تغدوا خِماصًا وتروح بِطانًا»[2].

٤. حصول النعم والفضل والحفظ من السوء:

من ثمار التوكل الحصول على النعم الإلهية ومزيد الإفضال منه ﷻ؛ ووصولهم إلىٰ أفضل النتائج الدنيوية؛ مع حفظ الله تعالىٰ لهم من كل سوء؛ ثم الفوز بأعلى الدرجات الأخروية؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٦) برقم: (٥٧٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٧) برقم: (٢٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٦٦) برقم: (٢٣٤٤)، وقال: حسن صحيح؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٩) برقم: (٧٣٠)؛ والنسائي في الكبرىٰ (١٠/ ٣٨٩) برقم: (١١٨٠٥).

ﵟٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞﵞ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

٥. الكفاية:

من أهم الآثار المترتبة على التوكل الكفاية التي وعد الله تعالىٰ بها عباده المتوكلين، وضمِنَها لمن صدق في توكله عليه؛ قال تعالىٰ: ﵟوَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓﵞ [الطلاق: ٣]، ومعنىٰ: ﵟحَسۡبُهُۥٓﵞ أي: أنه تعالىٰ يكفيه ويتولىٰ تدبير أموره، ومن معاني الآية: أن مقام التوكل يكفي من سائر المقامات الأخرىٰ، وقرأ النبي ﷺ هٰذه الآية علىٰ أبي ذر وقال له: «لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم»(١)، يعني: لو حققوا التقوىٰ والتوكل لاكتفوا بذٰلك في مصالح دينهم ودنياهم(٢).

وقد ورد التصريح بهٰذه الكفاية في قوله ﷺ: «من قال -يعني إذا خرج من بيته-: بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت وتنحّىٰ عنه الشيطان، فيقول شيطانٌ آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي!»(٣).

٦. الوقاية من إغواء الشيطان:

قد أخبرنا الله ﷻ أن أشد عدو للإنسان هو الشيطان، حيث قعد له في طريقه إلى الله تعالىٰ يتربص به ليغويه ويضله، إلا أن الله تعالىٰ أدخل في كنفه وحفظه

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦/ ٢٨) برقم: (٤٨٢٠)؛ وأحمد في مسنده (٣٥/ ٤٣٦) برقم: (٢١٥٥١)؛ والنسائي في الكبرىٰ (١٠/ ٣٥٠) برقم: (١١٥٣٩)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٤) برقم: (٣٨١٩)، وقال: صحيح.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٦٤٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٠٤) برقم: (٨٢٢)؛ الترمذي في جامعه (٥/ ٤٢٦) برقم: (٣٤٢٦)، وقال حسن غريب؛ وأبو داود في سننه (٧/ ٤٢٥) برقم (٥٠٩٥).

مَن توكل عليه، وكفاه شر هٰذا العدو؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وقد ورد بيان هٰذه الآية في الحديث المارّ: «من قال -يعني إذا خرج من بيته-: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: هُديت وكفيت ووقيت وتنحّىٰ عنه الشيطان»[١].

٧. الإقدام وعدم التردد في اتخاذ القرار:

التوكل على الله تعالىٰ يجعل صاحبه ذا قرار حازم ليس فيه تردد ولا تلكؤ، فيتخذ قراراته معتمدًا علىٰ ربه تعالىٰ، طارحًا التردد والتخوف من المستقبل وراء ظهره؛ إذ هو يتوكل علىٰ عالم الغيب والشهادة الذي لا يخيب من توكل واعتمد عليه؛ قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ ولٰكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٢].

٨. حصول القوة للمتوكل:

المتوكل على الله تعالىٰ قوي بربه؛ كما قال نوح عليه السلام في مواجهته لقومه: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١]، فقد تحداهم بجموعهم وقوتهم باعتماده وتوكله على الله تعالىٰ، وعلق النبي ﷺ علىٰ قول لوط عليه السلام حين قال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠] بقوله: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلىٰ ركن شديد»[٣]، يريد: الله سبحانه؛ لأنه الكافي في الحقيقة،

(١) تقدم تخريجه في التعليق السابق.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥٠) برقم: (٣٣٨٧)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم: (١٥١).

وكما قال موسىٰ ﷺ لقومه عندما قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

٩. التوكل يورث الرضا والصبر:

التوكل يثمر الرضا في النفس، قال الله عزّ وجلّ في وصف عموم المتوكلين ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٦]، فمن وكل أموره إلى الله ورضي بما يقضيه له ويختاره فقد حقق التوكل، عن أيوب السختياني والفضيل بن عياض رحمهما الله تعالىٰ أنهما كانا يقولان: «الرضا: التوكل»(١).

والرضا والصبر يُجَنِّبان المؤمن الأزمات النفسية والجسدية؛ لأن التوكل على الله تعالىٰ فيه عِدَّةٌ وقوةٌ معنوية ونفسية، والمرء تمر في حياته اليومية كثير من المصائب والشدائد وخذلان المخلوقين له، وإن استسلم لها أصبح في كآبة وضعف وذل وهوان، والمخرَجُ منها الرضا والصبر بما قدره الله تعالىٰ(٢).

١٠. الاستسلام:

الاستسلام نتيجة وثمرة من ثمار للتوكل؛ فالمتوكل علىٰ ربه مستسلم له في جميع أموره فيما يحكم ويقضي، إذ من مقتضى الإيمان تسليم الأقدار كلّها للقادر، واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره، وقد أقسم الله العظيم بنفسه في نفي الإيمان عمّن لم يُحَكّم الرسول فيما اختلف عليه من حاله، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فكيف بالحاكم الأوّل والقاضي الأجلّ سبحانه!(٣).

(١) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي (ص: ١٧٢).

(٢) التوكل على الله في القرآن الكريم لمعتوقة بن محمد حسن الحساني (ص: ٢٧١).

(٣) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ١٥).

أسس التوكل

يقوم التوكل على عدة أسس، وهي: المعرفة بالله تعالى، والإيمان به، ثم الزهد، والتفويض.

١. المعرفة:

أول أساس يقوم عليه التوكل هو: معرفة مَن يُتَوكَّل ويُعتمد عليه؛ فقد عُرِّف التوكل بأنه: «علم القلب بكفاية الرب»(١)، وهو تعريف بالأساس الذي يقوم عليه، فالمعرفة تعتبر أول درجة يضع بها العبد قدمه للوصول إلى مقام التوكُّل، وهي المعرفة الخاصة بالله وصفاته؛ من قدرته، وكفايته، وقيُّوميَّته، وأنه عزيز حكيم، يعطي لعزته، ويمنع لحكمته، فيعتز العبد بعزته، ويرضى بحكمه؛ ويستسلم لحكمته، وهي التي يدور حولها العارفون؛ قال ابن المبارك: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها، قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل»(٢).

والتوكُّل من أَعمّ المقامات تعلُّقًا بالأَسماءِ الحسنى، فقد قُرن التوكل بالأسماء الحسنى؛ في كتاب الله تعالى؛ قال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، ولهذا فسّره من فسّره من الأئمة بأَنَّه من المعرفة بالله، وإنما أراد أَنَّه بحسب معرفةِ العبد يصحّ له مقام التَّوكُّل، فكلَّما كان بالله أعرف كان توكُّله عليه أَقْوى(٣).

---

(١) مدراج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٨٥).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ١٦٧).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٠٢).

٢. الإيمان:

ربط القرآن الكريم التوكل بتوحيد الله تعالىٰ؛ فقال تعالىٰ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦]، قال بعض الصحابة والتابعين: «التوكل نظام التوحيد وجماع الأمور»[١]. وقد جعل الغزالي التوكل مقرونًا بباب التوحيد؛ إذ لا يصح التوكل إلا بصحة التوحيد، فقال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل»[٢]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، فجعل ﷺ التوكل مقرونًا بالإيمان به، كما جعله مقرونًا بعبادته في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. قال أبو يعقوب السوسي: «من طعَن في التوكل فقد طعن في الإيمان؛ لأنه مقرون به»[٣].

وآيات القرآن الكريم تقرر أن من مقتضىٰ إيمان المؤمنين أن يكون اعتمادهم على الخالق سبحانه لا علىٰ غيره، وبذٰلك يحصل التمايز بين أهل الإيمان وغيرهم؛ وهو دليل علىٰ إيمانهم ويقينهم، قال الحارث المحاسبي: «الذي يجب على الناس في جملتهم من التوكل المفترض عليهم التصديق لله جل وعز فيما أخبر من قَسْمٍ وضمان الكفاية، وكفالته من سياقة الأرزاق لهم، وإيصال الأقوات التي قسمها في الأوقات التي وقَّتها، بتصديق تقوم الثقة به في قلوبهم، وينفي الشكوك عنهم والشُّبَه، ويصفو به اليقين، ويثبت به حقائق العمل أنه الخالق الرازق المحيي المميت المعطي المانع المنفرد بالأمر كله»[٤].

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٣).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢٤٥).

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٤).

(٤) المكاسب والورع والشبهة للحارث المحاسبي (ص: ٢١).

وقد جعل شرط الإيمان أساسًا للتوكل؛ وذلك بعد الأمر به، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. فمن تحقّق به فقد تحقّق بالتوحيد وكمل إيمانه وكان على مزيد، وانتفى عنه دقائق الشرك وخفايا تولي العدو، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ يعني: العدو، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]، يعني: الله سبحانه، فلم يشترط نفي سلطان العدو بالإيمان مجرّدًا حتى يقيمه في مقام التوكّل[1].

٣. الزهد:

ولا يصح التوكل إلا بالزهد، قال أبو محمد سهل: «العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل، فليس للتوكل حد ولا غاية تنتهي إليه»[2].

وأصل الزهد: الثقة بما في يد الله تعالى؛ كما ورد عن يونس بن ميسرة قال: «ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، إنما الزهادة في الدنيا: أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك»[3]. فالثقة بالله تعالى هي الأصل الذي يجب تحققه في التوكل على الله تعالى، فالدنيا عرَض زائل، وقد اشتراها منهم سبحانه وعوّضهم منها ما يبقى لهم؛ فقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فمن اتّقى الله وعقَل خطابه توكّل عليه فيما أصابه،

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٥٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢١٨).

فلا يَأْسىٰ علىٰ ما فات، ولا يفرح من الدنيا بما هو آت، وهٰذا أوسط الزهد وأوّل التوكّل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٦](١).

٤ . التفويض:

التفويض هو: رد الأمور إلى الله سبحانه وترك التدبير له لثقة المتوكِّل بعلمه تعالىٰ(٢)، وقد قال الله عز وجل فيما قص علينا من قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وأوصى النبي ﷺ البراء بن عازب إذا أوىٰ إلىٰ فراشه أن يقول: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك»، الحديث(٣)، فالتفويض سابق على التوكل وشرط له؛ وذٰلك بأن يكون حاله مع الله تعالىٰ كحال الطفل مع أبيه وأمه؛ فإنه لا يعرف غيرهما، وهو معنىٰ قولهم: أن يكون بين يدي الله تعالىٰ في حركاته وسكناته كالميت بين يدي الغاسل، وهٰذه الحالة أعلىٰ من حالة الطفل؛ لأن الطفل يصيح بالأم ويتعلق بها لتحمله، وهٰذا المقام في التوكل يثمر ترك السؤال؛ اعتمادًا علىٰ علمه به وعنايته، وهو مقام الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال لجبريل: «حسبي مِن سؤالي علمه بحالي»(٤).

ومن أظهر الأمثلة للتفويض: الاستخارة التي يدعو بها العبد ربه، يطلب بها خيرة الله تعالىٰ له، مُفوِّضًا أمره إليه ومعتمدًا علىٰ ما يُقَدِّره له مما يقدم عليه من أمور في حياته، فهٰذا هو معنى الاستخارة؛ التفويض لأمر الله تعالىٰ، ثم ترك اختياره لاختيار الله تعالىٰ، وبعد ذٰلك التسليم لما قضىٰ وحكم.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٥٨).

(٢) ينظر: تفسير السمرقندي (٢/ ١١٥)؛ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٩) برقم: (٦٣١٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٧٧) برقم: (٢٧١٠).

(٤) ينظر: فتح الرحمٰن شرح زبد ابن رسلان للرملي (ص: ١٠٣٨).

مراتب التوكل

إن مراتب التوكل تتبع الأسس التي يبنىٰ عليها التوكل، فبتفاوت رسوخ الاعتقاد في القلب وقوة اليقين تتفاوت مراتب التوكل، ويمكن تقسيمه إلىٰ ثلاث مراتب[1]:

١. التوكل مع الطَّلَب:

فصاحب هٰذه الدرجة متوكِّل على الله ولا يترك الأسباب، بل يتعاطاها علىٰ نيَّة شَغْل النفس بالسبب مخافةَ أن تفرغ فتشتغل بالهوىٰ والحظوظ، فإن من لم يَشْغَل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضرُّه، لا سيَّما إذا كان الفراغ مع حدَّة الشباب، ويكون أيضًا قيامه بالسبب علىٰ نيَّة نفع الناس بذٰلك، فيحصل له نفعُ نفسه ونفع غيره، ويتخلَّص كذٰلك من إشارة الخلق إليه، الموجبةِ لحسن ظنِّه بنفسه، فالسبب سترٌ لحاله ومقامه.

٢. التوكُّل مع إسقاط الطَّلَب وغَضِّ العين عن السَّبب:

فلا يطلب من أحدٍ شيئًا، فإنَّ الطلب من الخلق في الأصل محظور، وغايته أن يباح للضرورة كإباحة الميتة للمضطرِّ، فإن السؤال ظلمٌ في حقِّ النفس؛ لِما فيه من الذُّلِّ لغير الله، وإراقة ماء الوجه، والربُّ تعالىٰ كلَّما سألته كَرُمْتَ عليه ورضي عنك وأحبَّك، والمخلوق كلَّما سألته هِنْتَ عليه وأبغضك، وقبيحٌ بالعبد المريد أن يتعرَّض لسؤال العبيد وهو يجد عند مولاه كلَّ ما يريد؛ عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة، أو ثمانية، أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله»؟ -وكنا حديث عهدٍ ببيعة- فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله،

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٠٩-٤٢٠).

ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله»؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله»؟ قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «علىٰ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا، (وأسر كلمة خفية)، ولا تسألوا الناس شيئًا». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه[1].

٣. محض الاعتماد والثِّقة والسُّكون إلىٰ مَن له الأمر كلُّه:

وهٰذه مرتبة عالية، حيث يجعل العبد نظره إلىٰ توكله علىٰ أنه علّة يلزمه الفرار منها حتىٰ يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلل، وذٰلك أن العبد علم بتفرُّد الحقِّ سبحانه بملك الأشياء كلِّها، وأنَّه ليس له مشاركٌ في ذرَّةٍ من ذرَّات الكون، فهٰذا من أقوىٰ أسباب توكُّله وأعظمِ دواعيه. فإذا تحقَّق ذٰلك علمًا ومعرفةً، وباشر قلبَه حالًا، لم يجد بدًّا من اعتماد قلبه على الحقِّ وحدَه، وثقته به، وسكونه إليه وحده، وطمأنينته به وحده؛ لعلمه أنَّ حاجاتِه وفاقاتِه وضروراتِه وجميعَ مصالحه بيده وحده، لا بيد غيره، فأين يجد قلبُه مناصًا من التوكُّل بعد هٰذا!

طرق اكتساب التوكل

١. زيادة المعرفة بالله تعالىٰ:

وذٰلك من خلال معرفة صفاته؛ من القدرة، والكفاية، والقيُّومية، وانتهاء الأمور إلىٰ علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته؛ قال ذو النون المصري: «إِنَّما يَقوَى العبد على التوكُّل إذا علم أن الحقّ سبحانه يعلم ويرىٰ ما هو فيه»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٩٧) برقم: (١٠٤٣).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٠).

٢. رسوخ القلب في مقام التوحيد:

فإنَّه لا يستقيم توكُّل العبد حتىٰ يصحَّ له توحيده، بل حقيقة التّوكُّل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشِّرك فتوكُّله معلول مدخول، وعلىٰ قدر تجريد التوحيد تكون صحَّة التوكُّل، فإنَّ العبد متى التفت إلىٰ غير الله أخذ ذٰلك الالتفات شعبةً من شعب قلبه، فنقص من توكُّله على الله بقدر ذهاب تلك الشُّعبة[١].

٣. حسن الظن بالله تعالىٰ:

فعلىٰ قدر حُسْن ظنِّك به ورجائك له يكون توكُّلك عليه، فحُسْن الظنِّ به يدعو إلى التوكُّل عليه، إذ لا يتصوَّر التوكُّل علىٰ من تُسيء ظنَّك به، ولا التوكُّل علىٰ من لا ترجوه.

علامات التحقق بالتوكل[٢]

١. الطمأنينة والسكينة وعدم شغل الخاطر:

كما أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، قال أبو يعقوب السوسي: «المتوكلون على الله تجري أرزاقهم بعلم الله واختياره علىٰ يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب، وغيرهم مكدودون مشغولون»[٣].

٢. ترك الاختيار وعدم الاشتغال بالأغيار:

المتوكل إذا رأى السبب فهو مُدّعٍ لا يصح له التوكل، وأول التوكل ترك الاختيار، والمتوكل قد رفع أذاه عن الخلق لا يشكو ما به إليهم؛ ولا يذم أحدًا منهم؛

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٩٥).

(٢) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٧-٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٧)

لأنه يرى المنع والعطاء من واحد، فقد شغله عمن سواه. قيل لسهل: «ما أدنى التوكل؟ قال: ترك الأماني، وأوسطه ترك الاختيار، قيل: فما أعلاه؟ قال: لا يعرفه إلا من توسط التوكل وترك الاختيار»[1].

٣. التبرؤ من الحول والقوة:

فالمتوكل يتميز بتفويض المقدرة الى الله سبحانه، والتبري من الحول والقوة، ألم تسمع إلى قوله الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، قيل لبعض العلماء: «ما التوكل؟ قال: التبري من الحول والقوة»[2].

الآفات التي تؤثر على التوكل وطرق علاجها[3]

الآفة الأولى: الاستشراف إلى العبيد والتطلع إلى ما في أيديهم.

علاج هذه الآفة: بسكون القلب عن التعلق بما سوى الله تعالى، وقطع الطمع عما في أيديهم، وأن يكون العبد عاكف القلب على المقلِّب المدبر، مشغول الفكر بقدرة المصرِّف المقدر، لا يحمله عدم الأسباب على ما حظره العلم عليه وذمه، ولا يمنعه أن يقول الحق وأن يعمل به، وأن يوالي في الله ويعادي فيه.

الآفة الثانية: جريان الأسباب على أيدي الخلق؛ فيترك الحق حياء منهم أو طمعًا فيهم، أو خشية قطع المنافع المعتادة، ولا تدخله نوازل الحاجات وطوارق الفاقات في الانحطاط في أهواء الناس والميل إلى الباطل أو الصمت عن حق لزمه، أو يوالي في الله عدوًّا أو يعادي في الله وليًّا.

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير التستري (ص: ٥٤).

(٣) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٨).

علاج هٰذه الآفة: بأن لا يسكن العبد إلى العوائد الآتية من الخلق، ولا يثق بما يعتاده منهم، إذ هو موقن بأن رزقه ونفعه وضره من واحد، وقد كان الأقوياء إذا دخل عليهم شيء من هٰذه الأهواء المفسدة لتوكلهم قطعوا تلك الأسباب وحسموا أصولها، واعتقدوا تركها وعملوا في مفارقة الأمصار.

فروع متعلقة بالتوكل

١. الأسباب والتوكل:

التوكل هو قطع النظر عن الأسباب بعد الأخذ بها والسعي في تحصيلها، لا ترك الأسباب بالكلية، ولذٰلك لما قال رجل: يا رسول الله، أَعْقِلُها وأتوكل، أو أُطْلِقُها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»[1]. فالتوكل على الله تعالىٰ لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله ﷻ المقدورات بها وجرت سنته في خلقه بذٰلك، فإن الله تعالىٰ أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب في الجوارح والتوكل بالقلب عليه إيمان به[2]. فلا يصح التوكُّل إلا مع القيام بالأسباب، وإلا فهو بَطالة، وتَوكل فاسد، قال سهل: «مَن طعن في الحركة فقد طعن في السُنَّة، ومَن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»[3].

فالتوكُّل حالُ النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل علىٰ حاله فلا يتركنَّ سُنَّتَه، ولا يضرّ التصرف والتكسب لمن صحّ توكله ولا يقدح في مقامه ولا ينقص من حاله؛ قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، وفي الحديث: قيل: يا رسول الله، أي الكسب أطيب؟ قال: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٥) برقم: (٢٥١٧)، وقال: حديث غريب؛ وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٢٤) برقم: (٤٤٧٥).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٦٤٤).

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٥٠٢) برقم: (١٧٢٦٥)؛ والطبراني في الكبير (٤/ ٢٧٦) برقم:

قال ابن عطاء الله: «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله تعالىٰ إياك في التجريد انحطاط عن الرتبة العلية»، يعني أن العزم على التخلص من الأسباب التي أقام الله تعالىٰ بها العبد -كطلب الرزق الحلال والاشتغال بالعلم الظاهر- من الشهوة الخفية؛ لعدم الوقوف علىٰ مراد الله تعالىٰ، وكذٰلك إرادته الأسباب الشاغلة عن الله الكريم مع إقامة الله تعالىٰ عبده في التجريد ورزقه من حيث لا يحتسب انحطاط عن الهمة العلية؛ لأنه رجوع من الحق إلى الخلق[(١)].

٢. الادّخار مع التوكل:

لا يضرّ الادخار مع صحة التوكل إذا كان مدخرًا لله وفيه، وكان ماله موقوفًا علىٰ رضا مولاه، لا مدخرًا لحظوظ نفسه وهواه، فهو حينئذ مدَّخر لحقوق الله التي أوجبها عليه، فإذا رآها بذَلَ ماله فيها، والقيام بحقوق الله لا ينقص مقامات العبد بل يزيدها علوًّا، وقد ادّخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة لِيَسُنّ ذٰلك.

٣. التداوي والتوكل:

التداوي وتركه مباحان، ولا ينقص التداوي أيضًا من توكل العبد؛ لأنّ النبي ﷺ أمر به، وأخبر عن حكمة الله تعالىٰ فيه، فقال ﷺ: «تداووا عباد الله، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل معه شفاء، إلا الموت والهرم»[(٢)].

(٤٤١١)؛ والبزار في مسنده (٩/ ١٨٣)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ١٢) برقم: (٢١٥٨). قال الهيثمي: رجاله ثقات. مجمع الزوائد للهيثمي (٤/ ٦١).

(١) ينظر: شرح الحكم العطائية لعبد المجيد الشرنوبي (ص: ١٦- ١٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٩٨) برقم: (١٨٤٥٥)؛ وابن ماجه في سننه (٤/ ٤٩٧) برقم: (٣٤٣٦)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٤٩) برقم: (١٢٦٣)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٤٤١) برقم: (٨٢٠٦)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

والتداوي رخصة وسَعة، وتركه ضيق وعزيمة، والله يحب أن تؤخذ رُخَصُه كما يحب أن تُؤتىٰ عزائمُه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وربما كان المتداوي فاضلًا في ذٰلك لمعنيين؛ أحدهما: أن ينوي اتباع السنة، والأخذ برخصة الله، وقبول ما جاءت به الحنيفية السمحة، وقد أمر رسول الله ﷺ غير واحد من الصحابة بالتداوي والحمية، وقطع لبعضهم عِرقًا، وكوىٰ آخر. والمعنى الثاني: أنّه يحب سرعة البُرْء من أجل القيام بالطاعة وخدمة مولاه، والسعي في أوامره، إذا كانت العلل قاطعةً عن التصرف في العمل، ومُشْغِلةً للنفس عن الشغل بالآخرة(١).

٤. الإخبار عن العلة والتوكل:

لا ينقص مِن توكُّل المتوكل إخباره بعلته والتحدث بها، إذا كان قلبه شاكرًا لله راضيًا بقضائه، مُظهِرًا للافتقار والعجز بين يدي مولاه، أو راغبًا في دعاء إخوانه المؤمنين، أو يشهد نعمةً فيُحدث بها شكرًا، وقد حكي أنّ بشر بن الحارث كان يخبر عبد الرحمٰن المتطبب بأوجاعه، فيصف له أشياء، وقيل عن أحمد بن حنبل أنّه كان يخبر بأمراضه ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالىٰ فيّ، وروي عن الحسن البصري: إذا حمد المريضُ الله عزّ وجلّ وشكره ثم ذكر علّته، لم يكن ذٰلك شكوىٰ، وقد كان أحمد بن حنبل لا يخبر بأمراضه إذا سئل عنها، ثم رجع إلىٰ قول الحسن هٰذا، فكان بعد ذٰلك يحمد الله ويثني عليه ويقول: أجد كذا وأجد كذا(٢).

٥. الدعاء والتوكل:

ولا ينقص المتوكل على الله سبحانه أن يسأل مولاه مما أحب من صالح الدنيا ومزيد الآخرة؛ إذ لم يقصد غير مطلوب، وكان مُفوضًا إلى الله الأمور، ولكن

(١) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٣٤).
(٢) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٤٦).

يحتاج إلىٰ معرفة الإجابة؛ فقد يكون المنع إجابة وقربًا إذا كان العطاء شغلًا عنه، وقد يكون فيما يكره مما يعلم الله سبحانه حُسن عاقبته، لا فيما يعقل العبد عاجل منفعته، فعليه التسليم لحكم الحاكم والرضا بقَسْم القاسم، فإن سأل تكاثُرًا مِن الدنيا، أو ما لا يحتاج إليه، وما ليس فيه صلاح قلبه، ولا قربة إلىٰ ربّه، أخرجه من حقيقة التوكل بمقدار ما يخرجه من الزهد[1].

نماذج من توكل الصالحين

سيد المتوكلين هو رسول ﷺ، ومن صور توكله:

١. ما حدث معه في رحلة الهجرة المباركة؛ حيث خرج المشركون في طلب النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، قال أبو بكر رضي الله عنه: نظرتُ إلىٰ أقدام المشركين علىٰ رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلىٰ قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[2].

٢. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ غزوةَ نجد، فلما أدركته القائلة، وهو في واد كثير العِضاه، فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون، وبينا نحن كذٰلك إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: «إن هٰذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي، فاستيقظت وهو قائم علىٰ رأسي مخترط صلتا، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فشامه ثم قعد، فهو هٰذا». قال: ولم يعاقبه رسول الله ﷺ»[3].

(١) المصدر السابق (٢/ ٦١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٦)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٠٨) برقم: (٢٣٨١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١١٦) برقم: (٤١٣٩)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٦٢) برقم: (٨٤٣).

المقترحات العملية والتدريبات

استعمال الأذكار والأدعية الواردة في هٰذا الباب، في أحواله وأعماله، فمن ذٰلك:

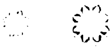
١. الإكثار من قول: «حسبي الله ونعم الوكيل»؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][1].

٢. تعاهد الذكر الوارد في أثناء الخروج من البيت، وهو: «باسم الله توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ».

٣. أن تدعو عند السفر بعد الخروج من البيت بهٰذا الدعاء الوارد في الحديث: «ما من مسلم يخرج من بيته يريد سفرًا أو غيره، فقال حين يخرج: باسم الله، آمنت بالله، اعتصمت بالله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة بالله، إلا رُزق خير ذٰلك المخرج، وصُرف عنه شر ذٰلك المخرج»[2].

٤. قراءة كتاب (التوكل) للدكتور يوسف القرضاوي، وتلخيصه.

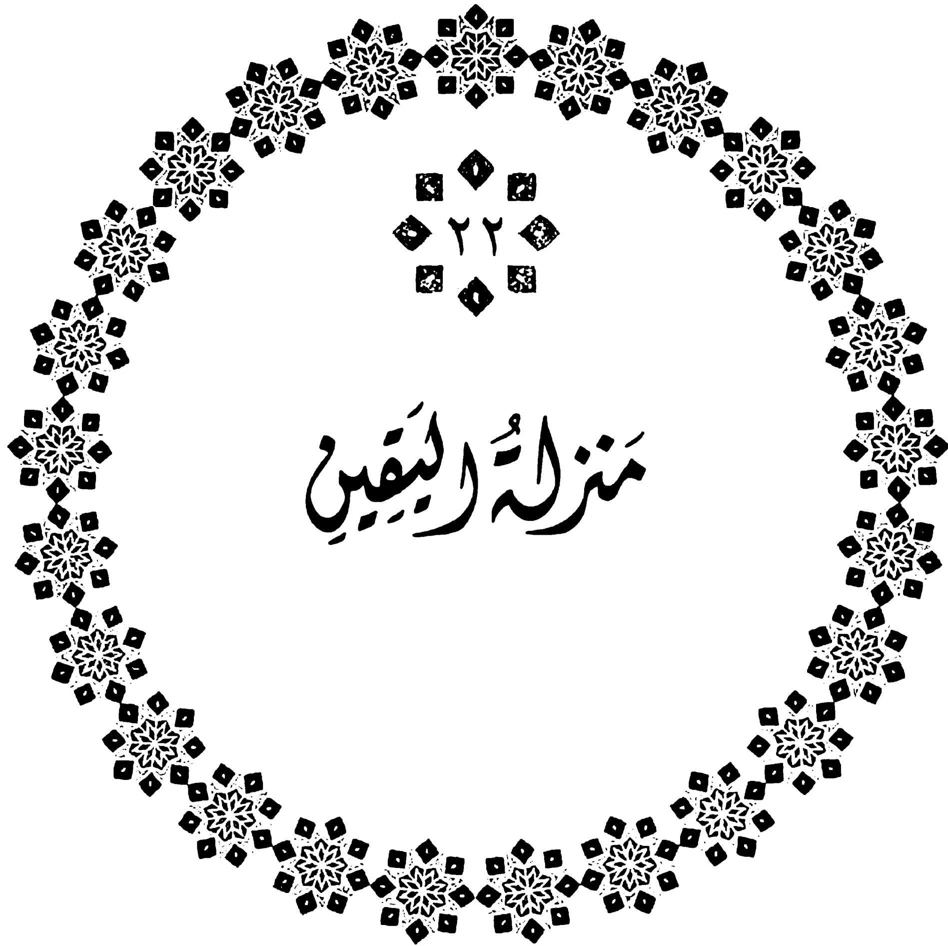
٥. تلخيص باب التوكل من كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٣٨) برقم: (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٥٦) برقم: (٤٧٨). قال الهيثمي: رواه أحمد عن رجل عن عثمان، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ١٢٨).

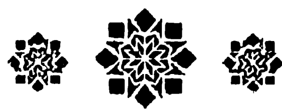


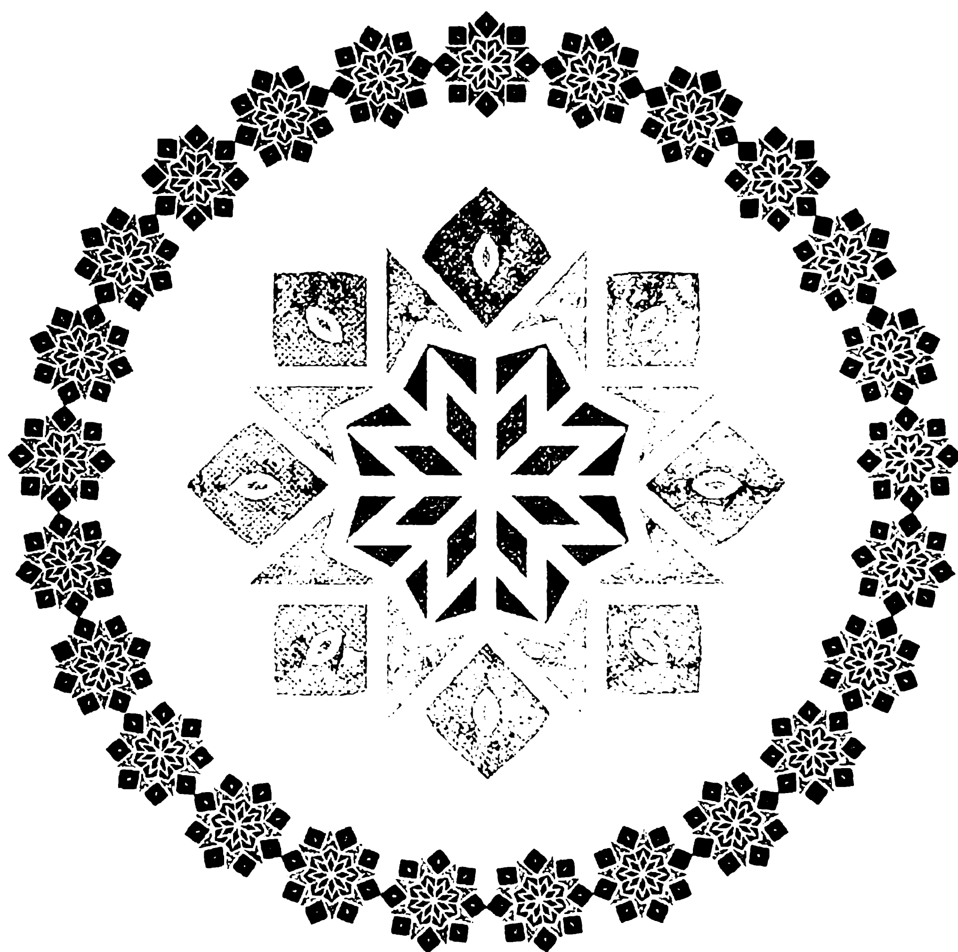


٢٢

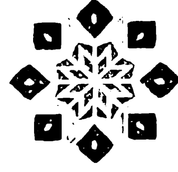
مَنزلةُ اليَقِينِ











منزلة اليقين والثقة



بين يدي اليقين والثقة

اليقين هو العلم الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله، والطمأنينة بذكر الله، والصبر على المكاره، والقوة في أمر الله، والشجاعة القولية والفعلية، والاستحلاء للطاعات، وأن يَهون على العبد في ذات الله المشقات وتحمل المكروهات. واليقين شرط من شروط صحة الإيمان، به يتفاضل الناس في الإيمان؛ لذلك قال أبو بكر بن عياش ﷺ: «ما سَبقَهم أبو بكر بكثرةِ صلاةٍ ولا صيامٍ، ولكن بشيء وَقَرَ في قلبِه»(١).

وكل ما في هذا الكون يقود الإنسانَ إلى اليقين، حتى يتعلق بإله الأولين والآخرين، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه المبين: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. هذا اليقين هو خُلُق أنبياء الله وعباده الصالحين، رفع الله به درجاتهم وكفَّر به خطيئاتهم، وأوجب لهم الحبَّ منه والرضوانَ، والصفحَ من لدنه والغفرانَ.

يقول أبو نصر الطوسي ﷺ: «واليقينُ أصلُ جميعِ الأحوال، وإليه تنتهي جميعُ الأحوال، وهو آخرُ الأحوال، وباطنُ جميعِ الأحوال، وجميعُ الأحوال ظاهرُ اليقين، ونهايةُ اليقين: تحقيقُ التصديق بالغيب بإزالة كلِّ شكٍّ وريبٍ،

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦/ ٢٢٣).

ونهايةُ اليقينِ: الاستبشارُ، وحلاوةُ المناجاة، وصفاءُ النظر إلى الله تعالىٰ بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين بإزالة العلل ومعارضة التُّهم»[1].

وقال ابن القيم ﷺ: «فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصِّدِّيقيّة، وهو قطب رحا هٰذا الشأن الذي عليه مداره»[2].

حقيقة اليقين والثقة

المعنى اللغوي:

اليقين: هو العلم وزوال الشكّ وتحقيق الأمر، يقال: يَقِنتُ الأمرَ يَقْنًا، وأيقنتُ واستيقنتُ وتيقَّنتُ، وأنا علىٰ يقين منه، كله بمعنىً واحد[3].

المعنى الشرعي:

اليقين: سكون الفهم مع ثباتِ الحكم وطمأنينةِ القلب واستقرارِ العلم فيه، وهو من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها[4]، فلا يحصل لصاحبه تردُّدٌ وتشكُّكٌ وريبةٌ وقلقٌ في داخله، وإنما يكون مطمئنًا إلىٰ ما يعتقده[5].

قال الجنيد ﷺ: «اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يُحوَّل ولا يتغيَّر في القلب»[6].

---

(١) اللمع للطوسي (ص: ١٠٤).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٧٠).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ١٥٧)؛ الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢١٩)؛ لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٥٧).

(٤) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٨٩٢)؛ مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ٢٧١).

(٥) ينظر: أعمال القلوب لخالد السبت (١/ ١٦٩).

(٦) الرسالة القشيرية (١/ ٣١٩).

وقال النهرجوري ﷺ: «اليقين: مشاهدة الإيمان بالغيب»[1]، فكما أن العينَ تُشاهِد الحقائقَ الماثلةَ أمامها في عالَم الشهادة، فإن اليقين هو مشاهدةُ الغيب بالقلب، فإذا وصل القلبُ إلىٰ هٰذه المرتبة وصل إلىٰ أعلى المنازل، ونال أسمىٰ الدرجات[2]. واليقينُ يتضمن اليقينَ في القيام بأمر الله تعالىٰ وما وعدَ الله أهلَ طاعتِه، ويتضمن اليقينَ بقَدَر الله سبحانه وخلقِه وتدبيرِه[3].

وقيل في تعريف اليقين: هو المكاشفة، وهي عبارة عن ظهور الشيء للقلب باستيلاء ذكره من غير بقاءٍ للريب. ومرادهم: ظهور الشيء للقلب بحيث تصير نسبتُه إليه كنسبة المرئيِّ إلى العين، فلا يبقىٰ معك شكٌّ ولا ريبٌ أصلاً. وهٰذا نهاية الإيمان، وهو مقام الإحسان[4].

تعريف الثقة:

الثقة في حقيقتها هي: أمن العبد من فوتِ المقدور وانتقاض المسطور، وبيان ذٰلك: أن من تحقَّق بمعرفة الله وأن ما قضاه الله فلا مردَّ له، أمِنَ من فَوتِ نصيبه الذي قسمه الله له، وأمِنَ أيضًا من نقصان ما كتبه الله له، فيظفر براحة الرضا ولذته ونعيمه؛ لأن صاحبَ الرضا في راحة ولذة وسرور، فإن لم يقدر العبدُ علىٰ رَوح الرضا ظفِرَ بعين اليقين، وهو قوة الإيمان ومباشرته للقلب، فإن لم يحصل له هٰذا المقام حصل علىٰ لُطفِ الصبر وما فيه مِن حُسنِ العاقبة[5].

وقال الهروي ﷺ: «الثقة: سواد عين التوكل، ونقطة دائرة التفويض، وسويداء

(١) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ٢٨٨)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٢٣٣).
(٢) أعمال القلوب لخالد السبت (١/ ١٧١).
(٣) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١/ ٥١).
(٤) ينظر: اللمع للطوسي (ص: ١٠٣)؛ الرسالة القشيرية (١/ ٣١٩)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٧٤).
(٥) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٣٢)؛ أعمال القلوب لخالد السبت (١/ ١٧٣).

التسليم»[1]. فالثقة هي خلاصة التوكل ولبُّه، كما أن سواد العين أشرفُ ما في العين[2].

الفرق بين الثقة واليقين:

أن اليقين إذا وُجِد في القلب وُجِدت الثقةُ فيه، كأنها ثمرته، فإذا تيقَّن العبدُ أن هٰذه الشريعة من عند الله عز وجل فإنه يطمئن إلىٰ أحكامها، وأنه لا حَيْف فيها ولا نقْصَ وهضْمَ لحقٍّ أحد. وكذٰلك إذا وُجِد اليقين في قلب العبد وجدت الثقةُ في قلبه في أحكام الله عز وجل الكونية والقدرية، فيعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، له الحكمُ في الأُولىٰ والآخرة، ولا يخرُج شيءٌ عن تقديره وحِكمته وعدله، بيده الخلق والأمر، وهو الحَكَم العدل السميع البصير[3].

ويدل علىٰ ذٰلك قولُ النبي ﷺ في دعائه: «اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك ما تَحُول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلِّغنا به جنتَك، ومن اليقين ما تُهوِّن علينا مصائبَ الدنيا»[4].

فمقام الثقة بالله تعالىٰ هو حقيقة اليقين وثمرةٌ من ثمراته، ويشبه من هٰذه الناحية مقامَ التوكل؛ فكما أن حال اليقين تقتضي حال التوكل، كذٰلك تقتضي حالَ الثقة بالله تعالىٰ في كل شيء، لذٰلك ذكرنا الثقة ضمن منزلة اليقين، ودمجنا بينهما في منزلة واحدة؛ لِما بينهما من التشابه والتقارب، ولزوم كلٍّ واحد من منهما للآخر، كما فعلنا في منزلة الطمأنينة والسكينة.

---

(١) منازل السائرين للهروي (ص: ٤٦).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٣٠).

(٣) ينظر: أعمال القلوب لخالد السبت (١/ ١٧٤).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٨١) برقم: (٣٥٠٢)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٩/ ١٥٥) برقم: (١٠١٦١)؛ والبزار في مسنده (١٢/ ٢٤٣) برقم: (٥٩٨٩)؛ والطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٠٩) برقم: (٨٦٦)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٨) برقم: (١٩٤٠).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

التوكل:

كَثُرت تعريفات العلماء لحقيقة معنى التوكل، مِن أحسنِها قول ذي النون رحمه الله: «هو تركُ تدبيرِ النفس، والانخلاعُ من الحَوْل والقوة. وإنما يقوى العبد على التوكُّل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه»[1]. ووجه علاقة التوكل باليقين والثقة: أن منهم من يفسِّره بالثقة بالله تعالى، والطمأنينة إليه، والسكون إليه، واليقين فيه[2]. قال ابن القيم: «واليقين قرين التوكل، ولهذا فُسِّر التوكُّلُ بقوة اليقين، والصواب أن التوكل ثمرته ونتيجته»[3].

المشاهدة:

حقيقة المشاهدة: حضور القلب أثناء العبادة، أي: أن يُشاهد العبدُ ربَّه عز وجل بقلبه، فيتلاشى كل شيء ويغيب عند وجود عظمة الله تعالى، فلا يبقى في القلب إلا الله عز وجل؛ وهذا تفسير قول النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «اعبُد الله كأنك تراه»[4]. ووجه علاقتها بمقام اليقين: أن حال المشاهدة تقتضي حالَ اليقين[5]؛ قال عمرو بن عثمان المكي: «المشاهدة زوائدُ اليقين»، وقال: «المشاهدة حضورٌ بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين»[6].

---

(١) اللمع للطوسي (ص: ٧٧)؛ الرسالة القشيرية (ص: ٣٠٠).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٥٥).

(٣) المصدر السابق (٣/ ١٧١).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٣٠٥) برقم: (٦٢٦٥)؛ والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٨٩) برقم: (١١٨٠٣).

(٥) ينظر: اللمع للطوسي (ص: ١٠١).

(٦) المصدر السابق (ص: ١٠١).

فضل اليقين وثمراته

أولًا: فضل اليقين

١. الهدىٰ والفلاح لأهل اليقين:

خص الله تعالىٰ أهل اليقين بالهدىٰ والفلاح، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥]. وأخبر الله عز وجل عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢][(١)].

٢. بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين:

قال ابن القيم رحمه الله في شرح مقام اليقين: «وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وفيه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وعملُ القوم إنما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوَّج الصبر باليقين وُلد بينهما حصولُ الإمامة في الدين؛ قال تعالىٰ وبقوله يهتدي المؤمنون: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]»[(٢)].

٣. اليقين خيرٌ من العافية:

جعل النبي ﷺ منزلة العافية بعد منزلة اليقين، وبين أن اليقين أفضل منها، فقال: «اسألوا الله العفوَ والعافيةَ، فإن أحدًا لم يُعطَ بعد اليقين خيرًا من العافية»[(٣)]،

(١) المصدر السابق (٣/ ١٧٠).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٧٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٢٢) برقم: (٣٥٥٨)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٣٢٤) برقم: (١٠٦٤٩)؛ وأحمد في مسنده (١/ ١٨) برقم: (٣٥)؛ والحميدي في مسنده (١/ ١٤٩) برقم: (٢). قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

فجعله أفضل من العافية، ولذلك ندب ﷺ أهلَ الإيمان أن يسألوا الله اليقينَ؛ فقال: «سلوا الله العفوَ والعافيةَ واليقينَ في الآخرة والأولىٰ»(١).

٤. بشارة أهل اليقين بالجنة:

قال ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «اذهبْ بنعليَّ هاتين، فمن لَقيتَ مِن وراء هٰذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبُه فبشِّرْه بالجنة»(٢)، وسمع ﷺ بلالًا ينادي بالصلاة، فلما سكت قال: «مَن قال مثلَ هٰذا يقينًا دخلَ الجنةَ»(٣)، فدلَّ ذٰلك علىٰ أن اليقينَ سببٌ لدخولِ الجنة(٤).

٥. الدعاء مع اليقين بالإجابة سبب للإجابة:

من الشروط اللازمة لاستجابة الدعاء: اليقين بالإجابة؛ قال ﷺ: «اُدْعُوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً مِن قلبٍ غافلٍ لاهٍ»(٥).

٦. الإيمان أساسه اليقين:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»(٦). ومعنىٰ هٰذا: أن العبد قد يصبر ولٰكن قلبه يتحرك بالخواطر والإرادات،

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ٧) برقم: (٥)؛ وأحمد في مسنده (١/ ٦) برقم: (٦)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (١/ ٨٧) برقم: (٨٦)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٩) برقم: (١٩٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٤) برقم: (٣١).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٢٥١) برقم: (١٦٥٣)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ١٨١٠) برقم: (٨٧٤٤)؛ وابن حبان في صحيحه (٤/ ٥٥٣) برقم: (١٦٦٧)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٣٢١) برقم: (٧٣٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) ينظر: أعمال القلوب للسبت (١/ ١٧٧).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٦٥) برقم: (٣٤٧٩)؛ والبزار في مسنده (١٧/ ٣٠٧) برقم: (١٠٠٦١)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٣) برقم: (١٨٢٣)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٢١١) برقم: (٥١٠٩).

(٦) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٤٥٦).

إلا أنه يتحمل ويصبر مع مقاساته لألم المصيبة، وأما صاحب اليقين فإنه في مرتبة فوق ذلك، فهو يَعُدُّ البلاءَ نعمةً ويفرح بالبلاء إن وقع، كما يفرح غيره بالعافية، ويركن إلى الله ويطمئن قلبه، فكان اليقين بهذا الإيمانَ كلَّه، وهو فوق الصبر(١).

ويقول ابن القيم: «اليقين والمحبة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قِوامُه، وهما يَمُدَّان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدُرُ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال وبقوَّتهما قوَّتها، وجميع منازل السائرين إنما تُفتَح بهما، وهما يُثمِران كلَّ عملٍ صالحٍ وعلمٍ نافعٍ وهدىً مستقيمٍ»(٢).

ثانيًا: ثمرات التحقق بمنزلة اليقين

١. تنوُّر القلب وإشراقه:

فمتى ما وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ وسُخطٍ وهمٍّ وغمٍّ، فيمتلئ محبةً لله، وخوفًا منه، ورضًا به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابةً إليه(٣). قال أبو عبد الله الأنطاكي: «إنَّ أقلَّ اليقين إذا وصل إلى القلب يملأ القلبَ نورًا، وينفي عنه كلَّ ريب، ويمتلئ القلب به شكرًا، ومِن الله تعالى خوفًا»(٤).

٢. قِصرُ الأمل في الدنيا والتعلق بالآخرة:

قال ذو النون ﷺ: «اليقين داعٍ إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب»(٥).

---

(١) ينظر: أعمال القلوب للسبت (١/ ١٧٦).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٤٣٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٧٢).

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٣١٧).

(٥) المصدر السابق (١/ ٣١٨).

٣. الانتفاع بالآيات والبراهين:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، فخصَّ أهل اليقين بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبُّرها، فهي تؤثر وتحرِّك نفوسهم، أما أهل الغفلة فإنهم لا ينتفعون بها، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

٤. الصبر:

ومن ثمرات اليقين أنه يولِّد الصبرَ لدى العبد؛ لأنه يعرف ما يركن إليه، فيصبر ويسكن؛ قال ابن تيمية ﷺ: «ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن له ويتنعم به ويغتذي به، وهو اليقين»(١).

٥. الرضا بقضاء الله تعالىٰ:

قال الله تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، فيه إشارة صريحة إلىٰ أن هداية قلبه والرضا والتسليم لم يحصل إلا بيقينه؛ قال ابن القيم: «فاليقينُ أفضلُ مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبتُ قدمُ الرضا إلا علىٰ درجة اليقين»(٢).

٦. التوكل على الله عز وجل:

قال الله تعالىٰ حكاية عن جواب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فهم كانوا علىٰ هدىٰ ويقين من الله تعالىٰ،

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٢٦١).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٤٣٨).

بل هم في أعلىٰ مراتب أهل اليقين، فأورثهم ذلك توكلًا على الله عز وجل في كل ما جرىٰ لهم، والصبرَ علىٰ أذىٰ قومهم، وأَمَرَ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يتوكل عليه، مُذكِّرًا له أنه على الحق الواضح واليقين الثابت، فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩][١].

٧. مباشرة الأهوال وركوب الأخطار:

فأهل اليقين يأتمرون بيقينهم دائما مع العلم، فيُقدمون علىٰ ما لا يجرؤ عليه غيرهم. قال الجنيد ﷺ: «قد مشىٰ رجالٌ باليقين على الماء»[٢].

شروط اليقين

من الشروط التي لا بد من تحققها حتىٰ يصل العبد إلىٰ مقام اليقين:

١. العلم بأن التوفيق والعطاء والهداية والنجاة بيد الله تعالىٰ وحده:

أول ما يجب على العبدِ السالكِ طريقَ اليقين: أن يعلم أن التوفيق والمواهب بيد الله عز وجل، فما على العبد إلا أن يلجأ إلىٰ ربه وأن يصدُقَ في الإقبال عليه، فيسأل ربَّه قائمًا وقاعدًا أن يرزقه الإيمانَ الكاملَ واليقينَ الجازمَ الراسخ الذي لا يتزعزع، مع اتخاذ الأسباب الموصلة إلىٰ هذه المرتبة.

٢. قطع تعلُّق القلب بكل الأسباب بينه وبين ربه وتعليقه به وحده سبحانه في كل شؤونه:

---

(١) ينظر: أعمال القلوب للسبت (٢٠٠).

(٢) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ١٣٥)؛ الرسالة القشيرية (ص: ٣٢٠). ينظر: أعمال القلوب للسبت (٢٠١).

قال أبو يعقوب النهرجوري: «لا يستحقُّ العبدُ اليقينَ حتىٰ يقطعَ كلَّ سببٍ بينه وبين الله تعالىٰ من العرش إلى الثرىٰ، حتىٰ يكون مرادُه الله لا غيرَه، ويُؤثِر الله تعالىٰ علىٰ كل شيءٍ سواه، وليس لزيادات اليقين نهايةٌ، كلما تفهَّموا وتفقَّهوا في الدين ازدادوا يقينًا علىٰ يقينٍ»(١). وقال سهل بن عبد الله: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يشمَّ رائحةَ اليقين وفيه سكونٌ إلىٰ غير الله تعالىٰ»(٢).

مراتب اليقين

ذكر الله تعالى اليقينَ في مواضع من كتابه علىٰ ثلاثة أوجه، وهي مراتبه، فقال سبحانه: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقال عز وجل: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، فهي بالترتيب ثلاثة:

١. مرتبة علم اليقين:

وهي أدنى المراتب، وتعني: التصديق الكامل الجازم الذي لا تردُّدَ فيه، بحيث لا يعرِض له شكٌّ ولا شبهةٌ ولا ريبٌ بحالٍ من الأحوال، فينكشف بذلك المعلوم للقلب، فيصير بمنزلة المشاهَد له، فلا يشكُّ فيه كما لا يشك الرائي بعينه فيما يراه ويشاهده، فيكون علم اليقين بالنسبة للقلب كالمرئي بالعين بالنسبة للبصر(٣).

٢. مرتبة عين اليقين:

الفرق بين هذه المرتبة والتي قبلها كالفرق بين العلم والمشاهدة، والفرقِ بين الخبر الصادق والعيان؛ وذلك إذا كان اليوم الآخر ورأينا الجنة والنار وجميع ما أُمِرنا بالإيمان به غيبًا، فنرتقي من مرتبة علم اليقين إلىٰ مرتبة عين اليقين،

(١) اللمع للطوسي (ص: ١٠٤).
(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٣١٨).
(٣) أعمال القلوب للسبت (١/ ١٧٩).

فصاحب هذه المرتبة يستغني عن طلب الدليل؛ لأنه يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول، فإذا كان المدلول مشاهَدًا له فلا حاجة إلى الاستدلال[1]، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «والحق أن هذه المرتبة لا تُنال في هذا العالَم إلا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإن نبينا ﷺ رأى بعينيه الجنةَ والنارَ، وموسى سمعَ كلامَ الله منه إليه بلا واسطة فكلَّمه تكليمًا، وتجلَّى للجبل وموسى ينظر، فجعله دكًّا هَشِيمًا»[2].

٣. مرتبة حق اليقين:

وهي مباشرة الشيء بالإحساس فعلًا؛ وذلك كدخول أهل الجنة إلى الجنة ودخول أهل النارِ النارَ، فعند ذلك يبلغون هذه المرتبة[3]؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٦].

فخلاصة مراتب اليقين: أنَّ عِلمَنا الآن بالجنة والنار علمُ يقينٍ، فإذا أُزلِفت الجنةُ في الموقف وشاهدَها الخلائقُ وبُرِّزت الجحيم وعاينَها الخلائقُ، فذلك عين اليقين، فإذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ فذلك حينئذ حقُّ اليقين[4].

وتفاوت مراتب اليقين يقتضي تفاوت أهل اليقين في التحلي بهذه الصفة الجليلة، وهذا التفاوت عبارة عن أحوال مختلفة لمن كان في مرتبة علم اليقين؛

(١) ينظر: المصدر السابق (٣/ ١٨٠)؛ أعمال القلوب للسبت (١/ ١٧٩).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٨١).

(٣) أعمال القلوب للسبت (١/ ١٨٠).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٨٠).

وقد بينا أن المرتبتين اللتين تلي الأولىٰ لا تحصل في هٰذه الدنيا إلا للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

ودليل هٰذا التفاوت في درجة اليقين: أن كثيرًا ممن ينتسب إلى الإسلام ويصدِّق الرسولَ ﷺ بما جاء به لا يصل به ذٰلك إلىٰ درجة اليقين الكامل في القلب، وإنما يكون ذٰلك معلومًا له في الجملة، مع تعرُّضه -لعدم رسوخه- للشبهات والشكوك، فهم يؤمنون بالنبي ﷺ إيمانًا مجملًا، فهٰذا الإيمان يكفيهم ويُنجِّيهم عند الله عز وجل، ولٰكنه لا يصل بهم إلىٰ درجة لا تقبل التشكيك.

والناس يتفاوتون في هٰذا: فمن الناس مَن إذا تتابعتْ عليه النعم واسترسل عليه عطاءُ الله عز وجل مما يحبُّ فإنه يرضىٰ ويطمئن ويسكن إلىٰ ذٰلك، وإذا أصابتْه البلايا والمِحَن وفُتِن تزعزع وتضعضع، ولربما نكص علىٰ عقبيه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١][١].

قال سهل التستري رحمه الله: «حظُّ الخلقِ من اليقين علىٰ قدر حظِّهم من الرضا، وحظُّهم من الرضا علىٰ قدرِ عيشِهِم مع الله»[٢].

طرق اكتساب اليقين

١. العلم:

بأن يعلم أن الله تعالىٰ وعد على الأعمال الصالحة أوفر الجزاء، فإذا رسخ العلم أثمر اليقينَ الذي هو أعظم حياة للقلب، وبه طمأنينته وقوته ونشاطه،

---

(١) ينظر: أعمال القلوب للسبت (١/ ١٨١-١٨٢).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٦٨).

فيندفع للعمل ويبادر إليه؛ لأنه يتيقن بالجزاء، وهٰذا العلم يشمل العلم بالله عز وجل، وأنه المعبود بحق ولا يستحق العبادةَ أحدٌ سواه، فلا يلتفت قلبه إلىٰ أحد من الخلق. ويشمل العلمَ بالنفس والعلمَ بالخلق، فيعلم قدرَ نفسه وعجزه فلا يركن إليها ولا إلىٰ أحد من المخلوقين(١).

٢. دفع الواردات والخواطر المنافية لليقين:

وهٰذا يشمل جهاد الشيطان علىٰ مرتبتين: جهاده فيما يُلقِيه من الشبهات والوساوس، وجهاده فيما يلقيه من الشهوات.

٣. العزم الجازم على العمل بمرضاة الله عز وجل:

وذٰلك بأن يُقدِم على العمل من غير نظر في الحسابات والمصالح الدنيوية، ومن غير الْتِفاتٍ إلىٰ عمله وكثرته، بل يسعىٰ أن يخلص نيتَه لله تعالىٰ مع إتقان العمل.

٤. مفارقة الشهوات والحظوظ النفسية:

وذٰلك؛ لأن الانغماس في الشهوات واتباع الهوىٰ يمنع العبد من الوصول إلى اليقين أو يكون سبب نقصانه في قلبه؛ قال سهل بن عبد الله ﷺ: «علىٰ قدر قربهم من التقوىٰ أدركوا اليقين، وأصلُ اليقين مباينة النهي، ومباينة النهي: مباينة النفس، فعلىٰ قدر خروجهم من النفس أدركوا اليقين»(٢).

٥. التفكر في الأدلة التي توصل إلى اليقين:

لأنه كلما تواردت البراهين المسموعة والمعقولة والمشاهَدة علىٰ قلب العبد كان ذٰلك زيادةً في يقينه وإيمانه(٣).

---

(١) ينظر: أعمال القلوب للسبت (١/ ١٨٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٩٩)؛ الرسالة القشيرية للقشيري (٣١٩).

(٣) ينظر: أعمال القلوب للسبت (١/ ١٨٨-١٩٠).

علامات التحقق باليقين

١. ظهور الفرح والسرور على العبد:

قال النبي ﷺ: «لا تُرضِينَّ أحدًا بِسخطِ الله، ولا تحمدنَّ أحدًا على فضل الله، ولا تذمَّنَّ أحدًا على ما لم يؤتك الله؛ فإنَّ رِزقَ الله لا يسوقه إليك حرصُ حريصٍ، ولا يردُّه عنك كراهيةُ كارهٍ، وإنَّ الله تعالى بِقسطِه وعدلِه جعل الرَّوْحَ والفرحَ في الرضا واليقينِ، وجعل الهمَّ والحزنَ في السخط»[١].

٢. عزة النفس وتركُ سؤال الناس وعدم مداهنتهم:

قال ذو النون رحمه الله: «ثلاثة من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة، وترك المدح لهم في العطية، والتنزُّه عن ذمِّهم عند المنع»[٢].

٣. التعلُّق بالله وحده:

وذلك بالاستعانة بالله في كل شيء وانتظار الفرج والعون منه وحده؛ قال ذو النون: «وثلاثة من أعلام يقين اليقين: النظر إلى الله تعالى في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمره، والاستعانة به في كل حال»[٣].

٤. زوال الريب وعدم الشك في وعود الله تعالى:

قال الجنيد رحمه الله في وصف اليقين: «اليقين: ارتفاعُ الريب في مشهد الغيب»[٤].

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير مرفوعا (١٠/ ٢١٥) برقم: (١٠٥١٤)؛ والقضاعي في مسنده (٢/ ٩١) برقم: (٩٤٧)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٨٤) برقم: (٢٠٤). قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٣/ ٢٧٠): «رواه الطبراني في الكبير بسند ضعيف».

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٣١٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

٥. الصبر على البلاء رجاءً في ثوابه:

قال أبو يعقوب النهرجوري ﷺ: «إذا استكمل العبدُ حقائقَ اليقين صارَ البلاءُ عنده نعمةً، والرخاءُ مصيبةً»(١).

الآفات التي تؤثر على اليقين

١. تطلُّعُ القلب إلى غير الله عز وجل:

من أعظم الأمور التي تُنافِي اليقينَ وتصادِمُه: تطلُّع القلب إلى غير الله تعالى وتعلُّقه به والْتِفاتُه إليه؛ قال سهل بن عبد الله: «حرامٌ على قلب أن يَشمّ رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله، وحرامٌ على قلبٍ أن يدخله النور وفيه شيءٌ مما يكره الله عز وجل»(٢).

٢. اليأسُ والقنوطُ:

اليأس مِن رَوْح الله والقنوط من رحمته ينافي مفهوم اليقين والإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. والله تعالى يختبر عباده بشيء من الفقر والهم والأمراض وتسلط الأعداء ليرى صبرَهم وحقيقة يقينهم؛ قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، فالمؤمن الصادق الموقن متيقن بأن ما أصابه بقدر من الله، وأنه لا يفرِّج همَّه ولا يقضي حاجتَه إلا الله سبحانه، فهو على هداية من الله، فلا يعرف اليأسُ والقنوطُ طريقًا إلى قلبه،

(١) اللمع للطوسي (ص: ١٠٣).

(٢) الزهد والرقائق للخطيب البغدادي (ص: ٥٩)؛ الرسالة القشيرية (ص: ٣١٨).

بخلاف الكافرين الذي علَّقوا قلوبَهم بالدنيا وبأسبابها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

٣. الشكُّ والريب:

من الأمور المنافية لليقين: الشكوك والرِيَب والأمور التي تجلب ذٰلك؛ كسماع الشُّبَهِ وكلامِ المخذِّلين والمثبِّطين لعزائم المؤمنين، فيوهِّنونهم ويحثُّونهم علىٰ القعود عن التزام صراط الله عز وجل المستقيم، فهؤلاء إذا أصغى العبدُ إليهم أوهَنُوا دينَه وأضعفوا يقينَه، فيورثه ذٰلك قلقًا وتردُّدًا، وهو مما يخالف اليقينَ؛ لأن اليقين طمأنينة وثبات واستقرار؛ قال ابن القيم: «فالشكُّ مبدأُ الرَّيْب، كما أن العلمَ مبدأُ اليقينِ»[1].

نماذج من يقين الصالحين وثقتهم بالله عز وجل

١. قال عامر بن عبد قيس رحمه الله: «لو كُشِف الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا»[2].

٢. قال إبراهيم الخواص رحمه الله: «لقيت غلامًا في التيه، كأنه سبيكةُ فضة، فقلت: إلىٰ أين يا غلام؟ فقال: إلىٰ مكة حرسها الله تعالىٰ، فقلت: بلا زاد ولا راحلة ولا نفقة! فقال لي: يا ضعيفَ اليقين، الذي يقدر علىٰ حفظ السماوات والأرضين لا يقدر علىٰ أن يُوصلني إلىٰ مكة بلا علاقة! فلما دخلت مكة حرسها الله تعالىٰ إذ أنا به في الطواف وهو يقول:

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٤٨٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٠٢)؛ اللمع للطوسي (ص: ١٠٢)؛ الرسالة القشيرية (١/ ٣١٨). وعلَّق عليه أبو نصر الطوسي فقال: «يعني: عند معاينتي لِما آمنتُ به من الغيب. وهٰذا كلامُ غلباتٍ ووجدٍ وتحقُّقٍ... ولا يكون الخبر كالمعاينة في جميع معانيها، ويجوز أن يكون له وجهٌ آخر، وهو أن يعني: ما ازددتُ يقينًا إلىٰ علمِ يقينٍ». ينظر: اللمع للطوسي (ص: ١٠٢).

يـا عيـنُ سُـحِّي أبـدا　　يـا نفسُ مُوتِـي كمـدا[1]
ولا تُحِبِّـي أحـــدا　　إلا الجليـلَ الصمـدا

فلما رآني قال لي: يا شيخ، أنت بعدُ على ذلك الضعف من اليقين؟»[2].

٣. وكان حيوة بن شريح التجيبي ﷺ يأخذ عطاءه في السنة ستين دينارًا، فلم يطلع إلى منزله حتى يتصدق بها، ثم يجيء إلى منزله، فيجدها تحت فراشه. وبلغ ذلك ابن عم له، فأخذ عطاءه، فتصدق به كله، وجاء إلى تحت فراشه، فلم يجد شيئًا، فشكا إلى حيوة، فقال له حيوة: «أنا أعطيتُ ربي بيقين، وأنت أعطيتَه تجربة»[3].

٤. وهذا القائد المجاهد أبو عبد الله مَرْدَنِيش ﷺ، قاتَلَ الرومَ وأحرز منهم غنائم كثيرة، ثم أحاط به الرومان وهم أكثر من ألف، وجيش مردنيش لا يزيدون على ثلاثمئة، فاستشار أصحابَه، فأشار عليه بعضهم أن يتركوا الغنيمة وينطلقوا فينشغلَ العدو بالغنائم ويتركهم، فقال: «ولكنَّ القائل يقول: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فقال بعضهم: يا رئيس! الله قال هذا، فقال: الله يقول هذا وتقعدون عن لقائهم؟!». فثبتوا أمامهم وقاتلوهم حتى هزموهم[4].

---

(١) سُحِّي: فعل أمر من: سَحَّ الدمع والمطر والماء يسُحُّ سَحّاً وسُحُوحاً، أي: سال مِن فوق واشتدَّ انصبابه. ينظر: لسان العرب لابن منظور (٢/ ٤٧٦).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٣٢٠)؛ مسلك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين العدوي العمري (٨/ ٩٩).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٤٠٥).

(٤) المصدر السابق (٢٠/ ٢٣٢). وينظر: أعمال القلوب للسبت (١/ ٢١٠).

٥. وابن تيمية لَـمَّا قيل له بأنهم سينفونه إلى الإسكندرية، وأنهم عازمون على قتله أو نفيه أو حبسه، فقال لهم: «أنا إنْ قُتِلتُ كانت لي شهادة، وإن نفَوْني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص دعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبدًا، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف». فيئسوا منه وانصرفوا[١].

ولما أخذوه إلى السجن، قال له إنسان: يا سيدي، هذا مقام الصبر، فقال له: «بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازلٌ على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قُسِّم على أهل الشام ومصر لَفَضَل عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهبًا وأنفقتُه ما أديتُ عُشْرَ النعمة التي أنا فيها»[٢].

المقترحات العملية والتدريبات

١. اجمع خمس قصصٍ واقعيةٍ تدلُّ على كمال اليقين.

٢. تأمَّل في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون، واستنبِطْ شواهدَ اليقين منها.

٣. لخص منزلة اليقين من كتاب (مدارج السالكين) لابن القيم.

٤. اقرأ مبحث اليقن من كتاب (أعمال القلوب) لخالد السبت.

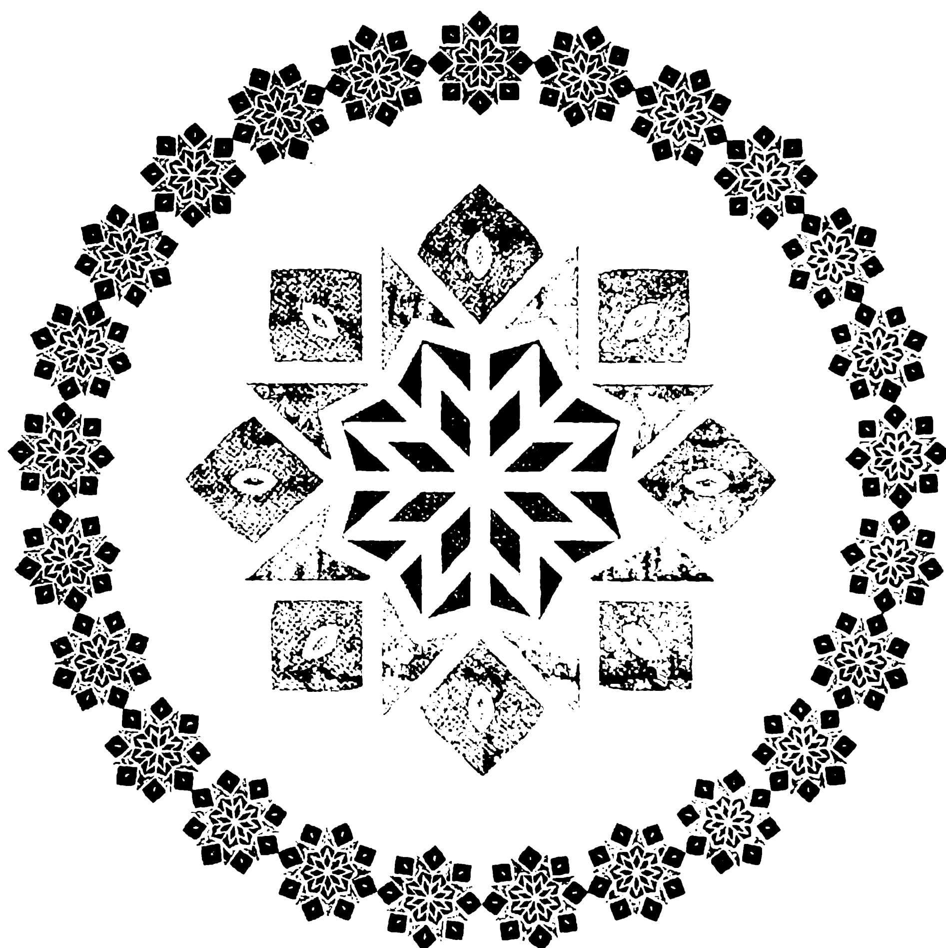
٥. اتخذ من هذه الآية وِردًا كرره بمقدار محدد، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.



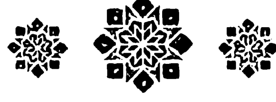
(١) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية لعلي العمران (ص: ٣٥).

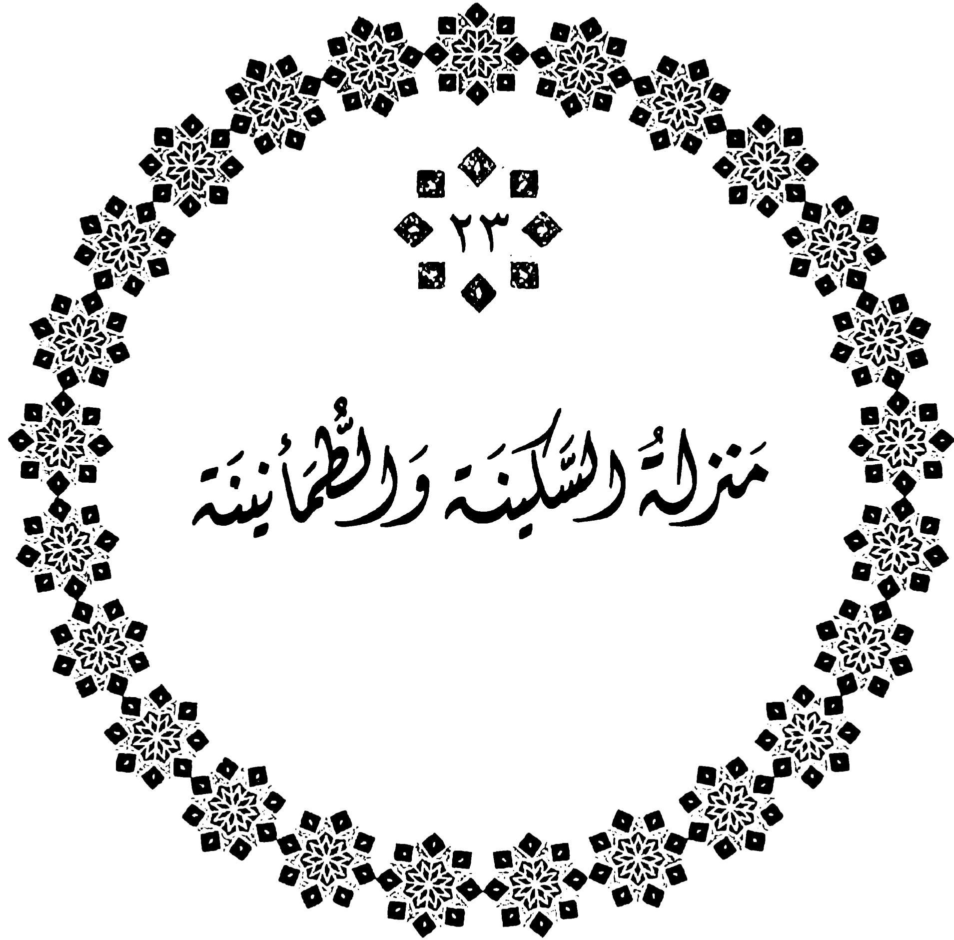
(٢) المرجع السابق (ص: ١٦٣). وينظر: أعمال القلوب للسبت (١/ ٢١١).







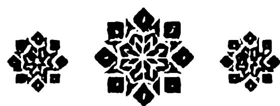


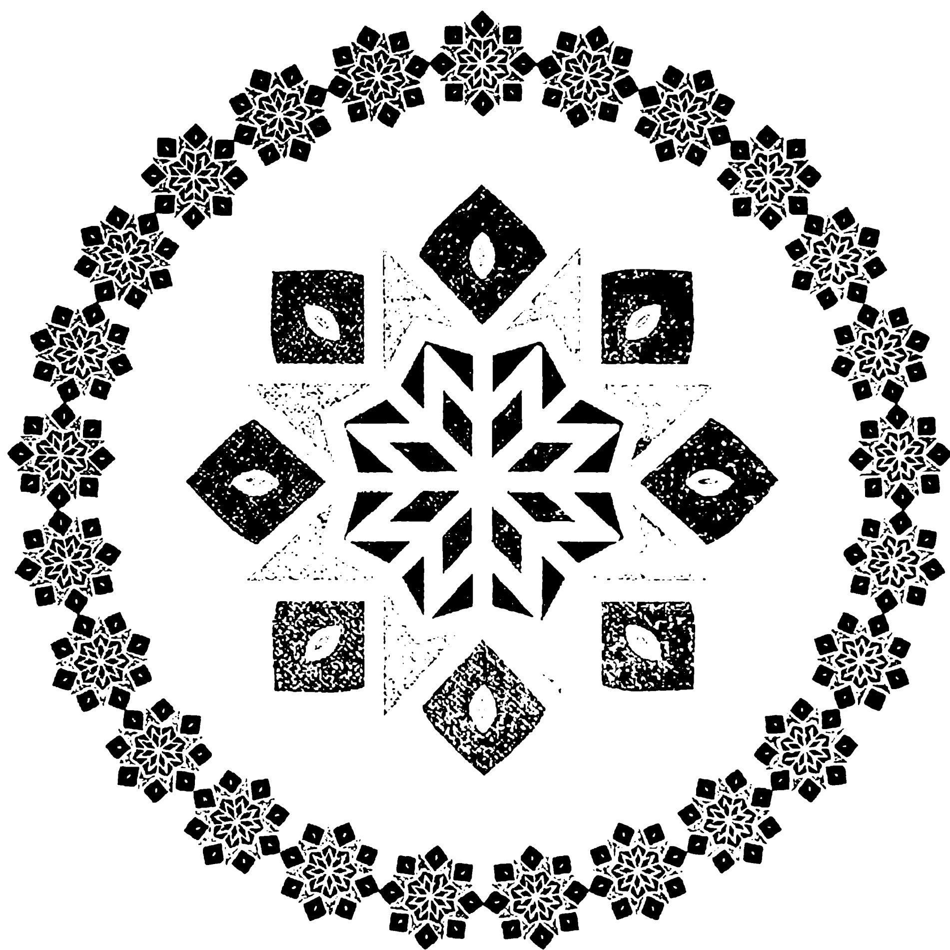


٢٣

منزلة السكينة والطمأنينة











منزلة السكينة والطمأنينة

بين يدي السكينة والطمأنينة

كل إنسانٍ اجتماعيٌّ بطبعه، يختلط بالناس ويتعامل مع المحيطين به، بالقلة أو الكثرة، ولا شك أنه يتأثر بمن حوله ويؤثرون فيه، مما يؤدي إلىٰ تعرضه لمواقف إيجابية تزرع في نفسه السعادة والفرح، ومواقف سلبية تسبِّب له ضغوطات نفسية والآلام، وبتكررها يصبح عند الإنسان مناعة نفسية من الصدمات التي يتعرض لها، فيوطِّن نفسَه للأعراض التي يمكن أن تنزل به، وهٰذا يجعله يعيش بمشاعر متناقضة ومتأرجحة بين خوف وطمأنينة(١).

والجوّ العام في الحياة الدنيا لا يبعث على الاطمئنان؛ لأنها حالة مؤقتة لإجراء اختبار على الناس وتنتهي، وهي حياة صراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين بني آدم وإبليس وجنده، وقد أنزل الله تعالىٰ أبانا آدم ﷺ وإبليس من الجنة إلى الأرض عدوين لبعضهما البعض(٢).

فشعور الطمأنينة والسكينة من أهم المطالب الضرورية للفرد والمجتمع، كما أنه أحد مظاهر الصحة النفسية والنظرة الإيجابية، ولأهمية حال السكينة والطمأنينة وحاجة الإنسان إلى اكتسابها، كان ذٰلك موضوع عناية الكثيرين من أهل العلم، وظهرت دراسات كثيرة لا تحصىٰ في علم النفس،

(١) ينظر: الطمأنينة النفسية مفهومها وأهميتها لعبد الحكيم بوخلط ونور الدين زعتر، مجلة المداد (ص: ٦٩).
(٢) ينظر: الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ٥).

في الشرق والغرب، حاول أصحابها الكشف عن أسباب ضياع الطمأنينة وطرق كسبها وبيان أهميتها في الحياة، إلا أن بحثنا هٰذا لن يتعرض لما كتبه الغربيون في هٰذا المجال، ويكون مقتصرًا علىٰ ما في كتب أئمتنا وعلمائنا، وذٰلك لسببين: الأول: أن مصدر الطمأنينة والسكينة عندنا هو الله ﷻ رب العالمين، وعلينا أن نعرف ونطبِّق ما جاء به الشرع في موضوع الطمأنينة. والثاني: أن فيما كتبه أسلافنا وكذا المعاصرون غُنية وكفاية عن الرجوع إلى المصادر الأجنبية.

حقيقة الطمأنينة

المعنى اللغوي:

الطمأنينة: اسم مصدر من الاطمئنان، وهو مصدر اطمأنَّ يطمئن اطمئنانًا وطمأنينةً، أي: سكنَ، يقال: اطمأن المكان إذا ثبت واستقر، واطمأن الرجل، أي: سكن، فالطمأنينة هي السكون بعد الانزعاج، قال تعالىٰ: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]، وطمْأن أو طأْمن الشيءَ: سكَّنه[1].

المعنى الشرعي:

الطمأنينة هي: سكون القلب إلى الشيء وعدمُ اضطرابِه وقلقِه، وهي راحةٌ تغمر القلب، وأمنٌ يجده المرء في النفس، وسعادة يشعر بها، وسلام وهناء يملأ كيانَه[2]، ومنه الحديث المعروف: «الصدق طمأنينة، والكذب رِيبة»[3]، أي:

---

(١) ينظر: مفردات غريب القرآن للأصفهاني (١/ ٥٢٤)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ١٩٢)؛ لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٢٦٨) مادة طمن؛ نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (٧/ ٢٧٠٢).

(٢) ينظر: الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ٥).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٦) برقم: (٢٥١٨)؛ وأحمد في مسنده (١/ ٤٣٤) برقم: (١٧٤٥)؛ والطيالسي في مسنده (٢/ ٤٩٩) برقم: (١٢٧٤). قال الترمذي: (هٰذا حديث صحيح).

الصدق يَطْمَئن إليه قلب السامع ويجد عنده سكونًا إليه، والكذب يوجب له اضطرابًا وارتيابًا، ومنه قوله ﷺ: «البر ما اطمأنَّ إليه القلبُ»[1]، أي: سكَن إليه وزال عنه اضطرابُه وقلقُه[2].

والسكينة هي: السكون الذي يُنزِله الله تعالىٰ في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذٰلك لما يرد عليه، ويوجِب له زيادةَ الإيمان وقوةَ اليقين والثبات.

وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار، فلولا طمأنينة القلب لما استطاعت الجوارح أن تسكن، والسكينة بهٰذا الاعتبار لازم من لوازم الطمأنينة، والعكس صحيح، لأن الطمأنينة لا تحصل إلا بعد سكون القلب والجوارح، فهي ثمرة من ثمرات السكينة[3]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة»[4][5].

الفرق بين الطمأنينة والسكينة:

الطمأنينة والسكينة متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، إلا أن بينهما بعض الفروق في الأمور الآتية:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/ ٤٠٧٢) برقم: (١٨٢٨٤)؛ والدارمي في مسنده (٣/ ١٦٤٩) برقم: (٢٥٧٥)؛ والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٤٧) برقم: (٤٠٢).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٤٧).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٣٢، ٣٥٢)؛ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (٣/ ٥١٧).

(٤) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وهو التابوت الذي كانت بنو إسرائيل إذا لقوا عدوا لهم قدموه أمامهم وزحفوا معه، فلا يقوم لهم معه عدوٌّ ولا يظهر عليهم أحد ناوأهم. ينظر: تفسير الطبري (٤/ ٤٥٧).

(٥) تفسير الثعلبي (٢٤/ ٢٣٣)؛ تفسير القرطبي (١٦/ ٢٦٤)؛ تفسير الخازن (٤/ ١٥٤).

الأول: السكينة تُسكِّن القلبَ من انزعاج الهيبة بعض السكون، والاستراحة فيها قد تكون من الخوف والهيبة فقط، وفي الطمأنينة تكون الاستراحة دائمًا مستمرًا، مع زيادة الأنس الذي يأتي منه الأمن والراحة.

الثاني: السكينة أحيانًا تكون مقامًا ونعتًا لا يزول، وأحيانًا تكون حالًا تأتي وتذهب، بخلاف الطمأنينة، فهي ملكة ومقام لا يفارق.

الثالث: السكينة بمنزلة مَن واجهه عدوٌّ يريد هلاكَه، فهرب منه عدوُّه فسَكَن روعُه، والطمأنينة بمنزلة حصنٍ رآه مفتوحًا فدخله وأمِن فيه، وتقوَّىٰ بصاحبه وعُدَّتِه.

الرابع: السكينة هي ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونُه وزوالُ قلقِه واضطرابِه، والطمأنينة أقوىٰ وأعمُّ، فإنها تكون في العلم والخبر به واليقين والظفر بالمعلوم، كما اطمأنت القلوب بالقرآن والهداية[1].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

من الألفاظ القريبة لمعنى السكينة: الرزانة، والوقار، والثقة، وعدم القلق. ومن المصطلحات الشائعة القريبة من معنى الطمأنينة: راحة البال، والعافية، والسعادة[2].

الأمن النفسي: من المصطلحات الشائعة في الدراسات المعاصرة والتي يراد بها مفهوم الطمأنينة هو مصطلح الأمن النفسي، وهو حالة نفسية من الشعور

---

(١) ينظر: منازل السائرين للهروي (ص: ٨٥)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٥١-٣٥٢)؛ بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٣/ ٥١٧).

(٢) ينظر: الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ٥-٦).

بالارتياح والسكون والطمأنينة والتقبُّل من أسرتِه ومجتمعه، وكذلك شعور الإنسان بالحماية من التعرُّض للأخطاء الاجتماعية والاقتصادية والنفسية(١).

فضل الطمأنينة وثمراتها

يدل على فضل الطمأنينة والسكينة أمور تالية:

١. ثناء الله على أصحاب القلوب المطمئنة:

أثنى الله عز وجل على أصحاب القلوب المطمئنة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وفيه إشارة إلى فضل الطمأنينة وأهميتها، إضافة إلى كونها ثمرة من ثمرات ذكر الله تعالى.

٢. الطمأنينة تورث الفوز برضوان الله تعالى:

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، أي: المطمئنة بالإيمان، فالاطمئنان من صفات المؤمنين الحقيقيين الذين فازوا برضوان الله تعالى.

٣. الطمأنينة مطلب الأنبياء:

قال تعالى في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فهي مطلب من مطالب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) ينظر: الطمأنينة النفسية لعبد الحكيم بوخلط ونور الدين زعتر (ص: ٦٩)؛ الطمأنينة النفسية كمتغير وسيط في العلاقة بين الانتماء الوطني وكل من التضحية وسلوك حماية الذات لدى القرآن الكريم لياسرة محمد أيوب أبو هدروس، مقالة في مجلة جامعة الأقصى (مج٢١، ع١، ص: ٣٨٢)؛ الطمأنينة النفسية وعلاقتها بالوحدة النفسية لدى عينة من طلبة الجامعة لفهد الدليم، مقالة في مجلة جامعة الملك سعود (مج١٨، ع١، ص: ٣٣١).

٤. الطمأنينة علامة الصدق والبر:

قال ﷺ: «الصدق طمأنينة»[(١)]، وقال أيضًا: «البر ما اطمأن إليه القلب»[(٢)].

٥. حثّ الإسلام على السكينة في العبادات:

أمر النبي ﷺ المؤمنين بالتحلي بصفة السكينة والوقار، خاصة أثناء القيام بالعبادات وقبل الدخول فيها، فقال ﷺ: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تُسرِعوا، فما أدركتم فصَلُّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا»[(٣)]، وقال ﷺ: «لا تقوموا حتىٰ ترَوْني وعليكم السكينة»[(٤)].

مراتب الطمأنينة

ذكر أبو نصر الطوسي للطمأنينة ثلاث مراتب، وهي[(٥)]:

١. مرتبة العوامّ:

وهي طمأنينة القلب بالإيمان وعند ذكر الله تعالىٰ، فينالون بذلك حظَّهم من إجابة الدعوات ودفع الآفات وتحصيل الأرزاق، وهم أصحاب النفوس المطمئنة بالإيمان التي قال الله تعالىٰ عنها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٩٩) برقم: (٧١٣٨)؛ وأحمد في مسنده (١/ ٤٣٤) برقم: (١٧٢٩)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٦) برقم: (٢٧٢٣)، وقال: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧/ ٤٠٧٢) برقم: (١٨٢٨٤)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (٣/ ١٦٠) برقم: (١٥٨٦)؛ والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٤٧) برقم: (٤٠٢). قال النووي في الأذكار (ص: ٦٤٣): «حديث حسن».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٩) برقم: (٦٣٦)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٩) برقم: (٦٠٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨) برقم: (٩٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١) برقم: (٦٠٤).

(٥) ينظر: اللمع للطوسي (ص: ٩٨).

٢. مرتبة الخواصّ:

وهي طمأنينة القلب بقضاء الله وقدره، فهم رضوا بقضاء الله وصبروا على بلائه، وأخلصوا واتقوا وسكنوا واطمأنوا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وإلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُـم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٣. مرتبة خواص الخواص:

وهذه مرتبة ما بعد الطمأنينة المعهودة، وذلك أنهم أدركوا أن الله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأنه عز وجل ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، فصدورهم لا تسكن هيبة وتعظيمًا لربهم سبحانه، وعلموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن بعد الوقوف على هذه الحقيقة، وكلما أرادوا زيادة المعرفة بربهم وقفوا عاجزين تائهين مخبتين أمام هيبته وجلاله، ويخافون سوء الحساب؛ قال أبو ذر: «لوددتُ أني شجرةٌ تُعضَد»[1]، أي: تُقْطَع، ومثله عن أبي بكر الصديق وأبي الدرداء رضي الله عنهم[2].

وذكر الهروي ثلاثة أنواع للطمأنينة، ورتَّبها على ثلاث درجات، وهي:

الأولى: طمأنينة القلب:

وهي طمأنينة الخائف من عقاب الله بالرجاء في عفوه ورحمته، فيريحه الله تعالى بذلك من شدة الخوف ووطأته، ويُنزِل عليه السكينة. وكذلك طمأنينة من أدركه الضجر من كثرة التكاليف وأعباء واجبات الدعوة والتبليغ ومجاهدة الأعداء، فهم يحملون أكثر مما يحمله عامة الناس، فإذا أصابهم الضجر وضعُف

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٥) برقم: (٢٣١٢)؛ وأحمد في مسنده (٩/ ٥٠٢٦) برقم: (٢١٩١٦).
(٢) ينظر: كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١١٤) برقم: (٧٤٠-٧٤١).

صبرُهم أنزل الله عليهم السكينة وخفَّف عنهم. ومنها أيضًا طمأنينة المبتلىٰ إلىٰ ما يشاهده من المثوبة على الصبر، فإذا عرف أن من ثمرات البلاء: إما تكفير السيئات أو رفع للدرجات أو دفع للآفات مما لم يطلع عليها العبدُ سكن قلبه واطمأن لقضاء الله جل جلاله.

الثانية: طمأنينة الروح:

وهي طمأنينتها في حال قصدها إلى الكشف عن حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، والكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال، وفي حال اشتياقها إلىٰ ما وُعِدتْ به، وفي حال موافاتها من التفرقة إلى الاجتماع، من حال الانفراد إلىٰ الاجتماع بربها ﷻ.

الثالثة: طمأنينة الشهود:

وهي طمأنينة العبد إلىٰ لطف الله تعالىٰ عند شهوده أسماء الله وصفاته وأفعاله، فلولا الطمأنينة لَمَحَقَه الشهودُ، فمن يصل إلىٰ شهود الحضرة الإلهية يطمئن إلىٰ لطف الله به[1].

طرق الوصول إلى الطمأنينة

١. كثرة ذكر الله تعالىٰ مع مراقبةِ القلب:

فكثرة ذكر الله تعالىٰ مع تدبُّرِ المعنىٰ والاستحضارِ أنه بين يدي ربه وأنه تعالىٰ ينظر إليه، يوصل إلى الطمأنينة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وهٰذا يشمل جميعَ أنواع الذكر؛ كالصلوات، وتلاوة القرآن، والتهليل والتسبيح، والصلاة على النبي ﷺ، والدعاء، والاستغفار؛ قال الله عز وجل:

(١) ينظر: منازل السائرين للهروي: (ص: ٨٥-٨٦)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٥٣-٣٥٦).

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣][1].

والقرآن علىٰ وجه الخصوص شفاء، يبعث على الاطمئنان، وقد نص القرآن الكريم علىٰ أنه شفاء، وكل شفاء فيه روح التفاؤل والاطمئنان؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال عز وجل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، أي: ننزِّل من القرآن ما يكون شفاء وعلاجًا لأمراض النفس والقلب؛ من ضلالة وجهالة، ووسوسة وشك، وزيغ وقلق، وهوىٰ وطمع، وانحراف وزلل، فيُسَكِّن النفسَ ويُطَمْئن القلبَ؛ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤][2].

٢. الرضا بقضاء الله وقدره وعدم إظهار الشكوىٰ:

وتفويض الأمور كلها إلى الله تعالىٰ، وإدراكه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما فاته لم يكن ليُدركه، وأن الخالق والرازق هو الله تعالىٰ، وبيده تدبير كل شيء، وأنه ليس عليه إلا القيام بما يقدر عليه من الأسباب الدنيوية مع الإلحاح في الدعاء إلى الله تعالىٰ، فإن هٰذا يخفِّف من وطأة الابتلاءات وصروف الحياة علىٰ المسلم، فإذا أدرك الإنسان أن كل ما جرىٰ له بقضاء الله ولمصلحة العباد اطمأن قلبُه وسكن[3].

كما أنه إذا علم العبد أن الله سبحانه قد رضي عنه يصبح رضا الله قمة السعادة عنده؛ لأنه الغاية من عباداته كلها، فيطمئن قلبه، ويتحقق ذٰلك بالإيمان بالله

(١) ينظر: المرجع السابق (ص: ٣٤)؛ الطمأنينة النفسية لعبد الحكيم بوخلط ونور الدين زعتر (ص: ٧٢).
(٢) ينظر: الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ١٣-١٦).
(٣) ينظر: المرجع السابق (ص: ٩).

وبكل ما جاء منه والاستقامة على شريعته، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]. فرضا العبد بقدرِ الله ومعرفتُه برضا الله عنه من أكبر البواعث على الاطمئنان والفرح(١).

٣. التزكية:

والتزكية هي: تطهير النفس من أوضارها، فإذا طهرت ارتاحت واطمأن بها القلب، ففيها صفاء للنفس وعون على الراحة والسكون، وكثيرًا ما يكون هذا بذكر الله تعالى وبالمجاهدة في الطاعة والعبادة والتبتل، والتربية والمراقبة، والصبر والثبات.

٤. التوكُّل:

التوكل على الله سبحانه يعين على الاطمئنان، فيشعر المؤمن وهو يفوِّض أمرَه إلى ربه أنه في أمان، وأنه سيقدِّر له الخيرَ، فيحمد الله على جميع أحواله؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

٥. الشكر:

الشكر له سبحانه من صفات المؤمنين العابدين القانتين، وهم يعرفون فضلَه وثوابه، وتطمئن قلوبهم إلى ما أعدَّ الله للشاكرين من ثواب، وذلك أن العبد إذا أصابه حزن أو كآبة بسبب ظروفه المعيشية وحالته المادية أو الصِّحِّيَّة يتذكر

(١) ينظر: المرجع السابق (ص: ٢٨).

نعم الله عليه في أمور أخرى، وأعظمها الإيمان والهداية، ثم ما عدا ذلك من النعم التي لا تحصى، فيطمئن ويستريح؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال عز وجل: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، أي: يجازي على الشكر بالشكر والجزاء الحسن(١).

٦. الزواج:

من الأمور المهمة التي تبعث على السكينة والاطمئنان هو الزواج الحميد، ففيه اطمئنان كثير، ولا مجال لراحة النفس البشرية من دون الزواج، فالزوج والزوجة كلاهما نصف الآخر، ولا تسكن غرائز النفس إلا بالزواج. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١](٢).

علامات التحقق بالطمأنينة

١. عدم الخوف والحزن:

يرد في كتاب الله تعالى عقب عدة آيات قوله سبحانه: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وفيها دلالة كبيرة على الاطمئنان، فالمؤمن الذي تحقق بشروط الاطمئنان لا يخاف من المستقبل ولا يحزن من أجل الماضي، بل صدره منشرح وقلبه مطمئن، وذلك لأنه قام بما أمر به الله سبحانه: كاتباع هدي الله،

(١) ينظر: المرجع السابق (ص: ٣٨-٤١).

(٢) ينظر: المرجع السابق (ص: ٤٥).

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقد أسلم وجهه لله بالطاعة والإخلاص، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وذلك بعد الإيمان الصحيح والعمل الصالح، كما وعده الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، مع ملازمة الاستقامة في طريق الحق، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣][(١)].

٢. التقوى:

ومن كان تقيًّا فالله معه، ومن كان الله معه كان مطمئنًّا، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، فيسكن قلبه لوعد الله له بالمخرج من كل ضيق ومأزق، وأنه سبحانه سيرزقه من حيث لا يحتسب، بدون أن يضطر أن يتعب في التفكير عن مصدر الرزق والأمان، وإن تأخر عما توقَّعه، فكل شيء له عند الله توقيت محدد، ليس للعبد الأمر فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣][(٢)].

٣. الرضا:

الرضا بقضاء الله وبما قسم الله عز وجل دليل على استقرار النفس، ويبدو ذلك في حياة الإنسان من أمور كثيرة، وكما أنه شرط لتحصيل الاطمئنان وأحد بواعثه

(١) ينظر: الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ٤٨-٥٠).
(٢) ينظر: المرجع السابق (ص: ٥٢).

كذٰلك هو علامة من علامات السكينة الداخلية والراحة النفسية لدى الإنسان؛ لأن الإنسان المستقيم والمستقر من الناحية النفسية يكون كثير الرضا دائم البِشْر، وبه يُستدَل علىٰ سكونه وهدوئه(١).

٤ . انشراح الصدر:

من صور الاطمئنان ودلائل الرضا كذٰلك انشراح صدر العبد، فالإنسان الذي أكرمه الله تعالىٰ بالطمأنينة والسكينة يزول عنه الضيق والقلق، فيشعر بانشراحٍ في الصدر وبهجةٍ في النفس وراحةٍ في القلب(٢).

الآفات التي تُذهِب الطمأنينة

١ . ضعف الإيمان:

أهم أسباب فقدان الاطمئنان لدى الإنسان هو ضعف الإيمان؛ لأن البعد عن الإيمان وعدم ممارسة العبادات، وتشويش المفاهيم الدينية يؤدي إلىٰ اضطراب النفوس وقلقها، كما تؤدي مخالفة القوانين الإلهية واتباع الشهوات والانحراف السلوكي إلى انعدام الأمن النفسي وتسلط الشياطين بالخوف والوسوسة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم: ٨٣]. وقال تعالىٰ مخاطبًا إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

---

(١) ينظر: المرجع السابق (ص: ٥٤).

(٢) ينظر: المرجع السابق (ص: ٥٤).

٢. التهديد بالخطر:

إن الخطر أو التهديد بالخطر يثير الخوف والقلق لدى الفرد بشكل خاص ولدى الجماعة بشكل عام، وهذا ما عبر به عمر ﷺ يشرح حالهم من التهديد القادم من ملك غسان، حيث قال: «ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسان، ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه»[١]. ولكن عندما يقوم الإنسان بما يجب عليه من اتخاذِ أسبابِ ردِّ العدوان والدفاع عن النفس يأتي العون من الله فيُنزل عليه السكينة؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦][٢].

نماذج من طمأنينة الصالحين

من الأمثلة التي وقعت للأنبياء والصالحين من حالات السكينة في أحلك الظروف وأصعب المواقف، والتي تبعث على الطمأنينة ما يلي:

١. قصة نبينا محمد ﷺ مع أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه في الغار:

أهم النماذج وأشرفها، قصة نبينا محمد ﷺ عند لجوئه إلى الغار في طريق هجرته إلى المدينة المنورة والمشركون يبحثون عنه في كل مكان حتىٰ وصلوا إلىٰ الغار، ولم يكن الأمر سهلا ولكن الله تعالىٰ طَمْأن نبيَّه ﷺ وأنزل عليه السكينة حتىٰ هدأ واطمأن قلبه، وقد قال الله عز وجل في ذلك: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٥٦) برقم: (٤٩١٣)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٠) برقم: (١٤٧٩).

(٢) ينظر: الطمأنينة النفسية لعبد الحكيم بوخلط ونور الدين زعتر (ص: ٧٣)؛ الطمأنينة النفسية وعلاقتها بالوحدة النفسية لدىٰ عينة من طلبة الجامعة لفهد الدليم (ص: ٣٣٢).

ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠]. أي: أن الله تعالىٰ قد تولَّىٰ نصرَه عندما تسبَّب الكفارُ في إخراجه من مكة، فأذن له بالخروج من بينهم عام الهجرة إلى المدينة ومعه صاحبه أبو بكر الصديق ﷺ، وكان أبو بكر يخاف عليه ﷺ من المشركين الذين تتبعوا أثَرَه ليقتلوه، فقال له رسول الله ﷺ في الغار وهو يسكِّنه ويثبِّته: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالِثُهما»[1]، فأنزل الله أمنَه وطمأنينتَه علىٰ رسوله ﷺ وأيَّده بالملائكة يحرسونه ويثبِّتونه، وأحبطَ تدبيرَ الكفارِ ومكرَهم وأفشلَ مؤامرتَهم في قتله[2].

٢. الصحابة الذين تخلَّفوا عن الجهاد بدون عذر:

حكى الله تعالىٰ قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد من غير عذر، وأشار سبحانه إلى الضيق الذي أصابهم عندما هجرهم رسول الله ﷺ وجميعُ المسلمين، فكانوا يلتجئون إلى الله تعالىٰ وحده ليتوب عليهم ويغفر لهم، ثم جاء الفرج.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨]. وهذه الآية إعلان توبة أنزلها الله في شأن الثلاثة من الصحابة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك تكاسلًا وليس نفاقًا، وقد تابوا إليه، وتأخر نزول توبتهم عن آخرين ممن ربطوا أنفسهم بسواريِّ المسجد حتىٰ يتوبَ الله عليهم فتاب عليهم، وبقي أمرُ الثلاثة معلَّقًا حيث لم يفعلوا مثل ما فعلوا،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٦) برقم: (٤٦٦٣)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٠٨) برقم: (٢٣٨١).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٥/ ٦٥) برقم: (٣٩٢٢)؛ صحيح مسلم (٧/ ١٠٨) برقم: (٢٣٨١)؛ سيرة ابن هشام (٢/ ٥٣١)؛ الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ١٨-١٩).

وأمرَ رسولُ الله ﷺ بالإعراض عنهم وعدمِ مجالستهم ومحادثتهم، وتأخر أمرهم إلىٰ أن ضاقتْ عليهم الأرض علىٰ رحبها وسعتها، وضاقت قلوبهم وامتلأت نفوسُهم حزنًا وغمًّا، وتحيَّروا فلا يدرون ما يصنعون، وعلموا أنه لا ملجأ من سخط الله إلا بالإنابة إليه والصبرِ علىٰ قضائه وانتظار الفرجِ من عنده، ثم وفَّقهم الله تعالىٰ للتوبةِ والثباتِ عليها حتىٰ أنزل قبولَها؛ لصدقِ مقالهم وإخلاصهم، فاطمأنت نفوسهم وسكنت صدورهم[1].

فروع متعلقة بالسكينة والطمأنينة

ارتباط الطمأنينة بمسألة الإيمان:

إن الطمأنينة والسكينة مرتبطة بمسألة الإيمان ووجود الإله؛ لأن موطن الطمأنينة في روح الإنسان، ولا يمكن التعامل مع الروح بطريقة مادية بحتة، وذٰلك بخلاف الدراسات الغربية التي تبحث في الإنسان علىٰ أنه مادة وجسم، فيهتمون بالجانب الجسدي مهملين الجانب الروحي، والثاني هو الأهم، ونحن نرىٰ نماذج لا تحصىٰ قد انتشرت في هٰذا العصر للإنسان الذي أوتي من نعيم الدنيا والصحة البدينة والكفاية المادية ما يفوق حاجة الإنسان إلىٰ حد الترف، لٰكنه مع ذٰلك يعيش في قلق واكتئاب، ويتردد على الأخصائيين النفسيين بحثًا عن العلاج لحالته النفسية. وفي المقابل صور كثيرة لأهل الإيمان والاستقامة ذاقوا كل أنواع البؤس الدنيوي، وحُرموا من الحاجات الضرورية التي يحتاجها الإنسان، وهم مع ذٰلك يحمدون الله تعالىٰ علىٰ حالهم، ويغمرهم شعور

---

(١) بتصرف من صحيح البخاري (٦/ ٣) برقم: (٤٤١٨)؛ وصحيح مسلم (٨/ ١٠٥) برقم: (٢٧٦٩). ينظر: الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ١٨-١٩).

الاطمئنان، كما أننا نرىٰ صورًا لإنسان فقَدَ صحتَه البدنية وهو حبيس الفراش، لكنه رغم ذٰلك مليء بالتفاؤل والتفكير الإيجابي، فيخطط لمشروع، أو يُؤلف كتابًا، أو يتعلم مهارة جديدة وهو على الفراش أو الكرسي المتحرك.

وبعض الأبحاث الغربية تشير إلىٰ وجود علاقة بين الدين والصحة العقلية والنفسية، وأن حضور الشعائر الدينية يؤدي إلىٰ قلة مشاعر القلق، حيث توجد علاقة إيجابية بين التدين والهدوء والطمأنينة، لكن ما زال هناك إصرار في الرؤية المادية، حيث تتم مناقشة غياب الطمأنينة على الأرضية المادية، والنظر إليها من منظور التنمية البشرية باعتبارها مهارة يجب أن يتعلمها الإنسان، ومجموعة من السلوكيات والتطبيقات التي إذا برع فيها الإنسان تحققت طمأنينته، متجاهلين أن السبب الرئيسي في غياب الطمأنينة هو القلق الوجودي وغياب فكرة الإله عن الإنسان(١).

فوجود فكرة الإيمان بالله تعالىٰ واليوم الآخر والاستقامة على الشرع بالإيمان والامتثال لكل ما جاء به رسول الله ﷺ أساس الاطمئنان والسكينة، والأصل الذي يجب أن ينطلق منه كل من يعمل في مجال التنمية البشرية والعلاج النفسي المعرفي.

المقترحات العملية والتدريبات:

١ . قراءة القرآن بالتدبر أو الاستماع إلىٰ تلاوة خاشعة بصوت جميل لقارئٍ محبَّبٍ إلى المستمع(٢).

---

(١) ينظر: الطمأنينة وغياب اليقين لمصطفىٰ عاشور، مقالة في موقع إسلام أون لاين.

(٢) عن البراء ﷺ قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشَطَنَيْنِ، فتغشَّتْه سحابةٌ فجعلتْ تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها. فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذٰلك له، فقال: «تلك السكينة تنزلت للقرآن». أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٨٨) برقم: (٥٠١١)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٩٣) برقم: (٧٩٥).



٢. تكرار قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٣. قراءة كتاب (الاطمئنان في القرآن) لمحمد خير رمضان يوسف.

٤. الحلم والأناة والهدوء في الحركات، مع الصمت وحسن السمت والتزام الوقار، والاقتصاد في المزاح.

٥. مصاحبة ذوي السكينة والحلم[١].

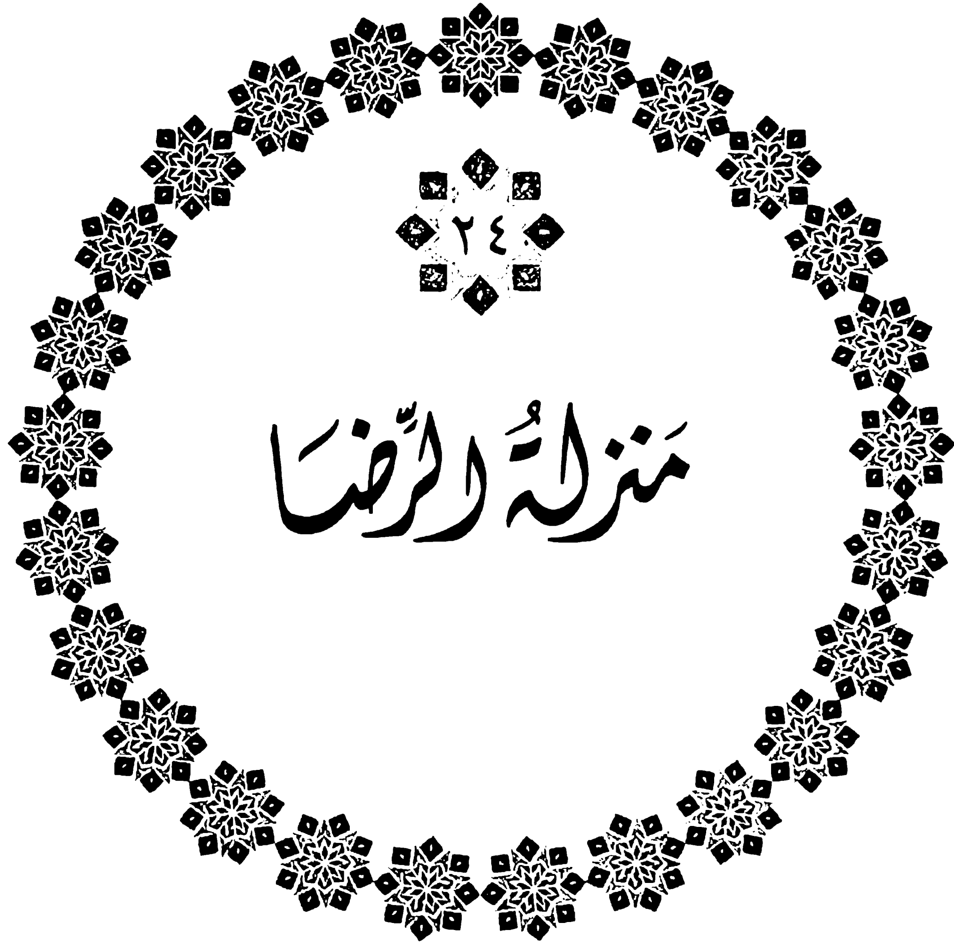
٦. قراءة بابَي السكينة والطمأنينة من كتاب (مدارج السالكين) لابن القيم.

٧. جمع آيات السكينة في القرآن وتكرارها.

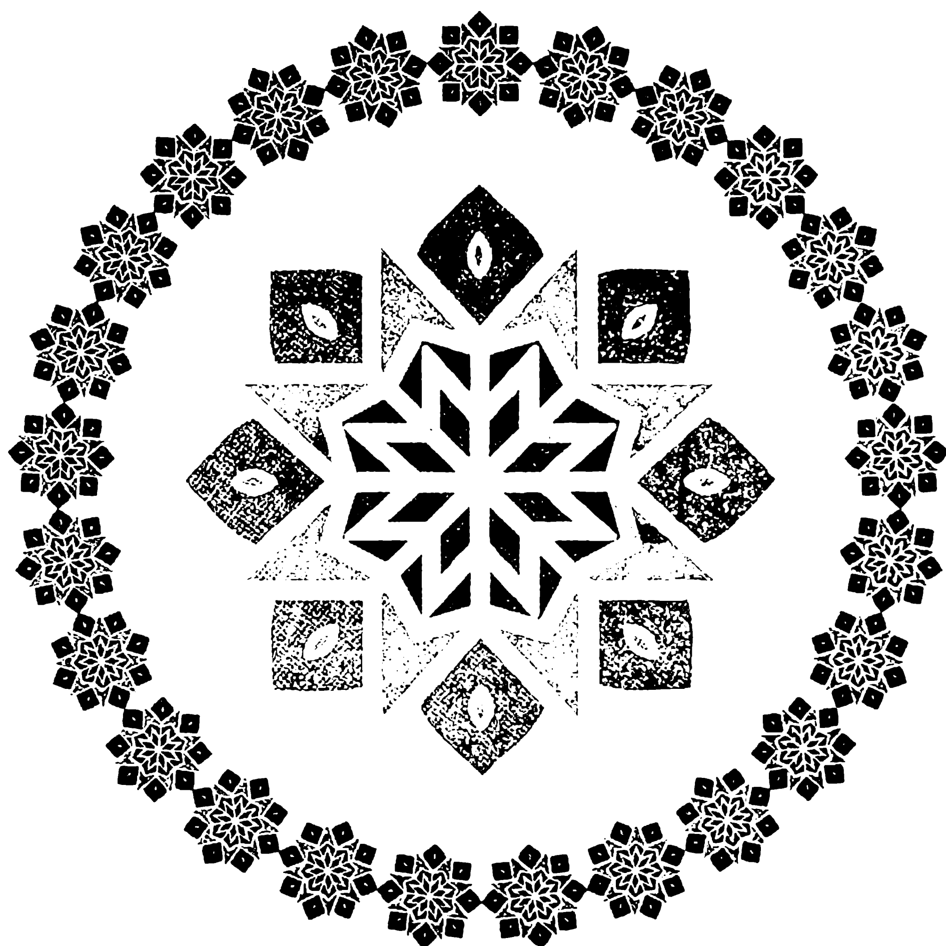
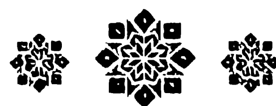


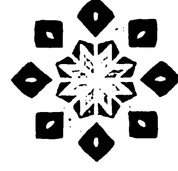
(١) ينظر: السكينة الخلق المفقود للحاشدي (ص: ٥٣-٩٥)؛ السكينة في القرآن الكريم للدليجان (ص: ٣٠٨-٣٢٢).



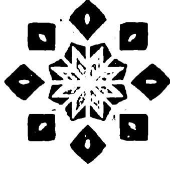

٢٤
منزلة الرضا





منزلة الرضا



حقيقة الرضا

المعنى اللغوي:

الرضا: هو خلاف السُّخط، وهو تشبُّع النفس وامتلاؤها بَلالًا ورقّة نحو شيء، وأرضاه: أعطاه ما يرضى به، وترضّاه: طلب رضاه، وارتضى: فيها مبالغة في الرضا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، والرضوان: الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خص لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى؛ كما قال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١][(١)].

المعنى الشرعي:

المعنى الشرعي للرضا لا يبتعد عن المعنى اللغوي، فقد قيل في تعريفه: «طيب النفس بما يصيبه ويفوته مع عدم التغير». وقيل: «نفي المعارضة وترك المفاوضة». وقيل: «تلقي المهالك بوجه ضاحك». وقيل: «شهود المحنة بعين المنّة»[(٢)].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٠٢)؛ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٣٥٦)؛ لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٢٤)؛ المعجم الاشتقاقي المؤصل لمحمد جبل (٢/ ٨٠٩).

(٢) ينظر: التوقيف على مهمات التعريف للمناوي (ص: ١٧٨).

وقد تنوعت عبارات الصالحين التي تدل على هذا المعنى[1]؛ قال ابن عطاء: «الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد، وهو ترك التَسَخُّط». وقال رويم: «الرضا استقبال الأحكام بالفرح». وقال الحارث المحاسبي: «الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام». وقال النوري: «الرضا سرور القلب بمر القضاء».

وحاصل مجموع هذه العبارات أن الرضا هو: سكون قلب العبد وسعادته باختيار الله تعالى له أيًّا ما كان.

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

القناعة:

مما يتعلق بمنزلة الرضا منزلة القناعة؛ فالقناعة هي أول الرضا[2]، والقناعة هي: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها، وقيل: «سكون الجأش عند أدنى المعاش»[3]. قال أبو عبد الله بن خفيف: «القناعة: ترك التَّشَوُّف إلى المفقود والاستغناء بالموجود»[4].

الفرق بين الرضا والصبر:

ويحسن هنا توضيح الفرق بين الصبر والرضا؛ حيث إن كلًّا من الصبر والرضا في أحد مشمولاته يتعلق بالبلايا والمصائب، وكلًّا منهما يضادّ الجزع والتسخط، لكن بينهما فرقًا: فالصبر أن يحبِس نفسه ويمنعها من التسخط، ويحبس لسانه

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٣٤٤).

(٢) ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٩/ ٢٥٧).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٦٨٥)؛ التوقيف على مهمات التعريف للمناوي (ص: ٢٧٥).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢٩٥)؛ الرسالة القشيرية (١/ ٢٩٥).

ويمنعه من التشكي، ويحبس جوارحه ويمنعها من المحرمات؛ كاللطم للخدّ والشق للثوب وغير ذلك، ويكون ذلك مع وجود الألم وتمني زواله، والرضا يوافق الصبر في حبس النفس وكف الجوارح، ويزيد عليه عدم تمني زوال الألم، ففَرحُ العبد بالثواب وحبُّه لله عز وجل وانشراحُ صدره بقضائه يجعله لا يتمنىٰ زوال الألم.

اجتماع الرضا بالقضاء المؤلم مع كراهيته وسخطه:

الرضا لا يقتضي عدم الإحساس بالألم، بل ولا يمنع كراهة الألم، لكن يكون رضاه بقضاء الله وفرحه به غالب علىٰ كراهية الألم، ولذلك يرضىٰ بما قدره الله ولا يتمنىٰ غير ما اختاره الله له، ولا تناقض بين الرضا وبين كراهة الألم؛ لأن السخط بالمقضيّ لا يستلزم السخط علىٰ مَن قضاه، كما أن كراهة المقضيّ وبغضه والنفرة عنه لا يستلزم تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره، وكذلك فإنه يرضىٰ به من جهة إفضائه إلىٰ ما يحب من رضوان الله، ويكرهه من جهة تألمه به، ولذلك أمثلة من الواقع: كرضا المريض شرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح[1].

فضل الرضا وثمراته

١. الرضا سبب لتحصيل رضوان الله على العبد:

إن رضا العبد عن الله سبب في رضا الله عن العبد؛ جاء في الحديث: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضيَ فله الرضا،

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٨٢، ٥٠٢، ٥٢١).

ومن سخِط فله السُّخط»[1].

«فمن رضي فله الرضا»؛ أي: فَمَنْ رضيَ بالبلاء وصبرَ عليه، يحصل له رضا الله تعالىٰ. «ومن سخط فله السُّخْط»، أي: ومَنْ كَرِهَ البلاءَ وجزِع، ولم يرضَ بحكم الله، يحصل له سخط الله وغضبه، والسخط من العبد يتعلق بالقلب لا بالأنين باللسان، فكم من رجل له أنين مِنْ شدَّةِ المرض، وفي قلبه الرضا والتسليم بأمر الله، فلا تَقُلْ عَمَّنْ سمعته يئن: إنه غير صابر؛ لأن الرضا والسخط محلهما القلب، وأنت لا تَطَّلع علىٰ قلب أحد[2].

والرضا سبب لدخول الجنة؛ فعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وجبت له الجنة»[3].

ولأهمية الرضا فإن مَن يُجري كلمة الرضا علىٰ لسانه له البشرىٰ بالحصول علىٰ مرضاة الله عز وجل؛ قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يقول حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، إلا كان حقًا على الله أن يرضيه يوم القيامة»[4].

٢. الراضي عن الله يشعر بالطمأنينة والسعادة والراحة والغنىٰ:

إذا رضي الإنسان بقسمة الله كان أسعد الناس، قال النبي ﷺ: «وَارْضَ بما

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٢) برقم: (٢٣٩٦)، وقال: حسن غريب.

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري (٢/ ٤٠٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٣٧) برقم: (١٨٨٤).

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥١٨) برقم: (١٩١١)، وأبو داود في سننه (٤/ ٤٧٨) برقم: (٥٠٧٢)، وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٦) برقم: (٣٨٧٠) وأحمد في مسنده (٨/ ٤٣٤٧) برقم: (١٩٢٧١).

قَسَم الله لك تَكُنْ أغْنى النَّاس»(١)، لأنّ العبدَ إذا عَلِمَ أنَّ الله كافٍ جميع عباده، استراحَ من تَعِبه، وأزال الهمومَ والأكدار عن قلبه، فيدخل جنةَ الرِّضا والتسليم، ويهبّ عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم، فيكتفي بالله، ويقنع بعلم الله، ويثق بضمانه(٢). قال عبد الرزاق القاشاني ﷺ: «الرِّضا فرحٌ يمتدّ، والقناعةُ غنىٰ لا ينفد»(٣). وجاء في الحديث: «من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له»(٤).

٣. الرضا سبب للبركة ودوام النعم:

إذا رضي العبد باختيار الله له ولم يَسْتَقِلَّه أو يتضجر منه فإن ذلك مدعاة لأنْ يفتح الله عليه أبواب بركاته وفضله؛ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه، ومن لم يرض لم يبارك له»(٥).

فالعبد لا يعلم إلا الشيء القليل مما يحيط به من الأحداث والأشياء، كما إنه لا يعلم من الغيب شيئًا على الإطلاق، لذلك فإن عليه أن يُسَلِّم أمره إلى الله عز وجل العالِم بما يُصلح العبد وما يُفسده، وما ينفعه في أمر دينه ودنياه، وما يضره ولا ينفعه؛ فالعبد لا يدري ما الأصلح لحاله هل هو الغنىٰ أو الفقر، وهل هو الإقامة في المكان الفلاني أو غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٠) برقم: (٢٣٠٥)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٨٥) برقم: (٤١٩٣). قال الترمذي: غريب.

(٢) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٥/ ٧٩).

(٣) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة في رسائل الشيخ عبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠٧).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٧) برقم: (٢١٥١) وأحمد في مسنده (١/ ٣٦٣) برقم: (١٤٦١).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٩/ ٤٦٧٨) برقم: (٢٠٥٤١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٧): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

٤. الراضي يذوق حلاوة الإيمان:

قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا»(١)، «ذاق طعم الإيمان» أي: وجد حلاوته، وهي عبارة عما يجده المؤمن المحقق في إيمانه، المطمئن قلبه به؛ من انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله تعالىٰ، ومعرفة رسوله، ومعرفة مِنّة الله تعالىٰ عليه في أن أنعم عليه بالإسلام، ونظمه في سلك أمة محمد خير الأنام، وحبب إليه الإيمان والمؤمنين، وبغض إليه الكفر والكافرين، وأنجاه من قبيح أفعالهم، وركاكة أحوالهم.

وعند مطالعة هٰذه المنن، والوقوف علىٰ تفاصيل تلك النعم، تطير القلوب فرحًا وسرورًا، وتمتلئ إشراقًا ونورًا، فيا لها من حلاوةٍ ما ألذّها، وحالةٍ ما أشرفها! فإن المؤمن عند تذكر تلك النعم والمنن لا يخلو عن إدراك تلك الحلاوة؛ غير أن المؤمنين في تمكنها ودوامها متفاوتون(٢)؛ قال عبد الواحد بن زيد: «الرّضا بابُ الله الأعظم، وجنَّة الدنيا، ومُستراح العابدين»(٣).

٥. الراضي لا يندم علىٰ ما فات ولا يبطر بما تحَصَّل له:

المؤمن يوقن أن كل ما يجري في هٰذا الكون إنما يكون بتقدير الله ومشيئته، وأن الله عز وجل قد كتب كل شيء وقدره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وحين يستقر هٰذا الإيمان في قلب المؤمن ويكون راضيًا بما يأتي من عند الله فإنه لا يتحسر ندَمًا علىٰ ما فاته، ولا يفرح بطرًا بما حصل عليه، فإن ما فات لم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦) برقم: (٣٤).

(٢) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (١/ ٢١٠).

(٣) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص: ٥١).

يقدَّر، ولو قُدِّر ما فات، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، يقول أنس ﷺ: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فما لامني أحد من أهله إلا قال: «دعوه فلو قدِّر -أو قال: لو قُضِي- أن يكون كان»[(١)].

شروط الرضا

١. عدم التسخط والاعتراض علىٰ حكم الله:

هناك فرق بين الإحساس بالبلاء وبين الرضا بالقضاء وترك الاعتراض علىٰ أحكام القدر، فإحساس العبد بما ابتليَ به شيءٌ فطريٌّ؛ فالإحساس بفقدان قريب مثلًا يُشعر بلوعة وحزن، وألمٍ وبكاءٍ، دون رفع للصوت بالنياحة، فعن أسامة بن زيد قال: كنا عند النبي ﷺ، فأرسلت إليه إحدىٰ بناته تدعوه، وتخبره أن صبيًّا لها أو ابنًا لها في الموت، فقال للرسول: «ارجع إليها فأخبرها: أن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ، وكل شيء عنده بأجل مسمىٰ، فمُرْها فلْتَصبِر ولتحتسب، فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها، قال: فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبي ونفسه تَقَعقع كأنها في شَنَّة، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هٰذا يا رسول الله؟! قال: «هٰذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(٢)].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٨٣٧) برقم: (١٣٦٢٢)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٤٥) برقم: (٧١٧٩). وأصله في الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١١٥) برقم: (٧٣٧٧)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٣٩) برقم: (٩٢٣).

لكن التشكي المتواصل والتسخط يدل على عدم التسليم لقضاء الله وقدره، والإنسان إذا لم يرضَ بالقَدَرِ وقع في لوم المقادير، إما بقالَبه، وإما بقلبه وحاله، ولوم المقادير لومٌ لمُقدِّرِها، وهذا مُنافٍ للعبودية، قال أنس ﷺ: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، ما قال لي لشيء صنعتُه: لمَ صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لمَ لمْ تصنع هذا هكذا؟»[1].

٢. الاستسلام لحُكم الله سواء كان عطاءً أم سلبًا:

فالمقادير التي قدرها الله على عباده قد كتبها في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السماوات والأرض، قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[2].

والسُّخط هو باب الهمِّ والغَمِّ والحزن، وشتات القلب وكسف البال، وسوء الحال والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضا يُخلِّصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

فعلى العبد أن يعلم أن الرضا يُوجِب له الطُّمَأْنينة وبرْد القلب وسكونه وقراره، والسخط يُوجِب اضطراب قلبه ورِيبته وانزعاجه وعدم قراره، والسخط يوجب تلوُّن العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلَّما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات استقرّت قدمُه في مقام العبودية، فلا يُزيل التلوُّنَ عن العبد شيءٌ مثل الرضا[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١) برقم: (٢٧٦٨)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٣) برقم: (٢٣٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٤٤) برقم: (٢٦٥٣).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٥٢٩).

مراتب الرضا

ينقسم الرضا إلىٰ مرتبتين[1]:

١. الرضا بالله (الرضا العام):

وهو ألا يتخذ غير الله ربًا، ولا غير دين الإسلام دينًا، ولا غير محمد ﷺ رسولًا؛ وهٰذا الرضا لا يخلو عنه مسلم؛ إذ لا يصح التدين بدين الإسلام إلا بذٰلك الرضا.

وهٰذه المرتبة تتضمن الرضا بالله تعالىٰ ربًا ووليًا وحكَمًا؛ فالرضا بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالىٰ يسكن إلىٰ تدبيره وينزل به حوائجه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

والرضا به وليًا: يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

والرضا به حكَمًا: أن لا يتحاكم إلىٰ غيره، بأن يحتكم إلىٰ كتابه الذي أنزله مفصّلًا؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

٢. الرضا عن الله في قضائه وقدره (الرضا الخاص):

وهو الرضا عنه في كل ما قضىٰ وقَدَّر، ويكون بسكون القلب إلىٰ أحكام الرب، وموافقته علىٰ ما رضي واختار؛ قال المحاسبي: «هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام»[2]، وقال أبو علي الروذباري: «ليس الرضا ألا يحس بالبلاء،

(١) ينظر: المفهم للقرطبي (١/ ٢١٠-٢١١)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٩٢-٤٩٦).
(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٤٤).

إنما الرضا ألا يعترض على الحكم»[1]. ثم يصل في الرضا إلىٰ ما قاله ذو النون: «هو سرور القلب بمر القضاء»[2]، وإلىٰ ما قالته رابعة عندما سئلت عن الرضا، فقالت: «إذا سرَّتْه المصيبة كما سَرَّتْه النعمة»[3].

والمرتبة الأولىٰ -التي هي الرضا بالله ربًا- إذا تحقق العبد بمعناها الكامل فإنه يترقىٰ لأعلىٰ مقامات الرضا، ففيها المبتدأ وإليها المنتهىٰ.

طرق اكتساب الرضا

١ . معرفة أهمية الرضا وعظيم قدره:

ممَّا يدعو المؤمن إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانه بمعنىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سَرَّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ صبر فكان خيرًا له»[4]، فالإيمان بالقدر هو الذي جعل كل قضاء يجري على العبد يكون خيرًا.

فموقف المسلم هو أن يكون راضيًا بقضاء الله تعالىٰ في جميع حالاته، قال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، قال علقمة: «هي المصيبة تصيبُ الرَّجلَ، فيعلم أنها من قضاء الله، فيسلِّمُ لها ويرضىٰ»[5]، وقال أبو الدرداء: «إنَّ الله إذا قضىٰ قضاءً أحبَّ أنْ يُرضىٰ به»[6]،

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبي (١/ ٢١١).

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص: ١٠٢).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٤٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٧) برقم: (٢٩٩٩).

(٥) تفسير الطبري (٢٣/ ١٢).

(٦) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص:٤٧).

وقال ابن مسعود: «إنَّ الله بقسطه وعدله جعلَ الرَّوحَ والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهَمَّ والحُزْن في الشكِّ والسُّخط»[1].

٢. التأمل في حكمة الله عز وجل في أقداره:

على المسلم أن يعلم أن الله أحسنَ كل شيءٍ خلَقه وأتقنَه، فهو راضٍ عما يقع في أفعاله؛ لأن هذا من خلقه الذي خلقه، فالله حكيم لم يفعله إلا لحكمةٍ، وهو أعلم بما يصلح العبد وما يصلح له، واختياره له خيرٌ من اختياره لنفسه.

والله عز وجل لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لأمره، فسواء رضي الإنسان بقضاء الله أم لم يرض فإن القضاء جارٍ عليه، فمن رضي يكون له الأجر والثواب، ومن سخِط يكون عليه السخط، وقد تقدم في الحديث: «فمن رضيَ فله الرضا، ومن سخِط فله السُّخط»[2].

٣. توطين النفس على قبول كل ما يَرِدُ عليها من الله تعالى:

كان يحيى بن معاذ يناجي ربه فيقول: «إن أعطيتني قبِلت، وإن مَنَعْتني رضيت، وإن تركتني دعوت، وإن دعوتني أجبت»[3].

ومن هذا التوطين والتدريب أن يعوّد العبد لسانه على حمد الله وشكره في السراء والضراء، وأن يصبر ويسترجع إذا أصابته مصيبة، وأن ينظر إلى من هم أشد مصيبة منه.

٤. طاعة أوامر الله:

من أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولا بد[4].

---

(١) المصدر السابق (ص:١١١).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٢) برقم: (٢٣٩٦)، وقال: حسن غريب.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٦٦).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٨١).

وقد أوضح القرآن الكريم علاج الأمور القلبيّة في قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]، فأوضح بجلاء لا ريب فيه أنّ الصلاة تقي صاحبها هٰذه المشاعر القلبيّة، يقول ابن بطّال: «المراد من الآيات الكريمة إثبات خلْق الله تعالىٰ للإنسان بأخلاقه من الهلع والصبر، والمنع والإعطاء، وقد استثنى الله المصلّين الّذين هم علىٰ صلاتهم دائمون، لا يضجرون بتكرّرها عليهم»(١).

وفي السّنّة المطهّرة ما يفيد تأثير الصّلاة في راحة القلب بها، ويدلّ علىٰ ذٰلك، قوله ﷺ «يا بلال أقم الصّلاة أرحنا بها»(٢).

ويسهُل ذٰلك على العبد إذا عرف ضعفه وقوة ربه، وجهله وعلم ربه، وعجزه وقدرة ربه، وأن الله رحيمٌ شفيقٌ به، بارٌّ به، فهو البرُّ الرحيم.

٥. الدعاء والالتجاء إلى الله:

الرضا مثل سائر المقامات الإيمانية إنما تكون أولًا في القلب ثم ينعكس ذٰلك علىٰ لسان المرء وتصرفاته، وحيث إن قلوب العباد بيد الرحمٰن يقلبها كيف يشاء فإنه لا أجدر ولا أدعىٰ لإصلاح القلوب من الالتجاء إلىٰ مقلب القلوب، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: قوله: «وأسألك الرضا بعد القضاء»(٣)، وإنما قال: «الرضا بعد القضاء»؛ لأنّ الرضا قبل القضاء عزم على الرضا فإذا وقع القضاء فقد تنفسخ العزائم(٤).

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥١١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٥٣) برقم: (٤٩٨٥)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥٤٩٣) برقم: (٢٣٦٢٤).

(٣) أخرجه النسائي في سننه (١/ ٢٧٨) برقم: (١٣٠٤/ ١)؛ وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٤) برقم: (١٩٧١).

(٤) شرح حديث عمار بن ياسر لابن رجب الحنبلي (ص: ١٨٦).

وكان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يدعو: «اللهم رضِّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتىٰ لا أحب تعجيل شيء أخّرته، ولا تأخير شيء عجلته»[1].

٦. النظر إلى النعم بدل النظر إلى البلاء:

قد يبتلي الله عباده بابتلاءات في الصحة أو الرزق أو في غير ذٰلك، لٰكنها قد تكون محصورة زمانًا فلا تدوم طويلًا، أو تكون ضيقة في شمولها فتكون في جانب دون آخر، وفي كل ذٰلك يرافقها ويزامنها من النعم الإلهية ما هو أضعاف لها، لذٰلك ينبغي للمسلم أن يُوَطِّن نفسَه على النظر إلى النعم والاستغراق في مشاهدة رحمة الله وحسن تدبيره لعبده في كل أحواله، فيثمر ذٰلك في قلبه الرضا بالله وبأحكام قضائه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، أي: بقليلٍ من ذٰلك، فإن ما وقاهم عنه أكثرُ بالنسبة إلىٰ ما أصابهم بألف مرة، وكذا ما يصيبُ به معانديهم، وإنما أَخبرَ به قبل الوقوعِ ليُوطِّنوا عليه نفوسَهم ويزدادَ يقينُهم عند مشاهدتهم له حسبما أَخبرَ به، وليعلموا أنه شيءٌ يسير له عاقبةٌ حميدةٌ[2].

علامات التحقق بالرضا

١. عدم المسارعة إلى الجزع والهلع:

الجزع والهلع ينشآن عن كثرة تذكر المصائب والأحزان، والأسف وشدة الحسرة علىٰ ما فات، حتىٰ يظن المرء أنه لا بدل عما فاته، ولا خلف لما ضاع منه،

(١) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص: ٧٤).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١/ ١٨٠).

قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، أي: أخبرناكم بذٰلك لكيلا تحزنوا علىٰ ما فاتكم من نعيمٍ في الدنيا، ولا تفرحوا فرَحَ بطرٍ بما هو آت، فلا تأسوا علىٰ ما فاتكم؛ لأنه لو قُدِّر شيءٌ لكان، ولا تفرحوا بما جاءكم أو أعطاكم، أي: لا تفخروا علىٰ الناس بما أنعم الله به عليكم؛ فإن ذٰلك من قدر الله ورزقه لكم(١).

٢. حُسْن الفهم عن الله في منعه:

فما يكون نعمةً في ظاهر الأمر قد يكون نِقمةً في الحقيقة؛ فالمال هو نعمة في الظاهر، لٰكنه في الحقيقة ينقلب إلىٰ نقمة ووبال علىٰ صاحبه إذا استعمله في معصية الله، وكذٰلك حال الصحة وسائر النعم، ففي هٰذه الحالة تكون هٰذه الأمور نعمة في الظاهر، لٰكنّها حرمان في الباطن، فالحرمان كلّ الحرمان أن يُحجب المرء عن طاعة ربه، ويأتي يوم القيامة صِفْرَ الكف من العمل الصالح، والحرمان كذٰلك أن يشتغل الإنسان بالمعاصي والمحرمات والغفلة، حتىٰ إذا جاء وقت الحساب عض أصابع الندم.

وما يكون منعًا في الظاهر قد يكون نعمةً في الحقيقة، فقد يُبتلى الإنسان بقلة في المال أو مرض في البدن، لٰكن يكون ذٰلك سببًا لتوجهه إلىٰ جناب مولاه، حيث يستشعر أنه ليس له غيره من معين، ولا يجد أمامه من الشواغل والموانع التي تحجبه عن الطريق إلى الله، فيكون فقير اليد لٰكنه غني القلب، أو سقيم الجسد لٰكنه قوي الروح.

(١) ينظر: التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٢٧/ ٣٢٧).

فينبغي أن نفهم حكمة الله في توزيع النعم والمصائب أنها تكون بأمر الله وتقديره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورىٰ: ٢٧]، وأن المنع من الله قد يكون عطية ومنحة إلهية.

فكل ما يأتي إلى العبد من ربه هو عطاء ومنحة حتىٰ لو كان منعًا وسلبًا؛ فهو في الحقيقة عطاء في الباطن؛ لأنه يذكّر المسلم بالفقر إلىٰ ربه والاضطرار إليه على الدوام، ولأنه وسيلة لنيل الحسنات ورفع الدرجات، ولأنه صارف للشواغل والملهيات ومعين على التوجه إلى الله بالطاعات والقربات.

٣. سرور النفس بقضاء الله أيًّا ما كان:

حين يوطّن المرء نفسه على الرضا بقضاء الله، وعلىٰ فهم أن ذٰلك أمر الله وحُكمه، وحين يعلم أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، ويستغرق في شهود صفات الجلال والجمال لله تعالى الذي هو الكريم والرحيم والولي والوهاب، فحين ذٰلك يغمره السرور وتغشاه الفرحة حين يأتي القضاء من عند مولاه الكريم، فلا تراه إلا مستبشرًا مغتبطًا، بل يكون ذٰلك من أعظم أسباب حبوره وسروره؛ قال عمر بن عبد العزيز: «أصبحت وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر»[(١)].

وقال سلمة بن دينار ﷺ: «نعمة الله فيما زَوىٰ عني من الدنيا أعظم من نعمته عليَّ فيما أعطاني منها؛ إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا»[(٢)].

فالرضا حالة قلبية تدل علىٰ قوة الإيمان واليقين بأن ما يختاره الله لعبده أفضل مما يختاره العبد لنفسه، فمن وصل إلىٰ هٰذه المرحلة فقد عرف ربَّه حق المعرفة.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٤٨٧).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣٣).

أصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة فقال:

ما سرَّني أنَّ إبْلي في مباركها وأنَّ شيئًا قضاه الله لم يكنِ[1]

٤ . الرضا بدين الله وأحكام شريعته:

كما يكون الرضا على أحكام الله القدرية، يكون كذلك على أحكامه الدينية الشرعية، فذاك خلق الله، وهذا أمر الله، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

لذلك فإن المؤمن يتلقى أحكام الشريعة بالرضا والقبول، سواء أفهم الحكمة منها أم لم يفهمها، فحسبه أن الله هو الذي أمر بها، وهذا الرضا يدفعه للطاعة والامتثال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٣٦].

ولا يزال العبد يرضا عن الأحكام التي شرعها الله سبحانه، حتى ينفر من مخالفتها، وحتى يبغض التفكير في الشهوات من الأساس؛ لأن ما في قلبه من الرضا بأوامر الله ودينه ينفِّره عما يخالفها، قال أبو سليمان: «إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راضٍ»[2].

آفات الرضا

١ . السخط بما قسم الله:

التسخط مما قضاه الله سبحانه وقدره، وكراهة ذلك وعدم الرضا به، يكون في القلب وفي اللسان وفي الأفعال، وكل ذلك نابع من ضعف الإيمان بقضاء الله

(١) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠).

(٢) المصدر السابق(ص: ٥٥).

وقدره، وبأن كل شيء إنما يكون بمشيئة الله، وكذلك فإن التسخط مناقض للإيمان بربوبية الله وأن الله عز وجل يفعل ما يشاء.

فالتسخط في القلب: يكون بكراهة ما قضاه الله تعالىٰ وقدره، والتسخط في اللسان: يكون بالتلفظ بالكلمات التي تدل علىٰ عدم رضا العبد بقضاء الله، والتسخط بالأفعال: يكون بمثل حلق الشعر ولطم الخدود وشق الجيوب.

فالمؤمن يخالف الكافر والمنافق بأنه يرضىٰ بقضاء الله ولا يتسخط عليه، ولا ينقلب علىٰ وجهه إذا أصابه ضر أو مكروه، قال تعالىٰ واصفًا حال الكافر أو المنافق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج: ١١].

وإظهار المصائب إذا كان لمصلحة، مثل: إظهارها للطبيب للعلاج فلا حرج فيه، لكن إن كان من باب الشكوىٰ والتذمر فهو المقصود بالذم.

٢. ضِيق الصدر بما يصيبه من البلاء:

الراضي عن الله يكون مرتاحًا هادئ البال، لكن المتسخط يكون صدره ضيقًا منكمشًا، فتارة يتحسر ندمًا علىٰ ما فاته ولم يتمكن من الحصول عليه، وتارة يصيبه الجزع لما حَلَّ به مِن ضر أو وجع، وهكذا تغمر الوساوس والشكوك قلبه، ولا يكاد يدخل إليه الاطمئنان، فإن سكون القلب إنما يكون بالإيمان بقضاء الله وقدره وحكمه النافذ، وأن ذلك مكتوب ومحسوم أمره، كما قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

٣. الاعتراض على قضاء الله الشرعي:

لا يتم الإيمان إلا بالتسليم لأحكام الله الشرعية التي أمر بها الله وأمر بها رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

والاعتراض على أحكام الله سواء أكان اعتقادًا أو كراهة أو سلوكًا كل ذلك يدل على عدم الرضا عن الله، وهذا مناقض لحال المؤمن الذي يسلم لأمر الله، ولو كان مخالفًا لهواه ومصلحته، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٤. تمني الموت لِضُرٍّ نزل أو بلاء:

قد يبلغ السُّخط بالإنسان مبلغًا عظيمًا، فلا يزال يتسخط ويتمقّت، ويشكو ويتذمر، حتى تسوء نفسه ويتخبط فكره، ويمتلئ صدره بالشعور بالضيق والحرج، ثم يرى أن حياته انقلبت عليه ضنكًا وضيقًا، ثم يصيبه اليأس والقنوط من رحمة الله، فيتمنى أن يموت ويفارق الحياة هربًا من تكاليف الصبر والتحمل.

نعم قد يواجه الإنسان أنواعًا من الصعوبات والمتاعب، لكن لا دواء لهذا إلا الإيمان والتسليم وحسن الفهم عن الله تعالى، والالتجاء إلى الله الذي يجبر الكسر ويكشف البلاء.

أما تمني الموت لأجل مرضاة الله وتَشَوُّقًا لما عنده من الثواب والإكرام فهذا معنى محمود ومرغوب، وذلك مثل تمني الموت في الجهاد ضد الأعداء.

نماذج من تحقق الصالحين بالرضا

١. سعد بن أبي وقاص:

لما قدم سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى مكة وقد كُفَّ بصرُه، جعل الناس يُهرعون إليه ليدعو لهم، فجعل يدعو لهم، وكان مجاب الدعوة، قال عبد الله بن السائب: «فأتيتُه وأنا غلام فتعرّفتُ إليه فعرفني، فقلت: يا عم، أنت تدعو للناس فيُشْفَون، فلو دعوت لنفسك لردَّ الله عليك بصرك، فتبسَّم ثم قال: يا بني، قضاءُ الله أحبُّ إليَّ مِن بصري»(١).

فهٰذا الموقف يدل على امتلاء قلبه بالرضا عن الله وقضائه، حتىٰ علم أن الخير هو ما اختاره الله، وسلم أمره لقضاء الله واختياره، حتىٰ صار قضاء الله أحب إليه من نعمة البصر رغم عظيم أهميتها عند الإنسان، وهٰكذا يفعل الرضا حين يمتلئ به القلب.

٢. عروة بن الزبير(٢):

من أعظم الأمثلة التي ضُربت في الصبر على الشدائد والرضا بقضاء الله موقف عروة بن الزبير، وهو ابن الصحابي الجليل الزبير بن العوام، وأمه ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة أم المؤمنين ﷺ زوجة رسول الله ﷺ.

وقع هٰذا الموقف في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث خرج عروة بن الزبير إلىٰ دمشق مقر الخلافة الأموية حينها، فخرج بعد أن ودع أهله واستعان بالله، وأخذ معه أحد أولاده السبعة، وكان يحبه حبًّا شديدًا.

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ٣٥٤).

(٢) ينظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٣٥٠)؛ وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٢٥٥-٢٥٨).

أصيب عروة في الطريق بآكِلَةٍ في رجله، أخذت تشتد عليه حتىٰ أقعدته، وهي المرض الذي يطلق عليه الغرغرينا حاليًّا، ولما وصل عروة إلىٰ قصر الخليفة لم يستطيع الدخول، فحملوه إليه، فحزن الخليفة كثيرًا علىٰ ضيفه الذي خرج من أهله سليمًا معافىٰ، وأصيب في بلاد الخليفة، فجمع أمهر الأطباء لينظروا في أمره، وقرروا بأن الآكلة (الغرغرينا) ليس لها علاج سوىٰ بتر الرِّجل من الساق، وإن لم يفعل فسينتشر المرض حتىٰ يصل إلىٰ سائر جسده ويُفْنِيَه.

فأخبر الخليفة عروة بقول الأطباء، فلم يقل شيئًا سوى الحمد لله، وحينما همّ الأطباء بقطع رجل عروة بن الزبير، طلبوا منه أن يشرب الخمر حتىٰ لا يشعر بآلام القطع، فاستنكر عليهم ذٰلك، وقال: لا أستعين بحرام الله علىٰ ما أرجو من عافية، قالوا: فنسقيك المرقِّد؟ قال: ما أحب أن أسلب عضوًا من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذٰلك فأحتسبه، ودخل عليه قومٌ أنكرهم، فقال: ما هٰؤلاء؟ قالوا: يمْسكونك؛ فإن الألم ربما عَزَب معه الصبر، قال: أرجو أن أكفيكم ذٰلك من نفسي.

فقطعت كعبه بالسكين، حتىٰ إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار، فقطعت وهو يُهَلِّل ويُكبِّر، ثم إنه أغلي له الزيت في مغارف الحديد فحسم به، فغشي عليه، فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ولما رأى القدم بأيديهم دعا بها، فقلَّبها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلىٰ حرام.

ودخل ابنه إصطبل الوليد بن عبد الملك فرفسته دابة فقتلته، فلم يُسمع في ذٰلك منه شيء، حتىٰ قدم المدينة فقال: اللهم إنه كان لي بنون أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد، وأيم الله لئن أخذت فلقد أبقيت، ولئن ابتليت طالما عافيت.

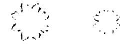
المقترحات العملية والتدريبات

١. اقرأ كتاب (الرضا عن الله بقضائه) لابن أبي الدنيا، ولخّصه.

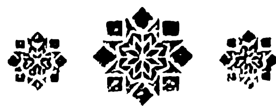
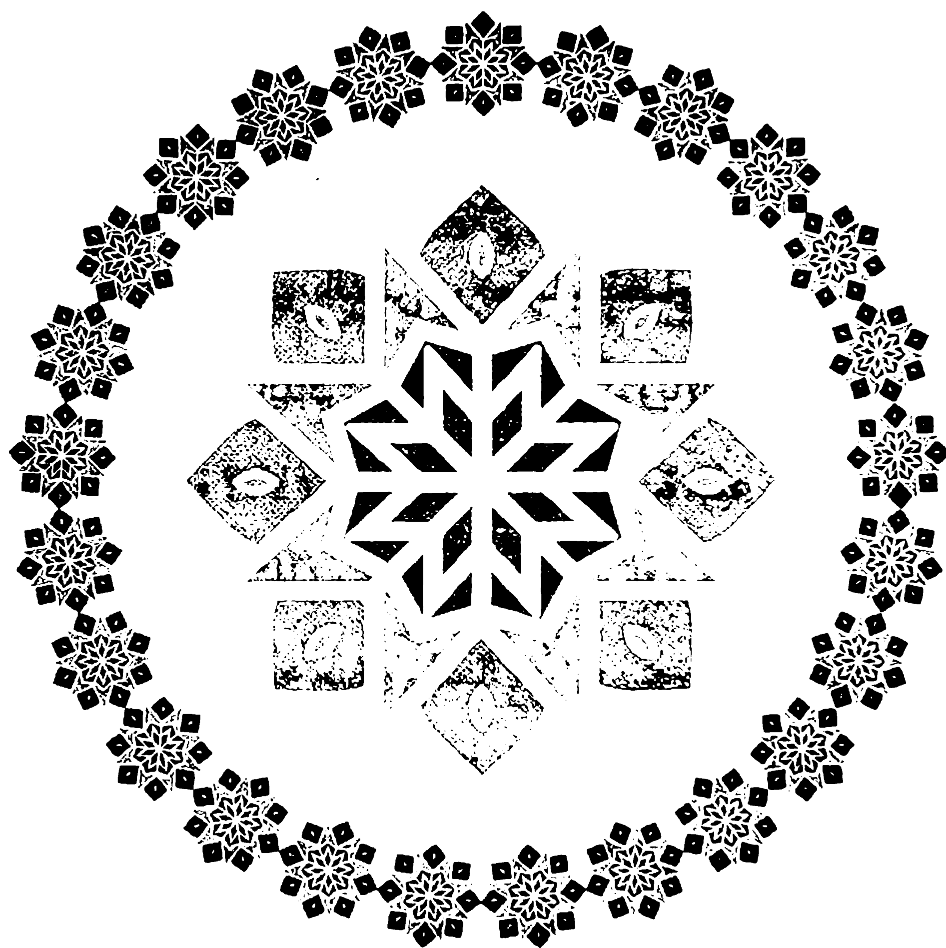
٢. تذكَّر أن تقول بعد كل مصيبة أو حدوث شيء تكرهه: «قَدَّر الله وما شاء فعل»، فإن ذٰلك يُنَمِّي في النفس الرضا بقضاء الله تعالىٰ.

٣. تعلّم دعاء الاستخارة، ولا تُقْدِم علىٰ أمر مُهِمٍّ حتىٰ تصلي ركعتين ثم تدعو بدعاء الاستخارة، فقد كان النبي ﷺ يُعلّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يُعلّمهم السورة من القرآن، كما ورد في الحديث[1]. وهٰذه الوصية النبوية تُعَدُّ تدريبًا عمليًّا علىٰ توطين النفس ورضاها بالقضاء والقدر.

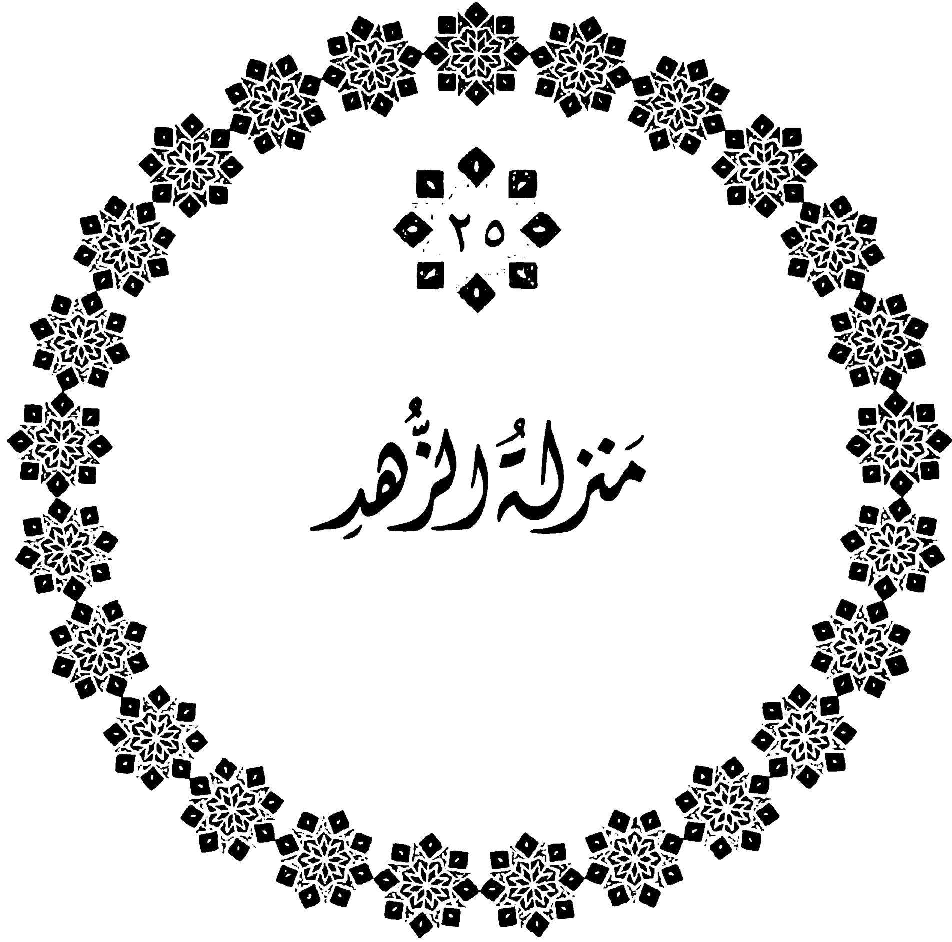
٤. أكثر من ترداد هٰذا الذكر: «رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينـًا، وبمحمد ﷺ نبيـًا ورسولًا».



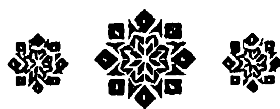
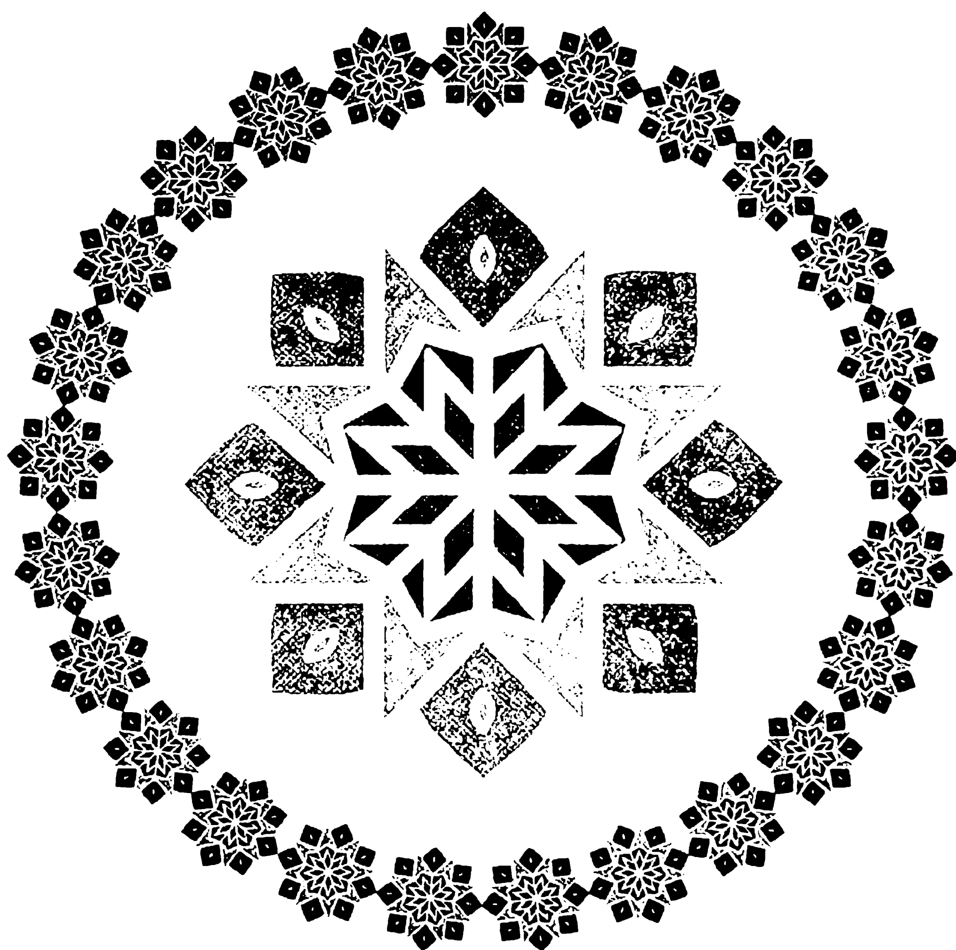
(١) حديث الاستخارة أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨١) برقم: (٦٣٨٢).

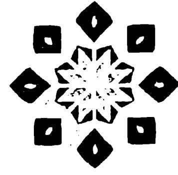





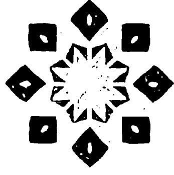


٢٥
مَنزلةُ الزُّهدِ



منزلة الزهد



بين يدي الزهد

الزهد في الدنيا شعار أنبياء الله وأوليائه، قال عمرو بن العاص: «ما أبعد هديكم من هدي نبيكم ﷺ! أمَّا هو فكان أزهد الناس في الدنيا، وأما أنتم فأرغب الناس فيها»[1].

فالزهد من أعلى المنازل الإيمانية التي لا يصل إليها إلا قلة قليلة ممن وفقه الله واصطفاه؛ لأن فيه قطع حظوظ النفس من الدنيا وشهواتها، والالتفات التام نحو الآخرة، فمن بقي في قلبه شهوة من شهوات الدنيا ولذة من لذاتها مما لا يستعان به على الآخرة فليس بزاهد إلا بالقدر الذي خرج من قلبه من ملذات الدنيا.

وليس الزهد عدم المال، بل عدم احتفال القلب بالدنيا والأموال إن كانت في ملكه، فقد يكون الزاهد من أغنى الناس، وهو زاهد؛ لأنه غير محتفل بما في يده، وبذله في طاعة الله تعالىٰ أيسر عليه من بذل الفَلْس علىٰ غيره، وقد يكون الشديدُ الفقرِ غير زاهد بل في غاية الحرص؛ لأجل ما اشتمل عليه قلبه من الرغبة في الدنيا[2]. لذلك قال أبو سليمان: «لا تشهد لأحد بالزهد، فإن الزهد في القلب»[3].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٣٠٧) برقم: (١٧٧٧٣).

(٢) ينظر: الفروق للقرافي (٤/ ٢٠٩).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ١٨٠).

وسئل أحمد عن الزاهد يكون زاهدًا ومعه مائة دينار؟ قال: «نعم، علىٰ شريطة إذا زادتْ لم يفرح، وإذا نقصتْ لم يحزن»(١).

والزهد معنىٰ باطن في القلب؛ بأن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، ولهٰذا المعنى القلبي أثر على الظاهر؛ وذٰلك بترك الفضول التي لا يستعان بها علىٰ طاعة الله مِن مطعم وملبس ومال وغير ذٰلك، وأما ما يستعان به على الطاعة من المباحات فإنه إذا نوىٰ بتناولها التقَوِّي على الطاعة كانت شهواته طاعة يثاب عليها، كما قال معاذ بن جبل: «أمَّا أنا فأنام وأقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»(٢). وقال سعيد بن جبير في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]: «متاع الغرور: ما يُلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلْهِك فليس بمتاع الغرور، ولٰكنه متاعُ بلاغٍ إلىٰ ما هو خير منه»(٣).

والزهد إنما يكون زهدًا إذا كان عما لا ينفع؛ إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحًا لأنه مُفَوِّتٌ لما هو أنفع منه، أو مُحَصِّلٌ لما يربو ضرره علىٰ نفعه، وأما المنافع الخالصة أو الراجحة فالزهد فيها حمق؛ قال سفيان بن عيينة ﷺ: «ليس مِن حُبِّ الدنيا طلبك منها ما لا بد منه»(٤). وقال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي صفوان الرعيني: أيُّ شيءٍ الدنيا التي ذمها الله تعالىٰ في القرآن ينبغي للعاقل أن يجتنبها؟ قال: «كل ما عملته في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت فيها تريد به الآخرة فليس منها»(٥).

---

(١) التوكل لأبي يعلى الفراء (ص: ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٦٢) برقم: (٤٣٤٤)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٦) برقم: (١٨٢٤)؛ ينظر: الزهد والورع والعبادة لابن تيمية (ص: ٧٣-٧٤).

(٣) شرح السنة للبغوي (١٤/ ٢٣٠).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٧٣).

(٥) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٢٢٢)، ينظر: الزهد والورع والعبادة لابن تيمية (ص: ٥٠).

حقيقة الزهد

الزهد في اللغة:

الزهد في الأصل يدل علىٰ قلة الشيء، والزهيد: القليل، والزهد ضد الرغبة، والزاهد: هو المُعْرِض عن متاع الدنيا ولذاتها، مصدر زهد في الشيء وزهد عنه: أعرض عنه وتركه لاحتقاره أو لِتَحَرُّجِه منه أو لقلته، ويقال: زهد في الدنيا: ترك حلالها مخافة حسابه، وترك حرامها مخافة عقابه، ولا يقال الزهد إلا في الدين، أما الزهادة ففي الأشياء كلها[1].

الزهد في الاصطلاح:

اختلفوا في تعريف الزهد؛ ولخص ذٰلك ذو النون فقال: «قد تكلموا في الزهد بمعان مختلفة؛ فبعضهم قال: الزهد: ترك حب المنزلة، وقالت طائفة: الزهد: ترك راحة النفوس وسرورها، وحسم علائق النفوس من جميع ما تستريح إليه، وقالت طائفة: الزهد: ترك كل ما شغل عن الله عز وجل، وقالت طائفة: الزهد: رفض الدنيا وقصر الأمل، وقالت طائفة: الزهد: الثقة بالله عز وجل، وقالت طائفة: الزهد: أخذ ما يسد الجوعة، ويستر العورة، ورفض ما سواه، وقالت طائفة: الزهد: الإيثار لله عز وجل، وترك كل ما شغل عن الله عز وجل، وقالت طائفة: الزهد: إخراج المخلوقين من القلب، وحب الخلوة»[2].

هٰذه التعريفات تدور حول معنىٰ واحد هو: إخراج قدر الدنيا من القلب في سبيل التفرغ للعمل للآخرة، والحقيقة أن الزهد ليس بالمظهر الخارجي،

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٦/ ٨٧)؛ الصحاح للجوهري (٢/ ٤٨٠-٤٨١)؛ المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية (١/ ٤٠٣).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٧٦).

فلبس الخشن من الثياب لا يدل على الزهد، كما أن الغنىٰ لا يناقض الزهد، وإنما الزهد الذي عناه العلماء هو إخراج قدر الدنيا من القلب، فهو أمر قلبي، قال أبو سليمان الداراني ﷺ: «لا تشهد لأحدٍ بالزهد؛ فإن الزهد في القلب»(١).

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام أبي مسلم الخولاني، فإنه قال: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، إنما الزهادة في الدنيا: أن تكون بما في يدي الله أوثق مما في يديك، وإذا أُصبتَ بمصيبةٍ كنتَ أشدَّ رجاءً لأجرها وذُخرها من أنها لو بقيت لك»(٢). ففسر الزهد في الدنيا بأشياء هي من أعمال القلوب، لا من أعمال الجوارح.

وعرفه ابن عباس ﷺ فقال: «الزهد أن لا يسكن قلبك إلىٰ موجود في الدنيا، ولا يرغب في مفقود منها، ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]»(٣).

وقال بشر بن الحارث الحافي: «ليس الزهد في الدنيا ترك الدنيا، إنما الزهد أن يزهد في كل ما سوى الله، هٰذا داود وسليمان ﷺ قد ملكا الدنيا وكانا عند الله من الزاهدين»(٤).

وعرفه ابن القيم بأنه: «صرفُ الرغبة إليه، وتعلّق الهمَّة به، والاشتغال به عن كلِّ شيء يشغل عنه»(٥).

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٨٠).
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٨).
(٣) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٦١).
(٤) المصدر السابق (ص: ٧٤).
(٥) طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٤٩٢).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الزهد والورع:

يقول يحيى بن معاذ: «كيف يكون زاهدًا مَن لا ورع له! تَوَرَّع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك»(١).

الزهد والخوف والرجاء:

للزهد تعلق بمقام الخوف والرجاء؛ وذلك لأن الإنسان لا يزهد في الدنيا إلا إذا رغب فيما عند الله من الثواب ونعيم الآخرة، وخاف إن تعلق بالدنيا من عذاب الآخرة، وهذا ما يدفعه إلى الزهد وترك الدنيا رغبة في الآخرة؛ يقول ابن القيم: «والزُّهد جامعٌ لمقام الرَّغبة والرَّهبة، لا يكون زاهدًا مَن لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهب ممَّا يخاف ضَرَّه»(٢).

فضل الزهد وثمراته

١. الزهد سبب للعزة ولكل خير:

قال الإمام أحمد: «من أراد أن يكون عزيزًا في الدارين فليزهد في الدنيا»(٣).

ويقول الفضيل بن عياض: «جُعِل الشرّ كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا»(٤).

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٠٠).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٩).

(٣) مفيد العلوم ومبيد الهموم لأبي بكر الخوارزمي (ص: ٢٦١).

(٤) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٣٦).

٢. يورث العبدَ محبة الله عز وجل له:

قال ﷺ: «ازهد في الدنيا يُحبك الله عز وجل، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبك الناس»[١]. فجعل الزهد سببًا للمحبة، فمن أحبه الله تعالىٰ فهو في أعلىٰ الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضًا أن مُحِبّ الدنيا متعرض لبغض الله تعالىٰ. وقال عثمان بن عمارة: «كان يقال: الورع يبلغ بالعبد إلى الزهد في الدنيا، والزهد يبلغ به حب الله»[٢].

٣. ثناء الله على الزُّهاد:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم، وهو غاية الثناء.

وقال في وصف الكفار: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣]، وصفهم بمحبة الدنيا، فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه، وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا، وهٰذا هو الزهد.

٤. الزهاد أعقل الناس:

قال الشافعي رضي الله عنه: «لو أوصىٰ رجل بشيءٍ لأعقل الناس صُرف إلى الزهاد»[٣]. ذٰلك لأنهم عرفوا حقيقة الدنيا وفناءها، فعملوا للآخرة الباقية.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٣) برقم: (٧٩٦٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٢٥) برقم: (٤١٠٢)؛ والطبراني في الكبير (٦/ ١٩٣) برقم: (٥٩٧٢). وقال النووي: حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة. رياض الصالحين للنووي (ص: ١٦٥).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٣٩).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٥٥).

٥. الزهد مع قلة العمل أفضل من العمل الكثير بدون زهد:

عن ابن مسعود قال: «أنتم اليوم أطول اجتهادًا وأطول صلاة، أو أكثر صلاة من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا خيرا منكم»، فقيل: لم؟ قال: «كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة»(١).

٦. في الزهد كفاية هم الدنيا والآخرة:

الزاهد نفض يده من الدنيا، وجعل همَّه الآخرة، ومن جعل همّه الآخرة كفاه كل الهموم، قال ﷺ: «من كانت الدنيا همه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقرَه بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له، ومن كانت الآخرة نيَّتَه، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٢).

وكان الحسن البصري كثيرًا ما يقول: «يا معشر الشباب، عليكم بالآخرة فاطلبوها؛ فكثيرًا رأينا مَن طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحدًا طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا»(٣).

٧. وردت نصوص كثيرة في ذم الدنيا والترغيب في الآخرة:

في القرآن الكريم عدد كبير من الآيات التي تُبَخِّس من شأن الدنيا وتُزَهِّد فيها، وتُعلي من شأن الآخرة وتُرَغِّب فيها، وكذلك في السنة النبوية، ومن الآيات القرآنية:

---

(١) الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك (ص: ١٧٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ٤٦٧) برقم: (٢١٥٩٠)؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٧٥) برقم: (٤١٠٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٥٢) برقم: (٢٤٦٥). قال العراقي: أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء للعراقي (ص: ١٦٧٤).

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٦٥).

١. قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦].

٢. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

٣. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وأما السنة فوردت أحاديث كثيرة يبين فيها النبي ﷺ حقيقة الدنيا، ويحذر من الركون إليها، ويخوِّف الناس من مخاطر التعلق بها، ومن تلك الأحاديث:

١. قوله عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»[1].

٢. وفي الصحيح: «إن الدنيا حلوةٌ خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»[2].

٣. ومر النبي ﷺ بالسوق داخلًا من بعض العالية والناس كنَفَيه[3]، فمرَّ بجَدْيٍ أسكَّ[4] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا:

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٥١) برقم: (٢٣٢٢)، وقال: حسن غريب؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٣١) برقم: (٤١١٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٢).

(٣) كنفيه؛ أي: جانبيه، والكنف: الجناح والناحية. ينظر: المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٢/ ٥٤).

(٤) أسكّ: صغير الأذن، والسّكك: أشدّ ما يكون من صغر الأذن وضمورها، وقد وصف به الصمم. ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ١٠٠٨)؛ الجراثيم لابن قتيبة (١/ ١٩٥).

ما نُحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت! فقال: «فوالله، للدنيا أهون على الله من هٰذا عليكم»[1]. وقال يحيى بن معاذ ﷀ: «الدنيا لا قدْرَ لها عند ربها وهي له، فما ينبغي أن يكون قدرُها عندك وليست لك»[2].

٤. وبين النبي ﷺ أن الحرص على الدنيا مفسد للدين، فقال: «ما ذئبان جائعان أُرْسِلَا في غنمٍ بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[3]. فالحرص عليها يفسد الدين مثل أو فوق إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم.

٥. ويبين النبي ﷺ حجم الدنيا بجوار الآخرة بقوله: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه في اليَمِّ ثم يرفعها، فلينظر بم يرجع»[4].

شروط الزهد

١. الإخلاص فيه:

الزهد لا يتحقق إلا بالإخلاص فيه؛ بأن يترك الدنيا طلبًا للآخرة ولثواب الله تعالىٰ وطمعًا في رضاه، فمن بذل المال علىٰ سبيل السخاء والفتوة، أو لاستمالة القلوب والطمع بمدح الناس وثنائهم، فليس ذٰلك من الزهد في شيء، ولو أن رجلًا ترك الدنيا لراحة قلبه وجسمه، وتلذذ بالفراغ والراحة، لم يكن زاهدًا، حتىٰ ينوي التارك لها أنه تركها طمعًا في رضا ربه ولعلمه بحقارة الدنيا ونفاسة الآخرة،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٠) برقم: (٢٩٥٧).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤٣).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ٣٨٦) برقم: (١١٧٩٦)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٥) برقم: (٢٣٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٣) برقم: (٥٥).

فإن كل نوع من الترك يُتصور ممن لا يؤمن بالآخرة، فقد يكون مروءةً وفُتُوَّة وسخاءً وحسن خلق، ولكن لا يكون زهدًا، إذ حُسْن الذِّكْر وميل القلوب من حظوظ العاجلة، وهي ألذُّ وأهنأ من المال[1].

٢. أن يكون المزهود فيه من المباحات:

فمَن اقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدًا، وإن كان بعض العلماء جعلوا ترك المحظورات من أنواع الزهد الواجب، إلا أن العادة تخصيص الزهد بترك المباحات التي لا يستعان بها على طاعة الله.

٣. أن يكون المزهود فيه مقدورًا عليه:

من لم يكن في يده شيءٌ من متاع الدنيا لا يُتَصوَّر منه الزهد؛ لأن ما لا يَقدر عليه لا يقوى على تركه، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة حال القدرة، فكم مِن ظانٍّ بنفسه كراهة المعاصي عند تعذُّرِها فلما تيسرت له أسبابها من غير مُكَدِّرٍ ولا خوفٍ من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فكيف يكون حالها في المباحات عند القدرة! بل الزاهد من أتته الدنيا راغمةً صفوًا وهو قادر على التنَعُّم بها من غير نُقصانِ جاهٍ وقُبحِ اسمٍ ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفًا من أن يأنس بها فيكون آنسًا بغير الله.

ولكن يمكن أن يتصور الزهد في المعدوم إذا تحقق شرطه وهو: أن لا تحب وجود الشيء المفقود ولا تأسى على فقده، وأن تكون مغتبطًا بعدمك مسرورًا بفقرك، وقلبك راضٍ عن الله بحالك التي أنت عليها[2].

قال مالك بن دينار: «يقولون: مالك زاهد! أيُّ زهدٍ عند مالك وله جُبَّة وكساء!

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢١٩).

(٢) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٤١٥)؛ إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢١٨-٢١٩).

إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز؛ أتته الدنيا فاغرةً فاها فتركها»[1].

٤ . ألا يزهد في شيءٍ مطلوب شرعًا أو طبعًا:

فمَن ترك الزواج معتقدًا أن تركه قربة، أو ترك ما لا بد منه مما يعين على الطاعة؛ مثل ما يكُفُّ به طبعه وبَشَريَّته من الغذاء والنوم واللباس والنساء، أو ترك السعي على عياله وتفرَّغ للعبادة، فهذا ليس من الزهد؛ وهو خلاف هدي النبي ﷺ؛ فعندما بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد في الزهد والعبادة على المشروع، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمَا والله إني لَأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2]. وفي الحديث: «كفى بالمرء إثما أن يُضَيِّع من يَقُوت»[3].

٥ . أن يكون قصده من ترك الدنيا التفرغ لعمل الآخرة:

فمن ترك الدنيا ليستريح من غمِّها فليس بزاهد، إنما يراد بالزهد تفريغ القلب من الاشتغال بالدنيا ليتفرغ لطلب الله ومعرفته والقرب منه والأنس به، قال أبو سليمان الداراني: «ليس الزاهد من ألقى غم الدنيا واستراح منها، وإنما تلك راحة، وإنما الزاهد من ألقى غمَّها وتَعِب فيها لآخرته»[4]، وقال أبو سعيد: «كما زهد فيها يزهد في الراحة فيها؛ فإن الراحة في الدنيا من الدنيا ومن نعيمها»[5].

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢) برقم: (٥٠٦٣)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٢٩) برقم: (١٤٠١).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٥١) برقم: (٤٢٤٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨/ ٢٦٨) برقم: (٩١٣٢)؛ وأبو داود في سننه (٢/ ٥٩) برقم: (١٦٩٢)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٦٦) برقم: (٦٦٠٦).

(٤) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٧٤).

(٥) المصدر السابق.

مراتب الزهد

الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجاتٍ ثلاث[1]:

الدرجة الأولى: أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكُفُّها. وهذا يسمى المتَزَهِّد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد على خطر؛ فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها؛ كالذي يترك درهمًا لأجل درهمين فإنه لا يشق عليه ذلك، وهذا الزاهد يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يكون معجبًا بنفسه وبزهده، ويظن في نفسه أنه ترك شيئًا له قدْر لما هو أعظم قدرًا منه.

الدرجة الثالثة: أن يزهد طوعًا ويزهد في زهده فلا يرى زهده؛ إذ لا يرى أنه ترك شيئًا؛ لأنه عرف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خزَفةً وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركًا شيئًا. فهذا هو الكمال في الزهد.

طرق اكتساب الزهد

١. العلم:

العلم الذي يورث الزهد هو العلم بكون الدنيا وما فيها حقيرًا، وأن ما عند الله خير وأبقى، وما لم يتحقق هذا العلم لا يتصوّر تحقق الزهد، فبقدر قوة اليقين ومعرفة التفاوت بين الدنيا والآخرة يزداد الإنسان زهدًا، وقد يعلم ذلك مَن لا

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢٢٥-٢٢٦).

يقدر علىٰ ترك الدنيا؛ إما لضعفِ علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الشهوة عليه وكونه مقهورًا في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يومًا بعد يوم إلىٰ أن يختطفه الموت(١).

٢. التفكر في حقيقة الدنيا ومآلها وحقيقة طيباتها:

إذا تفكر المرء في حقيقة الدنيا ونظر إليها بعين الزوال صغُرت في عينه، وهان عليه الإعراض عنها، ولم ينخدع بزينتها؛ يقول علي رضي الله عنه: «مِن هوان الدنيا وحقارتها أنّ الله أخرج أطايبها من خسائسها؛ فالدنيا سبعة أشياء: مأكولٌ، ومشروبٌ، وملبوسٌ، ومشمومٌ، ومنكوحٌ، ومسموعٌ، ومبصَر؛ أما المأكولات فأشرفها العسل، وهو لُعاب ذباب، وأطيب المشروبات الماء، ويستوي في شربه الآدمي والكلب والخنزير، وأفضل الملبوسات الإبريسم، وهو لُعاب دودة، وأشرف المناكح النساء، وحقيقتها مَبالٌ في مبال، وأشرف المشمومات المسك، وهو دم غزال، والمسموع والمبصر مشترك بينك وبين البهائم»(٢).

٣. تدريب النفس وأخذها بالتدرج:

فالنفس لا يمكن قسرها من البداية على الإعراض عن الدنيا بالكلية، فإن هٰذا شاقٌّ عليها يؤدي إلىٰ عكس المراد، وإنما يحمل نفسه على التقلل من الدنيا شيئًا فشيئًا، قال رجل ليحيى بن معاذ: متىٰ أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: «إذا صرت من رياضتك لنفسك في السرِّ علىٰ حدٍّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك»(٣).

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢١٨).

(٢) مفيد العلوم ومبيد الهموم لأبي بكر الخوارزمي (ص: ٢٦٢).

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٤٣).

٤. الإكثار من تدَبُّر كلام الله:

قال ابن القيم: «والقرآن مملوءٌ من التزهيد في الدُّنيا والإخبار بخسَّتها وقلَّتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والتَّرغيبِ في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها وسرعة إقبالها، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدُّنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولىٰ بالإيثار»(١).

علامات التحقق بالزهد

١. مراقبة الله في الخلوات:

مَن يراقب الله في سِرِّه دليل علىٰ أنه علم حقيقة الدنيا وطمع بما عند الله؛ كانت دعوة بكر بن عبد الله المزني لمن لقي من إخوانه أن يقول له: «زهَّدَنا الله وإياك زهادةَ مَن أمكنه الحرام والذنوب في الخلوات فعلم أن الله يراه فتركها»(٢).

٢. أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق:

فإن من عظُمَت الدنيا عنده أحب المدح وكره الذمّ، فربما حمله ذٰلك علىٰ ترك كثير من الحق خشية الذم، وعلىٰ فعل كثير من الباطل رجاء المدح، فمن استوىٰ عنده حامده وذامُّه في الحق دل علىٰ سقوط منزلة المخلوقين من قلبه؛ قال الفضيل بن عياض: «علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس»(٣). عن يونس بن ميسرة الجبلاني قال: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولٰكن الزهادة في الدنيا: أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يديك، وأن

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢١٩).

(٢) الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي (ص: ٢٤).

(٣) الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي (ص: ٢٦).

يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء»[1].

٣. عدم الفرح بالدنيا وعدم الحزن على فقد شيء منها:

قال وهيب المكي: «الزهد في الدنيا أن لا تأسى على ما فاتك منها، ولا تفرح بما أتاك منها»، وقال ابن السماك: «فأما الزاهد فأصبح قد خرجت الأفراح والأحزان من قلبه عن اتباع هذا الغرور، وهو لا يفرح بشيء من الدنيا أتاه، ولا يحزن على شيء من الدنيا فاته، لا يبالي على عسر أو يسر، فهذا المبرز في زهده»[2].

عن بشر بن الحارث قال: قال فضيل بن عياض: «يا بشر، الرضاء الأكبر عن الله عز وجل الزهد في الدنيا» قال: قلت: كيف هذا يا أبا علي؟ قال: «يكون العطاء في قلبك والمنع بمنزلة واحدة»[3].

٤. عدم الركون إلى الراحة:

قال أبو سليمان: «ليس الزاهد مَن ألقى غم الدنيا واستراح فيها، إنما تلك راحة، إنما الزاهد من ألقى غمها وتعب فيها لآخرته»؛ أي: كما زهد فيها يزهد في الراحة فيها، قال: الراحة في الدنيا من الدنيا ونعيمها»[4].

قال علي ﷺ: «ألا وإن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطًا والتراب فراشًا والماء طِيْبًا؛ ألا مَن اشتاق إلى الجنة شاردٌ عن الشهوات، ومَن أشفق مِن النار رجَع عن الحرمات، ومَن زَهِد في الدنيا هانت عليه المصيبات؛

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٦٣).

(٢) المصدر السابق (ص: ٢١٣).

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٨٠).

(٤) الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي (ص: ٣٤).

ألا إن لله عبادا كمن رأىٰ أهل الجنة في الجنة مخلدين، وأهل النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياما لعقبىٰ راحة طويلة»(١).

٥. الإيثار والسخاء:

بغير الزهد لا يستطيع المسلم أن يتحلىٰ بالإيثار والسخاء؛ لأن الإنسان متىٰ تعلق قلبه بالشيء فمن أين له أن يُؤْثِر به غيرَه! فالزاهد إذا دُعي لأن يخرج عن ماله كله وأن ينفقه في أمر يرضي الله عز وجل لما تردد لحظة؛ قال يحيي بن معاذ: «الزهد يورث السخاء بالملك»(٢). قال ﷺ: «ما يَسُرُّني أن عندي مثلَ أُحُدٍ هٰذا ذهبًا، تمضي علي ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئًا أَرْصُده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هٰكذا وهٰكذا وهٰكذا؛ عن يمينه وعن شماله ومن خلفه»(٣).

الآفات التي تؤثر في الزهد

١. الكسل والبطالة:

قد يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة، فيظن من يدّعي الزهد أن الزهد في القناعة، ما يجعله يبرر لنفسه ترك العمل كسلًا، ويوافق ذٰلك هوىٰ في نفسه لثقل تحمل المسؤولية الملقاة علىٰ عاتقه، فيترك العمل مدَّعيًا أنه زاهد في الدنيا، ولم يعلم أن طلب الراحة ركون إلى الدنيا وليس من الزهد في شيء، قال أبو سليمان: «ليس الزاهد مَن ألقىٰ غم الدنيا واستراح فيها، إنما تلك راحة، إنما الزاهد من ألقىٰ غمها وتعب فيها لآخرته»(٤).

(١) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٢/ ١٤٤)؛ عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٣٨١).
(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٢٤٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٦٤٤٤)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٧٥) برقم: (٩٤).
(٤) الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي (ص: ٣٤).

٢. الفهم الخاطئ لحقيقة الزهد:

قد يسمع العامي ذم الدنيا فِي القرآن المجيد والأحاديث، فيُلَبِّس عليه إبليس بأنك لن تنجو في الآخرة إلا بترك الدنيا، ولا يدري مَا الدنيا المذمومة، فيخرج علىٰ وجهه إلى الجبال، ويترك الجمعة والجماعة والعلم، ويُخَيَّل إليه أن هٰذا هو الزهد الحقيقي، وربما كانت له عائلة فضاعت، أو والدةٌ فبكت لفراقه، وربما لم يعرف أركان الصلاة كما ينبغي، وربما كانت عليه مظالم لم يخرج منها، وما ذٰلك إلا لقلة علمه. بينما الدنيا لا تُذَمُّ لذاتها، وإنما المذموم أخذ الشيء من غير حِلِّه أو تناوله علىٰ وجه السَّرَف، وأن الزهد هو خروج قدر الدنيا من القلب بحيث لا يحزن علىٰ فقدها ولا يفرح بإقبالها[١].

قال ابن عقيل: «ما قطع عن الله وحمَل النفس علىٰ محارم الله فهو الدنيا المذمومة وإن كان إملاقًا وفقرًا، وما أوصل إلىٰ طاعة الله فذاك ليس بالدنيا المذمومة وإن كان إكثارًا»[٢].

٣. الرياء:

قد يدخل الرياء علىٰ من يريد أن يسلك طريق الزهد، فيلبس الثياب الخشنة أو الممزقة التي يعرف بها أهل الزهد، وغرضه من ذٰلك أن يُعرف بالزهد، وهٰذا محبط للعمل، ورد عن رجل من العباد أنه قال لأصحابه: «إن أحدنا إذا لقي أحب أن يُعظَّم لمكان دِينه، وإن كان له حاجة أحب أن تُقضىٰ لمكان دينه، وإن اشترىٰ شيئًا أحب أن يُرخص له لمكان دينه»[٣].

(١) ينظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ١٣٦).
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٤٤).
(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص: (٢٢٠).

٤ . التعلق بالدنيا:

التعلق بالدنيا ومحبتها يتنافىٰ مع الزهد، ولا يجتمع حب الدنيا مع الآخرة في قلب مؤمن، قال وهب بن منبه: «مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان، إن أرضىٰ إحداهما أسخط الأخرىٰ»[١]. وقال الحسن البصري: «من أحب الدنيا وسرَّته ذهب خوف الآخرة من قلبه، وما من عبد يزداد علمًا ويزداد على الدنيا حرصًا، إلا ازداد إلى الله عز وجل بغضًا، وازداد من الله بعدًا»[٢].

نماذج من زهد السابقين

١ . زهد النبي ﷺ:

أ. جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: «إني مجهود، فأرسل إلىٰ بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلىٰ أخرىٰ، فقالت مثل ذٰلك، حتىٰ قلن كلهن مثل ذٰلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء»[٣].

ب. وعن عائشة ﵂ أنها قالت لعروة: «ابن أختي، إنْ كُنّا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: يا خالة، ما كان يُعِيْشُكم؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء»[٤].

ج. يقول عمر بن الخطاب: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ، وهو مضطجع علىٰ حصير، فجلست، فأدنىٰ عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثَّر في جنبه،

---

(١) الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك (ص: ٢١٠).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٨١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٣٤) برقم: (٣٧٩٨)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ١٢٧) برقم: (٢٠٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٥٣) برقم: (٢٥٦٧)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢١٨) برقم: (٢٩٧٢).

فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضةٍ من شعير نحو الصاع، ومثلها قَرَظًا[1] في ناحية الغرفة، وإذا أَفِيقٌ[2] مُعَلَّقٌ، قال: فابتَدَرَتْ عيناي، قال: «ما يُبكيك يا ابن الخطاب»؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي! وهٰذا الحصير قد أثر في جنبك، وهٰذه خزانتك لا أرىٰ فيها إلا ما أرىٰ، وذاك قيصر، وكسرىٰ في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهٰذه خزانتك! فقال: «يا ابن الخطاب، ألا ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»[3].

٢. زهد سعيد بن عامر:

استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحمص سعيد بن عامر، فلما قدم عمر حمص قال: يا أهل حمص، كيف وجدتم عامِلكم؟ فشكَوه إليه، قال: فجمع عمر بينهم وبينه، وقال: اللهم لا تُفَيِّل رأيي فيه اليوم، ما تشتكون منه؟ قالوا: لا يخرج حتىٰ يتعالى النهار، قال: والله إن كنتُ لأكره ذِكْره، إنه ليس لأهلي خادم، فأعجن عجينهم، ثم أجلس حتىٰ يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم. فقال: ما تشتكون منه؟ قالوا: لا يُجيب أحدًا بليل، قال: ما يقولون؟ قال: إن كنت لَأكره ذِكْره؛ إني جعلتُ النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل. قال: وما تشكون منه؟ قالوا: إن له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه، قال: ما يقولون؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا ثياب أبدلها، فأجلس حتىٰ تجفّ ثم أدلكها ثم أخرج إليهم من آخر النهار. وذكروا أمرًا رابعًا. فقال عمر: الحمد لله الذي لم يُفَيِّل فراستي.

---

(١) **القَرَظ**: ورق السَّلَم يُدبغ به الجلد. تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ٧٠).

(٢) **أَفيق**: هو الجلد الذي لم تتم دباغته. الغريبين في القرآن والحديث للهروي (١/ ٨٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٥٢) برقم: (٥٨٤٣)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٨) برقم: (١٤٧٩).

فبعث إليه بألف دينار، وقال: استَعِن بها على حاجتك، فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك، فقال لها: فهل لك في خيرٍ من ذلك؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوجَ ما نكون إليها؟ قالت: نعم، فدعا رجلًا من أهله يثق به، فصررها صررًا، ثم قال: انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان، وإلى مسكين آل فلان، وإلى مبتلي آل فلان، فبقيت منها ذُهيبة، فقال: أنفقي هذه. ثم عاد إلى عمله، فقالت: ألا تشتري لنا خادمًا؟ ما فعل ذلك المال؟ قال: سيأتيكِ أحوج ما تكوني[1].

٣. زهد عمر بن عبد العزيز:

أ. عن مسلمة بن عبد الملك قال: «دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك: يا فاطمة، اغسلي قميص أمير المؤمنين، قالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله، فقلت: يا فاطمة، ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين؟ فإن الناس يعودونه، قالت: والله ما له قميص غيره»[2].

ب. ودخل على فاطمة فقال: «يا فاطمة، عندك درهم أشتري به عِنَبًا؟» قالت: لا، قال: «فعندك الفلوس أشتري به عنبًا؟» قالت: لا، وأقبلت عليه فقالت: أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري به عنبًا ولا على فلوس تشتري به عنبًا؟ فقال: «هذا أهون علي من معالجة الأغلال غدًا في جهنم»[3].

---

(١) ينظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٢) المعرفة والتاريخ لأبي يوسف الفسوي (١/ ٦٠٠).

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٧٣).

المقترحات العملية والتدريبات

١. اضبط مقدار ما تحتاجه من مطعم وملبس، ولا تتوسع في المباحات؛ فإن من آثار الزهد: التقلل من الدنيا، وعدم الإسراف في المباح.

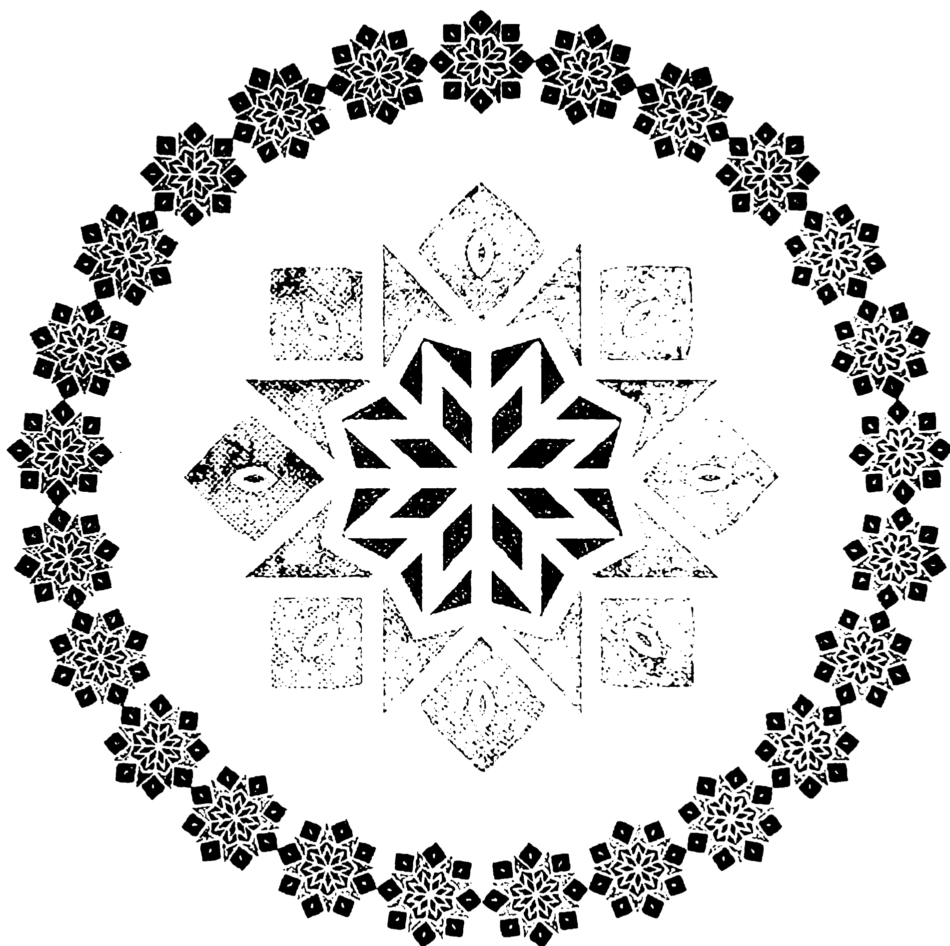
٢. حاول أن تمنع نفسك من بعض ما تشتهيه، فإن النفس إذا أُعطيت كل ما تريد صعب فطامها؛ عن جابر بن عبد الله قال: «رأىٰ عمر بن الخطاب لحمًا معلَّقًا في يدي، فقال: ما هٰذا يا جابر؟ فقلت: اشتهيت لحمًا فاشتريتُه، فقال: أوَكلمَّا اشتَّهيت اشتريت يا جابر؟! أما تخاف هٰذه الآية: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]»[1].

٣. اقرأ كتاب (الزهد وصفة الزاهدين) لابن الأعرابي، وانتقِ منه بعض القصص، وكرِّر قراءتها كل فترة.



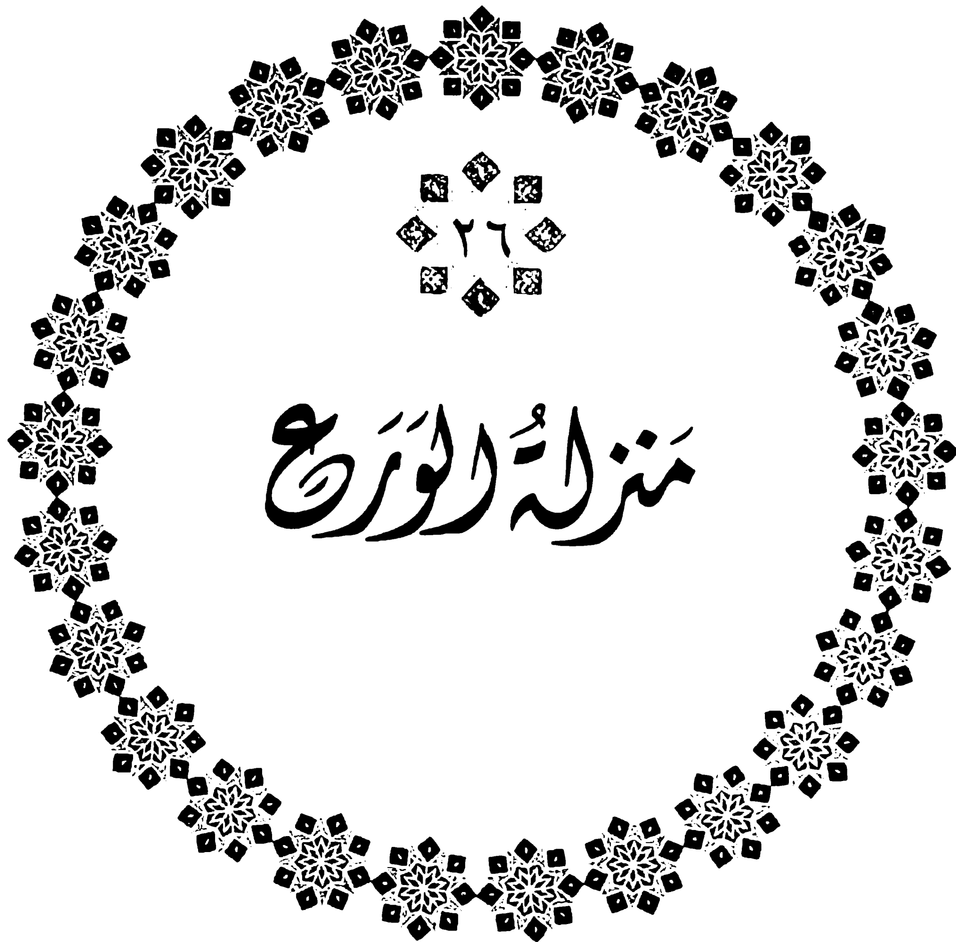
(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٤/ ١١٠).







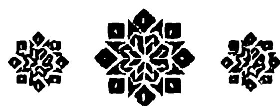


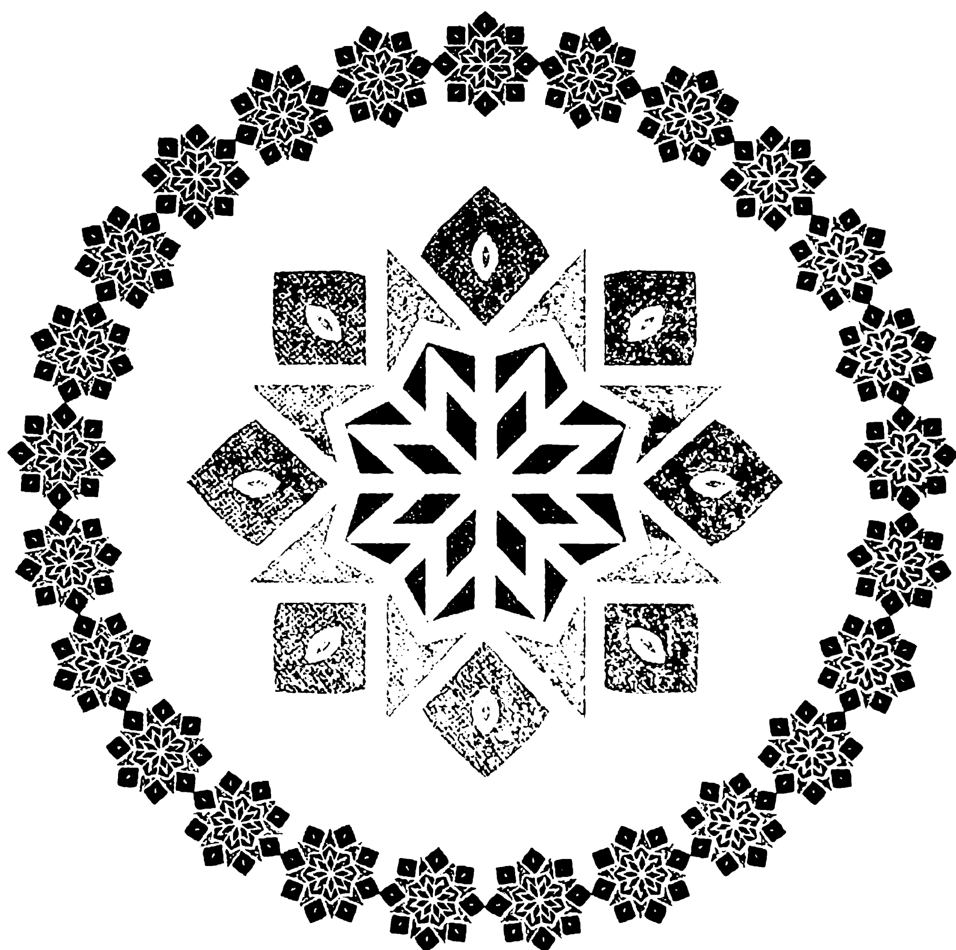


٢٦

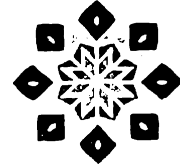
منزلة الورع



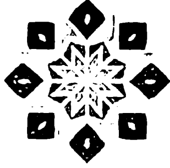








منزلة الورع



بين يدي الورع

إن الورع يُنبئ عن شفافية صادقة من العبد، فهو يرى المنكرات وإن دقَّتْ كأنها من الكبائر الموبقات، عن أنس ﷺ قال: «إنكم لتعمَلون أعمالًا هي أدَقُّ في أعينكم من الشعر، إن كنا لَنَعُدُّها على عهد النبي ﷺ الموبقات»[1].

وأصل الورع قوله ﷺ: «إن الحلال بيِّنٌ وإنّ الحرام بيِّن، وبينهما مُشْتَبِهات لا يعلمهنّ كثيرٌ من الناس، فمن اتَّقى الشُّبُهات استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام؛ كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل ملِكٍ حِمى، ألا وإن حمى الله محارمه»[2].

ومعنى: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»: أي: من لم يتق الله تعالى وتجرَّأ على الشبهات، أَفضَت به إلى المحرمات بطريق اعتياد الجرأة والتساهل في أمرها، فيحمله ذلك على الجرأة على الحرام المحض؛ فالصغيرة تَجُرُّ إلى الكبيرة، والكبيرة تَجُرُّ إلى الكفر.

وقد وصف السلف الورع بأمور ثلاثة: ترك جميع ما حاك في الصدر،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٦٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

والوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام، وترك المباح الذي ليس به بأس حتىٰ لا يكون ذريعة إلى المكروه أو المحرم، أو يؤدي الانشغال بالمباح إلىٰ ترك طاعة[1].

والورع منزلة بعد التقوىٰ، فمن لم يتحقق بمنزلة التقوىٰ لا يصح منه الورع، قال ابن رجب: «التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها، وتشابهت أعماله في التقوىٰ والورع، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه، فإنه لا يحتمل له ذٰلك، بل ينكر عليه، كما قال ابن عمر لمن سأله عن المحْرِم يقتل الذباب، فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب، وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ! وقال النبي ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا»[2].

وسأل رجل بشر بن الحارث عن رجل له زوجة، وأمه تأمره بطلاقها، فقال: «إن كان بَرَّ أُمَّه في كل شيء، ولم يبق من بِرِّها إلا طلاق زوجته فليفعل، وإن كان يبرها بطلاق زوجته، ثم يقوم بعد ذٰلك إلىٰ أمه فيضربها، فلا يفعل»[3].

ولذٰلك كان الإمام أحمد ينكر ادعاء الورع من غير أهله ممن يتسامح في المكروهات ويُقدِم على الشبهات؛ فقد استأذنه رجل أن يكتب من محبرته، فقال له: «اكتب، فهٰذا ورع مظلم»[4].

(١) ينظر: المكاسب والورع والشبهة للحارث المحاسبي (ص: ٥٩).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٧) برقم: (٣٧٥٣).
(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٨٣).
(٤) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٨٤).

حقيقة الورع

الورع في اللغة:

هو الكف عن القبيح وشدة التحرُّج، والورع: الجبان، سُمي ورعًا لإحجامه ونكوصه، والورع في الأصل: الكف عن المحارم، ثم اسْتعِير للكفِّ عن المباح والحلالِ(١).

الورع في الاصطلاح:

تقاربت تعاريف الفقهاء للورع مع اختلاف في التعبير عنه بالألفاظ، ومن تلك التعاريف:

تعريف يونس بن عبيد، فقد عرفه بأنه: «الخروجُ من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة»(٢).

وعرفه الجرجاني بأنه: «اجتناب الشبهات خوفًا من الوقوع في المحرمات»(٣).

وعرفه القرافي بأنه: «ترك ما لا بأس به حذرًا مما به البأس»(٤).

وعرفه الحارث المحاسبي بأنه: «المجانبة لكل مَا كره الله عز وَجل من مقَال أَو فعل بقلب أَو جارحة، والحذر من تَضْييع مَا فرض الله عز وَجل عَلَيْهِ فِي قلب أَو جارحة»(٥).

---

(١) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٢/ ٢٤٢)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٣/ ١١٢)؛ لسان العرب لابن منظور (٨/ ٣٨٨).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٣١٦)؛ الرسالة القشيرية (١/ ٢٣٥).

(٣) التعريفات للجرجاني (ص: ٢٥٢).

(٤) الفروق للقرافي (٤/ ٢١٠).

(٥) المكاسب والورع والشبهة للحارث المحاسبي (ص: ٥١).

وتعريف المحاسبي أعم وأكثر دقة؛ لأنه لم يقصر الورع على اجتناب المحرمات، بل أدخل فيه أداء الواجبات، وقد أشار ابن تيمية إلىٰ ضرورة الانتباه إلىٰ ذٰلك؛ لأن كثيرًا من الناس لا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب، فقد ترىٰ أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة وعن الدرهم فيه شبهة، ومع هٰذا يترك أمورًا واجبة عليه من صلة رحم وحق جار ومسكين(١).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

التقوىٰ:

التقوىٰ والورع متقاربان في الدرجة، وكثيرًا ما يقرن العلماء بينهما، إلا أن الورع أعلىٰ رتبة من التقوىٰ؛ لأن الورع يتميز بحساسية عالية تبعده عن أدنىٰ شبهة، وعن كل ما له تأثير علىٰ شفافية نفسه وطهارة قلبه. قال ابن الجوزي: «الأول: التقوىٰ، وهي أداء الفرائض واجتناب المحارم، الثاني: الورع، وهو تحرير مقام التُّقىٰ بترك المحرمات والمشتبهات التي تدق وتخفىٰ»(٢). وقال: «ويقارب التقوى الورع، إلا أن الفرق بينهما أن التقوىٰ أَخْذ عِدة والورع دفْع شبهة، والتقوىٰ متحقق السبب والورع مظنون السبب، والورع تَجافٍ بالنفس عن الانبساط فيما لا يؤمن عاقبته»(٣).

ويؤيد ذٰلك ما ورد عن الحسن بن علي عندما سئل: ما التقوىٰ؟ قال: «وقْفُه عن الحرام، قيل: ما الورع؟ قال: وقفه عن الشبهة»(٤).

إلا أن الغزالي جعل الورع أدنىٰ مرتبة من التقوىٰ، حيث عرف الورع بأنه

(١) ينظر: مجموع الفتاوي لابن تيمية (٢٠/ ١٣٩).

(٢) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي (ص: ٢١٩).

(٤) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٣٣٧).

الكفُّ عن كل محظور، والتقوىٰ هي الكف عن المحظور والشبهة جميعًا[1].

الزهد:

الزُّهد أبلغُ من الوَرَع، وأشرفُ منه، قال أبو سليمان الداراني: «الورع أول الزهد»[2]. والوَرَع داخل في ضمن الزهد، وإن كانا يشتركان في ترك المحرمات عمومًا والمكروهات والمشتبهات، وفعل الطاعات في الواجبات والمستحبات وأشياء أخرىٰ.

قال ابن تيمية ﷺ: «الزُّهدُ: تركُ ما لا ينفع في الآخرة، والورعُ: تركُ ما يُخاف ضرره في الآخرة»[3].

فالزاهد لا تراه إلا محاسبًا لنفسه، شحيحًا بوقته؛ لا يُضيع عُمُرَه في شيء لا يقرِّبه إلى الله عز وجل ولا ينفعه في الآخرة؛ وإنّما ينظر إلىٰ ما يقوله ويفعله؛ فإن كان ممّا ينفعه عند الله عز وجل علّق همَّته به، وإن كان لا يرجو نفعَه في الآخرة زَهِد فيه وتركه ولو لم يكن منه ضررٌ في الآخرة، ولا يعني هٰذا أن الزاهد لا يتمتَّع بالمباحات، بل إنه يتمتّع بها من غير توسُّع، وينوي بها التقوِّي علىٰ طاعة الله عز وجل، وبهٰذا تنفعه في الآخرة.

أما الوَرَع فصاحبُه يتجنَّب ما يخاف ضرره في الآخرة؛ فإذا خلا من الضرر فقد يأخذ به ولو لم ينتفع به في الآخرة، أي أنَّه يتجنَّب الحرام وشبهه ويفعل الواجب وشبهه، وما سوىٰ ذٰلك فهو متوسِّع فيه تركًا أو فعلاً من دون استحضار نية التعبد بذٰلك، وهٰذا مقامٌ رفيع لٰكنه دون مقام الزهد، وبذٰلك نستطيع القول: إنَّ كُلَّ زاهدٍ وَرِع، وليس كُلُّ وَرِع زاهد.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٥٦).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٥٩).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢١٩)؛ وينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ٥١٦).

فضل الورع وثمراته

١. حث عليه النبي ﷺ:

قال ﷺ: «دع ما يَرِيْبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيْبُك»[١]. والمعنىٰ: إذا شككت في شيء فدعه. وترْكُ ما يُشَكُّ فيه أصلٌ عظيم في الورع[٢]. وعن أنس ﷺ قال: مَرَّ النبي ﷺ بتمرة في الطريق، قال: «لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لَأَكَلتها»[٣].

٢. في الورع سلامة الدين والعرض:

جاء في الحديث: «إن الحلال بيِّنٌ وإنّ الحرام بيِّن، وبينهما مُشْتَبِهات لا يعلمهنّ كثيرٌ من الناس، فمن اتَّقى الشُّبُهات استبرأ لدينه وعِرضه»[٤]. أي: حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي، وصان عرضه عن كلام الناس فيه[٥].

٣. ينال الإنسان بالورع ما لا يناله بكثرة الصيام والصلاة:

كان عبد الله بن مطرف يقول: «إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صومًا وصلاة وصدقة، وإن الآخر أفضل منه ثوابًا، قيل له: كيف يكون ذٰلك؟ قال: هو أشدُّهما ورعًا»[٦]. وقال سفيان الثوري ﷺ: «انظر درهمك من أين هو وصَلِّ في الصف الأخير»[٧]. وقال بعض السلف: «لَتَرْكُ دانِقٍ ممَّا يكره الله أحبّ إليَّ من خمس مائة حجة»[٨]. عن ضمرة بن حبيب قال: «لا يعجبكم كثرة صلاة امرئ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٦) برقم: (٢٥١٨)؛ وقال: حديث صحيح؛ والنسائي في سننه (١/ ١٠٨٧) برقم: (٥٧٢٧)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ١٣) برقم: (٢١٨٠).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٥) برقم: (٢٤٣١)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٨) برقم: (١٠٧١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

(٥) ينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (١١/ ٢٨).

(٦) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ٤٧١).

(٧) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٦٨).

(٨) الورع لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠).

ولا صيامه، ولكن انظروا إلى ورعه، فإن كان ورِعًا مع ما رزقه الله من العبادة، فهو عبد الله حقًّا»(١).

٤. الورع سبب لاستجابة الدعاء:

من علامات الورع أن يتحرى العبد الحلال في مطعمه ومشربه، وهذا شرط لإجابة الدعاء، حيث ورد في الحديث أن من علامات منع إجابة الدعاء هو أكل الحرام؛ قال ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمُدّ يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّيَ بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»(٢).

شروط الورع

١. العلم بالأحكام الشرعية:

فمن ليس لديه علم بما يجب عليه وما يحرم فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع؛ مع أنه ورد في الحديث: «صلوا خلف كل برٍّ وفاجر»(٣).

---

(١) المصدر السابق (ص: ٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٨٥) برقم: (١٠١٥).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه (٤/ ١٩) برقم: (٦٩٣٣)؛ وأبو داود في سننه (١/ ٢٣١) برقم: (٥٩٤)، بلفظ: «الصلاة المكتوبة واجبة خلف كل مسلم برًّا كان أو فاجرًا، وإن عمل الكبائر».

٢. الإتيان بالفرائض واجتناب المحرمات:

فمن كان مقصِّرًا في الفرائض أو يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشُّبَه فعمله هذا ليس من الورع في شيء، وذلك كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها، وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة، فيتورع عنها ويدع ذمته أو ذمة أبيه مرتهنة.

٣. أن يكون العمل أو الترك مبنيًّا على الاتباع:

بعض الناس تنفر طباعهم عن أشياء مما فعلها النبي ﷺ، ويظنون أن ذلك من الورع، وقد ذم ﷺ مثل هذا؛ عن عائشة قالت: صنع رسول الله ﷺ أمرًا فترَخَّصَ فيه، فبلغ ذلك ناسًا من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزَّهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيبًا، فقال: «ما بالُ رجالٍ بلغهم عني أمرٌ ترَخَّصتُ فيه، فكرِهوهُ وتنزَّهوا عنه، فوالله لَأَنا أعلمُهم بالله وأشدُّهم له خشية»[١].

وكما ورد في قصة الرهط الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لَأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٢].

٤. أن يكون دافعه الإخلاص في ورعه:

قد يكون لإنسان ما مقام ومكانة في المجتمع، فيضطر إلى التورع في بعض

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٦) برقم: (٦١٠١)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٩٠) برقم: (٢٣٥٦).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢) برقم: (٥٠٦٣)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٢٩) برقم: (١٤٠١).

وترك بعض الذنوب والشبهات حفاظًا على مكانته وسمعته، فيكون دافعه مُراءاة الناس، أو حظّ النفس أو الهوىٰ، وهٰذا ليس من الورع في شيء؛ إذ الورع مثل سائر الأعمال الصالحة التي يتقرب فيها الإنسان إلى الله عز وجل لابد فيها من الإخلاص، قال ابن تيمية: «واعلم أن الورع لا ينفع صاحبه فيكون له ثوابٌ إلا بفعل المأمور به من الإخلاص»(١).

مراتب الورع

الورع له أول وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، وكلما كان الإنسان أشد ورعًا كان أسرع جوازًا على الصراط، وأخف ظهرًا، فدرجات الورع أربعة(٢):

١. ورع العدول:

وهو الذي يوجِب الفسق باقتحامه، وتسقط العدالة به، ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه، وهو الورع عن كل ما تُحَرِّمه فتاوى الفقهاء.

٢. ورع الصالحين:

وهو الامتناع عما يتطَرَّق إليه احتمال التحريم، ولٰكن المفتي يرخص في التناول بناء على الظاهر، فهو من مواقع الشبهة على الجملة، ويدل عليه قوله ﷺ: «دع ما يَرِيْبُك إلىٰ ما لا يَرِيْبُك»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢٠/ ١٤٥).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٦) برقم: (٢٥١٨)؛ وقال: حديث صحيح؛ والنسائي في سننه (١/ ١٠٨٧) برقم: (٥٧٢٧)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ١٣) برقم: (٢١٨٠).

٣. ورع المتقين:

وهو ما لا تُحَرِّمه الفتوىٰ، ولا شبهة في حِلِّه، ولكن يخاف منه أن يؤدي إلىٰ مُحرَّم، وهو ترك ما لا بأس به مخافةً مما به بأس؛ قال ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتىٰ يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»(١).

٤. ورع الصِّدِّيقين:

وهو ما لا بأس به أصلًا، ولا يُخاف منه أن يؤدي إلىٰ ما به بأس، ولكنه يُتناول لغير الله وعلىٰ غير نية التقَوِّي به علىٰ عبادة الله، أو تتطرق إلىٰ أسبابه كراهية أو معصية.

طرق اكتساب الورع

١. عدم الاستكثار من المباح:

فالمباح عقبة بين العبد وبين المكروه، ويوشك من استكثر من المباح أن يقع في المكروه، كما أن المكروه عقبة بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المكروه يوشك أن يقع في الحرام(٢).

٢. حفظ اللسان والتورع عن فضول الكلام:

كان السلف يتورعون عن فضول الكلام، ويعلمون أن إطلاق العنان للسان يقود إلىٰ ما لا تحمد عقباه، قال عطاء بن أبي رباح: «إن من كان قبلكم كانوا

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٢) برقم: (٢٦٥٥)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٩) برقم: (٧٩٩٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ والبيهقي في سننه (٥/ ٣٣٥) برقم: (١٠٩٢٩).

(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ١٢٧).

يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه، أو تأمر بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]،﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؟ أما يستحي أحدُكم أن لو نُشِرت عليه صحيفته التي أملى صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه؟!»[(١)].

قال عون بن عبد الله: «قال بعض الحكماء: دع أن تحلف صادقًا وهو لك حلال مخافة أن تُعَوِّد لسانك اليمين فتحلف كاذبًا»[(٢)].

٣. تنمية خوف الله عز وجل في القلب:

إن العبد إذا خاف من ربه حاسب نفسه حسابًا دقيقًا في كل ما يأتي ويذر، والمحاسبة تؤدي به إلى الورع وتجنب ما في شبهة خوفًا من الوقوع في الحرام، قال يونس بن عبيد: «الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفه»[(٣)].

علامات التحقق بالورع

١. الابتعاد عن مواطن الشبهة:

عن محمد بن المبارك الصوري قال: قلت لراهب: ما علامة الورع؟ قال: «الهرب من مواطن الشبهة»[(٤)].

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا (ص: ٨١).
(٢) المكاسب والورع والشبهة للحارث المحاسبي (ص: ٥٣).
(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٣٥).
(٤) الورع لابن أبي الدنيا (ص: ٦٠).

ومن وقع في الشبهات يصير مظلم القلب لفقدان نور الورع، فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوع فيه؛ ولذلك ورد في الحديث: «دع ما يَرِيْبُك إلىٰ ما لا يَرِيْبُك»[1]، يعني: دع ما تشك فيه ولا تتيقن إباحته، وخذ ما لا شك فيه ولا الْتباس؛ فإن شك في شيء فالأولىٰ تركه، حتىٰ يعتاد العبد على الورع في قليل الشيء وكثيره.

يقول أبو عبد الرحمـٰن العمري: «إذا كان العبد ورعًا ترك ما يريبه إلىٰ ما لا يريبه»[2].

٢. الإقلال من الكلام:

من علامات الورع: الإقلال من الكلام، والاقتصار علىٰ ما يعني العبد ويفيده في دينه ودنياه، والإكثار في الكلام يوقع العبد في الإكثار من الغلط، والإكثار منه يؤدي إلى الدخول في المحرم ويوقع العبد في معاصي كثيرة؛ منها الكذب، والغيبة والنميمة، وشهادة الزور، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والقول على الله بغير علم، وهـٰذه كلها من كبائر وعظائم الذنوب.

قال يونس بن عبيد: «إنك تكاد تعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم»[3].

وقال الحسن بن حي: «فتَّشت عن الورع فلم أجده في شيء أقل منه في اللسان»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٦) برقم: (٢٥١٨)؛ وقال: حديث صحيح؛ والنسائي في سننه (١/ ١٠٨٧) برقم: (٥٧٢٧)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ١٣) برقم: (٢١٨٠).

(٢) الورع لابن أبي الدنيا (ص: ٥٤).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٠).

(٤) الورع لابن أبي الدنيا (ص: ٧٧).

قـد يخـزن الـورعُ التقـيُّ لسـانَه — حَـذَر الـكلامِ وإنّــه لَـمُفَـوَّه[1]
والمـرء إن كان عاقـلًا ورِعًـا — أخْرَسَــه عــن عيوبهــم ورعُــه
كمـا المريـض السـقيم يشـغله — عـن وجـع الناس كلِّهـم وجعُـه[2]

٣. حفظ البصر:

إذا كان حفظ اللسان والإقلال من الكلام من الورع، فإن حفظ البصر أدَلُّ على الورع؛ عن حبان بن موسىٰ قال: سمعت عبد الله يقول: «حفظ البصر أشدُّ من حفظ اللسان»[3]. وعن داود الطائي قال: «كانوا يكرهون فضول النظر»[4]. وفي الحديث: «لا تُتْبِع النظرةَ النظرة؛ فإن لك الأولىٰ، وليست لك الآخرة»[5].

٤. حفظ السمع:

من علامات الورع أن يحفظ الأذن من سماع آلات اللهو؛ عن نافع أن ابن عمر سمع صوت زمّارة راعٍ، فوضع أصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: «يا نافع أتسمع؟»، فأقول: نعم، فيمضي، حتىٰ قلت: لا، فوضع يديه، وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: «رأيت رسول الله ﷺ وسمع صوت زمّارة راعٍ فصنع مثل هٰذا»[6].

ومن السماع المحرم التنصّت لحديث قوم وهم كارهون أن يطلع عليه أحد،

(١) الصمت لابن أبي الدنيا (ص: ٢٢٢).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا (ص: ١٢٣).
(٣) المصدر السابق (ص: ٦٢).
(٤) المصدر السابق.
(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٣٨١) برقم: (٥٥٧٠)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ١٩٤) برقم: (٢٨٠٤)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم؛ وأبو داود في سننه (٢/ ٢١٢) برقم: (٢١٤٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٤٨١) برقم: (٣٠١٨).
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٨/ ١٣٢) برقم: (٤٥٣٥).

في الحديث: «ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يفرُّون منه، صب في أذنه الآنك يوم القيامة»[1].

الآفات التي تؤثر في الورع

١. التوسع في المباحات:

إن الذي يتوسع في المباحات ويُلَبِّي رغبات نفسه في كل ما تطلب يعتاد التساهل ويتمرن عليه، والنفس إن اعتادت الترف يصعب فطامها عن الطيبات عند نزول البلاء والفاقة، ولذلك ورد عن عمر قوله: «اخشوشنوا وتمَعْدَدوا»؛ أي: دعوا عنكم التَّنَعُّم وزِيّ العجم، وعليكم بِمَعْدٍ وما كانوا عليه في زَيِّهم ومعاشهم، وكانوا أصحاب غلظ وخشونة[2]. والتوسع في المباحات يجر إلى الشبهات، ومن وقع في الشبهات يوشك أن يقع في الحرام، كما مر في الحديث. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام»[3].

٢. حب الكلام:

إن الشهوة إلى الكلام من أشد الآفات خطرًا على العبد، ولا يدفعها إلا الخوف من الله والتورع عن التكلم فيما لا ينفع ولا يعني، ولذلك استدل العلماء على الورع بحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[4]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٢) برقم: (٧٠٤٢).

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٦٠٧)؛ والمشهور على الألسنة: «اخشوشنوا فإن النِّعَم لا تدوم». ينظر: كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٦٨).

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٣٣).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٣٢٨) برقم: (٣٣٥٢)؛ وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٦٦) برقم: (٢٢٩)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٤٨) برقم: (٢٣١٧)، وقال: حديث غريب.

وقال إسحاق بن خلف: «الورع في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفضة»[1].

٣. الكبر والترفع على الناس:

إن الإنسان الذي يتورع عن الشبهات قد يرىٰ أنه وصل إلىٰ مرحلة متقدمة في القرب من الله، وربما دفعه هٰذا الشعور إلى النظر باستحقار لمن لا يراعي الشبهات فضلًا عن الحرام.

نماذج من ورع الصالحين

١. ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان لأبي بكر رضي الله عنه غلام يأخُذ منه الخراج، فجاء يومًا بشيءٍ فأكل منه، ثمَّ ضحك غلامه، فقال: ما لَكَ؟ فقال: أتدري من أين هٰذا؟ قال: لا، قال: إني كنتُ تَكَهَّنتُ لإنسانٍ في الجاهلية، فلمَّا كان اليوم جاءني بما جعل لي، فوضع أبو بكرٍ يده في فيهِ واستقاء ما كان أكل[2].

٢. ورع عمر بن عبد العزيز:

أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أتي بغنائم مسك، فأخذ بأنفه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تأخذ بأنفك لهٰذا؟ قال: «إنما يُنْتَفَع مِن هٰذا بِرِيحه؛ فأكره أن أجِدَ ريحه دون المسلمين»[3].

٣. ورع أبي حنيفة:

أرسل أبو حنيفة لشريكه متاعًا فيه ثوبٌ مَعيب يبيعه ويُبَيِّن ما فيه من العيب، فباعه ولم يُبَيِّن العيب نسيانًا، وجَهِل المشتري، فلما علم أبو حنيفة تصدَّق بثمن

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٨٤٢).

(٣) الورع لابن أبي الدنيا (ص: ٧٤).

المتاع كله، وكان ثلاثين ألف درهم، وفاصل شريكه -أي: فارقه-»[1].

٤ . ورع عبد الله بن المبارك:

قال ابن المبارك: «استعرتُ قلمًا بأرض الشَّام، فلمَّا قدمتُ مرو، نظرت فإذا هو في أقلامي، فرجعت إلىٰ أرض الشَّام حتَّىٰ رددتُه علىٰ صاحبه»[2].

٥ . ورع أحمد بن حنبل:

رهن أحمد بن حنبل ﷺ سطلًا له عند بقَّال بمكة، فلما أراد فِكاكَه أخرج البقّال إليه سطلين، وقال: خذ أيهما لك، فقال أحمد: أَشْكَلَ عليّ سطلي، فهو لك والدراهم لك، فقال البقّال: سطلُك هٰذا، وأنا أردت أن أُجرِّبك، فقال: لا آخذه، ومضىٰ وترك السطل عنده[3].

٦ . ورع أخت بشر الحافي:

جاءت أخت بشر الحافي إلىٰ أحمد بن حنبل، وقالت: إنّا نَغْزِل علىٰ سطوحنا فتَمُرُّ بنا مشاعل الظاهرية ويقع الشعاع علينا، أَفَيَجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال أحمد: مَن أنتِ عافاكِ الله تعالىٰ؟ فقالت: أخت بشر الحافي، فبكىٰ أحمد وقال: مِن بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها[4].

٧ . ورع أبو صالح حمدون:

كان أبو صالح عند صديقٍ له وهو في النَّزْع، فمات الرجل، فنفث أبو صالح في السراج، فقيل له في ذٰلك، فقال: إلى الآن كان الدهن له في المسرجة، ومن الآن صار للورثة، اطلبوا دُهْنًا غيره[5].

---

(١) الخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان لابن حجر (ص: ١٠٥).

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (١٣/ ١٤).

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٣٧).

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٢٣٥).

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٣٦).

فروع متعلقة بالورع

١. الخروج من خلاف العلماء مِن الورع:

ومن الورع الخروج عن خلاف العلماء بحسب الإمكان، فإن اختلف العلماء في فعل هو مباح أم حرام؟ فالورع الترك، أو هل هو مباح أو واجب؟ فالورع الفعل مع اعتقاد الوجوب، أو هل هو مندوب أو حرام؟ فالورع الترك، أو مكروه أو واجب؟ فالورع الفعل، أم مشروع أو غير مشروع؟ فالورع الفعل؛ لأن المثبت للشرعية مقدم[1].

٢. أمور يقع الغلط فيها من جهة الورع:

يبين ابن تيمية أنه قد يقع الغلط في الورع من ثلاث جهات:

الأولىٰ: الورع ليس مقتصرًا علىٰ ترك الحرام:

يعتقد كثير من الناس أن الورع لا يكون إلا في ترك الحرام، لا في أداء الواجب، فترىٰ أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة، وعن الدرهم فيه شبهة، ومع هٰذا يترك أمورًا واجبة عليه من صلة الرحم، وحق جار ومسكين وابن سبيل، ونهي عن منكر وأمر بمعروف، قال: وهٰذا الورع قد يوقع صاحبه في البدع الكبار.

الثانية: الورع في غير محلِّه:

كثير من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادةٍ ونحوها، فيكون ذٰلك مما يقوي تحريمها في نظره واشتباهها عنده، ويكون بعضهم في أوهام وظنون كاذبة، مبناها على الورع الفاسد؛ كحال أهل الوسوسة في النجاسات، وورع قوم يعدون غالب أموال الناس أو كلها محرمة أو مشتبهة، ولهٰذا يحتاج المتدين المتورع إلىٰ علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين، وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه.

---

(١) ينظر: الفروق للقرافي (١٣/ ٢٤٦).

الثالثة: تعارض المصالح والمفاسد في أمرٍ ما:

فإن الشيء قد يكون جهة فساده يقتضي تركه، فيلْحظه المتورع، ولا يلحظ ما يعارضه من الصلاح الراجح، وبالعكس، وقد تبين أن من جعل الورع الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم، وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة، فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد يعيب أقوامًا هم إلى النجاة والسعادة أقرب[1].

المقترحات العملية والتدريبات

١. اقرأ كتاب (الورع) لابن أبي الدنيا، ولَخِّصه.

٢. إذا جلست مجلسًا فلا تتكلم إلا إن طُلِب منك الكلام، وتكلم بقدر السؤال والحاجة، فإن حفظ اللسان عن الخوض فيما لا يعني من أصل الورع كما مر.

٣. اقرأ باب الورع من كتاب الرسالة القشيرية؛ فإن فيه نماذج من ورع السابقين تُحَفِّزك على الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم.

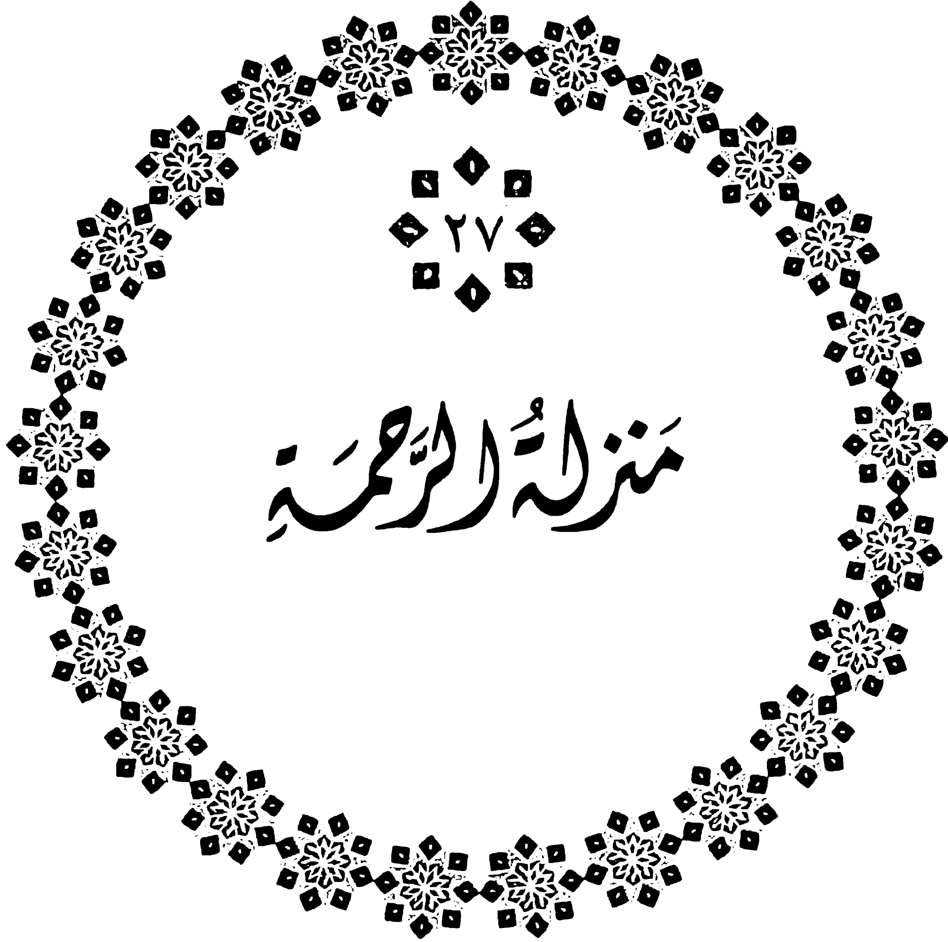
٤. اجلس كل يوم مع نفسك نصف ساعة قبل أن تنام، وحاول أن تتذكر ما مر معك خلال اليوم من أحداث، وتذكّر هل مر معك موقف كان الأجدر بك أن تتركه ولكنك قمت به، ثم عاهد نفسك على أن لا تكرر مثل هذا التصرف. ولذلك قال سفيان: «عليك بالورع يخفف الله حسابك»[2].



(١) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠/ ١٤٢).

(٢) الورع لابن أبي الدنيا (ص: ١١٢).



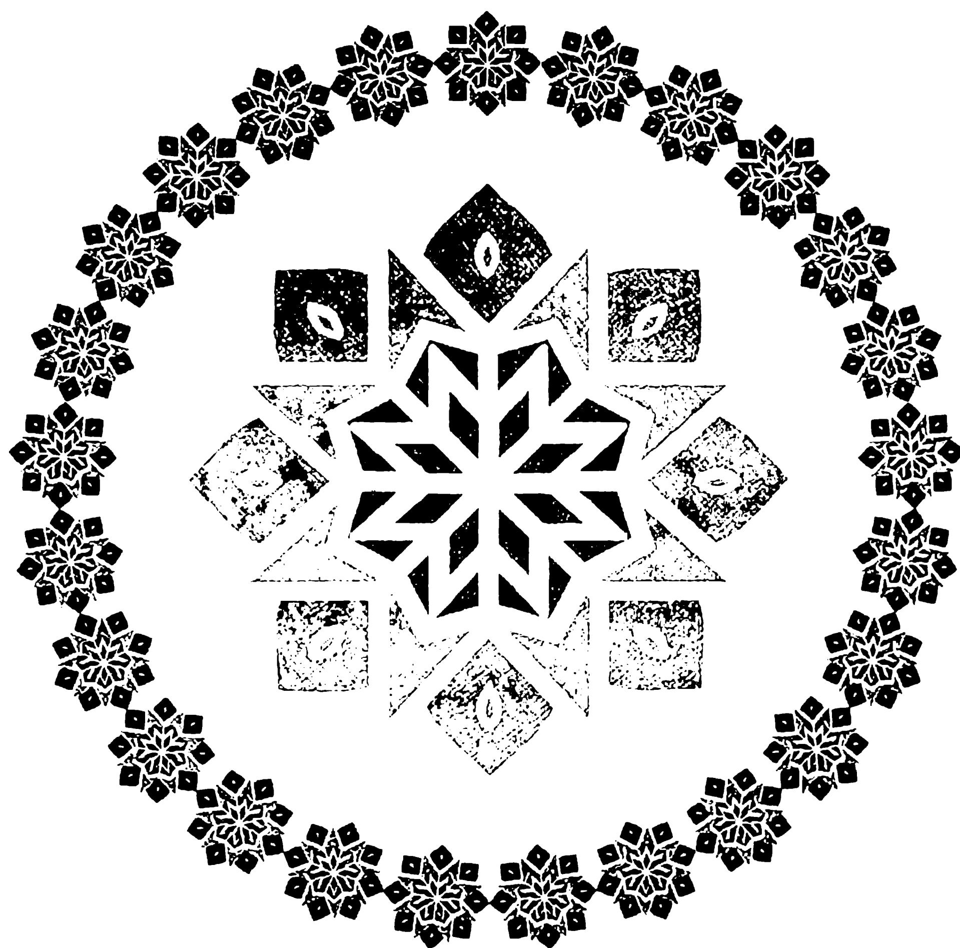


٢٧

مَنزلةُ الرَّحمَةِ











منزلة الرحمة



بين يدي الرحمة

الرحمة هي رِقَّةٌ في القلب، تبعث على سَوْقِ الخير إلى الغير، ولا يرحمُ الله مَن لا يرحم الناسَ، ولا تُنزَع الرحمةُ إلا مِن شقيٍّ، والرحمة أشهر وصفٍ وُصِف به ربُّنا جل جلاله، وهو أكثر صفة ورد ذكرها في القرآن الكريم، وكان سيد الخلق وحبيب الحق سبحانه سيد الأولين والآخرين نبينا محمد ﷺ رحمة مهداة، مشفقًا حتى على الكافرين والحيوانات، وكان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.

وللرحمة أهمية بالغة في حياة المجتمع: فهي قيمة أخلاقية، ومبدأ من المبادئ الكلية التي جاءتْ بها شريعةُ الله تعالى، ولها أثرُها البالغ في الحياة الاجتماعية ودورُها الكبير في إبراز روح التكافل والترابط بين الناس الذي يشبه البنيان في تماسكه وتلاحمه، وقد قال النبي ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1]. وفيه تنبيه إلى أن التراحم بين المؤمنين من أهمِّ أسباب الوحدة ووصول الأمة إلى تحقيق مفهوم الجسد الواحد مع التوادِّ والتعاطف[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠) برقم: (٦٠١١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٠) برقم: (٢٥٨٦).

(٢) مقتبس من الخطبة لعبد الله البرح بعنوان (خلق الرحمة).

وما أحوجنا إلىٰ إشاعة آداب الرحمة والتراحم في المجتمع، فالقلوب العامرة بالرحمة والشفقة تثمر سكينةً وطمأنينةً، وتبني مجتمعًا متعاطفًا متكافلًا، تسوده المحبةُ والمودةُ والأمانُ، كما أن القلوبَ القاسية الغليظة تُمزِّق المجتمعَ وتُزلزِل أركانَه، وتنشر الظلمَ والشقاءَ والاعتداءَ علىٰ حقوق الناس، بل إن أكثر مشكلات المجتمع بمختلف أنواعها ناجمة عن ضعف الرحمة في القلوب بين الناس.

حقيقة الرحمة

المعنى اللغوي:

الرحمة: الرِّقَّة والعطف والرأفة، يقال: رَحِمه يرحَمُه وترحَّم عليه: إذا رقَّ له وتعطَّف عليه، والرُّحْم والْمَرْحَمَة والرَّحمة بمعنىٰ واحد، وتراحم القومُ: رحِمَ بعضُهم بعضًا، والرَّحِمُ: علاقة القرابة، والرأفة: أشدُّ الرحمةِ[1].

المعنى الشرعي:

الرحمة: هي إرادة إيصال الخير إلى الناس، ورِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إليهم والشفقة عليهم[2].

وقال الكفوي: «الرحمة: هي حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ الانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»[3].

ولا يقصد بالرحمة هنا التغاضي عن الممارسات والسلوكيات غير الصائبة؛ بل يقصد بها التعامل الرحيم مع المخلوقات كافة وحتى الجماد، تظهر الرحمة

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٩٨)؛ الصحاح للجوهري (٥/ ١٩٢٩) و(٤/ ١٣٦٢).

(٢) ينظر: التعريفات للجرجاني (ص: ١١٠)؛ بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٣/ ٥٤).

(٣) الكليات للكفوي (ص: ٤٧١).

مع الجماد عندما نحمي مقتنياتنا من الإهمال ونحسن استعمالها، ومع النبات عندما نروي المزروعات والأشجار ولا نحرمها من الماء والهواء، ومع الطير عندما نسقي الطير في حرِّ الظهيرة، ونجعله يعيش في موطنه الطبيعي ونحرره من القفص، ومع الطبيعة عندما نحافظ علىٰ سلامة البيئة والحياة من التلوُّث، ومع النفس عندما نرحم أنفسنا من كل ما يضر بصحة البدن والعقل، وعندما نحسن الجوار ولا نقلق راحتهم، ومع الوالدين عندما نحسن إليهم ونرحمهما كما ربيانا صغارًا، ومع الأطفال برعايتهم وتربيتهم وتعليمهم وإخراجهم من ظلمة الجهل.

وأجمل صور الرحمة نراها في مهنة الطب والتمريض، المهنة التي يكون فيها المريض أحوج ما يكون إلىٰ من يشعر بآلامه، ويربت علىٰ كتفه بابتسامة رقيقة، ويقول له: معافىٰ بإذن الله، وعند المعلم عندما يقترب من التلميذ الخائف في أول يوم دراسي فيمسح علىٰ رأسه ويقول له: لا تخف، لست وحدك[1].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

١. الرأفة:

هي كلمة تدل علىٰ رقة ورحمة؛ يقال: رَأَفْتُ به أرأفُ رأْفًا ورأْفةً، بمعنىٰ: عطفتُ عليه، والرأفة في الاصطلاح: أشدُّ الرحمة وأبلغها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]. قال الكفوي: «والرأفة: مبالغة في رحمة مخصوصة، هي رفعُ المكروه وإزالة الضّرّ»[2].

---

(١) مقتبس من مقالة بعنوان: (كن رحيمًا) علىٰ موقع: عالم الثقافة.

(٢) الكليات للكفوي (ص: ٤٧١).



وقيل: الرحمة أكثر من الرأفة، والرأفة أقوىٰ منها في الكيفية؛ لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم، والرحمة: إيصال النعم مطلقًا، فالرحمة ربما تكون مؤلمة في بداية الأمر، لكن أمرها يؤول إلىٰ رحمة آجلة، بخلاف الرأفة فكلها نعمة ولذة، لذلك كانت الحدود والكفارات والعقوبات الدنيوية رحمة من الله عز وجل لعباده، إذ إن مآلها تكفير الذنوب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وإن كانت مؤلمة في الدنيا؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [النور: ٢]، فقال: رأفة، ولم يقل: رحمة؛ لأن إقامة الحد عليهم هو عين الرحمة بهم ليستحقوا مغفرة الله لهم ورحمته بهم في الآخرة، إلا أنه ليس فيها لذة الرأفة[١].

٢. الرقة:

في أصل معناها هي: صفةٌ تكون مخالِفةً للجفاء، والفرق بين الرقة والرحمة: أن الرقة والغلظة يكونان في القلب وغيره خلقة، والرحمة فعل الراحم، والناس يقولون: رقَّ له فرحمه، يجعلون الرقة سببَ الرحمة[٢].

فضل الرحمة وثمراتها

أولًا: فضل الرحمة

١. الرحمة أعظمُ وصفٍ ورد ذكره في القرآن الكريم:

الرحمة أكثر وصفٍ ورد ذكره في القرآن الكريم، فهو الوصف الأكبر والأعظم الذي ذكره الله تعالىٰ في كتابه، فقد ورد ذكر الرحمة بمادتها ومشتقاتها في نحو

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٧١)؛ الصحاح للجوهري (٤/ ١٣٦٢)؛ لسان العرب لابن منظور (٩/ ١١٢)؛ تاج العروس للزبيدي (٢٣/ ٣٢٢)؛ الرحمة في القرآن الكريم لأنور خطاب (١/ ٢٨٦).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٣٧٦)؛ الفروق اللغوية للعسكري (ص: ١٩٦)؛ الرحمة في القرآن الكريم لأنور خطاب (١/ ٢٨٨).

ثلاث مائة وثلاثين مرة[1].

وقد بدأ الله كتابه بالبسملة، وفيها ذكرٌ لصفة الرحمة ضمن وصف الله سبحانه بها مرتين، وهٰذا تأكيد منه عز وجل علىٰ أن أعظم وصفٍ وَصَف به ذاته العلية هو الرحمة.

ونسبة ذكر العذاب في القرآن الكريم في مقابل ذكر الرحمة: سبع عشرة في واحد، يعني: أن الله تعالىٰ كلما ذكر العذاب مرة ذكر في مقابله الرحمة سبع عشرة مرة.

٢. الرحمة أعظمُ صفةٍ وصفَ الله تعالىٰ بها نفسَه:

وصف الله سبحانه نفسَه بالرأفة والرحمة في آيات عديدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠].

وقد أمر الله عز وجل نبيَّه ﷺ أن يُخبِرَ عبادَه أنه غفور رحيم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، حيث جعل الله تعالى الرحمةَ صفة ذاتية له، وجعل العذاب فعلاً من أفعاله ولم يصف ذاتَه به.

وكتب علىٰ نفسه الرحمة فقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لَمَّا قضى الخلقَ كتَبَ عنده فوق عرشه: إن رحمتي سَبَقَتْ غضبي»[2]، ومن المعروف في حياتنا الاجتماعية أن الشخص عندما يؤسس مؤسسة أو يفتح مركزاً علميًّا أو تجاريًّا أو خيريًّا،

---

(١) ينظر: الرحمة في القرآن الكريم لأنور خطاب (١/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢٥) برقم: (٧٤٢٢)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٥) برقم: (٢٧٥١).

يجعل لتلك المؤسسة شعارًا معيَّنًا، ويكون ذٰلك الشعار دليلًا على المبدأ أو المنهج المتبع عندهم في عملهم، ولله تعالى المثل الأعلىٰ، فقد جعل شعار تعامله مع خلقه: أن رحمته تسبق غضبَه.

وقال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمٰنُ، ارحمُوا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء»[1]. وهٰذا حديث مشهور يفتتح به علماء الحديث مجالسهم، معروف بـ: المسلسل بالأولية.

وقال النبي ﷺ: «جعل الله الرحمةَ مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمِن ذٰلك الجزء يتراحم الخلقُ، حتىٰ ترفع الفرس حافرَها عن ولدِها خشيةَ أنْ تُصِيبَه»[2].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قدِمَ على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديَها تسقي إذا وجدتْ صبيًا في السبي أخذتْه فألصقتْه بِبَطنِها وأرضعتْه، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هٰذه طارحةً ولدَها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه، فقال: «لَلَّهُ أرحمُ بعباده مِن هٰذهِ بِولدِها»[3].

وقال ﷺ: «لا يرحمُ الله مَن لا يرحمُ الناسَ»[4].

٣. الرحمة صفة النبي ﷺ الأعظم والأشهر:

يقول الله سبحانه مخاطبًا نبيَّه الكريمَ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فلخَّص عز وجل وظيفة الرسول ﷺ في هٰذه الآية الكريمة،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٤٠) برقم: (٤٩٤١)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٤٨٣) برقم: (١٩٢٤)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٦٦) برقم: (٦٦٠٥). قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨) برقم: (٦٠٠٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٦) برقم: (٢٧٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨) برقم: (٥٩٩٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٧) برقم: (٢٧٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١١٥) برقم: (٧٣٧٦)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٧) برقم: (٢٣١٩).

وبيَّن مقصدَه ومراده تعالىٰ من إرساله ﷺ، وهي: الرحمة بخلقه؛ ولذلك لَمَّا قيل له ﷺ: يا رسول الله، ادعُ على المشركين. قال: «إني لم أُبعَثْ لعَّانًا، وإنما بُعِثتُ رحمةً»(١).

وكما وصف الله سبحانه نفسَه بالرأفة والرحمة كذلك وصف نبيَّه ﷺ بتلك الأوصاف، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤. الرحمة صفة الصحابة والصالحين ﷺ:

الرحمة من صفات الصحابة الكرام ﷺ التي وصفهم بها ربُّ العالمين في القرآن، وذكر أن هذا وصفهم في الكتب السابقة، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فقدَّم وصفَ الرحمة علىٰ أوصاف التدين من الركوع والسجود؛ لعظم شأنها ولأهمية مكانتها في الأعمال الإسلامية.

ثانيًا: ثمرات الرحمة

١. الرحمة تُثمِر محبةَ الله ومحبةَ الناس.

٢. ترقيق القلوب: فهي دليل رِقَّةِ القلب وسُمُوِّ النفس(٢).

٣. النصر والرزق: ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»(٣). وهذا يدل علىٰ أن عطف الإنسان على الفقراء والضعفاء ومَن هو دونه يكون سببَ نصرِه علىٰ مَن هو أقوىٰ منه، وزيادةِ رزقه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٤) برقم: (٢٥٩٩).

(٢) ينظر: نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (ص: ٢١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٦) برقم (٢٨٩٦).



٤ . الفوز برحمة الله تعالىٰ: وذٰلك كما تقدم في عدد من الأحاديث أن الله تعالىٰ لا يرحم من لا يرحم الناسَ، وأن مَن رحمَ أهلَ الأرض يرحمه الرحمٰنُ تبارك وتعالىٰ.

شروط الرحمة

١ . موافقة الشرع:

يجب أن تكون صورة من صور الرحمة موافقة للشريعة وأحكام الحلال والحرام، فلا يجوز التهاون والمسامحة في حدود الله وعند القضاء في الخصومة بحجة الرحمة والرأفة؛ قال الله تعالىٰ في كتابه بعد أن بيَّن حد الزاني وأمر بإقامته: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

وفي عهد النبي ﷺ ثبتت جريمة السرقة على امرأة مخزومية فأهمَّ قريشًا أمرُها، وأرادوا أن يسألوا النبيَّ ﷺ أن يعفو عنها، فقالوا: ومن يُكلِّم فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلَّمه أسامة رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفَعُ في حدٍّ من حدود الله؟!»، ثم قام فاختطب، ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرَقَ فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرَقتْ لقطعتُ يدَها»[1].

٢ . الإخلاص:

يجب أن يتحلَّى المقدِم علىٰ عمل خير فيه رحمة بالعباد بالإخلاص لوجه الله تعالىٰ، حتىٰ يترتب عليه ثواب الآخرة ويكون ذخرًا له عند الله يوم القيامة؛ قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنى الشركاء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٥) برقم: (٣٤٧٥)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١١٤) برقم: (١٦٨٨).

عن الشرك، مَن عَمِل عملًا أَشرَكَ فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه»[1].

مراتب الرحمة

١. رحمةُ مَن بدأك بالإحسان والمعروف:

وذلك مكافأة له على إحسانه وردِّ الخير على أهله؛ كإحسان الأولاد بوالديهم، والطلاب بأساتذتهم.

٢. الرحمة ابتداءً مِن غير سابق إحسان:

وذلك كإحسان الوالدين إلى أطفالهم، ومساعدة الفقراء الذين يراهم أول مرة، وإطعام الحيوان وسقيه الذي لا يملكه، وليس له من وراء هذا الإحسان منفعة مادية.

٣. الرحمة بمن أساء إليه بالعفو عنه والصفح عما فعل:

وهذه المرتبة أعلى من السابقة؛ باعتبار أن الإنسان كان باستطاعته أن ينتقم ممن ظلمه وأجاز الشرع له أن يرد على السيئة بالسيئة، لكنه اختار أن يستجيب لوصية الله تعالى له، حيث قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

٤. الرحمة بمن ظلمه بالإحسان إليه زيادة على العفو:

وهذه أعظم مراتب الرحمة وأعلى مراتب الإحسان، ولا يستطيعها إلا أصحاب النفوس الكبيرة والقلوب الصافية والإيمان القوي، حيث لا يكتفي بمجرد الصفح عن ظالمه، بل يزيده رحمة بالإصلاح والإحسان إليه،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٣) برقم: (٢٩٨٥).

لذلك غيَّب الله تعالىٰ أجرَه علىٰ خلقه وأخبر أن جزاءه عليه، هو الذي يحدده ويزيده من عنده كما يشاء: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].

وأما مراتب الرحمة باعتبار استحقاق الناس لها، فهي تنقسم بحسب الأولىٰ بها إلىٰ:

١. رحمة الإنسان لنفسه:

فالإنسان يجب أن يرحم نفسَه قبل الجميع، ويسعىٰ لإنقاذها من عذاب الجحيم، ويسلك سبل الهدىٰ للوصول إلىٰ صراط مستقيم؛ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، أَلَمْ أُخبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟» قلت: بلىٰ يا رسول الله، قال: «فلا تفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَمْ، فإنَّ لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا»[1].

٢. الوالدان:

يغلب في عرف الناس عند الكلام عن أحق الناس بالرحمة والعناية أن يذكروا أولًا الزوجة والأولاد ثم الوالدين، وهٰذا فهم خاطئ مخالف لمقتضىٰ منهج القرآن في ترتيب حقوق الناس، فالقرآن يركِّز علىٰ حقوق الوالدين وأحقيتهم بالإحسان والرعاية والرحمة إلىٰ درجة أن الله سبحانه بعد ذكر حقه علىٰ عباده ثنَّىٰ بذكر حق الوالدين علىٰ ولدهما، مع أمره ببرهما والإحسان إليهما، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقد ورد مثل هٰذا الأمر في سور ثلاثة، فالوالدان هم أولى الناس بالرحمة، والأم بالدرجة الأولىٰ؛ فقد سئل النبي ﷺ: «يا رسول الله، مَن أحقُّ الناسِ بحُسنِ صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣١) برقم (٥١٩٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٦٢) برقم: (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢) برقم: (٥٩٧١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢) برقم: (٢٥٤٨). ينظر: خطبة د. عبد العظيم العمراني بعنوان: (خلق الرحمة) علىٰ قناة يوتيوب.

٣. الزوجة:

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، ومن الرحمة بالأهل الرحمة بين الأزواج: أن يرحم الزوجُ زوجتَه فيُحسِن إليها ويشفق عليها، يحسن عشرتها فلا يظلمها ولا يؤذيها. وأن ترحم الزوجةُ زوجَها فلا تؤذيه، ولا تُحمِّله ما لا يطيق، بل تساعده وتقف إلىٰ جانبه، والرحمة بينهما تقتضي رعاية الحقوق والواجبات في التعامل مع بعض. فهٰذه هي الرحمة التي جعلها الله تعالىٰ بين الزوجين تفضُّلًا منه ونعمةً، فبها تستقيم الحياة الزوجية وتهنأ، وبدونها تضطرب وتشقىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. وكان رسول الله ﷺ خير من امتثل لهٰذا التوجيه، فكان نعم الزوج، وأرشد المؤمنين للأخذ بهٰذا التوجيه والاقتداء به فيه، فقال: «خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(١).

٤. الأولاد:

أحوج الناس إلى الرحمة هم الأولاد الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، فلا يستطيعون تأمين نفقاتهم وقضاء حاجاتهم، فهم بحاجة إلىٰ من يرحمهم ويشفق عليهم، وأولى الناس بذٰلك هم آباؤهم. والرحمة بالأولاد تعني: الرفق بهم والتودد إليهم وحسن تربيتهم ورعايتهم.

قال النبي ﷺ: «ما مِن الناس مسلمٌ يموت له ثلاثةٌ من الولد لم يَبلُغوا الحِنثَ،

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٦/ ١٨٨) برقم: (٣٨٩٥)؛ والدارمي في مسنده (٣/ ١٤٥١) برقم: (٢٣٠٦). قال الترمذي: «هٰذا حديث حسن صحيح».

إلا أدخله الله الجنةَ؛ بفضلِ رحمتِهِ إياهم»[1].

وعن عائشة قالت: قدم ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أَتُقَبِّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا والله ما نقبل! فقال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[2]. وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قبَّل رسولُ الله ﷺ الحسنَ بن علي وعنده الأقرعُ بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرحَم لا يُرحَم»[3].

٥. الأقارب:

حثَّ الشرع على صلة الرحم وجعل مرتبة الإحسان إليهم بعد النفس والأهل؛ قال ﷺ: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيءٌ فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيءٌ فلِذِي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيءٌ فهكذا وهكذا»، يقول فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك[4].

وفي الحديث أن أبا طلحة قال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإن أحب أموالي إلي بَيْرَحاء، وإنها صدقةٌ لله، أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله، فَضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ، ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلَها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧) برقم: (٥٩٩٨)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٧) برقم: (٢٣١٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧) برقم: (٥٩٩٨)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٧) برقم: (٢٣١٨)، واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧) برقم: (٥٩٩٧)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٧) برقم: (٢٣١٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٧٨) برقم: (٩٩٧).

فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه[1].

وعن ميمونة بنت الحارث ﵂ أنها أعتقت وليدةً في زمان رسول الله ﷺ، فذكرتْ ذٰلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أعطيتِها أخوالَكِ كان أعظمَ لِأجرِكِ»[2].

وهٰذا يدل علىٰ فضيلة صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب، وأنه أفضل من العتق، وأن أولى الناس بالصدقة المستحبة بعد النفقات الواجبة هم الأقارب والأرحام[3].

٦. الجيران:

ومما يدل علىٰ عظم حقوق الجوار وفضيلة الإحسان إليهم قوله ﷺ: «ما زال جبريلُ يُوصِيني بالجار حتىٰ ظننْتُ أنه سيُوَرِّثُه»[4]. وعن أبي ذر ﵁ قال: إن خليلي ﷺ أوصاني: «إذا طبختَ مرقًا فأكثِرْ ماءَه، ثم انظُرْ أهلَ بيتٍ مِن جيرانِك، فأصِبْهم منها بمعروف»[5].

٧. عامة الناس:

ويراد به الإحسان إلىٰ عموم الناس وخاصة المسلمين منهم، مع التنبيه أن هناك ضوابط للإحسان إلىٰ غير المسلمين فيما يجوز فيه الإحسان إليهم، أما عامة المسلمين فهم أهل الاستحقاق للرحمة والإحسان من أخيهم المسلم وأختهم المسلمة في مجالات كثيرة لا يمكن حصرها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٩) برقم: (١٤٦١)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٧٩) برقم: (٩٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٥٨) برقم: (٢٥٩٢)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٧٩) برقم: (٩٩٩).

(٣) ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٧/ ٨٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠) برقم: (٦٠١٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٧٣) برقم: (٢٦٢٤).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٧) برقم: (٢٦٢٥).

وأولى الناس بالرحمة هم أهل الحاجة والفقر والعوز؛ كالأرامل والأيتام والضعفاء والفقراء والمساكين، فمن شعائر الإسلام: إطعام الطعام، والإحسان إلى الفقراء والأرامل والأيتام؛ قال النبي ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»[1]. وقال: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هٰكذا»، وأشار بالسبَّابة والوسطىٰ وفرَّج بينهما شيئًا[2].

٨. الرحمة بالحيوانات:

دين الإسلام يأمر بالرفق والرحمة بالحيوان، ويحثُّ علىٰ إطعامه وسقيه، ويَعِد من قام بذٰلك بمغفرة ذنوبه؛ قال النبي ﷺ: «بينما كلبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّة كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ مِن بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوْقَها فسقته، فغُفِر لها به»[3].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أرْدَفَه ذات يوم، قال: «فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جملٌ، فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ وذرفتْ عيناه، فأتاه النبيُّ ﷺ فمسح ذِفْراه فسكتَ، فقال: «مَن ربُّ هٰذا الجمل؟ لمن هٰذا الجملُ؟» فجاء فتىً من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، قال: «أفلا تتَّقي الله في هٰذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تُجِيعه وتُدْئِبه»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٦٢) برقم: (٥٣٥٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٢١) برقم: (٢٩٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٥٣) برقم: (٥٣٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٣) برقم: (٣٤٦٧)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٤٥) برقم: (٢٢٤٥). والموق: ما يلبس فوق الخف، فارسي معرَّب. ينظر: مختار الصحاح للرازي (ص: ٢٨٩).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٣٢٨) برقم: (٢٥٤٩)؛ وأحمد في مسنده (١/ ٤٤٦) برقم: (١٧٧٩)؛ والطبراني في المعجم الكبير (١٤/ ١٤٩) برقم: (١٤٧٧٦).قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٥٩) «وهو حديث صحيح».

طرق اكتساب الرحمة

١. الإكثار من ذكر الله تعالىٰ:

لأن ذِكرَ الله يزيد الإنسانَ رقةً في القلب، وليست الرحمةُ إلا رقةَ القلب؛ كما حدث لسيدنا عمر ﷺ الذي لطم وجهَ أخته أم جميل ﷺ لما علم أنها أسلمت، وضرب زوجَها، ثم لم يلبث أن قرأ ذكر الله تعالىٰ من بداية سورة طه: أن رقَّ قلبُه، ولان طبعُه، واعتذر عما فعل، ودخل في الإسلام. فبسماع كلام الله عز وجل وذكره تحوَّل سيدنا عمر من جبار إلىٰ رحيم[١].

٢. التدرُّب على المظاهر السلوكية للرحمة وتركُ أضدادها:

الرحمة لها انعكاسات سلوكية ولها أضدادها، فمن المظاهر السلوكية للرحمة: بر الوالدين، والإنفاق على الزوجة والأولاد، ورعاية الأيتام والأرامل، وإكرام الضيف، وعيادة المريض، والإحسان إلى الجيران، والعفو عن الناس، وبذل المعروف للآخرين، كلها مظاهر من مظاهر الرحمة، إذا تدرَّب عليها الإنسان ومارسها أثَّرتْ علىٰ قلبه، حتىٰ إذا تمكنت منه ملأتْه رقةً ورحمةً ورأفةً، والعكس صحيح.

٣. تركُ الاستغراق في الشهوات والملذَّات:

لأن الاستغراق فيها يجعل صاحبَها من أهل الترف، وعند أهل الترف قسوةٌ في القلب وكبرٌ في النفس وظلمٌ للناس، فالاستغراق في الشهوات يطمس على القلب ويُقسِّيه، فمن أراد عكسَ ذٰلك فلا يُغرِقْ نفسَه في ملذاتها.

---

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٣/ ١٣)؛ سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٤).

لأجل هٰذا المعنىٰ كان من مظاهر رقة القلب ولِيْنه أن المسلمين يتجردون عن ملابسهم الفاخرة ومناصبهم وشهواتهم في أيام العبادات والطاعات، كأيام الحج، حيث يلبس الناس قطعتين من قماش ويقفون بعرفات يرجون رحمةَ الله بقلوب رقيقة ونفوس زاكية(١).

علامات التحقق بالرحمة

١. العفو عمن ظلم:

العفو عن الناس من الحسنات التي لم يحدِّد الله تعالىٰ جزاءَها بحد معروف، فأجرُه عند الله بغير حساب، وأكثر الناس مسامحةً عن الناس أكثرهم رحمةً ورقةً في القلب، بل هم أعقل الناس وأسعدهم، كما أن ضده من سعي الإنسان في الانتقام عمن ظلم والتفكير في ذٰلك دليل علىٰ قساوة القلب.

٢. الإنفاق علىٰ أهل الحاجة والفاقة:

الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء بصدق وإخلاص: من أظهر العلامات علىٰ طهارة قلب المتصدق ورحمته بالآخرين.

٣. جبر خواطر الناس:

الإنسان ذو القلب الرحيم والخلق الطيب لا يستطيع أن يرىٰ مهمومًا أو حزينًا إلا سعىٰ في مواساته وجبر خاطره وإدخال السرور علىٰ قلبه؛ مرَّ النبيُّ ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري»(٢). وجاء عمر ﷺ إلى النبي ﷺ فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه، واجمًا ساكتًا، فقال:

---

(١) مقتبس من خطبة د. محمد خير الشعال بعنوان (التراحم) علىٰ قناة يوتيوب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم: (١٢٨٣).

«لأقُولنَّ شيئًا أُضحِك النبيَّ ﷺ»[1].

٤. السؤال والاستفسار عن أحوال الناس ومشاكلهم وحاجاتهم:

والسؤال عن أحوال الناس وخاصة الأصدقاء والأقارب وزيارتهم خاصة عند وجود مرض أو شدة يدل على اهتمام الشخص بهم وقلقه عليهم، ولو عن بُعْد عبر الهاتف ونحوه، ولا يكون ذٰلك إلا بسبب رحمة ورقة في قلبه أكرمه الله بها؛ وفي الحديث: «تَزاوَرُوا وتهادَوْا، فإن الزيارة تُنبِت الودَّ، وإن الهدية تَسُلُّ السخيمةَ»[2].

٥. لِين الجانب ومراعاة الآداب في التعامل مع الناس:

كما أن الجفاء في التعامل وقسوة الطباع تدل علىٰ عدم وجود الرحمة في قلب الإنسان.

٦. رقة القلب:

من علامات الرحمة كذٰلك رقة القلب وسرعة البكاء والتأثر بهموم الناس ومصائبهم؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «دخلْنا مع رسول الله ﷺ علىٰ أبي سيف القَيْن، وكان ظِئرًا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه، ثم دخلْنا عليه بعد ذٰلك، وإبراهيم يجُود بنفسه، فجعلتْ عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله! فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة»»[3]. وقد قُبِض ابنٌ لابنتِه ﷺ فجاءها، فرُفِع الصبي إلى النبي ﷺ ونفسه تتقعقع كأنها شنٌّ، ففاضت عيناه، فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧) برقم: (١٤٧٨).

(٢) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية عن أبي يعلى الموصلي (٧/ ٤٣٦) برقم: (١٤٨٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٤٦): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه عائذ بن شريح،وهو ضعيف».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨٣) برقم: (١٣٠٣).

ما هٰذا؟ فقال: «هٰذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماءَ»(1).

٧. الكفُّ عن ذكر مساوئ الناس:

وإعذارهم بأن الله ابتلاهم فلم يصبروا؛ وذٰلك كإعذار السارق أن الله تعالىٰ ابتلاه بالفقر فلم يصبر ولم يطلب حاجته من طرق مشروعة، وإعذار الزاني أن الله ابتلاه بالشهوة فلم يصبر ولم يقضِ شهوتَه بطريقة مشروعة، وهٰكذا. وإعذار المسيئين لا يعني ترك عقاب المجرمين والمسامحة مع الجناة، بل يعني أنَّ علىٰ الإنسان أن ينظر إلىٰ عيوب غيره علىٰ أنه ابتلاءٌ وأن الله تعالىٰ قادر أن يبتليه كما ابتلاهم، فلا يتكبر، بل يشكر الله ويحمده على العافية والهداية؛ يروىٰ عن سيدنا نبي الله عيسىٰ ﷺ أنه كان يقول: «لا تُكثِروا الكلامَ بغيرِ ذكرِ الله فتقسوَ قلوبُكم، فإن القلب القاسي بَعيدٌ من الله، ولٰكن لا تعلمون. ولا تَنظُرُوا في ذنوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظُرُوا في ذنوبكم كأنكم عبيدٌ، فإنما الناس مبتلًى ومعافًى، فارحَمُوا أهلَ البلاء واحمَدُوا الله على العافية»(2).

الآفات التي تؤدي إلىٰ نزع الرحمة

١. الإهمال والترفيه والدلال:

ومن المضار التي يجلبها الأب أو المؤدِّب أو المربي عطفهم الزائد علىٰ من يتربَّىٰ عندهم، وإهماله ليأخذ نصيبَه الكافي من الحرية، وتدليله بالنِّعَم والهدايا

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم: (١٢٨٤)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٣٩) برقم: (٩٢٣).
(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٤/ ١٩) بأرقام: (٣٢٥٤٠) و(٣٥٣٧١)؛ وذكره مالك بتمامه في موطئه بلاغًا (١/ ١٤٣٥) برقم: (٣٦١٥)؛ وأخرج الترمذي الجزء الأول منه مرفوعًا إلى النبي ﷺ في جامعه (٤/ ٢١١) برقم: (٢٤١١).

والمرفِّهات. فالرحمة الحقيقية الصحيحة التي يطلبها الشارع تقتضي الحزمَ لا الإهمالَ، وأن تكون موافقة للعلم الصحيح لا الجهل الغبي.

يقول ابن القيم: «إن الرحمة صفةٌ تقتضي إيصالَ المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرِهَتْها نفسُه وشقَّتْ عليها، فهٰذه هي الرحمة الحقيقية؛ فأرحمُ الناسِ مَن شقَّ عليك في إيصال مصالحك ودفعِ المضارِّ عنك؛ فمن رحمة الأبِ بِولدِهِ: أنْ يُكرِهَه على التأدُّب بالعلم والعمل، ويَشُقَّ عليه في ذٰلك بالضرب وغيره، ويمنعَه شهواتِهِ التي تعود عليه بالضرر، ومتىٰ أهملَ ذٰلك مِن ولدِهِ كان لِقِلَّة رحمتِهِ به، وإن ظنَّ أنه يرحمه ويُرفِّهه ويُرِيحه، فهٰذه رحمةٌ مقرونةٌ بجهلٍ، ولهٰذا كان مِن تمامِ رحمةِ أرحمِ الراحمين تسليطُ أنواعِ البلاءِ على العبد، فابتلاؤه له وامتحانهُ ومنعُه من كثيرٍ مِن أغراضِهِ وشهواتِهِ: مِن رحمتِهِ به»(١).

٢. قسوة القلب والغلظة في التعامل مع الناس:

وخاصة مع من هو دونه في السن والرتبة، والإنسان تأتيه عوارض من الغضب والقهر والشدة والحزن والأسىٰ، وإذا لم يتحلَّ بخلق الصبر في هٰذه الحالات غالبًا ما يستعمل القسوة والغلظة في الكلام والتعامل مع الناس، فإذا لم يتدارك نفسه ويراجعها بالإصلاح والتهذيب، أدَّىٰ به هٰذا الأسلوب إلى الانخلاع عن خلق الرحمة وسوء الظن في الناس وممارسة الظلم عليهم. وأكثر ما يجب علىٰ الإنسان أن يراقب نفسَه وحركاته في التعامل مع من تحت أمره ورعايته؛ كزوجته وأولاده، وكذا الوالدين بعد أن يبلُغا الكبر عنده؛ لأن الشيطان يزيِّن للإنسان في أوقات الغضب والغفلة وحتىٰ في حالات الحزن أن يمارس الظلمَ في صورة التأديب والقسوةَ علىٰ وجه التأنيب.

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ١٧٤). ينظر: نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (ص: ٢٠٦٣).

٣. المَنُّ والأذىٰ باللسان بعد الإحسان وقضاء الحاجة:

المنُّ بعد الإحسان يؤذي المحسَن إليه ويجرح قلبَه، ويدل علىٰ عدم وجود الرحمة في قلب المحسِن، وأنه قام بذٰلك رياءً وسمعةً وابتغاءَ مدحٍ من الناس أو استغلالٍ لمن أحسن إليه، والشيطان يجرُّ الإنسان -إذا رأىٰ من الناس عدم الوفاء- أن يمنَّ عليهم ويذكر إحسانه إليهم حتىٰ يُفسِد عليه ثوابَ عمله، فليحرص الإنسانُ أن يُخفِي أعمالَه الصالحة ويصبر إذا لم يشكره الناس عليها.

نماذج من رحمة الصالحين

١. رحمة النبي ﷺ:

نبينا ﷺ سيد الرحماء وإمام المحسنين وآيةٌ في الشفقة والرأفة، ومظاهر الرحمة في حياة النبي ﷺ أكثر مِن أنْ تُحصَىٰ وأشهر من أن تذكَر، نذكر منها علىٰ سبيل المثال: جوابه لِمَلَكِ الجبال حين جاءه لِيُنفِّذ أمرَه في أهل الطائف، بعد أن طردوه ورموه بالحجارة حتىٰ أدْمَوْه؛ روت السيدة عائشة ﵂ أنها سألت النبي ﷺ فقالت: هل أتىٰ عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال : «لقد لَقِيتُ من قومِكِ ما لَقِيت، وكان أشد ما لَقِيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي علىٰ ابن عبد ياليِلَ بن عبد كُلال، فلم يُجِبْني إلىٰ ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفِقْ إلا وأنا بِقَرنِ الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قولَ قومِك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم. فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذٰلك فيما شئتَ، إن شئتَ أنْ أُطبِقَ عليهم الأخشبَيْنِ؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرِجَ الله مِن أصلابهم مَن

يعبُدُ الله وحده لا يُشرِك به شيئًا»[1]. والأمثلة على رحمته ﷺ بأمته كثيرة جدًّا.

٢. رحمة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

«كان رضي الله عنه يحلب للحيّ أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جاريةٌ من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، فقال: بلى، لَعمري لَأحلبَنَّها لكم، وإني لأرجو ألا يُغيِّرني ما دخلتُ فيه عن خُلُقٍ كنتُ عليه. فكان يحلب لهم، فربما قال للجارية من الحي: يا جارية، أتحبِّين أن أرعى لكِ، أو أُصرِّح؟ فربما قالت: ارعَ، وربما قالت: صرِّحْ، فأيَّ ذلك قالتْه فعل، فمكث كذلك بالسُّنْح[2] ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها»[3].

٣. رحمة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان يدور حول المدينة ذات ليلة إذ مرَّ بأعرابي جالس بفناء خيمة، فجلس إليه يحدِّثه ويسأله ويقول له: ما أقدمَك هذه البلادَ؟ فبينما هو كذلك إذ سمع أنينًا من الخيمة، فقال: من هذا الذي أسمع أنينه؟ فقال: أمرٌ ليس من شأنك، امرأة تمخض. فرجع عمر إلى منزله وقال: يا أم كلثوم، شُدِّي عليك ثيابك واتَّبعِيني، ثم انطلق حتى انتهى إلى الرجل، فقال له: هل لك أن تأذن لهذه المرأة أن تدخل عليها فتؤنسها، فأذن لها فدخلت، فلم يلبث أن قالت: يا أمير المؤمنين بشِّر صاحبَك بغلام! فلما سمع قولَها: «أمير المؤمنين» وثب الرجل من حينه فجلس بين يدي عمر رضي الله عنه وجعل يعتذر إليه، فقال: لا عليك، إذا أصبحتَ فأْتِنا. فلما أصبح أتاه، ففرض لابنه في الذرية وأعطاه[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١٥) برقم (٣٢٣١)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١٨١) برقم: (١٧٩٥).
(٢) السُّنْح: موضع بعوالي المدينة فيه منازل بني الحارث. ينظر: وفاء الوفاء للسمهودي (٤/ ٩٤).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٤٣٢).
(٤) الرياض النضرة في مناقب العشرة لمحب الدين الطبري (٢/ ٣٩٠).

٤. رحمة المرأة بابنتيها:

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتُها ثلاثَ تمرات، فأعطتْ كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً، ورفعتْ إلىٰ فِيها تمرةً لِتأكلَها، فاستطعمتْها ابنتاها، فشقَّتْ التمرةَ التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرت الذي صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال: إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار»(١). وفي رواية: «مَن ابتُلِي مِن هٰذه البنات بشيء كُنَّ له سِترًا من النار»(٢).

٥. الرحمة بالحيوان:

أخبر النبي ﷺ عن الرجل الذي رأىٰ كلبًا اشتد به العطش فتحرك في قلبه خلق الرحمة؛ قال ﷺ: «بينا رجلٌ بطريقٍ، اشتدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرًا فنزَلَ فيها، فشرِب ثم خرَجَ، فإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثرىٰ من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هٰذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني، فنزل البئرَ فَمَلأَ خُفَّه ماءً، فسقىٰ الكلبَ، فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: «في كلِّ ذاتِ كبِدٍ رطبةٍ أجرٌ»(٣).

المقترحات العملية والتدريبات

١. خصِّص جزءًا -ولو يسيرًا- من المال تصرفه للمحتاجين والفقراء، كأن تقتطع جزءًا من الراتب الشهري تنفقه على الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل؛

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٨) برقم: (٢٦٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٠) برقم: (١٤١٨).

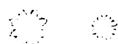
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٢) برقم (٢٤٦٦)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٤٤) برقم: (٢٢٤٤).

عن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا شكا إلىٰ رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «إن أردتَ أن يَلِينَ قلبُك فأطعِمِ المسكينَ، وامْسَحْ رأسَ اليتيم»[1].

٢. متابعة أخبار المسلمين في كل العالم والسؤال عن أحوالهم والدعاء لهم دائمًا، والاهتمام بهمومهم والسعي لنصرتهم، فهٰذا من أعظم الوسائل التي تزرع وتنمِّي خلُقَ الرحمة في قلب المؤمن.

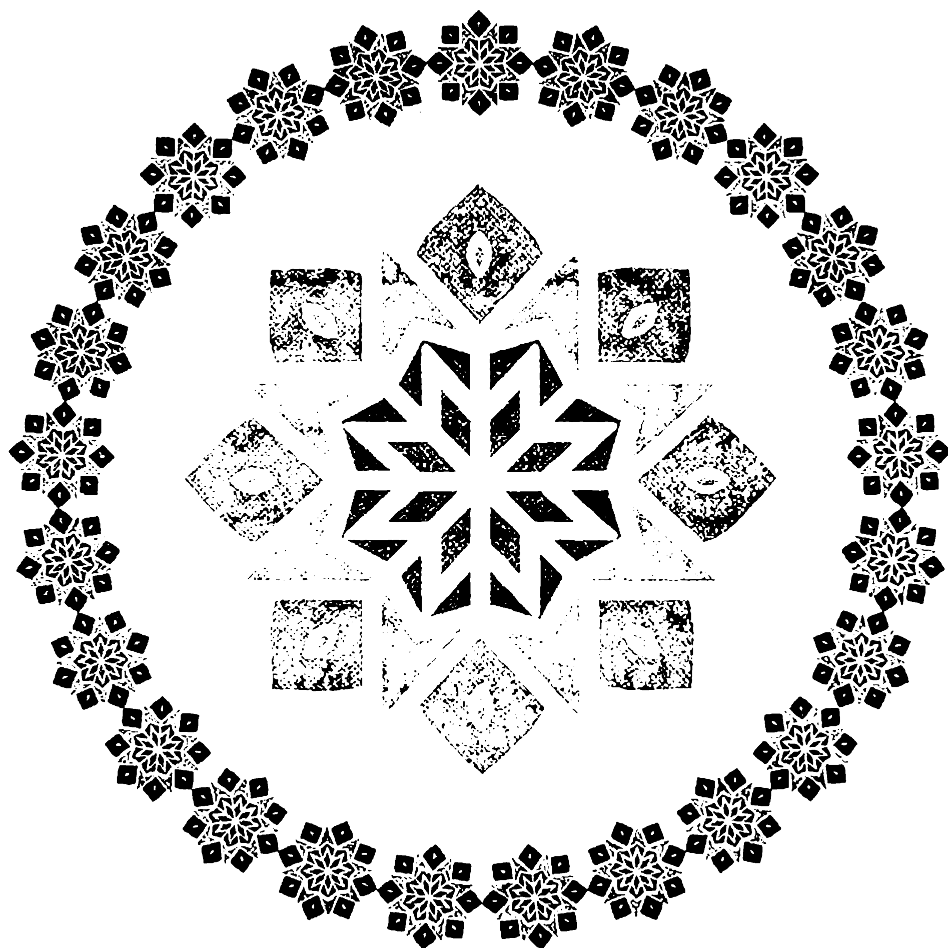
٣. زيارة الفقراء والأيتام والأرامل في بيوتهم، والسؤال عن حاجاتهم والاطلاع علىٰ أحوالهم.

٤. مراجعة الأذكار والأدعية المأثورة لاستخلاص ما يتعلق بالرحمة وتكرارها في الدعاء والذكر.

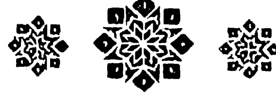


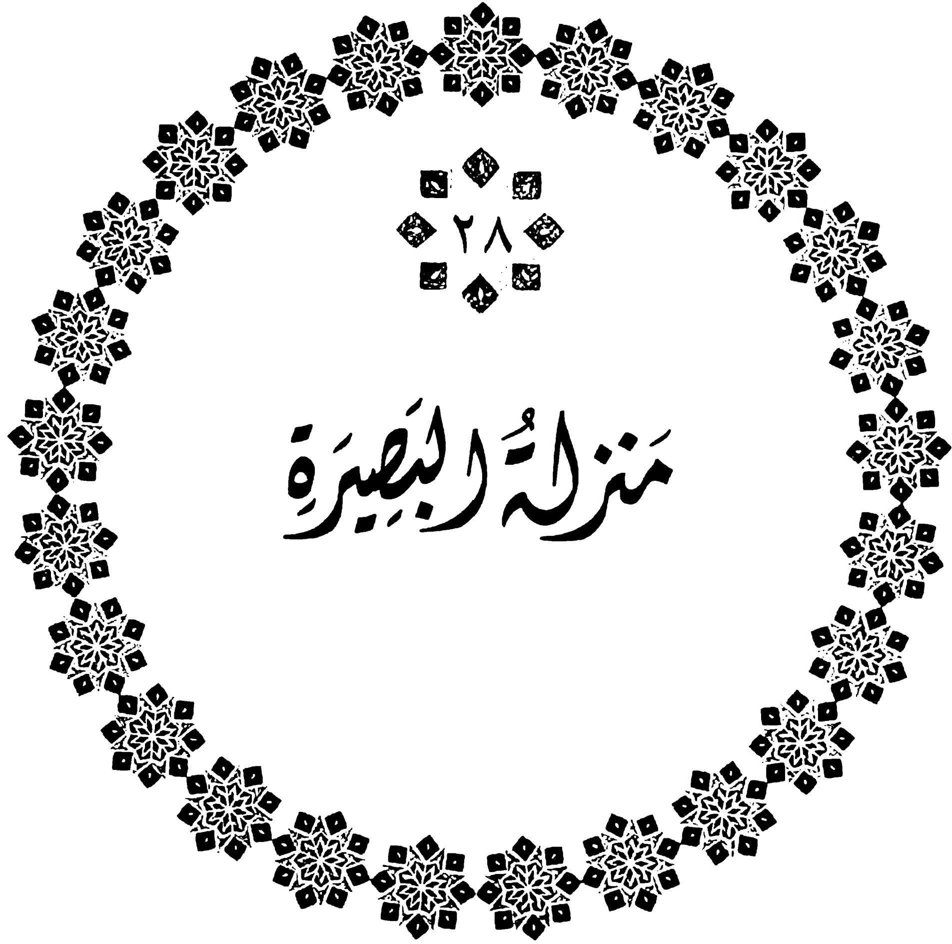
(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٩٠) برقم (٧٦٩١)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٤/ ٦٠) برقم: (٧١٩٤). قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٥١): «سنده حسن».







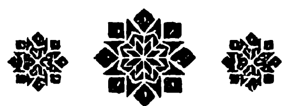


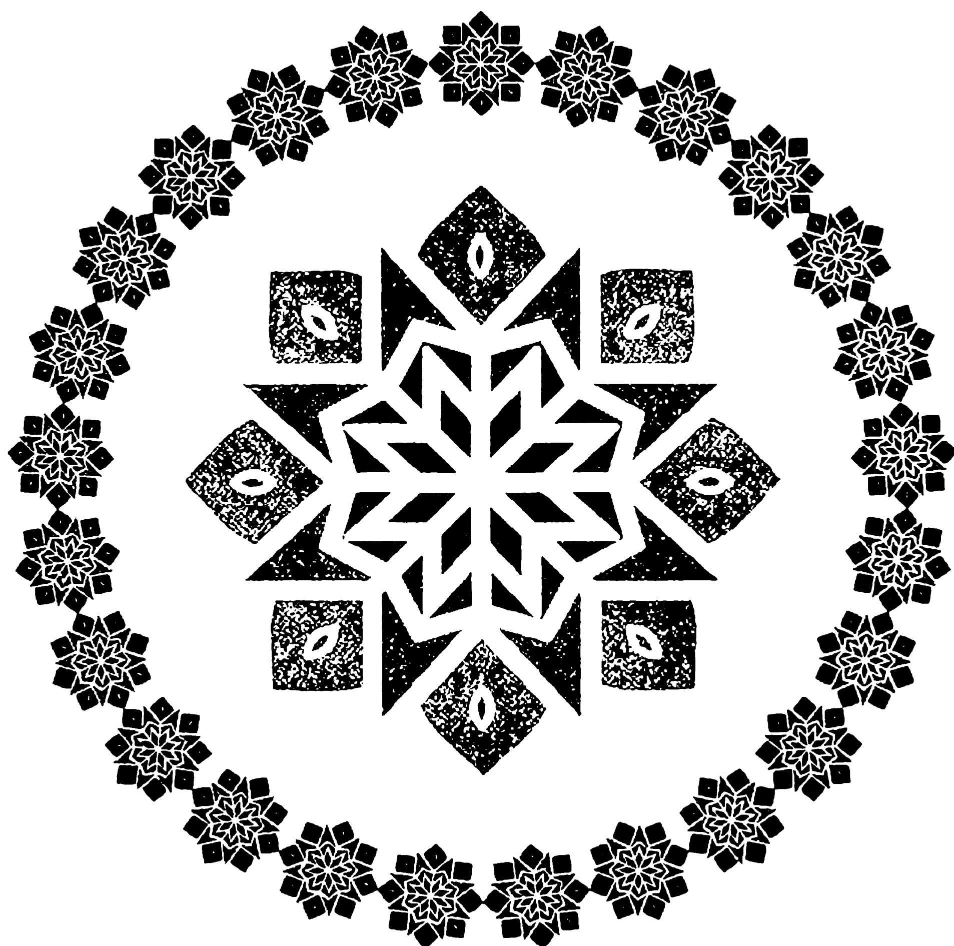


٢٨

مَنزلةُ البَصِيرة











منزلة البصيرة



بين يدي البصيرة

البصيرة في الدين من أعظم نِعَم الله تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين، بها تُحفَظ العقائدُ والأحكام من الشبهات والشطحات، وكم زلَّتْ مِن أقدامٍ بسبب ضعف البصيرة؛ ولذا كان الحديث عن البصيرة في الدين من الأهمية بمكان، وخصوصاً في هٰذا الزمان.

والبصيرة، هو النور الذي يرافق العبدَ في سَيره إلى الله تعالىٰ، يهديه إلىٰ مسالك الرشد، فيفرق به بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والسنة والبدعة، ومَن فَقَدَ هٰذا النور فهو في العبادة يلعب، وما ضُرب عبد بعقوبة أعظمَ من ظلمة القلب[1].

وما أحوجَنا في هٰذه الأيام للتبصُّر بدين الله تعالىٰ، ولن يكون ذٰلك إلا بالعلم والفهم والتأمُّل والتدبُّر والبصيرة التي إذا انعدمتْ لم نُعصَم من الفتن[2].

وقد ورد أن أبا عبيدة بن الجراح ﷺ لَـمَّا أُصِيب في طاعون عمواس استخلف معاذَ بن جبل ﷺ، ولما اشتد الوجع بالمسلمين صرخ الناس إلىٰ معاذ: «ادعُ الله أن يرفع عنا هٰذا الرجز، فقال: إنه ليس برجز، ولٰكن دعوة نبيكم ﷺ،

---

(١) نور البصيرة، مقالة لخالد النجار (ص: ١).

(٢) البصيرة في دين الله لأيمن الشعبان (ص: ٣).

وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يخص الله بها من يشاء منكم، أيها الناس! أربع خِلالٍ مَن استطاع أن لا تدركه، قالوا: ما هي؟ قال: يأتي زمان يظهر فيه الباطل، ويأتي زمان يقول الرجل: والله ما أدري ما أنا، لا يعيش علىٰ بصيرة، ولا يموت علىٰ بصيرة»[1].

حقيقة البصيرة

المعنى اللغوي:

البصيرة اسمٌ من البصر، فعله: بَصُر يُبصِرُ، ومعناه: وضوحُ الشيء، يقال: رأيته لَمْحًا باصرًا، أي: ناظرًا بتحديقٍ شديد، ويقال: بصُرتُ بالشيء: إذا صرتَ به بصيرًا عالمًا، وأبصرتُه: إذا رأيته. وتطلق البصيرة بمعنى الفطنة، تقول العرب: أعمى الله بصائرَه، أي: فِطَنَه، وتُطلق بمعنى الحجة[2].

المعنى الشرعي:

تأتي البصيرة في الاصطلاح الشرعي بمعنى الفطنة وعقيدة القلب، فهي اسم لما اعتُقِد في القلب مِن الدِّين وتحقيق الأمر، وهي قوةُ القلب المدرِكةُ؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ أي: علىٰ معرفةٍ وتحقُّقٍ[3].

وحقيقة البصيرة: ما يكون به اتضاحُ الحق وإدراكُ الأمور علىٰ حقائقها،

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٥٧).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٢٥٤)؛ تاج العروس للزبيدي (١٠/ ١٩٨).

(٣) ينظر: تاج العروس للزبيدي (١٠/ ١٩٨).

فهي اسمٌ للإدراك التام الحاصل في القلب، وأصل ذلك من الظهور والبيان، وقد وصف الله تعالى كتابَه بأنه بصائر، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية: ٢٠]؛ أي: أدلة وبيان يقود إلى الحق ويهدي إلى الرشد. فهي الدليل الواضح من غير لَبْسٍ فيه، الذي يعصم الإنسانَ من الزلل والشطط والانحراف، ويهديه إلى جادة الصواب ويصحِّح سلوكَه، فالبصيرة هي الدين والبيان[١].

والبصيرة للقلب بمنزلة البصر للعين، يُبصَر بها المعلوماتُ والحقائقُ كما هي، فهي عين القلب، كما أن البصر عينُ البدن[٢]؛ قال ابن القيم رحمه الله: «البصيرة: وهي نور في القلب يُبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعدَّ الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه... فالبصيرة: نورٌ يقذفه الله في القلب، يَرىٰ به حقيقةَ ما أخبرتْ به الرسلُ، كأنه شاهد رأي عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعُه بما دعتْ عليه الرسل، وتضرُّره بمخالفتهم»[٣].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

١. اليقظة:

وهي في اصطلاح أهل السلوك والتزكية عبارة عن: «انزعاج القلب لروعة الانتباه مِن رقدة الغافلين»[٤].

(١) ينظر: البصيرة في دين الله لأيمن الشعبان (ص: ٢).
(٢) ينظر: البصيرة في الدين لخالد السبت (ص: ١).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٨٩-١٩٠).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٨٨).

٢. الفكرة:

وهي «تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعدَّ له مجملًا، ولَـمَّا يهتدِ إلىٰ تفصيله وطريق الوصول إليه»[١].

٣. الفراسة:

وهي «نور يقذفه الله تعالىٰ في القلب، يفرِّق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، قال مجاهد: للمتفرسين»[٢].

فضل البصيرة وثمراتها

أولًا: فضل البصيرة

١. بها يعرف الإنسان ربه:

بالبصيرة يعرف الإنسانُ ربَّه تبارك وتعالىٰ معرفة صحيحة، وبها يعرف الطريقَ الموصِلَ إليه، وهو ما شرعه علىٰ أَلسُن رُسُله عليهم الصلاة والسلام[٣].

٢. سرّ نجاح الداعية أن يكون لديه بصيرة:

لقد ذكر الله تعالى البصيرة في كتابه وربطَها بمقام الدعوة الذي هو من أجلِّ المقامات، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]. فالذي لا يتسلح بالعلم ولا يتقوىٰ بالفهم ولا يعضِّد ذٰلك بالبصيرة كالضائع في ظلام الصحراء التائه بلا هدىٰ، كلما ظنَّ أنه اقترب من مبتغاه ازداد

(١) المصدر السابق (١/ ١٨٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٩٨).

(٣) ينظر: البصيرة في الدين لخالد السبت (ص: ٢).

بُعدًا وحسرةً وكَمَدًا؛ لأن البصيرة هي الحجة الواضحة والبرهان البَيِّن المنير، فالداعية إلى الله كالمبلِّغ عن ربه تبارك وتعالىٰ، لا ينبغي أن يقول ما ليس له به علمٌ وحجةٌ وبرهانٌ.

٣. وصف الله بها أنبياءه:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، قال الطبري: «ويعني بالأيدي: القوّة، يقول: أهل القوّة علىٰ عبادة الله وطاعته، ويعني بالأبصار: أنهم أهل أبصار القلوب، يعني به: أُولي العقول»[١].

ثانيًا: ثمرات البصيرة

١. الانتفاع بالمواعظ والتذكير:

قال الله تعالىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس: ٧٠]، أي: حي القلب والبصر[٢].

٢. صحة البصيرة تورث اليقين في القلب فلا يتزعزع:

والذين يتزعزعون هم الذين ضعفتْ بصائرهم بسبب غلبة الشبهة أو غلبة الشهوة، فهؤلاء هم الذين يتساقطون في أوقات الفتن؛ قال ابن القيم: «فبكمال العقل والصبر تُدفَع فتنةُ الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفَع فتنةُ الشبهة»[٣].

٣. التمييز بين الأمور المشتبهة:

الاشتباه يقع في أمور كثيرة؛ كالاشتباه بين الطمأنينة الشرعية والسكينة إلىٰ ما عند الله تعالىٰ، بالطمأنينة إلىٰ أمور دنيوية؛ كضيعته أو ماله أو أشخاص معينين،

---

(١) المصدر السابق (٢١/ ٢١٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٥٥٠).

(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٩٠٥).

فهو يظن أنه في حال من التوكل على الله تعالىٰ، والواقع أنه متوكل علىٰ أمواله وممتلكاته، وهٰذا لا يميزه إلا أصحاب البصائر.

٤. الثبات على الحق:

صاحب البصيرة يثبت إذا تضعضع الناس وحادُوا عن الطريق؛ وقد فُسِّرت البصيرة في قوله تعالىٰ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] بالثبات في الدين(١).

٥. الاعتبار:

صاحب البصيرة يعتبر بكل ما يراه حوله من بديع صنع الله؛ فيتفكر بخروج النبات إذا نزل المطر، ويُذَكِّره ذٰلك بالبعث والنشور؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، ويتفكّر كذٰلك في اخضرار الأرض بعد أن كانت قاحلة، ثم تَحَوُّلها بعد ذٰلك إلىٰ هشيم، ويُشبّه ذٰلك بحال الدنيا، فالعبد إذا تبصَّر اعتبر، ومن عُدِم العبرةَ كأنه حُرم من البصيرة.

٦. وجود الفراسة:

البصيرة تُنبِت الفراسة في القلب، وهي نور يقذفه الله عز وجل في القلوب، يُفرّق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، يعني: المتفرسين(٢).

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ١٢٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٢٠).

شروط البصيرة

١. الإيمان الكامل واليقين الصادق، فالمؤمن الحق المواظب علىٰ شرائع الإسلام لا يكون إلا متبصرًا، قد أكرمه الله تعالىٰ بالبصيرة النافذة. فالبصيرة لا ينالها الفاسق ولا ضعيفُ الإيمان.

٢. ملازمة التقوىٰ والأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل والآداب، ولا يُحرَم من البصيرة إلا كافر أو فاسق أو منافق.

٣. العقل الواعي والفهم الثاقب والإدراك الصحيح للأمور بعد خبرة طويلة في الحياة ومع الناس، فالمتبصر إذا أبصر يُبصِر بوعيٍ، وإذا سمع يسمع بوعيٍ، وإذا نطق ينطق بوعيٍ، وإذا حكم على الأمور يحكم بوعيٍ.

٤. الهدوء والرزانة في الحركات والأفعال والأقوال، فصاحب البصيرة بعيدٌ عن العصبية والتوتُّر والانفعالات.

مراتب البصيرة

للبصيرة ثلاثة تقسيمات، كل تقسيم باعتبار، وهي على الشكل الآتي:

التقسيم الأول: مراتب البصيرة من حيث تحلِّي الناس بها

١. مَن عُدِم البصيرة:

فهو لا يرىٰ من هٰذا الضوء إلا الظُّلمات والرعد والبرق، ولا يجاوزُ نظرُه ما وراء ذٰلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبديَّة؛ فهٰذا القسمُ هو الذي لم يَرْفَع بهٰذا الدِّين رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي هَدىٰ به عبادَه ولو جاءته كلُّ آية، ففائدةُ إنذار هٰذا إقامةُ الحجَّة عليه.

٢. أصحاب البصائر الضعيفة:

وهم الذين نسبةُ أبصارهم إلىٰ هٰذا النُّور كنسبة أبصار الخفَّاش إلىٰ جِرْم الشمس، وهم يتصرفون بحسب داعِيهم ومن يقترنُ بهم، فتراه يستحسنُ الشيءَ وضدَّه، ويمدحُ الشيءَ ويذمُّه بعينه إذا جاء في قالبٍ لا يعرفُه، فيعظِّمُ طاعةَ الرسول ﷺ ويرىٰ عظيمًا مخالفتَه، ثمَّ هو من أشدِّ النَّاس مخالفةً له ونفيًا لما أثْبَتَه ومعاداةً للقائمين بسنَّته، وهٰؤلاء تبعٌ لآبائهم وأسلافهم؛ دينُهم دينُ العادة والمنشأ، وهم الذين قال فيهم عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أو مُنقادٌ للحقِّ لا بصيرة له في أحنائه»[١]، يعني: في جوانبِ الحقِّ ومُشْتَبِهِه وغوامضِه، فهٰؤلاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهُم شكٌّ ولا ريب؛ فهم علىٰ سبيلِ نجاة.

٣. أصحابُ البصائر النَّافذة:

وهم خلاصةُ الوجود، ولُبابُ بني آدم، الذين شَهِدت بصائرُهم هٰذا النُّور المبين فكانوا منه علىٰ بصيرةٍ ويقينٍ، ومشاهدةٍ لِحُسنِهِ وكمالِه، بحيث لو عُرِض علىٰ عقولهم ضدُّه لرأوْه كالليل البهيم الأسود، وهٰذا هو الفرقانُ بينهم وبين الذين قبلهم، وهٰؤلاء تتفاوُت مراتبهم في درجات الفضل.

إذا عُرِف هٰذا؛ فالقسمُ الأوَّلُ لا ينتفعُ بهٰذا الباب، ولا يزدادُ به إلا ضلالة، والقسمُ الثَّاني ينتفعُ به بقدر فهمه واستعداده، والقسمُ الثَّالث هم أولو الألباب الذين يخصُّهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد، وهم المرادون علىٰ الحقيقة بالتَّذكرة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩][٢].

---

(١) لم أقف علىٰ مصدره في كتب المتقدمين، وإنما أورده ابن القيم في مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٥٧).
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم بتصرف (٢/ ٨٥٦-٨٥٩).

التقسيم الثاني: من حيث المتعَلَّق والمُبصَر

١. البصيرة في الأسماء والصفات:

وذلك أن لا يتأثر إيمان العبد بشبهة تعارض ما وصَف الله به نفسَه ووصفه به رسولُه ﷺ، فتكون الشبه المعارضة لذلك عند صاحب هذه الرتبة بمنزلة الشُّبَه والشكوك في وجود الله تعالىٰ، وهذا يعني: أن يشهد قلبُه أن الله تعالىٰ بصير بحركات العالم وأشخاصه وذراته، سميع لأصواتهم، رقيب علىٰ ضمائرهم وأسرارهم، موصوف بصفات الكمال، منزَّه عن العيوب والنقائص والمثال، إلىٰ غير ذلك من أوصافه العليَّة وأسمائه الجليلة، سبحانه وتعالىٰ.

٢. البصيرة في الأمر والنهي:

وهي تجريده عن المعارضة بتأويلٍ أو تقليدٍ أو هوىً، فلا تقوم بقلبه شبهةٌ تعارِض العلمَ بأمر الله ونهيه، ولا شهوةٌ تمنع من تنفيذه والامتثال له، وبهذا يُعلَم أهلُ البصائر من العلماء من غيرهم.

٣. البصيرة في الوعد والوعيد:

وذلك بأن يشهد قيامَ الله علىٰ كل نفسٍ بما كسبتْ في الخير والشر، عاجلًا وآجلًا، في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو مُوجَب ألوهيته وعدله وحكمته، وأن الشك في ذلك شكٌّ في وجوده، فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ولا يليق أن يُنسَب إليه تعطيلُ الخليقة وتركُها سدىً، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا(١).

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٩٠-١٩٣).



التقسيم الثالث: من حيث قوة المُبصر بها ونتائجها:

١ . العلم بأن الشريعة حقٌّ كلها:

فيعتقد أن ما جاء به النبي ﷺ يصدُر عن حقيقة صادقة لا تخاف إذا اتبعتَها فيما بعدُ مكروهًا، بل تكون آمنًا من عاقبة اتباعِها؛ لأنها حقٌّ، فترىٰ من حقِّ ذٰلك الخير عليك أن تؤدِّي ما أمرَك به يقينًا، فلا تكون في شكٍّ منه، وتغضبَ له علىٰ مَن يخالِف ذٰلك الخبرَ غيرةً عليه أن تُضيِّعَ حقَّه وتُهمِلَ جانبَه، فإن الغيرةَ هي علامة المحبة، فمن أحبَّ الشريعة المطهَّرة لَحِقَه الغيرةُ عليها ممن لا يُنصِفها بوجهٍ من الوجوه، فكيف من يجحَدُها[1].

٢ . العلم بأن الشريعة عدلٌ كلها:

فإذا رأيتَ شخصًا قد هداه الله تعالىٰ لطاعتِه، وشخصًا قد أضَلَّه الله تعالىٰ وطردَه عن طاعتِه، تشهد أنه في حكمه بينهما عادلٌ، وأنه ما فعل في حقِّ كل واحد منهما إلا ما هو لائقٌ به، وأنه ما حابىٰ أحدًا منهما، كما أنه يشهد أن الله تعالىٰ قد راعىٰ أهلَ الغنىٰ فكثَّر لهم الرزقَ، كما راعىٰ أهلَ الفقر وقلَّل عليهم الرزقَ؛ لأنه يعلم وجهَ المصلحة، فلا يبَرُّ أحدًا إلا بما يعلم أنه خيرٌ له[2].

٣ . البصيرة التي تكشف المعارف:

فهي تفجِّر المعرفة فيحصُل للقلب منها كشفَ المعارفِ وشهودَها، أي: يتفجَّر بها ينابيع المعارف من القلب، فهي بذٰلك تثمِر الفراسةَ كما تُنبِت الأرضُ النباتَ[3].

---

(١) ينظر: شرح منازل السائرين للتلمساني (ص: ٣٤٣).

(٢) ينظر: المصدر السابق (ص: ٣٤٤).

(٣) ينظر: شرح منازل السائرين للتلمساني (ص: ٣٤٦)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٩٧).

طرق اكتساب البصيرة

١. صِدقُ الإيمان بالله ورسوله ﷺ:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد: ٢٨]. فهٰذا النور هبة لَدُنِّية يُودِعُها الله القلوبَ التي تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسوله ﷺ، فتشرق تلك القلوب وترى الحقيقة من وراء الحُجُب والمظاهر. فالإيمان هو الذي يفتح القلبَ ويُنَوِّرُه فتستنير البصيرةُ، وينبِّه أجهزةَ الاستقبال عند الانسان، فينتفع ببصره وبسمعه وبحواسه، وتستجيب فطرتُه، ويعتبر بكل ما يشاهده.

٢. العلم النافع الذي جاء به الرسول ﷺ:

قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢]، فالحكمة نور الأبصار، ومُوقِظة القلوب من سِنَة الغفلة، ومُنْقِذة للبصائر من سِنَة الحيرة، وهي صديقة العقل، وميزان العدل، ومن أحب أن يكون للأنبياء وارثًا فليتعلم العلم النافع؛ قال ﷺ: «مَن يُرِد الله به خيرًا يُفَقِّهْه في الدين»(١).

٣. التقوىٰ والعمل بالعلم:

فمن عمل بما علم رزقه الله عِلمَ ما لم يعلمْ، وحقيقة التقوىٰ: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله، ترجو ثواب الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والتقوىٰ تقود إلىٰ نور البصيرة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الأنفال: ٢٩]، فإذا اتقى العبدُ ربَّه جعل الله له فرقانًا، وهٰذا الفرقان هو البصيرة التي يفرِّق بها بين الحق والباطل وبين معدن الحق ومعدن الشبهات.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم: (٧١)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٤) برقم: (١٠٣٧).

٤ . اتّخاذ القرآن هاديًا وصدق اتباع السنة ظاهرًا وباطنًا:

فلا يهتدي المؤمن إلى البصيرة إلا إذا استنار قلبه باتباع الوحي المنزل؛ قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، والبصائر هي آيات هٰذا الكتاب، وقال تعالىٰ في حق سيدنا موسىٰ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، أي: أنه سبب للبصيرة.

والطريق إلى الله مسدود علىٰ خلق الله عز وجل إلا على المقتفين آثار النبي ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهٰذا يستلزم تعلُّمَ السنة واتباعَها ولزومَ طريقِها.

٥ . المداومة علىٰ ذكر الله عز وجل:

مِن تلاوةٍ وتسبيحٍ واستغفار وتهليل وتكبير، فالذكر يورث حياة القلب؛ يقول ابن تيمية ﷺ: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟»[١].

٦ . كثرة العبادة:

فمن أعظم الوسائل التي ينال بها العبد نصرَ الله وتأييدَه: الاجتهادُ في العبادة؛ قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالىٰ قال: مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيءٍ أَحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لَأُعطِيَنّه،

(١) نقله عنه ابن القيم في الوابل الصيب (ص: ٤٢).

ولئن استعاذني لأُعِيذنَّه»[1].

٧. كثرة الدعاء:

فالعبد بحاجة إلىٰ أن يسأل ربَّه دائمًا أن يرزقه بصيرةً في الدين وأن يهدي قلبَه، وذٰلك لا يحصل إلا بمِنَّةٍ من الله عز وجل وهدايتِه، فالعبد بحاجة إلىٰ أن يسأل ربَّه دائمًا؛ وهٰذا ما كان يدعو به رسول الله ﷺ: «اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، اهدِني لِما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، فإنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم»[2].

٨. التفكر في آيات الله ومخلوقاته والاعتبار بها:

حسنُ التأمل لما نرىٰ ونسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يُثمِر صحةَ البصيرة[3]؛ قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥-٦]، في هٰذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فبذٰلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان ويتفتح العقل[4].

٩. أكلُ الحلال:

فإنّ أكل الحلال له تأثير عجيب في التوفيق والهداية للصواب والحق، ومن الحرام يتولد عمى البصيرة وظلام السريرة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٨٥) برقم: (٧٧٠).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٤٧).

(٤) ينظر: تفسير السعدي (ص: ٣٥٨).

١٠ . غضُّ البصر وحفظ الفرج وتجنب الاختلاط المحرم:

فغضّ البصر يُلبِس القلب نورًا، كما أن إطلاقه يُلبسه ظلمة، ولهٰذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغضّ البصر، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، أي: مَثَل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلتْ وُفُودُ الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلتْ سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان(١).

يجمع هٰذه الأسبابَ المحصلة للبصيرة قولُ شاه الكرماني ﵀: «من غضَّ بصرَه عن المحارم، وأمسكَ نفسَه عن الشهوات، وعمَّر باطنَه بدوام المراقبة وظاهرَه باتباع السنة، وعوَّد نفسَه أكلَ الحلال: لم تُخْطِئ له فراسةٌ»(٢).

علامات التحقق بالبصيرة

١ . فصاحة اللسان وقوة البيان وجمال الكلام ودقَّة الوصف.

٢ . قوة العقل والدهاء التي تجعل قواه العقلية تعمل بأقصى المستويات وأعلى الدرجات.

٣.سلام داخلي وطمأنينة في النفس وهدوء ووقار.

٤ . يصبح عقله أكبر من عمره بسبب الوعي الكبير والفهم الصحيح لحقيقة الحياة.

---

(١) ينظر: نور البصيرة لخالد النجار (ص: ٥-٧)؛ البصيرة في الدين لخالد السبت (ص: ٦-١١).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٩٤).

٥. يصبح في الحياة عابدًا زاهدًا تقيًّا راضيًا قانعًا خاشعًا منقطعًا عن الدنيا وملذاتها؛ لأنه يعلم أن ما عند الله تعالىٰ خير وأبقىٰ، وأن الدنيا فانية والآخرة باقية.

٦. تمييزه بين الحق والباطل والمحبوب والمكروه والصحيح والفاسد والصادق والكاذب.

٧. الانتفاع بآيات كتاب الله تعالى الشرعية تطبيقًا وعملًا، وبآياته الكونية تأمُّلًا واعتبارًا.

٨. الحكمة والتوفيق في التصرُّف ووضع الأشياء في مواضعها[١].

٩. الكشف، والإلهام، والفراسة، والرؤيا الصادقة؛ لذلك قالوا في تعريف البصيرة: هي نور العقل المنوَّر بنور القُدُس[٢].

الآفات التي تؤثر على البصيرة

١. المعاصي:

من عقوبات المعاصي أنها تُعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ويشهد لهٰذا قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، فهٰذا النور -نور البصيرة- لا يزال يضعف ويضمَحِلُّ مع مواقعة المعاصي وظلماتها حتىٰ يصير القلب مثل الليل البهيم[٣]. وهٰذا يستوجب اليقظة والحذر والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس،

(١) تسجيل مرئي لمحمد مهنا علىٰ قناة يوتيوب بعنوان: (تعرَّفْ علىٰ أصحاب البصيرة).

(٢) خطبة مسجلة لمحمد صالح المنجد علىٰ قناة يوتيوب بعنوان: (البصيرة).

(٣) ينظر: البصيرة في الدين لخالد السبت (ص: ١٣)؛ نور البصيرة لخالد النجار (ص: ٤).

والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هٰذا القلب؛ وقد كان رسول الله ﷺ -وهو المعصوم- يُكثِر من دعاء: «اللهم يا مقلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي علىٰ دينك»[1]، فكيف بالناس وهم ليسوا مرسلين ولا معصومين! وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالىٰ لما اجتمع به ورأىٰ مخايل النجابة عليه: «إن الله عز وجل قد أَلْقَىٰ علىٰ قلبك نورًا، فلا تُطْفِئه بالمعصية»[2].

٢. كثرة الفضول بأنواعه:

مثل: فضول النظر، وفضول الكلام، وفضول الأكل والشرب، وفضول الخلطة، وفضول النوم؛ فكل هٰذا يورث الغفلةَ إذا كان في المباح، فكيف إذا كان ذٰلك فيما حرمه الله عز وجل! فمَن أكْثَرَ من هٰذا الفضول ضعفتْ بصيرتُه وتلاشتْ، وصارت الغفلةُ غالبةً عليه. وعلاج ذٰلك: بالتقليل من الفضول في الطعام والكلام والاختلاط مع الناس، والأمور تصلح وتؤتي ثمارَها عند التوازن في تناولها، وكل ما خرج عن حدِّه انقلب إلىٰ ضدِّه[3].

٣. اتباع هوى النفوس:

إذا غلب العقلُ النفسَ ارتدع الإنسانُ وقمعَ عوارضَه المدخولةَ واستضاء بنور الله تعالىٰ، وإذا غلبتْ نفسُه عقلَه عميتْ بصيرتُه، ولم يفرِّق بين الحَسَن والقبيح، وعَظُم عليه الالتباس، وتردَّىٰ في هُوَّة الردىٰ والهلكة[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٩) برقم: (٢١٤٠)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٩) برقم: (٣٨٣٤)؛ والبزار في مسنده (١٤/ ٥٩) برقم: (٧٥٠٨)؛ والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٦١) برقم: (٧٥٩). وقال الترمذي: «هٰذا حديث حسن».

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ١٠٤).

(٣) ينظر: البصيرة في الدين لخالد السبت (ص: ١١).

(٤) ينظر: طوق الحمامة لابن حزم (ص: ٢٦٨).

قال ابن القيم ﵀: «زوبعةُ الهوىٰ إذا ثارتْ سَفَتْ في عين البصيرة، فخفِيَت الجادَّةُ»[1].

فروع متعلقة بالبصيرة

١. البصيرة بحاجة إلىٰ عزيمة وصبر:

لا بد مع البصيرة من أمرين، هما: قوة العزيمة على الرشد، والصبر الذي يتمكن به من هٰذا الفعل أو الترك؛ فمن الناس من يصل إلى البصيرة فيتبصَّر، ويوازن بين الأمور، ويدرك أن هٰذه مصلحة وهٰذه مفسدة، لٰكنه يجد همته ردئيةً جدًّا، لا تنهض به أن يقوم ويطبق ما تبصَّر به، فيرى الرُّشدَ أمامه لٰكن لا يجد من قلبه العزم، فالبصيرة إذا وُجدت تحتاج إلىٰ همة وعزيمة؛ وقد حثَّ النبيُّ ﷺ أصحابَه ﵃ علىٰ سؤال الله تعالى الثبات والعزيمة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا كنز الناسُ الذهبَ والفضةَ فاكنزوا هٰؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شُكرَ نعمتك وأسألك حُسنَ عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[2].

قال ابن القيم ﵀: «مراتبُ السعادةِ والفلاح إنما تفوتُ العبدَ من هاتين الجهتين أو من إحداهما: إمَّا أن لا يكون له علمٌ بها، فلا يتحركُ في طلبها، أو يكون عالمًا بها ولا تنهضُ همَّتُه إليها»[3].

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ١١٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤١١) برقم: (٣٤٠٧)؛ والنسائي في سننه (١/ ٢٧٨) برقم: (١/ ١٣٠٣)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٧٣٨٩)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه برقم: (٢٩٩٧١)؛ وابن حبان في صحيحه برقم: (١٩٧٤). قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص٣٧٩): «أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث شداد بن أوس. قلت: بل هو منقطع وضعيف».

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٢٤).

٢. المواطن التي يحتاج فيها الإنسان إلى البصيرة:

١. في ميدان العمل التأصيلي والبناء وما يتعلق بذاته هو، وتحت هٰذا النوع أربعة أقسام، وهي: البصيرة في الاعتقاد، والبصيرة في العبادة، والبصيرة في العلم، والبصيرة في الدعوة والنفع.

٢. عند وجود الشبهات والنوازل والفتن والطوارئ[١].

نماذج من بصيرة الصالحين

١. قصة تولية أبي بكر الصديق ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة:

بلغ سيدَنا عمرَ ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ وقبل دفنه أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليختاروا خليفة على المسلمين يخلُف النبيَّ ﷺ في الحكم، فما كان منه ﷺ بعد أن سمع ذٰلك إلا أن أسرع في إرسال شخص في طلب أبي بكر ﷺ، الذي كان منشغلًا بأمور تجهيز النبي ﷺ للدفن، وعندما جاء أبو بكر وسأل عن سبب هٰذه العجلة، قال له عمر: لولا أن أمرًا جللًا حدث لما دعوتُك في هٰذه اللحظة، ثم أطلعه علىٰ حقيقة ما جرىٰ، وأنه إن لم يسرعوا في اختيار خليفة تجتمع عليه كلمة جميع المسلمين سوف يكون ذٰلك سببًا لفتح باب الفتنة والفرقة على المسلمين. والقصة مشهورة مذكورة في كتب التاريخ والسير[٢].

فتصرُّف عمر ﷺ في تلك اللحظة العصيبة والنبي ﷺ علىٰ فراشه لم يُدفَن بعد يدل علىٰ بصيرته في الدين وفطنته في الأمور، ومعرفته بمقاصد الشريعة، وإصابته في الموازنة بين المصالح المختلفة لتقديم ما يُقدَّم منها وتأخير ما يُؤخَّر.

---

(١) ينظر: محاضرة لأحمد السيد علىٰ قناة يوتيوب بعنوان: (البصيرة).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٠٣)؛ البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ٨١).

٢. قصةُ جمعِ المصحف في زمن أبي بكر ﷺ:

وذلك أنه لما قُتِل عددٌ كبير من علماء الصحابة في معركة اليمامة في مقاتلة جيش مسيلمة الكذاب، حيث استُشهِد فيها سبعون قارئًا من الصحابة ﷺ، فعندما بلغ خبر مقتلهم إلى أبي بكر الصديق ﷺ خاف من ذهاب حمَلَةِ القرآن من الصحابة، فيضيع كتاب الله تعالى، فجمع الصحابة الذين أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن منهم، وجعل عليهم زيدَ بن ثابت ﷺ كي يقوموا بجمع كل ما نزل على رسول الله ﷺ في صُحُفٍ مما لم تُنسَخ تلاوتُه، وفق قواعد وضوابط معينة بيَّنها لهم، فهكذا جُمِع القرآنُ أوَّلَ ما جُمِع في عهد أبي بكر ﷺ[١].

وهذا الفعل من أبي بكر والصحابة الذين أشاروا عليه بذلك يدل على بصيرتهم النافذة وفطنتهم الثاقبة في الدين ﷺ.

المقترحات العملية والتدريبات

١. كثرة التفكر والتدبر والتأمل في خلق السماوات والأرض وفي القرآن.

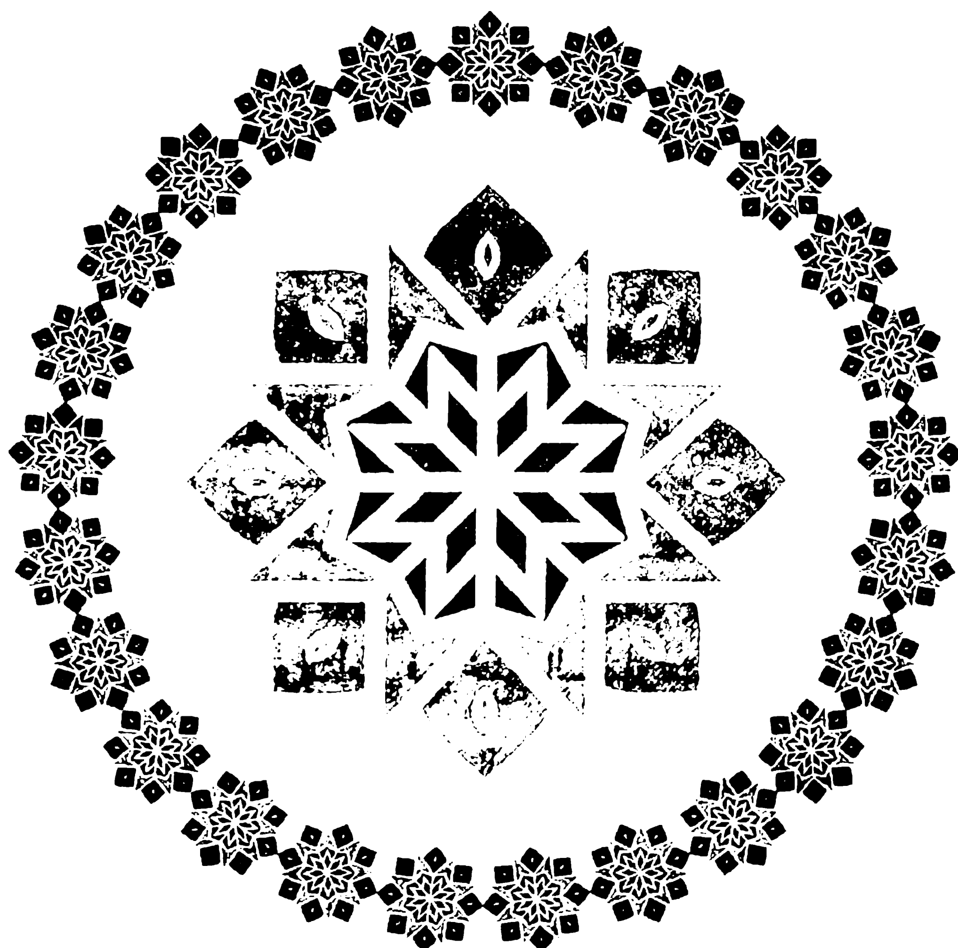
٢. التأنِّي في الأمور والتريُّث والتمهُّل في التصرفات وعدم السرعة والاستعجال.

٣. قراءة كتاب (رسائل من القرآن) لأدهم شرقاوي، وتدوين أهم الفوائد.

---

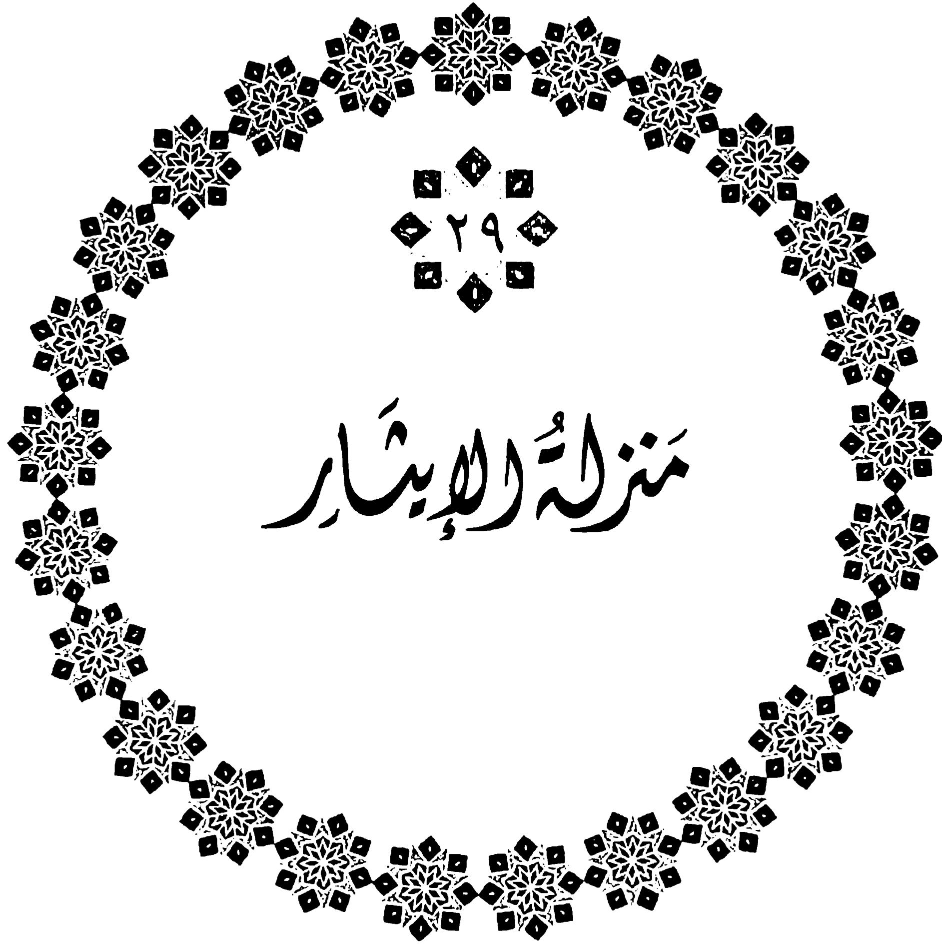
(١) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٥٣٦).







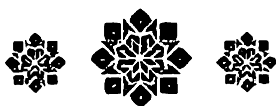


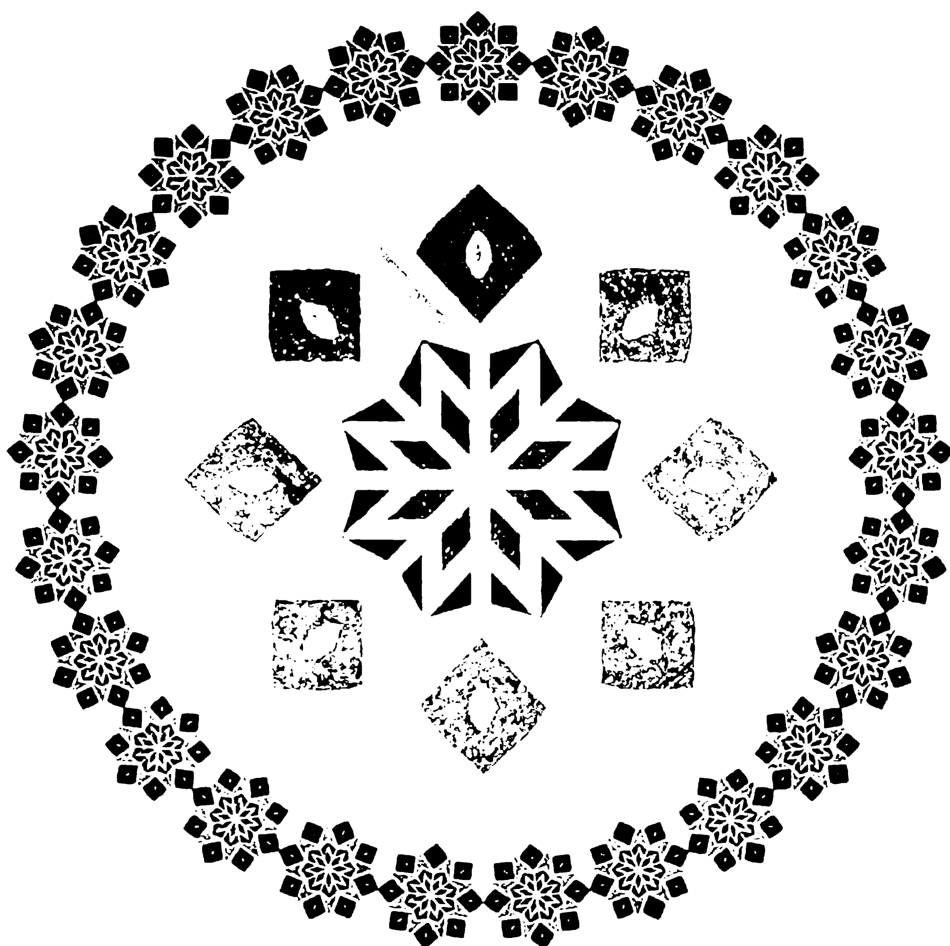


٢٩

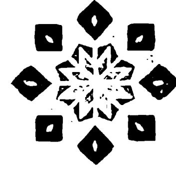
مَنزلةُ الإيثَار











منزلة الإيثار



بين يدي الإيثار

الإيثار خير دثار، وأفضل شعار، ودليل علىٰ رسوخ الإيمان والثقة بما عند الرحمٰن، وهو دليل مخالفة الهوىٰ وتزكية النفس، واختيار الآخرة علىٰ راحة الدنيا رجاءً بما عند الله عز وجل، وذٰلك في الإيثار المتعلق بحقوق الخالق سبحانه، وهو علامة حب المرء لإخوانه، وبرهان علىٰ سلامة النفس من دغل الأثرة والجشع والأنانية، وهٰذا في الإيثار المتعلق بحقوق الخلق، وفيه شائبة من حقوق الله تعالىٰ أيضًا؛ لأن المؤمن لا يقوم به إلا لوجهه عز وجل إيثارًا لما عنده من الثواب والأجر.

فالإيثار: هو تقديم المرء حقَّ الله سبحانه في العبادات ومجاهدة النفس علىٰ حق نفسه في الراحة والمتعة، وتقديم المرء غيرَه علىٰ نفسه فيما هو في حاجةٍ إليه من أمور الدنيا.

والإيثار يرفع المجتمع إلىٰ قمة الأمن، لأن أفراده ارتفعوا عن حظوظهم الدنيوية، وآثر بها كل منهم أخاه[1].

والإيثار خصلة عظيمة من خصال الإسلام التي استحق بها أصحاب النبي ﷺ من الأنصار رضي الله عنهم الثناء الجميل من الله تعالىٰ إلىٰ يوم القيامة، فقال سبحانه:

(١) الإيثار لغة العظماء لخالد النجار، مقال علىٰ موقع (صيد الفوائد).

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. وليس في تاريخ البشرية مثال على التحقق بهٰذه الصفة الإنسانية العظيمة والتحلِّي بها أعظم من مثال الأنصار ﷺ.

وسنركِّز في هٰذه المنزلة على الإيثار المتعلق بالتعامل مع الله تعالىٰ.

حقيقة الإيثار

المعنى اللغوي:

الإيثار مصدر قولهم: آثرَه عليه يؤثِره إيثارًا، بمعنىٰ: فضَّله وقدَّمه، وهو مأخوذ من مادة (أثر) التي تدل علىٰ تقديم الشيء، وفلان أثير عند فلان وذو أثرة: إذا كان خاصًّا عنده وكريمًا عليه بحيث يؤثره بفضله وصلته(١).

المعنى الشرعي:

الإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، رغبة في الحظوظ الدينية، وذٰلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة(٢).

قال ابن القيم ﷺ: «الإيثار هو: البذل، وتخصيص مَن تُؤثِره علىٰ نفسك، وهٰذا لا يكون إلا اختيارًا»(٣).

والإيثار علىٰ نوعين: إيثار متعلق بالخالق عز وجل، وإيثار متعلق بالخلق.

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٥٣)؛ الصحاح للجوهري (٢/ ٥٧٥)؛ لسان العرب لابن منظور (٤/ ٧)؛ تاج العروس للزبيدي (١٠/ ١٩)؛ نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (٣/ ٦٢٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٢).

ونعني بالإيثار المتعلق بالخالق سبحانه: إيثار رضاه علىٰ رضىٰ غيره، وإيثار حبه علىٰ حب غيره، وإيثار خوفه ورجائه علىٰ خوف غيره ورجائه، وإيثار الذلّ له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملُّق علىٰ بذل ذٰلك لغيره، وكذٰلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به علىٰ تعلُّق ذٰلك بغيره(١).

فالإيثار هو: أن يؤثِرَ الخلقَ للحقِّ بالحق، ويؤثرَ الحقَّ للحقِّ ﷺ(٢).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

١. المحبة:

وردت المحبة في القرآن الكريم للدلالة علىٰ معنى الإيثار، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [التوبة: ٢٣]، أي: اختاروا الكفرَ على الإيمان، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: آثروا طريقَ الضلال علىٰ طريق الرشد واختاروا الكفرَ على الإيمان.

ومما قيل في تعريف المحبة: إيثار المحبوب علىٰ غيره، فإيثار المحبوب علىٰ غيره موجَب المحبة ومقتضاها، فإذا استقرَّت المحبَّة في القلب استدعت من المحبِّ إيثارَ محبوبه علىٰ غيره، وهٰذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها. فإذا آثر غير المحبوب عليه لم يكن محبًّا له، وإن زعم أنَّه محبّ، فإنَّما هو محبّ لنفسه ولِحَظِّه ممن يحبه، فإذا رأىٰ حظًّا آخرَ هو أحبُّ إليه من حظّه الذي يريده من محبوبه آثرَ ذٰلك الحظَّ المحبوبَ إليه(٣).

---

(١) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٦٥٣).

(٢) مقتبس من درس د. محمد المهنا عن الإيثار في برنامج (الطريق إلى الله تعالىٰ) علىٰ قناة (الناس) في يوتيوب.

(٣) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٦٥٥).

٢. الاختيار:

وجه علاقته بالإيثار: أن الإيثار لا يتحقق مع الإكراه، بل لا بد أن يكون باختيار الشخص وإرادته، فهو شرط في الإيثار؛ لأن الإيثار: تخصيص واختيار[(١)]. والاختيار والمحبة صفتان متلازمتان لمقام الإيثار، لا تتحقق إلا بهما، ومن ادعىٰ خلاف ذٰلك فهو إما مُراءٍ أو مُكرَه.

فضل الإيثار وثمراته

١. ثناء الله علىٰ أهل الإيثار:

أثنى الله تعالىٰ علىٰ أهل الإيثار وجعلهم في عداد المفلحين الأخيار، فقال سبحانه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

٢. ثناء النبي ﷺ علىٰ أهل الإيثار:

وذٰلك لأنه يدل علىٰ ترابط أفراد المجتمع وصدق المحبة فيما بينهم؛ قال ﷺ: «إن الأشعريين إذا أَرْمَلوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»[(٢)].

٣. الإيثار دليل علىٰ كمال الإيمان وصدق اليقين:

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٨) برقم: (٢٤٨٦)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٧١) برقم: (٢٥٠٠).

إيثار حقوق الله تعالىٰ علىٰ حظوظ النفس من شروط كمال الإيمان وصدق اليقين، ومن تقديم حق الله تعالىٰ تقديم حق النبي ﷺ؛ لأن الله تعالىٰ أمرَنا بطاعته وإيثار أمره علىٰ حظ النفس والهوىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1]، وروي عنه ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئتُ به»[2].

٤. الإيثار سبب حلول الخيرات:

ففي الحديث: «طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة»[3].

٥. يورث محبة الله تعالىٰ لأهله:

لأن مَن يؤثر الله تعالىٰ علىٰ غيره فإن الله عز وجل يحبه.

٦. الإيثار يقي الإنسان مِن داء الشحّ:

فبعد أن مدح الله تعالى الأنصار بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أعقب ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فدل علىٰ أن الإيثار يعالج داء الشح المركوز في النفوس.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩) برقم: (٤٤).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/ ١٢) برقم: (١٥)؛ والبيهقي في كتاب المدخل (٢/ ٦١٨) برقم: (١٣٤٢)؛ وأورده البخاري في كتاب رفع اليدين في الصلاة (ص: ٣٧) برقم: (٤٣)؛ والنووي في كتاب الأربعين النووية (ص: ١١٣) برقم: (٤١). قال النووي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٧١) برقم: (٥٣٩٢)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ١٣٢) برقم: (٢٠٥٨).

شروط الإيثار

١ . ألا يؤدي الإيثار إلىٰ فوات النفس وهلاكها:

كالذي اضطر أن يأكل الميتة أو يشرب الخمر لإنقاذ نفسه من الهلاك بسبب الجوع أو العطش، فإنه يحرم عليه ترك تناول هٰذه المحرمات وتعريض نفسه للموت إن كان يقدر علىٰ إنقاذها، ولا يشرع فيه الورع بترك تناولها وإيثار حق الله تعالىٰ علىٰ حق النفس، بل حق الله وحكمه في هٰذا الموطن: طلب الخلاص.

٢ . ألا يتعارض حق الله تعالىٰ مع الحقوق الأخرىٰ:

وهي الحقوق التي جعلها الله تعالىٰ فوق حقِّه في أحوال معينة وظروف خاصة؛ وذٰلك كمن نادتهْ أمُّه لحاجة فلم يأتِ مُتَعلِّلًا بانشغاله بالعبادة؛ ظنًّا منه أنه يؤثر حقَّ الله علىٰ حق أمه، أو كالذي يقوم الليل ويصوم النهار، فينشغل بالذكر والعبادة عن واجباته في الكسب لينفق علىٰ أهله وأولاده؛ فهٰذا الإيثار ليس محمودًا والأولىٰ له أن يقوم بواجب النفقة؛ لأن هٰذا واجب وذاك مستحب.

٣ . الإخلاص في إيثاره:

بأن يكون الإيثار مبنيًّا علىٰ محبة العبد لربه عز وجل طمعًا في رضاه؛ لأن المرائي ليس من أهل الإيثار، بل هو مُدَّعٍ يريد أن يكون في سلك أهل هٰذه المنزلة، مُتشبِّعًا بما لم يُعطَ، ويستحيل تحقُّق الإيثار مع الرياء[١].

٤ . أن يكون باختيار الشخص:

فالمكره على الإيثار ليس من أهل الإيثار؛ لأن الإيثار لا يتحقق مع الإكراه[٢].

(١) يستفاد هٰذا الشرط مما ذكره ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين) عن المحبة (٢/ ٦٥٥).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٢).

مراتب الإيثار

١. إيثار الخَلْق على النفس:

وذٰلك فيما لا يخرم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يُفسِد عليك وقتًا، فتُقدِّم غيرك علىٰ نفسك في مصالحهم، مثل: أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتَعرىٰ، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدّي ذٰلك إلى ارتكاب إتلافٍ لا يجوز في الدّين، ولا يكون ذٰلك علىٰ حساب صلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله تعالىٰ، فهٰذا إنْ آثرتَ به فإنّما تؤثر الشّيطان على الله عز وجل وأنت لا تعلم. وهٰذه مرتبة متعلقة بحقوق الخلق(١).

٢. إيثار الله علىٰ غيره:

بأن تؤثر رضا الله عز وجل علىٰ رضا غيره، وإن عظمتْ فيه المِحنُ وثقلتْ فيه المؤنُ وضعف عنه والبدن، وإيثار رضا الله عزّ وجلّ علىٰ غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء. وأعلاها للرّسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبيّنا ﷺ؛ فإنّه قاوم العالـمَ كلَّه، وتجرّد للدّعوة إلى الله تعالىٰ، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالىٰ، وآثر رضا الله علىٰ رضا الخلق من كلّ وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائمٌ، بل كان همّه وعزمه وسعيه كلّه مقصورًا علىٰ إيثار مرضاة الله وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه؛ حتّىٰ ظهر دين الله سبحانه علىٰ كلّ دين، وقامتْ حجّته على العالمين، وتمّتْ نعمته على المؤمنين، فبلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة ونصح الأمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، وعبَدَ الله حتّىٰ أتاه اليقين من ربّه، فلم ينل أحد من درجة هٰذا الإيثار ما ناله ﷺ.

---

(١) ينظر: منازل السائرين للهروي (ص: ٥٧)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٣).

٣. أن تنسب إيثارك إلى الله تعالى:

وأنّه هو الّذي تفرّد بالإيثار لا أنت، فكأنّك سلّمت الإيثار إليه، فإذا آثرت غيرك بشيء؛ فإنّ الّذي آثره هو الحقّ سبحانه لا أنت، فهو المؤثر على الحقيقة، إذ هو المعطي حقيقة(١)؛ قال الله عز وجل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. وهذه المرتبة من أعمال القلوب.

طرق اكتساب الإيثار

١. الإيمان بالله تعالى والسعي إلى مرضاته:

وتقديم مرضاة الله على مرضاة غيره، وذلك كما قال سحرة فرعون بعد أن آمنوا بالله عز وجل وبنبوة سيدنا موسى ﷺ فآثروا ما عند الله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

٢. الإكثار من ذكر الموت والدار الآخرة:

وأن يتذكر أن دار الدنيا إلى زوال وأن الآخرة هي خير وأبقى؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

٣. الرغبة فيما عند الله تعالى:

رغبة العبد فيما عند الله تعالى من خير وعطاء، والطمع في الفوز والفلاح يوم القيامة تبعث العبد على إيثار ما عند الله تعالى من الخير على كل حظوظ نفسه؛ قال الله تعالى في وصف الأبرار من عباده: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٣-٢١)؛ نضرة النعيم لنخبة من المؤلفين (٣/ ٦٣٠).

ﭐللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨-١٠][1].

٤ . تعظيم الحقوق:

فإنْ عظُمت الحقوق عنده قام بواجبها ورعاها حقَّ رعايتها واستعظم إضاعتَها، وعلِمَ أنه إن لم يبلغ درجةَ الإيثار لم يؤدِّها كما ينبغي، فيجعل إيثارَه احتياطًا لأدائها.

٥ . حسن الظن بالله تعالىٰ:

إنّ حسن الظن بالله ومعرفة أنه لا يُضيع عملَ عاملٍ يدفع الإنسان إلىٰ إيثار الله سبحانه علىٰ نفسه وغيره، وإيثارِ الغير علىٰ نفسه[2].

علامات التحقق بمنزلة الإيثار

١ . أن يفعل المرء كلَّ ما يحبُّه الله تعالىٰ ويأمر به، وإن كان مكروهًا إلىٰ نفسه، ثقيلًا عليه.

٢ . أن يترك ما يكرهه الله تعالىٰ وينهىٰ عنه، وإن كان محبَّبًا إليه، تشتهيه نفسه وترغب فيه[3].

الآفات التي تُضعِف الإيثار

١ . ضعف النفس وعدم الحزم:

في بعض الأحيان يدرك الإنسان بعقله فضيلة الإيثار ويعطيه الله تعالىٰ فرصةً للقيام به وكسب ثوابه، إلا أن النفس الضعيفة والطبع الثقيل يُلِحُّ عليه بالوساوس

(١) ينظر: خلق الإيثار لرمضان صالح العجرمي، مقالة منشورة علىٰ موقع الألوكة.
(٢) ينظر: الإيثار في القرآن والسنة لغصون غنام فايز نايف (ص: ٧٩).
(٣) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٦٥٣).

وخوف المستقبل، وتعريض نفسه للإرهاق والتعب والهلاك. فينبغي للإنسان أن يدرِّب نفسَه ويقهرَها على نبذ الخوف والتوكل على الله تعالى، والأخذ بالحزم وعدم التردد في القيام بما أمر به الشرع والعقل السليم؛ قال ﷺ: «شرُّ ما في الرجل: شُحٌّ هالِعٌ، وجُبْنٌ خالِعٌ»(١). ويُروى عن سيدنا علي ﷺ قوله: «من أكثر الفكرةَ في العواقب لم يَشجَعْ»(٢).

قال ابن القيم: «والنقص والتخلّف في النفس عن هٰذا يكون من أمرين: أن تكون جامدةً غير سريعة الإدراك، بل بطيئة، فلا يكاد يرى حقيقة الشيء إلا بعد عسر، وإن رآها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات، فلا يتخلّص له رؤيتها وعيانها. الثاني: أن تكون القريحة وقَّادة(٣) درَّاكة، لٰكن النفس ضعيفة مهينة، إذا أبصرت الحقّ والرشد ضعفتْ عن إيثاره، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض، كلَّما ساقه خطوةً وقف خطوةً»(٤)

٢. الإفراط أو التفريط:

أي: عدم التوازن وترك الاعتدال، فعدم التوسط بين الإفراط والتفريط في الإيثار يجعل الإنسانَ يؤذي نفسَه إما بالإفراط في الإيثار ويجعلها عرضة للاستغلال من قبل ذوي النفوس المريضة، أو يبالغ في التحفظ والتوقي إلى درجة التفريط والتقتير، وكل ذٰلك يؤدي إلى عكس النتيجة المرجوة من خصلة الإيثار.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٣٢٠) برقم: (٢٥١١)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ١٦٨٤) برقم: (٨١٢٥)؛ وابن حبان في صحيحه (٨/ ٤٢) برقم: (٣٢٥٠)؛ والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٧٠) برقم: (١٨٦٣٣). قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١١٥٩): «أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد».

(٢) الكامل للمبرد (١/ ١٦٧)؛ العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ٨٩)؛ الإيجاز والإعجاز للثعالبي (ص:٣٨).

(٣) وفي طبعة: (وقَّادة) وهٰذا مستقيم من حيث المعنى، إلا أن المثبت في دار عطاءات العلم (وفادة دراكة)، وهو الصحيح، وذٰلك من الوفد والدرك، أي: الإدراك، بمعنى أن القريحة تدرك الخير وتَفِد عليه، والله تعالى أعلم.

(٤) طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٦٥٥).

نماذج من إيثار الصالحين

١. إيثار النبي ﷺ:

سيد المؤثرين وإمام المتقين نبينا محمد ﷺ، فحياته مليئة بنماذج لا حصر لها من إيثاره لحق الله تعالىٰ ورضاه علىٰ رضا الخلق، وكذا إيثاره للناس علىٰ حظوظ النفس؛ من ذٰلك:

أ. ردُّه ﷺ علىٰ مشركي مكة حين عرضوا عليه عروضًا مغرية وأموالًا ومناصبَ بدل التخلي عن دعوته، فكان جوابه ﷺ: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري علىٰ أن أترك هٰذا الأمر حتىٰ يُظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته»[1].

ب. وعن سهل رضي الله عنه أن امرأةً جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله، إني نسجت هٰذه بيدي أَكْسُوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، اكْسُنِيها، فقال: «نعم»، فجلس النبي ﷺ في المجلس ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، سألتها إياه، لقد علمت أنه لا يرد سائلًا! فقال الرجل: والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت. قال سهل: فكانت كفنه[2].

٢. إيثار أبو بكر رضي الله عنه:

أ. عن عمر رضي الله عنه قال: «أمرَنا رسولُ الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذٰلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك؟» فقلت: مثلَه، وأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك؟» قال: أبقيتُ لهم الله ورسولَه.

---

(١) أخرج هٰذا الأثر ابن هشام في سيرته (١/ ٢٦٦)؛ والطبري في تاريخه (٢/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٦١) برقم: (٢٠٩٣).

قلتُ: لا أُسابِقُك إلىٰ شيءٍ أبدًا»[1].

ب. وأما إيثاره حق النبي ﷺ وما يحبه علىٰ حق نفسه وما تحب: حينما جاء بأبيه أبي قحافة -وقد أسلم- ليبايع النبيَّ ﷺ على الإسلام، وكان شيخًا أعمىٰ، يوم فتح مكة، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تركت الشيخ حتىٰ نأتيه؟» قال: أردتُ يا رسول الله أن يأجرَه الله، أمَا والذي بعثك بالحق، لَأنا كنتُ أشدُّ فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، ألتمس بذٰلك قرة عينك، قال: «صدقتَ»[2].

المقترحات العملية والتدريبات

١. قراءة ما كتبه ابن القيم ﵀ عن منزلة الإيثار في كتابه (مدارج السالكين) ومحاولة تطبيق ذٰلك.

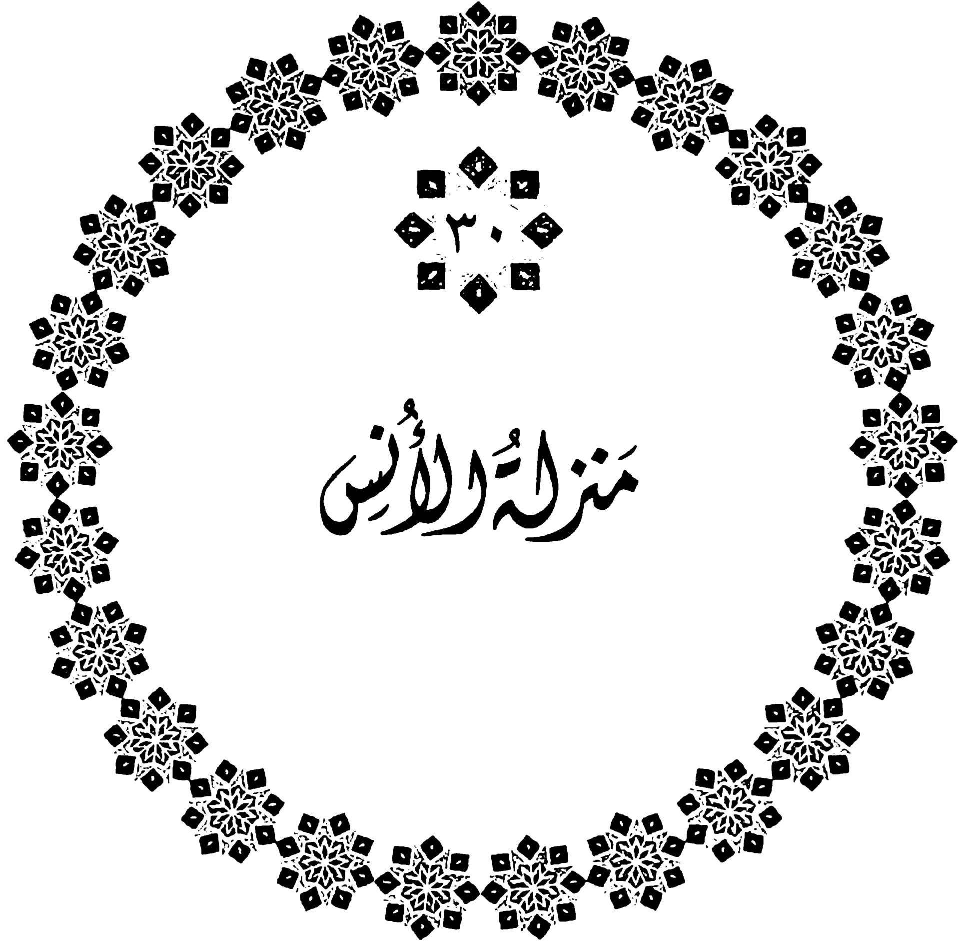
٢. قراءة الآيات التي تحثُّ على الإيثار في الله وفي سبيل الله، ويكرِّرها ويتدبر معانيها.

٣. أن يبدأ في تدريب نفسه علىٰ سلوك الإيثار في حق الله تعالىٰ بأعمال يسيرة بحيث لا تثقل على النفس، ويتدرج معها قليلًا قليلًا؛ كقيام الليل، إيثارًا له علىٰ حق نفسه من النوم والراحة، فيبدأ مع النفس في الأيام الأولىٰ بركعتين خفيفتين، ثم يزيد مع الأيام، وكلما دعته نفسه إلى الكسل والنوم يخدعها بأنها ركعتان فقط، عشر دقائق فقط، نصف صفحة فقط، حتىٰ تثبت النفس علىٰ ذٰلك ويصبح لها عادةً.



(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٥٤) برقم: (١٦٧٨)؛ والترمذي في جامعه (٦/ ٥٢) برقم: (٣٦٧٥)؛ والدارمي في مسنده (٢/ ١٠٣٣) برقم: (١٧٠١)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٤/ ١٨٠) برقم: (٧٨٦٨).
(٢) أخرجه البزار في مسنده (١٢/ ٢٩٦) برقم: (٦١٣١)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٤٠) برقم: (٨٣٢٣).

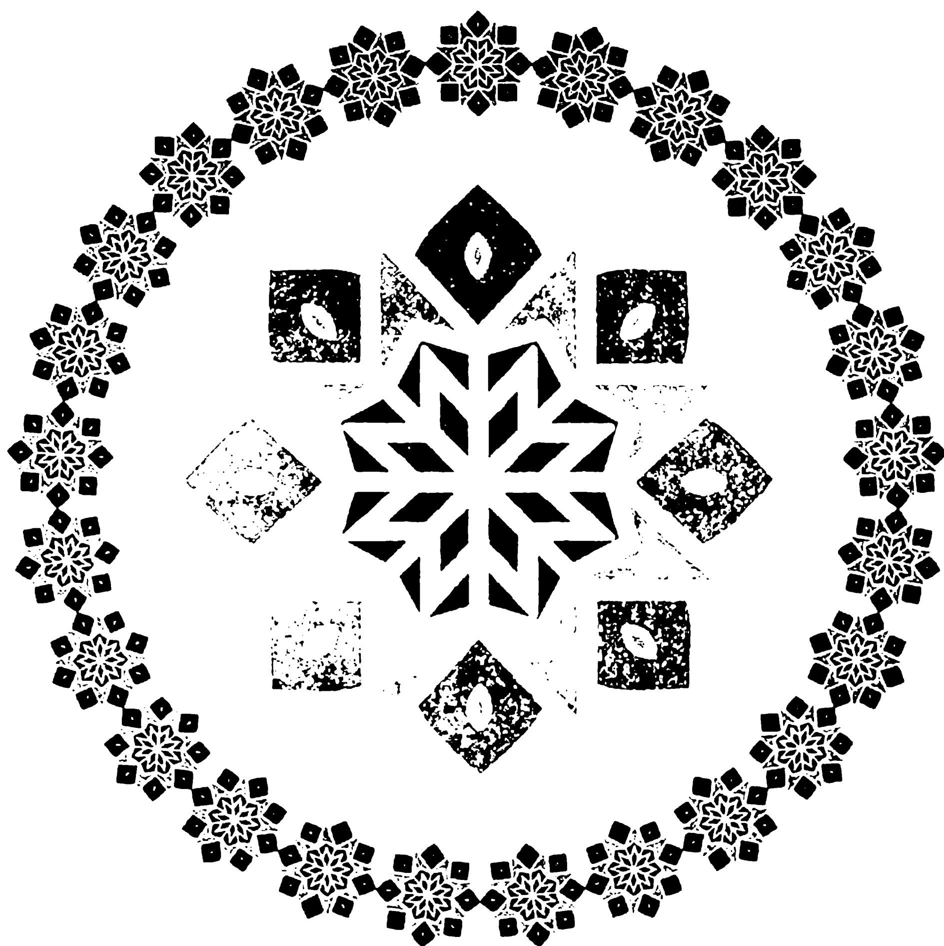


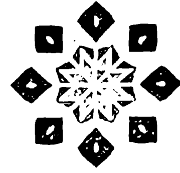


٣٠

مَنزلةُ الأُنس



منزلة الأُنْس



بين يدي الأُنْس

الأُنْس بالله تعالىٰ أعظم لذةٍ وحلاوةٍ في هٰذه الحياة، وكل لذة حُدِّث الإنسانُ بها أو تلذذ بها لا تعدل لذة الأنس بالله جل جلاله، به تطيب النفس وينشرح الصدر ويقوى المؤمن علىٰ تحمُّل مصائب الدنيا، ويسهل عليه القيام بالعبادات والطاعات.

قال أحد السلف: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والتنعم بذكره وطاعته»[١].

ويُقصَد بالأُنس: الفرح والسرور والطمأنينة بالله تعالىٰ، وهو أعلىٰ من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة.

ومقام الأنس من المقامات التي تتفرع عن مقام المحبة؛ قال الإمام الغزالي رحمه الله: «الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة، إلا أن هٰذه آثار مختلفة، تختلف علىٰ المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته... وإذا غلب عليه الفرحُ بالقربِ ومشاهدةُ الحضورِ بما هو حاصلٌ من الكشفِ، وكان نظرُه مقصورًا علىٰ مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غيرَ ملتفتٍ إلىٰ ما لم يدركه بعدُ، استبشر القلبُ بما يلاحظه، فيسمى استبشارُه أنسًا»[٢].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٨٩).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٨/ ٥١٠).

فهو استبشار القلبِ وفرحُه بمطالعة الجمال، حتىٰ إنه إذا غلب عليه الأنس وتجرَّد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر زوال هٰذا الفرح، عظُمَ نعيمُه ولذتُه، وهٰذه مرتبة ثانية من مراتب الأنس(١).

حقيقة الأُنْس

المعنى اللغوي:

الأنس: خلاف الوحشة، يقال: أَنِستُ به أَنَسًا وأَنَسَةً وإِنَسًا، وفيه لغة مشهورة: أَنَستُ به أُنْسًا، مثل: كفرتُ به كُفْرًا. قال ابن فارس: «الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقةَ التوحُّش»(٢).

المعنى الشرعي:

قال أبو نصر الطوسي: «ومعنى الأنس بالله تعالىٰ: الاعتمادُ عليه، والسكون إليه، والاستعانة به، ولا يتهيَّأ أن يُعبَّر عنه بأكثر من هٰذا»(٣).

وسئل أبو سعيد الخراز ﷺ عن الأنس، ما هو؟ فقال: «استبشار القلوب بقرب الله تعالىٰ، وسرورُها به، وهدوُّها في سكونها إليه، وأمنُها معه من حيث الروعات، وإعفاؤه لها من كل ما دونه أن يشير إليه حتىٰ يكون هو المشير؛ لأنها ناعمة به ولا تحمل جفاء غيره»(٤).

فالأنس حالة وجدانية تحمل على التنعم بعبادة الرحمٰن، والشوق إلىٰ لقائه(٥).

---

(١) ينظر: المصدر السابق (٨/ ٥١٠).

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ١٤٥)؛ وينظر: الصحاح للجوهري (٣/ ٩٠٤)؛

(٣) اللمع للطوسي (ص: ٩٦).

(٤) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ١٨٤).

(٥) الأنس بالله لسامي الماجد (ص: ٣).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

منزلة الشوق:

وهي إحدىٰ منازل الإيمان، والشوق أثر من آثار المحبة وحكمٌ من أحكامها، فإنه سفر القلب إلى المحبوب في كل حال، والمحبة أعلىٰ منه؛ لأن الشوق عنها يتولد وعلىٰ قدرها يقوىٰ ويضعف، ومن علاماته: حبُّ القرب مع الراحة والعافية. ووجه العلاقة بين الشوق والأنس: أن الشوق إلى الله تعالىٰ يقتضي الأنس به[(١)].

منزلة الطمأنينة والسكينة:

الطمأنينة: سكون القلب واستقراره وأنسه، وهي راحةٌ تغمر القلب، وأمنٌ يجده المرء في النفس، وسعادة يشعر بها، وسلام وهناء يملأ كيانَه. والسكينة: هي السكون الذي يُنزِله الله تعالىٰ في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجِب له زيادةَ الإيمان وقوةَ اليقين والثبات. والطمأنينة مرادفة للسكينة وثمرة من ثمراتها، والسكينة لا تأتي إلا من قلب مطمئن، فهما متلازمان[(٢)].

فضل الأنس وثمراته

١ . الأُنْس علامة القرب من الله تعالىٰ:

إن أعظم ثمرات مقام القرب هو مقام الأنس بالله تعالىٰ، بل هو روحه ولبه؛ يقول الهروي ﷺ: «الأُنْسُ عبارةٌ عن روح القرب»[(٣)].

(١) ينظر: اللمع للطوسي (ص: ٩٤-٩٥)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٣٣).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٣٢) و(١/ ٣٥٢)؛ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (٣/ ٥١٧)؛ الاطمئنان في القرآن لمحمد خير رمضان يوسف (ص: ٥).

(٣) منازل السائرين للهروي (ص: ٦٩).

وتتجلىٰ عظمة القرب الإلهي في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فاستحضار القلب هٰذا البرَّ واللطفَ والإحسانَ يوجِب قربَه من الرب تعالىٰ، وقربُه منه يوجب له الأُنْسَ، والأُنْسُ ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيعٍ مستأنسٌ، وكل عاصٍ مستوحشٌ، فالقرب يوجب الأنسَ والهيبةَ والمحبةَ[1].

٢. الأُنْس يثمر انشراح القلب واستنارته:

إذا حلَّ أُنْسُ الله تعالىٰ في القلب استنار وانشرح، ومُلئ نورًا وفرحًا، فلا يأنس إلا بالله، وتكون أسعدُ لحظاته الخلوةُ بالله، وتنقلبت المحنُ في حقه إلىٰ منحٍ، والمصائب إلىٰ مكاسب[2].

٣. الأُنْس يثمر ذوق طعم وحلاوة الإيمان:

الإيمان له حلاوة في القلب ولذة لا يساويها شيءٌ أبدًا؛ قال ابن تيمية ﷺ: «القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلىٰ من ذٰلك ولا ألذّ ولا أطيب»[3].

٤. الأُنْس يورث الرضا عن الله تعالىٰ:

من بركات الأُنْس أنه يُورِث الرضا بقضاء الله، واطمئنان القلب لأقداره، والمناعة من الفزع والجزع عند المصائب؛ فأهل الأنس بالله هم أرضى الناس بقضاء الله وقدَره، يمضي فيهم كما يمضي في غيرهم؛ ولٰكنَّ الفرق في التلقي والأثر؛ يتلقون مصائب الدهر وكُرُوبه بتسليم وصبر والتجاء إلى الله عز وجل، فإذا أصابتهم مصيبة قالوا: «إنا لله وإنا إليه راجعون». وإذا اشتدت بهم الكروب

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٨٤).
(٢) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ٦).
(٣) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ١٨٧).

تذكروا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فلا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق، وهم في طمأنينة ولو في مخانق الكروب ومضايقها[١].

شروط الأنس

ذكر العلماء ثلاثة أمور تُشترَط حتىٰ يصل العبد إلىٰ مقام الأنس، وهي عبارة عن ثلاث مراحل أساسية يمر بها القلب حتىٰ يتحقق بمعنى الأنس بالله تعالىٰ والوحشة عن كل ما يلهيه عنه:

١. سلامة القلب من الأمراض:

من أراد أن يملأ الله تعالىٰ قلبَه إيمانًا وانشراحًا وأُنسًا به فليُخْرِج منه الأمراضَ التي تحول بينه وبين ذٰلك، ولا يمكن أن يُطَهّر القلب ما لم تخرج الصفات الخبيثة منه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]، وقد أثنى الله تعالىٰ علىٰ سيدنا إبراهيم ﷺ بهٰذه الصفات، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤][٢].

وإذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلبُ والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عز وجل ومحبته وحلاوة ذكره والأنس بقربه قلبًا ممتلئًا بكلاب الشهوات وصُوَرها![٣].

والقلب السليم هو الذي سلم من ثمانية أمراض، وهي: الشرك (الأصغر)، والحقد، والحسد، والشحُّ، والكبر، وحب الدنيا، وحب الرياسة، وحب الشهرة[٤].

---

(١) ينظر: الأنس بالله لسامي الماجد (ص: ٨).

(٢) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ٦).

(٣) نقله ابن القيم عن شيخه ابن تيمية. ينظر: مدارج السالكين له (٣/ ٢٠٠).

(٤) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ١٧-٣٢).

٢. التعلُّق بالله تعالىٰ والإقبال عليه:

القلب لا يسلم مِن الأمراض والشوائب حتىٰ يُمْلَأ بما يَضادّ هٰذه الأمراض، وأعظمها: الإيمان بالله والإخلاص له، والصدق في طلب مرضاته وحبه ورجائه والتوكل عليه.

قال ابن القيم: «ولا يَلُمُّ شَعَثَ القلوب شيءٌ غير الإقبال على الله والإعراضِ عمّا سواه، فهناك يُلَمُّ شَعَثُه، ويزول كَدَره، ويصحُّ سَقَمُه، ويجد روحَ الحياة، ويذوق طعم الحياة الملَكيّة»[١].

ومن الأمور التي تعين على التعلق والإقبال على الله عز وجل:

أ. الإخلاص التام في العبادة:

وذٰلك بتصفيته عن مراعاة وملاحظة المخلوق، وأن يكون الدافع إليه حب الله تعالىٰ وتعظيمه ورجاء ثوابه ورضوانه والتقرب إليه.

ب. خشوع القلب:

والخشوع هو: قيام القلب بين يدي الربِّ سبحانه بالخضوع والذُّلِّ والجمعية عليه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، والخشوع الذي أمرَ الله عز وجل به عند ذكره وتلاوة كتابه: هو وَجَلُ القلب الذي أثنَى الله تعالىٰ علىٰ أهله، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

ج. النظر إلى المُنعِم لا إلى النعمة فقط:

كثير من الناس ينشغلون بالفرح واللذة بالنعمة عن الفرح بالمنعم عز وجل، والمؤمن الصادق يكون فكرُه ونظرُه متجهًا إلى المنعم تعالىٰ وقت النعمة،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٩٧).

وتكون محبته له تعالىٰ لِما هو له أهلٌ، لا لأجل إحسانه ونعمه عليه فحسب[1].

د. الخلوة مع الله تعالىٰ بالتفكر والافتقار والتذلل بين يديه:

قال ابن القيم ﷺ: «غَرسُ الخلوةِ يُثمِر الأنسَ»[2]. وقال ابن يزدانيار: «إياك أن تطمع في الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حب الله وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس»[3].

٣. إحسان العمل والمسارعة إلى الخيرات:

المؤمن مطالَب بإحسان أعمالِه الصالحة والمسارعةِ إلىٰ ذٰلك، وكلما أسرع إلى الله تعالىٰ بالعمل الصالح أسرع إليه ربُّه الكريم الجواد بالخير والبركة[4].

ومن الأمور التي تعين علىٰ إحسان العمل والمسارعة إلى الخيرات ما يلي:

أ. الصبر علىٰ عبادة الله عز وجل:

أمرَ الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالاصطبار علىٰ عبادته وطاعته، فقال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾[مريم: ٦٥]، والاصطبار: شدة الصبر على الأمر الشَّاقِّ. فمن أراد التوفيق والسعادة والرفعة فعليه بالإكثار من عبادة الله بقلبه وجوارحه.

ب. العناية بحسن العمل لا بكثرته:

وحُسنُه أن يكون على السنة، وخالصًا لله تعالىٰ، وبذٰلك يصلح ويخشع قلبه، ويعظم حبُّه لربه وتوكُّلُه عليه وخوفُه منه ورجاؤُه له، ويُخرِج من قلبِه العللَ والأمراضَ والحظوظَ التي تمنع الأعمالَ أن تكون لله خالصة وأن تصل إليه.

---

(١) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ٤٩-٥٤).

(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ٦٨).

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ١٣١).

(٤) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ٥٧).

مراتب الأنس

١. الأُنْس بالطاعة والاستيحاش مِن الذنب:

فالعبد في هٰذه المرتبة يشاهد ويبصر بقلبه شواهد الحقيقة، فيأنس بالذكر طلبًا لاستئناسه بالمذكور، ويتغذّىٰ بالسماع القرآني كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب؛ قال سهل بن عبد الله: «أولُ الأنس من العبد: أن تأنَسَ النفسُ والجوارحُ بالعقل، ويأنسَ العقلُ والنفس بعلم الشرع، ويأنسَ العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصًا، فيأنس العبد بالله، أي: يسكن إليه»[1].

٢. الأُنْس بالله تعالىٰ والاستيحاش مما سواه من العوارض والخواطر:

قال ذو النون المصري ﷺ حين سئل: ما علامة الأُنْس بالله؟ فقال: «إذا رأيتَه يُؤنِسك بخَلْقِه فإنه هو ذا يوحِشك مِن نفسه، وإذا رأيتَه يُوحِشك مِن خَلْقِه فهو ذا يُؤنسك من نفسه»[2].

٣. وجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأُنْس:

وهي اضمحلال وانعدام العبد في مشاهدة الحضرة والحقيقة، والفناء في ذٰلك الشهود؛ قال بعض العارفين: «إن لله عبادًا أوجدَ لهم من الهيبة له ما أخذهم به عن الأُنْس بغيره»[3].

طرق التحقق بمنزلة الأُنْس

١. توحيد الله تعالىٰ:

إن أعظم طريق للأُنْس بالله تعالىٰ هو تجريد التوحيد له، بحيث لا يرجو العبدُ

(١) اللمع للطوسي (ص: ٩٦).

(٢) المصدر السابق (ص: ٩٧).

(٣) المصدر السابق.

إلا الله، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يدعو غيرَه، ولا يذلُّ إلا له، ولا يطمئن إلا به، ولا يسكن إلا إليه.

٢. إقامة الصلاة بالخشوع والسكينة:

إقامة الصلاة بالتدبر والخشوع من أعظم أسباب السعادة والطمأنينة والسكينة والأُنْس مع الله تعالىٰ، وهي أعظم مصدرٍ للهدايةِ والإيمانِ وجميعِ الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، فالصلاة عمود الإسلام وهي الصلة بين العبد وربه(١).

٣. قيام الليل بالصلاة والذكر والدعاء مع حضور القلب:

وذٰلك أن المؤمن إذا ذاق حلاوة الإيمان ومحبة الرحيم الرحمٰن سيجد للعبادات لذة عجيبة وأُنْسًا لا نظير له، وستكون الخلوة بالله تعالىٰ أحبَّ إليه من كل شيء، فيصبح قيام الليل عنده والناس نيام عيدَه وقُرَّة عينه وانشراح صدره وصلاح باله(٢).

٤. تلاوة القرآن بالتدبر:

قراءة القرآن بتدبر وتفكر يجلب للعبد الأُنْس مع ربه، لأن ربَّه سبحانه يخاطبه في القرآن، فيسمع ويصغي ويتفكر فيما يُلقىٰ إليه من الأوامر والنواهي والوصايا والعبر، كما أنها أعظم وأقوىٰ أسباب سعادة المسلم ولذته وصلاح قلبه، فالقرآن جامعٌ لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والرضا والأُنْس(٣).

---

(١) ينظر: المرجع السابق (ص: ١٠٣).

(٢) ينظر: المرجع السابق (ص: ١١٨).

(٣) ينظر: المرجع السابق (ص: ١٠٤).

٥. اليقين بالله تعالىٰ:

اليقين: هو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه، وضدُّ اليقينِ الرَّيْبُ، وهو نوع من الحركة والاضطراب[١]. والغاية من طلب العلم والعبادة هي أن يصل المؤمن إلىٰ منزلة اليقين التام بالله تعالىٰ، فإذا مَنَّ الله تعالىٰ عليه باليقين به وبكتابه وباليوم الآخر أورثه سعادةً ولذةً عظيمةً، وشوقًا إلىٰ لقائه وحبًّا له وأنسًا به ﷻ[٢]. ويحصل اليقين بثلاثة أشياء: تدبُّرِ القرآن، وتدبرِ الآيات التي يُحدِثها الله في الأنفس والآفاق التي تبيِّن أنه حقٌّ، والعملِ بموجب العلم[٣].

٦. مراقبة الله تعالىٰ:

منزلة المراقبة إذا تحققت في العبد حصل له الأنس بالله تعالىٰ؛ وذٰلك أنه إذا حصلت المراقبة يحصل القرب من الرب سبحانه، والقرب منه جل وعلا يوجب الأُنْس[٤]؛ قال ابن القيم رحمه الله: «والقرب يوجب الأُنْس والهيبة والمحبة[٥]... وقوة الأنس وضعفه علىٰ حسب قوة القرب، فكلما كان القلب من ربه أقرب كان أنسه به أقوىٰ، وكلما كان منه أبعد كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد»[٦].

٧. إخلاص العمل لله تعالىٰ ومشاهدته سبحانه بقلبه:

قال النبي ﷺ في تعريف مقام الإحسان: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٧]. علَّق ابن رجب رحمه الله عليه بقوله: «فهٰذان مقامان؛ أحدهما:

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٣/ ٣٢٩).

(٢) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ١٤٨).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٣/ ٣٢٩).

(٤) الأنس بالله لسامي الماجد (ص: ٥).

(٥) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٨٤).

(٦) المصدر السابق (٣/ ٩٥).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٠) برقم: (٩).

الإخلاص، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه... والثاني: المعرفة التي تستلزم المحبة الخالصة، وهو أن يعمل العبد علىٰ مشاهدة الله بقلبه، وهو أن يتنور قلبه بنور الإيمان... ويتولد عن هٰذين المقامين: الأنس بالله، والخلوة لمناجاته وذكره، واستثقال ما يشغل عنه من مخالطة الناس والاشتغال بهم»[1].

٨. تحقيق مقام المشاهدة والمعاينة لآثار أسمائه وصفاته في الكون:

ومبدؤه التعبد بمقتضىٰ أسمائه تعالىٰ وصفاته، بعد التفهم لمعانيها بحيث يتنور قلبه، فيحصل الأُنس بالله تعالىٰ؛ فهٰذا الأنس ثمرة من ثمرات معرفة أسماء الله وصفاته[2]. قال ابن القيم ﷺ: «هٰذا الأنس المذكور مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات التي يحصل عنها الأنس ويتعلق بها؛ كاسم الجميل، والبَرّ، واللطيف، والودود، والحليم، والرحيم، ونحوها»[3].

٩. التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بالطاعات والبعد عن المعاصي:

قال ذو النون المصري ﷺ: «فكل طائعٍ مستأنسٌ، وكل عاصٍ مستوحش»[4]. وإنما يقع الأنس بتحقيق الطاعة؛ لأن المخالفة توجب الوحشة والقلق، وفي موافقة الشرع فرح المستأنسين وسرورهم.

١٠. الزهد في الدنيا وعدم التعلق بها:

من تيقّن أن الدنيا إلىٰ زوال، ونعيمها مهما طال إلىٰ خراب، خفّ تعلق قلبه بها،

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض الأنس لابن رجب (٣/ ٣٣١-٣٣٤).

(٢) ينظر: الأنس بالله لسامي الماجد (ص: ٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٠٢).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٧٦).

ومن عرف أن راحة النفس في تعبها، وأن عزها في إذلالها لربها، وأن سعادتها في قربها من ربها، وأن حياتها الحقة إنما هي بعد موتها، من عرف هٰذا وذاك، عرف أن لذته وسعادته في روحانية قلبه وقربه من ربه، فيأنس بذكره ويعظِّم أمره(١).

علامات التحقق بالأنس

١. حب الخلوة والعزلة:

وذٰلك لأن الأنس بالله تعالىٰ يلازمه التوحُّش من غيره، بل كل ما يعوق عن الخلوة يكون من أثقل الأشياء علىٰ قلب المستأنس بالله عز وجل؛ قال الغزالي ﷺ: «ومن غلب عليه حالُ الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة»(٢).

٢. التمتع والتلذذ بذكر الله تعالىٰ بقلبه ولسانه:

سواء كان بانفراده أو مع الناس، فاختلاط العبد مع الناس لا يستلزم الإعراض عن ذكر الله عز وجل والتشاغل عن مولاه؛ قال الغزالي ﷺ: «علامته الخاصة: ضِيقُ الصدر من مُعاشرة الخلقِ والتبرُّم بهم، واستهتارُه بعذوبة الذكر، فإنْ خالَطَ فهو كمنفردٍ في جماعةٍ ومجتمعٍ في خلوةٍ، وغريبٍ في حضرٍ وحاضرٍ في سفرٍ، وشاهدٍ في غيبةٍ وغائبٍ في حضورٍ، مخالِطٌ بالبدن منفردٌ بالقلب، مستغرقٌ بعذوبة الذكر»(٣).

٣. الاتصاف ببعض صفات المقربين:

---

(١) ينظر: الأنس بالله لسامي الماجد (ص: ٧).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٨/ ٥١١).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٥١١).

وذلك أن العبد الذي استأنس بالله تعالىٰ في عباداته إن حصل منه تقصير في العبادة أو نقص في الخشوع عما تعوَّد عليه، فإن ذلك يدعوه إلى الاستغفار والتوبة، كما قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فالأبرار هم الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرمات، مع توسُّعٍ في بعض المباحات والنوافل المستحبات، وأما المقربون فمنزلتهم أعلىٰ من منزلة الأبرار الصالحين، فاقتصار المقربين علىٰ أعمال الأبرار يحرمهم درجات المقربين السابقين إلى الخيرات، فهم يتوبون من الاقتصار عليها؛ فهم في أنس مع ربهم؛ لذلك يحرصون على الزيادة في قيام الليل وقراءة القرآن وإقامة الصلاة(١).

الآفات التي تُعكّر صفو الأنس

إن ما يمنع العبد من الوصول والتحقق بمنزلة الأنس بالله تعالىٰ أو تكدُّر عليه أنسَه في حال استئناسه بربه هي أمراض القلوب، وأمراض القلوب على اختلاف أنواعها ودرجاتها ثمانية أمور كما مر، وهي:

١. **الشرك الأصغر**: وهو تعلق القلب بغير الله تعالىٰ، حبًّا أو رجاءً أو خوفًا أو توكُّلًا أو رهبةً أو رغبةً.

٢. **الحقد**: وهو بغض المسلم بسبب شحناء وعداوة دنيوية بينهما.

٣. **الحسد**: وهو تمنِّي زوال النعمة عن المسلم الذي يستعملها فيما يباح، وفيه بخلٌ وظلمٌ؛ فإنه بخلٌ بما أُعطِيه غيرُه، وظلمُه بطلب زوال ذلك عنه.

٤. **الشُّحُّ**: وهو شدة الحرص على الشيء والإحفاء في طلبه والاستقصاء في

---

(١) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ١٨٣-١٨٥).

تحصيله، وجشعُ النفس عليه. والبخل: منعُ إنفاقه بعد حصوله، وحبُّه وإمساكُه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله.

٥. الكِبْر: وهو عدم قبول الحق واحتقار الناس.

٦. حبُّ الدنيا: وذٰلك بالعمل لأجلها والفرح والتعلُّق بها.

٧. حبُّ الرياسة: وهو حب العلوِّ والرفعةِ، وطلبُها والحرصُ عليها بلا مصلحة دينية.

٨. حبُّ الشهرة: وهو أن يسعى الإنسانُ لشهرة نفسه وانتشار ذكره، بلا قصدٍ صحيح من ذٰلك.

وهٰكذا مَن في قلبه شيء من هٰذه الأمراض والخبائث، فإنه مهما عملَ صالحًا واجتهد فلن يجد للأعمال الصالحة لذة وحلاوة؛ لأن هٰذه الأمراض القلبية تحجب أثرَ هٰذه الأعمال عن القلب.

وجماع هٰذه الأمراض في مرضٍ واحد، وهو: حبُّ الدنيا مع اتباع الهوىٰ، وجماع صلاح القلب في مخالفة الهوىٰ إيثارًا لمرضاة الرب عز وجل[1].

فروع متعلقة بالأنس

قد يَصدر عن أهل الأُنس ما هو مخالف للشرع:

تجري لأهل الأنس والمحبة أحوال وتخرج من أفواههم عبارات لا تليق من حيث الظاهر، وتدل على الاجتراء على الله عز وجل وقلة الهيبة، وهي في نظر العوام أمور تدعو إلىٰ تكفيرهم أو تفسيقهم، لٰكنهم معذورون لما غلب عليهم في مقام الأُنْس، ولا يجوز لغيرهم أن يُقلِّدوهم في ذٰلك، كما يجب إنكار هٰذه العبارات وعدم استعمالها؛ لِما فيها من مخالفة الشرع وسوء الأدب مع الله

(١) ينظر: الأنس بالله تعالىٰ لأحمد ناصر الطيار (ص: ١٧-٣٣).

تعالىٰ. وقد حصل مثل ذٰلك لبعض العارفين من زمن السلف فمن بعدهم.

قال الغزالي ﷺ: «اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوِّشه قلقُ الشوق ولم ينغصه خوفُ التغير والحجاب، فإنه يثمر نوعًا مِن الانْبِساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالىٰ، وقد يكون منكرَ الصورة لِما فيه مِن الجراءة وقلة الهيبة، ولٰكنه محتمل ممن أُقيم في مقام الأنس، ومَن لم يقم في ذٰلك المقام ويتشبَّه بهم في الفعل والكلام هلكَ به وأشرف على الكفر»، وذكر أمثلة مما وقع من ذٰلك لبعض العارفين، ثم قال: «فهٰذا وأمثاله يجري لذوي الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم»[١].

قال الجنيد ﷺ: «أهلُ الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياءَ هي كفرٌ عند العامة... لو سمعها العمومُ لكفَّرُوهم»[٢].

نماذج من أُنْس الصالحين

١ . قيل لرابعة العدوية: «بِمَ نلتِ هٰذه المنزلةَ؟ قالت: بِتركي ما لا يعنيني وأنسي بمَن لم يزل»[٣].

٢. قال إبراهيم بن أدهم ﷺ: «أعلى الدرجات أن تنقطع إلىٰ ربك، وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك، حتىٰ لا ترجو إلا ربك ولا تخاف إلا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتىٰ لا تؤْثِر عليها شيئًا، فإذا كنت كذٰلك لم تبال في بَرٍّ كنت، أو في بحرٍ، أو في سهلٍ، أو في جبلٍ، وكان شوقك إلىٰ لقاء الحبيب شوق الظمآن إلى الماء البارد، وشوق الجائع

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٨/ ٥١٥-٥١٧).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٥١٧).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٠٨).

إلى الطعام الطيب، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف»(١).

٣. وقال أيضًا: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»(٢).

٤. وقال الفضيل بن عياض ﷺ: «طوبى لمن استوحش من الناس وأَنِسَ بربه وبكى على خطيئته»(٣).

المقترحات العملية والتدريبات

١. قراءة آخر سورة الحشر أو أول سورة فاطر بتدبُّر وتفكُّر وتفهُّم لمعانيها.

٢. المواظبة على قيام الليل ومحاولة تذوُّق حلاوة الخلوة بالله تعالى.

٣. قراءة منزلة الأنس بالله تعالى من كتاب (مدارج السالكين) لابن القيم وتلخيصها.

٤. قراءة كتاب (الأنس بالله تعالى) لأحمد ناصر الطيار.

٥. أكثِر من ترداد هذ الذكر الذي علمه النبي ﷺلرجل يشكو إليه الوحشة، فقال: «أكثر مِن أن تقول: سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جلَّلْتَ السماوات والأرض بالعزة والجبروت»(٤).

---

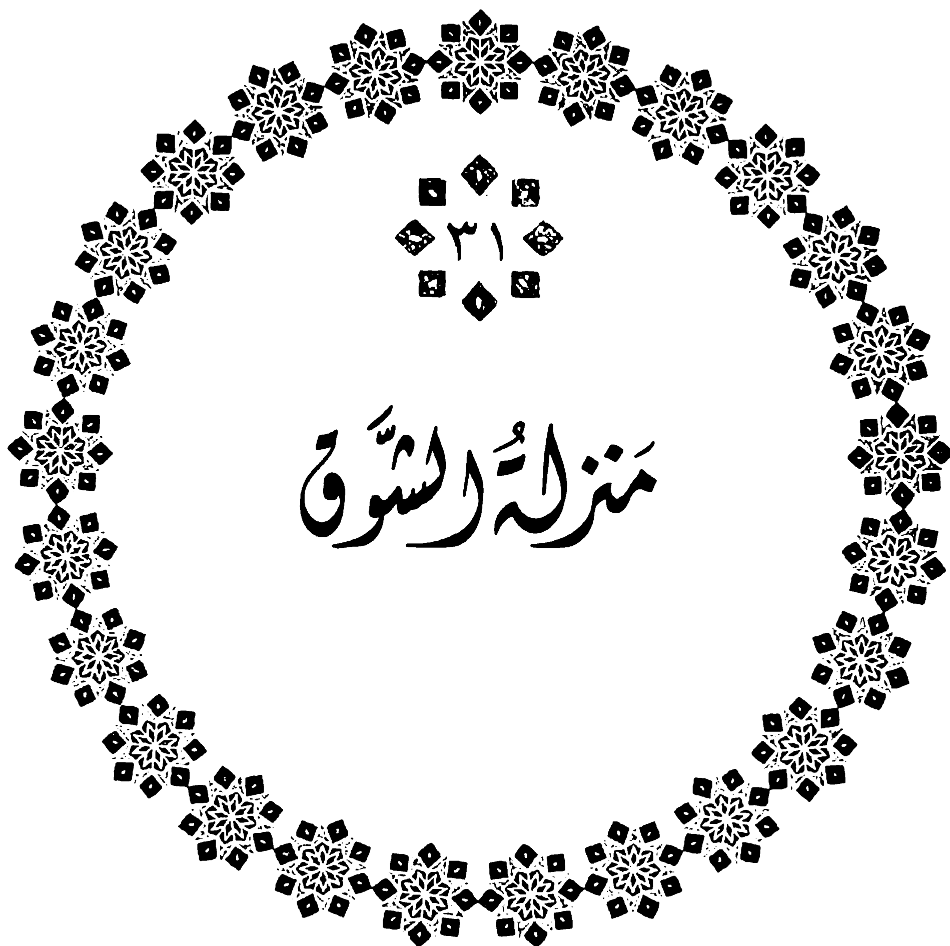
(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ١٣٣).

(٢) شرح حديث عمار بن ياسر ﷺ لابن رجب الحنبلي (ص: ١٧٢).

(٣) طبقات الصوفية للسلمي (٢٧)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٠٨).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٤) برقم: (١١٧١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٨): «رواه الطبراني، وفيه محمد بن إيان الجعفي، وهو ضعيف»

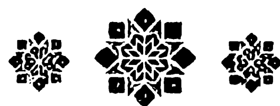


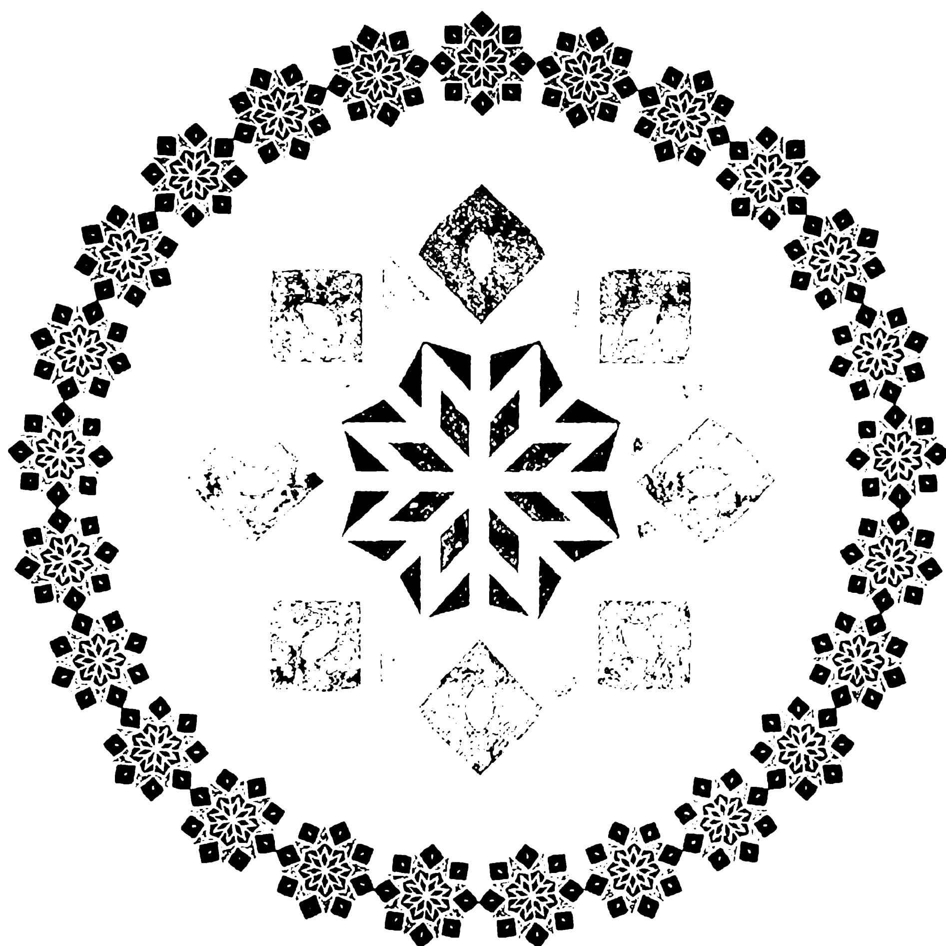


٣١

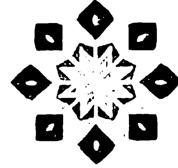
منزلة الشوق



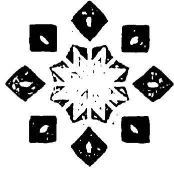








منزلة الشوق



بين يدي الشوق

الشوق إلىٰ لقاء الله درجة عالية رفيعة تنشأ من قوة المحبة له سبحانه، فهو أثرٌ من آثارها، وعلىٰ قدر المحبة يكون الشوق، وعندما يتمكن حب الله من قلب العبد، فمن شأنه أن يجعله حريصًا على اغتنام أي فرصة للخلوة به سبحانه وذكره ومناجاته، وشيئًا فشيئًا تُستَثار كوَامن الشوق إليه سبحانه، وتستبد بالقلب، وتُلِحُّ عليه في طلب رؤيته، ليأتي العِلم فيخبره بأنه لا رؤية ولا لقاء لله في الحياة الدنيا، بل بعد الموت، فيزداد الشوق إلىٰ هٰذا اللقاء.

إذا كان حُب الهائمين مِن الورىٰ ... بليلىٰ وسلمىٰ يَسْلُب اللُّبَّ والعَقْلا
فماذا عسىٰ أن يصنع الهائمُ الذي ... سرىٰ قلبُه شوقًا إلى العالَمِ الأعلىٰ[1]

وأهم ما في الشوق حب اللقاء بالمحبوب، قال السراج: «الشوق هو لعبدٍ قد تبرَّم ببقائه شوقًا إلىٰ لقاء محبوبه»[2]. وقد كان كثير من السلف الصالح يتمنون الموت شوقًا إلىٰ لقاء الله عز وجل؛ عن أبي الدرداء، قال: «أحب الموت اشتياقًا إلىٰ ربي، وأحب الفقر تواضعًا لربي، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي»[3].

---

(١) الكشكول لمحمد بن حسين الهمذاني (١/ ٤٣).
(٢) اللمع لأبي نصر السراج (ص: ٩٤).
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢١٧).

وقال ذو النون: «الشوق أعلى الدرجات، وأعلى المقامات، إذا بلغها العبد استبطأ الموت شوقًا إلىٰ ربّه، وحبّا للقائه والنظر إليه»(١).

مـا نـال عبد مِـن الرحمـٰن منزلـةً   أعلىٰ مِن الشوق، إن الشوق محمودُ(٢)

ولا شك أن المؤمنين موعدون برؤية ربهم تبارك وتعالىٰ في الآخرة؛ قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وفي الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلىٰ ربهم عز وجل»(٣). وتلك هي السلوى الحقيقية التي ينتظرها أحباء الله، قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، هٰذا تعزيةٌ للمشتاقين، وتسليةٌ لهم؛ أي أنا أعلم أنّ من كان يرجو لقائي فهو مشتاقٌ إليّ، فقد أجَّلتُ له أجلًا يكون عن قريبٍ، فإنّه آتٍ لا محالة(٤).

حقيقة الشوق

الشوق في اللغة:

الشّوقُ: تعلق الشيء بالشيء، وهو نزاع النفس إلى الشيء، وجمعه أشواق، وقال ابن الأعرابي: الشوق حركة الهوىٰ، وشاقني حسنها وذكرها يُشَوِّقني، أي: هَيَّج شوقي(٥).

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٣٧٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٣٦٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١١٢) برقم: (١٨١).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٣٢).

(٥) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٥/ ١٨٤)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ١٦٩)؛ الصحاح للجوهري

الشوق في الشرع:

عرف العلماء الشوق بتعريفات تدور حول معنى اهتياج القلب عند ذكر المحبوب شوقًا إلىٰ لقائه، ونقل السراج عدة تعريفات له، فقال: «سئل بعضهم عن الشوق فقال: هَيَمان القلب عند ذكر المحبوب. وقال آخر: الشوق: نار الله تعالىٰ، أشعلها في قلوب أوليائه حتىٰ يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات»(١).

وعرفه الأستاذ أبو علي الدقاق بأنه: «اهتياج القلوب إلىٰ لقاء المحبوب»(٢).

وقال ابن القيم: «هو سفرُ القلب في طلب محبوبه، بحيث لا يقرّ قراره حتّىٰ يظفر به ويحصل له»(٣).

وقد فرقوا بين الشوق والاشتياق؛ فالشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول باللقاء(٤)، ولذلك عرف الجرجاني الاشتياق بأنه: «انجذاب باطن المحب إلى المحبوب حال الوصال؛ لنيل زيادة اللذة أو دوامها»(٥).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

الشوق والمحبة:

لا شك أن الشوق متولد عن المحبة؛ فالمحبَّة بَذْرٌ في القلب، والشوق بعض

(٤/ ١٥٠٤).

(١) اللمع لأبي نصر السراج (ص: ٩٤).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٦).

(٣) طريق الهجرتين لابن القيم (٢/ ٧١٣).

(٤) ينظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٦).

(٥) التعريفات للجرجاني (ص: ٢٧).

ثمرات ذلك البذر. ولكنهم اختلفوا أيهما أفضل؛ فبعضهم جعلهما في مرتبة واحدة؛ قال أبو عثمان: «الشوق هو المحبّة؛ من أحبَّ الله اشتاق إلىٰ لقائه»(١).

ومنهم من جعل الشوق أدنىٰ درجةً من المحبة؛ واحتجُّوا: بأنَّ الشوق غايته أن يكون أثرًا من آثار المحبة، ويتولَّد عنها، فهي أصله، وهو فرعها؛ سئل ابن عطاء عن الشوق، فقيل له: «الشوق أعلىٰ أم المحبة؟ فقال: المحبة؛ لأن الشوق منها يتولد»(٢).

وقالت طائفة -منهم سَرِيّ السقَطي وغيره-: الشوق أعلىٰ؛ قال الجنيد: «سمعت السريّ يقول: الشوق أجلّ مقام للعارف إذا تحقَّق فيه، وإذا تحقَّق في الشوق لها عن كلِّ شيء يشغله عمَّن يشتاق إليه»(٣).

فضل الشوق وثمراته

١. كان النبي ﷺ يسأل الله الشوق إليه:

مما يدل علىٰ فضل الشوق ما ورد أن النبي ﷺ كان يسأل الله تعالى الشوق إلىٰ لقائه؛ فقد كان من دعائه قوله: «وأسألك لذَّةَ النّظرِ إلىٰ وجهك، والشّوقَ إلىٰ لقائك، في غير ضراء مُضرَّة، ولا فتنة مضلّة»(٤).

قال ابن رجب تعليقًا على الحديث: «وإنما قال: «من غير ضراء مضرة ولا فتنة

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٣٧٩).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٩٩).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٤) برقم: (١٩٧١)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٤) برقم: (١٩٢٩)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه؛ والنسائي في المجتبىٰ (١/ ٢٧٨) برقم: (١٣٠٤/ ١)؛ وأحمد في مسنده (٨/ ٤١٦٦) برقم: (١٨٦١٥).

مضلة»؛ لأن الشوق إلىٰ لقاء الله يستلزم محبة الموت، والموت يقع تَـمَنِّيه كثيرًا من أهل الدنيا بوقوع الضراء المُضرة في الدنيا، وإن كان منهيًّا عنه في الشرع، ويقع من أهل الدين تَـمَنِّيه لخشية الوقوع في الفتن المضلة، فسأل تمني الموت خاليًا من هٰذين الحالين، وأن يكون ناشئًا عن محض محبة الله والشوق إلىٰ لقائه»(١).

٢. الشوق حاملٌ على الطاعة منفِّرٌ من المعصية:

إذا سرى الشوق في القلب حرّك في الإنسان الجد والنشاط، ويسّر عليه كل عسير؛

فحيَّهلا إن كنتَ ذا همةٍ فقد حدا ... بك حادي الشوق فاطوِ المراحلا
وقل لمنادي حبّهم ورضاهمُ ... إذا ما دعا لبّيك ألفًا كَواملا
ولا تنتظِرْ بالسّير رُفْقـةَ قاعـدٍ ... ودَعْه فإنّ الشّوقَ يكفيك حاملا(٢)

قال يوسف بن أسباط: «لا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق»(٣).

فالمؤمن لا يندفع إلىٰ تنفيذ أوامر الله تعالىٰ واجتناب نواهيه بدون سائقٍ من الحب له سبحانه، أو رادع من المهابة منه؛ قال الشاطبي في بيان هٰذا المعنىٰ: «فالخوف سَوط سائق، والرجاء حادٍ قائد، والمحبة تيارٌ حامل، فالخائف يعمل مع وجود المشقة، غير أن الخوف مما هو أشقّ يحمل على الصبر علىٰ ما هو أهون وإن كان شاقًّا، والراجي يعمل مع وجود المشقة أيضًا، غير أن الرجاء في

(١) شرح حديث لبيك اللهم لبيك لابن رجب (ص: ٩٥).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣٦٦).
(٣) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٥/ ١٨٣).

تمام الراحة يحمل على الصبر علىٰ تمام التعب، والمحب يعمل ببذل المجهود شوقًا إلى المحبوب، فيسهل عليه الصعب، ويقرب عليه البعيد، ويفنى القوي ولا يرىٰ أنه أوفىٰ بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة»[١].

كان داود الطائي يقول بالليل: «همُّك عطَّل عَلَيَّ الهموم، وخالف بيني وبين السهاد، وشوقي إِلَى النظر إليك أوبق مني اللذات، وخالف بيني وبين الشهوات»[٢].

مراتب الشوق[٣]

١. الشوق إلى الجنّة:

وهٰذا الشوق يبعث صاحبه على العمل، فيهوِّن عليه الصعاب، لما يأمل من الوصول إلىٰ رضوان الله والجنة؛ ومن أمثلة هٰذا الشوق ما حدث مع عمير بن الحمام في غزوة بدر عندما سمع النبي ﷺ يقول: «قوموا إلىٰ جنة عرضها السماوات والأرض»، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض! قال: «نعم»، قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك علىٰ قولك: بخٍ بخٍ؟»، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمراتٍ من قَرْنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حَيِيتُ حتىٰ آكل تمراتي هٰذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمىٰ بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتىٰ قتل»[٤].

(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ٢٤٥).
(٢) شرح حديث لبيك لابن رجب (ص: ١٣١).
(٣) ينظر: منازل السائرين للهروي مع شرحه مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٤٠-٤٤٤).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٤٤) برقم: (١٩٠١).

وكذٰلك قول أنس بن النضر في غزوة أُحد: «الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد»[1].

٢. الشوق إلى الله عزّ وجلّ:

وهٰذا الشّوق شوقٌ زرعَه الحبُّ الذي سببه مطالعة منّة الله وإحسانه ونعمه، ومحبّة الأسماء والصِّفات أكمل وأقوىٰ من محبّة الإحسان والآلاء؛ قال سفيان الثوري لرابعة العدوية: «لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفًا من الله، فأكون كالأمة السوء إن خافت عملت، ولا حبًّا للجنة، فأكون كأمة السوء إن أعطيت عملت، ولكني عبدته حبًّا له وشوقًا إليه»، وقالت في معنىٰ ذٰلك:

أحبّـك حُبيـن: حـبّ الهـوىٰ   وحبًّـا لأنّـك أهـلٌ لـذاك
فأمّـا الـذي هـو حـبّ الهـوىٰ   فشـغلي بذكـرك عمّـن سـواك
وأمّـا الـذي أنـت أهـل لـه   فكشفك لي الحجب حتىٰ أراك[2]

وفي الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلىٰ ربهم عز وجل»[3].

٣. شوقٌ شبيهٌ بالنار التي أضرمَها صفوُ المحبّة:

فهو شوق يلتهب في الأحشاء، فيُنغِّص العيش ويمنع صاحبه السكون، وقد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩) برقم: (٢٨٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٤٥) برقم: (١٩٠٣).
(٢) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٩٤).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١١٢) برقم: (١٨١).

يقوىٰ هٰذا الشوق ويتجرّد عن الصبر فيسمىٰ قلقًا؛ عن محمد بن بكار قال: «كانت عندنا بمكة امرأة عابدة، فكانت لا تمرّ بها ساعة إلا وهي صارخة، فقيل لها يومًا: إنا لنراكِ علىٰ حالٍ ما نرىٰ غيرك عليها! فإن كان بك داء عالجناكِ، قال: فبكت، وقالت: مَن لي بعلاجِ هٰذا الداء؟ وهل أقرح قلبي إلا التفكر في نيل معالجته؟ أليس عجبًا أن أكون حية بين أظهركم وفي قلبي من الاشتياق إلىٰ ربي مثل شعل النار التي لا تطفأ!»(1). وكان أبو عبيدة الخواص يمشي في الطريق ويصيح: «واشوقاه إلىٰ من يراني ولا أراه»(2).

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال يومًا: «اللهم إن كنت أعطيت أحدًا من المحبين ما سكنت به قلوبهم قبل لقائك، فأعطني ذٰلك، فلقد أضرّ بي القلق، قال: فنمت فرأيته تعالىٰ في النوم، فوقفني بين يديه، وقال: يا إبراهيم ما استحييت مني، تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي؟ وهل يسكن قلب المشتاق إلىٰ غير حبيبه؟ أم كيف يستريح المحب إلىٰ غير من اشتاق إليه؟ فقلت: يا رب تهت في حبك فلم أدري ما أقول»(3).

ومنهم مَن بلغ هٰذه المرتبة ولٰكن أعطاه الله بعد بلوغهم إليها الأُنس به والطمأنينة إليه، فسكنَت قلوبهم بما كُشف لها من آثار قربه ومشاهدته، ووجدوا لذّة الأنس به في الذكر والطاعة، وصار عيشهم مع الله في نعيم سرمدي، وطاب لهم السير إليه في الدنيا بالطاعات؛ وهٰذه كانت حال نبينا ﷺ وأصحابه، وهي حال كثير من العارفين، سرورهم بمن أحبوه واشتاقوا إليه، فهؤلاء كلما أقلقهم الشوق سكَّنَهم الأُنس والقرب.

(1) صفة الصفوة لابن الجوزي (1/ 451).

(2) المدهش لابن الجوزي (ص: 407).

(3) قوت القلوب لأبي طالب المكي (2/ 100).

طرق اكتساب الشوق

١ . المعرفة بالله وأسمائه وصفاته:

المحبةُ والشوقُ تابعٌ لمعرفة الله والعلم به؛ فكلَّما كان العلمُ به أتَمَّ؛ كانتْ محبتُهُ أكملَ، فمَن كان بالله وأسمائه وصفاته ودينه أعرف كان له أحبَّ، وكانت لذَّتُه بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلىٰ وجهه وسماع كلامه أتمَّ؛ قال بعضهم: «من عرف الله اتَّسم بالبقاء، واشتاق إلى اللقاء، وضاقت عليه الدنيا بحذافيرها»[١].

٢ . معرفة ما أعَدَّه الله لعباده الصالحين في الجنة:

إن الصالحين لما علموا ما أعده الله لهم طارت قلوبهم شوقًا إلىٰ ما عنده، فاشتاقوا للقاء الله تعالىٰ؛ لعلمهم بأن الدار الآخرة لمن اتقى الله تعالىٰ ورجا لقاءه؛ قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»[٢].

قال رجل لبشر بن الحارث: «من عرف الدنيا لم يطمئن إليها، ومن أبصر ضررها أعد لها دواءها، ومن عرف الآخرة ألح في طلبها، ومن توهمها اشتاق إلىٰ ما فيها فهان عليه العمل، ثم قال: فكيف لو توهمت من يملكها ومن زخرفها ومن قال لها: فكانت وتزيني فتزينت؟ والتشوق إلىٰ مالكها أولىٰ بقلوب المشتاقين، وأطيب لعيش المستأنسين»[٣].

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١٨) برقم: (٣٢٤٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٣) برقم: (٢٨٢٤).

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٤٧٨).

٣. كثرة ذكر الله تعالىٰ:

قال ذو النون بن إبراهيم: «صلاة الفرض مفتاح الخوف، والنافلة مفتاح باب الرجاء، وذكر الله الدائم مفتاح باب الشوق، وليس بالخوف تنال الفرض، ولكن بالفرض تنال الخوف، ولا بالرجاء تنال النافلة، ولكن بالنافلة تنال الرجاء، ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه، وهٰذا سرّ الملكوت فاعلمه واحفظه»(١).

٤. السهر في طاعة الله تعالىٰ:

إن الشوق ينشأ من المحبة، والمحبة تنشأ من طول السهر في طاعة الله تعالىٰ، فمن زادت نوافله وأطال الوقوف بين يدي الله تعالىٰ في ظلمات الليل أشرق نور المحبة في قلبه، فنشأ عن ذٰلك شوقه إليه سبحانه؛ أنشد بعضهم:

فهَجَرَ الرُّقادَ وطِيبَ الزواد ... وأَلِفَ السُّهادَ وأمسىٰ علمْ
إذا نامَ ناداهُ فرْطُ الغرام ... أفِق إنَّ محبوبنا لم ينمْ
فقام يُرَدِّدُ زفَراتِه ... ويَفزع للهِ مولى النعمْ
جفىٰ جفنَه يا خليليْ الكرىٰ ... وقام يُناجي وصَفَّ القَدَم(٢)

٥. التَّقَلُّل مِن الأكل:

خُلِق بدنُ ابنِ آدم من الأرض وروحُه من ملكوت السماء، وقُرِنَ بينهما؛ فإذا أجاع بدنَه وأسهَره وجدتْ روحُه خفةً وراحة، فتاقتْ إلى الموضع الذي خُلِقتْ منه، واشتاقت إلىٰ عالمها العلوي. وإذا أشبَعه ونعَّمه ونوَّمَه واشتغل بخدمتِه وراحتِه أخلد البدنُ إلى الموضع الذي خُلِق منه، فانجذبت الروحُ معه،

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٧٨).
(٢) البحور الزاخرة في علوم الآخرة للسفاريني (٣/ ١٥٨٥).

فصارتْ في السجن؛ فلولا أنها ألِفت السجنَ لاستغاثتْ من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خُلِقت منه كما يستغيث المعذَّبُ، فكلَّما خفَّ البدنُ لَطُفتِ الروحُ وخفَّتْ وطلبت عالمها العلوي، وكلما ثَقُل البدن وأخلدَ إلىٰ الشهوات والراحة ثقلتِ الروحُ وهبطتْ من عالمها وصارتْ أرضيةً سُفْليةً[1].

علامات التحقق بالشوق

١. المسارعة في رضا الله تعالىٰ والفرح بما يأتي منه:

الشوق يحمل المحبَّ على العَجَلة في رضا محبوبه، والمبادرة إليه علىٰ الفور، ولو كان فيه تَلَفُه؛ قال أبو علي الدقاق في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٣-٨٤]، قال: «معناه: شوقًا إليك، فستَرَه بلفظ الرضا»[2]، والشوق هو الذي حمل موسىٰ علىٰ سؤال الرؤية عندما سمع كلام الله تعالىٰ، فغلىٰ شوقه غَلْيَ الْمِرْجل، وضاق به الأمر، ففزع إلى الرؤية طمعًا لتسكين غليانه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وعن أنس قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، قال: فحَسَر رسول الله ﷺ ثوبه، حتىٰ أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله، لم صنعت هٰذا؟ قال: «لأنه حديث عهد بربه تعالىٰ»[3]. فكأنه ﷺ وجد روحًا إلىٰ ذٰلك المطر بما وصف من حداثة عهده بربه عز وجل، وكذٰلك جد المشتاق إلىٰ لقاء من غاب عنه فهو قَلِقٌ لمكانه، فإذا ورد عليه منه كتاب أو شيء من آثاره كان له فيه أنس وإليه استرواح وبه تلذذ[4].

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٤٥).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٢٦) برقم: (٨٩٨).

(٤) ينظر: نوادر الأصول للحكيم الترمذي (٢/ ٤٥).

٢. البُعد عن المعاصي والمحرمات:

قال يحيي بن معاذ: «علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات»[١]. وأشد الفطام للنفس في صبرها عن الشهوات؛ فهي ترى الحرام مُيَسرًا لا يمنعها مانع ولا يحجزها حاجز سوى الله تعالى الذي يجعل الإيمان في القلب كالجبل الشامخ، الذي لا يتطاوله متطاول إلا بشق الأنفس.

٣. الزهد في الدنيا:

كان علي بن سهل الأصبهاني أولًا مُترفًا، ثم صار زاهدًا عابدًا، يبقى الأيام لا يأكل فيها شيئًا، وكان يقول: «ألهاني الشوق إلى الله عن الطعام والشراب»[٢]. قال الجنيد: «سمعت السَّريَّ يقول: الشوق أجلُّ مقام العارف؛ إذا تحقَّق فيه، وإذا تحقَّق بالشوق لها عن كلِّ ما يشغله عمَّن يشتاق إليه»[٣].

٤. حب الخلوة في مناجاة الله تعالى:

أَقَرُّ شيءٍ لعين المحبِّ خلوته بسرِّه مع محبوبه؛ قال ابن القيم: «حدَّثني من رأىٰ شيخنا في عُنْفُوان أمره، خرج إلى البريَّة بكرةً، فلمَّا أصحر؛ تنفَّس الصُّعداء، ثمَّ تمثَّل بقول الشاعر:

وأخرجُ من بين البيوت لعلَّني ... أُحَدِّثُ عنك القلبَ بالسرِّ خاليا»[٤]

فقلوبُ المحبينَ جمرةٌ تحتَ فحمةِ الليلِ كلما هبَّ عليها نسيمُ السحرِ التهبَتْ:

يذكِّرُني مَرُّ النسيم عهودكمُ ... فأزدادُ شوقًا كلَّما هبتِ الريحُ

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٧).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١١/ ١٥٠).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٩).

(٤) روضة المحبين لابن القيم (ص: ٥٩٠).

أرَاني إذا ما أظلمَ الليلُ أشرقتْ بقلبِي مِنْ نارِ الغرامِ مصابيحُ[1]

قال مالك بن دينار ﷺ: «إن القلب المحب لله يحب النَّصَبَ لله عز وجل»[2].

٥. استعجال لقاء الله:

فالمحبَّ لا يتمُّ له سرورٌ إلَّا بمحبوبه، وما دام غائبًا عنه فعيشُه كلُّهُ مُنغَّصٌ؛ قال أبو علي الدقاق: «من علامات الشوق تمَنّي الموت علىٰ بساط العوافي؛ كيوسف ﷺ لما أُلقي في الجب لم يقل: توفني، ولما أُدخل السجن لم يقل: توفني، ولما دخل عليه أبواه وخَرَّ الأخوة له سُجدًا وتَمّ له الملك والنعم قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، وفي معناه أنشدوا:

نحن في أكملِ السُّرور ولٰكنْ ليسَ إلَّا بكم يتمُّ السُّرورُ

عيبُ ما نحنُ فيه يا أهلَ وُدِّي أنَّكم غُيَّبٌ ونحنُ حضور»[3]

قال أبو عثمان: «علامة الشوق حب الموت مع الراحة»[4]. وكان أبو عبد ربه يقول: «لو أن نهركم هٰذا سال ذهبًا وفضة من شاء خرج إليه فأخذ منه ما خرجت إليه، ولو قيل: من مَسّ هٰذا العمود مات لَسَرَّني أن أُقرِّب إليه وأموت شوقًا إلى الله ورسوله»[5].

وكانت بعض العابدات تقول: «والله لقد سئمت الحياة حتىٰ لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقًا إلى الله وحبًّا للقائه»[6].

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٥٠٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٦٣).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٨).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٩٧).

(٥) المعرفة والتاريخ لأبي يوسف الفسوي (٢/ ٤١٨).

(٦) مواعظ ابن الجوزي (ص: ١٠٥).



وعن عبد الله بن أبي زكريا قال: «لو خُيِّرت بين أن أُعَمَّر مائة سنة من ذي قبل في طاعة الله، أو أن أقبض في يومي هٰذا، أو في ساعتي هٰذه، لاخترت أن أقبض في يومي هٰذا، أو في ساعتي هٰذه، تَشَوُّقًا إلىٰ الله ورسوله، والصالحين من عباده»[1].

الآفات المؤثرة على الشوق[2]

١. حب الدنيا:

إذا اشترك حب الدنيا مع محبة الله تعالىٰ أسقط المحبة من أساسها، فما بالك بالشوق الذي هو ثمرة المحبة، فالمحبة نار ولهيبها الشوق، فإشراك حب الدنيا مع الله تعالىٰ كمن يرش الماء علىٰ نيران المحبة، فينطفئ لهيب الشوق.

٢. التعلق بحظ الدنيا:

إن آفة الشوق إلىٰ ما في الجنة التعلق بلذات الدنيا، فإن التعلق بمُتَع الدنيا يَذهب بشوق العبد إلىٰ ما في الجنة من نعيم؛ قال تعالىٰ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

٣. محبة النفس والرفق بها:

فالشوق لله تعالىٰ يحتاج إلىٰ مجاهدة ومكابدة، وإلىٰ معرفةٍ وسلوك، وكلها طرق تأبى النفس قبولها؛ لمشقتها وصعوبتها، فإذا أرخى الزمام لنفسه خرج الشوق من قلبه.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٥١).

(٢) ينظر: أبواب التصوف لمحمد بن عبد القادر الجيلاني وشرحه لميعاد الكيلاني (ص: ٢٢٢-٢٢٤).

نماذج من شوق الصالحين

١. شوق النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ كثير الشوق إلى الله تعالىٰ وإلىٰ لقائه، وقد مر أن النبي ﷺ كان يسأل الله الشوق إلىٰ لقائه، ولما خيّره الله تعالىٰ بين الدنيا وبين ما عنده اختار لقاء ربه؛ عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «عبدٌ خيَّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»، فبكىٰ أبو بكر وبكىٰ، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا به»[(١)].

وحقق هٰذا الشوق لما حضرته الوفاة؛ عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يُقبض نبيٌّ حتىٰ يرىٰ مقعده من الجنة، ثم يُخَيَّر»، فلما نَزَل به، ورأسه علىٰ فخذي، غُشيَ عليه، ثم أفاق، فأشخص بصره إلىٰ سقف البيت، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلىٰ»، فقلت: إذًا لا يختارنا»[(٢)].

٢. شوق عبد الله بن المبارك:

جاء أحمد بن حامد الأسود إلىٰ عبد الله بن المبارك، فقال: «رأيت في المنام أنك تموت إلىٰ سنة، فلو استعددت للخروج، فقال له عبد الله بن المبارك: لقد أجلتنا إلىٰ أمد بعيد، أعيش أنا إلىٰ سنة؟! لقد كان لي أُنْسٌ بهٰذا البيت الذي سمعته من هٰذا الثقفي -يعني: أبا علي-:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٥٧) برقم: (٣٩٠٤)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٠٨) برقم: (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٥) برقم: (٤٤٦٣)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٣٧) برقم: (٢٤٤٤).

يا من شكا شوقه من طول فرقته | اصبر لعلك تلقىٰ من تحب غدا»[1]

٣. شوق السَّرِيّ السَّقَطِي:

يقول الجنيد: «كنت يومًا عند السَّري بن المغلِّس بن الحسين، وهو مُتَّزِرٌ بمئزر، وكنا خالِيَين، فنظرت إلىٰ جسده كأنه جسد سقيم دَنِف مُضنىٰ، وأجهد ما يكون، فقال: انظر إلىٰ جسدي هٰذا، فلو شئتُ أن أقول: إن ما بي هٰذا من المحبة كان كما أقول. وكان وجهه يصفرُّ، ثم اشرأَبَّ حُمرةً حتىٰ تورَّد، ثم اعتَلّ، فدخلت عليه أعوده، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: كيف أشكو ما بي إلىٰ طبيبي والذي أصابني من طبيبي! فأخذتُ الْمِروَحة أُرَوِّحه، فقال: كيف يجد رَوح المروحة مَن جوفه يحترق من داخل؟ ثم أنشأ يقول:

القلب محترقٌ والدمع مستبقٌ | والكرب مجتمعٌ والصبر مفترقُ
كيف القرار علىٰ مَن لا قرار له | مما جناه الهوىٰ والشوق والقلقُ
يا ربِّ إنْ كان شيءٌ فيه لي فرجٌ | فامنُنْ عليَّ به ما دام لي رمقُ[2]

٤. شوق ضيغم بن مالك:

عن مالك بن ضيغم قال: «قالت أمه -يعني أم ضيغم- ذات يوم: ضيغم، قال: لبيك يا أماه، قالت: كيف فرحك بالقدوم على الله؟ قال: فحدثني غير واحد من أهله أنه صاح صيحة لم يسمعوه صاح مثلها قطّ، وسقط مغشيًّا عليه، فجلست العجوز تبكي عند رأسه وتقول: بأبي أنت ما نستطيع أن نذكر بين يديك شيئًا من أمر ربك»[3].

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٧).
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٧٣).
(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢١١).

٥. شوق سعدون:

قال مالك بن دينار لسعدون: «إن الناس يزعمون أنك مجنون، فقال: وأنت قد اغتررت بما اغتر به بنو الدنيا! زعم الناس أنني مجنون، وما بي جِنَّة، ولكن حب مولاي قد خالط قلبي وأحشائي، وجرىٰ بين لحمي ودمي وعظمي، فأنا والله من حبه هائمٌ مشغوف»[١].

المقترحات العملية والتدريبات

١. الشوق ثمرة المحبة، فيُرجع إلى المقترحات العملية في منزلة المحبة، فإن من لزمها سيصل إلىٰ مرحلة الشوق.

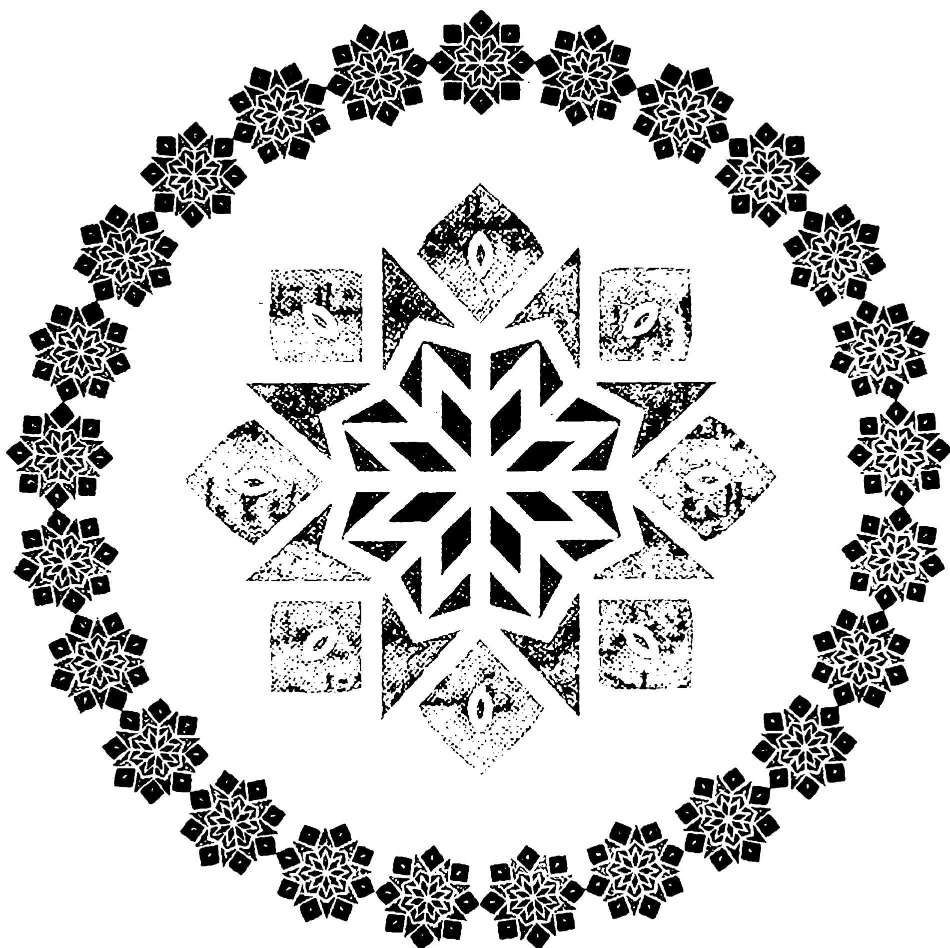
٢. اقرأ سورة الرحمٰن متأملًا نعيم الجنان؛ فإنه يولّد الشوق.

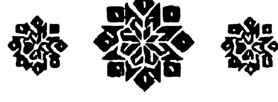
٣. حدِّث أهلك وأولادك بقصةٍ من قصص الشوق التي قرأتها، واشرح لهم أهمية منزلة الشوق.

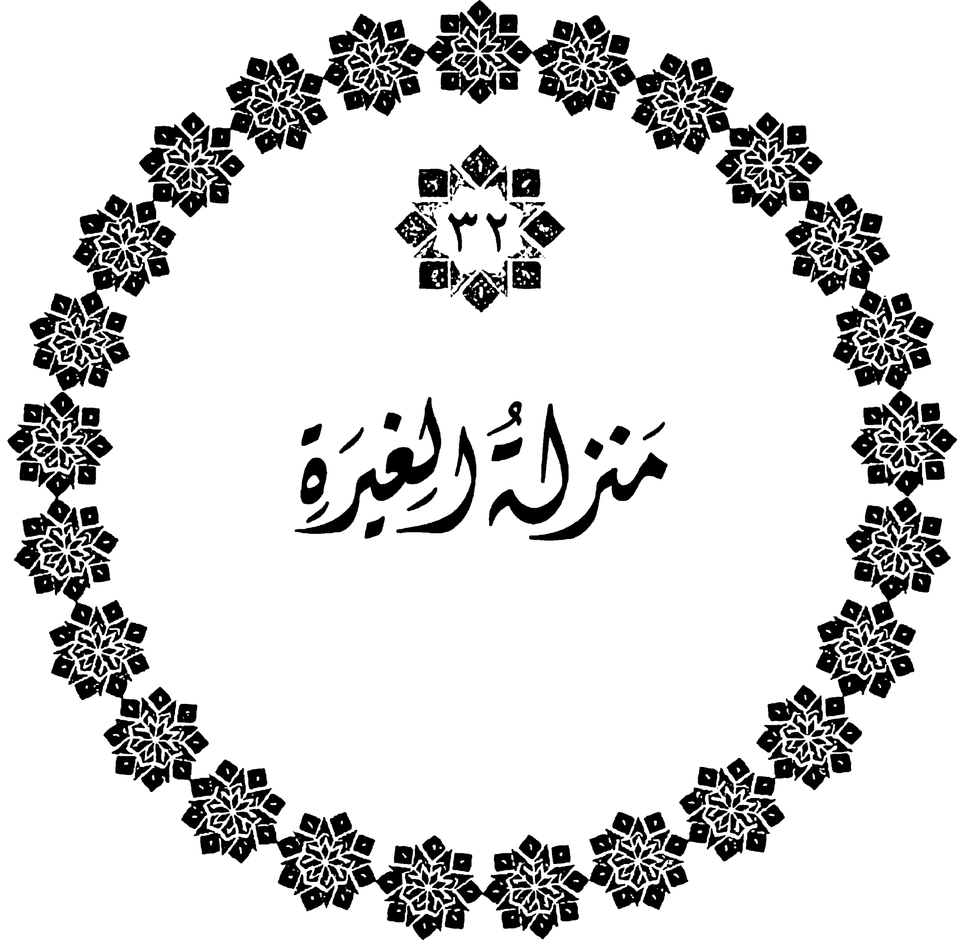
٤. اجمع الفصول المتعلقة بالشوق من كتاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) لابن القيم الجوزية.



(١) عقلاء المجانين لأبي القاسم النيسابوري (ص: ٥٨).

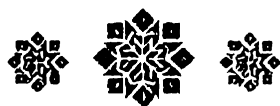



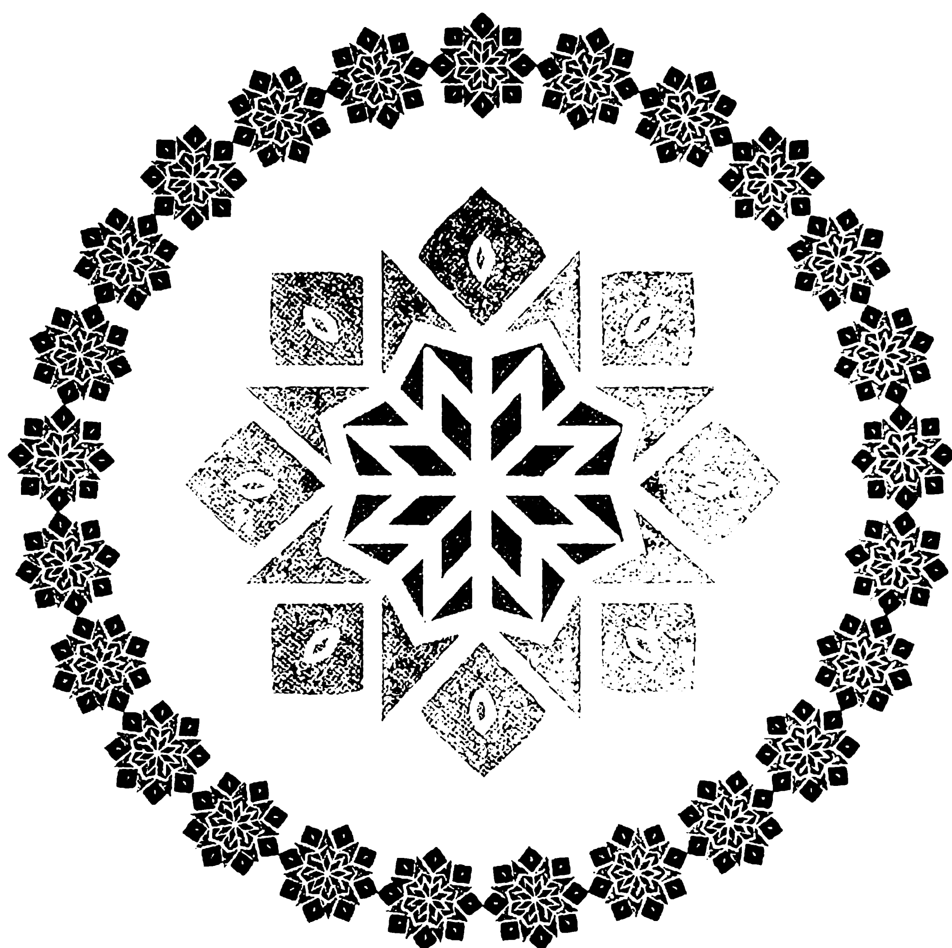


٣٢

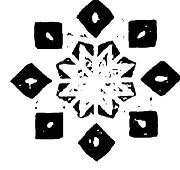
مَنزلةُ الغَيرةِ











منزلة الغيرة



بين يدي الغيرة

إن الغيرة من موجَبات المحبة، وتكون بحسب قوة المحبة، فهي فوق المحبة، وذلك لأن شدة المحبة تبعث على الغيرة على المحبوب وشدة الحرص عليه، فإذا فقدت الغيرة كان دليلًا على عدم وجود المحبة، يقول ابن حزم: «إذا ارتفعت الغيرة فأيقِن بارتفاع المحبة»(١).

والغيرة عند وجود سببها الشرعي صفةُ كمالٍ تدفع صاحبها للغضب عند انتهاك الحرمات، ولذلك مدح النبي ﷺ سعدًا عندما قال: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غيرَ مُصْفِح(٢)، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «أَتَعجَبُون مِن غَيرة سعد؟ لَأنا أَغْيَرُ منه، والله أَغْيَرُ مني»(٣).

وكذلك محبة العبد لربه عز وجل ومحبته لدينه تدفعه إلى تعظيم الله والغضب لانتهاك حرماته، وإلى محاولة إزالة المنكر.

وأقوى الناس محبة هو أعظمهم غيرة على حرمات الله وحدوده، فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله لهما، وإذا خلا قلبه من الغيرة

---

(١) الأخلاق والسير لابن حزم (ص: ٥٥).

(٢) مُصْفِح: صَفْح السيف: جانبه وعرضه، والمعنى: أضربه بحده للقتل والإهلاك، لا بعرضه للزجر والإرهاب. ينظر: شرح السنة للبغوي (٩/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٧٣) برقم: (٦٨٤٦).

فهو من المحبة أخلىٰ، وإن زعم أنه من المحبين، فكيف يصح لعبد أن يدَّعي محبة الله وهو لا يغار علىٰ محارمه إذا انتهكت، وحقوقه إذا ضُيِّعَت!

وكما أن العبد يغار من انتهاك خصوصياته والاعتداء علىٰ محارمه وأهله، فإن الله عز وجل -وله المثل الأعلىٰ- يغار من أن يُشرِك عبدُه معه غيره فيما هو له تعالىٰ، فهو يغار علىٰ دينه ووحدانيته أن يتخذ العبد إلهًا يعبده من دونه، ويغار مِن تَرْك المؤمن أوامره مستجيبًا لأوامر نفسه وشيطانه؛ ففي الحديث: «إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمنُ ما حَرَّمَ عليه»(١).

حقيقة الغيرة

الغيرة في اللغة:

الغين والياء والراء أصلان يدل أحدهما علىٰ صلاحٍ وإصلاحٍ ومنفعة، والآخر على اختلاف شيئين؛ فالأول: الغِيرَة، وهي الْمِيرَة التي بها صلاح العِيال، يقال: غِرْتُ أهلي غِيرَةً، أي مِرْتُهم، وغارهم الله تعالىٰ بالغَيْث يَغِيرُهم ويغورهم، أي: أصلح شأنهم ونفعهم. ومن هٰذا الباب غيرة الرجل علىٰ أهله؛ لأنها صلاح ومنفعة.

والأصل الآخر: قولنا: هٰذا الشيء غير ذاك، أي: هو سواه وخلافه(٢).

والغيرة مشتقّة من تغيُّر القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص. وقيل: الغيرة في الأصل: الحميَّة والأَنَفَة، وهو تفسيرٌ بلازم التغيُّر، فيرجع إلى الغضب(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٥) برقم: (٥٢٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم: (٢٧٦١).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٣) ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٨/ ٥٠٤٨)؛ تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٢٨٨)؛ فتح الباري لابن حجر (٩/ ٣٢٠).

الغيرة في الاصطلاح:

الغيرة نوعان؛ الغيرة من الشيء، والغيرة على الشيء.

أما الغيرة من الشيء، فهي: كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.

وأما الغيرة على الشيء، فهي: شدّة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك، أو يشاركك في الفوز به[1].

ومعنىٰ غيرة الله: أنه لا يرضىٰ بمشاركة الغير معه فيما هو حقٌّ له من طاعة عبده[2]. ومنهم فسَّر غيرة الله عز وجل بأنها: الزجر عن المعاصي[3]. فالله يغضب من وقوع العبد في المعاصي، ومن إشراكه غيره معه فيما هو حقّ لله وحده.

فالمؤمن يغار لغيرة الله عز وجل، فيغار من نفسه أولًا من أن تكون فيه صفةٌ يكرهها ربه عز وجل ويمقته عليها، أو يفعل ما يبغضه عليه. ثم يغارُ له بعد ذٰلك أن يكون في غيره صفةٌ يكرهها ويبغضها، فتدفعه تلك الغيرة إلى الحمية والغضب له إذا استُهينَ بحقه، وانتُقصت حرمته، فيغضب له، ويبذل نفسه وماله وعرضه في سبيل إرضاء ربه عز وجل، فيبادر إلىٰ تغيير المنكر ومحاربة من عاداه، وهٰذه غيرة المحبين حقًّا، وهي غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به، واستحل محارمه[4].

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٤١٠)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٢٠).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤١٠).

(٣) ينظر: شرح السنة للبغوي (٩/ ٢٦٩).

(٤) ينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم (ص: ٤١١-٤١٢).

أقسام الغيرة

تنقسم الغيرة باعتبار محلها إلىٰ قسمين: غيرة الله عز وجل، وغيرة العبد.

١ . غيرة الله عز وجل:

وغيرته تعالىٰ تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: غيرته علىٰ عبده؛ وذلك بأن لا يجعله للخلق عبدًا، بل يتّخذه لنفسه عبدًا؛ وغيرته تعالىٰ علىٰ عباده عمومًا تنقسم إلىٰ قسمين:

أ. غيرته على الكفار: وهي غيرته علىٰ توحيده ودينه وكلامه أن يحظىٰ به غير أهله، ولذلك حال بينهم وبينه غيرة عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]. سمع السَّريّ السقطي قارئًا يقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فقال: «أتدرون ما هٰذا الحجاب؟ هٰذا حجابُ الغيرة، ولا أحدٌ أغير من الله تعالىٰ، يعني: أنَّه سبحانه لم يجعل الكفَّار أهلًا لمعرفة صدق الدين»[١].

ب. غيرته على المؤمنين: وهٰذه الغيرة قسمان؛ عامة، وخاصة.

فأما العامة: فهي غيرته علىٰ عموم المؤمنين، وهي غيرته عليهم من الوقوع في المعاصي والآثام؛ كما في الحديث: «إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمنُ ما حَرَّمَ عليه»[٢]. وفي حديث آخر: «يا أمة محمد، والله ما من أحدٍ أَغْيَر من الله أن يزني عبده أو تزني أمته»[٣]. ويغار من شيوع الفاحشة في المجتمع؛ وهي ما أشار

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤١٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٥) برقم: (٥٢٢٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم: (٢٧٦١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٣٤) برقم: (١٠٤٤)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٢٧) برقم: (٩٠١).

إليها النبي ﷺ بقوله: «لا أحدَ أغْيَر من الله، ولذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»(١).

فإذا كان المؤمن مرتكبًا للمعاصي والمحرمات وأراد الله به خيرًا سلَّط عليه أنواع العذاب حتى يرجع إليه، وإذا اشتغلتْ جوارحُه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء حتى تلتزم طاعته.

والله تعالى يغار أن يرى عبده يعتمد على مخلوق مثله، ومن علامة غيرة الله عز وجل أن هذا المخلوق الذي اعتمد العبد عليه يخذله. ويغار كذلك إذا رأى عبده في الشدة ملتفتٌ إليه كثير التضرع والالتجاء إليه، ولكنه عندما كشف الضرَّ عنه نسيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٢]، ومن علامة غيرته أنه لا يُمتِّعه في تلك النعمة إلا قليلًا ثم يسلبها منه.

وأما الغيرة الخاصة: فهي غيرته على الخاصة من عباده الذين ترقوا في مراتب الإيمان والتقى والصلاح، وغيرته على هؤلاء تكون بحسب درجة قرب العبد منه سبحانه، فكلما ازداد العبد قربًا من ربه كانت درجة الغيرة عليه أشد، حتى يحاسبه على دقائق الأشياء.

فهو يغار على قلب عبده المؤمن -من خاصته- أن يكون مُعطَّلًا من حبه وخوفه ورجائه، وأن يكون فيه غيره، ويغارُ على لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغل بذكر غيره، ويغار على جوارحه أن تتعطَّل من طاعته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٥٧) برقم: (٤٦٣٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٠٠) برقم: (٢٧٦٠).

ومن غَيْرة الحق تعالىٰ على الأكابر من عباده أنهم إذا ساكنوا شيئًا سواه أو لاحظوا غيره شوَّش عليهم وامتحنهم حتىٰ تصفوا أسرارهم له، كما فعل بيوسف عليه الصلاة والسلام حين قال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك -أي ملك مصر-، فلبث في السجن لذٰلك ما لبث، وإبراهيم ﷺ لما أعجبه ابنه إسماعيل ﷺ أمره بذبحه حتىٰ أخرجه من قلبه، وصفا سره منه[1].

عن محمد بن حسان أنه سأل أحد الصالحين أن يعظه، فقال له: «احذر فإنه غيور لا يحب أن يرىٰ في قلب عبده سواه»[2].

الثاني: غيرته لعبده؛ فهو يغارُ لحُرمته، فلا يُمكِّن المفسد أن يتوصَّل إلىٰ حُرمته؛ غيرةً منه لعبده، فإنَّه ﷻ يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم وجوارحهم وأهلهم وحريمهم وأموالهم، يتولَّىٰ سبحانه الدفع عن ذٰلك كلِّه غيرةً منه لهم، كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم[3].

ومن ذٰلك غيرته تعالىٰ علىٰ فقراء وضعفاء المؤمنين؛ فقد ورد أنه جاء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فوجدوا النبي ﷺ قاعدًا مع بلال وصهيب وعمار وخباب، في أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم، فأتوه فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هٰؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأَقِمهم عنَا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: «نعم» ، قالوا: فاكتب لنا عليك بذٰلك كتابًا. قال: فدعا بالصحيفة، ودعا عليًّا ليكتب، قال: ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل بهٰذه

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٤١٣).

(٢) المرجع السابق.

(٣) ينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم (ص: ٤٢٤).

الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢][١].

فهٰذا من غيرة الله لعبده الفقير المنكسر. وكذٰلك ما ورد في معاتبة الله عز وجل لنبيه ﷺ في قصة عبد الله بن أم مكتوم، هو من باب الغيرة لعبده المؤمن.

٢. غيرة العبد:

وهي كذٰلك تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: غيرته من نفسه لحق ربه عز وجل؛ وذٰلك بأن لا يجعل شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الله تعالىٰ، فهو يغار علىٰ قلبه من أن يتعلق بغير ربه، ويغار علىٰ إعراضه وغفلته، ويغار من صفاته المذمومة ومعاصيه. وهٰذه الغيرة تدفعه لإصلاح نفسه وتأديبها وتزكيتها، ليتخلص من شوائبها.

ومن ذٰلك ما جرىٰ لسيدنا سليمان ﷺ، فقد كان يحبُّ الخيل، فشَغَلَه استحسانُها والنّظرُ إليها -لَمَّا عُرِضَتْ عليه- عن صلاة النّهار، حتّىٰ توارت الشَّمسُ بالحجاب، فلحِقتْه الغيرةُ لله من الخيل، إذ استغرقَه استحسانُها والنّظر إليها عن عبادة ربه وحقِّه عليه، فقال: ردُّوها عليَّ، فطفِقَ يضرب أعناقَها وعراقيبَها بالسّيف غيرةً لله، قال الله حاكيًا عنه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١-٣٣][٢].

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٥٩).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٢٥).

الثاني: غيرته من غيره لله عز وجل؛ وذلك بأن يغضب لمحارم الله إذا انتُهِكَت، ولحقوقه إذا ضُيِّعت أو تهاون بها المتهاونون، فالمؤمن يغار مما يغار منه ربه عز وجل، وهو انتهاك الحرمات؛ إذ المؤمن موافق لربه عز وجل، يحب ما يحب ويكره وما يكره.

وهٰذا كان حال رسول الله ﷺ، فقد كان يغضب ويتغير وجهه حين تنتهك محارم الله عز وجل؛ ففي حديث عائشة ﵂ قالت: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيءٍ قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله»[1]. وفي حديث المرأة التي سرقت علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فاستشفع قومها إلىٰ أسامة بن زيد، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلَوَّن وجه رسول الله ﷺ، فقال: «أَتُكَلِّمُني في حدٍّ من حدود الله!»[2].

قال ابن العربي: «أشد المؤمنين غيرةً رسول الله ﷺ، ولذٰلك كان شديدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانتقامه لله، ولم يأخذه فيه لومة لائم، وصحبه تابَعوه في الغيرة»[3].

وغيرة العبد من نفسه أهمُّ من غيرته من غيره؛ فإنّك إذا غِرْتَ من نفسك صحَّتْ لك غيرتك لله من غيرك، وإذا غِرْتَ له من غيرك ولم تَغَرْ من نفسِك فالغيرة مدخولةٌ معلولةٌ ولا بدَّ[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٠) برقم: (٦١٢٦)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٨٠) برقم: (٢٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٥١) برقم: (٤٣٠٤)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١١٤) برقم: (١٦٨٨).

(٣) فيض القدير للمناوي (٢/ ٣٠٥).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٢١-٤٢٢).

فضل الغيرة وثمراتها

١ . الغيرة دليل علىٰ قوة المحبة:

وذٰلك أن الإنسان لا يغار إلا علىٰ من يحب، فمَن أحب الله تعالىٰ أحب ما يحبه ربه، وكره ما يكرهه، ورضي بما يرضيه، وغضب لما يغضبه؛ ولذٰلك إذا فُقِدت الغيرة فهٰذا دليل على ارتفاع المحبة، يقول ابن حزم: «إذا ارتفعت الغيرة فأيقِن بارتفاع المحبة»[١].

٢ . الغيرة تُقَرِّب إلى الله:

لأن الغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إلىٰ ربه، وأدخلته عليه، وأدنته منه، وقربته من رحمته، وصيرته محبوبًا عنده[٢].

٣ . الغيرة تحفظ من الوقوع في الآثام:

فالغيرة أصل الدين، ومن لا غيرة له لا دين له، وهي تحمي القلب والجوارح من الآثام، وتدفع السوء والفواحش، وإن عُدِمَت الغيرة مات القلب، فتموت له الجوارح؛ ومَثَلُ الغيرة في القلب مَثَلُ القوة التي تدفع المرض وتُقاوِمُه، فإذا ذهبت القوة وجد الداءُ المحلَّ قابلًا، ولم يجد دافعًا، فتمَكَّن، فكان الهلاك[٣].

٤ . الغيرة سبب حفظ الله للعبد:

إن الذي يغار علىٰ حدود الله ويغضب لانتهاك محارمه ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر فإن الله يحفظه ويقيه من سوء عمل القوم المفسدين،

---

(١) الأخلاق والسير لابن حزم (ص: ٥٥).

(٢) ينظر: الداء والدواء لابن القيم (١/ ١٦٦).

(٣) الداء والدواء لابن القيم (١/ ٦٧-٦٨).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٥]، فهؤلاء لما غضبوا لمحارم الله وقاموا بما عليهم من الوعظ والنصيحة للعصاة وقاهم الله سوء العاقبة.

بينما الذي لا يغار لانتهاك حرمات الله فلا ينفع صلاحه وتقواه؛ لأنه لو كان محبًّا لله لَغَضِب لانتهاك محارمه، جاء في الحديث: «أوحى الله إلىٰ مَلَك من الملائكة أن اقْلِب مدينة كذا وكذا علىٰ أهلها، قال: إن فيه عبدك فلانًا لم يعصك طرفة عين، قال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر لي ساعةً قط»(١).

مراتب الغيرة ودرجاتها

للغيرة ثلاث مراتب(٢):

١. الغيرة علىٰ ضياع الأعمال:

إن العامل بمقتضى العلم النّافع يغار علىٰ ما ضاع عليه من عملٍ صالحٍ، فيدفعه ذٰلك إلىٰ محاولة جَبْر ما فاتَه من الأوراد والنّوافل وأنواعِ القربات بفعلِ أمثالها من جنسها وغير جنسها، فيقضي ما ينفع فيه القضاء، ويُعوِّض ما يقبل العوض، ويتدارك قوَّتَه ببذلها في الطّاعة قبلَ أن تتبدّلَ بالضّعف، فهو يَغار عليها أن تذهب في غير طاعة الله. وهٰذه هي غيرة العابد.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٣٦) برقم: (٧٦٦١).

(٢) ينظر مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٢٦-٤٣١).

٢. الغيرة علىٰ ضياع الأوقات:

هٰذه المرتبة أعلىٰ من التي سبقتها، فهي تختص بمن ترقىٰ في درجات الإيمان وتقوىٰ، ومن بلغ هٰذه المرتبة يكون الوقت أعزُّ شيءٍ عليه، فيَغار عليه أن ينقضي بدون إقبال على الله واشتغال قلبه به، لأن الوقت إذا فات لا يمكن استدراكُه البتّةَ، لأنّ الوقت الثّاني قد استحقّ واجبه الخاصّ، كما في الحديث: «من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضِ عنه صوم الدهر كله وإن صامه»[1]. وهٰذه غيرة أهل المحبة.

٣. الغيرة مِن تَعَلُّق القلب بغير الله:

هٰذه مرتبة عالية لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة، وهي غيرة العارفين، يغار صاحبها أن يجعل شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الله ﷻ، ويغار علىٰ قلبه أن يسكن ويتعلق بغيره تعالىٰ، ويغار علىٰ نفسه أن تلتفت إلّا إلىٰ عطائه تعالىٰ، قال الشبلي: «غيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله تعالىٰ»[2].

طرق اكتساب الغيرة

١. الابتعاد عن المعاصي:

فالذنوب تطفئ مِن القلب نارَ الغيرة، وكلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة علىٰ نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتىٰ لا يستقبح بعد ذٰلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلىٰ هٰذا الحد فقد دخل في باب الهلاك[3].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢/ ٩٣) برقم: (٧٢٣)؛ وأحمد في مسنده (٢/ ٢١٠٠) برقم: (١٠٢١٩)؛ والبيهقي في سننه الكبرىٰ (٣/ ٣٥٨) برقم: (٣٢٦٦)؛ والبخاري معلقاً (٣/ ٣١) برقم: (١٩٣٥).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤١٢).

(٣) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٦٧).

٢. الابتعاد عن البيئة المتفلتة:

إن اعتياد مشاهدة المنكرات والمعاصي يورِث النفس إِلْف تلك المعاصي وعدم النفور منها، فيضعف الشعور بالغيرة على حرمات الله عند رؤية المنكرات، وقد أمر الله بالابتعاد عن الأماكن التي يُستهزأ فيها بآيات الله وترتكب فيها المعاصي للحفاظ على تعظيم الله في نفس المؤمن والإبقاء على شُعلة الغيرة في القلوب متَّقِدة، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

٣. تربية مهابة الله في القلوب:

إن القلب الذي زُرِعت فيه خشية الله والخوف منه وتعظيم شرعه قلبٌ حيٌّ يدفع صاحبه إلى كل فضيلة، ويُبْعِده عن كل معصية ورذيلة، ولا يمكن أن يقبل بانتهاك حرمات الله لا من نفسه ولا من غيره، وإنكار القلب عند وقوع المعاصي هو أدنى درجات الإيمان الدالة على وجود الغيرة، ففي الحديث: «من رأى منكم منكَرًا فَلْيُغَيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(١).

علامات تحقق الغيرة

١. الغضب لما يُغضِب الله والفرح بما يرضيه تعالى:

فالمؤمن إذا رأى المنكرات لا يمكن أن يبقى ساكتًا مراقبًا لما يحدث دون أن يغلي صدره غضبًا من ذلك، وهذا ما كان عليه النبي ﷺ، فقد كان لا يقوم لغضبه شيء إذا انتهكت حرمات الله؛ وهذا ما كان عليه الصحابة الكرام ﭫ، فعن عبد الله بن مغفل: أنه رأى رجلًا يَخْذِف، فقال له: لا تخذف؛ فإن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٠) برقم: (٤٩).

نهىٰ عن الخذف، أو كان يكره الخذف، وقال: «إنه لا يُصاد به صيد، ولا يُنكىٰ به عدو، ولٰكنها قد تَكْسِر السن وتفقأ العين»، ثم رآه بعد ذٰلك يخذف، فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهىٰ عن الخذف أو كره الخذف وأنت تخذف! لا أُكَلِّمُك كذا وكذا[١].

٢. علو الهمة:

صاحب الغيرة علىٰ دينِ الله عنده همة عالية في السعي إلىٰ نشر وتشجيع كل مجالاتِ الخيرِ وسبل الدعوة إلى الله؛ مِن عقد المحاضرات والندوات، وإحياء الدروس العلمية، ونشر الكتب، والكتابة في الصحف والمجلات دفاعًا عن الإسلام ومبادئه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرد على الشبهات، والمساهمة في تكوين جيل من الدعاة الربانيين القادرين علىٰ حمل راية الإسلام.

٣. الاهتمام بأمور المسلمين:

إنَّ من الغيرةِ علىٰ دينِ الله مُناصرة المسلمين والاهتمام بقضاياهم، والتألم لآلامهم، والفرح بإنجازاتهم، والذبِّ عن أعراضِهم، والرد علىٰ أهل الباطل الذين يُريدون تشويه صورة الإسلام والمسلمين، والدعاء للمسلمين المضطهدين وتتبع أخبارهم، والوقوفُ علىٰ أحوالهم، والسعي في رفع الظلم عنهم.

٤. تعظيم شعائر الله تعالىٰ:

إن تعظيم حدود الله وحرماته وشعائره هو أدلُّ شيء علىٰ وجود الغيرة عند العبد؛ ومن مظاهر تعظيم شعائر الله: تعظيم كتاب الله عز وجل؛ ورد أن أبا المظفر الأبيوردي قال: «والله ما نمت في بيتٍ فيه كتاب الله ولا حديث رسول الله احترامًا لهما أن يبدو مني شيء لا يجوز»[٢]. ومن تعظيم الله إكرام حمَلة كتابه؛

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٨٦) برقم: (٥٤٧٩)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ٧٢) برقم: (١٩٥٤).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٢٨٥).

جاء في الحديث: «إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»(١).

ومن مظاهر تعظيم شعائر الله: تعظيم رسول الله ﷺ وتقديم أمره ونهيه على أي أحد، وتعظيم حديثه؛ وقد ضرب الصحابة أروع الأمثلة في تعظيمهم لرسول الله ﷺ وشدة أدبهم في حضرته، وكذلك فعل السلف الصالح مع حديثه وسنته؛ فقد كان مالك بن أنس إذا أراد أنْ يَخْرُجَ يُحَدِّثُ، توضَّأَ وُضوءَه للصلاة، ولَبِس أحسنَ ثيابِه، ولَبِس قَلَنْسُوةً، ومَشَطَ لِحْيَتَه، فقيل له في ذلك، فقال: أُوَقِّرُ حديثَ رسول الله ﷺ(٢).

وقال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشرة مرة، وهو يتغير لونه ويَصْفَرّ ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس، قلت له: يا أبا عبد الله، لقد رأيت منك اليوم عجبًا، قال: نعم، إنما صبرت إجلالًا لحديث رسول الله ﷺ(٣).

آفات الغيرة

هناك آفات إن أصابت العبد ارتفعت الغيرة، ومن هذه الآفات(٤):

١. خروج إنكار الفواحش من القلب:

إن القلب الخالي من الغيرة خالٍ من المحبة، ومن خلا قلبه من المحبة فلن يتأثر برؤية حرمات الله تنتهك، إذ المحبة هي الدافع إلى الغضب والغيرة لحرمات الله.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤١١) برقم: (٤٨٤٣)؛ والبيهقي في سننه (٨/ ١٦٣) برقم: (١٦٧٥٥). وقال النووي في التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٢٧): حديث حسن.

(٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (ص: ٦١٠).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٢/ ٤٦).

(٤) ينظر: أبواب التصوف لمحمد بن عبد القادر الجيلاني (ص: ٢٩٤-٢٩٦).

٢. ملاحظة توفيق الله للغير:

إن الله عز وجل يختص بعض عباده بمزيد من التوفيق والإنعام، وهٰذا من باب الابتلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فمن لاحظ فضل الله علىٰ غيره وساقه ذٰلك إلى المقارنة، فإن ذٰلك سيكون سببًا لخروج الغيرة من قلبه؛ لما في المقارنة من استحقار نعمة الله التي هو فيها، ولذٰلك حذر النبي ﷺ من هٰذا الأمر فقال: «انظروا إلىٰ من أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله»، وفي لفظ آخر لمسلم: «إذا نظر أحدكم إلىٰ من فُضِّلَ عليه في المال والخَلْق، فلينظر إلىٰ من هو أسفل منه مِمَّن فُضِّل عليه»(١).

نماذج من غيرة السابقين

١. غيرة النبي ﷺ:

النبي ﷺ هو أغير الناس علىٰ دين الله عز وجل، وكما مر معنا في حديث عائشة أنه كان لا ينتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، ومن صور غيرته وغضبه ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي النبي ﷺ وفي البيت قِرام فيه صُور، فَتَلَوَّن وجهه، ثم تناول السِّتْر فهتكه، وقالت: قال النبي ﷺ: «من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يصورون هٰذه الصور»(٢).

٢. غيرة أبي بكر رضي الله عنه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستُخْلِف أبو بكرٍ بعدَه، وكفر مَن كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٢) برقم: (٦٤٩٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢١٣) برقم: (٢٩٦٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٧) برقم: (٦١٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٦/ ١٥٨) برقم: (٢١٠٧).

«أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»! فقال: والله لَأُقاتِلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عِقالًا كانوا يؤدونه إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ منعه[1].

فأبو بكر رضي الله عنه غار علىٰ دين الله أن يُنتقص منه، فحرّك الجيوش لقتال من منع الزكاة، ولقتال المرتدين.

٣. غيرة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه:

لما خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية لأداء العمرة ومنعته قريش من دخول مكة، فنزل بالحديبية، وجعلت قريش ترسل الرسل لمفاوضة النبي ﷺ، وكان من بين الرسل عروة بن مسعود الثقفي، فأتىٰ رسولَ الله ﷺ، فجعل يكلمه، ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف علىٰ رأس رسول الله ﷺ في الحديد، قال: فقَرَع يده، ثم قال: أَمْسِك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل والله لا تصل إليك، قال: ويحك ما أَفَظَّك وأغلظك، قال: فتبسم رسول الله ﷺ[2].

المقترحات العملية والتدريبات

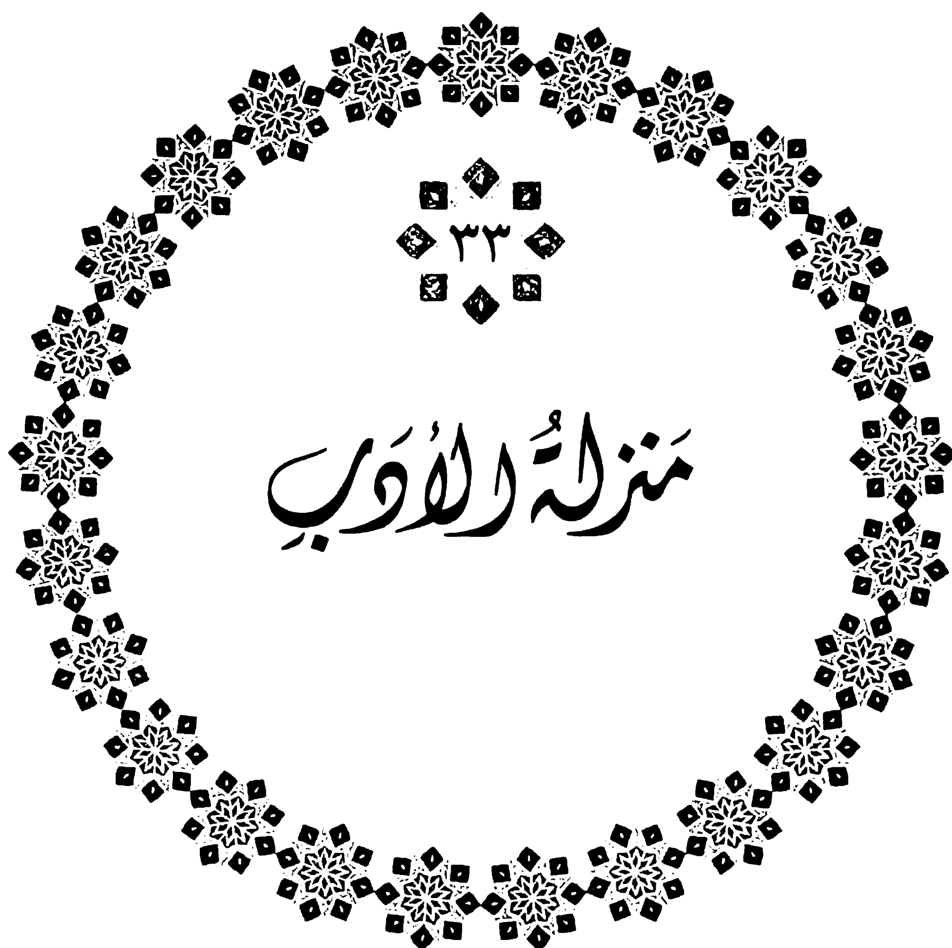
١. اقرأ في سيرة عظماء هٰذه الأمة وما قدموه من تضحيات في سبيل نصرة هٰذا الدين؛ مثل كتاب (رجال من التاريخ) للشيخ علي الطنطاوي.

٢. اقرأ كتاب (الفساد في المجتمعات العربية والإسلامية) للشيخ محمد الغزالي.

٣. اصحب رجلًا تعرفه بالغيرة على الدين؛ لتكتسب منه هٰذه الصفة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٩٣) برقم: (٧٢٨٤)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٨) برقم: (٢٠).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/ ٤٣١١) برقم: (١٩٢١٢).



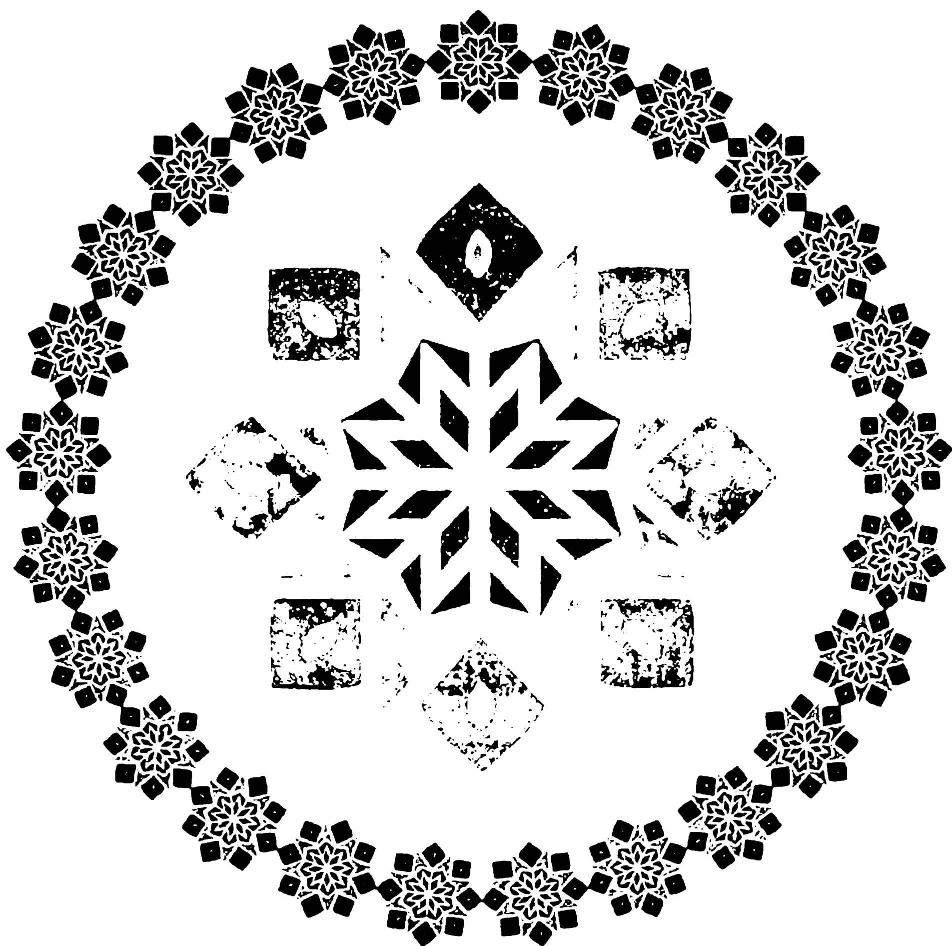


٣٣

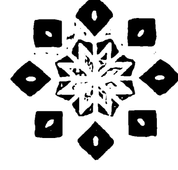
مَنزِلةُ الأدَبِ











منزلة الأدب



بين يدي الأدب

لا يمكن للسائر على طريق الصالحين، السالك إلى الله ﷻ إلا أن يتحلى ويتزين بمنزلة الأدب، فيكفي هذه المنزلة شرفًا، أن نبينا محمدًا ﷺ سيدُ المتخلقين بها.

قال عبد الله بن المبارك: «كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين»(١).

حقيقة الأدب

الأدب لغة:

الأدب: «الظرف وحُسْن التناول، يقال: أَدَب كحَسن فهو أديب، وجمعه أُدباء، وأدَّبه: علَّمه فتأدب»(٢). قال ابن منظور: «سمي أدبًا؛ لأنَّه يَأْدِبُ الناسَ إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. وأصل الأدب الدعاء»(٣).

الأدب اصطلاحًا:

تعددت تعاريف معنى الأدب، مِن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر ؒ بقوله: «الأدب: استعمال ما يُحمد قولًا وفعلًا»، وعبَّر بعضهم بأنه: «الأخذ بمكارم الأخلاق»،

---

(١) ينظر: صفة الصفوة (٢/ ٣٣٠).

(٢) ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص: ٥٨).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٠٦).

وقيل: «الوقوف مع المستَحسَنَات»، وقيل: «بل هو تعظيمُ مَن فوقَك، والرِّفْق بمَن دونك»، وقيل: «إنه مأخوذ مِن المأدبة، وهي الدعوة إلى الطعام، سُمِّي بذلك؛ لأنه يُدعَىٰ إليه»(١).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

للأدب تعلق بمقام المحبة؛ فإن المحبَّ تحمِله محبة محبوبه على التأدب معه الذي هو أحد أهمِّ أسباب القُرب مِن المحبوب، لذلك فإنَّه لا تكتمل محبة المرء إلا بالتحقق بالأدب مع المحبوب؛ ولأنَّ النفوس مجبولة علىٰ حبِّ مَن أحسن إليها، وحَسَنُ الأدب قريب مِن الله، قريب مِن الناس، وسيئ الأدب بعيد مِن الله، بعيد مِن الناس.

فضل الأدب وثمراته

١. هو الهدف الأسمىٰ من بعثة النبي ﷺ:

لقد حدَّدَ الرسول ﷺ الغاية الأولىٰ مِن بعثته، والمنهاج المبين في دعوته بقوله: «إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»(٢). فكأنَّ الرسالة التي خطَّت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهدًا كبيرًا في مدِّ شعاعها وجمع الناس حولَها، لا تنشد أكثر مِن تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتىٰ يسعوا إليها علىٰ بصيرة(٣).

---

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ٣٢٣) برقم: (٢٠٧٨٣)؛ وأحمد في مسنده (١٤/ ٥١٣) برقم: (٨٩٥٢)؛ والبخاري في الأدب المفرد (ص: ١٠٤) برقم: (٢٧٣)، بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

(٣) ينظر: خلق المسلم لمحمد الغزالي (ص: ٧).

٢. الأدب قبل العلم:

لذلك جرت عادة السلف على طلب الأدب قبل العلم؛ قال عمر ﷺ: «تأدبوا ثمَّ تعلموا»[١]. وقال عبد الله بن المبارك: «لا يَنْبُل الرجل بِنوع مِن العلم ما لم يُزَيِّن علمَه بالأدب»[٢].

وقال النخعي: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سَمْتِه وصلاته وإلى حاله، ثمّ يأخذون عنه»[٣].

٣. الأدب جامع الخصال الحميدة:

قال ابن عباس: «اطلب الأدب فإنه زيادة في العقل، دليل على المروءة، مُؤْنِسٌ في الوحدة، وصاحبٌ في الغربة، ومالٌ عند القِلَّة»[٤].

وقال الأحنف بن قيس: «الأدب نور العقل، كما أن النار في الظلمة نور البصر»[٥].

وقال ابن القيم كلمة جامعة في بيان فضل منزلة الأدب، حيث قال: «والأدب هو الدين كله»[٦].

شروط الأدب

١. الإخلاص:

لا يخفى على المسلم مكانة استحضار الإخلاص في الأعمال الشريفة،

---

(١) الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (١/ ١١٦).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٢١٦) برقم: (١٥٦٧).

(٣) ينظر: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني (١/ ٣٦).

(٤) ينظر: الطيوريات لأبي طاهر السِّلَفي (٤/ ١٣٢٥) برقم: (١٢٨٨).

(٥) ينظر: بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (ص: ١٩).

(٦) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٥٣).

والتي مِنها هٰذه الوظيفة المنيفة «الأدب»، والإخلاص يُعدُّ أحد الأسباب في دوام الأعمال واستمرارها، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرئ ما نوىٰ، فمَن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»(١).

٢. الاستعداد النفسي:

حتىٰ تُثمِر عملية التأديب والتهذيب لا بُدَّ مِن أن يكون المتأدِّب في حالة استعداد نفسي عالية، حتىٰ تؤتي أُكلها؛ لأنَّ الدواء غالبًا ما يكون مُرًّا تعافه النُّفوس، ولا يصبر عليه إلا مَن كان مؤمِنًا بفاعلية العلاج؛ فمَن يعتقد أنه ليس بحاجة إلى التربية والتأديب فلن يقبل بالعلاج مِن أساسه.

٣. وجود مُرَبٍّ كُفء:

ينبغي علىٰ مَن يمارس هٰذه المهنة الشريفة -مهنة التربية- أن يكون علىٰ مستوىٰ عالٍ مِن التحقق بما يُربّي عليه غيره؛ لأن المتأدِّب ينظر إليه بنظرة القدوة، والتربية الفعلية أبلغ مِن التربية القولية.

٤. توفير البيئة المناسبة:

البيئة المناسبة شرطٌ ضروري لتحقيق نجاح عملية التربية، وكلما كانت البيئة غير مناسبة قلل ذٰلك مِن نسبة نجاح عملية التربية.

٥. البرنامج المناسب لكلِّ متأدِّب:

مِمَّا قيل: «طعام الكبار سُمُّ الصغار»، ومِن هٰذا المنطلق ينبغي أن يُعلَم أن المتأدِّب بمثابة المريض الذي يُعطىٰ له علاج، والطبيبُ الحاذق مَن يُعالج كلَّ مريض بما يناسب عِلَّته، وإلا كان سببًا في زيادة مرضه، وربما موته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٦) برقم: (١)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٥) برقم: (١٩٠٧).

أنواع الأدب

هناك عدة أنواع للأدب بحسب المتأدَّب معه، فهناك الأدب مع الله عزوجل، والأدب مع رسول الله ﷺ، وأدب التعامل مع الناس، وهذا يختلف مِن شخص لآخر؛ فللوالدين أدب خاصٌّ بهم، وللعلماء أدبهم الخاص بهم، وهكذا، فأنواع الأدب أربعة، هي:

١. الأدب مع الله:

رأس الأدب وعموده أدب العبد مع سيده ومولاه، لأنَّه سبب رضاه ومحبته، قال ابن القيم رحمه الله: «الأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصةٍ.

الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلىٰ غيره.

الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه»[(١)].

فمِن الأدب مع الله سبحانه أن تعتقد فيه أنَّه متصف بصفات الكمال والجلال، وتُنَزِّهُه عن كلِّ وصفٍ ينافي كماله ﷻ، وأن تتقرب إليه بكلِّ ما تعلم أنه محبوب له، وتجتنب كلّ ما هو مكروه له، قال رسول الله ﷺ: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه»[(٢)].

ومن صور الأدب مع الله: التأدب مع كتابه العزيز؛ بأن يقصد بقراءته وجه الله تعالىٰ، وتَعَلُّم أحكام كتابه، ويحرص على استعمال الآداب الشرعية التي ذكرها العلماء في كتب آداب حملة القرآن الكريم، مِن أمثال: كتاب التبيان في آداب حملة القرآن للنووي، وكتاب أخلاق حملة القرآن للإمام الآجُرِّي.

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٣٨٤) برقم: (٦١٣٧)

٢. الأدب مع رسول الله ﷺ:

والأدب مع رسول الله ﷺ يكون بكمال الانقياد والاتباع له، وتلقِّي خبره بالقبول والتصديق، وأن لا يعارضه بغيره بوجه من الوجوه.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتىٰ يأمر هو وينهىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١]، ومِن الأدب معه أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته، فما الظن برفع الآراء علىٰ سُنَّته! ومِن الأدب أن لا يُعارَض نصُّه بقياس، ولا يُحرَّف كلامُه عن حقيقته، ولا يوقَف قَبول ما جاء به علىٰ موافقة أحد، فكلّ هٰذا مِن قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة[1].

ومِن الأدب مع رسول الله ﷺ كثرة الصلاة والسلام عليه؛ فإن مَن أحبَّ شيئًا أكثر مِن ذكره.

٣. الأدب مع الناس:

هو فعل الإنسان ما يجمله ويزينه، ويجتنب ما يُدَنِّسه ويشينه، فيعامل كلّ واحد بما يليق به، فهناك آداب التعامل مع الوالدين، وآداب مع الأرحام، وآداب مع الجار المسلم، وآداب مع العلماء، وآداب مع ولاة الأمر، وآداب مع الضيف، وآداب مع الأولاد، وآداب بين الزوجين، وآداب مع عامة المسلمين، وآداب مع المخالفين من أهل البدع والفسقة، وكذٰلك آداب مع غير المسلمين.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «أما الأدب مع الخلق؛ فهو معاملتهم بما يليق بهم علىٰ اختلاف مراتبهم، فلكلٍّ مرتبة أدب، والمراتب فيها آداب خاصة، فمع الوالدين أدب خاص، وللأب منهما أدب هو أخص به، ومع العالم أدب آخر، ومع

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٦١).

السلطان أدب يليق به، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهله»[1].

٤. الأدب مع النفس:

اعلم أن النفس مجبولة علىٰ شِيَم مهملة، وأخلاق مرسلة، لا يستغني محمودها عن التأديب، ولا يكتفي بالمرضيِّ مِنها عن التهذيب؛ لأنَّ لمحمودها أضدادًا مقابلة يسعدها هوىٰ مطاع وشهوة غالبة، فإن أغفل تأديبها تفويضًا إلى العقل أو توكلًا علىٰ أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار مِن الأدب عاطلًا، وفي صورة الجهل داخلًا؛ لأنَّ الأدب مكتسب بالتجربة، أو مستحسن بالعادة، ولكلِّ قوم مُوَاضَعَة[2].

فالنفس البشرية متفاوتة في الطباع، فليست كلّها قابلة للتأديب والتهذيب، فمنها:

أ. «النفس المطمئنة» التي ترجع إلىٰ ربها راضية مرضية.

ب. ومنها: «النفس اللوامة» إذ تلوم صاحبها علىٰ ما يستهدف له مِن الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وقصد، وهٰذه أيضًا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الأولىٰ، وهي أغلب أحوال التائبين، لأنَّ الشر معجون بطينة الآدمي قلّما يَنْفَكّ عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيرُه شرَّه حتىٰ يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذٰلك في غاية البعد.

ج. ومنها: «النفس الأمارة بالسوء الفَرَّارة مِن الخير» وهي التي تدعوه إلىٰ مقارفة الذنب مِن غير أن يحدِّث نفسه بالتوبة، ومِن غير أن يتأسف علىٰ فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته[3].

---

(١) ينظر: المصدر السابق

(٢) ينظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٣١).

(٣) ينظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للقاسمي (ص: ٢٧٧).



فما على الإنسان إلا السعي إلىٰ تزكية النَّفس وإصلاحها ومحاسبتها وتدريبها على الطاعات والأخلاق، وحثها على التوبة والإنابة والخشية وغيرها، وكذٰلك تدريبها وإلزامها على الآداب الشرعية.

وإذا عُلم هٰذا فينبغي للمسلِم أن يضع هٰذه المراتب والأنواع الأربعة للأدب نَصب عينه دومًا؛ الأدب مع الله عز وجل، والأدب مع رسول الله ﷺ، والأدب مع الخلق والناس، والأدب مع النفس، ومِن ثمَّ يحرص علىٰ بلوغ الدرجة العليا في كلِّ هٰذه المراتب ليسعد في الدنيا والآخرة.

طرق اكتساب الأدب

١ . تربية الأولاد على الأدب منذ الصغر:

وهو واجب يقع علىٰ عاتق الوالدين في البيت أولًا، ثمَّ الأساتذة والمربين في المدارس والمؤسسات التربية والتعليم؛ قال عبد الملك بن مروان لمؤدب بنيه : «إنه والله ما يخفىٰ عليَّ ما تعلمهم وتلقيه إليهم، فاحفظ عني ما أوصيك به: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، وعلمهم الشعر يسمحوا ويمجدوا وينجدوا، وجنبهم شعر عروة بن الورد؛ فإنه يحمل على البخل، وأطعمهم اللحم يقووا ويشجعوا، وجز شعورهم تغلظ رقابهم، وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسن الناس أدبًا وهديًا، ومُرهم فليستاكوا، وليمُصّوا الماء مصًّا، ولا يعبوه عبًّا، ووقِّرهم في العلانية، وأدبهم في السر، واضربهم على الكذب كما تضربهم على القرآن؛ فإن الكذب يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار، وجنبهم شتم أعراض الرجال؛ فإن الحر لا يجد من شتم عرضه عوضًا، وإذا وُلُّوا أمرًا فامنعهم من ضرب الأبشار؛ فإنه علىٰ صاحبه عار باق ووتر مطلوب، واحثثهم علىٰ صلة الرحم، واعلم أن

الأدب أولىٰ بالغلام من النسب»[1].

قال مالك ﷺ: «كانت أمي تُعَمِّمُني، وتقول لي: اذهب إلىٰ ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه»[2].

قال ابن قدامة ﷺ: «الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكلِّ نقش، فإن عُوِّد الخير نشأ عليه وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عُوِّد الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء»[3].

٢. النظر في قصص القرآن وكتب الحديث والسيرة:

وذٰلك لمعرفة هدي وآداب رسول الله ﷺ، وكذٰلك بالنظر في المنقول عن الصحابة والتابعين والأئمة المشهورين بالأدب والورع والدين.

٣. مصاحبة المربِّين والعلماء وطلبة العلم الملتزمين بالأدب:

قال ابن قدامة: «أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرف عيوب نفسه وطرق علاجها، وهٰذا قد عز في هٰذا الزمان وجوده، فمَن وقع به فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه»[4].

٤. أن يستفيد معرفة نفسه من ألسنة أعدائه:

فإن عين السخط تُبدي المساوئ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مُداهن يخفىٰ عنه عيوبه[5].

---

(١) ينظر: بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (ص: ٢٢٨).

(٢) ينظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ١٣٠).

(٣) ينظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص: ١٥٩).

(٤) ينظر: المصدر السابق (ص: ١٥٦).

(٥) ينظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص: ١٥٧).

٥. انتقاء صديق صدوق:

بأن يكون بصيرًا مُتَدَيِّنًا، وينصبه رقيبًا على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله(١).

علامات التحقق بالأدب

١. أن يشعر المتأدِّب بتحسن في أخلاقه، مثل المريض الذي يشعر بتعافيه مِن علته التي أصابته، فهو أول مَن يدرك ذٰلك ويشعر به.

٢. ملاحظة مَن حولك بتغيُّر عاداتك السيئة، وأخلاقك غير المرضية التي كانوا ينتقدونك عليها، فإن ثناء الناس على الشخص أحد طرق معرفة تحقق الإنسان بالصفات الحميدة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»(٢).

الآفات التي تؤثر في الإخلال بالأدب

١. الاعتداد بالنفس:

يرى كثير مِن الناس أنَّه لا يحتاج إلى تأديب؛ ظنًّا أن الدعوة إلى التأدبِّ فيه تنقُّصٍ منهم، وقد غفلوا أن المربي والمؤدب بدعوته لهٰذه الفضيلة ما هي إلا دعوة للخير، وقصد إيصال الخير إلى العالِمين، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

(١) ينظر: المصدر السابق (ص: ١٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١١) برقم: (٣٢٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٠) برقم: (٢٦٣٧).

وعلاجها: يكون بإقناع هٰذا الصنف مِن الناس بأن كل الناس بحاجة إلىٰ التأديب، وأن في التحقق بها نجاة في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

٢. قِلَّة المربين:

إن أعظم شرط ينبغي توفره لتحقيق نجاح عملية التربية وجود مربٍ مؤهل لتطبيق البرنامج التربوي المطلوب، وقد قال عنه الغزالي: «وهٰذا قد عزَّ في الزمان وجوده»(١).

نماذج من أدب الصالحين

أولًا: نماذج مِن الأدب مع الله

١. قال الله عز وجل علىٰ لسان عيسىٰ ﷺ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، ويتجلىٰ أدبه في أنه لم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثمَّ أحال الأمر علىٰ علِمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾، ثمَّ برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، ثمَّ أثنىٰ علىٰ ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلِّها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦](٢).

٢. عن عبد الله الرازي، قال: سمعت الحريري يقول: «منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسي في الخلوة، فإن حسن الأدب مع الله تعالىٰ أولىٰ»(٣).

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٦٤).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٤٥).

(٣) ينظر: صفة الصفوة (١/ ٥٣٤).

٣. من الأدب مع الله عدم إضافة الشر وأسبابه إليه، مع العلم أن الكلَّ بقضاء الله وقدره، قال الله تعالىٰ علىٰ لسان سيدنا إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ثانيًا: نماذج مِن الأدب مع الرسول ﷺ

عن ابن شماسة المهري، قال: «حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت، يبكي طويلًا، وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أمَا بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إني قد كنتُ علىٰ أطباق ثلاث، لقد رأيتني وما أحدٌ أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منِّي، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت علىٰ تلك الحال لكنت مِن أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيتُ النبي ﷺ، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، قال: «ما لك يا عمرو؟» قال: قلتُ: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفر لي، قال: «أما علمتَ أن الإسلام يهدِم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدِم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدِم ما كان قبله؟» وما كان أحدٌ أحب إلي مِن رسول الله ﷺ، ولا أجَلَّ في عيني مِنه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني مِنه إجلالًا له، ولو سئلتُ أن أَصِفَه ما أطقت؛ لأنِّي لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت علىٰ تلك الحال لرجوت أن أكون مِن أهل الجنة، ثمّ ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة، ولا نار، فإذا دفنتموني فشنّوا علي التراب شَنًّا، ثمَّ أقيموا حول قبري قدر ما تُنْحَر جَزُور ويُقْسَم لحمها، حتىٰ أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١١٢) برقم: (١٢١).

ثالثًا: نماذج مِن الأدب مع العلماء

١. عن أنس بن مالك ﷺ قال: «خرجتُ مع جرير بن عبد الله البجلي في سفر فكان يخدمني، فقلتُ له: لا تفعل، فقال: إني قد رأيتُ الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا آليتُ أن لا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته»[١].

٢. قال الربيع بن سليمان: «والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء والشافعيّ ينظر إليَّ هيبةً له»[٢].

المقترحات العملية والتدريبات

١. إدامة النظر في سيرة رسول الله ﷺ بقصد التأسي والاقتداء، فهو سيد المؤدبين والمتأدبين ﷺ، فاقرأ مثلًا في كتاب (الرحيق المختوم) لصفي الرحمٰن المباركفوري، وحاول أن تستخرج نماذج من أدب نبينا ﷺ مع الله ﷻ.

٢. القراءة في سير المُربين، والاستفادة مِن طرائقهم في التربية والتهذيب، واختر كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبي نعيم الأصبهاني، وانْتَقِ منه بعضًا مِن أدب هٰؤلاء الأعلام مع الله تعالىٰ، وحاول أن تعيشه واقعًا في حياتك لتذوق بعض ما ذاقوه.

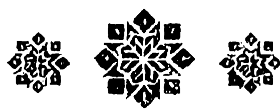
٤. اقرأ كتاب (الأدب مع الله) لإبراهيم بن محمد.

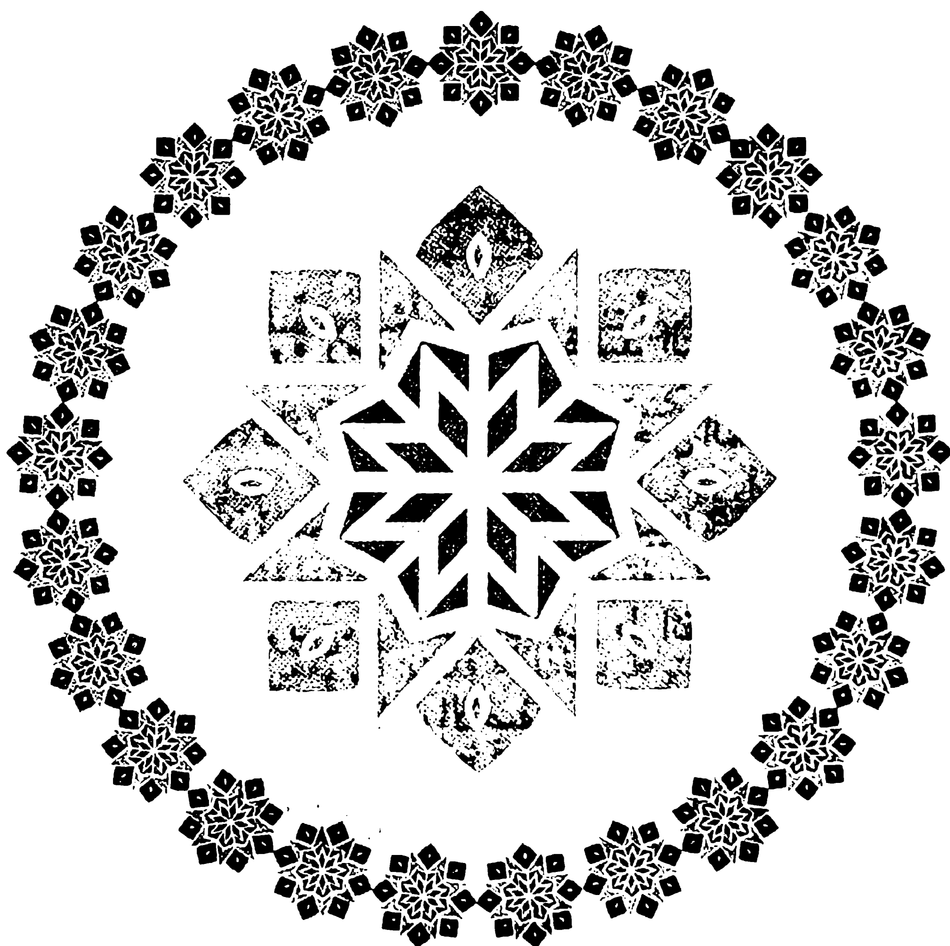
٥. استمع إلىٰ محاضرة للدكتور محمد راتب النابلسي بعنوان: (سبل الوصول - الأدب مع الله).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٥١) برقم: (٢٥١٣).

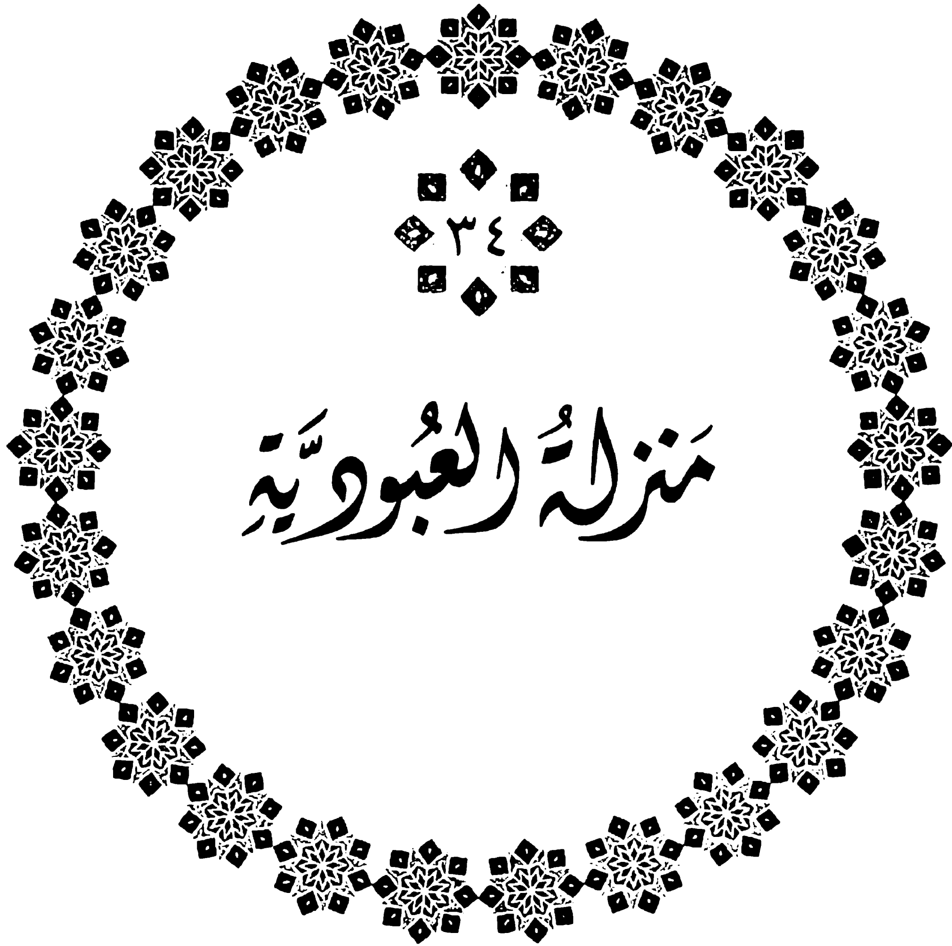
(٢) ينظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٥).







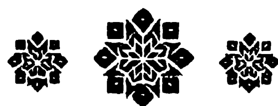
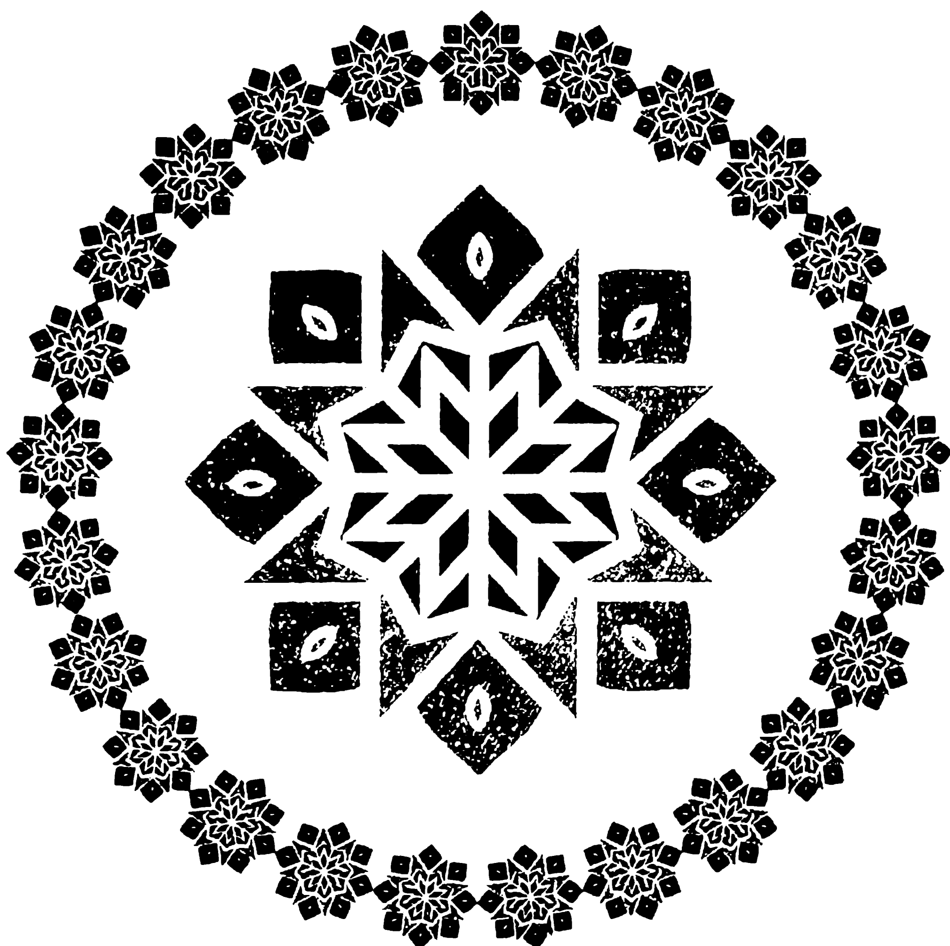


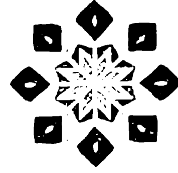


٣٤

مَنزلةُ العُبوديَّة



منزلة العبودية



بين يدي العبودية

العبودية من أفضل المنازل، وهي أفضل وصف يمكن أن ينادىٰ بها المؤمن، فعبودية المؤمن لربّه هي عزّهُ في الدنيا والآخرة، قال أبو علي الدقّاق: «ليس شيء أفضل من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الوصف به»[(١)]، ومدار العبودية علىٰ خمس عشرة قاعدة؛ فهي ثلاث بالأداة: القلب واللسان والجوارح، وخمس بالأحكام: واجب، ومستحب، ومباح، ومكروه، وحرام[(٢)]، «فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهّم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق بل من أضلهم»[(٣)].

والعبودية عبوديتان:

عبودية ظاهرة: وهي عبودية اللسان والجوارح، فقول اللسان؛ كالنطق بالشهادتين، والذكر وتلاوة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعمال الجوارح؛ كالركوع والسجود والطواف ونحوها، وكل هٰذه العبادات منها الواجب والمندوب، وكثير من هٰذه الأعمال قد تدخله الأحكام الخمسة،

---

(١) الرسالة القشيرية للقشيري (ص: ٣٤٦)؛ المعين علىٰ تفهم الأربعين لسراج الدين بن الملقن (ص: ٤٥).
(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٢٩).
(٣) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ١٧٧).

فالنهي عن المنكر قد يكون واجبًا في حال القدرة، ويكون محرمًا إن ترتب عنه منكر أكبر منه، وقد يكون مستحبًّا وجائزًا ومكروهًا في أحوال أخرىٰ.

وعبودية باطنة: وهي أفرض على العبد من أعمال الجوارح، فعبودية القلب ومقاماته، مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، وبها يتمايز الإيمان والنفاق، فعمل القلب لب العبودية، إن غاب عنها كان كالجسد بلا روح[1].

واسم العبد يتناول معنيين:

أحدهما: بمعنى العابد كرهًا، كما قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

والثاني: بمعنى العابد طوعًا؛ وهو الذي يعبده ويستعينه، وهذا هو المذكور في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣][2].

حقيقة العبودية

العبودية في اللغة:

العبادة والطاعة مع الخضوع، والعبد خلاف الحر، وأصلها الخضوع والذل، ومنه أُخِذ العبد لذلته لمولاه، والتعبيد التذليل، وتعبّد فلان لفلان: إذا تذلل له، وعبّدت الرجل: ذلّلته حتىٰ عمِلَ عَمَلَ العبيد، والتعبيد والاستعباد: اتخذت الرجل عبدًا، وطريق مُعبَّد: إذا كان مذلَّلًا بكثرة الوطء[3].

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ١١٤٦).

(٢) ينظر: قاعدة جامعة في توحيد الله لابن تيمية (ص: ٨٧)؛ بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ١١٤٨).

(٣) ينظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٦٤٢)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ١٣٨)؛ المخصص لابن سيده (٤/ ٦٨)؛ تاج العروس للزبيدي (٥/ ٩٠)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ١٩٨).

قال طَرَفة بن العبد:

تُبـاري عتاقًـا ناجيـات وأتبعـت وظيفًـا وظيفًـا فـوق مَـورٍ معبّـد[1]

العبودية في الشرع:

العبودية من العبادة: وقد عرّف البعض العبادة باعتبارها مخالفة للهوىٰ، فهي عند الجرجاني ﷺ: «فعل المكلف علىٰ خلاف هوىٰ نفسه؛ تعظيمًا لربه»[2]، «وهو فعل يباشره المرء بخلاف هوى النفس ابتغاء مرضاة الله تعالىٰ بإذنه»[3].

وهي عند الغزالي ثلاثة أشياء: «أحدها: محافظة أمر الشرع، وثانيها: الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالىٰ، وثالثها: ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالىٰ»[4].

وهناك من نظر إليها كأفعال وأحوال تقوم بالعبد ويقوم بها؛ فهي عند ابن تيمية: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[5]، وقال أبو سعيد الخزاز: «علامة العبودية ثلاث: الوفاء لله على الحقيقة، والمتابعة للرسول ﷺ في الشريعة، والنصيحة لجميع الأمة»[6]،وقال ابن عطاء: «العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود،

---

(١) ومعنى البيت: إن (العتاق) وهي الإبل الكرام البيض، (الناجيات) أي السريعة، (تُباري) أي يسابق بعضها بعضًا، حتىٰ أنها تضع (وظيف) أرجلها مكان (وظيف) يديها من السرعة، والمور الطريق. ينظر: شرح ديون طرفة ليوسف الشنتمري (ص: ١١).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ١٤٦).

(٣) الفروق للقرافي (٢/ ٢٩).

(٤) مجموعة رسائل الإمام الغزالي لأبي حامد الغزالي (ص: ٢٦٣).

(٥) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

(٦) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٨٧).

والصبر عن المفقود»[1]، وقال الغزالي ﷺ: «هي عبارة عن دوام حضور العبد من الحق تعالىٰ بلا شعور الغير، بل مع الذهول عن كل ما سواه»[2].

والعبادة الشرعية تقوم على الحب، فمن خضع لغيره دون أن يحبه فليس بعابد له، ومن أحبه ولم يخضع له فلا يعد عابدًا له، فقد يحب المرء ولده[3].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

منزلة الفقر:

فقر العبد ليس في فقد المال والمتاع، بل أكمل الفقر فقر العبد لمولاه، فأكمل الخلق عبودية أعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلىٰ ربه، فهو لا يستغني عنه طرفة عين، فإن وافق نعمة شكَرَها، وإن تحرك لطاعةٍ علِم أنها نعمة من الله وتوفيق منه، وإن مال لمعصية استغاث بمولاه أن يعصمه ويصرفه عنها، ونادىٰ بلسان حاله ومقاله بقول يوسف ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، وبدعاء سيد الخلق محمد ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»[4]، «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك»[5]، «وهٰذا الافتقار إلى الله تعالىٰ في كل حال، هو حقيقة العبودية ولبها»[6].

---

(١) المصدر السابق (ص: ٢٨٧).

(٢) مجموعة رسائل الإمام الغزالي لأبي حامد الغزالي (ص: ١٧٤).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ١٥٣).

(٤) رواه أحمد في المسند (١٩/ ١٦٠) برقم: (١٢١٠٧)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٦) برقم: (١٩٣٣)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٩) برقم: (٢٣٠٥)، وقال: حديث حسن.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥١) برقم: (٢٦٥٤).

(٦) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤١٠).

منزلة الإرادة:

النفس لا تكون إلا مريدة، فمن لم تتوجه إرادته للصلاح، توجهت للفساد، وقوة الإرادة مرتبطة بحياة القلب، فكلما قويت حياته، قويت إرادته وهمته، وتضعف الإرادة بقدر ضعف حياة القلب[1]، يقول المرتعش: «الإرادة حبس النفس عن مراداتها، والإقبال علىٰ أوامر الله تعالىٰ، والرضا بموارد القضاء عليه»[2]، وهٰذه حقيقة العبودية، فالعبودية عند الغزالي ثلاثة أشياء: «أحدها: محافظة أمر الشرع، وثانيها: الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالىٰ، وثالثها: ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالىٰ»[3].

منزلة المحبة والخوف والرجاء:

قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧]، «فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء»[4].

وعلاقة هٰذه المنازل بالعبودية: أن الرجاء هو الباعث على العمل، وهو حادي القلوب إلىٰ بلاد المحبوب، فرجاء ما عند الله يُهوِّن على العبد مشقة الطاعة.

وأما الخوف فهو السوط الذي يزجر العبد، ليمنع من ترك الطريق، لذٰلك قيل: «المؤمن يتردد بين الخوف والرجاء لخفاء السابقة؛ وذٰلك لأنه تارة ينظر إلىٰ عيوب نفسه فيخاف، وتارة ينظر إلىٰ كرم الله فيرجو»[5].

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٤٧).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ١١٨).

(٣) مجموعة رسائل الإمام الغزالي لأبي حامد الغزالي (ص: ٢٦٣).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٦).

(٥) ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٩/ ٢٦٨).

وأما المحبة: فهي أقواها وأدومها، فهي مقصودة لذاتها، لا تفارق العبد في دنياه وآخرته، بقدر قوتها تكون سرعة سير العبد لمولاه، ولا قيام للعبودية إلا بمحركات القلب الثلاث: الرجاء قائدًا، والخوف زاجرًا، والمحبة محركًا وحاملًا[(١)].

قال بعض السلف: «مَن عبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومَن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن مُوَحِّد»[(٢)].

فضل العبودية وثمراتها

١. العبودية أهم الغايات:

فما خلق الله الخلق إلا لأجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وما أرسل الرسل إلا لدلالة الخلق عن كيفية تحقيقها، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، وكل الرسل دعوا أقوامهم إليها، فقال تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وخاطب الله بها الناس جميعًا وأمرهم بها، فقال مناديًا لخلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١][(٣)].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٩٥).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٢٠٧).

(٣) ينظر: المصدر السابق (٥/ ١٥٥).

٢. العبودية أشرف أحوال العبد ومقاماته:

العبودية مقام شريف، ولشرف هٰذا المقام وُصف به النبي ﷺ في أقرب أحواله لربه، فوصفه الله تعالىٰ في مقام الدعوة بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقام الإسراء بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١][(١)]، ووصف الله بمقام العبودية خيار خلقه من الملائكة والأنبياء فقال واصفًا ملائكته: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقال في سياق قصة إبراهيم: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

٣. نيل محبة الله ومعيته:

من أقرب الأبواب التي ينال بها العبد القرب من مولاه، ويَشرُف بمعيّة ربه باب العبودية، ومصداق هٰذا الحديث القدسي: «ما تقرَّب إِلَيَّ عبدِي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إِلَيَّ بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ويده الَّتِي يبطِش بِهَا، ورِجْلَه الّتي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»[(٢)].

فالحديث يبين أن العبد إذا أدّى الفرائض، وتقرب لله تعالىٰ بالنوافل، تحقّقت له محبة الله، فإذا نال هٰذه المرتبة كان الله معه في كل أحواله، والباء ههنا للمصاحبة وليست للاستعانة، أي: إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه[(٣)].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١/ ٦٦)؛ مفتاح دار السعادة لابن القيم (ص: ١١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).
(٣) ينظر: الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٨٦).

٤. الحياة الطيبة:

وعد الله من تقرب إليه بالعمل الصالح أن يكافئه بالحياة الطيبة، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال الحسن: الحياة الطيبة هي القناعة، وقال عطاء وسعيد بن جبير: هي الرزق الحلال، وقال مقاتل: العيش في الطاعة[1]، والصحيح أن المقصود بالحياة الطيبة: حياة القلب بطاعة الله، وسروره بالأُنس به[2]، وهو نعيم لا يقاس عليه شيء من نعيم الدنيا، بل هو أقرب لأحوال أهل الجنة، حتىٰ قال بعض العارفين: «إنه لَتَمُرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هٰذا، إنهم لفي عيش طيب»[3].

«وأي حياةٍ أطيب مِن حياة مَن اجتمعت همومه كلها وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله»[4].

شروط العبودية

١. الإخلاص:

وهو أن يراد بالعبادة وجه الله، فقد دلّت نصوص الكتاب والسنة علىٰ أن الإخلاص شرط في صحة العمل، ومن ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقوله:

---

(١) ينظر تفسير البغوي (٣/ ٩٥).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٤٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٧).

(٤) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٨٤).

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، وقال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»(١).

ولا يقبل الله عمل العبد إن كان لغير الله، ففي الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»(٢).

وقد وقع الإجماع على أن أعمال الجوارح إن خلت من عمل القلب لا تُقبل، «وقد أجمع المسلمون على أن مجرَّد أعمال البدن بدون عمل القلب لا يكون عبادة ولا طاعة لله، وأن كل عمل لا يُراد به وجه الله فليس هو عبادة له»(٣).

٢. المتابعة:

فالأصل في ثبوت العبادة التوقيف والنص، ولا تكون العبادة مشروعة إلا بدليل، فمن تعبّد الله بما لم يشرعه وقع في البدعة، وكان عمله بلا ثواب، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفي الحديث: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٤)، وسئل الفضيل بن عياض عن قول الله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، فقال: «أي: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنّة»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٦) برقم: (١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٩) برقم: (٢٩٨٥).

(٣) الرد على الشاذلي لابن تيمية (ص: ٦٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٤٣) برقم: (١٧١٨).

(٥) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠-٥١)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (٨/ ٩٥).

٣. القدرة:

القدرة شرط في التكليف، فمتىٰ عجز العبد عن أداء العبادة بصورتها الكاملة، أدّاها بالصورة المقدور عليها، لكن ينبغي للعبد أن يستعين بالله، ولا يعجز أو يتكاسل، فإن عجز العبد عن أداء العبادة عجزًا كليًّا سقطت عنه؛ فمن عجز عن الوضوء تيمّم، ومن عجز عن القيام في الصلاة صلىٰ قاعدًا، بل إن عجز عن الوسيلة قد تسقط العبادة، فإن عجز عن الزاد والراحلة سقط عنه الحج.

وفي الحديث: «فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا»[١]، أمر بلزوم السداد، وهو التوسط في العمل، والمقاربة، وهي السعي لعمل الأكمل أو ما يقاربه في الكمال، وبشّر العاملين بالثواب، وأن العجز إن لم يكن من صنيعهم فإنهم يثابون ثواب العمل التام[٢].

٤. الاعتدال:

الإسلام دين الاعتدال، وليس من دين الإسلام تشديد الإنسان علىٰ نفسه، فالغلو في العبادات قد يؤدي للانقطاع، فالْمُنْبَتُّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ، وفي الحديث: «لن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه»[٣].

وقد نهى النبي ﷺ الثلاثة الذين تقالّوا عبادته، عندما قال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام علىٰ فراش، فحمد الله وأثنىٰ عليه، فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا! لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٩٤) برقم: (٣٩).

(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم: (٣٩).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٠) برقم: (١٤٠١).

مراتب العبودية

اصطفى الله عبادًا أورثهم الكتاب، ونسبهم إليه بكونهم عباده، وقد جعلهم الله ثلاثة أصناف، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فقد ذكر أنهم ممّن اصطفاهم الله ليرثوا الكتاب، فأمة محمد هي مَن ورثت الكتاب عن الأمم السابقة[١]، فالأصناف الثلاثة مسلمون مصطَفَون، وذكر في الآية بعدها أن ثلاثتهم من أهل الجنة؛ فقال تعالىٰ: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣]. والطبقات الثلاث المذكورة في الآية تنطبق علىٰ تلك المذكورة في حديث جبريل: الإسلام، والإيمان والإحسان[٢].

المرتبة الأولىٰ: المخِلُّ ببعض الواجبات

«وأما السائرون إليه: فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته، وإيثار شهواته ولذاته علىٰ مراضي الرب سبحانه وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه، ويعزم على الرجوع إلى الله، فهذا حال المسلم»[٣].

قال تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١١/ ١٨٢).

(٢) ينظر: المصدر السابق (٧/ ٤٨٥).

(٣) طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٢٠٣).

فالآية السابقة نزلت في أبي لبابة ومَن تخلف معه عن تبوك، وكانوا قد ربطوا أنفسهم في سواري المسجد، وعزموا ألا يفك وثاقهم حتىٰ يتوب الله عليهم، والآية عامة في كل مذنب خلط عملًا صالحًا بسيئات وذنوب[1].

وصاحب هٰذه المرتبة قد يؤخّر الصلاة عن وقتها، وقد لا يصل رحمه، وقد يصوم عن الطعام ولا يصوم عن الآثام[2].

المرتبة الثانية: المؤدي للفرائض المتجنب للمحارم

ويسمى المقتصد، وعرّفه العلماء بقولهم: «هو المؤمن المطلق الذي أدىٰ الواجب وترك المحرم»[3]، وهي مرتبة تكون فيها همة العبد معلقة بفعل الواجب وترك المحرم[4].

وفي حديث عمرو بن عبسة، قال: قلت: وما الإسلام؟ قال: «طيب الكلام وإطعام الطعام» قال: قلت: ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة» قال: قلت: فأيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» قَالَ: قلت: أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن»[5].

فالحديث ذكر أن الإسلام: طيب الكلام وإطعام الطعام، ثم أردف أن الإيمان السماحة والصبر، والسماحة تستلزم لين الكلام وإطعام الطعام، فدلَّ أن الثانية تستلزم الأولىٰ وأكمل منها[6].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٠٦).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٥/ ١٦١-١٦٢).

(٣) المصدر السابق (١٣/ ٣٣٧).

(٤) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٢٠٣).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٢٢/ ١٧٧) برقم: (١٩٤٣٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٤): «رواه أحمد، وفي إسناده شهر بن حوشب، وقد وُثِّق علىٰ ضعف فيه».

(٦) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٧/ ٨).

وأصحاب هذه المرتبة: هم المشار إليهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، وهم قوم يحافظون علىٰ أداء الصلوات في وقتها، ويقومون بما يجب عليهم من الزكاة وصلة الرحم وقرى الضيف، ويحافظون في صيامهم علىٰ ترك الطعام والآثام(١).

المرتبة الثالثة: المؤدي للفرائض والنوافل

وهم المشار إليهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]. قالت فاطمة النيسابورية: «من عمل لله على المشاهدة، فهو عارف، ومن عمل علىٰ مشاهدة الله إياه، فهو مخلص»(٢).

ولما سأل جبريل النبي ﷺ عن الإحسان أجابه قائلًا: «أن تعبد الله كأنَّكَ تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّهُ يراك»(٣)، فذكر مقامين للإحسان:

الأول: مقام الإخلاص، وهو استحضار اطلاع الله علىٰ أحوال عباده، والثاني: مقام المشاهدة، وهو نفوذ البصيرة، حتىٰ كأن الغيب كالعيان(٤).

وأصحاب هذه المرتبة: يؤدون الصلاة في أول وقتها، ويكثرون الصدقات، حتىٰ إن الواحد منهم قد يتصدق بأكثر ماله أو كله، كما فعل الصدّيق رضي الله عنه، وصيامه امتناع عن كل ما لا يقربه إلى الله(٥).

---

(١) ينظر: المصدر السابق (٥/ ١٦١-١٦٢).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)، ومسلم في صحيحه (١/ ٣٦) برقم: (٨).

(٤) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ١٢٩).

(٥) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٦١-١٦٢).

طرق اكتساب العبودية

١. اجتناب المعاصي:

قال عبد الله بن المبارك: قيل لوهيب بن الورد: «أيجد طعم العبادة من يعصي الله؟ قال: لا ولا من يهم بالمعصية»[١]، فبقدر تلبّس الإنسان بالمعصية يُنقص ذٰلك من عبوديته.

وبالمقابل «فإن طيب النفس، وسرور القلب، وفرحه ولذته، وابتهاجه وطمأنينته، وانشراحه ونوره، وسعته وعافيته مِن ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه»[٢]، ولذٰلك قيل: «أصل العبودية حفظ الحدود، وصون العهود، ومَن حفظ حدّه لم يصبه مكروه ولا آفة، وأصل كلّ بلاء مجاوزة الحدود»[٣].

وحفظ الحدود قد تعني ألا يتجاوز العبد حد العبودية للربوبية، وقد تعني تجاوز حدود الله بالوقوع في المعاصي، فقد تكون المعصية سببًا لحرمان العبد من التوفيق للطاعة، ويحرمه من تحقيق العبودية لله سبحانه، ومن عقوبة المعصيةِ المعصيةُ بعدها، فإبليس لما عصىٰ وأصرَّ، عاقبه الله بجعله داعية لكل معصية[٤].

٢. العلم:

وضابط هٰذا العلم: أن يجمع فيه الإنسان بين معرفة الحق والعمل به، وهو ما يمكن التعبير عنه: باستكمال العبد لقوته العلمية.

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٤٢٠)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ١٩٩).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٢١).

(٣) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٣١٩).

(٤) ينظر: موسوعة فقه القلوب لمحمد التويجري (٤/ ٢٩٦٠).

واستكمال القوة العلمية: «إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها، فبهٰذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية»[1].

فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه، حتىٰ خرقها وجاوزها إلىٰ مقتضىٰ الوحي والفطرة والعقل، فقد أُوتيٰ خيرًا كثيرًا، ولا يُخاف عليه إلا من ضعف همته، فإذا انضاف إلىٰ ذٰلك الفتح همة عالية، فذاك السابق حقًّا، واحد الناس بزمانه[2].

علامات التحقق بالعبودية

١. التسليم لأحكام الله:

فالعبودية تقتضي التسليم لأحكام الله الشرعية، بفعل الأوامر وترك النواهي، وعدم معارضتها بعقل أو ذوق، والتسليم لأحكامه القدرية فمن أصابته أقدار بمرض أو غيره من المصائب، فعليه بالصبر.

وهٰذا لا يمنع مِن مُدافعة الأقدار بضدها، كطلب التداوي من الأمراض، لأنَّ هٰذا من قدر الله، فقد قال عمر ﷺ: «نَفِرُّ مِن قدر الله إلىٰ قدر الله»[3]، وقال ذو النون المصري: «العبودية أن تكون عبده في كل حال، كما أنه ربك في كل حال»[4].

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨).

(٢) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٣٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، (٧/ ١٣٠) برقم: (٥٧٢٩)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٤٠) برقم: (٢٢١٩).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٤٨).

٢. الانتفاع بآيات الله:

فهو يعطي «لكل آية حظها من العبودية، فتجذب قلبه وروحه إليه آيات المحبة والوداد، والآيات التي فيها الأسماء والصفات، والآيات التي تَعَرّف بها إلىٰ عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم، وتطيب له السير آيات الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيب له السير ويهونه عليه، وتُقْلِقُه آيات الخوف والعدل والانتقام، وإحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره المائلين إلىٰ سواه، فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه»[١].

الآفات التي تؤثر في العبودية

١. الشرك:

يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأهل العبودية الحقة محبتهم لله أشد «من أهل الأنداد لأندادهم؛ لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره»[٢]، فكل من أشرك بالله نقصت من عبوديته لله بقدر ما صرفه لمعبوداته من العبادة.

٢. التعلّق بغير الله:

والتعلق بغير الله يَدخل فيه التعلّق بالدنيا وزخارفها، وقد سماه رسول الله ﷺ

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (ص:٢١١).

(٢) تفسير الكريم المنان للسعدي (ص: ٧٩).

عبودية فقال: «تَعِس عبد الدينار، تَعِس عبد الدرهم، تَعِس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإِنْ لم يُعْطَ لم يرضَ»[١]، فكل مَن تعلّق بشيء مِن الدنيا افتقارًا فهو عبده، وفي هٰذا المعنىٰ يقول الإمام الشافعي ﵀:

العبدُ حرٌّ إن قنِع   والحرُّ عبد إن طَمِع[٢]

ومن أقواله أيضًا: «مَن غلبت عليه شدة الشهوة لحب الدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومَن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع»[٣]، فمن يئس استغنىٰ، ومن طمع افتقر، وكان فقره دائم وعاجل، فمن «تعلّق بالُه بشيء من الدنيا ورأىٰ نفسه أنه فقير إليه فهو عبده»[٤].

وفي الحديث ضابط آخر للعبودية، وهو: تعلق رضاه وسخطه به، فهو قد يتسخّط عن ربه إن منعه شيئًا من الدنيا[٥].

والعبودية التي تضر العبد هي عبودية القلب، وإلا فقد يُؤْسر المسلم لعدوه، أو يكون الإنسان عبدًا مملوكًا لغيره، وكل ذٰلك لا يضره عند ربه، بل قد يكون ذٰلك سببًا لمزيد الأجر، أما من استعبد قلبه فصار عبدًا لغير الله فهٰذا يضره ذٰلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس[٦].

ومن تعلق قلبه بمخلوق يرضيه وصْلُه، ويُشْقيه هجْرُه فقد صار عبدًا رقيقًا لذٰلك المخلوق؛ إذ الرِّق والعبودية رِقّ القلب، وهٰذا إن كان ذٰلك المحبوب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم: (٢٨٨٦).

(٢) ديوان الإمام الشافعي (ص: ٧٩).

(٣) بستان العارفين للنووي (ص: ٥٢).

(٤) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة لأبي عبد الله القرطبي (ص: ٩٨٧).

(٥) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ٨٣).

(٦) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ١٨٦).

يجوز وصاله، أما إن كان التعلق بمحرم من صبي أو امرأة لا تحل، فذاك البلاء الذي لا مخلص منه ولا فكاك، وقد يصل حاله كحال أحمد بن كليب النحوي الشاعر القائل:

أسـلم يـا راحـة العليـل ويا شفا المدنف النحيل
رضاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل(١)

٣. الكبر وحب الرئاسة:

صحّ عن النبي ﷺ قوله: «لا يدخل الجنة رجل في قلبه مثقال ذرّة من كِبر، ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال ذرّة مِن إيمان»(٢)، «فجعل الكبر مقابلًا للإيمان، فإن الكِبر ينافي حقيقة العبودية»(٣). وقد ذمَّ الله من طلب العلو والرئاسة والكبرياء كفرعون وإبليس(٤)، بل قد نُهي العبد عن تزكية النفس، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، والكبرياء لله وحده، فهو المستحق لصفة الكِبر في أعلى المراتب، وهي في حقه مدح، وفي حق العبد ذم؛ لمنافاتها لحقيقة العبودية(٥).

أما الرئاسة والحرص عليها فقد قال الخوّاص: «مَن شرِب مِن كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية»(٦).

وقد تدخل الرئاسة على العبد من أبواب الخير؛ كالتأليف والتدريس، لذا ينبغي ألا يتصدّى المريد الصادق للتأليف والتدريس قبل أن يراه الأشياخ أهلًا

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (ص: ١٩٥).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٧/ ٦٠) برقم: (٣٩٤٧)؛ وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٨٠) برقم: (٥٤٦٦)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٥٣٤) برقم: (١٩٩٩)، وقال: حسن صحيح غريب.
(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٩٠).
(٤) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٢٢٧).
(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٩/ ١٧٣).
(٦) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٨٢).

لذلك، فإن فعل فليعلم أنما دعاه لذلك حب الرئاسة[1].

فإن قيل: إنك وصفت الداء، ولم تدلنا على الدواء، فالجواب: أن هناك دواءً جامعًا يُبْرِئ المرءَ مِن كل ما سبق، وهو: تذكّر مراتب الذلِّ الملازمة للعبد بمقتضى بشريته، ومقتضى عبوديته، لعله بذلك يحرر قلبه مما تعلّق به، واستعبده غير الله، من مال، أو دنيا، أو محبوب.

والذلُّ أنواع؛ أكملها: ذلُّ المحب لمحبوبه، استحضر محبتك لربك، وخف فقدها بالكبر ونحوه، كما تخشى فقد محبوبك من البشر.

الثاني: ذلُّ المملوك لمالكه، فهل أنت إلا مملوك لربك، لا تملك أنفاسك، فكيف بغيرها!

الثالث: ذلُّ الجاني بين يدي المنعم عليه المحسن، تذكر ستره على ذنوبك، فكيف بسائر نعمه.

الرابع: ذلُّ العاجز عن جميع مصالحه، فالعجز لا ينفك عنك، فليس منك شيء، فأنت لله، ومصالحك من الله، وإقبالك عليها لا يكون إلا بالله وبأمره، ثم أنت بين خير ترجوه، لا يجلبه لك إلا الله، وشر تخشاه لا يصرفه عنك غيره[2].

نماذج من عبودية السابقين

١ . عبودية عبد الله بن الزبير:

كان ابن الزبير صاحب عبادة، وكان يطيق في العبادة ما لا يطيقه غيره، فقد قال عنه مجاهد: «ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير،

(١) ينظر: عدة المريد الصادق لزروق (ص:٢٤٠).

(٢) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٢٤٣).

ولقد جاء سيل طبق البيت، فرأيت ابن الزبير يطوف سباحة»[١].

وكان ابن الزبير صوّامًا قوّامًا، فقد قالت أمُّه ردًّا على الحجاج حين وصف ابنها بالنفاق: «والله ما كان منافقًا، إن كان لَصوّامًا، قوّامًا، برًّا»[٢].

وقال عمرو بن دينار واصفًا صلاة ابن الزبير: «ما رأيت مصلّيًا قط أحسن صلاة من ابن الزبير»[٣]، وكان يطيل القيام والسجود والركوع، قال ثابت البناني: «كنت أمرُّ بابن الزبير وهو خلف المقام يصلي، كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك»[٤].

وعن مجاهد، وعن مسلم بن يناق، قال: «ركع ابن الزبير يومًا ركعة، فقرأنا بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وما رفع رأسه»[٥]، وذكر يحيى بن وثاب: «أن ابن الزبير كان إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل، لا تراه إلا جِذْمَ[٦] حائط»[٧] ومن دلائل هٰذه القوة في العبادة أنه كان لا يمكن أن يجاريه أحد فيها، فقد قال عثمان بن طلحة: «وكان ابن الزبير لا ينازع في ثلاثة: شجاعة، ولا عبادة، ولا بلاغة»[٨]، وجمع ابن الزبير مع قوته في العبادة اعتناءً تامًّا بأمر دنياه، قال عنه عمر بن قيس: «فكنت إذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت: هٰذا رجل لم يُرد الدنيا طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هٰذا رجل لم يُرد الله طرفة عين»[٩].

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٤/ ٨٢).
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (١/ ٣٣٤).
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٤/ ٨١).
(٤) معجم الصحابة للبغوي (٣/ ٥١٧).
(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٦٩).
(٦) «جِذمُ الحائط: أصله». تهذيب اللغة للأزهري (١١/ ١٤).
(٧) معجم الصحابة للبغوي (٣/ ٥١٧).
(٨) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٧٠).
(٩) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٣٣٤)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٦٨).

٢. عبودية صفوان بن سليم:

من القدوات الثقات، قال عنه ابن عيينة: «إذا رأيته علمت أنه يخشى الله»[(١)]، وكان صفوان بن سليم مجتهدًا في العبادة يومه كله، حتىٰ قال عنه أنس بن عياض: «رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غدًا القيامة، ما كان عنده مزيد علىٰ ما هو عليه من العبادة»[(٢)].

وقال الإمام مالك: «كان صفوان يصلي في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقظ بالحر والبرد حتىٰ يصبح، ثم يقول: هٰذا الجهد من صفوان وأنت أعلم، وإنه لَتَرِمُّ رجلاه حتىٰ يعود مثل السِّقْط[(٣)] مِن قيام الليل، ويظهر فيها عروقٌ خضر»[(٤)].

٣. عبودية مسروق بن الأجدع:

قيل له: لو أنك قصَّرت عن بعض ما تصنع -أي: من العبادة- فقال: والله لو أتاني آتٍ فأخبرني أن الله لا يعذبني لاجتهدت في العبادة، قيل: وكيف ذٰلك؟ قال: حتىٰ تعذرني نفسي إن دخلت جهنم لا ألومها، أمَا بلغك في قوله الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] إنّما لاموا أنفسهم حين صاروا إلىٰ جهنم»[(٥)].

وقالت عنه امرأته: «كان يصلي حتىٰ ترِمَ قدماه، فربما جلسْتُ خلفه أبكي مما أراه يصنع بنفسه»[(٦)].

---

(١) التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ٣٠٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٥٩)؛ تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ١٠١).

(٣) السِّقْط: الجنين ينزل قبل أوانه، ورديء المتاع، وأحشاء الدابة كالمصران ونحوه، وشبَّه بها انتفاخ الرجل؛ لأنها تكوّمت مثلها، ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار (٢/ ١٠٨٧-١٠٨٨).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤/ ١٢٧).

(٥) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ١٢٢)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١٥).

(٦) التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا (٢/ ٨٢).

التدريبات العملية والمقترحات

١ . تدرّج في العبادات بيسيرها على نفسك، فكلٌّ مُيَسّرٌ لِما خلق له، فإن وجدت الأيسر عليك الصلاة، فأكثر مِن نوافلها؛ لعلك تدرك محبة الله، وإن كان الأيسر تلاوة القرآن فكذلك، ولا بد من التدرج في الكم، فما أُخِذ جملة تُرِك جملة.

٢ . اجعل لنفسك وقتًا تستذكر فيه نِعَم الله عليك، وتستذكر فيه مظاهر لطفه في صرف المصائب عنك، وتستذكر فيه فقرك له واحتياجك إليه، فإن هاج بك الشوق فالْهَج بالدعاء.

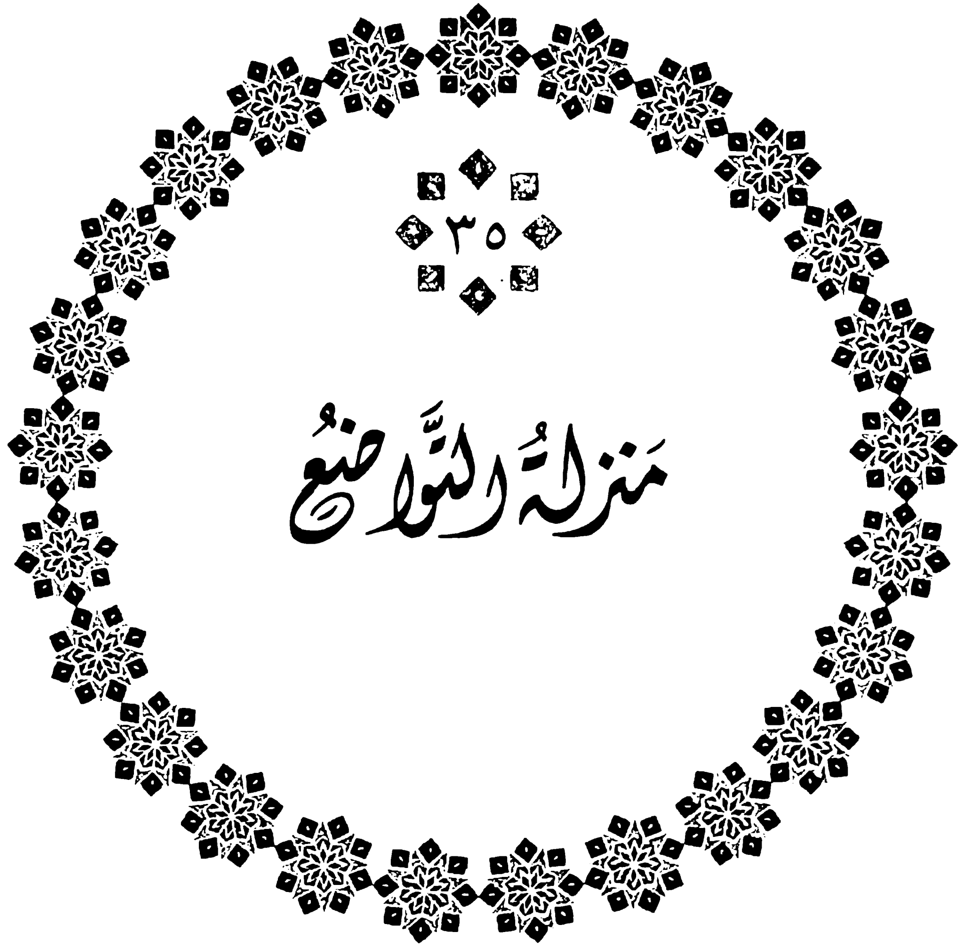
٣ . قم بتلخيص منزلة العبودية مِن كتاب (مدارج السالكين)، وحدّد أهم المعاني التي تأثرت بها.

٤ . كرّر صيغة الدعاء التالية عدة أيام، حتى تتعمق معانيها في نفسك: «اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمَتِك، ماضٍ فيَّ حُكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سَمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا مِن خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي»[1].



(١) أخرجه أحمد في المسند، (٦/ ٢٤٦-٢٤٧) برقم: (٣٧١٢). قال العراقي في تخريج الإحياء (ص: ٣٨٨): «أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود، وقال: صحيح على شرط مسلم إن سلم عن إرسال عبد الرحمن عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه من أبيه».



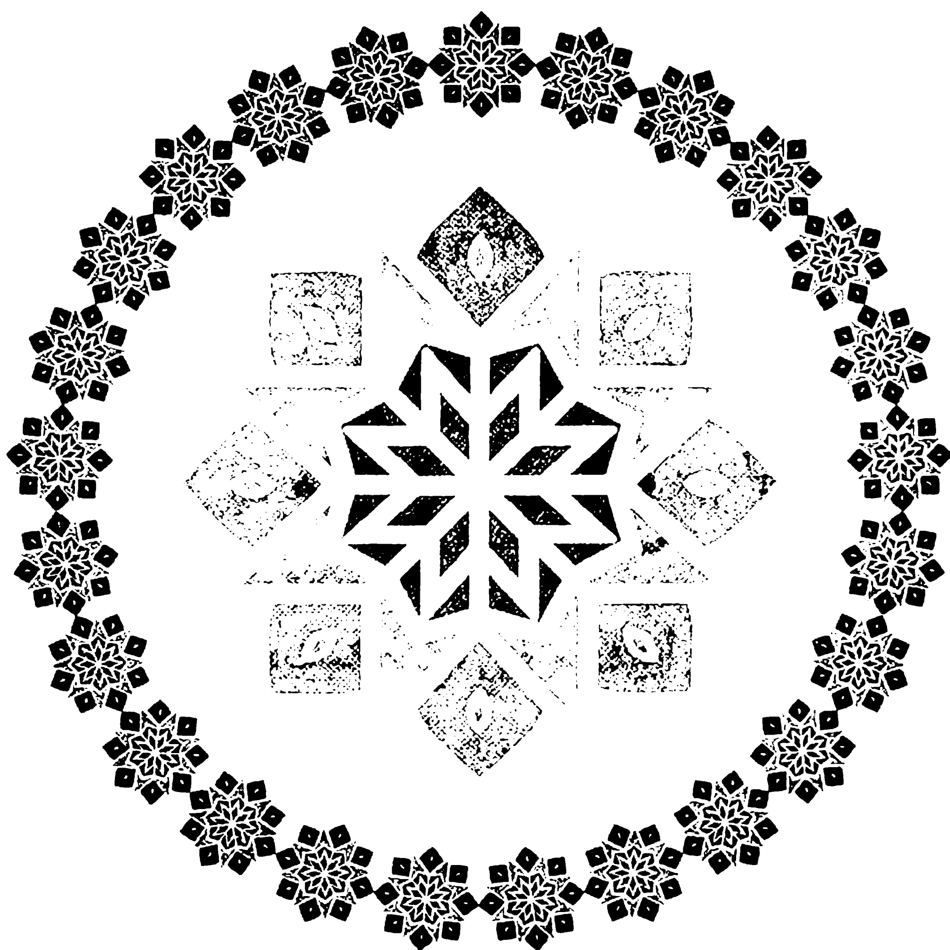


٣٥

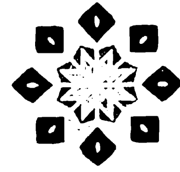
منزلة التواضع



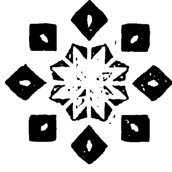








منزلة التواضع



بين يدي التواضع

التواضع خلق يعطيه الله عزّ وجلّ مَن يحبّه ويكرّمه ويقرّبه، فهو من أخلاق الصالحين والفضلاء، ويكفي أن النبي ﷺ كان من سماته التواضع، إذ به تتجلىٰ قيمة الإنسان ورِفْعَته بعد الإيمان بالله تعالىٰ، فكان من أهم الأخلاق وأعلىٰ خصال الخير، ومقام صاحبه الرفعة وعلو المنزلة عند الله والناس، فهو خير الخير الذي لا شر فيه، وإذا اجتمع التواضع مع رفعة منزلة صاحبه، حاز قصب السبق في الفضل والخير[1].

وإذا كان التواضع في أعلىٰ مقامات الأخلاق، فإن ضده -وهو التكبر- في أَخَسِّ المنازل؛ فلا يترك المرء التواضع إلا عند استحكام التكبر في نفسه، ولا يتكبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه، وما مِن أحدٍ يترك التواضع ويتكبر علىٰ مَن دونه إلا ابتلاه الله بالذِّلة لمن فوقه[2].

وقد وصف الله تعالى الخُلَّص مِن عباده بقوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وفُسِّر الخشوع بالتواضع، أي: تواضعوا لعظمة الله تعالىٰ، كما قال ابن عطاء الله السكندري: «التواضع الحقيقي ما كان عن شهود عظمته وتجلي صفته»[3].

(١) ينظر: آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٥٤).

(٢) ينظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٦٢).

(٣) شرح الحكم العطائية للبوطي (٥/ ١٧٧).

ثم هو أيضًا صفة أهل الإيمان في أخلاقهم وتعاملهم مع إخوانهم من المؤمنين، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، فجعل علامة القوم الذين يحبهم ويحبونه العطف والحنوّ والتواضع مع المؤمنين.

وعن حارثة بن وهب ﷺ أنه سمع النّبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنّة؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النّار؟ كل عُتُل جَوَّاظ مستكبر»(١)، قال القاضي عياض: «وقوله ﷺ في أهل الجنة: «كل ضعيف متضعف» هو صفة نفي الكبرياء والجبروت التي هي صفة أهل النار، ومدح التواضع والخمول والتذلل لله عز وجل وحض عليه»(٢).

حقيقة التواضع

التواضع لغة:

تدل المادة اللغوية التي اشتق منها التواضع على التذلل والتخشع، يقال: «وضَعَ فلانٌ نفسَه وضْعًا، ووُضُوعًا بالضمّ، وضَعَةً بالفتح؛ أي: أذلَّها، وتواضع الرجل: إذا تذلَّل، وقيل: ذَلَّ وتَخاشَع»(٣).

التواضع شرعًا:

عُرِّف التواضع بتعريفات متعددة، والتعريف الشرعي مأُخوذ من الأصل اللغوي ومبني عليه، والاشتقاق اللغوي من الضَّعَة، كما يشير إلى هذا قول المحاسبي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٥٩) برقم: (٤٩١٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٥٤) برقم: (٢٨٥٣).

(٢) إكمال المعلم للقاضي عياض (٨/ ٣٨٣).

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (٢٢/ ٣٣٦، ٣٤٣).

«والتواضع: أن تضع نفسَك دون الناس»[1]، أي: أن يَرضى الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقه فضلُه ومنزلتُه، مع اعتقاده في نفسه أن هٰذا مقامه ومنزلته[2].

وهناك معنىً شرعي يُفْهَم مِن بيان النبي ﷺ للكبر الذي هو ضد التواضع وعكسه -إذ بضدها تتمايز الأشياء- في قوله ﷺ: «الكبر: بَطَر الحقّ وغَمْطُ الناس»[3].

ومن مجموع المعنى اللغوي والشرعي يمكن تعريف التواضع بأنه: رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقه مِن الفضل والمكانة، وقبول الحق، واحترام الناس وإنزالهم ما يليق به من المنازل.

فالتّواضع له طرفان: طرف يتعلق بالله تعالىٰ؛ وهو التذلل لله عز وجل وذٰلك بانكسار القلب له ﷻ، وطرف يتعلق بالعباد؛ وهو خفض جناح الذّلّ والرّحمة للمؤمنين، فلا يرىٰ له علىٰ أحد فضلًا، ولا يرىٰ له عند أحد حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قِبَلَه.

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

التواضع والخشوع:

التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، أما الخشوع فهو باعتبار أفعال الجوارح، ولذٰلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح[4].

---

(١) آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٥٤).

(٢) ينظر: الذريعة الىٰ مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (ص: ٢١٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (٩١).

(٤) ينظر: فيض القدير للمناوي (٤/ ٢٧٧).

التواضع والضَّعَة:

التواضع: رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته، والضَّعَة: وضع الإنسان نفسه بمحلٍّ يُزْري به، فالتواضع منزلة وسطىٰ بين الكبر والضَّعَة؛ إذ الضَّعَة: وضع الإنسان نفسه مكانًا يُزري به بتضييع حقه، والكبر: رفع نفسه فوق قدره، وخير الأمور أوساطها.

التواضع والمهانة:

التواضع: يتولد من العلم بالله وصفاته وجلاله وإجلاله ومن معرفته بنفسه ونقصانها وعيوب عمله وآفاتها، فهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة للخلق، أما المهانة: فهي الدناءة والخسة، وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها[1].

التواضع والتذلل:

التذلل: إنما هو من العجز عن مقاومة مَن يتذلل له، بخلاف التواضع؛ فإن فيه إظهار قدرة مَن يتواضع له، سواء كان ذا قدرة على المتواضع أو لا[2].

فضل التواضع وثمراته

أولًا: فضائله وثمراته الدينية

١ . أنه عبادة مستمرة في أعلىٰ درجات العبادة:

التواضع لله تعالىٰ ولعباده المؤمنين عمل قلبي مستمر، وخلق دائم يوصل العبد بربه تعالىٰ، ويجعل صاحبه قريبًا منه سبحانه، وقريبًا محببًا إلى المؤمنين، وبذلك

(١) ينظر: الروح لابن القيم (٢/ ٦٥٧-٦٥٨).

(٢) ينظر: معجم الفروق اللغوية للعسكري (ص:١٢٢).

كان في أعلىٰ درجات العبادة، ومما يدل علىٰ هٰذا قول أم المؤمنين عائشة ﵂: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة؛ التواضع»[1]، وقال يوسف بن أسباط: «يجزئ قليل الورع من كثير العمل، ويجزئ قليل التواضع مِن كثير الاجتهاد»[2]، إذ في التواضع جهاد للنفس في تنازلها عن مكانتها، أو عن بعض حقوقها، وهٰذا أمر عسير على النفس، ولهٰذا تبوأ التواضع هٰذه المنزلة وكان من أفضل الأعمال وأعلاها.

٢. رفعة منزلة صاحبه:

التواضع يرفع المرء قدرًا في الدنيا ويزيده نُبلًا، ويرفع درجاته في مقامات الآخرة، وقد ذكر القاضي عياض في بيانه لحديث النبي ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[3] هٰذا المعنىٰ؛ فقال: «فيه وجهان؛ أحدهما: أن الله تعالىٰ يمنحه ذٰلك في الدنيا جزاءً علىٰ تواضعه له، وأن تواضعه يُثْبِت له في القلوب محبةً ومكانةً وعزة. والثاني: أن يكون ذٰلك ثوابه في الآخرة علىٰ تواضعه»[4]، وقال ابن مسعود ﵁: «مَن تواضع تَخشُّعًا رفعه الله تعالىٰ يوم القيامة، ومَن تَطاول تعَظُّمًا وضعه الله تعالىٰ يوم القيامة»[5].

وما يزال التواضع يرتفع بصاحبه حتىٰ يوصله إلىٰ مواضع الشرف، ففي الحديث: «الكرم التقوىٰ، والشرف التواضع»[6]، وقال عروة بن الورد: «التواضع أحد مصايد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع»[7]،

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢١٣).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١) برقم: (٢٥٨٨).

(٤) إكمال المعلم للقاضي عياض (٨/ ٥٩).

(٥) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ١٨٩).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين مرسلًا (ص: ٤١).

(٧) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٣).

وقال بعض الحكماء: «إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبّر»[1]، فهو يزيد صاحبه شرفًا علىٰ شرفه.

وبما أنه مرتبط بالشرف فإن فضيلته لا تكاد تظهر في عوام الناس؛ لانحطاط درجتهم، وإنما ذلك يتبين في الملوك وأجلَّاء الناس وعلمائهم، قال ابن السماك لهارون الرشيد: «يا أمير المؤمنين، إنّ تواضعك في شرفك أشرف لك مِن شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت، فقال يا أمير المؤمنين: إن امرأً آتاه الله جمالًا في خِلقته، وموضعًا في حسبه، وبسط له في ذات يده، فعف في جماله، وواسىٰ من ماله، وتواضع في حسبه، كُتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده»[2].

ثانيًا: فضائل التواضع الدنيوية

١ . فيه دلالة علىٰ رجحان عقل صاحبه وتوفيقه للحكمة:

لأن العقل يوجب علىٰ صاحبه لزوم التواضع ومجانبة التكبر؛ قال لقمان لابنه: «يا بنيّ، تواضع للحقّ تكن أعقل الناس»[3]، فلو لم يكن في التواضع إلا ازدياد رفعة صاحبه لكان الواجب على المرء أن لا يَتَزَيَّا بغيره، «فالعاقل إذا رأىٰ مَن هو أكبر سنًّا منه تواضع له وقال: سبقني إلى الإسلام، وإذا رأىٰ مَن هو أصغر سنًّا تواضع له وقال: سبقتُه بالذنوب، وإذا رأىٰ من هو مثله عَدَّه أخًا، فكيف يَحْسُن تكَبُّر المرء علىٰ أخيه!»[4]، وعن الفضيل بن عياض قال: «إن الله يحب العالم المتواضع، ويُبغض العالم الجبار، ومَن تواضع لله ورَّثه الله الحكمة»[5].

---

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر (ص: ٩٦).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٢).

(٣) ينظر: بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (ص: ٩٦).

(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٦١).

(٥) حسن التنبه لما ورد في التشبه للغزي (٢/ ٣١٩).

٢. إتمام النِّعَم على صاحب التواضع:

التواضع للمنعم ﷻ طريق من طرق شكر النعمة، وكان يقال: «بالتواضع تتمّ النعمة، وبالتكبر تحقّ النقمة»(١)، وقد ورد أنه أوحى الله تعالى إلى عيسى ﵇: «إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أُتْمِمها عليك»(٢)، وقال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد مِن نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقًا من النار، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه»(٣).

٣. التواضع أساس التعامل الاجتماعي وميزانه:

إن التواضع من أسباب التآلف بين أفراد المجتمع وإشاعة المحبة بينهم؛ قال أبو حاتم: «التواضع يُكسِب السلامة، ويُورِث الأُلْفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد، وثمرة التواضع المحبة»(٤)، وقال أيضًا: «ما استُجْلِبت البغضة بمثل التكبر، ولا اكتُسِبت المحبة بمثل التواضع، ومَن استطال على الإخوان فلا يَثِقَنّ منهم بالصفاء، ولا يجب لصاحب الكبر أن يطمع في حسن الثناء، ولا تكاد ترى تائهًا إلا وضيعًا»(٥)، إذ التواضع يمنع البغي والتجاوز على الآخرين، ويُوقف كل امرئٍ عند حدِّه، كما قال ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»(٦)، وبذلك يسير المجتمع في طريق العدالة، من غير بغي ولا تعدٍّ في الحقوق.

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (ص٩٦).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٢).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٤٢).
(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٦١).
(٥) المصدر السابق (ص:٦١).
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٨) برقم: (٢٨٦٥).

أنواع التواضع

قسم العلماء التواضع بناء على ما ورد في نصوص السنة وآثار السلف إلى نوعين: تواضع لله تعالى، وتواضع لعباد الله سبحانه.

أولًا: التواضع لله

التواضع لله عز وجل -وهو مقصود المنزلة ولُبُّها- على نوعين:

١ . تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا وعند نهيه اجتنابًا:

فالنّفس لطلب الرّاحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباءٍ وشرودٍ هربًا من العبوديّة، وتَثْبُت عند نهيه طلبًا للظَّفَر بما مُنع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبوديّة، فالعبد المتواضع لله تعالى عند فعله للطاعات يأتي بها غير مُعجَب بفعله لها، ولا راءٍ لها، بل يرى أن هذه الطاعات هي بمحض فضل الله تعالى عليه، وتوفيقه إلى ذلك.

وكذلك عندما يذكر ذنوبه يزدري نفسه ويستحقرها عند ذكره لِآثامه، حتى لا يرى أحدًا من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات وفوقه في الجنايات؛ كما ورد عن عبد الله بن بكر المزني قال: «قال أبي: يا بني، لو لم أحضر الموسم -أي: موسم الحج- لرجوت أن يُغفَر لهم»[١].

٢ . التواضع لعظمة الله والخضوع لكبريائه:

فالعبد كلّما شمخت نفسه ذكَر عظمة الرّبّ تعالى، وتفرّده بذلك، وغضبه الشّديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأنّ لهيبته، وأخبَتَ لِسلطانه[٢]، وهو ما أشار إليه ابن عطاء الله السكندري في

---

(١) ينظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٥٩).

(٢) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم لمجموعة من المؤلفين (٤/ ١٢٥٧).

قوله: «التواضع الحقيقي: ما كان عن شهود عظمته وتجلّي صفته»[1]، وذلك بأن يتجلىٰ في نفس العبد خطاب الله سبحانه لعباده في الحديث القدسي: «العِزّ إزارُه، والكبرياء رِداؤُه، فمن ينازعني عذبتُه»[2]، فيشتد خوفه من مَقت الله وغضبه، وما يزال خاشعًا منكسرًا لله تعالىٰ كخشوع النسر بجناحيه، لأنه مستحضر مقام ربه وجلال عظمته.

ثانيًا: التواضع للعباد

والتواضع لعباد الله قسمان أيضًا؛ أحدهما محمود، والآخر مذموم.

١. التواضع المحمود:

وهو ما كان فيه ترك التطاول علىٰ عباد الله أو الإزراء بهم، كما تقدم في الآيات التي وصف الله تعالىٰ بها المؤمنين، في قوله تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهٰذا مقتضى الإيمان؛ قال الغزالي: «والمحمود أن يتواضع في غير مَذَلَّة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله تعالىٰ أوساطها، فمن يتقدم علىٰ أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أي وضع شيئًا من قدره الذي يستحقه»[3]، وقال ابن المبارك: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتىٰ تُعْلِمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في نعمة الدنيا حتىٰ تُعْلِمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل»[4].

---

(١) شرح الحكم العطائية للبوطي (٥/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٥) برقم: (٢٦٢٠).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٦٨).

(٤) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ١١٩).

٢. التواضع المذموم:

وهو ما كان التواضع فيه لذي الدنيا رغبة في دنياه؛ روي عن ابن مسعود ﵁ أنه قال: «مَن خضع لِغَنيٍّ ووضع له نفسه إعظامًا وطمعًا فيما قبله ذهب ثُلُثَا مروءته وشطر دينه»[1].

درجات التواضع

١. التّواضع للدّين:

وذٰلك بالانقياد لما جاء به النبي ﷺ من الله تعالىٰ، والاستسلام والإذعان له، وإنما يتحقق بذٰلك؛ بأن لا يعارض ولا يقارن ما دل عليه العقل وذهب إليه بما ورد في النقل عن الشرع، بل لا يتّهم للدّين دليلًا، ولا يرىٰ إلى الخلاف سبيلًا، بل يتهم رأيه وعقله.

٢. التواضع للمسلمين:

فيرتضيهم إخوة له كما ارتضاهم الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهم إخوة له على اختلاف مراتبهم وأحوالهم، وأن يقبل من المعتذر منهم معاذيره، إذ هٰذا من حق الإخوة، وكذا لا يردّ علىٰ عدوّ حقًّا، فلا تحمله عداوته على الاعتراض على الحق وعدم قبوله، فيقبل الحقّ ممّن يحبّ وممّن يبغض؛ يقبله من العدوّ، كما يقبله من الصديق.

٣. الخضوع لأمر الله لأنه أمر لا بداعي العادة:

فيعبد الله بما أمر به علىٰ مقتضىٰ أمره لأجلِ أنه أمره، لا علىٰ ما يراه من رأيه،

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٦/ ٢٩٨).

ولا يكون الباعث له داعي العادة، كما هو باعثُ مَن لا بصيرةَ له غير أنّه اعتاد أمرًا فجرىٰ عليه، ولو اعتاد ضدَّه لكان كذٰلك؛ أي: لا يكون باعثُه على العبوديّة مجرّد رأيٍ وموافقة هوًى ومحبّةٍ ولا عادةٍ، بل الباعث مجرّد الأمر، والرّأي والمحبّة والهوىٰ والعوائد منفِّذةٌ تابعةٌ، لا أنّها مُطاعةٌ باعثةٌ[1].

علامات التحقق بالتواضع

العلامات العامة:

من مقتضيات التواضع ترك الترَؤُّس، وإظهار الخمول، وكراهية التعظيم، والزيادة في الإكرام، وتجنب المباهاة بما فيه من الفضائل، وترك المفاخرة بالجاه والمال، والتحرز من الإعجاب والكبر، وكذٰلك رؤية النفس بأنها أقل المؤمنين رتبة ومنزلة، كما ورد عن جماعة من السلف في اعتقاد أنفسهم الدُّون عن جميع الخلق، فيكون شعور المتواضع في خروجه من بيته أنه لا يلقىٰ مسلمًا إلا يراه خيرًا منه وأفضل، مُقِرًّا هٰذا بقلبه وموقنًا به[2].

وثمة علامات أخرىٰ تدل وتشير إلىٰ هٰذا الخلق، فمن ذٰلك:

١. الانصياع للحق وقبوله:

من أهم صفات وعلامات التواضع قبول الحق حيثما ظهر له، لا فرق ممن صدر منه هٰذا الحق، فإذا كانت صفة التكبر بطر الحق ورده، فمن صفة التواضع قبول الحق والانصياع له، وفي هٰذا الانصياع للحق فضيلة قول الحق، كما قال أبو الدّرداء: «ليس الذي يقول الحق ويفعله بأفضل من الذي يسمعه فيقبله»[3]،

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٨٢).

(٢) ينظر: آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٨٦).

(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (ص: ٩٦).

فهو يبادر لقبوله ولا يكابر، وينقاد ويستسلم له، ولو كان خلاف رأيه، ولا يجادل ولا يُماري إذا بان له الحق علىٰ لسان مناظره، بل يخضع له ويقبله، قال الفضيل -وقد سئل عن التواضع ما هو-: «أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته»(١).

٢. عدم التباهي باللباس والمأكل والمشرب:

من علامات التواضع: البساطة في اللباس والمظهر، فلا يظهر في حياته العامة في مظاهر الأُبَّهة والترف، أو مظهر التفاخر وأهل الكِبر، بل يترك من الثياب ما فيه شهرة، ويختار ما هو أقرب إلى التواضع مِن غير منقصة ولا ذلة؛ ففي الحديث: «البذاذة من الإيمان، البذاذة من الإيمان، البذاذة من الإيمان»(٢)، قال: عبد الله: سألت أبي قلت: ما البذاذة؟ قال: «التواضع في اللباس»(٣)، وفي ترك اللباس ذي الشهرة والأبهة مع القدرة عليه تواضعًا لله تعالىٰ فضل يدَّخره المرء لآخرته؛ فعن معاذ بن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك اللّباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة علىٰ رءوس الخلائق حتّىٰ يخيّره من أيّ حُلل الإيمان شاء يلبسها»(٤).

وهٰذا كان حال النبي ﷺ، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: «حج النَّبي ﷺ علىٰ رحْلٍ رَثٍّ وقطيفة خَلِقة تُساوي أربعة دراهم أو لا تساوي، ثمَّ قال: «اللهمَّ حجَّةً لا رياء فيها ولا سُمعة»(٥).

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٩) برقم: (١٨)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ١٢٥) برقم: (٤١٦١)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٣٥) برقم: (٤١١٨) وأحمد في مسنده (١١/ ٥٧٣١) برقم: (٢٤٤١٢).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٠).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٦١) برقم: (٢٤٨١)، وقال: حسن؛ والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨١) برقم: (٣٨٧).

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤/ ١٣٨) برقم: (٢٨٩٠)؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٥/ ٧٩) برقم: (١٧٠٥)؛ والبزار في مسنده (١٣/ ٥٠٨) برقم: (٧٣٤٣)؛ والترمذي في الشمائل (١/ ١٨٧) برقم: (٣٣٤).

ومن التواضع في الأكل: عدم الاتكاء حال الأكل؛ وهٰذا ما كان عليه حال النبي ﷺ، حيث قال: «لا آكل متكئًا»(١).

٣. عدم حب الظهور:

من دلائل التواضع: عدم حب الظهور والشهرة، فلا يحب المتواضع أن يعرفه الناس، ولا أن يُشار إليه بالبنان؛ لأن في معرفة الناس عزًّا، وقد قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «لا يبلغ عبد ذُرى الإيمان حتىٰ يكون التواضع أحب إليه من الشَّرَف، وما قَلّ مِن الدنيا أحب إليه مما كَثُر، ويكون مَن أحب وأبغض في الحق سواء، يحكم للناس كما يحكم لنفسه وأهل بيته»(٢).

وكذٰلك لا يحب التصدُّر في المجالس، ولا يتطلع إلىٰ إسناد الحديث إليه إذا تكلم الناس، ولا يرضىٰ بمدح الناس له، قال يحيى بن أبي كثير: «رأس التواضع ثلاث: أن ترضىٰ بالدون مِن شرف المجلس، وأن تبدأ مَن لقيته بالسلام، وأن تكره مِن المدحة والسمعة والرياء بالبر»(٣)، وكذٰلك لا يحب أن يمشي الناس خلفه، ويكره أن يعظموه؛ فعن ثابت قال: «ما رئي رسول الله ﷺ يطأ عقبيه رجلان، ولا يأكل متكئًا»(٤).

٤. القصد في المشي:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالىٰ في وصية لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان: ١٨-١٩]، فالمشي بالسكينة والوقار دلالة على التواضع، كما أن التبختر في المشي دليل على التكبر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٧٢) برقم: (٥٣٩٨).

(٢) الزهد لابن المبارك (ص:٥٢).

(٣) العقل والهوىٰ للحكيم الترمذي (ص:٤).

(٤) الزهد للمعافى بن عمران الموصلي (ص: ٢٣٩).

٥. القيام بأموره وما يحتاجه بنفسه:

من هدي رسول الله ﷺ والسلف الصالح: القيام بحوائجهم بأنفسهم من غير أن يأمروا بها غيرهم، أو يعتمدوا على الآخرين بالقيام بها؛ فعن الأسود بن يزيد قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها: «ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله -تعني: خدمة أهله-، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[(١)]. وعن عروة قال: قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، أي شيءٍ كان يصنع رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: ما يفعل أحدكم في مهنة أهله؛ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، ويَخيط ثوبَه، ويُرَقِّعُ دَلْوَه»[(٢)].

وذُكر عن عمر بن عبد العزيز: «أنه أتاه ذات ليلة ضيف، فلما صلى العشاء -وكان يكتب شيئًا والضيف عنده- كاد السراج أن ينطفئ، فقال الضيف: يا أمير المؤمنين، أقوم إلى المصباح فَأُصْلِحه؟ قال: ليس مِن مروءة الرجل أن يَستعمل ضيفه، قال: أفأُنَبِّه الغلام؟ قال: لا، هي أول نومة نامها، فقام عمر وأخذ البطة فملأ المصباح، فقال الضيف: قمتَ بنفسك يا أمير المؤمنين! قال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، وخير الناس عند الله مَن كان متواضعًا»[(٣)].

٦. المبادرة في أداء الحقوق الاجتماعية:

ومن علامة تواضع المتواضع: أنه يخالط الناس ويزورهم ويشاركهم في حياتهم الاجتماعية، كما كان الحال من رسول الله ﷺ؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٦) برقم: (٦٧٦).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٤٩٠) برقم: (٥٦٧٦)؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٥٩٧٩) برقم: (٢٥٣٨٨).

(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ١٨٧).

وكان يوم بني قريظة علىٰ حمار مخطوم بحبلٍ مِن لِيف، عليه إكافُ لِيف»[1]، وعنه ﷺ قال: «لو دُعيت إلىٰ كُراعٍ لَأَجَبت، ولو أُهديَ إليَّ كُراعٌ لَقبِلت»[2].

الآفات التي تؤثر على التواضع

١. أن يُثبت العبد لنفسه التواضع:

من أشد ما يؤثر على المتخلق بخلق التواضع أن يرى الإنسان في نفسه أنه متواضع، قال ابن عطاء الله السكندري: «مَن أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقًّا؛ إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمتىٰ أثبتَّ لنفسك تواضعًا فأنت المتكبر»[3]، فمَن ظن أن مقامه أعلىٰ من المقام الذي هو فيه، وإنما هو يتنازل عن مكانته ومقامه وما يستحقه من الفضل والمنزلة، فهٰذا في حقيقته تكبرٌ بلباس التواضع، وربما يخفىٰ في كثير من الأحيان، ويكون دقيقًا.

والمخرج من هٰذا: محاسبة النفس، واتخاذ مرشد يدله على الطريق السليم، لتتربىٰ نفسه على الخلق السليم.

٢. تكذيب الواقع لما هو مضمَر في النفوس:

من الآفات ما تضمره النفس من التواضع، وتدَّعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلىٰ طبعها.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢/ ٣٢٧) برقم: (١٠١٧)، وقال: هٰذا حديث لا نعرفه إلا من حديث مسلم عن أنس، ومسلم الأعور يُضَعَّف؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ٤٦٦) برقم: (٣٧٥٥)، وقال: صحيح الإسناد؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٧٥) برقم: (٤١٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢٥) برقم: (٥١٧٨).

(٣) الحكم العطائية بشرح النفزي (ص: ٣٠٠).

وعلاج ذٰلك:

أن تكَمَّل بالعمل، وتُجَرَّب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس، وبيان هٰذا العلاج: أن يمتحن المتواضع نفسه بالامتحانات الدالة علىٰ استخراج ما في الباطن، والامتحانات كثيرة؛ فمنها: أن يناظر في مسألةٍ مع واحدٍ من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق علىٰ لسان صاحبه فثَقُل عليه قبوله والانقياد له والشكر له علىٰ تنبيهه؛ فذٰلك يدل علىٰ أن فيه كبرًا دفينًا، فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه، وأن يُذَكِّر نفسه خِسَّة نفسه، وخطر عاقبته، وأنّ الكبر لا يليق إلا بالله تعالىٰ، وبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر علىٰ نفسه بالعجز، ويشكره على الاستفادة[1].

٣. الرغبة في جلب الأنظار إلىٰ تواضعه:

ومن الآفات رؤية النفس في التواضع، وإرادة جلب أنظار الخلق إليه بالتخلق بهٰذا الخلق، وطلب المنفعة المادية من وراء ذٰلك.

وعلاج ذٰلك: في مراقبة الله تعالىٰ والحذر من المراءاة التي توجب سخط الله تعالىٰ، والحذر من طلب الدنيا مما يراد لوجه الله تعالىٰ.

نماذج من تواضع الصالحين

١. تواضع النبي ﷺ:

من نماذج تواضع النبي ﷺ:

أ. عن أبي هريرة، قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا مَلَكٌ ينزل، فقال له جبريل: هٰذا الملك ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة، فلما نزل قال:

(١) موعظة المؤمنين للقاسمي (ص: ٢٥١).

يا محمد، أرسلني إليك ربك؛ أَفَمَلَكًا نبيًّا يجعلك أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبدًا رسولًا»(١).

ب. تواضعه ﷺ عند فتح مكة، فلم يُغرّه النصر، ولم يصبه ذلك الفتح المبين بكبر، بل طأطأ رأسه تواضعًا لربه عز وجل؛ عن عبد الله بن أبي بكر قال: «وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عُثنونه(٢) ليكاد يمس واسطة الرحل»(٣).

٢. تواضع أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

بعد أن بويع رضي الله عنه بالخلافة أقام بالسَّنْح ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب فرسًا له، فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسَّنْح، وكان يقيم يوم الجمعة صدر نهاره بالسَّنْح، فيصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح فيجتمع بالناس، وكان رجلًا تاجرًا، يغدو في كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة من غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما رُعيت له، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما اسْتُخلف، قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فقال: بلى، وإني لأرجو أن لا يُغيِّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٢٨٠) برقم: (٦٣٦٥)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٥١٢) برقم: (٧٢٨١).

(٢) **العثنون**: ما نبت على الذقن وتحته، وقيل: هو كل ما فضل من اللحية بعد العارضين. ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٢٧٦).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٥).

(٤) ينظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٧٢).

٣. تواضع عمر بن الخطاب ﷺ:

روي أن عمر ﷺ لما ذهب لاستلام مفاتيح بيت المقدس «جعل بينه وبين غلامه مناوبةً، فكان يركب الناقة ويأخذ الغلام بزمام الناقة ويسير مقدار فرسخ، ثم ينزل نوبة ركوب الغلام، فركب الغلام وأخذ عمر بزمام الناقة، فاستقبله الماء في الطريق، فجعل عمر يخوض في الماء ونعله تحت إبطه اليسرىٰ، وهو آخذٌ بزمام الناقة، فخرج أبو عبيدة بن الجراح -وكان أميرًا على الشام- وقال: يا أمير المؤمنين، إن عظماء الشام يخرجون إليك، فلا يَحْسُن أن يروك علىٰ هٰذه الحالة، فقال عمر ﷺ: إنما أعزنا الله تعالىٰ بالإسلام، فلا نبالي مِن مقالة الناس»[1].

٤. تواضع سلمان الفارسي ﷺ:

ورد: «أنه كان أميرًا بالمدينة، فاشترىٰ رجلٌ مِن عظمائها شيئًا، فمرّ به سلمان، فحسبه عِلجًا[2]، فقال: تعال فاحمل هٰذا، فحمله سلمان، فجعل يتلقاه الناس ويقولون: أصلح الله الأمير، نحن نحمل عنك، فأبىٰ أن يدفع إليهم، فقال الرجل في نفسه: ويحك إني لم أُسَخِّر إلا الأمير! فجعل يعتذر إليه ويقول: لم أعرفك أصلحك الله، فقال: انطلق، فذهب به إلىٰ منزله، ثم قال: لا أُسَخِّر أحدًا أبدًا»[3].

٥. تواضع محمد بن مقاتل:

قال موسى بن القاسم: «كانت عندنا زلزلة وريح حمراء، فذهبت إلىٰ محمد بن مقاتل، فقلت: يا أبا عبد الله، أنت إمامنا، فادع الله عز وجل لنا، فبكىٰ، ثم قال:

(١) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين للسمرقندي (ص: ١٩٩).

(٢) **العلج**: الرجل من كفار العجم. ينظر: الصحاح للجوهري (١/ ٣٣٠).

(٣) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين للسمرقندي (ص: ١٨٨).

ليتني لم أكن سبب هلاككم. قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل»[1].

٦. تواضع أحمد بن حنبل:

قال يحيى بن معين: «ما رأيت مثل أحمد بن حنبل! صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير»[2].

وعن المروزي قال: «لم أر الفقير في مجلسٍ أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلًا إليهم، مُقصِرًا عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع، تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتىٰ يُسأل، وإذا خرج إلى المسجد لم يتصدَّر، يقعد حيث انتهىٰ به المجلس»[3].

المقترحات العملية والتدريبات

١. نسبة ما أوتي من الفضل لواهبه ﷻ، وأنّ ما يملكه من قدرات ومواهب وكل ما يمكن أن يرى الإنسان فيها نفسه كله بمحض فضل الله تعالىٰ، وأنه قادر علىٰ أن يسلب كل ذٰلك منه.

٢. التفكر في أصل خلق الإنسان، وفيما يصير إليه وما بين ذٰلك، فأصله ما ذكره الله تعالىٰ أنه خُلق من ماء مهين، وأنه سيصير إلى المهل وإلى التراب، وأنه ما بين المرحلتين يحمل العَذِرة، كما حكي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير:

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ١٨١).

(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ٢٩٨).

«نظر إلى المهلب بن أبي صُفرة وعليه حُلَّة يسحبها ويمشي الخيلاء، فقال: يا أبا عبد الله، ما هٰذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أوَّلُك نُطفةٌ مَذِرة، وآخرك جيفة قَذِرة، وحَشْوُك فيما بين ذٰلك بولٌ وعذِرة»[1].

٣. مصاحبة الكبار من عباد الله والصالحين، والتخلق بما يرىٰ منهم من هٰذا الخلق؛ فإن للصحبة أثرًا ظاهرًا على الأخلاق، وكذا يسترشدهم فيما يخفىٰ عليه من أحوال نفسه، حتىٰ يصير هٰذا الخلق سجية وطبعًا له.

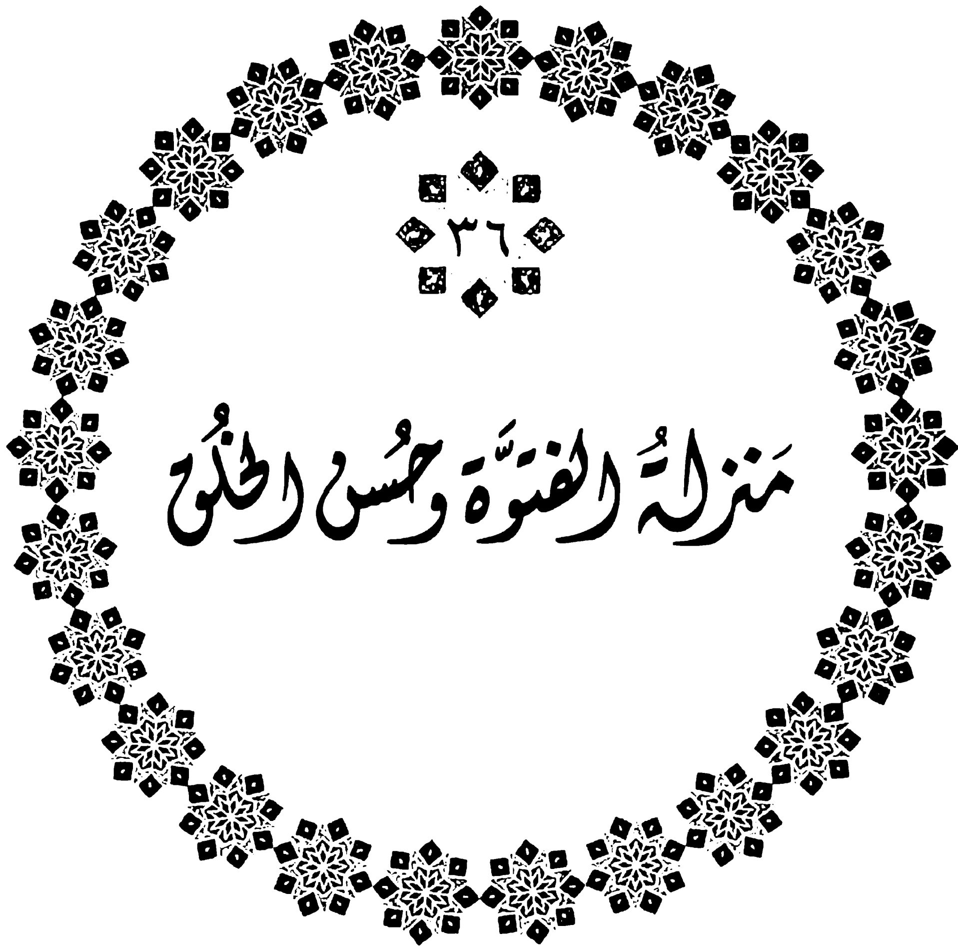
٤. مطالعة سير العظماء من المتواضعين، كسيرة النبي ﷺ والصحابة والمصلحين من هٰذه الأمة.

٥. قراءة الحكم الخاصة بالتواضع من كتاب (الحكم العطائية) لابن عطاء الله السكندري.

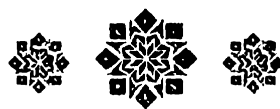


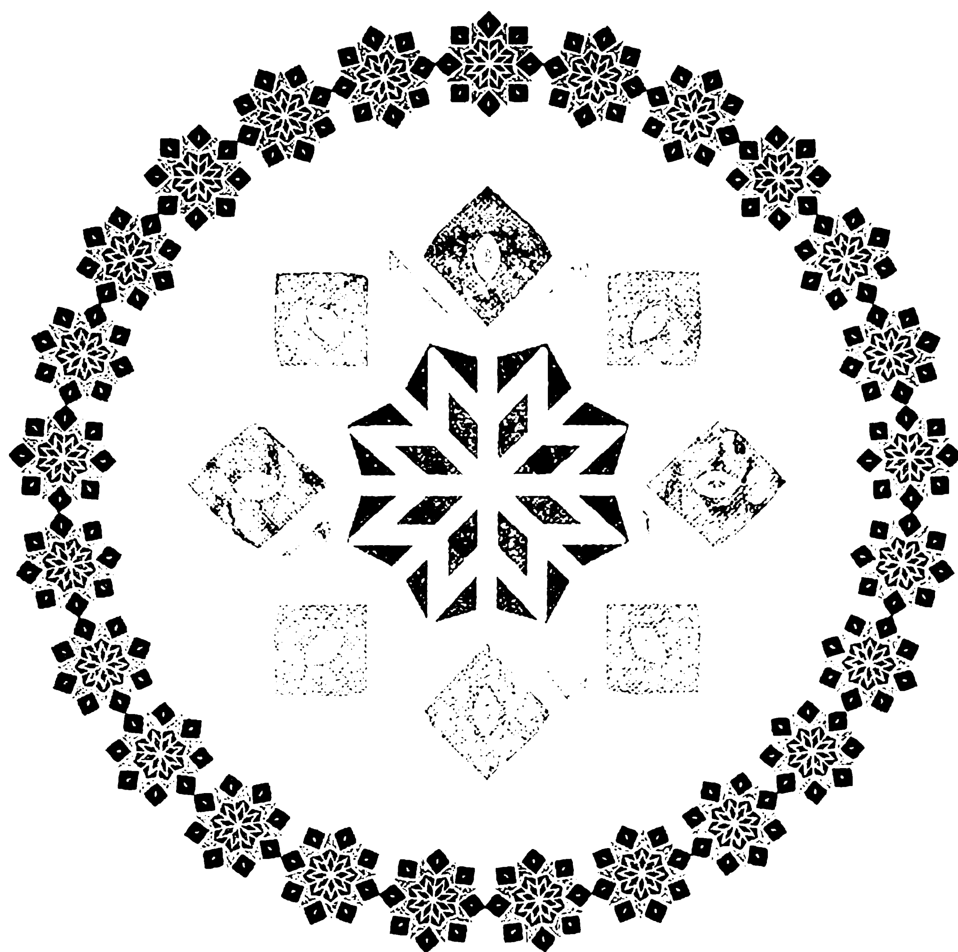
(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٣٧).




٣٦
منزلة الفتوة وحسن الخلق











منزلة الفتوة وحسن الخلق

بين يدي الفتوة

لقد اتصف فتيان العرب في الجاهلية بكثير من خلال الخير ومكارم الأخلاق، وكانوا قدوة لقومهم وزعماء لهم، وهٰذه المكارم تجمعها صفة الفتوة، فكان أهل الجاهلية يتنافسون في التحلِّي بها في مظاهرها المتنوعة، كالوفاء والسخاء وصلة الأرحام وحسن الجوار والشجاعة والعدالة وعزة النفس، قال ﷺ: «إنما بُعِثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[1]. وهٰذا يُثبِت أن عرب الجاهلية كان فيهم من يتحلَّىٰ بمكارم الأخلاق، وأنه ﷺ جاء ليتمِّم تلك الأخلاق ويهذِّبها، فعندما جاء الإسلام هذَّب معاني الفتوة الجاهلية، وأسبغ عليها من هديه ورونقه، ثم تطوَّرت الفتوة وتطور مفهومها في العصور المتأخرة.

والإسلام يحب الفتوة بمختلف معانيها المقبولة والمصقولة، فهو يحب الفتوة في البدن؛ لأنه دين القوة حِسًّا ومعنًى، ويحبها في الخُلُق؛ لأنه دين مكارم الأخلاق، ويحبها في معاونة الناس؛ لأن خير الناس عنده أنفعهم للناس، بل يجب أن تكون المعونة من ذوي الفتوة[2].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٨٧٩) برقم: (٩٠٧٤)؛ والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٣) برقم: (٤٢٤٤)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ١٩١) برقم: (٢٠٨٣٩)؛ والبزار في مسنده (١٥/ ٣٦٤) برقم: (٨٩٤٩). والحديث صحيح. ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٤/ ٣٣٣).

(٢) ينظر: الفتوة عند العرب لعمر الدسوقي (ص: ١٣٣)؛ الفتوة نشأتها وتطورها لأحمد الخطيمي (ص: ٤٢-٤٣).

ومن أرقىٰ أنواع الفتوة: فتوة العبد في معاملته مع ربه عز وجل، ويُعبَّر عنها كذٰلك بالمروءة، فمن لا مروءة له لا دينَ له، ويكون أقرب إلى السفه والفسق.

والفتوة من الخصال الضرورية للنفس المطمئنة التي لن تكون مطمئنة إلا بها؛ ذٰلك أنها تستمد قيمها من معرفتها بربها، ويقبح بمَن عرف ربَّه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا ألا يكون ذا مروءةٍ وفتوةٍ[1].

وسنحاول في هٰذه المنزلة أن نبين صفات الفتوة والإرشاد إلى الشروط والخصال التي لا بد أن تتوفر في أهلها، حتىٰ يميِّز المسلم بين الصفات الحقيقية للفتوة والصفات المصطنعة التي هي إلى التهور والصعلكة أقرب، ويكون تركيزنا على الفتوة في العلاقة مع الله تعالىٰ؛ كما ربَّى النبيُّ ﷺ عليه أصحابَه، بعيدًا عن أخلاق الجاهلية وأفعال العصبية.

حقيقة الفتوة

المعنى اللغوي:

الفُتُوَّة لغة: صفة الفتىٰ، اشتقَّتْ منه؛ كالرجولة من الرجل، والأُبُوَّة من الأب. والفتىٰ هو الشاب الحدَث، واستعيرت الفتوة منذ أيام الجاهلية للشجاعة والقوة ومَن فيه عزم ومضاء، وهٰذه صفات الشباب، لٰكن تطور مفهوم الفتوة إلىٰ معان أخرىٰ غير القوة الجسمية، فاستعملت بمعنى الكرم والسخاء والحرية والسعي في أمور الناس وقضاء حاجاتهم ونحوها. فصاحب الفتوة يقال له: الفتىٰ، ومنه: «لا فتىٰ إلا عليٌّ». يقال: هو فتًى بيِّن الفتوة، وقد تفتَّىٰ وتفاتَىٰ، وفتَوْتُهم، أي: غلبتُهم في الفتوة[2].

(١) المروءة والفتوة لنور الدين أبو لحية، مقالة علىٰ موقعه ضمن سلسلة (منازل النفس المطمئنة).

(٢) ينظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي (١٣٢٠)؛ تاج العروس للزبيدي (٣٩/ ٢١٣)؛ الفتوة عند

المعنى الشرعي:

الفتوة بالمعنى العام: الإحسان إلى الناس وكفُّ الأذىٰ عنهم واحتمالُ أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم ونتيجتُه[1]. وهي بالمعنى الخاص: التزام المرء بخصال المروءة والمحافظة على الورع في الدين، وأن يكون قويًّا حازمًا في أمور تتعلق بالآخرة؛ كمخالفة الهوىٰ، وهضم النفس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخدمة الدين.

سئل الإمام أحمد ﷺ: «ما الفتوة؟ فقال: تركُ ما تهوىٰ لِما تخشىٰ»[2].

وقال سهل بن عبد الله التستري: «الفتوة: اتباع السنة»[3].

قال الله تعالىٰ عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وهؤلاء الفتيان استحقوا الثناء من الله عز وجل لأنهم تخلقُوا بصفات الفتوة في أمر دينهم، فآمنوا بربهم في حين كان قومهم يعبدون الأصنام، ثم قاموا جميعًا وأعلنوا براءتهم من عبادة الأصنام: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

ولم يُذكر مصطلح الفتوة في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعملَه مَن بعدهم في مكارم الأخلاق، وأصلها عندهم: أن يكون العبدُ أبدًا في أمرِ غيرِه، سواء كان الأمر متعلقًا بالخالق عز وجل أو بالخلق[4].

العرب لعمر الدسوقي (ص: ١١)؛ الفتوة نشأتها وتطورها لأحمد الخطيمي (ص: ٥).

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٨٧).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٨١).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٨١).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٨٦-٨٧).

وأشار الإمام عبد الرحمٰن السلمي ﷺ إلىٰ أن الفتوة أنواع كثيرة، يستعملها العبد في كل وقت حسب ما يقتضي المقام والحال؛ فقال: «الفتوة هي: الموافقة وحسن الطاعة، وترك كل مذموم، وملازمة مكارم الأخلاق ومحاسنها، ظاهرًا وباطنًا وسرًّا وعلنًا، وكلُّ حال من الأحوال ووقتٌ من الأوقات يطالبك بنوع من الفتوة، فلا يخلو حال من الأحوال عن الفتوة»(١).

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

المروءة:

وهي استعمال ما يَجْمُل مما هو مختصٌّ بالعبد أو متعدٍّ إلىٰ غيره، وتركُ ما يُدنِّس ويَشِين مما هو مختص بنفسه هو أو متعلق بغيره. والفرق بين الفتوة والمروءة: أن المروءة أعم، والفتوة نوع من أنواع المروءة، فهي ثلاث درجات؛ لأن الإنسان أولًا يتخلَّق بأساسيات حسن الخلق، ثم يرتقي إلىٰ منزلة الفتوة، ثم يرتقي إلىٰ منزلة المروءة. وقيل: المروءة تقتصر على الرجل في نفسه وذويه، والفتوة تتعداه إلىٰ غيره(٢). والمروءة أيضًا مثل الفتوة علىٰ نوعين: مروءة متعلقة بالتعامل مع الله تعالىٰ، ومروءة متعلقة بالتعامل مع الناس.

فضل الفتوة وثمراتها

وردت آيات وأحاديث وآثار كثيرة تحثُّ علىٰ معاني الفتوة، منها:

١ . قوله تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ

---

(١) الفتوة للسلمي (ص: ٥).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٨٦)؛ الفتوة نشأتها وتطورها لأحمد الخطيمي (ص: ١٧).

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

٢. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٢].

٣. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٦-٤٠]. وهذه الآيات تشتمل على صفات الفتوة وتحثُّ عليها.

٤. قال ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرِصْ على ما ينفعك، واستعِنْ بالله ولا تعجزْ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1]. وفيه حثٌّ للمؤمن على التخلُّق بأخلاق الفتوة وأن أهلها أحبَّاء الله تعالى وخيرته.

ثمرات الفتوة:

١. الاستغناء عن الخلق والتعفف عن سؤالهم.

٢. التحصُّن عن الآفات بِتركِ الشهوات.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

٣. الثقة بالله تعالىٰ والتوكُّل عليه.

٤. اهتمام العبد بوقته.

٥. بذل المال حسب القدرة علىٰ ذٰلك.

٦. القناعة والرضا بالقليل لئلا يكون مستعبَدًا.

٧. التواضع وقبول الحق.

٨. الصبر علىٰ معاشرة الخلق.

٩. مجانبة الحسد وترك تعيير الناس علىٰ عيوبهم[1].

شروط الفتوة[2]

١. البلوغ:

وهو كمال البنية واستنارة العقل وكمال التصرف.

٢. العقل:

وهو طريق إلىٰ إدراك المعلومات، وآلة لإتقان المصنوعات، والاهتداء إلىٰ الخير وتمييزه عن الشر والكف عنه.

٣. الدين:

فالدين أصلٌ والفتوة التي نعنيها هنا فرع منه، ولا فتوة لمن لا دين له، والفتوة خصلة من خصال الدين؛ لأنها تدل على الورع والمروءة وحسن الخلق،

(١) ينظر: الفتوة للسلمي (ص: ٤٧-٥٨).

(٢) ينظر: الفتوة لابن المعمار البغدادي (ص: ١٦٣-١٦٨)؛ الفتوة نشأتها وتطورها لأحمد الخطيمي (ص: ٢٥).

والشريعة جاءت لتهذيبها وتتميمها؛ لذلك لم نأخذ ببعض تلك المواصفات التي كان العرب يتفاخرون بها في الجاهلية ويجعلونها أمارات على الفتوة.

٤. استقامة الحال:

وذلك أن يكون الفتى على صفة مَرْضِيّة، ولا يخالف معاني الفتوة ولا يخرج عنها بالفسق والسفه ونحوه.

٥. الشجاعة:

مدار الفتوة على الشجاعة، فإذا تمت الشجاعة تمت الفتوة، والشجاعة لا تتم إلا باليقين الموجِب للأمن، فإن الشكَّ يلزمه الخوف، والناس يحبون الشجاع وإن كانوا لا يرجون نفعَه، ويكرهون الجبان وإن كانوا يرجون خيرَه، فالشجاع لا يُشكُّ في فضالته والجبان لا يُشك في رذالته، وليس أحد يولد شجاعًا، وإنما يكتسب الإنسان صفات الشجعان بما يقوم به من ممارسات وأعمال تنمِّي فيه صفات الشجاعة والقوة، فمن وجد في نفسه الخوف والجبن أو الضعف والعجز فليطوِّر نفسَه بمقوِّمات الشخصية وطرق تقويتها؛ قال الله تعالى في خبر أصحاب الكهف، وهم أرباب الفتوة: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤]. قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قوّيناها وصبَّرناها على هجر النعيم والأوطان والفرار بدينهم، وشجَّعناهم على القيام بكلمة التوحيد والتظاهر بالإسلام. وقوله: ﴿إِذْ قَامُوا﴾، أي: بين يدي الجبار دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام[١].

(١) ينظر: رسالة (تحفة الإخوان في خصائص الفتيان) ضمن مجموعة رسائل (آداب الطريقة وأسرار الحقيقة) لعبد الرزاق القاشاني (ص: ١٤).

٦. الحياء والمروءة:

ونعني بهما: حصر النفس خوف ارتكاب القبائح، فإنه يدل على نجابة جوهر النفس وسلامة الفطرة في الأصل، وقوةِ التميُّز بين الحُسن والقُبح، والاستنكافِ من القبيح والانبعاثِ إلى الحَسَن؛ قال القاشاني عند ذكر مبادئ الفتوة: «وعنوان شأنها: الحياء، وهو مبدأ فضيلة العفَّة التي هي أساس المرُوَّة ومبانيها وأصولها التي تبتني عليها»(١). وتقدم تعريف المروءة وأنها تلي درجة الفتوة، وبعضهم جعلها قبل الفتوة، والكل محتمل، لأن الخلاف فيه مبني على اختلافهم في تعريف كلٍّ منهما.

مراتب الفتوة

الفتوة من حيث هي صفة قائمة في الإنسان على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى وهي أشرفها:

من يفنى ويغيب في رؤية نقصه وعيبه عن رؤية فضله، ويغيب برؤية حقوق الخلق عليه عن رؤية حقوقه عليهم، فيفكِّر في الأوَّلَيْن دائمًا وينسى الثانيَيْن.

المرتبة الثانية وهي أوسطُها:

من يرى ما فيه من العيوب والكمالات، ويرى حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

المرتبة الثالثة وهي أخسُّها:

من يفنى في رؤية فضائله ولا يرى عيوبه، ويركِّز على حقوقه على الناس وينسى حقوقَهم عليه، وهذا المرض القلبي يسمَّى عند علماء التربية

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة للقاشاني (ص: ١٨).

وعلم النفس بالنَّرْجِسِيَّة[1].

والفتوة من حيث كونها أخلاقًا حسنةً وخصالًا علىٰ ثلاث درجات أيضًا[2]:

١. تركُ الخصومة والتغافلُ عن الزَّلَّة ونسيانُ الأذيَّة:

فلا يخاصمَ أحدًا، وذٰلك في حقِّ نفسه، وأما في حقِّ ربه عز وجل فالفتوة أن يخاصِم بالله وفي الله، ويحاكِم إلى الله وشرعِه؛ وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «وبك خاصمتُ وإليك حاكمتُ»[3]. قال أبو بكر الوراق رضي الله عنه: «الفتىٰ: مَن لا خصمَ له»[4].

والتغافل عن الزلة يعني: أنه إذا رأىٰ من أحد شيئًا -لا يجب الإنكار عليه شرعًا- تظاهَرَ أنه لم يره ولم ينتبه له، حتىٰ لا يُعَرِّض صاحبَ الزلة للحرج والمشقة والأذى النفسي.

ونسيان الأذية يعني: أن ينسى الإنسانُ أذية مَن ناله بالأذىٰ؛ حتىٰ لا يستوحش منه عند رؤيته، ولا يدخل الحقد والكره تجاهه إلىٰ قلبه، وأكملُ من هٰذا النسيانِ: نسيانُ الرجل إحسانَه إلى الناس حتىٰ كأنه لم يصدر منه.

٢. تقريب مَن أبعده وإكرام مَن آذاه وإعذار مَن جنىٰ عليه؛ تسامحًا ومودةً لا صبرًا وكظمًا:

هٰذه الدرجة أصعب مما قبلها؛ لأنها تتضمن الإحسانَ إلىٰ مَن أساء إليه

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٩٢).

(٢) ينظر: المصدر السابق (٣/ ٩٣-١٠١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٤٨) برقم: (١١٢٠)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٤) برقم: (٧٦٩).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٨٠).

ومعاملتَه بضدِّ ما عاملَه به، وإعذار مَن جنىٰ عليه، يعني: أن يجد له عذرًا فيما صدر منه مِن جهل وأذًى، ويعلم أنه إنما سُلِّط عليه بسبب ذنبٍ؛ قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

ومن شرط هٰذه الدرجة: أن تكون تلك المعاملة عن سماح وطيب نفس وانشراح صدر، لا عن كظمٍ وضيقٍ ومصابرةٍ، فإن ذٰلك دليل علىٰ أنه تكلُّفٌ وليس مِن الخُلُق، وإن كان لا يمكن الوصول إلىٰ هٰذه الدرجة إلا بعد المصابرة والكظم، فإذا تمكَّن فيه أفضىٰ إلىٰ هٰذه المنزلة.

٣. أن تكون إجابته لداعي الحق واستجابته لأمر الله إجابة محبة ورغبة:

فلا يتعلق الإنسان في السير إلى الله بدليل يدل عليه، وإنما يسير علىٰ قدم اليقين وطريق البصيرة والمشاهدة، ويُعَلّق قلبه بالله تعالىٰ، فوقوفه مع دليل وحاجته إليه ليستدل به علىٰ وجود الله يدل علىٰ أنه لم يشمَّ رائحةَ اليقين؛ لأن المعرفة بالله ضرورية لا استدلالية؛ قال النصر آباذي ﷺ: «سمي أصحابُ الكهف فتيةً؛ لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة»[١].

طرق اكتساب الفتوة

١. صحة الداعية وقوة الإرادة والاجتهاد في طلب الفتوة واكتساب خصالها.

٢. أن يتعوَّد بمقوِّماتها في عنفوان شبابه وحداثة سنه؛ كأنواع البر والسماحة وحسن الخلق والظرافة ومعاونة المعارف وصلة الأقارب والأجانب، وإلا تعسَّر عليه عند الطعن في السنِّ.

٣. أن يطلب لنفسه موصوفًا بالفتوة مقدَّمًا فيها، متصفًا بالفضائل المذكورة

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٨١).

ومتدربًا بها، فليتصل به ويتعلم منه ويتبع وصاياه، وليقتدِ بأفعاله وأخلاقه وآدابه حتىٰ يصل إلىٰ رتبة الفتوة الحقيقية.

٤. أن يتخذ لنفسه أحبابًا وأصدقاء ويصطحب إخوانًا ورفقاء، همُّهم الفضيلة وشأنهم الفتوة وخلقهم المروءة، حتىٰ يتدرب بصحبتهم وينشأ علىٰ شاكلتهم.

٥. والعمدة في اكتساب الفتوة: اجتناب الرذائل، فإن الترك أسهل وأخفُّ علىٰ النفس، وإذا زالتْ وتزكَّت النفس صفتِ الفطرة وحصلت الفضائل بلا لَبسٍ ولا مؤونة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٤]، وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧][1].

علامات التحقق بالفتوة

١. صدق الوعد والوفاء بالعهد؛ قال الله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. قال معروف الكرخي ﷺ: «للفتيان علامات ثلاث: وفاء بلا خلاف، ومدح بلا جود، وعطاء بلا سؤال»[2].

٢. المبالغة في حفظ الأسرار وصونها عن الأغيار، حتىٰ لو هُدِّد أحدُهم بالسيف وأُوعِد بأنواع الضيم وعُذِّب بالنيران لما وُجد منه غيرُ الكتمان.

٣. التكرُّم، وهو: حماية الحرمة ورعاية الحشمة في مواقع التهمة ومواضع الذلة والريبة، والإعراض عن مجاراة اللئام والسفهاء، صيانةً للعرض وإبقاءً للمكانة.

---

(١) ينظر: رسالة في الفتوة للقاشاني (ص: ٤٣-٤٤).

(٢) ينظر: الفتوة لأحمد الخطيمي (ص: ١٨).

٤. سعة الصدر لتجرد نفوسهم عن العلائق الدنيوية وعلوِّ هممهم عن المناهج الفانية، فلا تَغُرُّهم الأمانيُّ، ولا تستخفُّهم الحظوظ والمقادير، ولا يحزنون بفواتٍ، ولا يفرحون بما هو آتٍ.

٥. لا يحتفلون بخيانة ولا يبالون بملامة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ﴾ [المائدة: ٥٤].

٦. الرفق والمداراة ولين الجانب مع مساكين المؤمنين وضعفائهم، والغلظة والعزَّة والتشدُّد مع مردة الكفار والعصاة وأقويائهم؛ قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

٧. الغيرة، وهي: الاستنكاف عما يوجب العار ويقدِّم الأغيار، ومنشؤها من شعور النفس بشرفها وصفاء جوهرها وكرامتها لتجرُّدها عن دنس الطبائع وقذر المواد.

٨. التجمُّل، وهو: إظهار الغنىٰ والرخاء، وإسرار الشدة والبلاء، وذٰلك نتيجة عزَّة النفس وثمرة مقام الشكر، وعلامة الوثوق والاستغناء بالله تعالىٰ.

٩. الضيافة والقِرىٰ، فيتحمل المشقة في إراحة الأصحاب، ويُهِين نفسَه في إكرام الأضياف، ويُؤْثِرهم بقوته عند فاقته، ولا يُطلِعهم علىٰ فقده وحاجته[١].

١٠. أن لا يرىٰ لنفسه فضلًا علىٰ أحد، وحفظ السرِّ مع الله تعالىٰ بالعمل علىٰ موافقة شرعه، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة، واتباع مكارم الأخلاق واجتناب المحرمات[٢].

---

(١) ينظر: رسالة (تحفة الإخوان في خصائص الفتيان) ضمن مجموعة رسائل (آداب الطريقة وأسرار الحقيقة) لعبد الرزاق القاشاني (ص: ٤٧-٥٢).

(٢) ينظر: الفتوة للسلمي (ص: ٦-١٩)؛ رسالة (تحفة الإخوان في خصائص الفتيان) ضمن مجموعة رسائل

آفات الفتوة

١ . دعوى الفتوة ورؤية النفس فضيلتَها:

تقدم في تعريف الفتوة وأوصاف أهلها أن بناء أمرهم على التجرد عن العلائق وقلة المبالاة بالعوائق، وذٰلك لا يتهيَّأ إلا بالذهول عن الأوصاف البشرية وزوال الدواعي الطبيعية؛ كاتباع الهوىٰ ومحبة الجاه والكرامة والغلبة وسائر مقتضيات الهوىٰ. وهناك نماذج من قصص الذين ادعوا الفتوة ففضحهم الله تعالىٰ، فعلىٰ الإنسان أن يكون شديد الحذر من وقوع عجب ورياء في قلبه، ومراقبة أحوال نفسه وحملها على التواضع والصدق مع الله تعالىٰ[(١)].

٢ . التهوُّر:

وهو المبالغة في الشجاعة والإقدام، فالشجاعة خلق وسط بين الجبن والتهوُّر، فإذا بالغ في الإقدام من غير حساب للنتائج فإن ذٰلك هو التهور، وهو منهي عنه، وهو من باب إلقاء النفس إلى التهلكة.

٣ . الخمود والضعة والتظلُّم:

من صفات أهل الفتوة: العفة والتواضع والعدالة، والاحتياط فيها هو الميل إلىٰ جانبها، ولا شك أن النفس تميل إلىٰ أضداد هٰذه الخصال؛ كالشره والتكبر والظلم والفسق، ولا يخفىٰ رذالة هٰذه الأخلاق، فربما أدى الاجتناب منها والاحتياط فيها إلى العجز والخمود والتسخُّر للظَّلَمَة والذلَّة والضعة، فعليه أن يكون حذرًا من الوقوع في الإفراط أو التفريط، والحفاظ على التوازن بين الطرفين[(٢)].

(آداب الطريقة وأسرار الحقيقة) لعبد الرزاق القاشاني (ص: ١٤)؛ الفتوة لابن المعمار البغدادي (ص: ٢٥٦).

(١) ينظر: المصدر السابق (ص: ٣٩).

(٢) ينظر: المصدر السابق (ص: ٤٠).

نماذج من فتوة الصالحين

١. يروىٰ أنه خرج إنسان يدَّعي الفتوة من نيسابور إلىٰ نَسا، فاستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء علىٰ أيديهم، فانقبض النيسابوري عن غسل اليد وقال: «ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء علىٰ أيدي الرجال»، فقال واحد منهم: «أنا منذ سنين أدخل هٰذه الدار لم أعلم أن امرأةً تصب الماء علىٰ أيدينا أم رجلًا»[(١)].

٢. سأل شقيق البلخي جعفرَ الصادق ﷺ عن الفتوة، فقال: «ما تقول أنت؟ فقال شقيق: إن أُعطِينا شكرنا وإن مُنِعنا صبرنا، قال جعفر: الكلاب عندنا بالمدينة كذٰلك تفعل، فقال شقيق: يا ابن بنت رسول الله ﷺ، ما الفتوة عندكم؟، فقال: إن أُعطِينا آثرنا وإن مُنِعنا شكرنا»[(٢)].

٣. ذكر ابن القيم حال شيخه الإمام ابن تيمية ﷺ مع خصومه، فقال: «وما رأيته يدعو علىٰ أحدٍ منهم قطُّ، وكان يدعو لهم، وجئتُ يومًا مبشِّرًا بموت أكبر أعدائه وأشدِّهم عداوةً وأذًى له، فنهرني وتنكَّر لي واسترجع، ثم قام مِن فورِه إلىٰ بيت أهله فعزَّاهم، وقال: «أنا لكم مكانَه، ولا يكون لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلىٰ مساعدةٍ إلا وساعدتُكم فيه»، ونحو هٰذا الكلام، فسُرُّوا به ودعوْا له، وعظَّموا هٰذه الحال منه»[(٣)].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٨٣).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٨٤).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٩٥).

المقترحات العملية والتدريبات

١ . قراءة كتاب (الفتوة) لأبي عبد الرحمن السلمي.

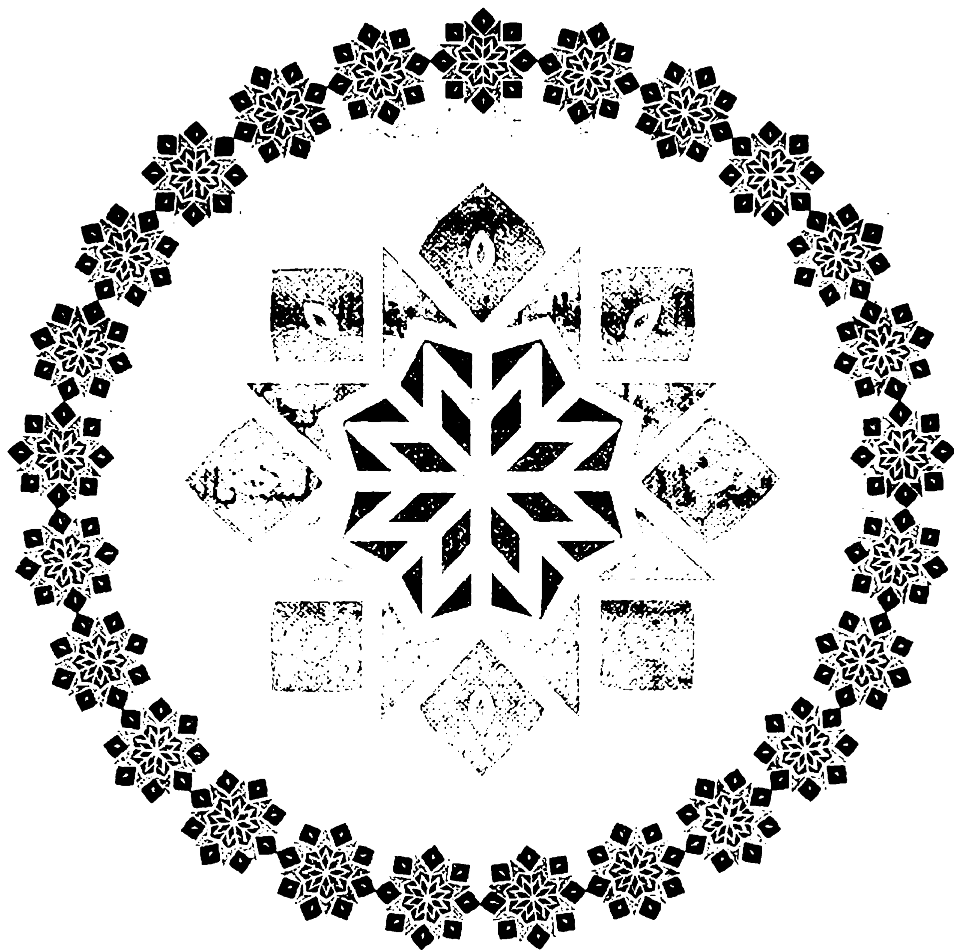
٢ . قراءة باب الفتوة من كتاب (مدارج السالكين) لابن القيم.

٣ . مصاحبة أهل الفتوة من أهل الإيمان والإخلاص والمروءة، وإن لم يكونوا من أهل العلم، فرُبّ عالمٍ قليل المروءة، ورب جاهل فتي النفس.

٤ . محاولة القيام ببعض الخصال التي هي من علامات الفتوة وثمراتها والتخلق بها، ولو بالتكلف، حتىٰ تترسخ تلك الصفات فيه وتصبح له سجية.

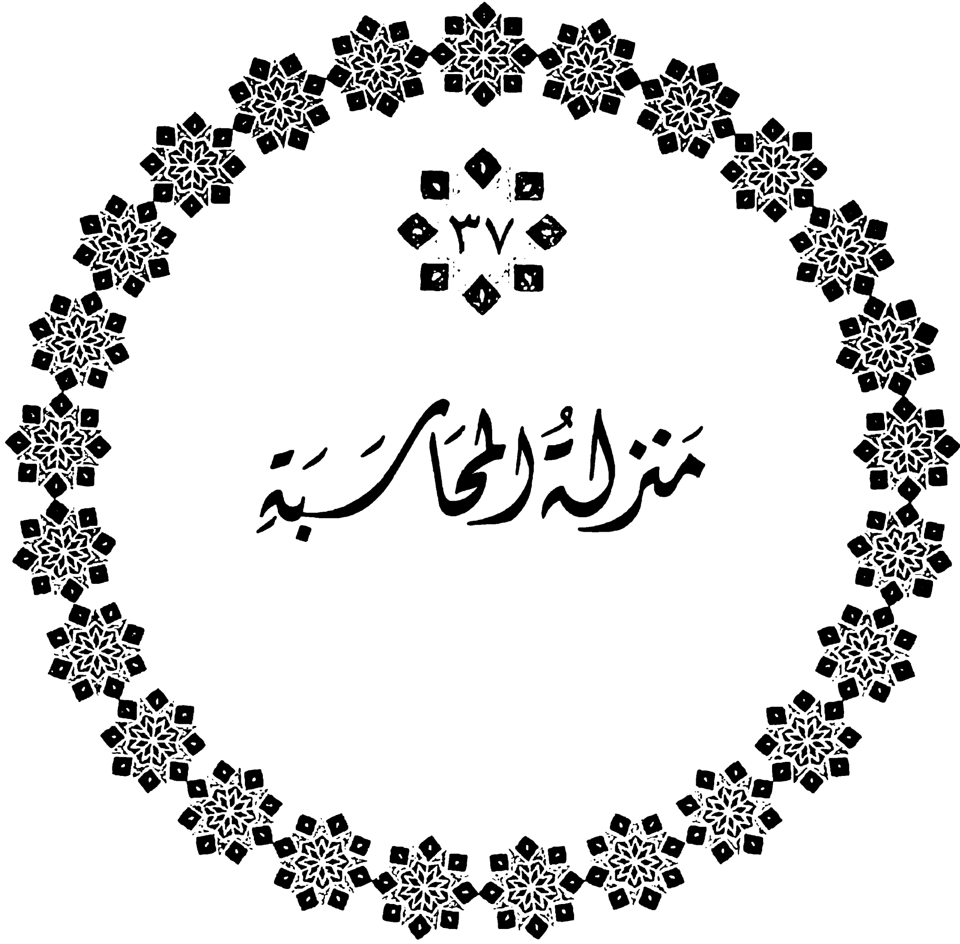
٥ . القراءة في سير السلف الذين عُرِفوا بالفتوة والمروءة، علىٰ سبيل المثال: كتاب (حلية الأولياء) لأبي نعيم الأصبهاني، أو كتاب (سير أعلام النبلاء) للذهبي، أو كتاب (حال السلف بين القول والعمل) لأحمد ناصر الطيار.









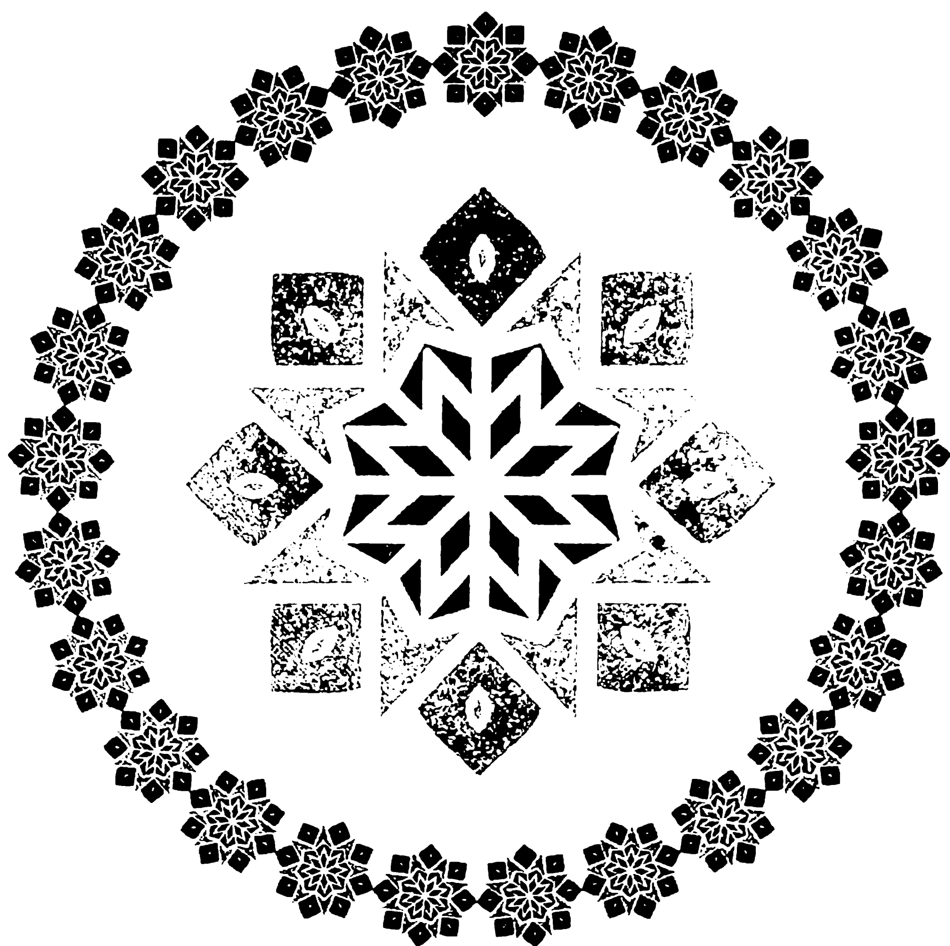


٣٧

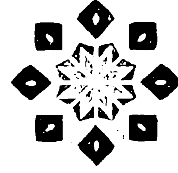
منزلة المحاسبة











منزلة المحاسبة



بين يدي المحاسبة

المحاسبة واجبة شرعًا، ومن أدلة وجوبها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، والآية أمرٌ مِن الله لعبده أن ينظر ما سيلقى به ربّه مِن الأعمال، وهذا يقتضي كمال الاستعداد، ومعرفة أن ما يعمله سينجيه غدًا، ويبيّض وجهه عند لقاء ربّه[١].

ومن أدلتها قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، قال الحسن ﷺ: «إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه؛ يقول: ما أردتِ بكلمتي؟ يقول: ما أردتِ بأكلتي، ما أردتِ بحديث نفسي، فلا تراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قُدُمًا فلا يعاتب نفسه»[٢].

وفي الحديث: «الكيِّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبَع نفسَه هواها، وتمنّى على الله الأماني»[٣].

وقال العز بن عبد السلام: «أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفوس فيما سلف في الأعمال، وفيما يستقبل منها»[٤].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٦٠).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٢٨).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٣٥٠) برقم: (١٧١٢٣)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٧) برقم: (١٩١)، وقال: صحيح على شرط البخاري؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٦٦٣)، وقال: حديث حسن.

(٤) مقاصد الرعاية لحقوق الله للعز بن عبد السلام (ص: ١٨).

حقيقة المحاسبة

المحاسبة لغة:

حسبته أحسُبه حسبًا وحسابًا: إذا عددّته، والحِسَابُ عدُّك الأشياء، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٨]، قيل: من غير أن يخاف أحدًا يحاسبه، والحساب: مصدر المحاسبة، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، أي: محاسبًا، ومنه قولك: فلان ذو حسب؛ لأن صاحبها يعدُّ أفعال آبائه ومناقبه، ويتشرّف بها، ومن هٰذا الباب قولهم: احتسب فلان ابنه؛ لأنه يعدُّه المدخورة له عند الله تعالىٰ[١].

فالمحاسبة: من الحساب، وهو العدُّ، والمقصود بها في هٰذا الباب: أن يعُدَّ الإنسان أقواله وأفعاله ليعرف ما له وما عليه من حسنات وسيئات.

المحاسبة شرعًا:

المحاسبة في الشرع علىٰ نوعين:

النوع الأول: المحاسبة قبل العمل

وحقيقتها: أن ينظر للعمل هل هو مقدور عليه؟ وهل فعله أولىٰ من تركه؟، وهل فعَلَه لله؟ وهل له أعوان؟ فإن حاسب نفسه في هٰذا الأمر علم ما ينبغي الإقدام عليه أو عدمه من الأعمال[٢].

قيل في تعريف المحاسبة قبل العمل هي: «النظر بالتثبت قبل الزلل، ليبصر ما

---

(١) ينظر: الصحاح للجوهري (١/ ١٠٩)؛ جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٢٧٧)؛ العين للخليل الفراهيدي (٣/ ١٤٩)؛ لسان العرب لابن منظور (١/ ٣١٤)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٦٠).

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٨).

يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه عن علم»[1].

وقال الحارث المحاسبي في تعريفها: «التثبت في جميع الأحوال قبل الفعل والترك؛ من العقد بالضمير، أو الفعل بالجارحة، حتىٰ يتبين له ما يترك وما يفعل، فإن تبين له ما كره الله عز وجل جانَبَه بعقد ضمير قلبه، وكَفَّ جوارحَه عما كره الله عز وجل، ومنَعَ نفسه من الإمساك عن ترك الفرض، وسارع إلىٰ أدائه»[2].

النوع الثاني: المحاسبة بعد العمل

وحقيقتها: محاسبة النفس على الطاعات، وتلافي التقصير فيها، وهل اشتغل بمفضولها عن فاضلها، ومحاسبة النفس على المعاصي فتتوب منها، وعلىٰ المباح هل أراد به الآخرة فغَنِم، أم الدنيا ففاته الأجر[3].

وقيل في تعريفها: «أن ينظر في رأس المال، وفي الربح، وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان، فرأس المال في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وليحاسبها أولًا على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فرَّط»[4].

وقيل في تعريفها أيضًا: أن يتصفح الإنسان ما يَصدُر عنه من أفعال في نهاره وليله؛ فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهىٰ عن مثله في المستقبل[5].

---

(١) الرعاية للحارث المحاسبي (ص: ٤٨).

(٢) المكاسب والورع والشبهة للحارث المحاسبي (ص: ٥١).

(٣) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٨).

(٤) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي (ص: ٣٧٤).

(٥) ينظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٣٥٦).

وعرّفها ابن القيم بقوله: «فمحاسبة النفس: هو نظر العبد في حق الله عليه أولًا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانيًا؟»[1].

وقد فسَّر الحسن المحاسبة قبل العمل بقوله: «إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه، فيقول: إنك لتعجبني، وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات هيهات، حيل بيني وبينك»[2].

وقال عن المحاسبة بعد العمل: «ويفرُط منه الشيء فيرجع إلىٰ نفسه، فيقول لها: ماذا أردتِ بهٰذا؟ والله لا أعود لهٰذا أبدًا»[3].

وعن ميمون بن مهران قال: «لا يكون الرجل تقيًّا حتىٰ يحاسب نفسه محاسبة شريكه، وحتىٰ يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه»[4].

وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا؛ فإن أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم، وتزَيَّنوا للعَرْض الأكبر يوم تُعرضون لا تخفىٰ منكم خافية»[5].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

منزلة التوبة:

هناك علاقة بين المحاسبة والتوبة؛ فالمحاسبة تكميلٌ لمقام التوبة، واستمرارٌ لحفظها، وهل هي قبلها في الرتبة أم بعدها؟ فالصحيح: أن التوبة محفوفة

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٥٢).

(٢) الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي (ص: ٥١).

(٣) المصدر السابق (ص: ٥١).

(٤) الزهد لوكيع (ص: ٥٠١).

(٥) الزهد لوكيع (ص: ٩٩)؛ محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٢).

بمحاسبتين: محاسبة قبلها تقتضي وجوبها؛ لأنه يحاسب نفسه أولًا، ثم يتوب مما فرط منه، ومحاسبة بعدها تقتضي استمرارًا في حفظها، ووفاء بعقدها[1].

منزلة المراقبة:

وترتبط منزلة المحاسبة مع منزلة المراقبة في أن مَن كان مقامه المراقبة، كان حاله المحاسبة[2]، فإذا أيقن العبد بمراقبة الله له فلا بد أن ينظر في أعماله هل تليق بربه أم لا؟ فالمراقبة تورث المحاسبة.

فضل المحاسبة وثمراتها

١. تُورِث البصيرة والفراسة:

قال أبو شجاع الكرماني: «مَن غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعَوَّد نفسه أكل الحلال لم تُخْطِئ له فراسة»[3].

ويرزق الله عبده البصيرة، فيعرف مداخل الشيطان عليه من شبهات وشهوات؛ قال الحسن: «لا يزال الرجل بخير ما علم بالذي يُفسد عليه عمله. وقال يونس: إن منهم من تغلبه شهوته ومنهم من يرىٰ أنه على الحق»[4].

٢. تخفيف حساب القيامة:

كلما اجتهد العبد في المحاسبة اليوم خفّف عليه ذٰلك مِن حساب الآخرة،

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٤، ٢٥٩).

(٢) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٥٩).

(٣) الرسالة القشيرية (ص: ٣٨٨-٣٨٩)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٧٤).

(٤) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٢٥).

وكلما ترك المحاسبة اليوم اشتد عليه الحساب غدًا[(١)]؛ قال الحسن البصري رحمه الله: «المؤمن قوّام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خَفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أَخذوا هذا الأمر مِن غير محاسبة»[(٢)].

شروط المحاسبة

١. العلم:

وهو الذي يميز به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر؛ ويبصر به مراتب الأعمال: راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها، وكلما كان حظه من هذا النور أقوى كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم[(٣)].

فإن الجهل بمراتب الأعمال قد يوقع الإنسان بالتقرب إلى الله بأعمال ليست من الطاعات؛ فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى شيخًا يُهادَى بين ابنيه، قال: «ما بال هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي، قال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنيّ»، وأَمَرَه أن يركب[(٤)].

فالبعض لا يميز بين ما هو مباح له وما هو واجب عليه، فيتقرب لله بترك المباح؛ كمن يتقرب إلى الله بترك النكاح، بل قد يظن أن تركه من أفضل القربات، وهو مباح له، وليس من حقه أن يتركه تقرّبًا، ومنهم من يجعل ما يجب عليه مما له؛

(١) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٧).

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٦٠)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١٣٨).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٦٥٩) برقم: (١٧٦٦).

كمن يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال والكشف والتصرف، فيجعل ما يجب عليه فعله وسيلة لما تطلبه نفسه من كشف وتصرف، فيخلط بين ما له وما عليه[1].

٢. الرفق:

يقول ابن الجوزي ﷺ: «وينبغي للإنسان أن يعلم أن نفسه مطيته ولا بد من الرفق بها ليصل بها إلى المقصود، فليأخذ ما يصلحها وليترك ما يؤذيها من الشبع والإفراط في تناول الشهوات؛ فإن ذلك يؤذي البدن والدين»[2].

وذكر أن طبائع الناس تختلف؛ فالأعراب قد يلبسون الصوف، ويأكلون الخشن من الطعام دون أن يؤثر ذلك في أبدانهم؛ لأن عامة معيشتهم كذلك، أما من عاش حياة الترف فينبغي أن يأخذ نفسه بالرفق، ولا يترك من الدنيا ما قد يضره تركه من الطعام والشراب ونحوهما[3].

مراتب المحاسبة

١. المشارطة:

المقصود بالمشارطة: أن يشترط على جوارحه بألا ترتكب ما نهى الله عنه، ثم يلزمها بفعل ما أمرت به؛ ومُثّلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال؛ فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولًا، ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانيًا، ثم بمحاسبته ثالثًا،

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ١٣٦).

(٣) ينظر: المصدر السابق (ص: ١٣٦).

ثـم يمنعـه مـن الخيانـة إن اطلـع عليـه رابعًـا، فكذٰلـك النفـس؛ يشـارطها أولًا علىٰ حفـظ الجـوارح السـبعة التـي حفْظُهـا هـو رأس المـال، والربـح بعـد ذٰلـك، فمـن ليـس لـه رأس مـال فكيـف يطمـع فـي الربـح!»[1].

٢. المراقبة:

وينبغي أن يراقب نفسه، فينظر هل قامت بما اشترطها عليه أم لا؟ فإن وفَّت بعهودها فذاك، وإلا ألزمها بفعل ما لم تفعله أو إتمام ما قصّرت فيه، ولا يغفل عن مراقبتها لحظة، فلو أهملها طغت وفسدت، ومالت للخيانة وتضييع رأس المال[2].

وعليه مراقبة الجوارح السبعة، وهي: العين، والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرجل، فهي مَركب النجاة والعَطَب، فإن حفظها نجا، وكانت وسيلته لكل خير، وإن أهملها أوردته موارد الهلاك والعطب[3].

وكلٌّ من المشارطة والمراقبة هي من نوع المحاسبة قبل العمل، فالمشارطة تكون قبل العمل، والمراقبة قبله وفي أثنائه، فمن المراقبة أن ينظر للعمل؛ فإن كان صالحًا أقدم، وإلا أَحْجَم، وهٰذا ما عناه الحسن البصري بقوله: «رحم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإنَّ أحدًا لا يعمل حتىٰ يهمّ، فإن كان لله عز وجل مضىٰ، وإن كان لغير الله أمسك»[4].

٣. المحاسبة:

فبعد مشارطة النفس ومراقبتها، ينتقل لمحاسبتها؛ ليرىٰ هل وفت أم لا؟ وينبغي أن يدقّق معها الحساب، ويشدّد عليها الطلب بالوفاء، فهٰذه تجارة ربحها

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٥-١٣٦).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩٧)؛ إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٦).

(٣) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٦).

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٥/ ٤٥٨).

الفردوس الأعلىٰ، وهي أولىٰ بالتدقيق من تجارةٍ مكاسبُها الدينار والدرهم[1].

فالتاجر بعد أن يعقد الصفقة، ويمارس التجارة لا بد أن ينظر في تجارته، هل تزيد أو تنقص؟ وكذٰلك العبد بعد أن يشارط نفسه، ويحدِّد لها وظائفها، ينبغي أن ينظر هل أدَّت ما عليها أم لا؟ ثم ينظر حاله عمومًا هل يزيد أم ينقص؟ فإن أحسن حمد الله وسعىٰ في الزيادة، وإن أساء استغفر، وهٰذا يدخل في المحاسبة بعد العمل.

قال أبو الدرداء ﷺ: «مِن فِقْه العبد أن يعلم أمُزْدَادٌ هو أو مُنتقص؟ وإنّ مِن فِقه العبد أن يعلم نزعات الشيطان أنىٰ تأتيه»[2].

وقال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه النفيسة: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم ذمّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله؛ فكان لها قائدًا»[3].

٤. المعاقبة عند وجود التقصير:

ولا يترك لنفسه الحبل على الغارب، بل ينبغي معاقبتها إن أقدمت علىٰ ما منعها منه، أو تركت فعل ما ألزمها به، فإنه لو تركها تعودت على الجرأة علىٰ المعصية، والتكاسل عن الطاعة، فيصعب قيادها عليه. والمعاقبة تكون بحسب المعصية؛ فإذا أكل لقمةَ شُبهةٍ بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلىٰ محرَّمٍ ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، كذٰلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته[4].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٤/ ٣٩٤).

(٢) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة (٢/ ٨٤٩).

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٦).

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٠٦).

طرق اكتساب المحاسبة

١. تذكُّر الموت وما بعده:

فقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار[1].

فمما يدعو العبد لمحاسبة نفسه: معرفته بأهوال ما بعد الموت، وأنه لا ينجي منها -بعد رحمة الله- إلا محاسبة نفسه اليوم، فكلّما جعل ذٰلك نُصْبَ عينيه داوم علىٰ محاسبة نفسه.

٢. رفقة الصالحين وقراءة قصصهم:

مما يعين العبد علىٰ محاسبة نفسه: أن يرافق أهل المحاسبة، فالرفقة تخفف مِن عِبء الطريق، والصاحب ساحب في الخير والشر؛ قال بعض الحكماء: «من صحب خيِّرًا أصابته برَكَتُه، فجليس أولياء الله لا يَشقىٰ ولو كان كلبًا؛ ككلب أهل الكهف؛ فإن الله تعالىٰ ذكره في كتابه العزيز فقال: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]»[2].

فإن فُقدوا في زمانه فليقرأ قصص السابقين من أهل المحاسبة، وستأتي أمثلة لها تحت عنوان: نماذج من محاسبة السابقين لأنفسهم.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٥٦).

(٢) الذريعة الىٰ مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (ص: ٢٥٨).

علامات تحقيق المحاسبة

١. الإقرار بنعم الله وتقصير العبد:

طوبىٰ لمن أنصف ربه؛ فأقر له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن آخذه بذنوبه رأىٰ عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأىٰ فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصَدَقته عليه؛ فإن قبلها فمنة وصدقة ثانية، وإن ردَّها فلِكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها مِن تخليه عنه، وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه، وذٰلك من عدله فيه، فيرىٰ في ذٰلك فقرَه إلىٰ ربِّه، وظلمه في نفسه؛ فإن غفرها له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه[1].

لذٰلك كان من أركان المحاسبة: أن يقيس العبد بين نعمة الله عليه، وبين جنايته في حق ربه، ومن علامات تحقيقها: إقرار العبد بنعمة الله، وإدراكه لتقصيره في جنب الله، فيصبح لسان حاله ومقاله: «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي»[2]، فيجتهد في الطاعات، ويميّز في عطاءات الله ومنعه بين النعمة والنقمة، فيدرك أنّ كل عطاء أو منع قطعه عن السير لربه فهو نقمة، وأنّ كل عطاء أو منْعٍ قرّبه لربه، وأورثه الانكسار بين يديه فهو نعمة[3].

٢. التواضع لله ومقت النفس:

قال أبو الدرداء ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتىٰ يَمْقُت الناس في جنب الله،

---

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٤٧).

(٢) جزء من حديث سيد الاستغفار أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٣٢٤) برقم: (٥٩٤٧).

(٣) ينظر: منازل السائرين للهروي (ص: ١٦)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٦٤).

ثم يرجع إلىٰ نفسه فيكون لها أشد مقتًا»[1]، وقد كان كهمس بن الحسن «يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، فإذا ملَّ، قال: قومي يا مأوىٰ كل سوء، فوالله ما رضيتك لله ساعة»[2].

وعن وهب بن منبه يقول: «إن موسىٰ قال لبني إسرائيل: ائتوني بخيركم رجلًا، فأتوه برجل، فقال: أنت خير بني إسرائيل؟ قال: كذٰلك يزعمون، قال: اذهب فأتني بشرهم، قال: فذهب، فجاء وليس معه أحد، فقال: جئتني بشرهم؟ قال: أنا ما أعلم مِن أحد منهم ما أعلم من نفسي، قال: أنت خيرهم»[3].

الآفات التي تؤثر في المحاسبة

١. رضا العبد بطاعاته:

يقول الغزالي رحمه الله: «ومنهم مَن يظن أن طاعاته أكثر مِن معاصيه؛ لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتَدَّ بها؛ كالذي يستغفر الله بلسانه، أو يُسبِّح الله في اليوم مائة مرة، ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم، ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر»[4].

ويقول ابن القيم: «رضا العبد بطاعته دليل علىٰ حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم علمه بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به، وحاصل ذٰلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعاته، وإحسان ظنه بها»[5].

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٧٢).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٣١٧).

(٣) الزهد للإمام أحمد (ص: ٩٤).

(٤) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٣/ ٣٨٧).

(٥) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٦٧).

عن وهب بن منبه أن رجلًا لقي راهبًا فقال له: «إني لَأقوم في صلاتي فأبكي حتىٰ يكاد ينبت البقل من دموعي، فقال له الراهب: إنّك إنْ تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك خيرٌ مِن أنْ تبكي وأنت تدل بعملك؛ فإن صلاة الْمُدِلّ لا تصعد فوقه»(١).

٢. طول الأمل وحب الدنيا:

يقول أبو طالب المكي: «وأصل ترادف الذنوب: من إغفال المراقبة، وإهمال المحاسبة، وتأخير التوبة، والتسويف بالاستقامة، وترك الاستغفار والندم، وأصل ذٰلك كله هو: حب الدنيا وإيثارها علىٰ أمر الله عز وجل، وغلبة الهوىٰ على القلب»(٢).

قالت أم الدرداء: «الدنيا أسْحَر لِقلب العبد مِن هاروت وماروت، وما آثرها قط إلا أصرعت خده»(٣).

ويحذِّر الغزالي من طول الأمل -لأنّ العبد إن طال أمله قلَّ عزمه عن محاسبة نفسه- فيقول: «ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته، كأنه في آخر أنفاسه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون علىٰ وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو علىٰ تلك الحالة»(٤)، ومما قاله الفضيل بن عياض: «ما أطال رجلٌ الأمل إلا أساء العمل»(٥).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٨١).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٥٧).
(٣) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٠٢).
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٠٣).
(٥) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ١٩٤).

نماذج من محاسبة السابقين لأنفسهم

١. محاسبة أبي بكر الصدِّيق لنفسه:

دخل عمر بن الخطاب علىٰ أبي بكر الصديق ﷺ وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: «مَهْ غفر الله لك»، فقال أبو بكر: «إن هٰذا أوردني الموارد»(١).

فهو يتعاهد لسانه لأنه: «كان يحذر مَضَرَّته، عسىٰ أن يمنعه ذٰلك من استدامة ما كان عليه، وهٰذا مع فضل أبي بكر الصديق ودينه وورعه، ولٰكن مثل أبي بكر يتعاهد هٰذا من نفسه»(٢).

٢. محاسبة عمر بن الخطاب لنفسه:

عن أنس بن مالك قال: سمعت عمر بن الخطاب وخرجت معه، حتىٰ دخل حائطًا، فسمعته وهو يقول -وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط-: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخٍ بخٍ! والله لَتَتَّقِيَنّ الله أو لَيُعَذِّبَنَّك»(٣).

قال ابن عبد البر: «وأما قوله: بخٍ بخٍ أمير المؤمنين؛ فهو توبيخ منه لنفسه، وتوبيخ النفس وتقريعها عبادة، كما أن الرضا عنها هلكة»(٤).

٣. محاسبة إبراهيم التيمي لنفسه:

كان إبراهيم التيمي يقول عن نفسه: «ما عرضتُ عملي علىٰ قولي إلا خشيتُ أن أكون مُكَذَّبًا»(٥).

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ برواية يحيىٰ (٢/ ٩٨٨) برقم: (١٢).

(٢) المنتقىٰ شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٧/ ٣١٢).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ برواية يحيىٰ (٢/ ٩٩٢) برقم: (٢٤).

(٤) الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٥٨٧).

(٥) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٥١).

وحكىٰ عنه سفيان الثوري أنه قال: «مَثَّلْتُ نفسي في الجنة آكُل من ثمراتها، وأشرب من أنهارها، وأُعانق أبكارها، ثم مثّلتها في النار آكل مِن زقومها، وأَشْرب مِن صَديدها، وأُعالج سَلاسِلها وأغلالها، ثم قلت لنفسي: يا نفس، أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدّ إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قال: فأنت في الدنيا فاعملي»(١).

٤. توبة بن الصمة:

كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسبًا لنفسه، فحَسب فإذا هو ابن ستين سنة، فحَسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي! ألقى المليك بأحد وعشرين ألف ذنب، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب! ثم خرَّ مغشيًّا عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلًا يقول: يا لَكِ ركضةً إلى الفردوس الأعلىٰ(٢).

المقترحات العملية والتدريبات

١. الاستفادة من علم الإدارة بالتخطيط لكل يوم في أمر الآخرة، كالتخطيط لأمور الدنيا، حَدِّد وظائف العبادات اليومية في ورقة، وراجع نِسَب الإنجاز.

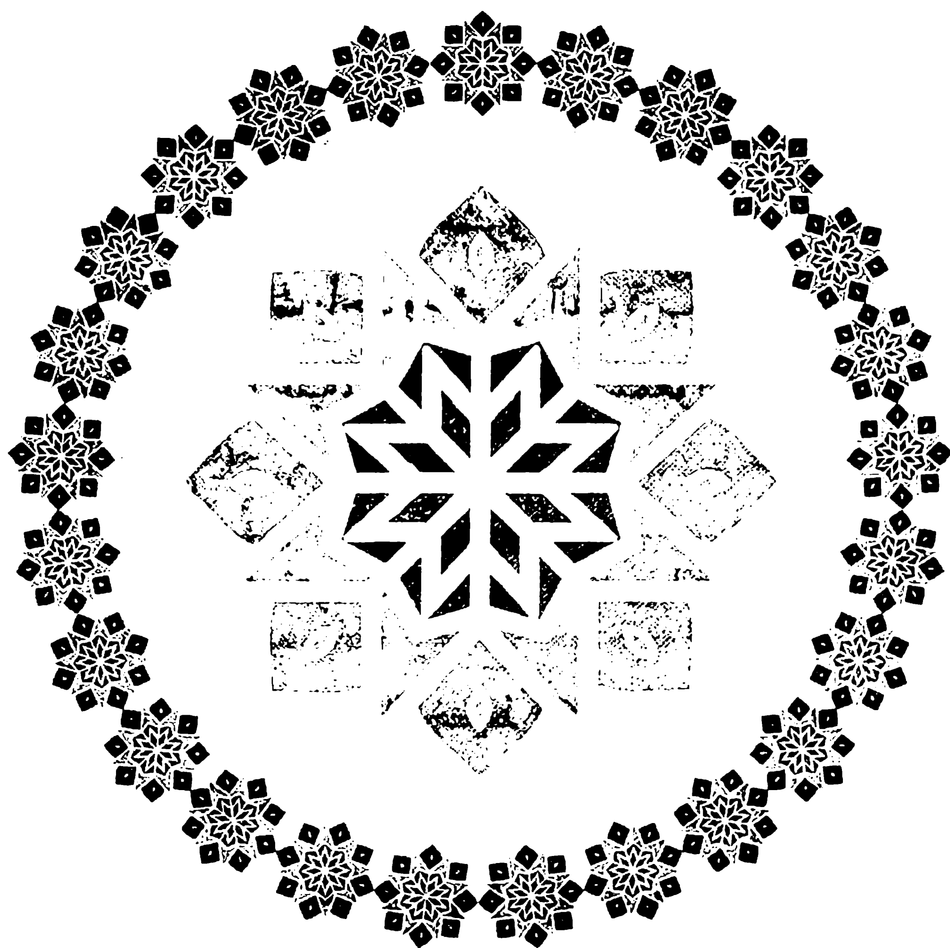
٢. اسأل نفسك عند كل عبادة: متىٰ؟ وكيف؟ ولمن؟ لتعلم هل كانت في وقتها؟ وهل كانت على الصفة الشرعية؟ وهل كانت خالصة لله؟

٣. قارن كل يوم بين عملك وبين نعمة واحدة من النِّعَم، مثلًا البصر: هل يكافئ عملُك تلك النعمة؟ ثم السمع والعقل والعافية، وغيرها من النعم، وأجلُّها جميعًا نعمة الإسلام.

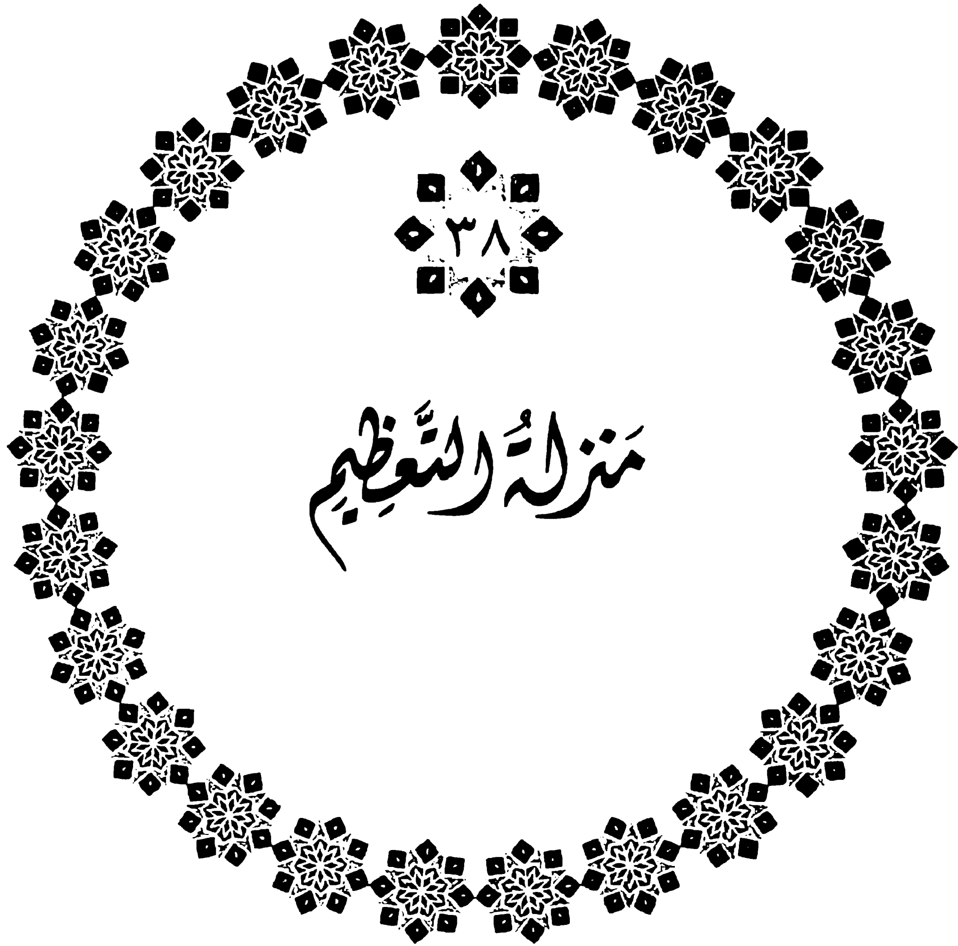
---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٥٢).

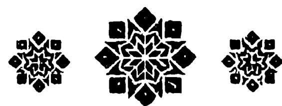
(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٦).

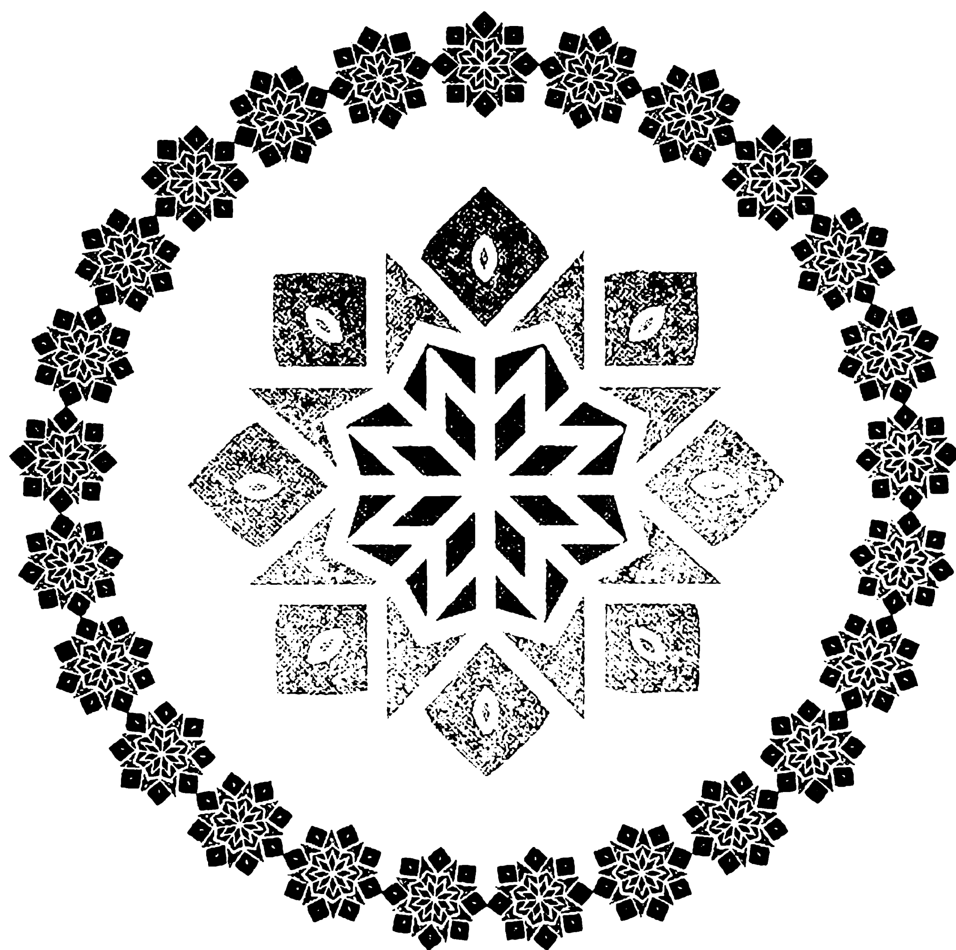





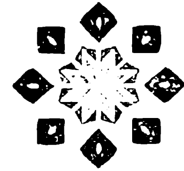


٣٨
مَنزلةُ التَّعظِيم











منزلة التعظيم



بين يدي التعظيم

ذكر الحارث المحاسبي أن الناس في عبادتهم علىٰ أربعة أحوال: حال أهل الرغبة، وحال أهل الرهبة، وحال أهل الحياء، وحال أهل التعظيم، ثم قرّر أن حال أهل التعظيم هي أشرف الأحوال وأفضلها، فهم قوم عملوا لله على التعظيم له، فحسنت أعمالهم وكرمت فعالهم علىٰ نحو عظمته في صدورهم، وعِظَم قدره في قلوبهم، فلم يكن شيء أحب إليهم، ولا ألَذّ عندهم مِن شيء يتقربون به إليه[1].

والناس في سعيهم إلىٰ ربهم شاخصون إلىٰ منزلتين: «منزلة الأجرة، ومنزلة القرب من المطاع، قال تعالىٰ في حق نبيه داود ﷺ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]، فالزلفى: منزلة القرب، وحسن المآب: حسن الثواب والجزاء. وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنىٰ: الجزاء، والزيادة: منزلة القربة، ولهذا فسرت بالنظر إلىٰ وجه الله عز وجل»[2].

«وقيل: معاملة المحب علىٰ أربع منازل: على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم، وأفضلها التعظيم والمحبة؛ لأن هاتين المنزلتين تبقيان مع أهل الجنة في الجنة، ويرفع عنهم غيرهما»[3].

---

(١) ينظر: آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٥٩).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٦٠).

حقيقة التعظيم

التعظيم لغة:

مادة عَظُم: تدل على كبر وقوة، والتعظيم: التبجيل، وعظّمه تعظيمًا وأعظمه: فخّمه، وكبّره، وفي الحديث: «فأما الركوع فعَظِّموا فيه الرب عز وجل»[1]، أي: اجعلوه في أنفسكم ذا عظَمة، والعظيمة: النازلة الملمة الشديدة، واستَعْظم الشيء: كَبُر في عينه وعدّه عظيمًا، وإن لفلان عظمة عند الناس أي حرمة يعظم لها[2].

وكل ما سبق من المعاني مرادة في التعظيم، ففيها معنى التكبير، والتبجيل، ورؤيته عظيمًا، ومراعاة حرمته.

التعظيم شرعًا:

قال محمد بن رشد: «تعظيم الله عز وجل هو: الخوف له، والعمل بطاعته، والبِدار إلى ما يُقرِّب منه من الأعمال التي تُرضيه»[3].

وقال الهروي: «التعظيم: معرفة العظمة مع التذلل لها»[4].

ومن تعظيم الله تعالى: وصفه بصفات الكمال، فكل كمال فلله عز وجل أعظمه وأجَلَّه، ولا يستحق أحدٌ مِن الخلق أن يُعظَّم كما يُعظَّم الله، فهو المستحق للتعظيم بالقلب واللسان والجوارح، ويجب على العبد أن يبذل الجهد في معرفة مولاه، وبَذل أسباب محبته، والتذلل بين يديه، ومِن تعظيمه: أن يُطاع فلا يُعصى،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٤٨) برقم: (٤٧٩).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٣٥٥)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ١٨٢)؛ القاموس المحيط للفيروز أبادي (ص: ١١٣٩)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ٢١٢).

(٣) البيان والتحصيل لابن رشد (١٨/ ٤٠٧).

(٤) منازل السائرين للهروي (ص: ٨١).

ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر[1].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

١. الحياء والهيبة:

وعلاقتهما بالتعظيم: أن الحياء والهيبة يتولدان من التعظيم، وأنه بقدر ما يوجد في القلب من تعظيم لله بقدر ما يكون فيه من هيبة وحياء من الله، وفي ذكر هٰذا المعنىٰ يقول ابن القيم ﷺ: «لأنه إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له»[2].

٢. الخشوع:

يقول ابن القيم: «والحق أن الخشوع معنىٰ يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار»[3].

فضل التعظيم وثمراته

١. وجوب تعظيم الله:

تعظيم الله تعالىٰ واجب على العبد بكل حال، ومما يدل علىٰ وجوبه: ذم الله من لم ير لله عظمة، فقال الله تعالىٰ علىٰ لسان نوح مخاطبًا قومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وذكر ابن الجوزي أربعة أقوال في معنى الآية؛ منها: لا تَرَون لله عظمة، ونُقل عن ابن عباس، وقال الفراء: لا تخافون لله عظمة[4].

(١) ينظر: تفسير أسماء الله الحسنىٰ للسعدي (ص: ٢١٧-٢١٨).
(٢) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٨٢٦).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٩٦).
(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٤/ ٣٤٢).

ووصف الله المشركين بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، «أي: ما عظموه حق عظمته، وقيل: ما وصفوه حق صفته»(١)، «وما أجَلُّوا الله حق إجلاله، ولا عظموه حق تعظيمه»(٢).

ومن أسماء الله تعالى العظيم، قال الزجاجي في معناه: «ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه عز وجل»(٣).

وقال السعدي: «والعظيم: الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء الذي تحبه القلوب، وتعظّمه الأرواح... والله تعالىٰ عظيم له كل وصف ومعنىٰ يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يُثني عليه كما ينبغي له ولا يحصىٰ ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه وفوق ما يثنىٰ عليه عباده»(٤).

٢. تعظيم الله يورث تعظيم النبي ﷺ:

يقول الإمام ابن القيم: «فإن تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته وطاعته تابع لتعظيم مرسله سبحانه وإجلاله ومحبته وطاعته، فمحال أن تثبت المحبة والطاعة والتعظيم والإجلال للرسول ﷺ دون مرسله، بل إنما يثبت له ذٰلك تبعًا لمحبة الله تعالىٰ وتعظيمه وإجلاله، ولهٰذا كانت طاعة الرسول طاعة لله، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله»(٥).

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ١٦٦).
(٢) جامع البيان للطبري (٩/ ٣٩٣).
(٣) اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم الزجاجي (ص: ١١١).
(٤) تفسير أسماء الله الحسنىٰ للسعدي (ص: ٢١٦).
(٥) جلاء الأفهام لابن القيم (١/ ٤٧٠).

٣. تعظيم الله يورث الإقبال على القرآن:

يقول أبو طالب المكي: «واعلم أن للعبد في قراءة القرآن بحسب ما له من تعظيمه والفهم له والمشاهدة منه والمعاملة به؛ لأنه من أكبر شعائر الله في خلقه، وأعظم آياته في أرضه الدالات عليه، وأَسْبَغِ نعمه الكاملة علينا، وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه، وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أعطي من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله، فإذا عَظُم المتكلم في قلبه وكَبُر في فهمه أنعم تدبر كلامه، وأطال الفكر في خطابه، وأكثر ترداده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به والحاجة إليه»(١).

مراتب منزلة تعظيم

١. تعظيم الأمر والنهي:

فمن تعظيم الأمر: تعظيم شعائر الله، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وشعائر الله تعني: «أمورًا ظاهرة محسوسة، جُعلت ليعبد الله بها واختصَّت به، حتى صار تعظيمها عندهم تعظيمًا لله، والتفريط في جنبها تفريطًا في جنب الله، وركز ذلك في صميم قلوبهم لا يخرج منه إلا أن تقطّع قلوبهم»(٢).

وشرائع الله تعالى مبنية على تعظيم شعائره، ومجيء سياق الآيات في الحديث عن الحج والنسك يدل أن من حكم الحج تعظيم تلك الشعائر، فتعظيم مواسم الخير، وتعظيم الرسول ﷺ، وتعظيم البيت العتيق، وتعظيم القرآن، كل ذلك من تعظيم الله(٣)، وهذا التعظيم وسيلة لتحقيق التقوى، ودليل عليها.

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٠٨).
(٢) حجة الله البالغة للدهلوي (١/ ١٣٣).
(٣) ينظر: حجة الله البالغة للدهلوي (١/ ١٣٣).

«فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظِّم لها يبرهن علىٰ تقواه، وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»[1].

ومن علامات تعظيم شعائر الله وأوامره: «رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش علىٰ أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص علىٰ تحسينها، وفعلها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوات حقٍّ مِن حقوقها؛ كمن يحزن علىٰ فوت الجماعة، ويعلم أنه لو تُقُبِّلت منه صلاته منفردًا فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا»[2].

ومن تعظيم النهي: تعظيم حرمات الله، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال جماعة من المفسرين: «حرمات الله ههنا: معاصيه وما نهىٰ عنه، وتعظيمها ترك ملابستها، قال الليث ﷺ: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها. وقال قوم: الحرمات هي الأمر والنهي. قال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك ومشاعر الحج زمانًا ومكانًا. والصواب: أن الحرمات تعم هٰذا كله؛ وهي جمع حرمة، وهي ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها تَوْفِيَتها حقها وحفظها من الإضاعة»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن للسعدي (ص: ٥٣٨).

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ١٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣١٩).

ومدار تعظيم الأوامر والنواهي: «أن لا يُعارَضا بتَرَخُّصٍ جاف، ولا يَعْرَضا لتشديدٍ غالٍ، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عز وجل بسالكه، وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو»(١).

فالغلو في العبادة هي أن يتكلف العبد ما لا يطيق فينقطع، أو أن يتكلف ما لا يشرع في العبادات: صفة، أو مقدارًا أو زمنًا، فيقع في البدع، وكل ذٰلك مذموم، كما يذم التقصير والتفريط في العبادات، فكلا طرفي الأمور ذميم.

٢. تعظيم الحُكْم:

وتعظيم الحكم يقصد به: الأدب مع أقدار الله، فلا تُقابل بالسخط، بل يرضىٰ العبد ويُسلّم، فهو من يعطي ويمنع من شاء ما شاء، وكل ذٰلك علىٰ مقتضىٰ الفضل والحكمة، «وأما كونه تعالىٰ جعل هٰذا يصلح وأعطاه ما يصلح له، وهٰذا لا يصلح فمنعه ما لا يصلح له، فذاك موجب ربوبيته وإلهيته وعلمه وحكمته... فما قضىٰ في عبده بقضاء إلا وهو واقع في محله الذي لا يليق به غيره، إذ هو الحَكَم العَدْل، الغني الحميد»(٢).

ومن تعظيم الحكم: ألا يرى العبد تعارضًا بين أمر الله وقدره، «فإن أمره لا يُبْطِل قدَرَه، ولا قَدَرُه يُبطل أمره، ولٰكن يدفع ما قضاه وقدَّره بما أمر به وأحبه، وهو أيضًا من قضائه، فما دفع قضاؤه إلا بقضائه وأمره»(٣).

---

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٢٩).

(٢) شفاء العليل لابن القيم (٢/ ٣٦٤).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣٢٦).

٣. تعظيم الحق سبحانه:

ومن تعظيم الله عز وجل ألا يرى العبد لنفسه حقًّا علىٰ ربه، ولو كان الحق ثواب عمل العبد، فكل ذٰلك محض الفضل من الله، «فالنفوس العلية الزكية تعبده لأنه أهلٌ أن يُعبد ويُجَلّ ويُحَبّ ويُعَظَّم، فهو لذاته مستحقٌّ للعبادة، قالوا: ولا يكون العبد كأجير السوء، إن أعطي أجره عمل وإلا لم يعمل، فهٰذا عبد الأجرة»[1].

ومن تعظيم الله: ألا يجعل بينه وبين الله وسائط يتوصل بهم إليه، إلا ما كان من وساطة الرسل في الإرشاد، أو من يقوم مقامهم من ورثة الأنبياء، «فمن صحب الأخيار بمجرد التعظيم لهم، والغلو فيهم زائد عن الحد وأعلق قلبه بهم؛ فقد انقطع عن الله بهم، وإنما المراد من صحبة الأخيار أن يوصلوا من صحبهم إلى الله ويسلكوا طريقه ويعلموه دينه»[2]، «كما خيل إلى المشركين قبلهم أن عبادة الأوثان ونحوها تعظيم لجناب الرب، وأنه لا يتوصل إليه من غير وسائط تعبد فتقرب إليه زلفًا، وأن ذٰلك أبلغ في التعظيم والاحترام، وقياسه لهم علىٰ ملوك بني آدم، فاستجابوا لذٰلك، وقبلوه منه. وإنما بعث الله الرسل وأنزل الكتب لإبطال ذٰلك كله»[3].

طرق الوصول إلى التعظيم

١. العلم:

معرفة العبد بربه حق المعرفة تورثه تعظيم الله عز وجل، قال ابن القيم ﵀:

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٢٢).

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب (ص: ٢٥١) ضمن مجموع رسائل ابن رجب.

(٣) فتح الباري لابن رجب (٤/ ٣٢٠).

«وهٰذه المنزلة تابعة للمعرفة؛ فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالىٰ في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإجلالًا»[1].

بل إن المعرفة التي هي إيمان بالله لا بد أن يقارنها تعظيم له، وفي هٰذا المعنىٰ يقول محمد بن نصر المروزي ﷺ: «وإنما المعرفة التي هي إيمان، هي معرفة تعظيم الله وجلاله وهيبته»[2].

٢. تعظيم ما عظّمه الله:

ومن ذٰلك تعظيم شعائر الله، وتعظيم حرمات الله، فبقدر تعظيم العبد لما عظّمه الله، يكون تعظيم الله في قلبه، بل كل تعظيم لغير الله باطل، إلا ما كان سببه تعظيم الله.

قال ابن القيم ﷺ: «وكذٰلك التعظيم؛ فتارة يُعَظَّم الشيءُ لنفسه، وتارة يُعَظَّم لغيره، وليس شيء يستحق التعظيم لذاته إلا الله تعالىٰ، وكل ما أمر الله أن يُحَبّ ويُعَظَّم فإنما محبته لله وتعظيمه عبادة لله، فالله هو المحبوب المعظّم في المحبة والتعظيم»[3].

قال أبو جعفر بن سنان: «لا يعظم حرمات الله إلا مَن عَظَّم الله، ولا يعظم الله إلا من عرفه، ومن عرفه خضع له وانقاد في خضوعه؛ وخضوعه يتولد من تعظيمه لربه، فإذا عظّمه صَغُر كل ما سواه عنده؛ فيتولد له من ذٰلك تعظيم حرمات المؤمنين، وذٰلك لعظيم حرمة الله في قلبه، أن يعظم كل مَن يطيع ربه أو يعرفه»[4].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣١٩).

(٢) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٧٧٣).

(٣) قاعدة في المحبة لابن القيم (ص: ١٠١).

(٤) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ٢٥٦).

علامات التحقق بالتعظيم

١. الأدب مع اسم الله تعالىٰ:

فالتأدب مع اسم الله من علامات تعظيم العبد لله؛ ومن تعظيم اسمه تعالىٰ: أنه إن سألكم أحدٌ بالله أن تُلَبّوه وتعينوه في مسألته، أو استجار بالله طالبًا المعونة أن تجيروه؛ ففي الحديث: «مَن استعاذ بالله فأعيذوه، ومَن سألكم بالله فأعطوه، ومَن استجار بالله فأَجِيروه، ومَن آتىٰ إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتىٰ تعلموا أنْ قد كافأتموه»[١].

قال الطيبي في معنى الحديث: «يعني إذا طلب أحدٌ منكم أن تدفعوا عنه شَرَّكم، أو شَرَّ غيركم بالله -مثل قولك: يا فلان بالله عليك أن تدفع عني شر فلان وإيذاءه، أو: احفظني من شر فلان- فأجيبوه، واحفظوه لتعظيم اسم الله تعالىٰ»[٢].

ومن تعظيم اسم الله أيضًا: ألا يحلف العبد إلا به؛ ففي الحديث: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك»[٣]. قال ابن حجر ﷺ: «فإن اعتقد في المحلوف فيه مِن التعظيم ما يعتقده في الله حَرُم الحلف به، وكان بذلك الاعتقاد كافرًا، وعليه يَتَنَزَّل الحديث المذكور، وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به علىٰ ما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك ولا تنعقد يمينه»[٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٩) برقم: (٣٤٠٨)؛ وأحمد في مسنده (٩/ ٢٦٦) برقم: (٥٣٦٥)؛ وأبو داود في سننه (٢/ ٥٢) برقم: (١٦٧٢)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٤١٢) برقم: (١٥٠٧)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٢) شرح المشكاة للطيبي (٥/ ١٥٦٦).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٩٩) برقم: (٤٣٥٨)؛ وأبو داود في سننه (٣/ ٢١٧) برقم: (٣٢٥١) والترمذي في جامعه (٣/ ١٩٤) برقم: (١٥٣٥)، وقال: حديث حسن.

(٤) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٥٣١).

ومن تعظيم اسم الله أيضًا: ألا يحلف به إلا صادقًا، وأن يقبل ممن حلف به؛ فعن ابن عمر ﵄ قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يحلف بأبيه، فقال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حَلَفَ بالله فليَصْدُق، ومن حُلِفَ له بالله فلْيَرْضَ، ومَن لم يرض بالله فليس من الله»(١)، أي ليس من قربه في شي.

فأهل القرب يصدّقون الحالف فيما حلف عليه، وذٰلك لعظمة اسم الله في قلوبهم، ومَن لا يُصَدِّق مَن حلف له بالله، مع إمكان التصديق فليس من أهل القرب والتعظيم لله(٢).

٢. دوام مراقبة الله:

فإذا خالط القلب عظمة الله، أورثه ذٰلك مراقبة الله، وأذهلته تلك المراقبة عما سواه، فإن مما يضبط سير العبد إلىٰ ربه، ويعينه علىٰ مراقبته، ما سمّاه ابن القيم ﵀: «تعظيم مذهل»، وعرّفه بقوله: «هو امتلاء القلب من عظمته، بحيث يذهله ذٰلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه»(٣).

وسماها الغزالي ﵀ مراقبة الصديقين، وقال في بيان المقصود بها: «وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذٰلك الجلال، ومنكسرًا تحت الهيبة، فلا يبقىٰ فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلًا، وهٰذه مراقبة لا نطوّل النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب.

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات، فضلًا عن المحظورات،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣/ ٢٤٠) برقم: (٢١٠١)؛ والبيهقي في سننه (٣/ ٢٤٠) برقم: (٢١٠١). قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٥٣٦): سنده حسن.

(٢) ينظر: حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه (١/ ٦٤٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٤٣).

وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها، فلا تحتاج إلىٰ تدبير وتثبيت في حفظها علىٰ سنن السداد»[1].

الآفات التي تؤثر في التعظيم

١. الذنوب والمعاصي:

«ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولابد، شاء أم أبىٰ، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ علىٰ معاصيه»[2].

٢. الشرك والكفر:

فالشرك مبني علىٰ سوء الظن بالله، وهو ملزوم بتنقص تعظيمه، فالمشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلىٰ من يدبر أمر العالم معه، أو يحتاج الشفيع واسطة لإجابة دعائه، فهو لا يرحم حتىٰ يجعله الشفيع يرحم، ولا يعلم بشكوىٰ عبيده حتىٰ يبلغه الوسائط، وكل ذٰلك بلا شك من نقص عظمة الله في القلب[3]، ولهٰذا وصف الله المشركين بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وأما الكفر فينافي التعظيم ويضاده؛ «لأن النية في الكفر استهانة بالرب، والاستهانة ضد التعظيم والإجلال والهيبة، فإذا عظمت معرفته تعظيم قدره، لم تَبُح نفسُه بنية الكفر ولو قُطِعَ أعضاؤه، فمن ثم كان هٰذا المؤمن لَـمَّا نوى الكفر،

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩٨).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٧٠).

(٣) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ١٠٣).

لأنه لم ينو الكفر ويعتقده لدينا، وغير ذلك من تَدَيُّنٍ حتىٰ صغر قدر الرب عنده فاستهان به»[1].

نماذج من تعظيم السابقين لله

١ . تعظيم محمد بن المنكدر لله تعالىٰ:

كان مما قاله ﷺ: «لو أن رجلًا صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا يفتر، وتصدق بماله وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله غير أن يؤتىٰ به يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق في ذلك الجمع الأعظم بين يدي رب العالمين فيقال: إن هذا أعظَمَ في عينه ما صَغَّرَ الله، وصَغَّر في عينه ما عَظَّمَ الله، كيف ترىٰ تكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا؟ الدنيا عظيمة عنده، مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا»[2].

٢ . تعظيم بشر الحافي لاسم الله تعالىٰ:

«عن أيوب العطار قال: قال لي بشر بن الحارث الحافي: أُحَدِّثُك عن بُدُوِّ أمري: بينا أنا أمشي رأيت قرطاسًا علىٰ وجه الأرض فيه اسم الله تعالىٰ، فنزلت إلى النهر فغسلته، وكنت لا أملك من الدنيا إلا درهمًا فيه خمسة دوانق، فاشتريت بأربعة دوانيق مسكًا، وبدانق ماء ورد، وجعلتُ أتتبع اسم الله تعالىٰ وأطيبه، ثم رجعتُ إلىٰ منزلي فنمتُ فأتاني آت في منامي فقال: يا بشر، كما طيبت اسمي لأطيبن اسمك، وكما طهرته لأطهرن قلبك»[3].

(١) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٧٧٣).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٥).

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٤٧٢-٤٧٣)؛ طبقات الأولياء لابن الملقن (ص: ١١٠).

٣. تعظيم العز بن عبد السلام لله تعالىٰ:

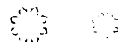
دخل العز بن عبد السلام مرة إلى السلطان في يوم عيد، وقد خرج علىٰ قومه في زينته، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبَوِّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور! فقال: هل جرىٰ هٰذا؟ فقال: نعم؛ الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، فقال: يا سيدي هٰذا أنا ما عملته، هٰذا من زمان أبي، فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

فلما انصرف الشيخ من المجلس قال له تلميذه الباجي: يا سيدي، أما خفت منه؟ قال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالىٰ في قلبي، فصار السلطان قدامي كالقط[1].

المقترحات العملية والتدريبات

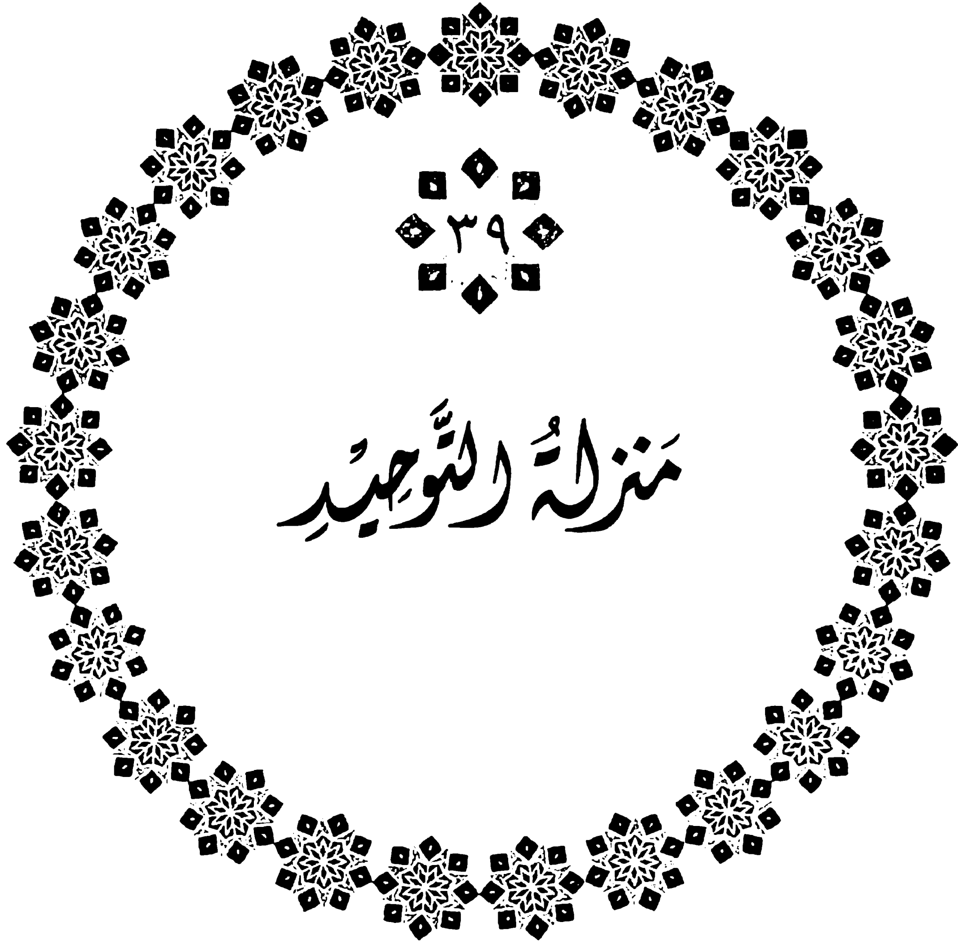
١. تدبّر في خلق الله، وتذكّر أن عظمة المخلوق تدل علىٰ عظمة الخالق، فانظر إلىٰ ما خلق الله في السماوات والأرض، لتعلم عظمة الله تعالىٰ.

٢. قارن بين حالك عند دخولك علىٰ رئيس أو ملك أو صاحب وجاهة، وحالك وأنت تقف أمام رب العالمين مصلّيًا وداعيًا، وراجع نفسك أيهما أشد هيبة في قلبك.



(١) ينظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي (٨/ ٢١١-٢١٢)؛ طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٣١٧).



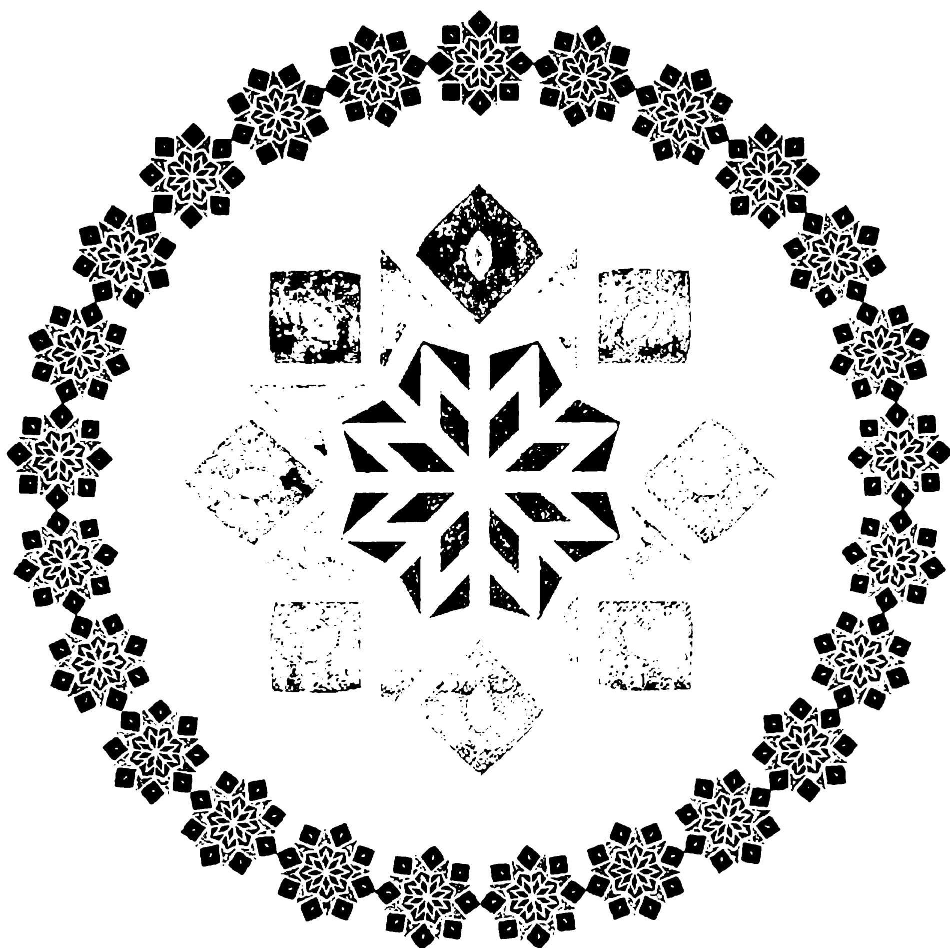


٣٩

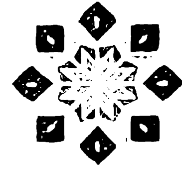
مَنزلةُ التَّوحِيدِ











منزلة التوحيد



بين يدي التوحيد

التوحيد أول الأمر وآخره، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى، وهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، أَمَرَنا رسول الله ﷺ أن نلقن موتانا كلمة التوحيد فقال: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»[1]، ودعا به عمه أبا طالب عند موته، فقال: «يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمةً أُحاجُّ لكَ بها عند الله»[2]، ووعد بالجنة من كانت آخر كلماته لا إله إلا الله فقال: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة»[3]، والتوحيد حقيقة دعوة الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][4]، وهو أول أمر دعا له الرسل، فقد قال الله تعالى عن هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال عن صالح لقومه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٣١) برقم: (٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٨٨) برقم: (٤٤٩٤)

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٣٥١) برقم: (١٣٠٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وأبو داود في سننه (٣/ ١٥٩) برقم: (٣١١٣)؛ أحمد في المسند (١٠/ ٥١٦٩) برقم: (٢٢٤٥٨). قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٢/ ٢١١): «وأعَلَّه ابن القطان بصالح بن أبي عريب، وأنه لا يُعرَف، وتُعُقِّب بأنه روى عنه جماعة، وذكره ابن حبان في الثقات».

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٤٣٩).

وهٰذا حال سائر الرسل ﷺ، ولهٰذا قال النبي ﷺ، لرسوله معاذ -وقد بعثه إلىٰ اليمن-: «إنك تَقدَم علىٰ قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلىٰ أن يوحدوا الله تعالىٰ»[1].

حقيقة التوحيد

التوحيد لغة:

وحد: الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد، من ذٰلك الوحدة. وهو واحدُ قبيلتِه: إذا لم يكن فيهم مثله ، والواحد: المستعمل في العدد، تقول واحد واثنان، ويستعمل في الوصف ويعني التَّفَرُّد، و«أحد» في أسماء الله تعالىٰ: هو الفرد الذي لم يزل وحدَه ولم يكن معه آخر، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتفرد، والتوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له، عن سعد بن أبي وقاص قال: مَرَّ عليَّ النبي ﷺ وأنا أدعو بأُصبعيَّ، فقال: «أَحِّد أَحِّد»، وأشار بالسبابة[2]. أي: أَشِر بإصبع واحدة؛ لأن الذي تدعو إليه واحد وهو الله تعالىٰ[3].

التوحيد شرعًا:

التوحيد ينقسم إلىٰ قسمين؛ الأول: توحيد المعرفة والإثبات؛ أي: إثبات حقيقة ذات الرب تعالىٰ وصفاته وأفعاله وأسمائه، والثاني: توحيد القصد والطلب، أي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٦٨٥) برقم: (٢٦٨٥)؛ وينظر: منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ١٢١)، (٥/ ٣٤٦) ومدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٤٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٥٥) برقم: (١٤٩٤)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٥٢٢) برقم: (٣٩١٤)، عن أبي هريرة، وقال: حسن غريب؛ والنسائي في سننه (١/ ٢٧٠) برقم: (١٢٧٣)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٣٦) برقم: (١٩٧٢) وقال: صحيح علىٰ شرطهما.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ٩٠) وتهذيب اللغة للجوهري (٥/ ١٢٥) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٧٠) المخصص لابن سيده (٥/ ١٩٣) مختار الصحاح للرازي (ص: ٣٣٤).

عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، وهذا القسم الثاني هو المقصود هنا[1].

«فالتوحيد الأول: يتضمن إثبات نعوت الكمال لله بإثبات أسمائه الحسنى وما تتضمنه من صفاته، والثاني: يتضمن إخلاص الدين له كما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]»[2].

فيتركز التوحيد على نفي العلائق بالخلق، ونفي العبد عن نفسه الحول والقوة على الفعل؛ قال الجنيد: «التوحيد الذي انفرد به الصوفية هو: إفراد القِدَم عن الحدَث، والخروج عن الأوطان، وقطع المحابّ، وترك ما علم وجهل، وأن يكون الحق سبحانه مكان الجميع»[3].

وقال الغزالي ﷺ: «التوحيد: هو أن يرى الأشياء كلها مِن مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مُسَخَّرة لا حكم لها، فالمصدق بهذا موقن»[4].

وقال الجنيد: «سئل بعض العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين، فقال السائل: بَيِّن لي ما هو، فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل وحده لا شريك له، فإذا فعلت ذلك فقد وحَّدْتَه»[5].

ولا منافاة بين التوحيد والقدر، فالتوحيد فعل الله وصفته وحقوقه، والقدر خلق الله وأمره، فمشيئة العبد داخلة في مشيئة الله.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٤٥٠).

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/ ٢٩٢).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٦٥).

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٧٤).

(٥) الرسالة القشيرية (١/ ٢٦).

وقيل: «التوحيد إسقاط الياءات، لا تقول: لي وبي ومني وإليّ»[1].

المنازل المرتبطة بمنزلة التوحيد

التوحيد واليقين:

قال أبو الحسين الوراق: «اليقين ثمرة التوحيد، فمن صفا في التوحيد صفا له اليقين»[2].

فضل التوحيد وثمراته

١. الانتفاع بشفاعة الشافعين:

للنبي ﷺ شفاعات تخصه؛ كشفاعته لِفَصل الخطاب، وشفاعته في دخول أقوام الجنة بغير حساب، وشفاعته في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، وهناك شفاعات يشاركه فيه الملائكة والنبيون والصالحون، كالشفاعة لأهل الكبائر ممن دخلوا النار أن يخرجوا منها[3]، فمن مات على التوحيد، فإنه رُجيَ له الخلاص من النار، ولو بعد حين[4]، «وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يقروا بالتوحيد الذي جاء به، لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها»[5].

وفي الحديث عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٦٦).

(٢) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ٢٣٠).

(٣) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٨٨-٢٩٠).

(٤) ينظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص: ٢٦٣).

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ١٥٤).

يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه»(١).

٢. النجاة من كرب الدنيا والآخرة:

من فضائل التوحيد وثمراته أن من توسل به -وإن لم يقم بحقه- أنجاه الله به من كرب الدنيا، فقد وصف الله حال المشركين بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فالتوحيد مَفْزَع أعداء الله وأوليائه؛ فأما أعداؤه فيُنجِيهم مِن كَرْب الدنيا وشدائدها؛ وأما أولياؤه فيُنجيهم به مِن كُرُبات الدنيا والآخرة وشدائدهما، فما دُفِعَت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد(٢).

مراتب منزلة التوحيد

١. توحيد العامة:

سائر القُرَب يمكن أن تُوصف بأن فيها عامًّا وخاصًّا؛ فالصلاة والصيام الحج والذكر وغيرهم من العبادات تنقسم لعام وخاص، وهو في معنى الإجزاء والكمال، فالقدر المجزئ هو العام، وقدر الكمال هو الخاص.

فتوحيد العامة: هو قدر يشترك فيه كل المسلمين، بمقتضى تلفظهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله. وهو القدر الذي يستحق صاحبه دخول الجنة، وإن أصابه قبل ذلك من عذاب الله ما أصابه(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٤٩) برقم: (٩٩).
(٢) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٧٢-٧٣).
(٣) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٥٩).

٢. توحيد الخاصة:

هٰذه المرتبة مِن التوحيد هو ما بذل فيها العامل نُصْحَه وقصده بحيث يوقعها علىٰ أحسن الوجوه وأكملها، فالمسلمون كلهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وتفاوتهم في معرفتهم بمضمون هٰذه الشهادة وقيامهم بحقها باطنًا وظاهرًا أمرٌ لا يحصيه إلا الله عز وجل[1].

طرق اكتساب التوحيد

١. تدبر القرآن:

مَن تدبر آيات القرآن علم أن القرآن كله توحيد، «والقرآن مملوء من هٰذا التوحيد، والدعوة إليه، وتعليق النجاة والسعادة في الآخرة به. وحقيقته: إخلاص الدين كله لله. والفناء في هٰذا التوحيد مقرون بالبقاء، وهو أن تثبت إلهية الحق تعالىٰ في قلبك، وتنفي إلهية ما سواه، فتجمع بين النفي والإثبات؛ فالنفي هو الفناء، والإثبات هو البقاء، وحقيقته: أن تفنىٰ بعبادته عن عبادة ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وكذٰلك بموالاته، وسؤاله، والاستعانة به، والتوكل عليه، ورجائه ودعائه، والتفويض إليه، والتحاكم إليه، واللجأ إليه، والرغبة فيه»[2].

٢. التأمل في مخلوقات الله:

مما يعين العبد علىٰ معرفة ربه، وتوحيده جل وعلا التدبر في مخلوقات الله تعالىٰ، فرؤية الإتقان في الخلق، ووحدة الصنعة فيه تجعل العبد يوقن بوحدانية الله تعالىٰ، فلو نظر إلى السماء لرأىٰ عظمة الخلق، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٩).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٥٠٠).

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فانظر إلىٰ هٰذا البناء الشديد العظيم الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وانظر إلى الأرض كيف خلقت، فهي مِن أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقَها سبحانه فراشًا ومِهادًا، وذلَّلها لعباده؛ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ [الرعد: ٤]، قال بعض السلف: «حقٌّ على الناس أن يَخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها، فينظروا إليها»[(١)].

وينبغي للعبد أن ينظر في نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١][(٢)]، «فتقع اليقظة بمجرد فكرٍ يوجبه نظر العقل، ويلمح الإنسان وجود نفسه، فيَعلم أن لها صانعًا، وقد طالبه بحقه، وشكر نعمته، وخوفه عقاب مخالفته»[(٣)].

«فهٰذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهٰذا مِن أعظم آيات الله وعجائب صنعه؛ فيا له من سَفَرٍ ما أَبْرَكَه وأروحه، وأعظم ثمرته وربحه، وأجَلَّ مَنفعته وأحسنَ عاقبته!»[(٤)].

٣. معرفة نعمة التوحيد:

فهو نعمة يوفِّق الله لها أولياؤه، فهم بين مَشْهد الامتنان بعطاء الله وتوفيقه، وبين خوف التقصير الذي قد يوجب ذهاب النعمة، «فشهوده توحيد الرب تعالىٰ وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعانة به ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه، وذٰلك يُدْنِيه مِن عَتَبة العبودية، ويَطرحه بالباب فقيرًا عاجزًا مسكينًا، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٥٨٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق (٢/ ٥٦٩).

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٦٦).

(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٥٦٩).

وشهوده أمره تعالىٰ ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الجد والتشمير، وبذل الوسع، والقيام بالأمر، والرجوع علىٰ نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير، فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنة العظيمة، وبين شهود التقصير والإساءة منه وتَطَلُّب عيوب نفسه وأعمالها»(١).

علامات تحقيق التوحيد

١. طمأنينة القلب:

القلب ينتفع من التوحيد، فبه يطمئن ويسكن، ويعيش نعيمًا لا انقطاع له في الدنيا ولا في الآخرة، وفي هٰذا المعنىٰ يقول ابن القيم: «والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب؛ فروعها الأعمال، وثمرها طِيْبُ الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة؛ فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذٰلك»(٢).

«ولا أنفع للقلب مِن التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أَضَرَّ عليه من الإشراك، فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة إياك نعبد، مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة إياك نستعين كان هٰذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هٰذا»(٣).

وأهل التوحيد مهما تقلبت بهم الأحوال يركنون إلىٰ رب كريم يستشعرون قربه وكلاءته، «فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهٰذا، إيمانًا به، وقبولًا له، ولم يستقرّ ذٰلك الإيمان في قلوبهم، حتىٰ إذا كان وقت الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت، واشتغلت عن خالق الأشياء، ومالك الملوك، وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان في قلوبهم سكنت القلوب، واطمأنت النفوس إلىٰ ضمان ربها،

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٣٥٥).

(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٤٠).

(٣) الزهد والورع والعبادة لابن تيمية (ص: ٨٣).

وقربه منهم، وقدرته عليهم»[1].

٢. فتح باب الاستعانة بالله:

«فشهوده توحيد الرب تعالىٰ وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعانة به ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه»[2].

الآفات التي تؤثر في التوحيد

١. اتباع الهوىٰ:

هناك تضادّ بين تَلَبُّس العبد بحقيقة العبودية، وبين اتِّباعه لهواه، بل كاد الهوىٰ أن يُصبِح صنمًا، وفي هٰذا المعنىٰ يقول ابن القيم: «التوحيد واتباع الهوىٰ متضادان؛ فإن الهوىٰ صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام، وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجَسَّدة، وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولًا»[3].

٢. الظلم:

قال ابن القيم أيضًا: «وكذٰلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة؛ فإن الشرك أظلم الظلم؛ كما أن أعدل العدل التوحيد؛ فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهٰذا يجمع سبحانه بينهما؛ أما الأول ففي قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأما الثاني فكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[4].

---

(١) أدب النفس للحكيم الترمذي (ص: ١٧).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم (١/ ٣٥٥).

(٣) روضة المحبين لابن القيم (ص: ٦٤٣).

(٤) الفوائد لابن القيم (١/ ١١٧).

نماذج من توحيد السابقين لله

١. يونس بن متىٰ ﷺ:

وقد أنجاه توحيده والتجاؤه إلى الله من بطن الحوت، فقد نادىٰ ربه بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فكشف الله كربَه، وقد أوصى النبي ﷺ بالدعاء بهذا الدعاء عند الكرب؛ فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يَدْعُ بها رجل مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استجاب الله له»(١).

٢. خالد بن الوليد:

في فتح قنسرين كَمَن خالد بأصحابه، ودهمهم جبَلَة ومَن معه مِن مُتَنَصِّرةِ العرب، حتىٰ قال بعض أصحاب خالد واصفًا كثرتهم: ألا ترىٰ أنهم بعدد الحجر والشجر! ولما جاء بطريقهم وسلم عليهم بالمسيح، نهره خالد وجبهه بكلمة التوحيد، ولما أحاط الكفار بخالد ومَن معه وهم قلَّة، وبرز أصحاب رسول الله عليه وسلم وسَلَّ الكفار السيوف علىٰ أصحابه، وارتفعت الضجة والجلبة، وأعلن العدو بكلمة الكفر وضج المسلمون بكلمة التوحيد، صاح خالد بأصحابه أصحاب رسول الله ﷺ: كونوا حولي واحموا عني واصبروا علىٰ ما نزل بكم، ولا يكثر عليكم مَن أحدق بكم؛ فإن أشدَّ ما تخافون منه القتل، والموتُ مَنيَّة

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٥) برقم: (١٨٦٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ والنسائي في الكبرىٰ (٩/ ٢٤٣) برقم: (١٠٤١٧)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٨٤) برقم: (٣٥٠٥)؛ وأحمد في مسنده (١/ ٣٦٦) برقم: (١٤٨٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٨): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، وهو ثقة».

خالد في سبيل الله، وإني والله أهديت نفسي للقتل مرارًا لَعَلِّي أُرْزَق الشهادة، واعلموا رحمكم الله أن حجتنا واضحة ومفوضة إلى الله عز وجل، وكأني بكم وقد وصلتم إلىٰ ربكم وسكنتم دارًا لا يموت ساكنها، ثم قرأ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨][1].

المقترحات العملية والتدريبات

١. تأمل سورة الفاتحة؛ كيف ذكرت المغضوب عليهم والضالين، وذكر الله أهل إياك نعبد وإياك نستعين بوصف أنعمت عليهم.

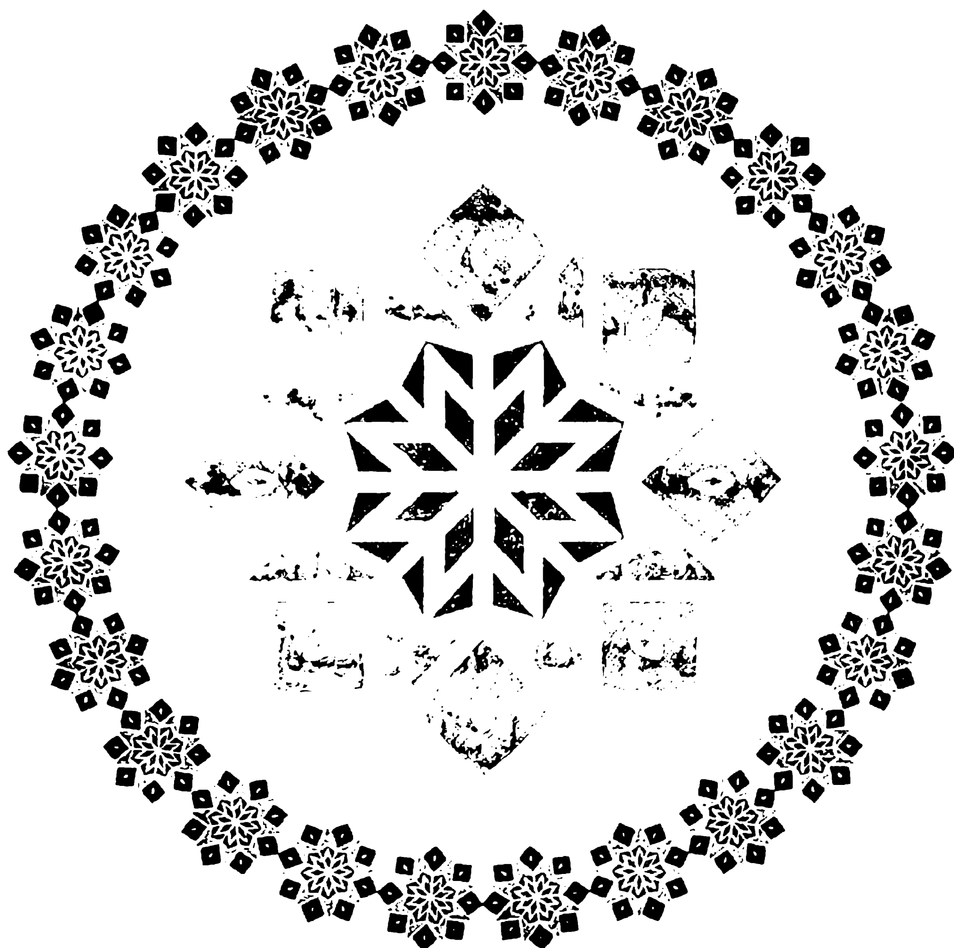
٢. قف عند أحوال الأنبياء خصوصًا، ففي أحوالهم العجب من تحقيق التوحيد، وحُسن التوكل، وهو يجمع بين الاعتراف بنعمة الله على العبد، وتقصير العبد في جنب الله، وشدة افتقار العبد لربه لجبر نقصه، ويظهر جليًّا في مشهد صاحب حديث سيد الاستغفار، ومشهد آدم ﷺ، إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ومشهد أول الرسل نوح، إذ يقول ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧][2].

٣. لاحِظ اعتماد قلبك عند مباشرة الأسباب؛ كسعيك في طلب الرزق: هل اعتمادك علىٰ سببك الذي تبذله، أم أن اعتمادك وتعلق قلبك بمسببه؟

(١) ينظر: فتوح الشام لأبي عبد الله الواقدي (١/ ١١١).

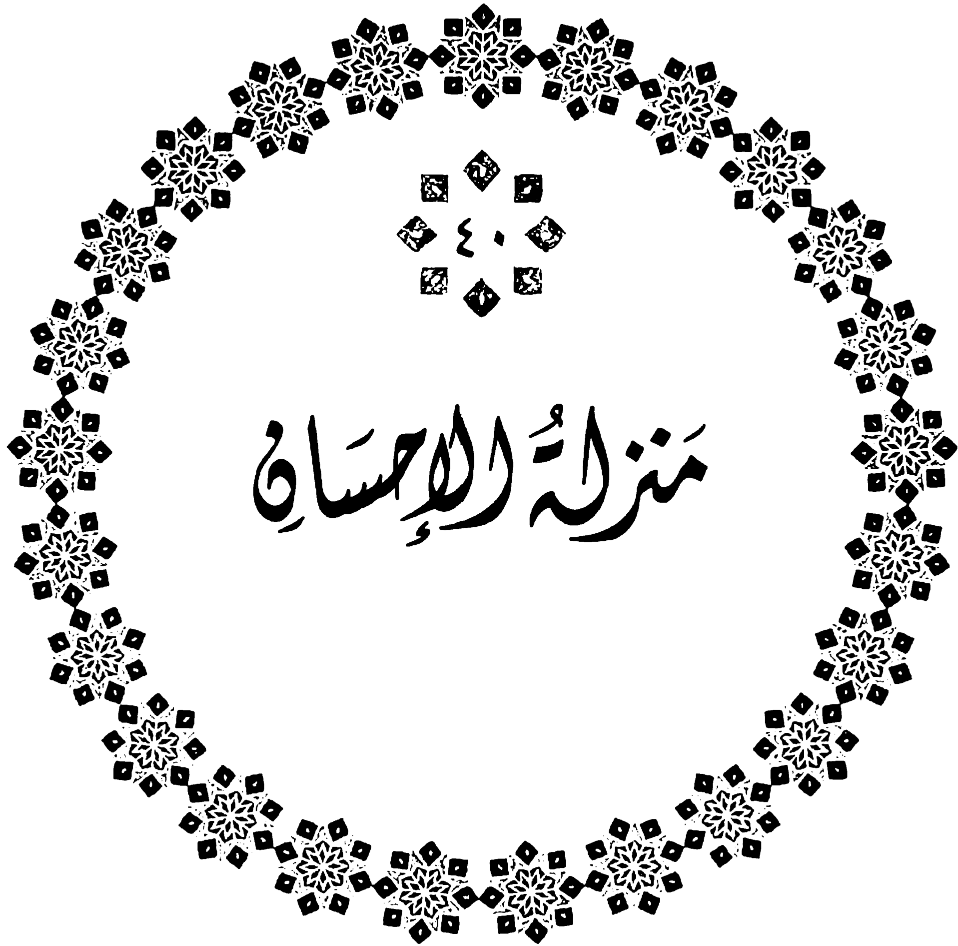
(٢) ينظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٤٤٨).







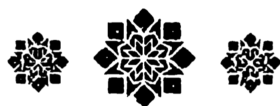


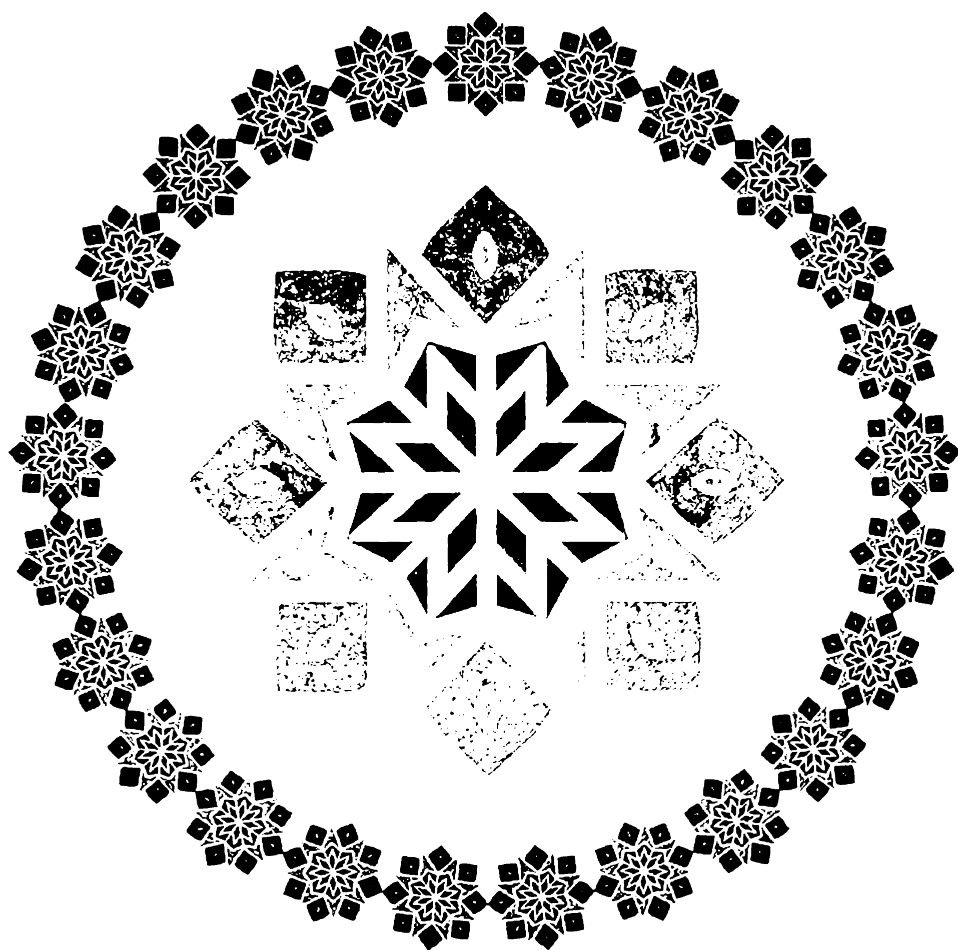


٤٠

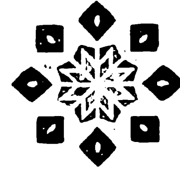
منزلة الإحسان











منزلة الإحسان



بين يدي الإحسان

الإحسان أساس مكين من أسس الدين؛ وأحد أركان بنائه الراسخ المتين، ومتمِّمُ لَبِنَاتِ اليقين، وهو المِضْمَار الذي يتسابق فيه أهلُ المجاهدة؛ لِنَيل قَصَب السَّبْق في سيرهم إلى الله تعالىٰ رب العالمين.

فما فاز مَنْ فاز بالسَّبَق في مراتب المقربين، ولا وصل مَنْ وصل إلىٰ نهايات منازل السالكين إلا بالتحقق بهٰذا المقام العظيم؛ إذ التفاوتُ في رفعة المنازل والدرجات إنما يكون حسب التحقق بهٰذا المقام العظيم؛ لأن السالك إلى الله تعالىٰ يمر بميدان هٰذا المقام في بداية سيره ونهايته، ويستحضره في سائر المنازل، فكلٌّ يتبوأ منزله ومقامه بمقدار سيره بميدانه، وسبقه في مقاماته، ولذا كانت رايةُ المنازل كلها مركوزةً في منزلة الإحسان، ومنضويةً تحت لوائها.

والإحسان ينقسم إلىٰ قسمين؛ الأول: إحسانٌ قلبي يقيني، وهٰذا هو المقصود في كتب التزكية والتصوف، والثاني: إحسان عملي ظاهري، وهو إما فعل كل خير؛ كالإحسان إلى الوالدين، أو إلى الجار؛ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحسن إلىٰ جاره»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٠) برقم: (٤٧).

وإما الإتيان بالعمل على وجه الإتقان؛ قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وكقوله ﷺ: «إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء»(١)، وحديث: «إنَّ الله عز وجل يُحِبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتْقِنَهُ»(٢).

ومن أعلى درجات الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى هذا بفعله، ومن أبرز مواقف إحسانه ﷺ قوله لأهل مكة بعد الفتح: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(٣).

حقيقة الإحسان

تعريف الإحسان لغة:

«الإحسان: ضد الإساءة»(٤)، وهو: «فعل ما ينبغي أن يُفعل مِن الخير»(٥)، وقال الراغب: «والإحسان يقال على وجهين؛ أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان، والثاني: إحسان في فعله»(٦)، وهو الإتقان؛ كما في الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»(٧).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٧٢) برقم: (١٩٥٥).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٣٤٩) برقم: (٤٣٨٦)؛ والطبراني في الأوسط (١/ ٢٧٥) برقم: (٨٩٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٩٨): «رواه أبو يعلى، وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وقال: رواه الطبراني، وفيه قطبة بن العلاء وهو ضعيف، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وجماعة لم أعرفهم».

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ١٩٩) برقم: (١٨٢٧٥).

(٤) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ١١٧).

(٥) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون للتهانوي (١/ ٣٨).

(٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٢٣٦).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٧٢) برقم: (١٩٥٥).

الإحسان اصطلاحًا:

لم يتجاوز العلماء في تعريفهم للإحسان المعنى الذي بينه النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، فبه عرَّفوه، ومن هٰذه التعاريف؛ تعريف الشيخ الهروي؛ قال: «اسم جامع نبوي يجمع أبواب الحقائق؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه»[2]، وكذٰلك عرفه الإمام ابن رجب الحنبلي: «بأن يعبد المؤمن ربه علىٰ وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته»[3].

ويستفاد من هٰذه التعاريف: أن الإحسان استحضار قلبي لعظمة الله تعالىٰ ومقامه سبحانه، إلا أن هٰذا لا يعني أن ليس له نصيب من العمل الظاهري، بل له اتصال وثيق به؛ إذ لا يمكن تحقق العبد باستحضار مقام الله تعالىٰ في أداء الأعمال إلا بقيامه بوظائف الدين علىٰ أكمل أحوالها، وأجمل أمورها، وأحسن أصولها وفروعها؛ التي تشتمل علىٰ أعمال الظاهر والباطن[4]، فإذا كان أداء الأعمال على الوجه المطلوب شرعًا فعند ذٰلك يتحقق الاستحضار القلبي للعبد، كأنه يرىٰ من يعمل له أو يتراءاه[5].

المعاني القريبة والمنازل ذات الصلة

من المنازل القريبة من منزلة الإحسان:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٢٨) برقم: (٨).

(٢) منازل السائرين لأبي إسماعيل الهروي (ص: ٧٥).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٢٦).

(٤) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٣٨٣).

(٥) ينظر: محطات في محبة الله تعالىٰ لبشار محمد رضا قهوجي (ص: ٨٩).

١ . اليقين: هو أصل الإحسان؛ لأن اليقين يرجع إلى الإيمان، والإيمان سابق على الإحسان.

٢ . المشاهدة والمراقبة: وهما مرتبتان للإحسان؛ كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

٣. المحاسبة والمعرفة: فالمحاسبة هي الطريق الموصل إلى الإحسان، والمعرفة هي الثمرة التي تنتج عنه.

فضل الإحسان وثمراته

أولًا: فضل الإحسان

١ . الإحسان مقام الرسل والأنبياء:

مما يدل علىٰ فضيلة الإحسان ورفعة منزلته: أن الله تعالىٰ وصف النبيين والمرسلين به في سورة الصافات، وذلك بعد أن ورد ذكر قصص عدد من الرسل عليهم الصلاة والسلام: نوح وإبراهيم وموسىٰ وهارون وإلياس عليهم الصلاة والسلام، جاء عقب كل قصة نبي منهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]، فمقام الإحسان مقام الرسل الكرام ﷺ.

وقد ذكر القرآن الكريم مواقف متعددة من استحضار رسل الله تعالىٰ لقربهم من الله تعالىٰ ومعيته معهم؛ ومن هذا قول النبي ﷺ لأبي بكر في الغار؛ ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وذلك لما قال أبو بكر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلىٰ قدميه لرآنا[1]؛ وكذا قول موسىٰ عليه السلام لما قال له قومه إنا لمدركون: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٤) برقم: (٣٦٥٣)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ١٠٨) برقم: (٢٣٨١).

٢. ثناء الله على المحسنين:

ومما يدل علىٰ فضيلة هٰذه المنزلة ثناء الله تعالىٰ على المحسنين ومدحهم، وتخصيصهم بالمحبة والقرب منه تعالىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، إذ عِظَم الجزاء مترتب علىٰ عِظَم العمل المجازىٰ عليه، وهو دالٌّ أن الإحسان من أعلىٰ درجات الأعمال التي يُتَقَرَّب بها إلى الله تعالىٰ.

ثانيًا: ثمرات الإحسان

١. الخوف والخشية:

وهٰذه أهم ثماره التي يحصل العبد عليها؛ ويدل علىٰ هٰذه الثمرة قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]؛ فقد جاءت هٰذه الآية في ختام الحديث عن الخوف من مقام الرب تبارك وتعالىٰ، فسمى الخوف من مقامه ﷻ إحسانًا، ويوافقه تفسير النبي ﷺ للإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»، يشير إلىٰ أن العبد يعبد الله علىٰ هٰذه الصفة، وهي استحضار قربه وأنه بين يديه كأنه يراه، وذٰلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، وجاء في رواية أبي هريرة: «أن تخشى الله كأنك تراه»[1]، وقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت»[2]، ومراده في السر والعلانية حيث يراه الناس وحيث لا يرونه،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٠) برقم: (١٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/ ٤٩٨٣) برقم: (٢١٧٥٠)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٥٢٦) برقم: (١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أسألك خشيتك في الغيب والشهادة»[1][2].

٢. كمال الحضور مع الله ومراقبته والذهول عن جميع الأكوان:

وذلك لاستغراق الروح في تجليات الجلال والجمال، فلا ترى مع الله أحدًا، وتتصف بالمحبة والفناء التام، ثم الوصول إلى المكاشفة والمعاينة والسرور والغيرة والحياة المؤذنة بالبقاء الدائم.

٣. كمال تصفية الروح:

فلا تزال الروح ترقى في غاية المعارف حتى تصل إلى خلوص السر والعلانية لله تعالى، فيحصل له بذلك انكشاف عوالم الأسرار والملكوت، ورؤية الملائكة الأطهار[3]؛ كما قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم»[4]، وقد بلغ بعض الصحابة من كمال التصفية أنه كان يسمع تسليم الملائكة[5].

٤. الحفظ من الوقوع في المعاصي:

وذلك بحفظ الجوارح من الوقوع في المخالفات الظاهرة، وحفظ الباطن عما سوى الله تعالى، كما قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك»[6]، ولذا قال بعضهم: «من راقب الله تعالى في خواطره عصمه الله تعالى في جوارحه»[7]، فمن حفظ الله تعالى بمراقبة أنفاسه وأوقاته، واشتغل به عما ما سواه حفظه ﷻ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٢٦٥) برقم: (١٨٣٢٥)؛ وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٥) برقم: (١٩١٧)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٤) برقم: (١٩٢٩)، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٤٠٧).

(٣) ينظر: الرسالة القشيرية (١/ ٣٣١)؛ بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٤٣٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٢٧٥٠).

(٥) وهو عمران بن حصين، كما أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤) برقم: (٣٨٦٥).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٩) برقم: (٢٨٠٣)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٤) برقم: (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٧) الرسالة القشيرية (١/ ٣٣٠).

في جوارحه من التمرد عليه في الأوامر والنواهي، فتكون منقادة لأمر الله تعالىٰ في كل وقت وحين[1].

٥. خلوص العبادة:

وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها، وقد وصى النبيﷺ جماعة من أصحابه بهٰذه الوصية، روي عن ابن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، فقال: «اعبد الله كأنك تراه»[2].

مراتب الإحسان

والحديث عن مراتب الإحسان هو في الواقع حديث عن حقيقته، وبيانٌ لموضوعه؛ إذ من خلال بيان مراتبه تتجلىٰ حقيقته وتتوضح، وأصل مراتبه مرتبتان؛ أولاهما: المراقبة، وأعلاهما: المشاهدة.

أولًا: المراقبة

بين يدي المراقبة

ورد ذكر ما يدل على المراقبة في القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد ورد في القرآن الكريم آيات متعددة تدل علىٰ هٰذه المرتبة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وهو يقتضي أن يستحضر العبد مراقبة الله تعالىٰ في أعماله وتصرفاته وأحواله، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٣٩٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/ ٢٩٧) برقم: (٦١٥٦)؛ والنسائي في الكبرىٰ (١٠/ ٣٨٩) برقم: (١١٣٠٨).

قال السراج: «والمراقبة لعبد قد علم وتيقن أن الله مطلع على ما في قلبه وضميره وعالم بذلك، فهو يراقب الخواطر المذمومة المشغلة للقلب عن ذكر سيده، كما قال أبو سليمان الداراني: «كيف يخفى عليه ما فيَّ؟ ولا يكون في القلوب إلا ما يلقي فيها، أفيخفى عليه ما هو منه!»[(١)]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقال سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]. ووردت الأحاديث الصحيحة بالندب إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات[(٢)]، وقد تقدم جملة منها في بيان ثمرات الإحسان؛ ومن ذلك قول النبي ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء»[(٣)]، وحديث: «لِيَستحي أحدكم من مَلَكيه الذين معه كما يستحي من رجلين من صالحي جيرانه وهما معه بالليل والنهار»[(٤)]، وقال أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[(٥)].

حقيقة المراقبة

لغة: من رقب، وهو: أصل واحد مطرد، يدل على انتصابٍ لمراعاة شيء، وراقب الله في أمره، أي: خافه[(٦)].

---

(١) اللمع للسراج الطوسي (ص: ٨٢).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٣٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٨) وقال: حديث غريب.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١٧٨) برقم: (٧٣٤٤)، وقال: إسناده ضعيف وله شاهد ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٦٤٩٢).

(٦) ينظر: الصحاح للجوهري (١/ ١٣٨)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٢٧).

واصطلاحًا: هي: «علم العبد باطلاع الرب ﷻ عليه، واستدامته لهذا العلم»[(١)].

قال أبو العباس البغدادي: سألت جعفر بن نصير عن المراقبة فقال: «مراعاة السر لملاحظة الحق سبحانه مع كل خطرة»[(٢)]، فمقام المراقبة هو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه، واطلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه، فهو مخلص لله؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل[(٣)].

فضل المراقبة

١ . المراقبة هي أساس التزكية:

المراقبة هي أول أسس التزكية، ومنها تبدأ تربية النفس وتهذيبها؛ كما قال الجريري: «أَمْرُنا هذا مبنيٌّ على فصلين: وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى، ويكون العلم على ظاهرك قائمًا»[(٤)]، ويدل على هذا قوله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قيل: هو إشارة إلى أن من شَقَّ عليه أن يعبد الله كأنه يراه، فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه، فليستحي من نظره إليه، كما قال بعض العارفين: «اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك»[(٥)].

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٣٢٩، ٣٣١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٣١).

(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٢٩).

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٣٣١).

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٤٢).

وقال بعضهم: «خف الله علىٰ قدر قدرته عليك، واستحي منه علىٰ قدر قربه منك»[1].

٢. المراقبة أفضل الطاعات وأصل الخيرات:

وهو ما أجاب به ابن عطاء لما سئل عن أفضل الطاعات؟ قال: «مراقبة الحق علىٰ دوام الأوقات»[2]، وهي أصل كل خير ومعروف، قال الإمام القشيري بعد أن ذكر حديث جبريل: «هٰذا الذي قاله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلىٰ حالة المراقبة؛ لأن المراقبة علم اطلاع الرب ﷻ عليه، فاستدامته لهٰذا العلم مراقبة لربه؛ وهٰذا أصل كل خير له»[3].

٣. المراقبة طريق المشاهدة:

وهي طريق للترقي في مراتب القرب من الله تعالىٰ، ويصل بها العبد إلىٰ رتبة المشاهدة؛ التي هي الرتبة العليا من الإحسان، ويدل علىٰ هٰذا قوله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فإن العبد إذا أُمِر بمراقبة الله في العبادة واستحضار قربه من عبده حتىٰ كأن العبد يراه، فإنه قد يشق ذٰلك عليه، فيستعين علىٰ ذٰلك بإيمانه بأن الله يراه، ويطلع علىٰ سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره، فإذا حقق هٰذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلىٰ قرب الله من عبده ومعيته، حتىٰ كأنه يراه[4]، قال بعض العارفين: «من لم يحفظ ما بينه وبين الله بالمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة»[5].

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٢٨- ١٢٩).
(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٣٣١- ٣٣٢).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٢٩).
(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٢٨- ١٢٩).
(٥) بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٣٨٦).

شروط المراقبة

١. القيام بجميع حقوق الله تعالىٰ سرًّا وعلانية، خالصًا من الأوهام صادقًا في الاحترام، سالمًا من الدعوىٰ.

٢. استرسال الروح في تَلَمُّح عالمها إعراضًا عما سوى الله تعالىٰ؛ لأن أدنى التفات إلىٰ غير الله تعالىٰ حجاب عن معنىٰ ما ينتظر من هبات روائح أنفاس المشاهدة.

٣. إقامة رسوم الشريعة أحسن إقامة؛ فهي شعار أهل العبودية، وهي الوسائل إلىٰ درك الحقائق الإلهية.

٤. التجافي عن الإشارات الواردة عليه مِن مراقبته؛ لأن ذٰلك شغل شاغل عن المقصود، وحجاب عن المراد[1].

مراتب المراقبة

الأولىٰ: حفظ السرائر عن الأغيار، فلا يكون في خاطر صاحب المراقبة سوى الله تعالىٰ، حيث يعلم أنه معه حيث كان، فلا يخشىٰ سواه، والله أحق أن يخشاه.

الثانية: مراقبة الحق بالحق في فناء الخلق، فيكون سيره وسلوكه إلى الله تعالىٰ مع استحضاره قرب الله تعالىٰ منه واطلاعه عليه؛ غائبًا عن ملاحظة أحد من الخلق، مع التمسك بالهدي النبوي ومتابعة النبي ﷺ في أفعاله وأخلاقه وآدابه.

---

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٣٨٧- ٣٨٨).

الثالثة: المراقبة مع التضرع إليه وسؤاله تعالىٰ أن يرعاه فيها، حيث يتجرد أهل المراقبة من حولهم وقوتهم، ويلتجؤون إلى الله تعالىٰ في أن يديم لهم هٰذا الحال؛ ولا يكلهم في جميع أحوالهم إلىٰ أحد، بل يتولىٰ أمرهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثانيًا: المشاهدة

بين يدي المشاهدة

المشاهدة هي أن يغلب نور الحق على القلب، وينتفي الإحساس بالنفس، ويغيب العبد عن ذكر ذاته بذكر ربه، فيكون مُخْتَطَفًا عن جملته باستيلاء الحق عليه، وكلما زادت درجة حضوره وشهوده زادت أجنبيته عن نفسه وعن الكون بالجملة(١)، فيتمكن من هٰذا المقام لتجرده عن الأوهام؛ فتفيض على الروح أنوار التجلي فيضًا متتابعًا مترادفًا، فيضًا يعم الروح ويغمره، وهٰذا هو معنىٰ أنه يرى الله تعالىٰ؛ أي من خلال الأنوار التي تفيض على القلب من نور الله تعالىٰ.

وليس معنى المشاهدة: النظر إلىٰ ذات الله تعالىٰ نظر عيان وإحاطة، كيف ولو تجلىٰ ﷻ للوجود كله أو بعضه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه! ويفهم هٰذا المعنىٰ من قوله ﷺ: «كأنك تراه»، فشبَّه اليقين الحاصل لأهل المشاهدة برأي العيان، ولا شك أن المشبه غير المشبه به، قال أبو القاسم الجنيد: «المشاهدة معاينة السر مع فَقْد الكيفية»، وقد اتفق أهل المعرفة أن الله تعالىٰ لا يتجلىٰ لأحد أوليائه إلا من وراء الحجب التي حجبها بها عن إدراك ذاته، وهٰذه

---

(١) ينظر: مرهم العلل المعضلة في الرد علىٰ أئمة المعتزلة لليافعي (ص: ٥٩).

الحجب راجعة إلى الخلق، لأنهم هم المحجوبون عنه، والله سبحانه منزه مقدس عن أن تكتنفه الحجب أو تحيط به الأستار[1].

ومما يشير إلىٰ مقام المشاهدة قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، قال أبو سعيد الخزاز: «فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه، وتلاشىٰ كل شيء؛ وغاب عند وجود عظمة الله تعالىٰ فلم يبق في القلب إلا الله عز وجل»[2].

وقال ﷺ في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه». وقال: «إن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يناجي ربه، أو إن ربه بينه وبين القبلة»[3]، وهٰذا بيان لقرب الله من عبده إذا قام في صلاته، وقال للذين رفعوا أصواتهم بالذكر: «إنكم لا تدعون أَصَمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا»[4]، والقرب منه تعالىٰ يقتضي المشاهدة، كما في الحديث: «يقول الله عز وجل: أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه»[5].

حقيقة المشاهدة

لغة: أصلها من شهِد، والمشاهدة: المعاينة، وشهد شهودًا؛ أي: حضره[6].

شرعًا: من أوضح التعبيرات عن معنى المشاهدة؛ ما قاله عثمان بن عمرو المكي: «أن تتوالىٰ أنوار التجلي علىٰ قلبه من غير أن يتخللها سترٌ وانقطاع»[7]،

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص:٤١٢-٤١٦).
(٢) اللمع للسراج الطوسي (ص: ١٠٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٩٠) برقم: (٤١٣).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٢) برقم: (٦٢٨٤).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا (٩/ ١٥٣)؛ وأحمد في مسنده (١٦/ ٥٦٨) برقم: (١٠٩٦٨).
(٦) مختار الصحاح للرازي (ص: ١٦٩).
(٧) الرسالة القشيرية (١/ ١٨٤).

أي: يتوالىٰ تجلي الأنوار الإلهية علىٰ قلب العبد باستمرار من غير أن يتخللها حجاب الغفلة أو يقطعها الانشغال بالأغيار؛ فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق فيها واتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهار، فكذٰلك القلب إذا دام به دوام التجلي أشرق ليله كالنهار»[1]، فالمشاهدة هي استحضار لجلال الله تعالىٰ وعظمته في القلب، فلا يغفل عنه سبحانه في حينٍ من أحيانه، ولا في حالة من أحواله، بل هو دائم الحضور مع الله تعالىٰ في أثناء مناجاته وعبادته، وفي سائر أعماله وأموره.

ثمرات المشاهدة

١. استنارة القلب ونفاذ البصيرة:

مقام المشاهدة مقام رفيع من مقامات القرب من رب العالمين ﷻ، إذ تقتضي المشاهدة أن يتراءى العبدُ ربَّه ﷻ بقلبه أثناء القيام بين يديه عز وجل، وهٰذا الاستحضار يجعل القلب متنورًا بالإيمان والبصيرة نافذة في العرفان، حتىٰ يصير الغيب كالعيان، وكلما قويت بصيرة العبد في هٰذا المقام علتْ رتبته في المشاهدة[2].

٢. الأُنس بالله:

إن العبد الذي يصل إلىٰ مقام المشاهدة يأنس بالله وبمناجاته، ويستثقل ما يشغله عنه من مخالطة الناس، قال بعضهم: «عجبت للخليقة كيف أَنِسَتْ بسواك! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبُها بذكر سواك!»[3].

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٨٤).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٢٩).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢١٣).

٣. حصول الاستلذاذ بالطاعة:

فمَن عبَدَ الله تعالىٰ مستشعرًا قربه، مستغرقًا في مشاهدة عظمته، حصل له التلذذ بالطاعة والراحة في العبادة، وانسدت عليه مسالك الالتفات إلىٰ غيره، وهٰذا هو حال النبي ﷺ، حيث قال: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»(١)، وهٰذه ثمرة امتلاء زوايا القلب من المحبوب.

شروط المشاهدة

١. استغراق الروح في عظمة الموجِد سبحانه، فيغيب عنها الشعور بالموجودات خطيرِها وحقيرِها، ظاهرِها وباطنها، أوائلها وأواخرها، فلا ترىٰ إلا الله سبحانه.

٢. كثرة ذكر الله تعالىٰ، وهو المشار إليه في حديث: «سبق الْمُفَرِّدون»، قالوا: ومن هم الْمُفَرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»(٢)، فيبلغ العبد بذٰلك الغاية في تصفية الروح.

٣. الالتزام بأحكام الشريعة ظاهرًا وباطنًا، ومراعاة الآداب النبوية، والحرص على الاقتداء بالنبي ﷺ في كل الأحوال؛ لأن هٰذا المنزل لا ينال بترك شيء من ذٰلك.

٤. التسليم لله تعالىٰ في أقداره وأحكامه كلها، من غير اعتراض علىٰ شيء منها، حتىٰ يرىٰ كمال الحكمة وتمامها فيما قدر سبحانه(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (١/ ٧٧٩) برقم: (٣٩٥٠)؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٧٦٤) برقم: (١٣٢٥٧)؛ والحاكم في مستدركه (٢/ ١٦٠) برقم: (٢٦٩١)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٦٣) برقم: (٢٦٧٦).

(٣) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص:٤١٩، ٤٢١).

مراتب المشاهدة

١. أن يشاهد الأشياء بعين الفكر والاعتبار:

فكلما نظر إلى شيء رأى بديع صنع الخالق المصور، وعظيم حكمته في الموجودات[1]؛ كما قال الحكيم الترمذي: «من مقامات التوحيد: من ازدادت مراقبتهم وقربت مشاهدتهم فرأوا الأشياء بالله ونظروا به إليها»[2].

٢. أن يستشعر أنه في قبضة الله تعالى:

فلا يبقى في سره وفكره إلا الله سبحانه.

٣. الانقطاع إلى الله:

وهي أعلى درجات المشاهدة ومراتبها؛ قال إبراهيم بن أدهم: «أن تنقطع إلى ربك، وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك، حتى لا ترجو إلا ربك ولا تخاف إلا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتى لا تؤثر عليها شيئًا، فإذا كنت كذلك لم تُبالِ في برٍّ كنت أو في بحر، أو في سهل أو في جبل، وكان شوقك إلى لقاء الحبيب شوق الظمآن إلى الماء البارد، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف»[3].

طرق اكتساب الإحسان

لا بد من سلوك الطرق التي توصل إلى الإحسان بقسميه؛ المراقبة والمشاهدة، وسنذكر أهم الطرق الموصلة إلى ذلك:

---

(١) ينظر: اللمع للسراج (ص: ١٠٠).

(٢) أبواب التصوف لمحمد الجيلاني (ص: ٢٥١).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٣٣).

١. العلم بالله تعالىٰ وبصفاته:

وأنه تعالىٰ قريب، وعلى الأعمال رقيب، وأنه علىٰ كل شيء شهيد، يعلم أحواله ويرىٰ أفعاله ويسمع أقواله[١].

٢. المحاسبة:

فإنه لا يكاد يصل إلىٰ هٰذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه علىٰ ما سلف له، وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله تعالىٰ مراعاة القلب، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس، وراقب الله تعالىٰ في عموم أحواله، عند ذٰلك يصل إلى المراقبة، فإذا دامت المحاسبة مع المراقبة وصل إلى المشاهدة[٢].

٣. التخلص من هوى النفس:

فلا مطمع في الوصول إلى المراقبة لمن بقيت له بقية من هوىٰ نفسه، ثم لا بد من الاستمرار في المراقبة وملازمة التقوىٰ حتىٰ يصل إلى المشاهدة؛ قال الجريري: «مَن لَمْ يحكم بينه وبين الله تعالى التقوىٰ والمراقبة لم يصل إلىٰ الكشف والمشاهدة»[٣].

٤. الذكر مطلقًا مع الحضور:

فداوم الذكر مع التفكر في عظمة الله واطلاعه توصل إلى المراقبة، ثم ما يزال يزيد في الذكر حتىٰ يصل إلى المشاهدة.

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٣٢٩).

(٢) ((الرسالة القشيرية (١/ ٣٢٩).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

ولا بد من الوقوف على جملة الأذكار التي ينبغي للعبد المواظبة عليها والإكثار منها، وليس في هذا المنزل عدد من الذكر يُرجع إليه؛ إنما هو استصحاب ذكر لا يفارقه، وهذه الأذكار على الترتيب الآتي:

١. «كلمة التوحيد»، مع الوقف على اسم الجلالة «الله»؛ لأنه بالوقوف على اسم الجلالة يشعر الذاكر بالخروج عن المخلوقات والتجرد عن الأكوان، تعويلًا على الخالق وركونًا إلى المكوِّن.

٢. الاستغفار؛ لأنه يدرأ به تبعات التقصير الظاهر له من حاله في صحوه بالنسبة إلى حال استغراقه، قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

٣. الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، إذ الصلاة على النبي ﷺ زكاة وطهر؛ فلا يزال العبد يزداد من التزكية والتطهر حتى يصل إلى المشاهدة.

٥. **أن يحافظ على ما يستديم به الوصلة ويرفع الحجاب:**

ولا يكون ذلك إلا بمواصلة ذكر الروح، والغيبة في معناها عن جميع الأوهام، والتزام الخلوة على الوجه الشرعي، والإقلال من الأكل والشرب إلى الحد الذي يقيم الظهر، ويرفع الهلاك[1].

علامات التحقق بالإحسان

١. دوام التجلي الإلهي على النفس وتواصل الواردات النورانية على الروح، مع الثبات على حمل أعبائها وعدم التذمر من ثقلها، واستدامة همة الروح

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٤٢٩ وما بعدها).

في الإعراض عن النظر إلى الأكوان والتعلق بالأغيار، غيرة على البصيرة أن تلمح سوى الحق سبحانه، فيذهل عن الخلق استغراقًا في الحق دائمًا.

٢. استمرار خوارق العادات والعطاءات الإلهية، مع التنزه عنها؛ وعدم التعلق بها والركون إليها، وعدم الإشارة إليها[١].

٣. الخوف من فوات حظه مما حصل عليه من أحوال؛ وما وصل إليه من مقامات، قال الجنيد: «من تحقق في المراقبة خاف على فوت حظه من ربه عز وجل لا غير»[٢].

٤. مراعاة أوامر الشرع وأحكامه، والالتزام بها، وإيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله عز وجل، وتصغير ما صغر، بصرف الهم إلى الله أبدًا بمراعاة الحقائق[٣].

٥. مواطأة الروح على معاني الذكر التي يأتي بها، فلا يأتي بها مع عدم الحضور أو مع الغفلة.

٦. الفهم للإشارات والوقوف بالأدب عندها والعمل بمقتضاها[٤].

الآفات التي تؤثر على الإحسان

١. رؤية النفس والعودة إلى الطبيعة البشرية والرغبات النفسية، وترك المقام الذي أقامه الله تعالى فيه.

---

(١) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٤٣٦).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٣٣٠).

(٣) ينظر: الرسالة القشيرية (١/ ٣٣٠).

(٤) ينظر: بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله المالقي (ص: ٤٠٤).

٢. الوقوف على الأشياء وتعيناتها قبل مشاهدة الحق؛ وذلك لأن وجودها الذهني سبق التوحيد، وهذا إنما يكون إما لضعف اليقين أو لعدم حضور القلب.

٣. انشغال القلب عن الله تعالىٰ بالخواطر والعلائق، وهذا إنما يكون بالغفلة عن الحق.

٤. عدم الاستحياء من الحق سبحانه، وذلك بتخلية النفس مع حظوظها واتباعها لأهوائها وشهواتها[1].

نماذج من تمثل الصالحين بالإحسان

١. سيدنا يوسف عليه السلام:

ومن أعظم قصص المراقبة ما قصه الله تعالىٰ علينا من نبأ نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام مع امرأة العزيز، ومراودتها له عن نفسه، إذ كانت الغفلة أعمت بصيرتها؛ وظنت أن يوسف كذلك يعتريه ما يعتريها؛ فدعته إلىٰ نفسها بعد أن أخذت أسباب الحيطة والحذر الظاهرة؛ فالمكان مهيأ، والأبواب مغلَّقة، ولا رقيب يرقبهم، وليس ثَمَّ عين ترمقهم، وما المانع له ولها من بعضهما، فهي امرأة العزيز التي يرغب بها كل أحد، ويوسفُ ذلك البدر الذي ينير القصر بطلعته، فلا يتلذذ بجماله غيرها؛ وظنون السوء بعيدة عنهما، فهو في بيت مولاه وسيده، لا تتطرق إليهما أدنىٰ تهمة، فالفرصة مواتية والوقت متاح، ونادته وهي في غمرات الغفلة والشهوة بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ إلا أنه قد جاءها الجواب بما لم يكن في حسبانها؛ بل لم يَدُرْ في خلدها أن تسمعه؛ إنه النداء العلوي الذي

(١) ينظر: أبواب التصوف لمحمد الجيلاني (ص: ٢٦١)، وما بعدها.

يصدح به يوسف المُخْلَص من الله رب العالمين: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]، حفظ الله في سره، فحفظه سبحانه في دينه، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٢. عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

ومن النماذج في حياة الصحابة: ما كان من حال سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في حضوره أثناء الطواف، فإن ابن عمر رضي الله عنهما كان يطوف حول الكعبة، وكان معه عروة بن الزبير؛ فكلمه عروة يخطب ابنته، فلم يجبه بشيء، ثم رآه بعد ذلك؛ فاعتذر إليه، وقال: «كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا»[(١)].

٣. راعي الغنم:

ومن القصص المشهورة في هذه المنزلة ما حصل من اختبار ابن عمر في أثناء سفره لراع غنم؛ وذلك أن عبد الله بن عمر لقي راعيًا بطريق مكة، قال له: «بعني شاة، قال: ليست لي، قال له: فتقول لأهلك: أكلها الذئب، قال: فأين الله! قال: اسمع، وافِنِي هاهنا إذا رجعت من مكة، ومُرْ مولاك يوافيني هاهنا، فلما رجع لقي رب الغنم واشترى منه الغنم، واشترى منه الغلام، فأعتقه ووهب له الغنم»[(٢)].

٤. أحد التلاميذ:

ومن القصص المعبرة عن هذه المنزلة: «أن بعض المشايخ كان له تلامذة، فكان يخص واحدًا منهم بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره، فقالوا في ذلك،

---

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١/ ٢٠٤) برقم: (٣٣٩)؛ وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٩)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٢٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في الزهد (ص: ٢٦٢)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٢٩) برقم: (٥٢٩١).

فقال: سأبين لكم، فدفع إلىٰ كل واحد من تلامذته طائرًا وقال له: اذبحه بحيث لا يراه أحد، ودفع إلىٰ هٰذا التلميذ المذكور أيضًا، فمضوا ورجع كل واحد منهم وقد ذبح طائره، وجاء هٰذا بالطائر حيًّا، فقال: هلا ذبحته، فقال: أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراه أحد، ولم أجد موضعًا لا يراه فيه أحد، -يشير إلىٰ رؤية الله وهو الواحد الأحد- فقال: لهٰذا أخصه بإقبالي عليه»[1].

المقترحات العملية والتدريبات

١ . الإكثار من مجالسة الصالحين ومرافقتهم، فإن في مجالستهم ومرافقتهم تذكير بالله تعالىٰ، ودرس عملي في الحياء من الله تعالىٰ.

٢ . حضور مجالس الذكر وتعاهد كلمة التوحيد، وتكرار قول: الله شاهدي، الله ناظر إلي الله معي، كما قال سهل التستري: «كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلىٰ صلاة خالي محمد بن سوّار، وكان يقوم بالليل، وكان يقول: يا سهل، اذهب ونم، فقد شغلت قلبي. وقال لي يوما خالي: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي. فقلت ذٰلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذٰلك، فوقع في قلبي حلاوة، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلىٰ أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل علىٰ ذٰلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوما: يا سهل، من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده لا يعصيه، إياك والمعصية»[2].

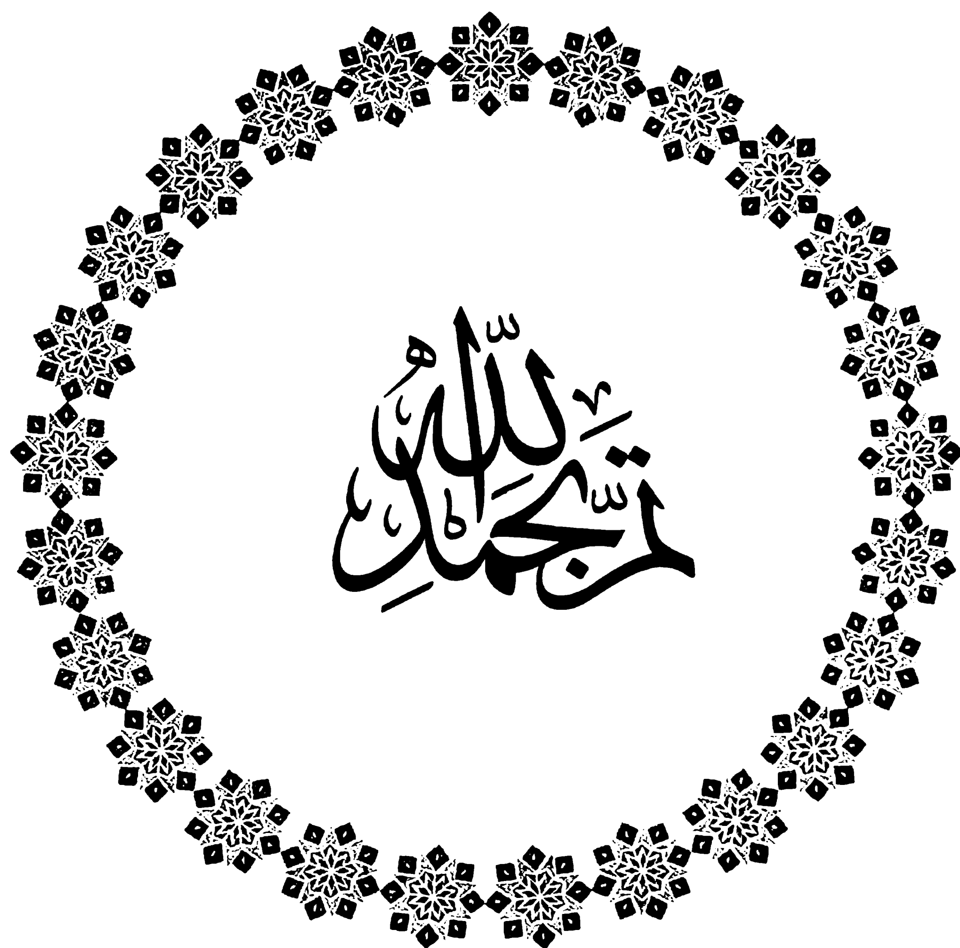
(١) الرسالة القشيرية (١/ ٣٣١).

(٢) تفسير التستري (ص: ٤).

٣. قراءة سِيَر الصالحين، وقصصهم في المراقبة والمشاهدة، فإن في القصص عبرة وتذكيرًا.

٤. قراءة كتاب (تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس) لابن عطاء الله السكندري، أو كتاب (العبادة المفقودة مراقبة الله تعالىٰ) لسعد بن سعيد الحجري، أو (رسالة المسترشدين) للمحاسبي، أو كتيب (هل أنت من المراقبين لله تعالىٰ) لزهري أحمد محمود.




الحمد لله

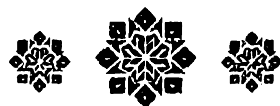


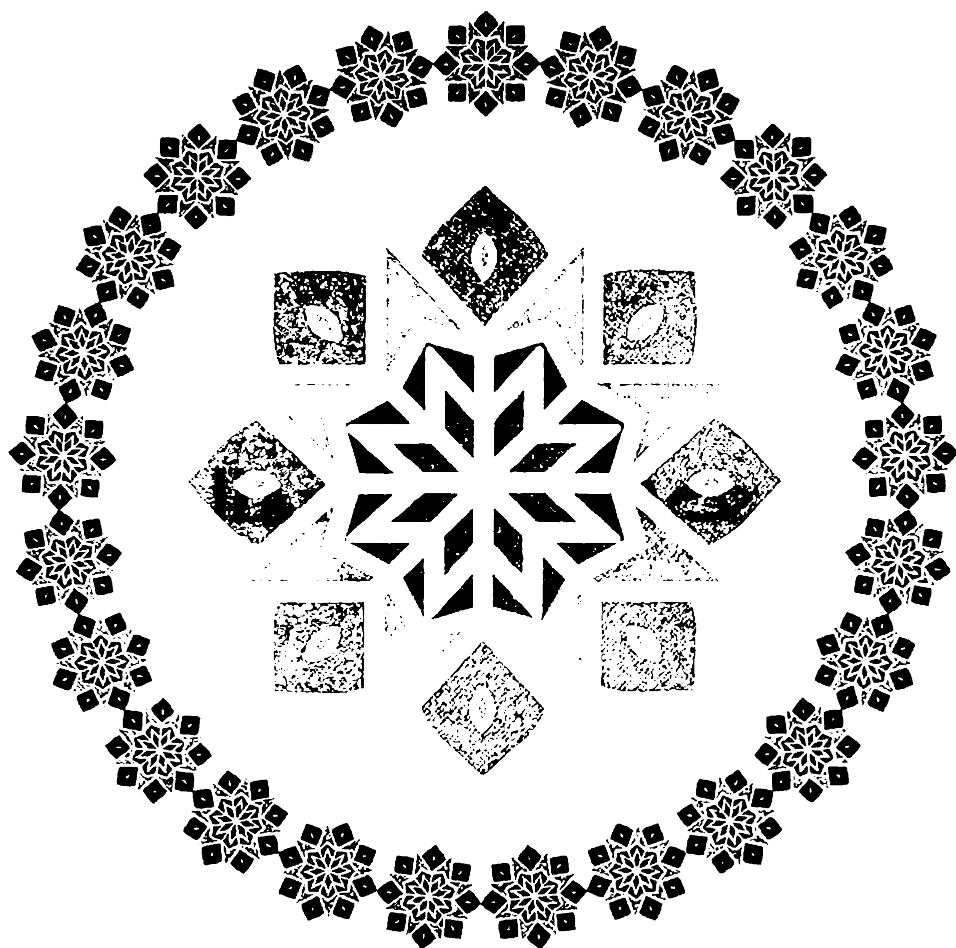




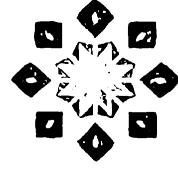
فهرس
المصادر والمراجع











فهرس المصادر والمراجع



١. الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، عبيد الله بن محمد بن بَطَّة العكبري، تحقيق رضا معطي وآخرون، دار الراية، الرياض.

٢. أبواب التصوف مقاماته وآفاته، محمد بن عبد القادر الكيلاني، شرح ميعاد شرف الدين الكيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٣. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

٤. آثار الاستعانة بالله تعالى وحظ الأولياء منها، الفريق العلمي في ملتقى الخطباء، خطبة منشورة على موقع ملتقى الخطباء.

٥. أحاديث إصلاح القلوب، عبد الرزاق البدر، مركز سطور للبحث العلمي، دار الإمام مسلم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٤٤هـ، ٢٠٢٣م.

٦. الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٧. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٨. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي، دار المنهاج، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٩. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي، دار نهر النيل للطباعة والنشر.

١٠. الإخلاص والنية، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، تحقيق إياد الطباع، دار البشائر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١١. الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٢. الأخلاق والسير في مداواة النفوس، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

١٣. الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح المقدسي، عالم الكتب.

١٤. آداب النفوس، الحارث المحاسبي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٥. أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

١٦. الأدب الصغير والأدب الكبير، عبد الله بن المقفع، دار صادر، بيروت.

١٧. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٨. الأذكار، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

١٩. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣هـ.

٢٠. الأساس في السنة وفقهها، العبادات في الإسلام، سعيد حوّىٰ، دار السلام، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٢١. أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٢٢. الاستذكار، يوسف بن عبد الله ابن عبد البر القرطبي، تحقيق سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

٢٣. الاستعانة بالله تعالى آثارها وثمارها، عبد العزيز بن محمد السدحان، خطبة الجمعة منشورة على موقع الألوكة.

٢٤. الاستعانة في القرآن، مقالة منشورة على موقع إسلام ويب، من غير ذكر اسم الكاتب.

٢٥. الاستقامة، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢٦. استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض الأنس، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، مطبوع ضمن مجموع رسائله، تحقيق طلعت الحلواني، دار الفاروق الحديثية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٧. أسد الغابة، علي بن محمد الجزري ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٢٨. الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢٩. اشتقاق أسماء الله، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣٠. اشتقاق أسماء الله، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣١. الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٣٢. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٣. الاطمئنان في القرآن بواعثه صوره العون عليه صفات أهله، محمد خير رمضان يوسف، نسخة إلكترونية منشورة على موقع منتدى العلماء، ١٤٤١هـ.

٣٤. إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٣٥. الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، عمر بن علي ابن الملقن، تحقيق عبد العزيز المشيقح، دار العاصمة ، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧م.

٣٦. أعمال القلوب، خالد السبت، دار ابن الجوزي، دمام، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.

٣٧. إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزير شمس، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٤٠هـ.

٣٨. الافتقار إلى الله تعالى لب العبودية، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، وكالة المطبوعات في البحث العلمي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤٣٢هـ.

٣٩. إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨ م.

٤٠. الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٤١. الأنس بالله تعالى، أحمد ناصر الطيار، مكتبة دار الحجاز، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٤٢. الأنس بالله، سامي بن عبد العزيز الماجد، خطبة منشورة على موقع ملتقى الخطباء، ١٥/ ٠٣/ ١٤٤٤هـ، ١١/ ١٠/ ٢٠٢٢م.

٤٣. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٤٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٥. أهمية البصيرة في الدين، عبد الرحمن صالح الجيران، مقالة منشورة في المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق بجامعة الأزهر، ج٣٤، ع٤، أكتوبر ٢٠٢٢م.

٤٦. الأولياء، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٧. الإيثار في القرآن والسنة، غصون غنام فايز نايف، رسالة ماجستير في قسم أصول الدين بجامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ٢٠١٤م.

٤٨. الإيجاز والإعجاز، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، مكتبة القرآن، القاهرة.

٤٩. إيقاظ الهمم في شرح الحكم، أحمد بن محمد بن عجيبة، دار المعارف، القاهرة.

٥٠. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي.

٥١. بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي، تحقيق محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٥٢. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الفاسي، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.

٥٣. البحور الزاخرة في علوم الآخرة، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، تحقيق عبد العزيز أحمد المشيقح، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٥٤. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، تصوير دار عالم الكتب، الرياض.

٥٥. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق علي العمران، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ.

٥٦. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٧. البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، عمر بن علي ابن الملقن، تحقيق مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٥٨. بستان العارفين، يحيى بن شرف النووي، دار الريان للتراث.

٥٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

٦٠. البصيرة في الدين، خالد بن عثمان السبت، درس مسجل صوتيًا ومفرغ كتابيًا علىٰ موقع الشيخ خالد السبت، ٢٥/ ٥/ ١٤٣٣هـ.

٦١. البصيرة في دين الله، أيمن الشعبان، مقالة منشورة علىٰ موقع طريق الإسلام، ٦/ ٨/ ٢٠١٤م.

٦٢. بغية السالك في أشرف المسالك، محمد بن محمد الساحلي المالقي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠٠٣م.

٦٣. بلاغات النساء، أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور، شرحه أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م.

٦٤. بهجة المجالس وأنس المجالس، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر.

٦٥. البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٦٦. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤م.

٦٧. تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزَّبيدي محمّد بن محمّد الحسيني، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٦٨. تاريخ الطبري= تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٦٩. التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن.

٧٠. تاريخ دمشق، علي بن الحسن ابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة، دار الفكر، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٧١. التبصرة، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٧٢. التبيان في آداب حملة القرآن، يحيى بن شرف النووي، حققه وعلق عليه محمد الحجار، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٧٣. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية، تونس.

٧٤. تحفة الإخوان في خصائص الفتيان، رسالة ضمن مجموعة آداب الطريقة وأسرار الحقيقة في رسائل عبد الرزاق القاشاني، ضبطها وصححها وعلق عليها عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.

٧٥. التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، عبد الرحمن بن أحمد السَلامي الحنبلي، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الطائف، دار البيان، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٧٦. التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق الصادق بن محمد، دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٧٧. التذكرة في الوعظ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي،

تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ.

٧٨. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق ابن تاويت الطنجي، عبد القادر الصحراوي، محمد بن شريفة، سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، الطبعة الأولىٰ.

٧٩. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ.

٨٠. التعرف لمذهب أهل التصوف، محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم الكلاباذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨١. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٨٢. تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المَرْوَزِي، تحقيق عبد الرحمٰن الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ.

٨٣. تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون إلىٰ آخر سورة السجدة، محمد بن الحسن بن فورك، دراسة وتحقيق علال عبد القادر بندويش (ماجستير).

٨٤. تفسير أبي السعود= إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٥. تفسير أسماء الله الحسنىٰ، عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢١هـ.

٨٦. تفسير التستري، سهل بن عبد الله التستري، جمع محمد أبو بكر البلدي، تحقيق محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولىٰ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٨٧. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم

٨٨. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٨٩. تفسير الماوردي= النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٠. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٩١. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح بن عبد الله الحَمِيدي، تحقيق زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٩٢. التفكر من المشاهدة إلى الشهود دراسة نفسية إسلامية، مالك البدري، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٩٣. التقوى في القرآن الكريم دراسة في التفسير الموضوعي، محمد الدبيسي، دار المحدثين، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٩٤. تلبيس إبليس، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٩٥. التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٩٦. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري، تحقيق بشار عواد معروف وآخرين، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٧م.

٩٧. تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٩٨. التنوير شرح الجامع الصغير، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تحقيق محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١ م.

٩٩. التهجد وقيام الليل، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، تحقيق فاضل الحمادة، دار أطلس الخضراء، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

١٠٠. تهذيب الأسماء واللغات، يحيى بن شرف النووي، تعليق ومقابلة شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠١. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠، ١٤١٣هـ)، (١٩٨٠، ١٩٩٢م).

١٠٢. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٠٣. التوابين، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٠٤. التوازن التربوي وأهميته لكل مسلم، مجدي الهلالي، دار السراج، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٠٥. التواضع والخمول، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،

١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٠٦. التوبة إلى الله معناها، حقيقتها، فضلها، شروطها، صالح بن غانم السدلان، دار بلنسية، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ.

١٠٧. التوضيح لشرح الجامع الصحيح، عمر بن علي ابن الملقن، دار الفلاح، ودار النوادر، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٠٨. التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، تحقيق عبد الخالق ثروت، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

١٠٩. التوكل على الله في القرآن الكريم، معتوقة بن محمد حسن الحساني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرىٰ، ٢٠٠١م.

١١٠. التوكل والاستعانة، عبد العزيز الداخل المطيري، دروس مفرغة علىٰ موقع ملتقىٰ أهل التفسير، ١٣/ ٨/ ١٤٣٣هـ، ٢/ ٧/ ٢٠١٢م.

١١١. التوكل، أبو يعلىٰ محمد بن الحسين المعروف بـ ابن الفراء، حققه وعلق عليه يوسف بن علي الطريف، دار الميمان، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٥هـ.

١١٢. التوهم في وصف أحوال الآخرة، الحارث بن أسد المحاسبي، مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

١١٣. تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولىٰ،١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.

١١٥. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

١١٦. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عبد النبي عبد الرسول الأحمد نكري، تعريب حسن هاني فحص، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١١٧. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق محمد الأحمدي، دار السلام، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

١١٨. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م

١١٩. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

١٢٠. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، مصورة من الطبعة السلطانية، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٢١. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٢٢ . الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١٢٣ . الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد عزير شمس وعلي العمران، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٤٠هـ.

١٢٤ . الجامع لعلوم الإمام أحمد، خالد الرباط وسيد عزت عيد، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٢٥ . جامع معمر بن راشد، رواية عبد الرزاق الصنعاني تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، نشره المجلس العلمي بباكستان، ووزعه المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

١٢٦ . الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.

١٢٧ . الجراثيم، ينسب إلىٰ عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق محمد جاسم الحميدي، وزارة الثقافة، دمشق.

١٢٨ . جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام علىٰ خير الأنام، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد النشيري، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

١٢٩ . جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٧م.

١٣٠ . الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد علي عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء

التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٣١. حاشية السندي كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي السندي، دار الجيل، بيروت.

١٣٢. حجة الله البالغة، الشاه ولي الله الدهلوي، تحقيق السيد سابق، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٣٣. حسن التنبه لما ورد في التشبه، نجم الدين محمد بن محمد الغزي، تحقيق لجنة مختصة إشراف نور الدين طالب، الطبعة الأولى، دار النوادر، دمشق، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٣٤. الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة»، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ضمن مجموعة رسائل ابن رجب، تحقيق طلعت الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٣٥. الحكم العطائية والمناجاة الإلهية، لابن عطاء الله السكندري، تحقيق يوسف بن محمود الحاج أحمد، مطبعة الفوال، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٣٦. حل الرموز ومفاتيح الكنوز، عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي، تحقيق محمد بوخنيفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٣٧. الحلم، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٣٨. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

١٣٩. حياة السلف بين القول والعمل، أحمد ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

١٤٠. خطوات إلى السعادة، عبد المحسن بن محمد القاسم، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ.

١٤١. خلق الإيثار معانٍ وأسرار، رمضان صالح العجرمي، مقالة منشورة على موقع الألوكة، ٢٧/ ٤/ ١٤٤٤هـ، ٢٢/ ١١/ ٢٠٢٢م.

١٤٢. خلق الرحمة، عبد الله البرح، خطبة منشورة على موقع ملتقى الخطباء، ١٦/ ٣/ ١٤٤٤هـ، ١٢/ ١٠/ ٢٠٢٢م.

١٤٣. خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

١٤٤. الخوف والرجاء في القرآن الكريم دراسة تحليلية، عبد الله أسود خلف الجوالي، دار الزمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٤٥. الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، دار الهدى والرشاد، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١٤٦. الداء والدواء، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الرابعة،١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

١٤٧. الداء والدواء، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٤٨. دُرَرُ الحِكَمِ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٤٩. دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

١٥٠. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد بن علان، اعتنىٰ بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١٥١. ديوان السهروردي المقتول، صنعه وأصلحه كامل مصطفى الشيبي، مطبعة الرفاه، بغداد ٢٠٠٥.

١٥٢. ديوان الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٥٣. ديوان اللزوميات، أبو العلاء المعري، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الهلال، بيروت، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٥٤. ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، المؤسسة العربية، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٥٥. ديوان عنترة بن شداد، دراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي.

١٥٦. ديوان نصيب بن رباح، جمع داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد.

١٥٧. الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١٥٨. ذم الهوىٰ، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد.

١٥٩. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن محمد المراكشي، تحقيق إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

١٦٠. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٦١. الرجاء في ضوء القرآن الكريم والأحاديث النبوية، محمد إلياس محمد عبد الرزاق، رسالة دكتوراه، جامعة كراتشي، باكستان، ٢٠٠٩م.

١٦٢. الرحمة في القرآن الكريم، أنور محمود المرسي خطاب، بحث قدم في المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام.

١٦٣. الرحمة والتراحم بين الخلق، أحمد عماري، خطبة منشورة على موقع ملتقى الخطباء، ١٦/ ٣/ ١٤٤٤هـ، ١٢/ ١٠/ ٢٠٢٢م.

١٦٤. الرد على الشاذلي في حزبيه، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٦٥. الرزق الحلال وحقيقة التوكل على الله، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق محمد عثمان الخشت.

١٦٦. الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

١٦٧. رسالة المسترشدين، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

١٦٨. الرضا عن الله بقضائه، عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق ضياء الحسن السلفي، الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٦٩ . الرعاية لحقوق الله، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة.

١٧٠ . الرقة والبكاء، أبو بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

١٧١ . روائع التفسير، عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جمع وترتيب طارق بن عوض الله، دار العاصمة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٧٢ . روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٣ . روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزير شمس، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

١٧٤ . رياض الصالحين، يحيى بن شرف النووي، تعليق وتحقيق ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١٧٥ . الرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية.

١٧٦ . رياضة النفس، محمد بن علي الحكيم الترمذي، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٧ . زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمٰن ابن الجوزي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٧٨ . الزهد، أحمد بن حنبل، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٧٩ . الزهد الكبير، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

١٨٠ . الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

١٨١ . الزهد والورع والعبادة، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق حماد سلامة، محمد عويضة، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٨٢ . الزهد وصفة الزاهدين، أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٨٣ . الزهد، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٨٤ . الزهد، أبو داود سليمان السجِستاني، رواية ابن الأعرابي عنه، تحقيق ياسر بن إبراهيم بن محمد، غنيم بن عباس بن غنيم، دار المشكاة، حلوان، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٨٥ . الزهد، أبو سفيان وكيع بن الجراح، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٨٦ . الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وضع حواشيه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١٨٧ . الزهد، المعافى بن عمران الموصلي، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٨٨ . الزهد، هَنَّاد بن السَّرِي الدارمي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٨٩. الزهد، وكيع بن الجراح، تحقيق عبد الرحمٰن الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٩٠. الزهرة، محمد بن داود بن علي الأصبهاني الظاهري.

١٩١. سر الأسرار ومظاهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، عبد القادر بن موسىٰ الجيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١٩٢. السكينة الخلق المفقود أسبابها موانعها ثمراتها، فيصل بن عبده قائد الحاشدي، دار القمة، دار الإيمان، إسكندرية، ٢٠١٧م.

١٩٣. السكينة في القرآن الكريم، هدىٰ بنت ديلجان الدليجان، مقالة منشورة في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١٩٤. السنة، عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٩٥. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الرسالة العالمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٩٦. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ.

١٩٧. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٩٨. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥.

١٩٩. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٠٠. السنن الكبرىٰ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن، الهند، الطبعة الأولىٰ، ١٣٥٥هـ.

٢٠١. السنن الكبرىٰ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢٠٢. سنن النسائي الصغرىٰ أو المجتبىٰ، أحمد بن شعيب النسائي، دار المعارف، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٢٠٣. سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور، دار الصميعي، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٢٠٤. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٠٥. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٢٠٦. السير، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري، تحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٧م.

٢٠٧. السيرة النبوية لابن هشام، جمال الدين عبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.

٢٠٨. الحكم العطائية شرح وتحليل، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

٢٠٩ . شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢١٠ . شرح الطيبي على المشكاة = الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٢١١ . شرح حديث عمار بن ياسر ﷺ، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دراسة وتحقيق طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢١٢ . شرح حديث لبيك اللهم لبيك، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق وليد عبد الرحمن محمد آل فريان، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٧م.

٢١٣ . شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى»، محمد بن علي بن آدم الإثيوبي الوَلَّوِي، دار المعراج الدولية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٤٢٤هـ.

٢١٤ . شرح صحيح البخاري، علي بن خلف ابن بطال، تحقيق ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢١٥ . شرح مراقي السعود المسمى «نثر الورود»، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ، ٢٠١٩م.

٢١٦ . شرح منازل السائرين، عفيف الدين سلميان التلمساني، تحقيق عبد الحفيظ منصور، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، دار التركي،

١٩٨٩م.

٢١٧. الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ، تحقيق عبد الله الدميجي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٢١٨. شُعَبُ الإيمان، أحمد بن الحسين، أبو بكر البيهقي، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الرياض، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢١٩. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الحاشية أحمد بن محمد بن محمد الشمني، دار الفكر، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٢٢٠. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق زاهر بن سالم، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٤١هـ، ٢٠١٩م.

٢٢١. الشكر، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق بدر البدر، المكتب الإسلامي، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

٢٢٢. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٢٣. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٢٢٤. صحيح ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، بترتيب علاء الدين بن

بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٢٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٢٢٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م.

٢٢٧. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الجيل، بيروت، مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في ١٣٣٤هـ.

٢٢٨. صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٢٢٩. الصفدية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٣٠. الصمت وآداب اللسان، عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقق أبو إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٣١. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق حسين بن عكاشة بن رمضان، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ، ٢٠٢٠م.

٢٣٢. صيد الخاطر، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٣٣. طبقات الأولياء، سراج الدين عمر بن علي ابن الملقن، تحقيق نور الدين

شريبه، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٢٣٤. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، هجر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٢٣٥. طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٣٦. طبقات الفقهاء الشافعية، عثمان بن عبد الرحمن أبو عمرو المعروف بابن الصلاح، تحقيق محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٢٣٧. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.

٢٣٨. طبقات المفسرين، محمد بن علي الداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣٩. الطريق السالم إلى الله، عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ، دار باب العلم.

٢٤٠. طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٢٤١. طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ.

٢٤٢. الطمأنينة النفسية كمتغير وسيط في العلاقة بين الانتماء الوطني وكل من التضحية وسلوك حماية الذات لدى القرآن الكريم، ياسرة محمد أيوب أبو هدروس، مقالة منشورة في مجلة جامعة الأقصى، ٢٠١٧م.

٢٤٣. الطمأنينة النفسية مفهومها وأهميتها، عبد الحكيم بوخلط ونور الدين زعتر، مقالة منشورة في مجلة المداد بجامعة زيان عاشور بالجلفة، ج٨، ع٢، ٣١/ ١٢/ ٢٠٢٠م.

٢٤٤. الطمأنينة النفسية وعلاقتها بالوحدة النفسية لدىٰ عينة من طلبة الجامعة، فهد بن عبد الله الدليم، مقالة منشورة في مجلة جامعة الملك سعود، ج١٨، ع٣، ٢٠٠٥م.

٢٤٥. الطمأنينة وغياب اليقين، مصطفىٰ عاشور، مقالة منشورة علىٰ موقع إسلام أون لاين.

٢٤٦. طوق الحمامة في الألفة والألاف، علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٢٤٧. الطيوريات، انتخاب: صدر الدين، أبي طاهر السِّلَفي أحمد بن محمد ابن إبراهيم سِلَفَه الأصبهاني، من أصول: أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار الطيوري، تحقيق دسمان يحيىٰ معالي، عباس صخر الحسن، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٤٨. العاقبة في ذكر الموت، عبد الحق بن عبد الرحمٰن الإشبيلي، المعروف بابن الخراط، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصىٰ، الكويت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٢٤٩. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقق إسماعيل بن غازي مرحبا، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٢٥٠. العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام، علي بن إبراهيم أبو الحسن

ابن العطار، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٢٥١. العظمة، محمد عبد الله المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٥٢. العقد الفريد، أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٢٥٣. العقل والهوى، محمد بن علي أبو عبد الله الحكيم الترمذي.

٢٥٤. عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٥٥. العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، دار الخاني، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٢٥٦. علو الهمة، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، دار القمة، دار الإيمان، مصر، ٢٠٠٤م.

٢٥٧. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥٨. عودة الروح ويقظة الإيمان، مجدي الهلالي، دار السراج، الطبعة الثانية، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

٢٥٩. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٦٠. عيون الأخبار، محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٦١. الغاية القصوىٰ في الكلام علىٰ آية التقوىٰ، عمر بن علي اللخمي المعروف بالفاكهاني، تحقيق محمد يحيىٰ بيدق، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢٦٢. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد السفاريني، مؤسسة قرطبة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢٦٣. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ.

٢٦٤. غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلّام بن عبد الله الهروي، تحقيق محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

٢٦٥. غريب الحديث، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٧هـ.

٢٦٦. الغريبين في القرآن والحديث، أحمد بن محمد الهروي، تحقيق ودراسة أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٢٦٧. الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، عبد القادر بن موسى الجيلاني، أو الكيلاني، تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.



٢٦٨. غيث النفع في القراءات السبع، علي بن محمد بن سالم أبو الحسن النوري الصفاقسي، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق أحمد محمود عبد السميع الحفيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٦٩. الفتاوى الكبرى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

٢٧٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، عناية محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢٧١. فتح الباري شرح صحيح البخاري، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق محمود بن شعبان وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٢٧٢. فتح الرحمن شرح زبد ابن رسلان، أحمد بن أحمد الرملي، عني به السيد بن شلتوت، دار المنهاج، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٢٧٣. الفتوة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا، عمر الدسوقي، مكتبة نهضة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٥٩م.

٢٧٤. الفتوة نشأتها وتطورها حتى سقوط الخلافة العباسية، أحمد محمد الخطيمي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٢٧٥. الفتوة، أبو عبد الرحمن محمد الحسين السلمي، تحقيق إحسان الثامري ومحمد القدحات، دار الرازي، عَمَّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٢٧٦. الفتوة، محمد بن أبي المكارم ابن المعمار البغدادي، تحقيق مصطفى جواد ومحمد تقي الدين الهلالي وعبد الحليم النجار وأحمد ناجي القيسي،

مكتبة المثنى، بغداد، مطبعة شفيق، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.

٢٧٧. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٢٧٨. فتوح الغيب، عبد القادر الجيلاني، تحقيق عبد العليم محمد الدرويش، دار الهادي، مكتبة دار الزاهر.

٢٧٩. الفتور مظاهره أسبابه سبل الوقاية والعلاج، ناصر بن سليمان العمر، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢٨٠. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.

٢٨١. الفروق= أنوار البروق في أنواء الفروق، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، عالم الكتب.

٢٨٢. الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٨٣. فضل علم السلف على الخلف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي.

٢٨٤. الفوائد السنية في شرح الألفية، شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماوي، تحقيق عبد الله رمضان موسى، مكتبة التوعية الإسلامية، الجيزة، دار النصيحة، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

٢٨٥. الفوائد والأخبار والحكايات عن الشافعي وحاتم الأصم ومعروف الكرخي وغيرهم، الحسن بن الحسين بن حمكان الهمذاني، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٢٨٦. الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٢٨٧. فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرىٰ، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٣٥٦هـ.

٢٨٨. قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق عبد الله البصيري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٢٨٩. قاعدة في المحبة، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

٢٩٠. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم عرقسوسي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢٩١. قصر الأمل، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٢٩٢. قصص الأنبياء، إسماعيل ابن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

٢٩٣. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩١م.

٢٩٤. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد، محمد بن علي أبو طالب المكي، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار

الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

٢٩٥. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد، محمد بن علي أبو طالب المكي، تحقيق محمد محمود الرضواني، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

٢٩٦. الكامل في التاريخ، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٢٩٧. كتاب الأفعال، سعيد بن محمد المعافري القرطبي المعروف بابن الحداد، تحقيق حسين محمد شرف، مؤسسة دار الشعب، القاهرة.

٢٩٨. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، ضبطه وصححه ورتّبه مصطفىٰ حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٢٩٩. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ.

٣٠٠. الكشكول، محمد بن حسين الهمذاني، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٣٠١. الكلم الطيب، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م.

٣٠٢. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسىٰ الحسيني القريمي الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة

الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٠٣. كن رحيمًا، مرفت عبد العزيز العريمي، مقالة منشورة على موقع عالم الثقافة، ٧/ ٤/ ٢٠٢٠م.

٣٠٤. كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر عبد الله بن أيبك الداوداري، تحقيق جماعة من المحققين، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٣٠٥. كيف نحب الله ونشتاق إليه، مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٣٠٦. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد الخازن، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١٥هـ.

٣٠٧. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، تحقيق اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٠٨. لطائف الإشارات تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة.

٣٠٩. اللمع، أبو نصر السراج الطوسي، تحقيق عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.

٣١٠. اللمع، أبو نصر السَّرَّاج الطوسي، تحقيق محمد أديب الجادر، دار الفتح، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.

٣١١. المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، البحرين، أم الحصم، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣١٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ.

٣١٣. مجمل اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق زهير سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣١٤. مجموع الفتاوىٰ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق عبد الرحمٰن بن قاسم، مجمع طباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

٣١٥. مجموع الفتاوىٰ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣١٦. محاسبة النفس، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، تحقيق مصطفى بن علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣١٧. المحبة لله سبحانه، إبراهيم بن عبد الله الختلِي، تحقيق عادل بن عبد الشكور الزرقي، دار الحضارة، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٣١٨. المحتضرين، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٣١٩. المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمٰن بن خلاد الرامهرمزي، تحقيق محمد محب الدين أبو زيد، دار الذخائر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٦م.

٣٢٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت،

الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢١. محطات في محبة الله تعالى، بشار محمد رضا قهوجي، دار الوراق، دمشق، ٢٠١٠م.

٣٢٢. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٣٢٣. المحيط في اللغة، الصاحب إسماعيل بن عباد، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٣٢٤. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، الدار النموذجية، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٢٥. مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٣٢٦. المخصص، علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٢٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٣٢٨. مدارج السالكين في منازل السائرين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي وآخرون، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية،

١٤٤١هـ، ٢٠١٩م.

٣٢٩. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

٣٣٠. مدخل منهجي لنظرية المعرفة في الفكر الإسلامي، محمد أحمد الزعبي، مقالة منشورة علىٰ موقع الحوار المتمدن، ٥/ ٥/ ٢٠١٩م.

٣٣١. المدهش، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٣٣٢. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، أبو المظفر يوسف بن قِزْ أُوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي، تحقيق محمد بركات وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٣٣٣. المرض والكفارات، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق عبد الوكيل الندوي، الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٣٣٤. مرهم العلل المعضلة في الرد علىٰ أئمة المعتزلة، عبد الله بن أسعد اليافعي، تحقيق محمود محمد محمود حسن نصار، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولىٰ،١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٣٣٥. المسالك في شرح موطأ مالك، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي، تحقيق محمد بن الحسين السليماني، وعائشة بنت الحسين السليماني، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٣٣٦. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

٣٣٧. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم

النيسابوري، تحقيق مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٣٣٨. مسلك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيى العدوي العمري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٣٣٩. مسلكيات، إبراهيم السكران، دار الحضارة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

٣٤٠. مسند ابن الجعد، علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٣٤١. مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٣٤٢. مسند البزار= البحر الزخار، أحمد بن عمرو البزار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٣٤٣. مسند الدارمي= سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٣٤٤. مسند الشاميين، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

٣٤٥. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٤٦. مسند عبد بن حميد= المنتخب من مسند عبد بن حميد، عبد الحميد بن حميد، دار عالم الكتب، بيروت، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ.

٣٤٧. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري الكناني، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٣٤٨. مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، محمد خازر المجالي، مجلة الشريعة والقانون، العدد الثالث، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٣٤٩. مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار القبلة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

٣٥٠. مصنف عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٣٥١. المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩هـ.

٣٥٢. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، دار الغيث، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.

٣٥٣. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٣٥٤. معالم التنزيل في تفسير القرآن، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.

٣٥٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد

عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٣٥٦. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٣٥٧. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣٥٨. معجم الصحابة، أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي، تحقيق محمد الأمين الجكني، مكتبة دار البيان، الكويت.

٣٥٩. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٦٠. المعجم الكبير، سلميان بن أحمد الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، تحقيق فريق من الباحثين.

٣٦١. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

٣٦٢. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٣٦٣. المعجم الوسيط، نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

٣٦٤. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس القزويني، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٣٦٥. معرفة الله تعالىٰ غاية مطالب البرية، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، مقالة منشورة علىٰ موقعه الرسمي.

٣٦٦. معرفة الله تعالىٰ ونبيه ﷺ ودين الإسلام، فهد بن بادي المرشدي، مقالة منشورة موقع الألوكة، ٢٢/ ٣/ ١٤٤١هـ، ٢٠/ ١١/ ٢٠١٩م.

٣٦٧. معرفة الله تعالىٰ، محمد المختار لوح، مقالة منشورة علىٰ موقع جماعة عباد الرحمٰن، ٢٦/ ٥/ ٢٠١٦م.

٣٦٨. المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، رئاسة ديوان الأوقاف، مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٤م.

٣٦٩. المعين علىٰ تفهم الأربعين، سراج الدين عمر بن علي ابن الملقن، تحقيق دغش العجمي، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، حولي، الكويت، الطبعة، الأولىٰ، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٣٧٠. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٣٧١. مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٣٧٢. المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود بن الحسن المشهورُ بالمُظْهِري، تحقيق ودراسة لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٣٧٣. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٣٧٤. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧٥. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، تحقيق صفوان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٧٦. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق محيي الدين مستو وآخرون، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٣٧٧. مفيد العلوم ومبيد الهموم، ينسب لأبي بكر الخوارزمي محمد بن العباس، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٣٧٨. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٣٧٩. مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل أو مختصر رعاية المحاسبي، العز بن عبد السلام، تحقيق إياد الطباع، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٣٨٠. مقال في جريدة المحجة تحت عنوان: خلق المجاهدة ومستلزماتها للدكتور عبد اللطيف الوغلاني، العدد (٣٥٦).

٣٨١. مقالة: مفهوم التقوى والمنظومة الأخلاقية القرآنية، البنية والسياق،

عبد الرحمن حللي، بحث مقدم لمركز المجموعات الرقمية لجامعة قطر.

٣٨٢. مقاييس اللغة = معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٣٨٣. مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٨٤. مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، أبو بكر محمد بن جعفر، تحقيق أيمن عبد الجابر البحيري، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٣٨٥. المكاسب والورع والشبهة، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق نور سعيد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٣٨٦. من طرق معرفة الله تعالى، محمد ريم، مقالة منشورة على موقع المرسال، ٢٢/ ٦/ ٢٠٢٢م.

٣٨٧. منارات السائرين ومقامات الطائرين، أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، تحقيق سعيد عبد الفتاح، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٣٨٨. منازل السائرين، عبد الله الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٨٩. مناقب الإمام أحمد، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

٣٩٠. مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

٣٩١. المنتخب من كتاب الزهد والرقائق، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٣٩٢. المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ.

٣٩٣. منزلة اليقظة، فريد الأنصاري، مؤسسة فريد الأنصاري للأبحاث والدراسات، مكناس، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦.

٣٩٤. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٣٩٥. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٣٩٦. المنهاج في شعب الإيمان، الحسين بن الحسن الحَلِيمي، تحقيق حلمي فودة، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٣٩٧. المنهيات، الحكيم الترمذي، تحقيق محمد عثمان الشخت، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣٩٨. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، المجلد الأول والثاني تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الرابعة، المجلد الثالث تحقيق عبد الله المحارب، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٣٩٩. المواعظ والمجالس، عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق محمد إبراهيم سنبل، دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٤٠٠. الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق مشهور بن حسن، دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧م.

٤٠١. موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، مجموعة من الباحثين، إشراف وطباعة مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٤٠٢. موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، بيت الأفكار الدولية.

٤٠٣. موطأ مالك، مالك بن أنس، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٤٠٤. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.

٤٠٥. موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٤٠٦. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٤٠٧. النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد ابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرىٰ، تصوير دار الكتاب العلمية.

٤٠٨. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمٰن بن

محمد ابن ملُّوح، دار الوسيلة، جدة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٤٠٩. نظرات في التربية الإيمانية، مجدي الهلالي.

٤١٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤١١. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٤١٢. نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، محمد بن علي الحكيم الترمذي، تحقيق عبد الرحمٰن عميرة، دار الجيل، بيروت.

٤١٣. نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ، لابن عباس ﵄، مطبوع ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق أبي مصعب طلعت الحلواني، دار الفاروق الحديثة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٤١٤. نور البصيرة، خالد سعد النجار، مقالة منشورة علىٰ موقع مدار، ٢٧/ ١٠/ ١٤٢٨هـ، ١١/ ٨/ ٢٠٠٧م.

٤١٥. النية والإخلاص، يوسف القرضاوي.

٤١٦. هٰكذا كان الصالحون، خالد عبد الرحمٰن الحسينان، مركز الفجر للإعلام، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٤١٧. هل أنت من المراقبين لله تعالىٰ، أزهري أحمد محمود، دار ابن خزيمة.

٤١٨. الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر ابن قيم

الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن قائد، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الخامسة،١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٤١٩. الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

٤٢٠. الوجل والتوثق بالعمل، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٢١. الوجوه والنظائر، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٤٢٢. وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٤٢٣. الورع، عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد بن حمد الحمود، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٤٢٤. الوسيط في المذهب، محمد بن محمد الغزالي، تحقيق أحمد محمود إبراهيم، محمد محمد تامر، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٢٥. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني الجمل، عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٤٢٦. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ﷺ، علي بن عبد الله السمهودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٤٢٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٤٢٨. الياقوتة= مواعظ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي.

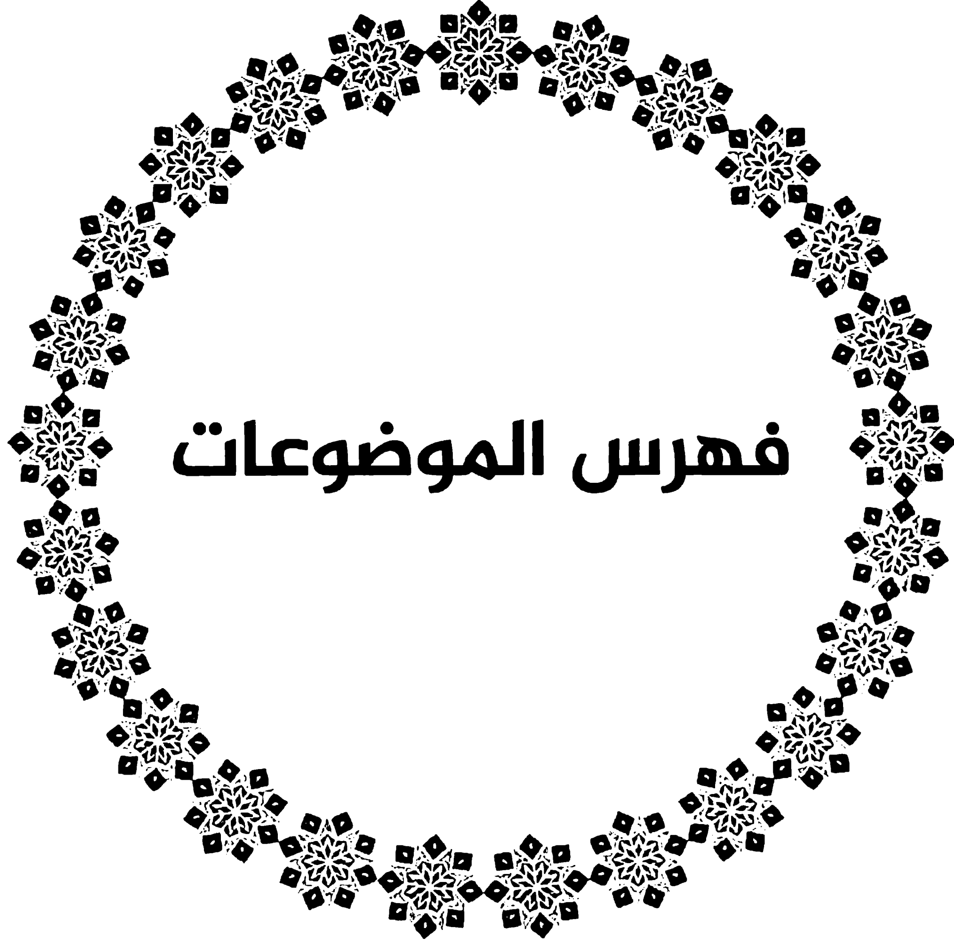
٤٢٩. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٤٣٠. اليقين في القرآن الكريم، وفاء بنت عبد الله الزعاقي، دار الحضارة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.

٤٣١. اليقين، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، تحقيق ياسين محمد السوَّاس، دار البشائر الإسلامية.

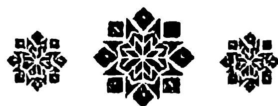


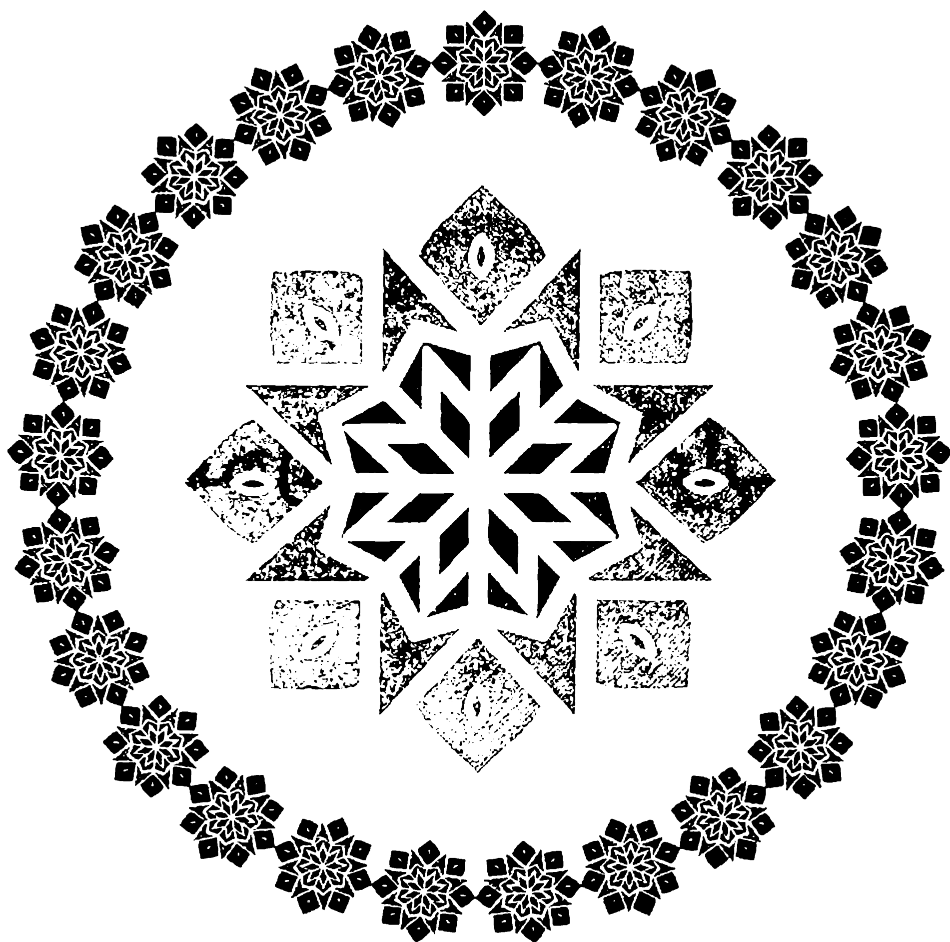




فهرس الموضوعات











فهرس الموضوعات



